أحمد علي اسماعيل علي
ماجستير تاريخ

تاريخ بلاد الشام

في صدر الإسلام والعصر الأموي
دراسة اجتماعية اقتصادية فكرية وعسكرية



المجلد الثالث





أحمد علي اسماعيل علي
ماجستير تاريخ

تاريخ بلاد الشام

دراسة اجتماعية اقتصادية فكرية وعسكرية

المجلد الثالث



المقدمة

تنوعت الحياة ونظمها في المجتمع العربي قبل الإسلام، وساد فيها العادات والتقاليد الفاسدة والصالحة، وسادت فيها التجارة والزراعة والصناعة. وكلنا يعلم تجارة قريش وأهميتها، والزراعة وما كانت تلقاه من عناية من مكان لآخر. والصناعة أيضاً، وإتقانها في بعض الأماكن، والتجارة فيها، رغم أن بعضاً منا يعتقد أن العرب قبل الإسلام كانت تسودهم القبلية، ونسوا ما كان من الممالك العربية في جنوب الجزيرة العربية، ونسوا الغساسنة في سورية، والمناذرة في العراق. أليس لهؤلاء نظم اجتماعية وسياسية واقتصادية وعسكرية، رغم سيطرة الامبرطورية الرومانية والفارسية على المنطقة.

لقد اقتنع بعضنا بأداء المستشرقين حول النظم عند العرب بأنها قبلية بحتة. وبذلك يحجبون مكان العرب ودورهم الحضاري قبل الإسلام. ألم يكن الآراميون والفينيقيون والبابليون والمصريون ذووا حضارة ونظم اجتماعية متطورة في مختلف المجالات. ومع ذلك نذكرهم بالآثار والأوابد التي خلفها العرب في تلك المرحلة، لنعي ذلك، ونرد على المزاعم التي غايتها الإقلال من أهمية العرب في الوقت الحاضر، وجعلهم يخضعون لتلك المزاعم، غايتهم زرع الجهل وهوافت الشعوب لكي يبقى مستغلاً في كافة النواحي. كل الشعوب في الماضي القديم كان لها نظم تختلف من مكان لآخر بعضها متطور وبعضها مختلف والعرب من هذه الشعوب. والفقر والجهل لا يستمران إذا وجدت القيادة والعقيدة وهذا ما حدث عند مبعث النبي العربي الكريم (ص).

كان مبعث الرسول الكريم إنقاذاً للعرب والعروبة لغة وأمة، فكان أول ما دعا إليه هو

الوحدة، وحدة الجماعة، والألفة بينها، إلى وحدة العقيدة التي أرساها وبلغها بإتقان، وأكملها كما جاء من رب العالمين، ولتأكيد هذه الوحدة، دعا الرسول ـ كونه قائد هذه الأمة ـ إلى الإخاء والمحبة، ونبذ الكراهية والحقد والضغائن ففي الإخاء صفاء للنفس، وفي الإخاء التعاون بما يخدم الجميع، وفي الإخاء نبذ الفرقة والتباغض، وفي الإخاء بناء مجتمع يقوم على المثل العليا، وفي الإخاء رفعة المجتمع وسموه نحو المجد في العلاقات الإنسانية.

والإخاء الذي دعا إليه الرسول (ص) كان في كل المجالات. وأولها أنهم إخوة في العقيدة الدينية إخوة في الإسلام تجمعهم كلمة لا إله إلا الله، أي توحيد الله سبحانه وتعالى والإيمان به وبرسوله (ص) وبما جاء به من عند الله. والإيمان بكتاب الله وأنه من عند الله تعالى، وكان الإخاء يعني من الناحية الاقتصادية التعاون والتعاضد. وقد تجسد ذلك في حياة المهاجرين والأنصار بعد الهجرة إلى المدينة من مكة. تجسد في مشاركة المهاجرين للأنصار أرضهم ومساكنهم وزراعتهم فكان في ذلك أعلى درجات التسامح والغيرية والتضحية والفداء.

كان للإخاء الذي أوجده الرسول (ص) ـ من الناحية الاجتماعية ـ أكبر الأثر في تطور المجتمع العربي. فعمل هذا المفهوم على الوحدة والألفة الاجتماعية. عمل على إهدار النظم الاجتماعية الفاسدة التي كانت سائدة قبل ذلك. وفي خطبة الوداع ما يؤكد ذلك، حيث صفت القلوب واطمأنت. في هذا المفهوم وجدت المساواة والتآلف والتقوى ووحدة الكلمة وفي هذا المفهوم، نبذ للتشتت والتفرق. نبذ للعنصرية والتعصب، وأصبح الإخاء في العقيدة أولاً وفي الدم ثانياً. وقد تجلى ذلك من خلال الغزوات والوقائع التي خاضها العرب في عهد الرسول (ص).

تجلى الإخاء في المساواة بين العرب والمسلمين، الذين اعتنقوا الدين بعقيدة راسخة ثابتة متقيدين بتعاليم الرسول، وما أوحي إليه من ربه، حيث أصبح الأفراد متساوين في الحقوق والواجبات لا فرق بينهم إلا بالتقوى. وقد تجلى هذا الإخاء في نبذ العصبية بكل أبعادها القديمة، وحولها إلى إيمان بالمجتمع الجديد القائم على العدالة الاجتماعية. ذلك المجتمع الذي يحظى كل فرد فيه بكامل حقوقه.

إذن تكوّن المجتمع العربي الإسلامي على أسس جديدة، قوامها الفرد. فالفرد في هذا المجتمع ولد حراً، له كافة حقوقه، وعليه الواجبات، الحقوق والواجبات التي تعود عليه كفرد، وعلى

المجتمع، بالخير والبناء والتطور، وكيف لا يكون الفرد في خدمة المجتمع الذي هو أحد أبنائه، وقد أصبح له عقيدة وسياسة، تسمو به وبالمجتمع إلى الأفضل. فهذه العقيدة حررته من كل سلبيات الماضي، حررته من الخوف ومن الجهل. وهما آفتان اجتماعيتان، يجب على أي مجتمع أن يتخلص منهما. وهذا ما حدث للمجتمع الإسلامي.

حرص المجتمع العربي الجديد على الأسرة. فنظم العلاقة بين أفرادها من جهة، وعلاقتها بالمجتمع من جهة أخرى. فحض على التربية والنشأة الصالحة للأبناء، ونظم الزواج، ووضع له الأسس السليمة بما يكفل له الاستمرار، وحدد الحقوق والواجبات الزوجية، وحذر من الآفات الاجتماعية، التي تؤدي إلى الطلاق الذي جعله الله تعالى أبغض الحلال. ورغم ذلك فقد أقر الطلاق وأوضح الأسس التي بموجبها يتم الطلاق. ولم يحرم تعدد الزوجات شريطة العدل بينهن وإلا فواحدة. وكأني في هذا القول أرى أن العدل بين الزوجات بمفاهيمه الفقهية يكاد يكون معدوماً، لذلك فتعدد الزوجات لم يكن قاعدة صالحة للتعميم.

وأرى أيضاً أنه تأكيد على الزوجة الواحدة. وقد حض المجتمع الجديد أيضاً على الزواج وعلى اختيار الزوجة، ووضع الأسس وأكد على مراعاتها كما عمل المجتمع الجديد على تطور الوضع المعاشي والسكني للأسرة. فطورّ العمران وشيد الأبنية الفردية والمنشآت الجماعية والقصور ودور الأمراء، وأقيمت المدن والقرى. كل ذلك ساعد على تطور الحياة الاجتماعية. ونتيجة توسع المجتمع العربي وتطوره، فقد تطورت وسائل ترفيه الإنسان.

فاللباس تطور وتنوع، حيث امتازت الأزياء العربية آنذاك بخصائص، فبعضها كان يميل إلى البساطة وبعضها الآخر امتاز بالفخامة والترف. ونتيجة نطور المجتمع، تطور الغناء وأسسه وأساليبه، كونه ظاهرة اجتماعية وإنسانية قديمة. والمعلوم أن العرب مولعون بفن الغناء، والغناء ينشط الحركة الأدبية لا سيما الشعر. والغناء له تأثير على النفس البشرية في حالات ترحها وفرحها. علماً أن الفقهاء اختلفوا حول موضوع الغناء وذهبوا مذاهب متباينة حول ذلك.

أما الطعام في هذا المجتمع، فتطور أيضاً نتيجة حركة التحرير العربية، وامتداد الأمة على رقعة واسعة، فشملت كل أنواع الأطعمة، وأقيمت المناسبات، سواء في الأعياد أو الولائم أو الزواج ومن ذلك أيضاً طعام الضيف ـ طعام الدعوة ـ طعام الاملاك ـ طعام الولادة ــ طعام الختان وغير ذلك

كما سيرد حتى في الموت أقيمت الولائم. وكـل ذلـك كـان يتناسـب مـع الوضـع المـادي للفـرد أو الأسرة، كل حسب طاقته وإمكانياته. ووجدت آداب الطعام منذ بداية الإسلام و لم يقف الحد عنـد تطور الأطعمة بل تعداها إلى طرق الأطعمة وأدواتها.

وصحب تطور المجتمع العربي الإسلامي تطور اقتصادي واضـح. فالزراعـة تطـورت، وعمـل الإنسـان علـى عمـارة الأرض مـن الناحيـة الزراعيـة. وبتطـور الزراعـة شـقت القنـوات والأنهـار والسواقي، واستخرجت المياه الجوفية واستصلحت الأراضي. كل ذلك عمـل علـى تطـور الزراعـة. وقد أعطى القرآن الكريم أهمية بالغة للظواهر الطبيعية، ودعا الإنسـان إلى الاعتمـاد علـى الملاحظـة للبحث في هذه المواضيع.

ولتطوير الزراعة قسمت الأرض إلى أراضٍ عشرية مملوكة، وقسـمت هـذه الأرض إلى أنـواع أيضاً منها أراضي السلم. والأراضي التي فتحت عنوة وأرض الموات وغيرها وأراضي الذمة. وسميت أرض المصالحة أو الخراجية وأراضي مشاعية وأراضي الصواف، وغيرها كل ذلك ساعد علـى تطـور الزراعة كتطور زراعة الأشجار المثمرة وتنوعها، وحماية النباتات الرعويـة، والمحافظـة علـى الأشـجار ذات النفع والفائدة في مجال الصناعة والبيئة وقد تطورت زراعة الحبوب بأنواعها، كما بذلت عنايـة هامة بزراعة النباتات الصناعية، والاهتمام أيضاً بالثروة الحيوانية وتنويعها، والاستفادة مـن منتجاتهـا وتصنيفها، والاهتمام أيضاً بالثروة السمكية وبالطيور كذلك.

أما من ناحيـة التجـارة، فقـد عمـد المجتمـع الجديـد علـى رعايتهـا وعلـى محاربـة الاحتكـار، والإضرار بالناس، وتحقيق العدالة، وضبط الموازين والمكاييل، والتوجه إلى السماحة في البيع والشراء، ومحاربة المحتكرين، والعمل على زيادة الإنتاج ورفع مستوى الدخـل العـام وعدالـة توزيعـه. وبذلـك وجدت نظرية التوازن الاقتصـادي وتحقيقهـا. مـن ذلـك إقـرار الأمـن والسـلامة. وتوحيـد النشـاط الاقتصادي، كل ذلك بفضل القادة السياسيين الذين تولوا مهمة النشاط الاقتصادي، والذين توفرت فيهم العقيدة والإيمان بالعفة والأمانة ومشاورة أهل الخبرة والرأي.

وعندما ظهرت الدولة وتكونت مؤسساتها، ظهرت الحاجة إلى الوحدة الاقتصادية. فطرحت أثناء ذلك برامج اقتصادية من نتيجتها قضيتان أساسيتان الأولى توفير المواد الضروريـة، كمـا حـدث عند تحرير العراق (أرض السـواد) والثانية: توجيـه الاسـتثمار وتحقـيق التطـور في الدخـل من جـهـة،

وتحسين المستوى المعاشي للأفراد من جهة أخرى.

ولتطور التجارة، فقد اهتم العرب المسلمون بطرق التجارة الداخلية والدولية سواءً البرية أو البحرية، وقد ساعد على ذلك موقع الوطن العربي جغرافياً في قلب العالم، كما تمت السيطرة على العقبات التي تقف حائلاً في وجه التجارة. وكان الاستقرار والأمن من عوامل تطورها وازدهارها، كما ساعدت القوى البحرية العربية على تنشيط حركة التجارة عبر العالم، ووجدت الأسواق الداخلية والخارجية، ووجد التجار القادرون على ممارستها بأصولها. ولم تترك التجارة اعتباطية إنما وضع لها قوانين تحد من احتكارها وقوانين لتصديرها.

وفي مجال الصناعة بقي الصناع العرب بعد الإسلام يزاولون صناعاتهم لكن بحرية وأمان أكثر فتطورت الحرف الصناعية، وتعددت الصناعات، فشملت الصناعات الزراعية والخشبية والنسيجية والأواني الفخارية والزيوت، والصناعات الغذائية وصناعة الزجاج وغير ذلك، وأدى تطور الاقتصاد إلى تطور النقد العربي الإسلامي واستقلاله.

اعتمدت العلوم عند العرب قبل الإسلام على الملاحظة والتجربة المباشرة، حيث كانوا سباقين في حساباتهم التجارية والأعداد المعبر عنها بالأحرف، وأضافوا إلى السلم الفينيقي الحروف العربية وإعطاءها قيماً عددية، وإلى العرب يعود الفضل والسبق في مجال العلوم العقلية، كالاهتمام بالكيمياء والطب والفلك والرياضيات والصيدلة وغيرها، كما اهتم العرب بأسس التربية وعلوم الدين، فأدى ذلك إلى تطور أسس التعليم، فوجدت منذ البداية المساجد والمدارس والندوات والكتاتيب، وذخرت قصور الخلفاء بالندوات التعليمية، واستخدم العرب منذ البدء طرقاً متعددة للعلم، كالحفظ والاستماع والنشر والنقاش والمناظرات والمجالس الأدبية، وعني العرب منذ البداية بميول الطالب الدراسية حسب الظروف المتاحة.

أما في مجال القوات المسلحة، فمن المعلوم أن العرب القدماء وعلى رأسهم المصريون كانوا أول من نظم الجيش، ثم اقتبس البابليون والفرس هذا النظام.

أما عند العرب المسلمين فقد بدأ تنظيم الجيش منذ عصر الرسول (ص) وذلك بوضع استراتيجية جديدة معتمدين في ذلك على قوله تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ ما اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِباطِ

الخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دونِهِمْ لا تَعْلَمونَهُمْ، اللهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبيلِ اللهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لا تُظْلَمونَ﴾[1].

إذن كان أول مبادىء هذه النظرية هي العقيدة الدينية والسياسية، ثم الإعداد البشري والمادي من سلاح ورجال وعتاد، والتدريب على هذا العتاد. والتعبئة العامة لمقدرات الدولة سواءً سياسياً أو عسكرياً أو اقتصادياً أو اجتماعياً أو فكرياً. أي أن هذه الاستراتيجية اعتمدت التنظيم والتهيئة.

ولقد أوجد هذه الاستراتيجية قادة قادرون على السير بها إلى الغاية المرجوة أمام الدولة. فمثلاً استطاع خالد بن الوليد من خلال الوسائل الموضوعة تحت تصرفه وقدرته القيادية المميزة على تعبئة القوات في معركة اليرموك. وقد قاد هذه المعركة إلى غايتها ألا وهو الانتصار، وامتازت الاستراتيجية العربية بأسس طبقتها في حينها، مثل نقل القوى والوسائط من منطقة عمليات إلى أخرى حسب الحاجة، كما عملت القيادة على إمداد القوات من الناحية المادية والاقتصادية وكما اعتمدت الاستراتيجية العسكرية العربية منذ بداية تكوينها على تنفيذ الأهداف الاستراتيجية الرئيسية. أخيراً يمكن القول إن العرب كونوا نظرية عن التعبئة العسكرية منذ بداية تكوينها كانت غايتها الإعداد المطلق للقوات، كوسيلة لخوض الصراع المسلح، والوصول بذلك إلى هدف السياسة. وهذا ما حدث في مجمل المعارك العربية آنذاك.

أي أن نظرية التعبئة عند العرب كانت تعني إعداد القوات وحشدها واستخدامها في مسارح العمليات كوسيلة فعالة للوصول إلى هدف الحرب، وتضمنت نظرية التعبئة العسكرية المعارف والقوانين التي أسسها قائد الأمة الرسول (ص) ومن جاء بعده بأسس وأساليب وأشكال خوض الحرب، وقد جسد الخليفة الثاني عمر بن الخطاب هذه الأمور في تحرير الشام والعراق ومصر وباقي الأراضي العربية وعمل على توحيد الأمة في دولة واحدة كما جسدت الخبرة التي اكتسبها القادة العرب من خلال خوض المعارك وحالة الصراع المسلح الدائم آنذاك وعلى كل الجبهات.

أحمد علي إسماعيل ٧ / ٧ /١٩٩٨

---

[1] سورة الأنفال [٦٠].

الباب الأول

الحياة الاجتماعية

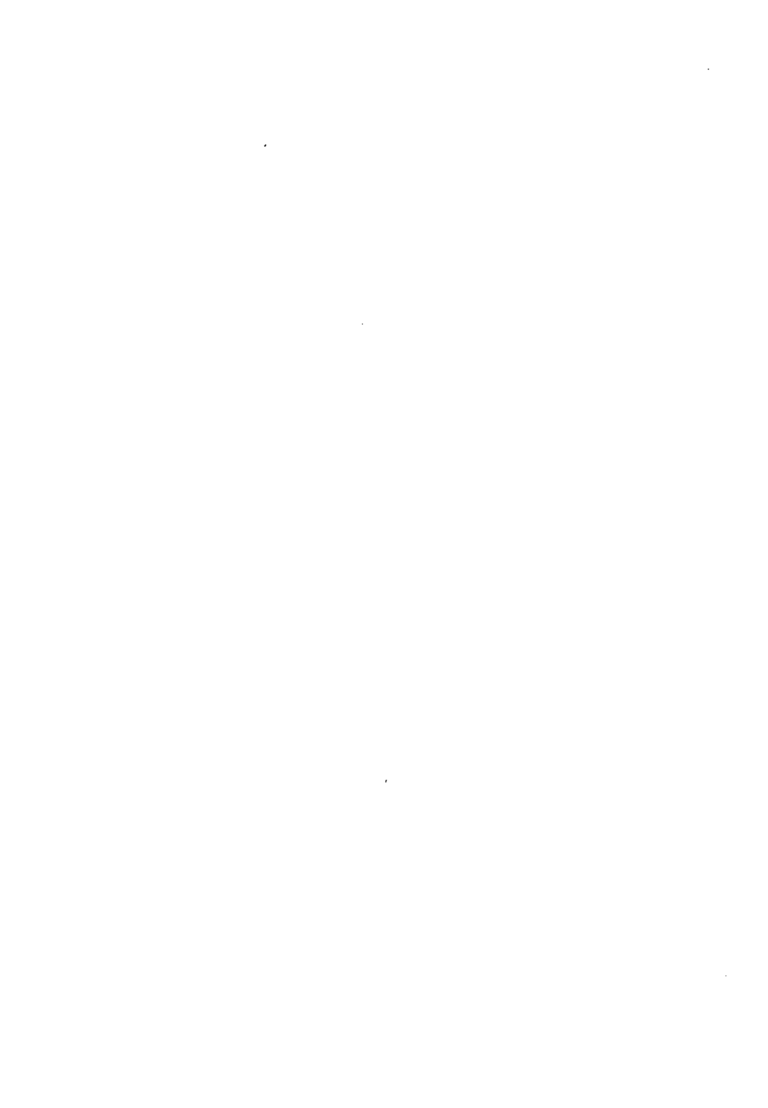
الفصل الأول: الزواج.

الفصل الثاني : الطعام.

الفصل الثالث: الغناء.

الفصل الرابع: اللباس.

الفصل الخامس: العمران.



الفصل الأول

الزواج

- الفرد والمجتمع
- الطبقات الاجتماعية
- الزواج عند العرب قبل الإسلام
- بعض العادات والتقاليد
- الأسرة في الإسلام
- **الزواج في الإسلام:** الوليمة ـ الخطبة ـ آفات الزواج ـ تعدد الزوجات
  الحقوق الزوجية ـ الصفات المرغوبة في الزوجة
  الطلاق



الفصل الأول

الزواج

الفرد والمجتمع: بظهور الإسلام استمد علم الاجتماع العربي مفاهيم جديدة إضافة إلى ما كان سائداً، ولم يغيره الإسلام. والمفاهيم الجديدة هي:

أولاً: توحيد العقيدة: أي الإيمان بالدين الجديد، أي الإجماع عليه، وفي ذلك نقلة اجتماعية نوعية، من حالة المجتمع القبلي المشتت إلى مجتمع متحد، جمعه الإسلام على العقيدة الواحدة.

ثانياً: الشريعة: وفيها تنظيم علاقة الفرد بربه وبأخيه المسلم وغير المسلم، وعلاقته بالكون والحياة.

ومن الميادين التي وضعها النبي العربي محمد (ص) لأمته التآخي[1] حيث آخى منذ البداية بين المهاجرين والأنصار. فكان ذلك الإخاء صلة اجتماعية. فكل منهم كان أخاً للآخر في ا لله والمجتمع في الدم والقرابة. وبذلك جسّد لهم مبدأ التعاون، في كل شيء شرعه لهم. وبذلك تم التجانس، وارتقى المجتمع في مبادئ تكوينه إلى أفضل المجتمعات البشرية آنذاك.

أما مصادر التفكير الاجتماعي بعد ظهور الإسلام، فقد تعددت، وتنوعت. علماً أن الأصل

[1] محمد أبو زهرة - تنظيم الاسلام للمجتمع - طبع القاهرة ١٩٦٥ ص ١٦٢.

كان الكتاب المقدس (القرآن الكريم) والسنة الشريفة. إلا أنه أضيف إليهما فيما بعد مصادر شتى، وكلها مرتبطة بالمصدرين السابقين، لا تخرج عنهما، من حيث المضمون.

المصدر الأول القرآن الكريم: وهو كتاب منزل من الله تعالى: **﴿لا يَأتِيهِ البَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ، وَلاَ مِنْ خَلْفِهِ﴾**[1]، ويعدّ أساس الشريعة وأصلها الأول، وفي القرآن نلاحظ كيفية الحياة في المجتمع في مختلف العلاقات الإنسانية، بما يكفل خيرها وصلاحها، كالعبادات: (صلاة، صوم، زكاة، حج). والمعاملات، سواء على مستوى الفرد أم على مستوى المجتمع، والوقاية من الأمراض الاجتماعية: (القتل، السرقة، الزنا، النفاق، الكذب) وتشريع الأحوال الشخصية ومواقف القتال وغير ذلك.

كما تضمن النص القرآني - إضافة لما ورد - الأحداث التي وقعت في الماضي، والأحوال الاجتماعية لعدد من الأقوام. كأخبار قوم عاد وثمود ولوط ومدين، وتضمنت أيضاً أخبار الرسل قبل الإسلام، والمطلع على ما ورد من خلال النص يلاحظ أنها تناولت بعض الجوانب الخارجة عن حد القيم، ونهي الرسل لشعوبهم عما هم عليه من الفساد، داعين أولاً إلى عبادة الله. يقول الله تعالى على لسان لوط: **﴿يَا قَوْمِ! هَؤُلاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ، فَاتَّقُوا اللهَ في ضَيْفي، أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ﴾**[2].

وكان كل من الأنبياء الوارد ذكرهم في القرآن يطالب قومه، بقوله تعالى على لسان هود **﴿يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ، مَالَكُمْ مِنْ إلهٍ غَيْرُهُ إنْ أَنتُمْ إلاَّ مُفْتَرُونَ. يَا قَوْمِ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إنْ أَجْرِيَ إلاَّ عَلَى الَّذي فَطَرَني أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾**[3]، وقصة أهل مدين مع نبيهم شعيب أيضاً واضحة بقوله لهم: **﴿يَا قَوْمِ! اعْبُدوا اللهَ، مَالَكُمْ مِنْ إلهٍ غَيْرُهُ. وَلاَ تَنْقُصُوا المِكْيالَ وَالمِيزَانَ، إنّي أَراكُمْ بِخَيْرٍ.. وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا المِكْيَالَ وَالمِيزَانَ بِالقِسْطِ، وَلاَ تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ، وَلاَ تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾**[4]، أليس ما ورد أحداثاً اجتماعية في مجتمعات قديمة، حاول الرسل إصلاحها مما لحق بها

---

[1] سورة فصلت الآية ٤٢.

[2] سورة هود - الآية ٧٨.

[3] سورة هود - الآية ٥٠-٥١.

[4] سورة هود الآية ٨٤ - ٨٥.

من فساد اجتماعي؟!

من ناحية أخرى أثبت كتاب الله تعالى الكثير من الحقائق العلمية، والأسرار الكونية. وكل ذلك الغاية منه هداية الناس، وتزيين الإيمان في نفوسهم، مما يجعلهم يرغبون بإقامة مجتمع صالح، تسوده أسس قويمة وسليمة. إذن حض القرآن الفرد على التفكير في الكون، والنظر في ظواهره، وأسراره المختلفة، وحثه أيضاً على تحصيل العلم في جميع ميادين العلوم، وأكد كتاب الله على العلاقات الاجتماعية. فمثلاً نهى الفرد عن الكذب، وحرمه عليه، وحرم الزنا، وحرم القتل، وكلها تؤذي الفرد في علاقاته الاجتماعية. كما نبه إلى أمور أخرى: كالخمر والميسر وأضرارهما الاجتماعية، وأمر بإقامة علاقات اجتماعية متميزة، كالعلاقة الزوجية، والمساواة بين الناس. **وأخيراً:** إن كتاب الله تعالى يعدّ التشريع الوحيد على وجه الأرض، الصالح للاستخدام في كل زمان ومكان، وعند شعوب الأرض كلها دون استثناء.

المصدر الثاني: السنة النبوية الكريمة: قبل أن أبدأ حديثي حول ذلك أذكر أن الله تعالى أكد بأن ما يقوله الرسول هو من عند الله، يوحيه إليه، وأمر بالأخذ به بقوله تعالى: ﴿**وماءاتاكمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ، وَمَا نَهَاكُمْ عَنْه فَانْتَهُوا**﴾[1]. مما ورد نؤكد على أن هذا المصدر مرتبط بالذي سبقه، لا يختلف عنه. إنما كان توضيحاً وتبياناً، كما جاء في القرآن مقترناً بوقائع حياتية اجتماعية ملموسة، كأركان الإسلام الخمسة وكيفية تأديتها، وغير ذلك مما يعود على الفرد والمجتمع بعقيدة واحدة، تعود عليهم بالخير والبركة.

أخيراً اجتهد الباحثون فيما بعد، وأضافوا مصادر أخرى إضافة لما ورد، وهناك اختلاف حول ذلك لست بصددها ولا بتأكيدها أو تتبعها. من هذه المصادر أولاً: الاجتهاد بالرأي، وخاصة فيما يتعلق بالقرآن الكريم، والسنة النبوية، أو ما شابه ذلك. وأنا أعتقد أن النص القرآني الشريف أتى كاملاً متكاملاً، لم يترك شيئاً في الكون إلا عالجه، وكان الرسول (ص) يوضح ما غمض منه، لكي تعم الفائدة الجميع كبيرهم وصغيرهم، وخاصة فيما يتعلق بالعبادات.

ما ورد لا يعني الجمود أبداً، ولقد أمر الله تعالى العباد التعلم والقراءة، والبحث في أسرار

---

[1] سورة الحشر الآية / ٧.

الكون. فالعلم سلطان. يقول الله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ، فَتَكُونَ لَهُم قُلُوبٌ، يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا﴾[1]. وقال: ﴿أَفَلاَ يَنظُرُونَ إِلَى الإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ، وَإِلَى السَّماءِ كَيْفَ رُفِعَتْ، وَإِلَى الجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَت، وَإِلَى الأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَت﴾[2]. وقَوْلُهُ تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّماواتِ وَالأَرْضِ، واخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، وَالفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي البَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ، وَمَا أَنْزَلَ اللهُ مِن السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ، فَأَحْيا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِها، وَبَثَّ فِيها مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ، وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ المُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ والأَرْضِ، لآيَاتٍ لِقَوْمٍ، يَعْقِلُونَ﴾[3].

وقال تعالى: ﴿فَلْيَنْظُرِ الإِنْسَانُ إِلى طَعَامِهِ ـ أَنَّا صَبَبْنَا المَاءَ صَبًّا ـ ثُمَّ شَقَقْنَا الأَرْضَ شَقًّا، فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ـ وَعِنَباً وَقَضْباً ـ وَزَيْتُوناً وَنَخْلاً، وَحَدَائِقَ غُلْباً، وَفَاكِهَةً وَأَبّاً، مَتَاعاً لَكُمْ وَلِأَنْعامِكُمْ﴾[4]. وقال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَ الأَرْضِ وَاخْتِلاَفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوانِكُمْ﴾[5].

امتاز النظام الاجتماعي العربي الإسلامي بالصفة الإنسانية، وبالعمومية الاجتماعية وبالموضوعية، والجاذبية، كما امتاز بالترابط والالتزام. وعلم الاجتماع الإسلامي وجد له مجالاً واسعاً في قضايا الأحوال الشخصية، كالأسرة وطبيعة تشريع الزواج، وأهميته، وحقوقه وواجباته من قبل الطرفين، وتعدد الزوجات، وغير ذلك. كما وجد له مجالاً في الحروب (الجهاد). أي أنه تناول دوافع الحرب، وانتصار العرب، وتحرير أراضيهم وانتشارهم في العالم، وفرض عاداتهم وتقاليدهم، واكتسابهم من هذه الشعوب كل ما يناسبهم.

وأخذ الإسلام يضعف من شأن القبلية، ويحل محلها فكرة الأمة، يقول الله تعالى، جل ذكره: ﴿إِنَّ هٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً، وَأَنَا رَبُّكُمْ، فَاعْبُدُونِ﴾[6]، وبذلك حلّت الرابطة الدينية محل الرابطة

---

[1] سورة الحج الآية / ٤٦.
[2] سورة الغاشية الآية / ١٧ ـ ٢٠.
[3] سورة البقرة الآية / ١٦٤.
[4] سورة عبس الآية / ٢٤ ـ ٣٢.
[5] سورة الروم الآية / ٢٢.
[6] سورة الأنبياء الآية / ٩٢.

القبلية في عملية التوحيد بين أبناء الأمة: بدوها وحضرها، فأخذت القوانين تنتقل من سلطة القبيلة إلى سلطة الدولة، وأخذت القوانين الإسلامية ترث القواعد الاجتماعية، فألغيت الفوارق بين أبناء الأمة، وحل محلها المساواة والإخاء والحب. وبذلك نظمت العلاقة بين فئات المجتمع: غنيها وفقيرها، وترابط أبنائها عضوياً.

كما دعا إلى السلم والسلام، وإلى العدل والرخاء، وإلى التسامح والحرية، وعني بتنظيم العلاقات العامة كالميراث، وتنظيم المعاملات: (التجارة، الصناعة، الزراعة). فللعامل أجرٌ يتقاضاه لقاء عمله، والتاجر لا يستغل، ولا يحتكر سواء في الكيل والميزان، أو في مجال التعامل المالي. وبذلك وضعت القوانين، التي تكفل للناس حياة مستقيمة، قوامها العدالة الاجتماعية.

ونظم الإسلام حقوق المرأة، ورعاها، وردّ إليها حقوقها، التي كانت مسلوبة في الجاهلية، وجعلها كفئاً للرجل، لها ما له من الحقوق والواجبات، بقوله تعالى: ﴿ **وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ**﴾[1]، وقال جل ذكره ﴿**لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبُوا، وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبْنَ**﴾[2]. ومن المعلوم أن المرأة في صدر الإسلام كانت تشارك في الأحداث السياسية للدولة، ولنا من زوج الرسول (ص) عائشة خير مثال. إذن تعاونت المرأة مع الرجل على الخير والبر، وتعاونا معاً لتكوين أسرة صالحة ضمن مجتمع، تسود فيه العدالة والحياة الاجتماعية.

ووضع الإسلام نظاماً في قضايا الزواج، وراعى فيها جميع الحالات التي يمكن أن تطرأ في المجتمعات كافة، فدعا إلى الزواج، وحرم الزنا، وأحلّ الطلاق في أحوال معينة وغير ذلك. إذن الزواج مؤسسة، رعتها الأديان السماوية منذ بدء الخليقة. فهذه المؤسسة لم تقم إلا لبناء حضارة الإنسان وتهذيب أخلاقه وتلطيف طباعه وتنظيم علاقاته بصورة مشروعة. كل ذلك تحاشياً للفوضى والاعتداءات. والزواج - كما هو معلوم - لا يقتصر على الناحية الجسدية فحسب، بل يتعداها إلى النواحي العائلية والاجتماعية والاقتصادية.

إذن الزواج مسؤولية ضخمة، ليس الغاية منها قضاء الشهوة فقط، لأن لكل من الزوجين

---

[1] سورة البقرة الآية / ٢٢٨.

[2] سورة النساء الآية /٢٢.

حقوقاً وواجبات، كل منهما تجاه الآخر، فمهمتهما تكوين الأسرة، وتوجيه الأبناء والإشراف عليهم، ورعايتهم، فهم زينة الحياة الدنيا. إذن جاء الإسلام، فحض على الزواج، ومن الآيات الكريمة الدالة على ذلك قوله تعالى في كتابه العزيز: بسم الله الرحمن الرحيم. **﴿وَأَنْكِحُوا الأَيَامَى مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ، إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللهُ مِن فَضْلِهِ، وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾**[1]. وقوله تعالى: **﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجاً لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾**[2]. وقوله تعالى: **﴿فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلاثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً﴾**[3].

وحض الرسول (ص) على الزواج في أحاديث متعددة. من ذلك قوله: **«النكاح سنتي، فمن أحب فطرتي، فليستن بسنتي»**[4] وقال: **«يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة، فليتزوج. فإنه أغض للبصر، وأحصن للفرج، ومن لم يستطع فليصم. فإن الصوم له وجاء»**[5] وقال: **«من تزوج، فقد أحرز شطر دينه، فليتق الله بشطره الثاني»**[6]. يتضح مما تقدم أن الزواج لا يكون فرضاً واجباً إلا إذا كان الإنسان قادراً على القيام بأعبائه من الناحية المادية والنفسية أي المقدرة المالية على الإنفاق على الزوجة والأولاد، والقدرة الجسدية على تحصين وتأمين الحياة العائلية السعيدة.

والحكمة من الزواج هي: التناسل والعفة والترويح عن النفس، فالتناسل يعني حفظ الجنس البشري من الانقراض، من ذلك كانت المرأة الولود هي المرغوبة، وما زالت، أما العفة فتعني عدم الاعتداء على النساء، لأن الزواج يمنع الشهوة، ويبعد الزلة، وأخيراً من المعلوم أن الإنسان ميال

---

[1] سورة النور الآية / ٣٢.

[2] سورة الروم الآية / ٢١.

[3] سورة النساء الآية / ٣.

[4] محمد مهدي الاستنبولي ـ تحفة العروس أو الزواج الإسلامي السعيد ـ طبع دمشق ـ بدون تاريخ ـ ص٣٤.

[5] البخاري ـ صحيح البخاري ـ تحقيق مصطفى ديب البغا ـ طبع دمشق ١٩٩٣ ـ باب الصوم ـ ١٨٠٦ ـ المجلد الأول ـ ص٦٢٧ ـ المجلد الثالث ـ ٤٧٧٨ ـ ص١٨٢٤.

[6] علاء الدين علي المتقي بن حسام الدين الهنيدي ـ البرهان فوري ـ سنن كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال ـ طبع بيروت ١٩٧٩ـ ج١٦ ـ ٤٤٤٢ ـ ص٢٧٣.

بصورة عامة إلى الترويح عن نفسه من جهة، وإلى التسلية من جهة أخرى، والنفس الإنسانية ميالة إلى التغيير والتجديد، وأكثر الأمور إيناساً للنفس هي المرأة، لأن الزواج يعني اتحاد الزوجين في السراء والضراء. والترويح عن النفس لم يقتصر على معاشرة النساء، بل تعداها إلى أمور أخرى: كالرياضة والسفر ومحاكاة الطبيعة، والرغبات والأسباب، كالعبادة والتجارة، والصناعة، والزراعة، والعلم.

الحرية ترتقي بارتقاء العقل الإنساني، والعكس هو الصحيح ومع ذلك فلا حرية مطلقة إلا ما كان من الله تعالى، أي أن الحرية مقيدة ينظمها العقل فيقررها حسب المقدرات العقلية ونوعيتها، إما خيراً وإما عكس ذلك. فمثلاً خلق الله تعالى الجن والإنس ليعبدوا الله وحده، ومع ذلك انشطر الخلق شطرين. فكان بعضهم مؤمنين وبعضهم الآخر كافرين، وكلا الطرفين المتناقضين كانت حريتهم في الاستجابة ومع ذلك، كانت حريتهم مقيدة من حيث العلم بالعبادة، أي أن الحرية في النتيجة تكون إما خيره وإما شريرة، وكلها في النتيجة تعود على صاحبها، والحرية الفردية قد تعمم مع الزمن فتصبح قانوناً عاماً فمثلاً حادثة القتل الأولى في التاريخ، والتي بدأها قابيل بأخيه هابيل أصبحت قانوناً عند بعض الناس ما زال قائماً حتى الآن، وما زالت البشرية تعاني الويلات من هذا القانون نتيجة الفهم الخاطىء للحرية الفردية.

إذن الحرية تختلف من فرد إلى آخر، فالحرية كانت عند قابيل التمرد على قانون الأخوة الذي يحرم القتل، وقام بالقتل، في الوقت نفسه نرى أن الحرية التي ملكها هابيل كانت الابتعاد عن القتل، واعتماد القانون الإلهي الذي يستبعد القتل ويدعو إلى الألفة والمحبة والتفكير في خلق الله تعالى والإيمان به.

مثال آخر. عندما خلق الله تعالى آدم وحواء، وكانا في جنة الخلد، وقد أمرهما الله تعالى بأن يعيشا حياة رغيدة فيها، على ألا يقربا شجرة حددها لهما، أي أن ينعما في الجنة وأمرهما بالابتعاد عن الشجرة. أي أنهما حران. إلا أن حريتهما لم تكن مطلقة، إنما كانت مقيدة أي بالابتعاد عن الشجرة. ورغم ذلك أرادا أن يكونا حرّين دون تقييد، فكانت النتيجة عكسية، وكان الهبوط، وكان الإنسان عبداً لله من جهة، وهذا خير. وفي هبوطهما إلى الأرض أصبح الناس أعداء بعضهم لبعض.

فاتحدت حريتهم أيضاً فبعضهم ارتبط بالحرية المطلقة، وبعضهم الآخر ارتبط بالحرية التي تأخذه في الدنيا إلى الدنيا.

ويمكن أن نقول إن الإنسان في هذه الحياة مخير بشكل عام في أسلوب حياته وعباداته وقيمه ونشاطاته، وهذا يرتبط بشكل عام بمقدراته العقلية وسلامتها. فإذا وجه هذه النشاطات إلى عقيدة سليمة صالحة، فتكون حريته أقرب إلى الحقيقة. لأن ذلك ينعكس على مجمل حياته، ويعود عليه وعلى المجتمع بالخير. معنى هذا أن الإنسان بشكل عام هو حر. إلا أنه يقيّم نتائج حريته وبهذا تكون الحرية مرتبطة بالنتيجة أي مقيدة بها، فمثلاً بعض اليابانين يقدمون على الانتحار بكامل حريتهم وإقدامهم مرتبط بعقيدتهم التي يؤمنون بها وبأن المنتحر منهم سيعود إلى الحياة الدنيا فوراً.

بالنتيجة لا توجد حرية مطلقة كما ذكرت، إلا ما كان من ا لله تعالى. وأعتقد أن الحرية بشكل عام - وأي حرية - كانت لها أسس وهذه الأسس لها نتائج والنتائج دائماً تكون مستوحاة من عقائد أو تعاليم أو عادات أو أهداف أو آداب أو غير ذلك فمثلاً للإنسان من بين المخلوقات الحق بالانتحار لأنه يملك العقل، وهذا ما يؤكد أن الحرية مرتبطة بالعقل، و لم أسمع أو أقرأ أو أر أحداً من البشر أقدم على الانتحار إلا لغاية ما أو هدف. فالقاعدة تكون الانتحار مرتبط بالهدف.

إذن الحرية مرتبطة بالعقل، وما يكون عند بعض الشعوب صحيحاً وسليماً كونه مرتبط بعقيدة ما - في الوقت نفسه عكس ذلك عند أمة أخرى، فمثلاً الدين المسيحي حرم الطلاق إلا ما كان منه والحرية في التزام هذه القاعدة مرتبطة بالعقيدة التي أوجدت هذا التشريع. على العكس من ذلك عند المسلمين، فالطلاق محلل. رغم أنه أبغض الحلال وهنا الحرية ارتبطت بتشريع أحل الطلاق.

والإسلام ركز على مفهوم الحرية، وحارب الرق، وجعل له سبلاً واضحة للتحرر. والرق في الإسلام كان نتيجة الحروب. فالعرب في حروبهم خيروا خصومهم في اختيار الإسلام كعقيدة أو الجزية أم الحرب فكان للخصم الحرية في اختيار ما يناسبه. ولتحقيق أكبر قدر في تطبيق الحرية، فقد آخى الرسول (ص) بين المهاجرين والأنصار وأن يحب المسلم لأخيه ما يحب لنفسه. وبذلك تكوّن مجتمع كانت فيه حرية الفرد موجودة. إلا أنها كانت مرتبطة بحرية أخيه المسلم أينما كان.

وركز الرسول (ص) على أسس المعاملة السليمة القيمة الواجب اتباعها بين أفراد المجتمع. إذن

يمكن القول: إن الحرب في عهد الرسول (ص) وصلت بين أفراد المجتمع إلى أعلى مرحلة من التطـور والتطبيق وتمييزها عن غيرها من المراحل السابقة بوجود مصادر التشـريع الأساسية (القـرآن الكريـم) والرسول (ص) الذي كان يوحى إليه من ا لله. لذلك كان كل ما يقوم به من الحرية المطلقة.

وهناك ما يؤكد ذلك. وهو أمر ا لله تعالى للناس بأن يأخذوا عن الرسول ما أمرهم به، لأنـه لا يعمل إلا بما يوحى إليه وأن ينتهوا عما ينهى عنه وكل ذلك تعاليم ا لله. ومن الأمثلة التي أمر الرسـول (ص) الناس باتباعها قوله[1]:

- أيها الناس إنما المؤمنون إخوة.
- أيها الناس إن لكم معالم فانتهوا إلى معالمكم.
- ألا أيها الناس توبوا إلى ربكم قبل أن تموتوا.
- وبادروا الأعمال الصالحة قبل أن تشغلوا.
- وصلوا الذي بينكم وبين ربكم.
- أيها الناس إن ربكم واحد.
- أيها الناس إن الشيطان قد يئس أن يعبد في أرضكم هذه.
- أيها الناس إن لنسائكم عليكم حقاً.
- لا يحل لامرىء مال أخيه إلا عن طيب نفس منه.
- أيها الناس إن ا لله قسم لكل وارث نصيبه من الميراث. وهذا غيض من فيض.

بعد الرسول (ص) اختلفت الحريات نسبياً. يؤكد ذلك قول الخليفة الراشـدي الأول أبـو بكـر بعد البيعة مباشرة حيث قال: ((أيها الناس: إني قد وليت عليكم ولست بخيركم، فإن رأيتموني علـى حق فأعينوني، وإن رأيتموني على باطل فسددوني، أطيعوني ما أطعت ا لله فيكم، فـإذا عصيـت فـلا طاعة لي عليكم ألا إن أقواكم عندي الضعيف حتى أخذ الحق له، وأضعفكم عندي القوي حتى أخذ الحق منه))[2]. في هذه الخطبة برنامج عمل مثالي في كافة المجالات من ذلك قوله:

- إني وليت عليكم ولست بخيركم.

---

[1] هذه الأقوال واردة في جمهرة خطب العرب - الجزء الأول.

[2] أحمد زكي صفوت - جمهرة خطب العرب - طبع بيروت - المكتبة العلمية - بدون تاريخ - ج١ - ص١٨٠.

- إن كنت على حق فاعينوني.
- إن كنت على باطل فسددوني.
- أطيعوني ما أطعت الله.
- وإذا عصيت فلا طاعة لي عليكم.

في هذه الخطبة يركز الخليفة على العدالة الاجتماعية والحصول على الحقوق والحرية الفردية والعامة. وفي خطبة أخرى قال: ((أيها الناس: إنما أنا مثلكم، وإني لا أدري لعلكم ستكلفوني ما كان رسول (ص) يطيق، إن الله اصطفى محمد على العالمين، وعصمه من الآفات، وإنما أنا متبع، ولست بمبتدع، فإن استقمت فتابعوني، وإن زغت فقوموني)). وفي هذه الخطبة يكمل الخليفة برنامجه بقوله:
- أنا مثلكم.
- يخاطب الناس بألا يكلفوه ماكان الرسول (ص) يقوم لأن الرسول معصوم.
- ويقول إنما أنا متبع ولست بمبتدع.
- فإن استقمت فتابعوني وإن زغت فقوموني. إلى آخره.

في هذه الخطبة يتابع برنامج عمله، فيحدد مكانه من المجتمع بأنه واحد منهم مثله مثلهم، وبهذا من غير الممكن أن يكلفوه مالا يطيق أي أن يكلفوه أعمال الرسول، فالرسول معصوم وهو متبع لسنة الرسول، وليس بمبتدع. ويعيد قوله: إذا استقمت فتابعوني، وإذا زغت فقوموني، مثل هذا النهج نهج قائد يرغب أن يسير بالمجتمع إلى جادة الصواب، فكان له ما أراد. فاستمرت الحريات، وتطور العلم والأدب، كما تطور الاقتصاد، كل ذلك انعكس على الفرد والمجتمع، وانتهت حياة الخليفة الأول مقتولاً بالسم كما هو معلوم.

وتابعت الدولة مسيرتها وتطورها الاجتماعي، في عهد الخليفة الراشدي عمر، يؤكد ذلك عدالته وسيرته التي انتهجها في حكم الدولة وقد ساعده على ذلك بعض الشدة في تطبيق القانون. ففي عهده تحرر الوطن العربي، واتحد من مشرقه إلى مغربه. ولأول مرة في التاريخ في عهده تحررت بلاد الشام، وتحرر العراق، وتحررت مصر وشمال أفريقية، وأصبح الكل دولة واحدة عاصمتها المدينة المنورة (يثرب) يقودها رجل واحد هو الخليفة عمر بن الخطاب. قانون الدولة واحد، وجيشها واحد، ومؤسساتها واحدة، وعقيدة الدولة واحدة. وخلال عهد الخليفة أحدثت الدواوين، كما

سيرد، وخلال عهده تطورت الزراعة، فاستصلحت الأراضي، وأقيمت السدود والأنهار، وخلال عهده انتشر التعليم، وتطور العمران، وتمصرت المدن، وأنشئت القرى والمعسكرات، وتطورت، ونظمت التجارة الداخلية داخل الدولة العربية الإسلامية، ثم أصبح لهذه الدولة تجارة خارجية منتظمة، وأصبحت صناعات متطورة تتناسب مع العصر. إذن في عهده وجدت قاعدة اقتصادية صلبة، رفدت الدولة بكل مستلزماتها ـ أخيراً انتهى الخليفة الراشدي الثاني عمر بن الخطاب مقتولاً على يد أبي لؤلؤة، بعد أن جعل الأمر شورى في ستة.

ولي عثمان بن عفان الخلافة، واستلم مقاليد الأمور ممهدة، لا تحتاج إلا إلى الاستمرار في النهج. لكن الأمور لم تستمر على ما كانت عليه في عهد سابقه فأخذت أمور الدولة تتغير نسبياً في البداية. وأول الأعمال التي أثرت في حالة الدولة كان جمع القرآن وإحراق النسخ الباقية[1]. فكان لهذا العمل أثره البالغ في نفوس الصحابة والقراء. فأحدث هذا العمل تململاً كبيراً وتحدث فيه الفقهاء الكثير. فهذا العمل لو كان سلمياً، لكان قام به أحد الخلفاء الذين سبقوه.

ومن الأعمال التي أثرت في نفوس الصحابة والفقهاء إبعاد أبي ذر الغفاري الصحابي المشهور الذي كان ينادي بالعدالة والاشتراكية، وإبعاده إلى الشام وشكوى معاوية بن أبي سفيان منه وعودته إلى المدينة، وإبعاده إلى الربذة، وموته فيها وغير ذلك، ومن الأعمال التي أثارت الناس تقريب الخليفة أهله، وتأميرهم، واتخاذ هؤلاء الأمراء مواقف اعتبرها من عاصرهم خروجاً على ما كان سائداً قبل ذلك. من هؤلاء سعيد بن العاص الذي كان أميراً للكوفة حيث قال في اجتماع ضم عداداً من وجوه الكوفة: ((إنما هذا السواد بستان لقريش))[2] فرد عليه الأشتر: ((أتزعم أن السواد الذي أفاءه ا لله علينا بأسيافنا بستان لك ولقومك وا لله ما يزيد أوفاكم فيه نصيباً إلا أن يكون كأحدنا، وتكلم معه القوم))[3]. من هذا الحدث بدأ الناس في العراق يهاجمون الأمير والخليفة كما يذكر الطبري: ((فجعلوا يجلسون في مجالسهم وبيوتهم يشتمون عثمان وسعيد))[4].

---

(1) ابن عساكر ـ تاريخ مدينة دمشق ? تحقيق محب الدين أبي سعيد عمر العمروي ـ طبع بيروت دار الفكر ١٩٩٦ ج٣٩ ص٢٤١.

(2) الطبري ـ تاريخ الرسل والملوك ـ احداث سنة ٣٣ هـ ج٤ص٣٢٣.

(3) المرجع نفسه.

(4) المرجع نفسه.

المهم أن النتيجة كانت مقتل الخليفة عثمان، واعتبر بعضهم ذلك فتنة، والفتنة أشد من القتل. فكيف تلصق الفتنة بمن ألّبوا الناس على قتل الخليفة، ومنهم أم المؤمنين عائشة زوج الرسول (ص) عندما كانت تحرض الناس على قتله وتقول: ((اقتلوا نعثلاً فقد كفر))[1] فهل تعتبر من أهل الفتنة وهي زوجة الرسول (ص) وأم المؤمنين هذا لا يمكن. واشترك عمرو بن العاص في هذه الأحداث، وفي تأليب الناس على الخليفة. يقول: ((أنا أبو عبد الله، إذا حلكت فرصة نكأتها إن كنت لأحرض عليه، حتى أني لأحرض عليه الراعي في غنمه في رأس الجبل))[2]. ومنهم عمار بن ياسر، ذلك الصحابي المشهور، والغني عن التعريف، ومنهم الصحابي الزبير بن العوام، ومنهم الصحابي طلحة، ومنهم محمد بن أبي بكر، ومنهم محمد بن حذيفة، ومنهم عمرو بن بديل بن ورقاء الخزاعي الصحابي المعروف، وغيرهم. هل يجوز أن تلصق بهؤلاء الفتنة. فالخليفة على ما يبدو كان يتأثر بمروان بن الحكم وأفعاله وكان له دور فعال وأساسي في هذه الأحداث. فمثلاً يذكر الطبري أن الخليفة عثمان كان قد أعلن توبته ويذكر الطبري نص التوبة[3] فيثنيه مروان عن ذلك.

الحقيقة أن الإقدام على القتل أمر فظيع ولا يجوز. إلا أني لا أرى في اتهام من أثاروا الناس ضده أصحاب فتنة. وهم يدركون معنى الفتنة. ويجب ألاّ نثير هذه الأحداث ونعطيها صفة الفتنة. وإذا أردنا ذكرها فنذكرها ونبتعد عن هذه الصفات التي تبعث الحقد والتفسخ والكراهية.

وتسلم علي بن أبي طالب السلطة، والدولة في حالة فوضى، والحروب الداخلية في تصاعد. ودامت حتى تسلم معاوية السلطة فأعاد تجميع الدولة من جديد، وبمفاهيم جديدة. فالحريات لم تكن عامة ودليل ذلك ما فعله الولاة أمثال زياد بن أبيه وابنه عبيد الله والحجاج. فمثلاً من أين الحريات والحجاج قتل أكثر من (١٢٠) ألفاً، وخلف في السجون عندما مات (٦٠) ألف سجين؟ أين الحريات، وكانت الجيوش تكره على الحرب، والغاية كبت الحريات. لذلك لم تدم الدولة كثيراً. وانتهت في فترة قصيرة كما هو معروف.

---

[1] الطبري - تاريخ الرسل والملوك - ج٤ - ص٤٥٩.

[2] المرجع نفسه - ج٤ - ص٣٥٧.

[3] المرجع نفسه - ج٤ - ص٣٦١.

الطبقات الاجتماعية:

قبل الإسلام كانت الحياة الاجتماعية حياة قبلية بحتة، حتى ضمن المدينة الواحدة. ففي مكة مثلاً، كانت القبائل القرشية تحتل كل قبيلة فيها حياً مخصصاً. وقد أوجد الجوار بين القبائل نوعاً من الألفة والوحدة، أي أن الانتماء فيها كان قبلياً. ورغم ذلك، وجدت فرص عندهم، تعوض ذلك، هي الأحلاف، كحلف الفضول[1] الذي عقد في بيت عبد الله بن جدعان لشرفه ونسبه، والندوات، التي كانت تقام في دار الندوة، التي بناها قصي بن كلاب[2]، حيث كانت قريش تجتمع فيها للمشاورة في الأمور العامة والخاصة. وهي أول دار بنيت بمكة.

ورغم سيطرة المجتمع القبلي على مجتمع الجزيرة العربية قبل الإسلام، فقد وجدت فوارق طبيعية ضمن القبيلة الواحدة، وتجارة قريش مشهورة، ورد ذكرها في القرآن الكريم بقول الله تعالى: ﴿لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ، إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ﴾[3]. فكانوا يتاجرون مع الشام واليمن والحبشة وغيرها، وكان من أشهر رجالها في التجارة أبو سفيان، وهو معروف. كما عملت النساء بالتجارة، كخديجة بنت خويلد، وهي غنية عن التعريف. من هذا نقول: إن المجتمع كان طبقات، على رأسها طبقة التجار، وطبقة الكهنة، ثم طبقة وسطى، وطبقة فقيرة معدمة، وطبقة الموالي، وغير ذلك، كالعبيد.

وعندما جاء الإسلام بدستوره الجديد، دعا إلى حرية العقيدة، وكرامة الحياة، وحرمة الجوار، والأخوة والتناصر. فشكل بذلك مقومات الدولة على أنقاض القبيلة، إذن تمكن الرسول (ص) من توحيد عرب الجزيرة، وأدخلهم كلهم في الإسلام، إلا أهل الذمة، حيث أقرهم على دينهم، وأوجد السلطتين: التنفيذية والتشريعية، وأقام دولة (أمة) قائمة على المساواة في مختلف الميادين.

---

[1] أبي جعفر محمد بن جرير الطبري ـ تاريخ الطبري ـ تاريخ الرسل والملوك ـ تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ـ طبع دار المعارف بمصر ١٩٦٨ ـ ج٢ ـ ص٢٥٩.

[2] ابن هشام ـ السيرة ـ طبع دار ابن كثير (بدون تاريخ) ـ ج١ ـ ص١٢٥.

[3] سورة قريش الآية / ١.

كما سادت الأخوة أبناء الدولة ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾[1] وأيضاً الحرية حرية العقيدة، وحرية التحرر من العبودية، ودعا إلى التسامح والمحبة. وبذلك أصبحت الدولة وحدة، يتساوى فيها أبناؤها في الحقوق والواجبات. ورغم كل ذلك فقد وجدت فوارق طبقية ابتداء من العصر الراشدي، وخاصة في عهد الخليفة عثمان بن عفان، وما تلاه حتى نهاية العصر الأموي. من ذلك يمكن تقسيم المجتمع إلى: ١ـ طبقة الأشراف، ٢ـ الرقيق، ٣ـ طبقة أهل الذمة، ٤ـ طبقة الموالي.

أولاً ـ طبقة الأشراف: هم الذين ينتمون إلى أسر مالكة أو أمراء أو قواد، وما شابه ذلك، وهذا حال المجتمع العربي قبل الإسلام. لكن الإسلام ألغى الفوارق الطبقية، وأخذ الناس على قدر كفاءتهم وإخلاصهم، وسار الخلفاء الراشدون على هذا النهج، حتى كان عهد الخليفة عثمان بن عفان، حيث تعصب، كما هو معروف لأقربائه[2]، وأغدق عليهم الأموال، وآثرهم بالمناصب، فأصبح الأمويون أصحاب حقوق وامتيازات من ذلك منع القضاء من محاكمتهم[3]، وعدم إقامة الحدود عليهم، وبذلك تمتعوا بملكيات واسعة. وبذلك تشكلت طبقة الحكام كطبقة اجتماعية، وأصبحت على رأس سلم الطبقات. واستمرت هذه الطبقة حتى نهاية العصر الأموي، وبرزت طبقة أخرى هي: طبقة الولاة، وموظفي الدولة الكبار، وتضم هذه الطبقة، الأشراف الذين كان لهم السبب في تكوين الدولة، ومن هؤلاء زياد بن أبيه، والحجاج بن يوسف، وبشر بن أبي أرطأة، والمغيرة بن شعبة، وآل المهلب.

ثانياً: طبقة الرقيق: عندما جاء الإسلام، لم يحرم الرق بشكل عام. وإنما دعا إلى العتق، وأوصى بالعبيد خيراً، وأوجب لهم الحقوق، وحرم استرقاق المسلمين رجالاً كانوا أم نساء، كما منع استرقاق العرب، ولو كانوا غير مسلمين، وحرم استرقاق المعاهدين أو غير المحاربين، فما هي إذن مصادر الرقيق عند الإسلام؟ كانت المصادر هي الحرب. وأبناء الرقيق يبقون أرقاء مثل آبائهم بالإضافة إلى شراء الرقيق من الخارج.

---

[1] سورة الحجرات الآية / ١٠.

[2] ابن عساكر ـ تاريخ مدينة دمشق ـ طبع بيروت ١٩٩٦ ـ ج٣٩ ـ ص٣١٤.

[3] منير العجلاني ـ عبقرية الإسلام في أصول الحكم ـ طبع دمشق بدون تاريخ ـ ص٥٨.

وللرقيق في الإسلام حقوق منها: العتق. فالنبي (ص) كان يشتري العبد، ويعتقه. و لم يكتف بذلك، بل رغّبَ المسلمين في العتق، بأنه كفارة عن القتل الخطأ، وعن يمين الظهار، وعن الحلف، وغير ذلك، ومن الحقوق الأخرى للعبد حق الحياة بتحريم القتل، وحق الحصانة الجسدية، أي عدم إيذائه جسدياً، وله حق الحصانة العائلية وحق النفقة، والرفق، وله حقوق أخرى: كحق التعليم، وممارسة الأعمال، التي يسمح له سيده القيام بها.

أما أنواع الرقيق، من حيث الشكل، فكان نوعين: الأول: الرقيق الأسود، وكان يستخدم في أحط أنواع الخدمة، أما الرقيق الأبيض: فكان أقرب إلى القلوب، ثمنه أعلى من سابقه وأما الإماء من هذا النوع، فكان لهن منزلة رفيعة، واستمرت عادة التسري بالجواري في الإسلام.

ثالثاً: أهل الذمة: المقصود بأهل الذمة[1] (اليهود والنصارى) والمجوس والصابئة والسامرة، ما خلا نصارى بني تغلب وأهل نجران[2]، لأنهم عرب. وسموا بذلك لأن النبي أعطاهم الأمان والذمة. ومنذ البداية كان النبي (ص) قد شرط على من رفض الإسلام الجزية مقابل حمايتهم، وكف الأذى عنهم، وشرط عليهم اشتراكهم في حروب الأعداء، كل ذلك تطبيقاً لقوله تعالى:

﴿لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾[3] ، أي أن الإسلام بصفائه ونقائه، كان بعيداً عن التعصب والقيود، كالذي نلاحظه عند غيرهم من الشعوب المعاصرة.

إذن كان أهل الذمة أحراراً في إقامة شعائرهم الدينية، وشغلوا وظائف كبيرة في الدولة. فأبو موسى الأشعري والي البصرة في عهد الخليفة عمر بن الخطاب، كان قد استخدم أحد أهل الذمة كاتباً له، كما استعمل معاوية على ديوان الخراج سرجون بن منصور[4] ، وهو من أهل الذمة، كما استعمل ابن أثال على ديوان خراج حمص[5]، ويحق لأهل الذمة أن يكونوا وزراء تنفيذ، أي أنه

---

[1] أبو يوسف يعقوب بن إبراهيم - كتاب الخراج - طبع بيروت - ١٩٧٩م - ص: ١٢٢.

[2] نجران في مخاليف اليمن من ناحية مكة - معجم البلدان - لياقوت الحموي - ج٥ - ص٢٦٦.

[3] سورة البقرة الآية / ٢٥٦.

[4] الطبري - تاريخه - ج٥ - ص٣٣٠ - ٣٣١.

[5] المرجع نفسه - ج٥ - ص٢٢٧ - وحمص بين دمشق وحلب في نصف الطريق - ياقوت الحموي - المعجم - ج٢ - ص٣٠٢.

يجوز أن يكون هذا الوزير من أهل الذمة، وإن لم يكن وزير التفويض منهم[1].

رابعاً: طبقة الموالي: انقسم الولاء عند العرب قبل الإسلام إلى أقسام منها:

أولاً: ولاء القرابة، ويدل على صلة القرابة بين أفراد القبيلة، والتي تنبثق من الدم.

ثانياً: ولاء الحلف: وكان أكثر أشكال الولاء شيوعاً والحلف: هو اتفاق أو عقد، يصل بين أطراف، يقرون فيه التعاون، والنصرة فيما بينهم[2]. وأسباب الحلف كانت سياسة اقتصادية واجتماعية. ومن الأحلاف المشهورة حلف الفضول، حلف المطيبين، وغيرهما، وأدت الأحلاف إلى اندماج الجماعات المتحالفة في بطون من حالفتها، وعرفت بنسب حلفائها، وساعدت هذه الأحلاف على تكوين المؤسسات، أو حكومات مركزية، وساعد هذا على التخفيف من حدة القبيلة.

ثالثاً: ولاء الجوار، وهو حماية طرف لطرف آخر من خلال الإقامة معه، خوفاً من أمر يهدد وجود هذه الطرف، أو حياته. إلا أن الجوار كان مؤقتاً.

رابعاً: ولاء العتاقة. أخيراً عرف العرب الرقيق كغيرهم، وكانت مصادر العبودية عندهم تأتي عن طريق السبي والتحارة. والأسواق أيضاً كانت محطات لبيع الرقيق، وعندما يعتق العبد أو الرقيق، كان يتبع مولاه.

أما في الإسلام فكان الولاء:

أولاً: ولاء بالعقيدة، حيث تمكن الرسول (ص) من تجاوز ولاء الحلف إلى ولاء العقيدة في الجماعة الإسلامية. لذا أطلق لفظة أمة على هذه الجماعة لتمييزها عن القبيلة، وجاء الولاء للعقيدة تدريجياً.

ثانياً: ولاء العتاقة: استمر هذا الولاء من قبل الإسلام إلى الإسلام، وكان يقال للعبد، الذي يحصل على حريته عن طريق العتق: ولي نعمته، أو مولى عتقه[3]، ويذكر الطبري في أحداث السنة

---

[1] علي بن محمد بن حبيب البصري الماوردي ـ الأحكام السلطانية والولايات الدينية ـ طبع مصر ١٩٧٨م ـ ص٢٨.

[2] منير العجلاني ـ عبقرية الإسلام في أصول الحكم ـ ص٣٤.

[3] ابن سعد ـ طبقات ابن سعد ـ ١طبع بيروت (دار صادر) ـ بدون تاريخ ـ ج ٥ ـ ص٢٤٤.

العاشرة موالي رسول الله (ص) منهم[1]: زيد بن حارثة، وابنه أسامة، وثوبان مولى رسول الله (ص) وسلمان الفارسي، وسفينة (فارسي)، وشقران (من الحبشة)، وأبو كبشه، وغيرهم وكلهم أعتقهم.

أما الأوضاع الاقتصادية للموالي، فكانت الحرف اليدوية والأعمال التجارية من اختصاص الموالي. ومن الأعمال التي كان الموالي يمارسونها الحياكة، والصياغة، والحدادة، والتجارة، والبناء، وعمل الأحذية، والدباغة، والعطور، والحلاقة، والطبابة، والفخار، وغيرها. ومارسوا الأعمال التجارية، كتجارة الأقمشة والطعام والعطور، والزيوت، والحبوب، بكافة أنواعها، والحيوانات. وكان الموالي التجار يرافقون الجيوش للأعمال التجارية.

أما العلاقات الاقتصادية بين العرب والموالي، فكانت قائمة على مبدأ التعاون بينهما فالمولى أحياناً كان يتاجر لنفسه، ولمولاه العربي، أي أنهما كانا يشتركان بالتجارة، والفائدة مشتركة. وعمل الموالي على امتلاك الأراضي، وأصبح لبعضهم ضياع وقرى.

ومارس الموالي الوظائف الحكومية: منها العمل في الدواوين، حتى أنه لم يفرض عليهم أن يسلموا ومن الموالي الذين تولوا وظائف في الديوان (سرجون بن منصور الرومي)، الذي كان على ديوان الخراج في الشام منذ أيام معاوية - وكان على خراج حمص (ابن أثال) في عهد معاوية[2] - وكان على ديوان حمص في عهد هشام بن عبد الملك (ابن أسطين)[3].

واشتغل الموالي كتاباً شخصيين لمواليهم، أو خزنة، وعملوا كتبة يرافقون الجيوش، وعملوا في ديوان الخاتم والرسائل، وعملوا في الحراسة والحجابة، حتى وصلوا إلى حجابة الخلفاء والأمراء، حيث ذكر: أن الحرس المخصص للخلفاء والولاة كان من الموالي. فمثلاً كان حرسُ يزيد بن معاوية (سعيداً) مولى كلب، وعملوا في الشرطة، وعمل الموالي وراقين ينسخون الكتب، ويتاجرون بها[4].

وعملوا معلمين في المكاتب، واستعملهم الأمويون في تربية أبنائهم ورعايتهم، وعملوا في مهنة

---

[1] الطبري - تاريخ الرسل والملوك - ج٣ - ص١٦٩ ومابعدها.

[2] المرجع نفسه - ج٥ - ص٢٢٧.

[3] الجهشياري - محمد بن عبدوس - كتاب الوزراء والكتاب - تحقيق مصطفى السقا - إبراهيم الابياري - عبد الحفيظ الشلبي - طبع القاهرة - ١٩٢٨ - ص .

[4] ابن قتيبة - المعارف - طبع مصر - الهيئة المصرية العامة ١٩٩٢ - ص٤٧٠.

الغناء والموسيقى وتعليمها، وتولوا البريد، ومنهم من عمل مشرفاً على مراقبة الأسواق والأسعار، ووظفوا في بيوت الأموال وغير ذلك، وشاركوا العرب الجندية والقتال، ورابطوا في الثغور، وسجلوا في دواوين الجند. إلا أنه احتفظ بديوان خاص بهم في العصر الأموي. وأخذوا العطاء، وامتلك الموالي أيضاً موالي. أما إقامتهم، فلم تكن إجبارية في مكان محدد، إنما كان للموالي حرية اختيار السكن[1].

الزواج عند العرب قبل الإسلام:

كانت العلاقات الجنسية لدى الشعوب البدائية غير مقيدة بقانون، يحددها، ولا روابط، تحكمها. فالإباحية إحدى مظاهر الحياة الاجتماعية لتلك المرحلة. لأن الزوجة كانت ملكاً للرجل، من حقه أن يتخلى عنها، متى شاء، أو يهبها، أو يعيرها لسواه، أو يبيعها، إلى غير ذلك.. إذن كان الرجل البدائي لا يجد غرابة في أن يطأ أقرب المقربين إليه. ولم يكن للفضيلة والعفة أي دور في حياته. لقد مارست الشعوب القديمة علاقات جنسية، لا تمت للإنسانية بصلة. فمثلاً أباح الفينيقيون والفرس زواج الأب بابنته، والأم بابنها، والأخت من أخيها، كما أباح المصريون واليونان زواج الأخت بأخيها، وأباح الحثيون نكاح الابن من زوجة أبيه.

لكن حرمت بعض الشعوب الأخرى ـ كالبابليين ـــ زواج الأب من ابنته، والأم من ابنها، وعوقب على ذلك مرتكبها وحرم عندهم الزنا، وحرم العبرانيون زواج الخال بابنة الأخت، والعم بابنة أخيه. أما الرومان، فكانت الحياة الجنسية عندهم طليقة، خالية من كل قيد. لكن كانوا يرغبون بالزواج من فتاةٍ بكرٍ، وكانوا ينشدون العفة لإنجاب أطفال ذوي نسب أصيل، وحرموا الزنا، وعوقب عليه بالقتل وخاصة عند الطبقة الحاكمة.

لكن مع تقدم الزمن، وتطور الإنسان، وتمدنه واستقراره، عرفت الشعوب الروابط الأسرية، وانبعث الشعور بالحب والغيرة، وبدأ مفهوم الزواج يتدرج في تطوره، إلى أن اتخذ أسلوباً قوامه إجراء مراسيم معينة، لإعلان رابطة الزواج، ووجدت العفة والفضيلة والغيرة طريقها إلى هذه الرابطة المقدسة.

---

[1] جمال حودة ـ الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية للموالي في صدر الإسلام ـ طبع عمان ١٩٨٩م ـ ص١٤٧.

ومن آراء الباحثين بالتاريخ القديم في مجال الأسرة والزواج، وماله علاقة بذلك، يلاحظ أن المرأة تختلف عن الرجل درجة. إلا أنها لا تقف على قدم المساواة معه، سواء من حيث فرص العمل، أو من حيث الأجر، ومن الملاحظ في كل المجتمعات البشرية أن المرأة لا تزال أكثر تخلفاً من الرجل في كل المجالات، وخاصة في مجال التعليم، وكان ينظر إليها على أنها أقل منزلة من الرجل في الإسهام بتقدم الحضارة.

ففي مملكة يمحاض (حلب)[1] في القرن الثامن عشر قبل الميلاد، كانت مراسيم الزواج — عند الأسر المالكة النبيلة - تتم في بيت العروس، وكانت المرأة تضع الغطاء على رأسها. كما عرفت مملكة يمحاض الطلاق[2]، وعلامته إقدام الزوج على خلع معطف زوجته، أو تمزيقه بحضور شهود، ويقال: إنه كان للمرأة عندهم مثل هذا الحق، وكان الزوجان يقيمان معاً في بيت واحد، وشاع عندهم تعدد الزوجات. أما مهمة الزوجة، فكانت الإشراف على تربية أطفالها، ومعالجة المرضى والعمل بالتجارة لحسابها الخاص، وكان لها حق الملكية والإرث.

أما في ايبلا[3]، فكان سكانها نوعين، الأول: أبناء ايبلا، وهم المواطنون الأصليون، الثاني: الأجانب وكان الأجانب فيها نوعين، إما ضيوفاً من الأحرار والكهنة والتجار، وإما مرتزقة من سجناء وعبيد. وكان المرتزقة عماد جيش ايبلا، وكان للمرأة دور بارز في مجال الإنتاج، وخاصة النسيج الذي كان يصدر إلى أسواق الشرق الأدنى، ونلاحظ أن الألواح المكتشفة في ايبلا، تشير إلى أن مدناً قدّمت بمنزلة مهر للزواج. من ذلك أن مدينة مسكنه (ايمار) على الفرات، كانت قد أهديت إلى إحدى أميرات إيبلا، كمهر لزواجها، مما يؤكد أهمية المرأة التي هي على درجة عالية في السلم الاجتماعي. وتذكر هذه الألواح: أن المرأة كانت مساوية للرجل في السلطة وفي المجتمع والمناسبات الدينية.

وعند الأكاديين[4]، كان الرجل إذا تزوج بامرأة دون سؤال أبيها وأمها، ولم يقم وليمة

---

[1] قضية جند قنسرين - ياقوت الحموي - معجم البلدان - ج٢ - ص٢٨٢ - وهي في الوقت الحاضر إحدى المحافظات السورية تقع في شمال سورية.

[2] مجلة الدراسات التاريخية - جامعة دمشق - طبع دمشق ١٩٨٧م - العددان (٢٧ - ٢٨) ص١١٥.

[3] أحمد علي - تاريخ بلاد الشام القديم - المجلد الأول - طبع دمشق ١٩٩٨ - ص .

[4] وديع بشور - سورية وقصة الحضارة - طبع لبنان ١٩٨٩ - ج ١ - ص١٣١.

ليلة الزفاف، ولم يكتب عقداً مع أبيها وأمها، لا تكون هذه المرأة زوجة شرعية. أما إذا أقام وليمة ليلة الزفاف، وكتب العقد مع ولي الزوجة، ودفع المهر، ووقع عليه، فإنها تعد زوجة شرعية. وحرم الزنا عند الأكاديين، وعوقب الزاني بالموت. ومن عاداتهم إذا خطف الرجل في حرب أو غارة، وأخذ أسيراً، وبقي بعيداً عن أسرته مدة طويلة، وتزوج رجل آخر زوجته، وولدت له طفلاً، فله الحق باسترجاعها، عندما يحرر من أسره، ويعود إلى وطنه. أما إذا هرب الرجل من بلده لسبب ما، وتزوج رجل آخر زوجته، فلا يحق له استعادتها.

كانت الأسرة تقوم على دعامة متينة من الزواج الأحادي، فلم يسمح للرجل أن يتزوج بأكثر من امرأة واحدة، لكن مع تطور الحضارة، أبيح للرجل التسري بأكثر من واحدة[1]. وكان الزواج يعتمد على عقد مدون، يحدد فيه الزواج - أمام شهود - حقوق الزوجة والتزاماتها، وللزوجة الحق في أن تحتفظ لنفسها بما يقدم لها بعد الزواج من المهر والهدايا وغيرها، ولها وحدها أن تقرر من يرثها بعد وفاتها. وحقوقها على أولادها مماثلة لحقوق زوجها، وفي بعض الحالات كانت تقوم بالأعمال التجارية، وتدير المزارع والبيت. وكانت تسمو إلى منزلة الملكة. لكن ليس دائماً فعلى العموم، كان الرجل هو السيد المسيطر في الأزمات، ونساء الطبقات العليا كن يحيين حياة مترفة، والاتفاق على الزواج كان يتم بين ذوي العروسين، ثم يشرع بالخطوبة، ويحدد المهر (تيرهاتو)، إلا أن تحديده لم يكن فرضاً ملزماً بالضرورة.

أما عند السومريين، فكانت الوحدة العائلية هي الأسرة، والأهل هم الذين يرتبون الزواج، وتصبح الخطبة قطعية، عندما يقدم العريس هدية لوالد العروس. ويمكن الطلاق لعدة أسباب منها: إذا كانت المرأة عاقراً، وللأهل السلطة المطلقة على الأولاد. فلهم الحق ببيعهم عبيداً، إذا شاؤوا ذلك. أما سكنهم فكان بيتاً عادياً مبنياً من الطوب من طابق واحد، وبعض البيوت تبنى من طابقين، وكان يوجد تحت البيت مقبرة للعائلة.

وأما السكان فكانوا من الأحرار والعبيد. لكن العبيد كانوا قلة، ودورهم ليس هاماً في الحياة العامة. ومصدر العبيد إما من أسرى الحرب، وإما من المواطنين الفقراء، وحقوق العبيد في المجتمع السومري، كانت واسعة. فلهم الحق في العمل، واقتراض المال، وشراء العتق، والزواج من امرأة

---

[1] دول بورت - بلاد ما بين النهرين - حضارة بابل وآشور - ترجمة مارون خوري - ص٨٢.

حرة، فيكون أبناؤها أحراراً. أما الأحـرار فكـان يسـمح لهـم بملكيـة البيـوت ومحتوياتهـا وحدائقهـا والحيوانات الداجنة، كالحمير والغنم والماعز والحلي كالفضة والذهب، وجميع السكان عندهم كانوا تحت تصرف المعبد. لذلك كان الجميع يساهمون في بنائه، وفي التحصينات، وحفر الأقنية والمشاريع الكبرى.

أما عند العرب الآشوريين، فالنصوص الآشـورية المتعلقـة بالأسـرة تشـير إلى أن الـزواج كـان مسألة خاصة، لا تتدخل السلطات العامة فيها. وكان لعقد الزواج أهمية خاصة، حيث كان ينظـم، ويسجل أمام شاهدين، والابنة تزوج من قبل والدها، وكان العريس يصب العطر والزيت على رأس الخطيبة، ثم يقدم لها المهر والحلي والأحذية. والخطوبة لا تفسـخ إلا إذا مـات الخطيـب، ففـي هـذه الحالة كان على أحد إخوته الزواج منها، وفي العقد كانت تحدد الالتزامات المترتبة على المرأة.

وتذكر بعض النصوص الآشورية، أن الزواج كان يتـم أحيانـاً بطريـق البيـع والشـراء، وكـان يحظر على الزوجة الحرة الخروج من بيتها، وهي مكشوفة الرأس، وكانت الفتيات يغطين رؤوسـهنّ تمييزاً لهن عن عذارى الهيكل والبغايا والإماء. أما العشـيقة (الخليلـة)، فـلا يسـمح لهـا بـالخروج مـن البيت، ورأسها مغطى. فإذا أراد الرجل أن يرفع من مقامها إلى مقـام الزوجـة، وضـع الخمـار على رأسها في حضرة خمسة شهود أو أكثر. وبذلك يكون قد أعلن زواجـه منهـا. ثـم إن الطـلاق كـان موجوداً لديهم وشجع الآشوريون الإكثار من النسل، وعاقبت قوانينهم على الإجهاض. كمـا كـان الزوج يفقد زوجته، عندما كان يغتصب إحدى الفتيـات، وعـرف عندهـم التبـني والتركـة لـلأولاد الشرعيين.

أما عند العرب البابليين، فقد عـالجت قوانـين حمورابـي الأمـور المتعلقـة بالأسـرة، كـالزواج، وحقوق الأولاد، والزوجة، والتبني، والخطوبـة، والمهـر، ومـا ينتـج عنهـا مـن مخالفـات، تـؤدي إلى العقوبة، والحقوق الزوجية والطلاق، وغير ذلك. وشريعة حمورابي يمكن العودة إليهـا، لتبيـين ذلـك وتوضيحه. وكان المجتمع عندهم مقسماً إلى ثلاث طبقات، الأولى: طبقات الأحرار والنبـلاء، ولهـم حق الملكية والسلطة، وعتق العبيد وغير ذلك. الثانية: المواطنون العاديون، وهم أحرار إلا أنهم أدنـى مرتبة من سابقيهم. الثالثة: العبيد أو الخدم. ولهم أيضاً حق التملك، وهم أسرى حرب، وهـم أدنـى الطبقات الثلاثة.

وفي المجتمع البابلي كان الأهل هم الذين يرتبون عملية الزواج. فيدفع والد العريس المهر، ويقدم والد العروس الجهاز، وكل زواج عندهم كان يرتبط بعقد. وإذا لم يرتبط بعقد، فقد شرعيته. وعرف البابليون الطلاق. وكانت سيطرة الأب على الأسرة مطلقة، وله الحق في أن يؤجر عمل أبنائه أو يبيعهم، وأن يعطي البنات زوجات لمن أراد دون مهر. وحرم البابليون الزنا، وعقوبته عندهم كانت الموت غرقاً.

وعند العرب المصريين، نلاحظ دور المرأة بأنها كانت تتزوج من أخيها أو من أبيها. وهذه العادة كانت سائدة عند سائر المصريين من ملوكهم إلى العامة. وتعدد الزوجات كان موجوداً عندهم، والمرأة المصرية - كما تشير الوثائق المكتشفة ــ كانت تحتل مركز الصدارة، كأن تكون ملكة. كما كان المصريون يتحدثون عن الشؤون الجنسية بصراحة. وكانت المرأة سيدة لها مطلق الصلاحية في بيتها. وكان الرجل يطيعها، وفي بعض الأحيان يخضع لها، وكذلك كان للمرأة دور مهم في الحياة الاجتماعية، وتشير الوثائق إلى تقديرها واحترامها، وترسم صورة عن مساواتها للرجل في كثير من الأمور. إلا أنها مع الزمن، أخذت تفقد استقلالها بالتدريج.

وعند الحثيين، عرف المجتمع ثلاث طبقات، **أولاً ــ طبقة النبلاء**: وهم عصب القوة العسكرية، وكانت سلطتهم مطلقة. **وثانياً - طبقة الحرفيين**: من بنائين ونساجين ودباغين وفخارين وحدادين. **والثالثة - العبيد والرعاة**: ولهم أن يتزوجوا من الأحرار. إلا أنهم كانوا في الدرك الأسفل لسلم الطبقات الاجتماعية. أما النظام العائلي عندهم، فكان يقوم على سلطة الأب في أماكن، وفي مناطق أخرى يقوم على سلطة الأم. وعاداتهم شبيهة بتقاليد البابليين في الزواج. فالزواج كان يرافقه المهر، ووالد العروس يقدم الجهاز. كما حرم الحثّيون الزنا بعد الزواج وعقوبته الموت، كما حرموا الزواج من الأقارب، كحرمة زواج الأم والبنت من الرجل نفسه كما حرموا الزواج من زوجة الابن، ومن زوجة الأخ ما دام حياً، ومن أم الزوجة وأختها وابنتها. إلا أنهم كانوا يرثون زوجات الأب بعد موته. وهذا الزواج كان يضمن للمرأة حياة كريمة، ويصون للأسرة شرفها واستقرارها حسب الأعراف السائدة عندهم.

ذكرنا أن المجتمع العربي قبل الإسلام قام على العصبية القبلية. والأسرة في هذا المجتمع هي صورة مصغرة للحياة الاجتماعية، والزواج أيضاً كان من الأمور التابعة والمرتبطة بالعشيرة. لكن

عندما جاء الإسلام كقانون، عمد إلى خلق مجتمع جديد. إلا أنه لم يلغ الماضي، إنما عمل على خلق ظروف، تزول فيها الولاءات القبلية والعصبيات والتكتلات، وحررها من القديم، وجعلها مرتبطة بالولاء للنظام الجديد، وعمل على نبذ المعتقدات القديمة، والإيمان بالرب الواحد، ودعا إلى طاعة الوالدين.

كانت حياة العرب قبل الإسلام قبلية، حيث تألفت القبيلة من ثلاث طبقات[1]، **الأولى:** طبقة أبناء القبيلة، الذين تربط بينهم رابطة الدم والنسب، وهم عمادها. **الثانية:** طبقة العبيد، وهم رقيق، قدموا من الدول المجاورة. **الثالثة:** طبقة الموالي، وهم العتقاء، ويدخل فيهم الخلعاء، الذين خلعتهم قبيلتهم، ونفتهم عنها لكثرة جرائمهم. وعندما يستجير الخليع بقبيلة أخرى، وتقبل إجارته يصبح من واجبه الوفاء بجميع حقوقها، ومن هؤلاء الخلعاء طائفة الصعاليك.

كان أفراد القبيلة متضامنين حريصين على الشرف والمروءة، ومن صفاتهم الشجاعة والفروسية والحلم والكرم والوفاء، وحماية الجار، وسعة الصدر، وإغاثة الملهوف، والعفو عند المقدرة، وحماية الضيف. ومن صفاتهم الأخرى: الأنفة، وعزة النفس وإباء الضيم، وأكثرها شهرة الكرم. فمن عاداتهم أنهم كانوا يوقدون النار ليلاً في الأماكن العالية، ليهتدي إليها التائهون والضالون، فيكرموهم.

وأشهر من اشتهر في مجال الكرم حاتم الطائي، الذي ضربت به الأمثال، وهو أكبر من أن يعرف في هذا المجال. ومن أشهر حكماء العرب في الجاهلية أكثم بن صيفي وعامر بن الظرب، اللذان تجاوزت شهرتهما حدود قبيلتيهما. وكان لمجتمع الجاهلية آفات اجتماعية لها دور هدام، مثل: الخمر والقمار واستباحة النساء وقانون الأخذ بالثأر، تلك العادات التي حرمها الإسلام. أما العلاقات الجنسية والروابط الأسرية عند العرب قبل الإسلام، فلقد سادت عندهم عادات وتقاليد، بعضها أصيل، وبعضها الآخر موروث من الشعوب الأخرى، التي خالطوها.

بعض العادات والتقاليد عند عرب الجاهلية:

كان الرجل في الجاهلية إذا بلغت إبله المائة، عمد إلى البعير الذي اكتملت به، غلف ظهره أي

[1] شوقي ضيف ـ العصر الجاهلي ـ طبع دار المعارف مصر ١٩٧٦ ـ ص٦٧.

ينزع سناسن فقرته، ويعقر سنامه، لئلا يركب. فإذا بلغت إبله الألف، أخذ الذي اكتملت به الألف، ففقأ إحدى عينيه. فإذا زادت على الألف، عموه، أي فقئت عينه الثانية. والغاية من ذلك كان حسب اعتقادهم يدفع العين[1] والغارة وكان الرجل إذا أراد سفراً، عمد إلى شجرة، فعقد غصناً من أغصانها بآخر. فإن رجع ورآه معقوداً زعم أن أمرأته لم تخنه، وإن رآه محلولاً زعم أنها خانته. وزعم العرب أيضاً أن الإبل إذا أصابها العسر[2] أخذوا الصحيح، وكووه، زال المرض عن السقيم. وزعموا أن المرأة إذا أحبت رجلاً، وأحبها، ثم لم تشق عليه رداءه، أو يشق عليها برقعها، فسد الحب بينهما. ويزعمون أن الغلام، إذا أثغر، فرمى سنه في عين الشمس بسبابته وإبهامه وقال: (أبدليني بها أحسن، ولتكن إياءك: أي ضوءك وشعاعك فيها) أمن على أسنانه من العوج والقلح.

ويزعمون أن الرجل إذا خدرت رجله، فذكر أحب الناس عليه يذهب عنه الخدر. كما زعموا أن الإنسان إذا قتل، ولم يطلب بثأره، خرج من رأسه طائر، يسمى الهامة، وصاح على قبره اسقوني. ويزعمون أن الحرقص (دويبة أكبر من البرغوث) إذا دخل إحراج الأبكار (فروجهن) يفتضها. وكانت العواهر ينصبن على أبواب بيوتهن رايات، ليعرفن بها. ومن شتائمهنّ يا بن ذات الراية. وكانوا يجعلون الدم في المصران، ويلقونه على النار، ثم يأكلونه. وإذا أسروا رجلاً، ثم منوا عليه وأطلقوه، جزوا ناصيته، ووضعوها في الكنانة. ويقولون: إن الكلاب إذا نبحت دل ذلك على الخصب، ويزعمون أن للسلوان خرزة إذا حكها العاشق بماء، وشرب ما يخرج منها، سلا، وصبر.

ومن عاداتهم أن الناقة إذا أنجبت خمسة أبطن، عمدوا إلى الخامس ما لم يكن ذكراً فشقوا أذنها. فتلك البحيرة، والبحيرة لا يجز لها وبر، ولا يحمل عليها شيء، وكانت ألبانها ومنافعها للرجال. ومن عاداتهم أن الشاة إذا وضعت سبعة أبطن، عمدوا إلى السابع. فإذا كان ذكراً ذبح، وإن كانت أنثى تركت. فإن كان ذكراً وأنثى، قيل: وصلت أخاها، وكانت منافعها للرجال دون النساء. وكان الفحل إذا ركب أولاده، فصار ولده جداً قالوا: أحمى ظهره، وتركوه، فلا يحمل عليه، ولا يركب، ولا يمنع ماءً، ولا مرعى. ومن عاداتهم: الميسر والأزلام، التي حرمها الإسلام

---

[1] البغدادي - خزانة الأدب تحقيق عبد السلام هارون - طبع القاهرة ١٩٦٨ - ج ٢ - ص: ٤٦٢ - القلقشندي - بلوغ الأدب - ج٢ - ص: ٣٠٦ - ابن سعيد الأندلسي - نشوة الطرب - ج٢ - ص٧٨٤.

[2] قرح يأخذ الإبل في مشافرها وأطرافها، شبيه بالقرع.

بقوله تعالى: ﴿إنّما الخَمْرُ وَالمَيْسِرُ وَالأنصابُ وَالأزْلامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطانِ، فَاجْتَنِبوهُ﴾[1].

وكان الرجل إذا مات قام أكبر أولاده، فألقى ثوبه على امرأة أبيه، فورث نكاحها. فحرم الإسلام هذه العادة بقوله تعالى: ﴿يا أيُّها الَّذينَ آمنوا لا يَحِلُّ لكُمْ أنْ تَرِثوا النِّساءَ كَرْهاً وَلا تَعْضُلوهُنَّ﴾[2]. ومن عاداتهم أيضاً إشعال النيران لمناسبات مختلفة منها:

نيران الاستسقاء: وتكون إذا ما تتابعت الأزمات، واشتد الجدب، اجتمع أفراد القبائل، وجمعوا ما قدروا عليه من البقر، ثم أخذوا في أذنابها وبين عراقيبها السلع والعشر، ثم صعدوا بها إلى جبل وعر، وأشعلوا فيها النار، وضجوا بالدعاء والتضرع.

نار التحالف: وكانت توقد عند التحالف، يعقدون عندها حلفهم، ويدعون على ناقض العهد، ويهولون أمرها، قال أوس بن حجر[3]:

إِذا استقبلَتْهُ الشمسُ صَدّ بوَجهِهِ ... كما صَدَّ عَنْ نارِ المُهوِّلِ حالِفُ

نار الطرد: كانت توقد خلف المسافر والزائر اللذين لا يحبون رجوعهما، يقولون في الدعاء: أبعدهما الله وسحقهما.

نار القرى: وكان يضرمها الجواد في الليل كله حتى في ليالي الشتاء، ليستدل بها الأضياف.

نار الإياب: وتوقد للقادم من السفر سالماً قال عدي بن زيد[4]:

يا لُبينَى أوقِدِي النَّارَا ... إنَّ مَنْ تَهْوَيْنَ قَدْ حَارَا

ونيران أخرى **كنار العار** وغيرها.

أخيراً: كان لعرب الجاهلية نوعان من النساء، **أولاً: الأمة أو الإماء:** وهن كثيرات. منهن العاهرات اللاتي يضربن على المزهر وغيره في حوانيت الخمارين، ومنهن الجواري، وعملهن خدمة الشريفات، وبعضهن رعي الإبل والغنم، وإذا نكحت إحداهن وولدت، لم ينسب المولود إلى أبيه،

---

[1] سورة المائدة الآية / ٩٠.

[2] سورة النساء الآية / ١٩.

[3] ديوان أوس بن حجر ـ تحقيق محمد يوسف نجم ـ طبع دار صادر ـ ص٦٩.

[4] أبي الفرج الأصفهاني ـ تحقيق عبد الأمير مهنا ـ سمير جابر وغيرهم ـ الأغاني ـ طبع بيروت ١٩٩٢ ـ ج٢ ـ ص١٤٠.

إلا إذا أظهر أحدهم بطولة وفروسية، كما عرف عن عنترة بن شداد. **ثانياً ـ الحرة**: ومن مهامها تحضير الطعام، ونسج الثياب، وإصلاح الخباء، يساعدهن الجواري، وكان لهن منزلة رفيعة. فلهن الحق في اختيار أزواجهن، ولهن الحق بالطلاق، إذا لم يحسن الرجل معاملتهن، وبعضهنّ كن يحمين من يستجير بهنّ، ويعدن له حريته، كما فعلت فكيهة مع السليك بن السلكة[1]، حين وقع أسيراً في يد عشيرتها من بني الأعور.

وأكثر ما كان يثير عرب الجاهلية سبي نسائهم[2] الشريفات. وهذا عار، ليس فوقه عندهم عار. وللمرأة في الجاهلية دور هام في الحياة العامة، فكن يصاحبن قبائلهن في الحرب، يشددن من عزائمهم بما ينشدنه من أناشيد الحماسة، وكان لجمال المرأة الجسدي أثر كبير، كما كان لجمالها المعنوي، وما تتحلى به من شيم وخصال كريمة أثر كبير في حياتها اليومية. إذن المرأة في الجاهلية لم تكن مهملة، بل كان لها احترامها وتقديرها، ولها حريتها بأن تملك، وتتصرف كما تشاء.

من المعلوم أن من نتائج الحرب قتلى وجرحى وأسرى حرب وسبايا. وكان العرب في حروبهم وغزواتهم أحرص على الأسر والسبي من حرصهم على الغنائم. لأن في الأسر والسبي إذلالاً وقهراً للعدو، ولهم مآرب أخرى في السبايا. فهم يبادلون بها أسراهم، إذا كان لهم أسرى عند عدوهم، أو يأخذون فداءهم، ويستخدمون الأسرى والسبايا في العمل عبيداً، ويتزوجون السبايا بغير صداق، يستولدونهن، وكان استخلاص السبايا عند العرب مجداً وإنقاذاً لشرف القبيلة.

والروابط الزوجية كانت مزاجية غير دقيقة، لكن مع ذلك كان للمرأة شأن وقيمة. إلا أن المرأة كانت أقل من الرجل بدرجات، وحتى كانت تعدّ: لا قيمة لها، وأحياناً أخرى يرونها شؤماً وتوؤد. وأول قبيلة وأدت من العرب كانت قبيلة ربيعه. وكان الشائع بالزواج أن الرجل هو الذي يختار المرأة لا العكس، لكن المرأة كانت حرة في اختيار زوجها، مع العلم أن دور الوالدين كان مهماً، وأن حق ابن العم كان مقدماً على غيره، أي أنه كان باستطاعته حجزها، إذا رغب بالزواج منها.

---

[1] الأصفهاني ـ الأغاني ـ ج٢٠ ـ ص٣٩٧.

[2] أحمد محمد الحوفي ـ المرأة في الشعر الجاهلي ـ طبع بيروت ١٩٦٠ ـ ص٤٦٧.

والزواج عند العرب نوعان: أولاً - زواج داخلي: يعبر عن الاحتفاظ بوحدة القبيلة وتماسكها. **والثاني - زواج خارجي**: يعبر عن تطلعات القبيلة لتجديد قوتها عن طريق الخارج. وفي كلا الحالتين كان الزوج يبحث عن النسب[1] وعن المنبت الحسن، أي النسب العربي الأصيل، والذي كان عنصراً أساسياً في الزواج. وكان الزوج يبحث عن الكفاءة، وعرف عندهم الطلاق، وكان للمرأة حريتها كما هي عند الرجل. إلا أن ذلك لم يكن قاعدة، فبعضهم كان يتخذ المرأة كسلعة رغم حريتها، ونهى عن الزواج بالجمع بين الأختين، أما عن الزواج، فكان على أنواع متعددة منها:

أولاً - الزواج العادي: وهو الشائع، وكان يسبق بالخطوبة، ويحدد المهر، الذي يعد من متممات الخطبة، والمهر يختلف حسب مكانة الزوج، فقد يصل إلى مائة وخمسين ناقة عند ذوي اليسار والشرف منهم، ويتم العرس باحتفال في بيت أهل العروسين، ثم تحمل العروس بموكب إلى بيت زوجها. وهناك تذبح الذبائح، وتولم الولائم، والعروس كانت تتزين، وتجمل، وتخضب، حيث كان للماشطة دور هام في تزيينها.

ثانياً - زواج المتعة: وهو زواج لأجل معلوم ولمدة معينة، وقد يكون لأجل غير محدود، وكان يرافق هذا الزواج اتفاق (اقتصادي) تستفيد منه المرأة فقط، وكان يحصل في الحروب والأسفار، والأولاد في هذا الزواج ينسبون إلى الأم[2].

ثالثاً - زواج الاستبضاع: وقد يكون بإرسال الرجل زوجته (بعد أن تطهر من طمثها) إلى رجل آخر معروف موصوف بالشجاعة والقوة والذكاء والجاه، فتمارس معه الجنس. وفي هذه الحالة لن يقربها زوجها إلا بعد أن يحصل لها الحمل، علماً أن هذا الزواج كان معروفاً عند شعوب كثيرة كاليونان وغيرهم.

رابعاً - زواج البدل[3]: كان يتم تبادل رجلين لزوجتيهما.

---

[1] ليلى صباغ - المرأة في التاريخ العربي - طبع دمشق - ١٩٧٥ - ص.١٤٠.

[2] الأصفهاني - الأغاني - ج١ - هامش ٢ - ص ٢١.

[3] المرجع نفسه - ص٢١.

خامساً ـ نكاح الشغار: وهذا الزواج بدون مهر، وقد يكون هذا الزواج في حال تزوج رجلين، كل منهما بأخت الآخر أو ابنته أو وليته.

سادساً ـ زواج الرهط: وهو أن يتقاسم رهط من الرجال (دون العشرة) معاشرة امرأة برضى واتفاق مسبق بينهم وبينها. فإذا ولدت ذكراً كان ابنها ينسب إلى من تحب، فلا يستطيع التنصل من الاعتراف به، وإذا كانت أنثى، فتنسبها الأم إلى نفسها مخافة أن توؤد. وبعض نساء هذا النوع عرفن بأنهن كن صاحبات رايات، أي كن ينصبن رايات على أبواب مساكنهن من أجل البغاء، وبعضهم يفصل بين زواج الرهط وبين صاحبات الرايات. وقد شاع تعدد الأزواج للمرأة الواحدة، فكان الإخوة يشتركون في زوجة واحدة، يتناوبون عليها. فإذا دخل عليها أحدهم ترك عصاه على الباب، كعلامة لوجوده معها، فإذا فرغ أخذ عصاه، ورحل، فيدخل غيره، ويفعل فعله وهكذا.

سابعاً ـ زواج الضيزن (المقت)[1]: كأن يتزوج الابن بامرأة أبيه، إذا ما طلقها، أو مات عنها. فالمولود في هذه الحالة، يسمى: المقيت. إلا أنه لم يكن عاماً، وشاع تعدد الزوجات لرجل واحد.

ثامناً ـ نكاح الخدن: ويكون الرجل في هذا الزواج صديقاً للمرأة دون عقد زواج ولا نكاح شرعي، والمعاشرة في هذا الزواج تكون إما سرية، أو معلنة، وفي الحالة الأخيرة تقيم الزوجة معه في بيت واحد، وتحرم المرأة في مثل هذا الزواج معاشرة غيره، وقد حرم هذا الزواج منذ بداية الإسلام.

وأهم **الأعراف** التي كانت سائدة آنذاك هي: أن الرجل كان سيد الأسرة فمثلاً كان يملك حق تأديب زوجته وضربها. إلا أن الضرب كان غير مستحب، ولم يكن من شيم العرب، حتى أن المرأة السيدة لم تكن تقبل الضرب، وتأباه. ومن الأعراف تعدد الزوجات والطلاق والمخالعة والظهار والإيلاء (كأن يقسم بترك زوجته لمدة معلومة، وهو أشبه بطلاق مؤجل) ومن الأعراف الأخرى أن الحب (الحب العذري) كان محرماً أي أن الغزل والتشبب بالمرأة كان محرماً.

وعرفوا أيضاً الحجاب، وهو إلقاء القناع على الوجه، إذا غادرت المرأة بيتها لبعض شؤونها، والحجاب كان يخضع للتغيير والتبديل، كما اهتموا بجودة النسل، وعرفوا الختان، وعرفوا التبني،

---

[1] الأصفهاني ـ الأغاني ـ ج١ ـ هامش ٢ ـ ص٢١.

وكان شائعاً، وعرفوا الإرث، وكانوا يحرمون علاقة المرأة بمحارمهـا، والزواج ببعض المحارم كـان موجوداً، وحرم عندهم زواج الأحرار بالعبيد، والعبيد كانوا سلعة، تبـاع وتشـترى، وعرفـوا العتـق أيضاً. إلا أن كل ماورد لم يكن قاعدة عامة طبقها الجميع.

أخيراً: كانت المرأة على أشكال وطبقات مختلفة في كافة الميـادين. فمنهن من كانـت الملكة، ومنهن من كانت العبدة، والأمثلة كثيرة، وتاريخ المرأة العربيـة المصريـة، يؤكـد ذلـك، ومـن ناحيـة أخرى أوردت الكتب السماوية نوعين من النساء، **الأول:** هي المرأة المثاليـة المؤمنـة كمريـم العـذراء وآسية بنت مزاحم، وهما معروفتـان وغنيتـان عـن التعريـف بصفائهمـا ونقائهمـا، قـال ا لله تعـالى: **﴿وَضَرَبَ ا للهُ مَثَلاً لِلَّذينَ آمَنوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ، إِذْ قالَتْ رَبِّ ابْنِ لي عِنْدَكَ بَيْتاً في الجَنَّـةِ، وَنَجِّني مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ، وَنَجِّني مِنَ القَوْمِ الظّالِمينَ، وَمَرْيَمَ ابْنتَ عِمْرانَ الَّتي أَحْصَنَتْ فَرْجَهـا، فَنَفَخْنـا فيهِ مِنْ روحِنا، وَصَدَّقَتْ بِكَلِماتِ رَبِّها وَكُتُبِهِ، وَكانَتْ مِنَ الْقانِتينَ﴾**[1].

أما النوع الثاني: فهي المرأة العبدة، التي لفظها الواقع والحياة، وقـد ذكرهـا القـرآن الكريـم كامرأتي لوط ونوح، قال تعالى: **﴿ضَرَبَ ا للهُ مَثَلاً لِلَّذينَ كَفَرُوا امْرَأتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كانَتـا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبادِنَا صالِحَيْنِ فَخانَتاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيا عَنْهُما مِنَ ا للهِ شَيْئاً وَقِيلَ ادْخُـلاَ النّـارَ مَـعَ الدّاخِلِينَ﴾**[2].

الأسرة في الإسلام:

إن الأسرة عند العرب قبـل الإسـلام كـانت في معناهـا صـورة مصغـرة للحيـاة الاجتماعيـة، وكانت متداخلة مع التقسيمات المعهودة للقبيلة. إذن كان الزواج مـن الشـؤون المرتبطـة بالعشـيرة. وعندما جاء الإسلام بتشريعه القويم الرامي إلى خلق مجتمع عربي جديد، يحل محل القبلي القديـم، لم يعمد إلى نسف مرتكزات المجتمع وثقافته وعاداته. إنما راعى الأوضاع القائمـة، والأنظمـة السـائدة، والأعراف المتحكمة. وبذلك قام مجتمع جديد، يتفق مع المرحلـة الجديـدة مـن جهـة، وينسـجم مـع التطورات، ومع ظروف التغيير من جهة أخـرى. وعمـد التشـريع الإسـلامي منـذ البدايـة إلى طـرح قواعد ومبادئ تشريعية، غايتها خلق ظروف، تزول فيها الولاءات والعصبيات القبلية أي التحرر من

[1] سورة التحريم الآية / ١١ ـ ١٢.

[2] سورة التحريم الآية / ١٠.

الولاء القبلي، والارتباط بالولاء بالنظام الجديد، وعمل وشدد على الاهتمام برابطة الأسرة، كنواة أولى[1]، لبناء مجتمع متكامل اجتماعياً وفكرياً.

ونصت الشريعة الإسلامية على الإيمان با لله، ودعت إلى طاعة الوالدين، وإلى تمتين العلاقات داخل الأسرة والمجتمع، وإلى حسن العلاقة بين أفراد الأسرة، وخاصة الزوجين، لكن مصادر التشريع الإسلامية، كانت عرضة لخلاف الفقهاء في تفسيرها، وحتى أنها لم تسلم من السلطات السياسية وتفسيراتها، حسب مقتضيات الحاجة لديهم، كوضع أحاديث كثيرة، نسبت إلى الرسول (ص)، اعتباراً من صدر الإسلام، فما بعده. ومع ذلك فالمصادر الإسلامية (القرآن ـ السنة)، اهتمت بتكريم المرأة، ودعت إلى إصلاحها وتطورها، ونُبذت بعض الأعراف والتقاليد الموجودة، والعائدة بالضرر للجميع.

فمثلاً دعت إلى إبطال موقف الرجل من ولادة الأنثى ووأدها، والتي كانت سائدة قبل الإسلام، وحرمتها، ودعت إلى المساواة بين الرجل والمرأة في الحقوق والواجبات، كل على قدره، ولكن المفسرين للنصوص اختلفوا حول ذلك، وأوجدوا آراء مختلفة حول هذا الموضوع. وساوى الإسلام بين الرجل والمرأة في التعليم، والزواج بأن سمح لكلا طرفي الزواج باختيار شريكه في الحياة، دون إجبار أو قيد، كما سمح للمرأة بأن تشترك في الحياة العامة. ولتأكيد ذلك، كانت المرأة المسلمة كالرجل يعتد برأيها حتى في المبايعة وفي كل الأمور العامة، فالمرأة شاركت في الحروب، وجاهدت، وهاجرت، وحاربت، وأدت الصلاة والصيام، والزكاة، والحج، وقالت الأدب نثره وشعره، أي أن لكل من الجنسين قدره واستطاعته.

أما من الناحية الروحية والمقدرة العقلية والجسدية، فقد أكد أن المرأة أقل من الرجل فمن الناحية العقلية أكدت النصوص القرآنية، أن شهادة الرجل بشهادة امرأتين. قال ا لله تعالى: **﴿وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ، فَإِنْ لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ، فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ، أَن تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الأُخْرَى﴾**[2]، أي أن المرأة أكثر نسياناً وأكثر تيهاً من الرجل. كما قدَّم الرجل على المرأة في نصوص كثيرة. ففي العبادة لا يحق للمرأة أن تصلي أو تصوم،

---

[1] سعيد عبد الحميد مرسي ـ الفرد والمجتمع في الإسلام ـ طبع مصر ١٩٨٩ ـ ص١٩٣.

[2] سورة البقرة الآية / ٢٨٢.

وهي حائض[1]. وبذلك فهي أقل درجة من الرجل. كما نص على أن للرجل ضعف ما للمرأة من الميراث[2]، قال ا لله تعالى: ﴿يُوصِيكُمُ ا للهُ فِي أَوْلاَدِكُمْ، لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأُنْثَيَيْنِ﴾[3]، وأكدت النصوص القرآنية: بأن المرأة أقل من الرجل في مجالات شتى قال تعالى: ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ، بِمَا فَضَّلَ ا للهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ، وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ﴾[4].

والمرأة يجب أن تخاطب زوجها على أنه سيدها. فامرأة العزيز في سورة يوسف (زليخة) تؤكد ذلك. والقصة معروفة. قال ا لله تعالى: ﴿وَاسْتَبَقَا البَابَ، وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ، وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا الْبَابِ، قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءاً إِلاَّ أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[5]. كما حث الحديث المرأة على طاعة الرجل، من ذلك قول الرسول (ص): «**لو كنت آمر أحداً أن يسجد لغير ا لله لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها، والذي نفس محمد بيده، لا تؤدي المرأة حق زوجها، ولو سألها نفسها، وهي على قتب، لم تمنعه**»[6].

أما عن العلاقة الجنسية بين الزوجين، فأكد على مبدأ شرعيتها (كالزواج) وأكد على اعتزال المرأة في المحيض، والعلاقة الجنسية سمح بها للزوجين ليلاً ونهاراً إلاّ في شهر رمضان، فحددها ليلاً، قال ا لله تعالى: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ، هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ، عَلِمَ ا للهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ، فَتَابَ عَلَيْكُم، وَعَفَا عَنْكُم، فَالآنَ بَاشِرُوهُنَّ، وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ ا للهُ لَكُمْ﴾[7]. كما حرم الجماع في المساجد وفي الحج، قال ا لله تعالى: ﴿الحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ، فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الحَجَّ فَلاَ رَفَثَ وَلاَ فُسُوقَ وَلاَ جِدَالَ فِي الحَجِّ﴾[8].

تذكر بعض المصادر أن القيود ـ وخاصة الاجتماعية والدينية ـ كانت خاصة بالمرأة، كما أكدَّ

---

[1] الإمام علي ـ نهج البلاغة ـ تحقيق صبحي الصالح ـ طبع إيران ١٤١٢ هـ ـ ص١٠٦.

[2] المرجع نفسه ـ ص١٠٦.

[3] سورة النساء الآية / ١١.

[4] سورة النساء الآية / ٣٤.

[5] سورة يوسف الآية / ٢٥.

[6] سنن ابن ماجة ـ ج١ ـ ص٢٩١.

[7] سورة البقرة الآية / ١٨٧.

[8] سورة البقرة الآية / ١٩٧.

أن المجتمع العربي آنذاك كان مجتمعاً ذكورياً. والحقيقة غير ذلك، فالذي فرض على المرأة فرض على الرجل، فقد ذكر الله تعالى الرجل إلى جانب المرأة كقوله ﴿المؤمنين والمؤمنات﴾[1] وغير ذلك. وكثيراً ما يرد هذا في كتاب الله عزّ وجلّ، وخاصة في سورة النساء.

أما إذا قيل: لماذا لا تحسب شهادة امرأتين إلا بشهادة رجل واحد؟ فقد ذكر السبب بأن تضل إحداهما، فتذكرها الأخرى، وهذه حقيقة، فالمرأة كانت ـ وما زالت ـ عاطفية، تقضي أكثر وقتها في معالجة أمور بيتها وأولادها، وأمور أخرى، تجعلها أكثر عرضة للنسيان من الرجل، وقد تكون بنيتها الفيزيولوجية مكونة على أساس أنها أقل من الرجل، وخاصة القدرة البدنية والقدرة على النسيان، وما ارتبط بذلك.

وقد يقول قائل: إن الكثير من النساء تفوق الرجال، حتى في مختلف المجالات، نردّ فنقول: هذا صحيح، ليس المقصود مما ورد الرجل الذي يكون سليم العقل والجسم، إنما يقصد الرجل المؤمن القوي الذي يفوق المرأة التي تحمل مواصفاته، لأن لكل منهما تركيباً بتريولوجياً يختلف عن الآخر. فالقوة البدنية للرجل تفوق المرأة، وقدرته على تحمل الأعمال الشاقة بشكل عام أكثر منها أيضاً، وأقدر على تحمل أعباء المسؤولية بكافة أشكالها وألوانها. ثم إن المرأة تؤثر بها عاطفتها، وتعمل بها في بعض الأحيان أكثر مما تعمل بعقلها. واهتمامها بالأمور الجمالية الخاصة بها، هي في مجمل الأمر أكثر من الرجل، كما أن المرأة تبحث عن نفسها أكثر من الرجل، أي أنها أنانية أكثر، ثم إن الرجل ـ بشكل عام ـ هو أشد وفاء وفروسية من المرأة. والمرأة أكثر خوفاً من الرجل، وأقل هيبة.

ما ورد لا ينقص من حق المرأة لذوي العقول، فالمرأة هي الأم وهي الابنة وهي الأخت وهي الزوجة وهي نصف المجتمع في كل مكان، والشريك الأول للرجل في بناء المجتمع، وهي العنصر الآخر، الذي لولاها لما كانت هذه الحياة، كما هي. وبالنتيجة لابد للأسرة من قائد، وهو الرجل، ولابد للدولة من ولي الأمر، وهو الرجل في معظم الحالات. وهكذا دواليك، ثم إن المرأة في الشروحات والتفسيرات الكثيرة والمتباينة للشرع الإسلامي، جُعلت دون الرجل في كل الحالات، ثم إن الممارسات التي طبقت على المرأة من خلال ذلك جعلتها أسيرة أعراف وتقاليد جديدة، كما سنرى.

---

[1] سورة الأحزاب الآية / ١٣٥.

فمثلاً الحجاب الذي كان سائداً قبل الإسلام أبقى عليه الإسلام، لكن ليس كما نراه، وقد كثر فيه الجدل والنقاش، فقد فهمه بعضهم على أنه استقرار للمرأة في البيت، والمبالغة في ذلك، وكان دليلاً يشرف المرأة وعنواناً للأدب والأصالة، وقال بعضهم الآخر: إن المرأة كلها عورة، وقيل: إن صوتها عورة، حتى إن جهرها بقراءة القرآن في الصلاة، يفسد صلاتها عند بعض الفقهاء[1]، والجلباب الوارد ذكره في القرآن الكريم كان موجهاً لنساء النبي (ص) فقط. لكي يعرفن به عن غيرهن فلا يؤذين من أحد.

ومهما يكن فالمرأة وأخبارها في العصر الأموي ألقت الضوء على وضع المرأة وحريتها. وكيف كانت تمارسها. فالمرأة كانت تخالط الرجال، وتجلس معهم، وتحدثهم، وتبدي رأيها، وكانت تتمتع بأكبر قدر من الحرية سافرة الوجه، تستقبل الرجال، وإذا خطبت أذن لها برؤية خطيبها، وسمح لها (ولي الأمر) بتولي القضاء، كأبي حنيفة وابن جرير الطبري. ومن المعلوم أن بعض الخلفاء الأمويين، كان قد أخضع نساءه للحجاب. ونظام الحريم لم يعرفه البلاط الأموي بشكل أساسي، إلا في عهد الوليد الثاني، كما أن هشاماً كان قد تمتع بالنساء، حتى ملّهنّ، فقال: **(أتيت النساء، حتى ما أبالي أتيت امرأة أم حائطاً)**[2] .

ولتأكيد مناخ الحرية والعدالة، وأثرهما على شخصية المرأة العربية، بصدر الإسلام والعصر الأموي، نشاهد أن المرأة كان لها دور في كافة الميادين، حتى في الحروب. فمثلاً عندما استعمل الخليفة عمر بن الخطاب (عتبة بن غزوان)[3] للقتال في العراق، كانت أخت زوجته (أَزْدة بنت الحارث) ترافقه، وكانت تحرض الناس على القتال بقولها: **(إن رجالنا في نحر العدو ونحن خلوف ولا آمن أن يخالفوا إلينا، وليس عندنا ما يمنعنا، وأخرى أخاف أن يكثر العدو على المسلمين، فيهزموهم، فلو خرجنا لأمِنّا مما نخاف من مخالفة العدو إلينا، ويظن المشركون أن عدداً ومدداً أتى المسلمين، فيكسرهم ذلك، وهي مكيدة)** فتم لها ما أرادت، وعقدت لواء من خمارها، واتخذت النساء رايات أيضاً من خمرهن، ومضين. فلما رأى العدو الرايات، انهزم.

---

[1] رد المختار ج١ ـ باب شروط الصلاة + فتح القدير ج١ ـ شروط الصلاة.

[2] جلال صادق العظم ـ الحب العذري ـ ص٥٦.

[3] الطبري ـ تاريخ الرسل والملوك ـ ج٣ ـ ص٥٩٦ ـ عبد الأمير مهنا ـ معجم الشاعرات في الجاهلية والإسلام ـ ص١٣.

ولا ننسى رأي أسماء بنت أبي بكر لابنها عبد الله بن الزبير، عند قتاله للأمويين، عندما سألها رأيها، فقالت له: (إن كنت على حق، تدعو إليه، فامض عليه، فقد قتل عليه أصحابك، ولا تمكن من رقبتك غلمان بني أمية، فيتلاعبوا بك) وقالت له أيضاً كردٍ على خوفه من الموت: (إن الشاة لا تألم السلخ بعد الذبح)[1].

كما كانت المرأة في المعارضة السياسية، التي انتهجها الأمويون. فمثلاً أم البنين بنت عبد العزيز بن مروان امرأة يزيد بن عبد الملك كانت من أشهر المعارضات لسياسة الحجاج. ومارست المرأة الدفاع عن نفسها بكل جرأة، كامرأة أبي الأسود الدؤلي، عندما قدمت على معاوية بن أبي سفيان، تشكو زوجها[2].

وقصص المرأة في هذا العصر أثبتت مدى حريتها في تقرير مصيرها، وخاصة فيما يتعلق بحياتها الزوجية. ومن النساء الشهيرات في التاريخ العربي الإسلامي الخنساء، الشاعرة العظيمة، تلك المرأة التي ضربت مثلاً في التضحية والفداء[3]، وبأولادها الأربعة في حرب القادسية سنة /١٦هـ/.

الزواج في الإسلام:

الزواج هو ارتباط كل واحد بالآخر، أو اقتران أحد الشايين بالآخر، أو الاقتران في الأعمال والأبدان، ثم خصصت هذه الكلمة، وشاع استعمالها على: اقتران الرجل بالمرأة. والزواج واجب اجتماعي وراحة وسكن للزوجين، ومودة ورحمة بينهما. وقرن بالإيمان، وقد أعطى الإسلام الميراث للزوجة، كما ورد.

فلما جاء الإسلام ألغى بعض الزيجات، كنكاح المقت (الضيزن) ونكاح الاستبضاع، ونكاح الخدن، ونكاح البغايا، ونكاح الرهط، ونكاح الذواق. وأقر أنواعاً كانت معروفة مثل نكاح البعولة، وهو النكاح السائد حتى اليوم. وأقر تحريم المحرمات، وهي معروفة، لا داعي لذكرها، وأقر زواج المتعة، إلا أن الخليفة عمر بن الخطاب ألغاه، والمتعة لو استمرت، لكانت ألغت الزنا، أو أسهمت إسهاماً كبيراً في نهايته، وسمح بالزواج من أربعة، لكن بشرط العدل، وإلا فواحدة.

---

[1] عبد القادر فياض حرفوش - فصيحات العرب وبليغاتهم في الجاهلية - طبع دمشق ١٩٩٤ - ص٢٣.

[2] ابن قتيبة الدينوري - عيون الأخبار المجلد الرابع نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب (بدون تاريخ) - ص١٢٢.

[3] عبد الأمير مهنا - معجم النساء الشاعرات في الجاهلية والإسلام - طبع بيروت ١٩٩٠ - ص٧٤.

أما عن طبيعة الزواج، فقد وردت آراء حوله[1] منها: أن الزواج شرعاً هو عقد يرد على تملك المنفعة، أو عقد وضع لتمليك منافع البضع، أو عقد على مجرد متعة التلذذ، أو حل استمتاع الرجل بالمرأة، إن لم يمنع مانع شرعي، أو عقد بين الرجل والمرأة، تحل له شرعاً، غايته إنشاء رابطة للحياة المشتركة والنسل، ويجعل لكل من الزوجين حقوقاً وواجبات متقابلة. والعقد يعطي كل واحد من الزوجين حق الاستمتاع بالآخر على الوجه المشروع[2]. وقيل: هو نص تشريعي، يضفي عليه صفة معينة، أو هو اتفاق رضائي على أساس الإرادة الحرة لكلا طرفي الزواج.

والعقد يعني القبول والإيجاب أو العكس، ويحدد فيه المهر، ويحضر العقد شاهدان. وبذلك يكون العقد شرعياً، ويحدد فيه المهر. والمهر ليس له حد أدنى، ولا حد أعلى كنص وارد في القرآن، والمهر لا يلزم تقديمه كله عند العقد، وللمهر تسميات مختلفة، منها: الصداق والنحلة والفريضة والأجر. والمهر يختلف حسب الحالة الاجتماعية للخاطب، وكانت الولاية شرطاً في صحة العقد. والعاقد هو الولي، والولاية إما أن تكون عامة أو خاصة.

أما الولاية والوصاية فهي نوعان: ولاية على النفس، وولاية على المال. أما ولاية التزويج فهي نوعان أيضاً: ولاية إجبارية، وولاية اختيارية. فالإجبارية تكون على فاقد الأهلية، وفي هذه الحالة يكون للولي سلطة التزويج، وتنتهي هذه الولاية ببلوغ القاصر أو من كان في حكمه، أما الولاية الاختيارية فتختلف باختلاف المذاهب.

والمهر أو الصداق هو ما تستحق به الحرائر من النساء[3]، وجعل الإسلام المهر أو الصداق حقاً للمرأة لا لوليها، ونهى الأولياء عن أخذه لأنفسهم. وكان المهر يقدم عند العرب إما إبلاً أو نقداً أو كليهما معاً، وكان مقدار المهر يتفاوت باختلاف المقدرة والمكانة والثروة. فعبد المطلب بن هاشم مهر فاطمة بنت عمرو مائة ناقة، ومائة رطل من الذهب، وكان المهر الذي قدمه النبي (ص) للسيدة خديجة عشرين بكرة، وقيل أمهر عائشة خمسمائة درهم[4] وقيل: إنه أصدقها اثنتي عشرة أوقية[5]

---

[1] عبد الهادي عباس ـ المرأة والأسرة في حضارة الشعوب ـ طبع دمشق ١٩٨٧م ـ ج٢ ـ ص٤٩٤.

[2] عبد الرحمن الصابوني ـ نظام الأسرة وحل مشكلاتها في ضوء الإسلام ـ طبع دمشق ـ ص٦٤.

[3] ابن سيده أبي الحسن علي بن إسماعيل النحوي الأندلسي ـ المخصص تحقيق لجنة إحياء التراث العربي ـ تصوير بيروت ـ ج٤ ـ ص٢٥.

[4] سيرة ابن هشام ج١ ـ ص٢٠٦ ـ إنسان العيون ج٤ ـ ص١٥٤.

[5] طبقات ابن سعد ج٨ ـ ص١١٥ ـ الأوقية: أربعون درهماً ـ والنش: نصف أوقية.

ذهباً ونشاً.

ونهى الرسول (ص) عن المغالاة في المهور بأحاديث كثيرة، منها قوله: «**لا تغالوا بالنساء، فإنما هن سقيا الله**»[1]. وذكر الجاحظ في كتابه الحيوان: (أن الأعرابي الفقير، ربما صاد ضباً فاحتمله إلى كفيتته، فكان مهرها). ومهما يكن، فقد استمرت المغالاة في المهور في صدر الإسلام وبعده رغم النهي وروي أن الخليفة عمر بن الخطاب كان أصدق أم كلثوم بنت علي أربعين ألفاً، وأن ابنه عبد الله أصدق ابنة أبي عبيد الثقفي عشرة آلاف درهم، أما مصعب بن الزبير فقد أصدق عائشة بنت طلحة خمسمائة ألف درهم، وأهدى لها خمسمائة ألف درهم[2]، وأصدق عبد الرحمن بن عوف امرأة من الأنصار ثلاثين ألفاً[3].

إذن المهر حق من حقوق المرأة استناداً لقوله تعالى: ﴿**وَآتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً، فَإِنْ طِبْنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفساً فَكُلُوهُ هَنِيئاً مَّرِيئاً**﴾[4]. وخير الصداق أيسره، وهو حق من حقوق المرأة، لا حق فيه لوليها أو غيره، يمكنها أن تشتري به جهازها، أو أي شيء آخر لصالحها، وليس هناك من حد للمهر، وقيل: المهر هو العوض الذي يدفع لأهل المرأة، أما الصداق: فهو العوض الذي يدفعه الرجل للزوجة، ومن الأدلة على أن المهر كان للأولياء ما ورد في كتاب الله على لسان نبي الله شعيب لموسى قال: ﴿**إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنْكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ فَإِن أَتْمَمْتَ عَشْراً فَمِنْ عِنْدِكَ**﴾[5].

وعند الزفاف، فكان يقدم للزوجة نصائح ووصايا، من ذلك أن الحارث بن عمرو الكندي خطب ابنة لعوف الكندي، فبعث إلى أبيها، فخطبها، فزوجها إياه، فلما حان أن تحمل إليه، دخلت إليها أمها لتوصيتها، فقالت: (أي بنية إنه لو استغنت المرأة عن زوجها بغنى أبويها وشدة حاجتها إليه، لكنت أغنى الناس عن الزوج، لكن للرجال خلق النساء، كما لهن خلق الرجال، أي بنية إنك

---

[1] الجاحظ أبي عمرو بن بحر الجاحظ ـ البيان والتبين ـ طبع مصر ١٩٨٥ ـ ج٢ ـ ص٢٧.

[2] أبي الفرج ابن الجوزي ـ أحكام النساء (عقائد ـ عبادات ـ معاملات ـ آداب ـ سيرة) طبع بيروت ١٩٨٥ـ ص١٣٧ ـ الجاحظ ـ البيان والتبين ج٣ ـ ص٢٣٤ ـ ابن قتيبة ـ المعارف ـ ص٢٣٣.

[3] ابن سعد ـ الطبقات الكبرى ـ المجلد الثالث ـ ص١٢٦.

[4] سورة النساء الآية / ٤.

[5] سورة القصص الآية / ٢٧.

فارقت الجو الذي منه خرجت، والوكر الذي فيه درجت، إلى وكر لم تعرفيه، وقرين لم تألفيه، فأصبح بملكه عليك ملكاً، فكوني له أمة، يكن لك عبداً، واحفظي عني خصالاً عشراً، تكن لك دركاً وذخراً.

فأما الأولى والثانية: فالمعاشرة له بالقناعة، وحسن السمع له والطاعة، فإن في القناعة راحة القلب، وحسن السمع والطاعة رأفة الرب. وأما الثالثة والرابعة: فلا تقع عيناه منك على قبيح، ولا يشم أنفه منك إلا أطيب ريح، واعلمي أي بنيَّة أن الماء أطيب المفقود، وأن الكحل أحسن الحسن الموجود. وأما الخامسة والسادسة: فالتعهد لوقت طعامه، والهدوء عند منامه. فإن حرارة الجوع ملهبة، وتنغص النوم مغضبة. وأما السابعة والثامنة: فالاحتفاظ بماله، والرعاية على حشمه وعياله، فإن الاحتفاظ بالمال من حسن التقدير، والرعاية على الحشم والعيال من حسن التدبير.

وأما التاسعة والعاشرة: فلا تفشي له سراً، ولا تعصي له أمراً، لأنك إن أفشيت سرَه، لم تأمني غدره، وإن عصيت أمره، أوغرت صدره، واتقي الفرح لديه، إن كان ترحاً، والاكتئاب إن كان فرحاً. فإن الأولى من التقصير، والثانية من التكدير، واعلمي أنك لن تصلي إلى ذلك منه، حتى تؤثري هواه على هواك، ورضاه على رضاك، فيما أحببت، وكرهت، والله يخير لك بخيرته، ويصنع لك برحمته)[1].

الوليمة:

إن الإعلان عن عقد الزواج أمر واجب، وخلال وقت الإعلان، يتم الإعداد لوليمة، حيث لابد منها. وتكون متفاوتة في حجمها والإعداد لها، حسب أهل الزوجين في المقدرة على إقامتها، وحض الإسلام على حضور الوليمة من دعي إليها، وحفل الزواج كان يستمر أياماً.

في اليوم الأول يكون عقد الزواج، ويسمى: يوم الإملاك، حيث يجتمع أهل الفتاة في ساحة القرية، وهناك يستقبل أهل الزوج، ويبرم العقد بينهما حسب الشروط المعروفة، بعد ذلك تقام وليمة في مجلس النساء، وأخرى في مجلس الرجال، وفي هذا اليوم تنحر الذبائح، ويخطب الخطباء من أهل الزوجين، كل منهما يعدد مناقب أهله، وكانت العروس تزين، ويسهرون الليل غناءً وعزفاً

[1] أبي الفرج بن الجوزي ـ أحكام النساء ـ ص٧٤ وما بعدها.

ورقصاً.

أما اليوم الثاني: ويسمى يوم البناء، حيث تقام الاحتفالات في مجلس الرجال والنساء بمستلزمات الاحتفال. والإعلان عن عقد الزواج، كان يتم عن طريق الوليمة أو الحفل، لأن عقود الزواج كانت تتم مشافهة في الغالب بحضور الشهود وجمع من الأقارب، وكان يتم إثبات الزواج ومقدار المهر، لكي يعلم العامة بذلك، وورد في كنز العمال عن الوليمة وأيامها (طعام أول يوم حق، وطعام اليوم الثاني سنة، وطعام اليوم الثالث سمعة، ومن سمّع سمّع الله به)[1]، وذكر أيضاً (طعام يوم في العرس سنة، وطعام يومين فضل، وطعام ثلاثة أيام رياء وسمعة)[2]، إذن الوليمة لابد منها، ولابد من حضورها، وهي واجبة، قيل: (أولم ولو بشاة)[3] ويجب أن تكون الدعوة للوليمة عامة، وأن تكون معاملة المدعوين واحدة، وإلا أصبحت الوليمة شراً قيل: (شر الطعام طعام الوليمة يدعى إليها الشبعان ويحبس عنها الجيعان)[4].

الخطبة:

إذن من أولى شروط الزواج: الخطبة[*]، والخطبة تعني إبداء الرغبة بالزواج من المخطوبة، وهي مرحلة تمهيدية، تسبق الزواج. كان العرب يخطبون المرأة من أبيها أو أخيها أو وليها[6]، فيقول الخاطب: خطب، فيقول أهل الزوجة: نكح، فيكون ذلك مقام القبول والإيجاب[7]، والخطبة كانت تتم وفق شروط معينة، كالنظر إلى المرأة المراد خطبتها[8]، حتى يكون كل منهما على بينة من أمره، واختلف جمهور الفقهاء إلى ما يحل النظر إليه، فبعضهم أحل النظر إلى وجهها وكفيها، وبعضهم

---

(1) علاء الدين علي المتقي بن حسام الدين الهندي البرهان فوري - سنن كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال - طبع بيروت ١٩٧٩ - المجلد ١٦ - ص٣٠٦.

(2) المرجع نفسه ج١٦ - ص٣٠٦.

(3) محمد ضيف الله البطاينة - الحياة الاجتماعية في صدر الإسلام طبع السعودية - ص١٩ - كنز العمال ج١٦ - ص٣٠٦.

(4) الهندي - كنز العمال - ج١٦ - ص٣٠٧.

(*) آية الله مرتضى المطهري - نظام حقوق المرأة في الإسلام - طبع طهران ١٩٩٥ - ص٢٩.

(6) ابن حبيب - المحبر - تحقيق ايلزه شتيتر - طبع بيروت - المكتب التجاري - نسخة مصورة عن الطبعة المصرية - ص٣١.

(7) محمد أبو زهرة - تنظيم الإسلام للمجتمع - ص٥٠١ - ليلى صباغ - المرأة في التاريخ العربي - ص١٦١.

(8) محمد مهدي الاستنبولي - تحفة العروس - طبع دمشق - ص٥٣.

الآخر زاد على ما ورد الرقبة، وبعضهم زاد القدمين، وبعضهم الآخر أباح النظر إلى أكثر من ذلك كالجسم كله.

فإذا ما تمت الخطبة، يجوز لكل من الخطيبين الاجتماع بالطرف الآخر بحضور أحد محارم الفتاة العاقلين، على أن يتم تبادل الأحاديث بينهما كي يتم معرفة طباع وأخلاق كل منهما بالنسبة للآخر. وأثناء فترة الخطوبة، يقوم الخطيب بتقديم بعض الهدايا أو المال للخطيبة، واختلف حول ذلك إذا فسخت الخطوبة، فبعضهم يقول: يرد ما كان موجوداً على حاله دون زيادة، وبعضهم الآخر قال: يرد كل ما أهداها إياه سواء أكان موجوداً، فيرد أو هلك فيرد مثله أو القيمة، وبعضهم قال: يرد ما كان قد قدم بشرط الزواج، أو يرد مثله إن كان قد هلك، أما بالنسبة للمهر، فالرد واجب، مهما كان سبب فسخ الخطوبة، لأن استحقاق المهر يكون بعقد الزواج.

أما آداب الخطبة المعروفة بخطبة النكاح والمتخذة في الواقع اسم عقد الزواج، فتكون (الخطبة وعقد الزواج) في وقت واحد وفي مجلس واحد. أما آداب خطبة النكاح فهي: أن يبدأ الحفل بالتسبيح والحمد لله كقول الولي: (**الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، زوجتك ابنتي فلانة... وتوكلت على الله..**)[1] ويحدد ماهية الصداق، فيجيب الزوج أو الوكيل: (**الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، قبلت زواجها على هذا الصداق..**)[2] ومن المعروف أن النكاح لا يتم إلا بولي وشاهدي عدل، وكان أمر النساء إلى آبائهن، ورضاؤهن كان يعني السكوت.

ومحرمات الزواج وموانعه أهمها: القرابة المحرمة، وقد ذكرها الله تعالى في كتابه العزيز بقوله: **﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُم أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالاتُكُمْ وَبَنَاتُ الأَخِ وَبَنَاتُ الأُخْتِ وَأُمَّهَاتُكُم اللاَّتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَواتُكُمْ مِنَ الرَّضَاعَةِ، وَأُمهاتُ نِسَائِكُمْ وَرَبَاءِبكُمُ اللاَّتِي فِي حُجُورِكُمْ مِنْ نِسائكُمُ اللاَّتِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ، فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ، وَحَلاَئلُ أَبْنَائِكُمْ الَّذِينِ مِنْ أَصْلاَبِكُمْ، وَأَن تَجْمَعُوا بَيْنَ الأُخْتَيْنِ إلاَّ مَا قَدْ سَلَفَ إنَّ الله كان غَفُوراً رَّحِيماً﴾**[3]. وهناك موانع محرمة بصورة مؤقتة كالجمع بين الأختين لقوله تعالى: **﴿وَأَن تَجْمَعُوا بَيْنَ**

---

[1] هشام قبلان ـ آداب الزواج في الإسلام ـ طبع بيروت ١٩٨٣ ـ ص٦٩.

[2] المرجع نفسه ـ نفس الصفحة.

[3] سورة النساء الآية / ٢٣.

﴿الأُخْتَيْنِ﴾[1] وحرم من كانت متزوجة لآخر أو معتدة، حتى انتهاء العدة والمرأة المطلقة ثلاثاً حتى تتزوج من غير طليقها ثم تطلق من الزوج الثاني، وحرم الزواج بأكثر من أربعة إلا إذا طلق إحداهن، وحرم الزواج ممّن لا تدين بدين سماوي، حتى تسلم.

وحرمت الشريعة الإسلامية زواج المسلم من المشركة والعكس، لكن الزواج بين المسلمين وأهل الكتاب، فقد أقره الشرع والنص، ورغم ذلك اختلف الفقهاء حول ذلك، ويمكن الرجوع إلى أقوال الفقهاء في كتب الفقه. وفي المصادر التاريخية نرى أن الزواج كان مشروعاً من سبايا الحروب. وتأكيداً لذلك نلاحظ عندما فتح العرب المسلمون بلاد فارس، كان من الغنائم والسبايا ثلاث من بنات كسرى، إحداهن تزوجها: الحسين بن علي، والثانية تزوجها محمد بن أبي بكر، والثالثة تزوجها عبد الله بن عمر، ولم يشترط بزواجهن إسلامهن.

آفات الزواج:

بعد إتمام الزواج كان لابد من الابتعاد عن بعض الآفات الاجتماعية، كالكسب الحرام، الذي يعدّ من الكبائر عند الله تعالى، لأنه مكتسب بطرق غير شرعية. قال لقمان الحكيم لابنه، وهو يعظه: (يا بني! استغن بالكسب الحلال عن الفقر. فإنه ما افتقر أحد قط إلا أصابه ثلاث خصال: رقة في دينه، وضعف في عقله، وذهاب مروءته، وأعظم من هذه الثلاث استخفاف الناس به)[2]. وقال الله تعالى في كتابه العزيز: ﴿لاَ تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُم بِالبَاطِلِ﴾[3]. ومن الآفات الاجتماعية الأخرى تقصير أحد الزوجين بحق الآخر، وعدم صبر كل منهما على الآخر، وألاّ تشغل الدنيا أيّاً منهما عن ذكر الله والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، ومن الآفات الأخرى تمرد الزوجة على زوجها، إما لفقر أصابه وإما لبخله، أو تعييرها إياه بكبر سنه أو لشيب ألمّ به مع الزمن، ومثل هذه الآفات تؤدي إلى الطلاق.

---

[1] سورة النساء الآية / ٢٣.

[2] هشام قبلان ـ آداب الزواج في الإسلام ـ بيروت ١٩٨٣ ـ ص٥٦.

[3] سورة النساء الآية / ٢٩.

تعدد الزوجات:

منذ البداية جرى العرف على وحـدة الزوجـة، إلا أن ذلـك لم يكـن عامـاً وسـائداً في العـالم القديم. لكن التعدد كان نظاماً طبيعياً، كثيراً ما تلجأ إليه الضرورة. لأن التعدد سبق الإسـلام بمئـات الأعوام. فالربانيون حددوا الزوجات بأربع[1]، مستدلين على ذلك بأن النبي يعقوب جمع بـين أربـع، كما كانت تعاليم زرادشت تخول الفرس تعدد الزوجات، و لم يكن عندهم قـانون، يمنـع التعـدد، أو يحدده[2]. وشاع تعدد الزوجات أيضاً عند عرب الجاهلية كغيرهم، واسـتمر بعـد أن جـاء الإسـلام، لكن ضمن شروط، فجعل الحد الأقصى أربعاً، وأوجب العدل بينهـنّ، وإلا فواحـدة، وقـد اختلـف الفقهاء حول العدل ومفاهيمه وكيفية تحقيقه.

الحقوق الزوجية:

ومن آداب المعاملة الحسنة للمرأة اعتزالها عند المحيض تطبيقـاً لقولـه تعـالى **﴿وَيَسْـئَلُونَكَ عَـنِ المَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذىً، فَاعْتَزِلُوا النِّسَـاءَ فِي المَحِيـضِ، وَلاَ تَقْرَبُوهُـنَّ حَتَّـى يَطْهُـرْنَ، فَـإِذَا تَطَهـرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللهُ، إِنَّ اللهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ، وَيُحِبُّ المُتَطَهِّرِينَ﴾**[3]. ومن الآداب الأخرى منع الإجهاض، وهناك اختلاف بين المذاهب. فبعضهم يحرمه قبـل نفـخ الـروح في الجنـين أو بعـده، وبعضهم الآخر أباح الإجهاض قبل نفخ الروح في الجنين، أخيراً حرم الإجهـاض بعـد نفـخ الـروح، أي أن الإجهاض بعد مرور أربعة أشهر على الحمل محـرم. أمـا الحقـوق الزوجيـة، فأهمهـا: الطاعـة طاعة الزوجة للزوج والقيام بأعمال البيت[4]. وقيل: إن أعظم الناس حقـاً علـى المـرأة زوجهـا. قـال الرسول (ص): **«لو كنت آمراً أن يسجد لأحد لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها»**[5].

ومن الحقوق الزوجية القرار في البيت، تطبيقاً لقوله تعالى: **﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُـنَّ، وَلاَ تَـبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الجَاهِلِيَّةِ الأُولَى﴾**[6]. إلا أن التشـريع أجاز للمـرأة الخروج من بيتها[7]، وخاصة لزيارة والديها

[1] شكري فيصل ـ النظم الاجتماعية والسياسية ـ ص٦٨.

[2] غوستاف لوبون ـ حضارة العرب ـ طبع القاهرة ١٩٦٩ ـ ص٤٨٣.

[3] سورة البقرة الآية / ٢٢٢.

[4] عبد الهادي عباس ـ المرأة والإسلام ـ ج٢ ـ ص٥٠١ ـ ابن عبد البر ـ الاستيعاب ـ ق٤ ـ ١٨٩٣.

[5] الكنز ـ ج١٦ ـ ص٣٣٢.

[6] سورة الأحزاب الآية / ٣٣.

[7] آدم متز ـ الحضارة الإسلامية ـ طبع بيروت١٩٤٠ ـ ج٢ ـ ص١٧٦.

على الأقل كل أسبوع مرة. وإذا كان المحرم غير الأبوين[1] جاز لها أن تزوره كل سنة، يضاف لما ورد أسلوب المعاملة، وهذا يختلف من امرأة لأخرى، فالمرأة الصالحة في ذلك تختلف عن المرأة غير الصالحة، كما أكدت الحقوق الزوجية على أهمية الوفاء في العلاقات الزوجية. وهذا مهم في مجتمعنا الشرقي، منذ البداية وحتى النهاية.

إذن الزواج شراكة في الحياة، وأساس لعشرة طويلة، ولحمة وثقة. فالزوجة سكن للزوج ومتاعه وقسيمته في إنجاب الأولاد، يرثون منها، كما يرثون منه، وللزوج حقوق على زوجته أهمها: ألا تمنعه نفسها، وألا تقوم بأي عمل إلا بإذنه، وألا تعطي شيئاً من بيته إلا بإذنه، وأن تطيع، وتبرَّ قسمه. وللزوجة حقوق أهمها: أن يطعمها ويكسوها، لأن خيركم من كان خيراً لأهله[2]، وعدم هجرها أو ضربها إلاّ لما فيه مصلحتها، والمعاملة الحسنة والمساواة. أما إذا كانت المرأة صاحبة حرفة، فلا نفقة لها، إذا لم يرض الزوج باحترافها.

حظيت المرأة العربية قبل الإسلام عند زواجها من الرعاية والحب ما يدل على علو مكانتها. فالحب ـ أحياناً كثيرة ـ كان يسبق الزواج، وفي أحيان أخرى، ينشأ مع الزواج، وبعده، وكان الرجل يحسن عشرة زوجته، ويتبادل معها أطراف الحديث، ويستشيرها، كما كان لابد للرجل من الغيرة على زوجته وحمايتها.

لقد هذب الإسلام الأخلاق والعادات، وحض الرجال على حسن المعاملة والعطف، وبالمقابل على الزوجة أن تبادل زوجها الحب والخوف عليه، والحرص على ماله بدافع المشاركة في الحياة وبدافع شخصي من شعورها بأن هذا المال لها ولبيتها ولزوجها، وأنها تحقق به مآربها، وعليها الوفاء لزوجها في حياته، وبعد مماته. فبعضهن كنّ يعفْنَ الزواج بعده، كما فعلت الرباب بنت امرئ القيس. وكانت زوجة للحسين بن علي كرم الله وجهه، وكان يحبها، وتحبه، حيث قالت بعد أن استشهد في كربلاء: والله لا أتخذن حمواً بعد رسول الله (ص). وبعضهن كان حزنهن على موت أزواجهن كبيراً، مغاليات في ذلك. فلما جاء الإسلام نهى النبي (ص) عن الغلو في الحزن[3].

---

[1] محمد محي الدين عبد الحميد ـ الأحوال الشخصية في الشريعة الإسلامية ـ ص١٣٥.

[2] الكنز ـ ج١٦ ـ ص٣٧١.

[3] أبي الفرج ابن الجوزي ـ أحكام النساء ـ ص١٠٧.

الصفات المرغوبة في الزوجة:

أهم الصفات المرغوبة في الزوجة هي: أن تكون صالحة، ذات دين وإيمان، لأنها بذلك تصون نفسها، وتحفظ بيتها ومن الصفات الأخرى للزوجة: الجمال لأن الجمال صفة محببة مرغوبة ومطلوبة شرط أن تكون على خلق حسن وتهذيب وأدب في تعاملها بشكل عام، وأن تكون من منبت حسن، ذات حسب ونسب في بيت علم وأدب، ملتزمة بتقوى الله تعالى، وعندما تتوفر هذه الشروط يكون التفاهم تاماً، وتكون المعاملة حسنة تطبيقاً لقوله تعالى: ﴿**وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ**﴾[1]، وقال تعالى: ﴿**وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ**﴾[2]، وعلى الرجل أن يحسن معاملة زوجته ورعايتها، وينفق عليها بما يتناسب مع دخله، يضاف لما ورد: أن يكون الزوج عادلاً بين زوجاته، إذا كن أكثر من واحدة تطبيقاً لقوله تعالى: ﴿**فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً، أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ، ذَلِكَ أَدْنَى أَلاَّ تَعُولُوا**﴾[3].

وأهم الصفات الزوجية:

أولاً ـ الحسب: وليس الحسب الغنى، إنما هو المجد والاشتهار والأخلاق، فقد عزز الإسلام هذا المبدأ. قال رسول الله (ص): «**تخيّروا لنطفكم، وانتخبوا المناكح، وعليكم بذوات الأوراك، فإنهنّ أنجب**»[4] وقال: «**إيّاكم وخضراءَ الدِّمَن**»[5] وخضراء الدمن هي المرأة الحسناء في منبت السوء.

ثانياً ـ الشابة البكر الولود: لأنها أسلس قياداً وأيسر انطباعاً، وأكثر نسلاً وولادة. وقد شدد النبي (ص) في اختيار البكر، كما آثر أفلاطون المرأة البكر، وذهب إلى أن شباب المرأة يبدأ في العشرين، وينتهي في الأربعين. أما الرجل، فإن شبابه من الثلاثين إلى الخامسة والخمسين، وقال (ص): «**تزوجوا الودود الولود، فإني مكاثر بكم الأمم**»[6]، كما أكد على صفاتها الجسدية

---

[1] سورة النساء الآية / ١٩.

[2] سورة البقرة الآية / ٢٢٨.

[3] سورة النساء الآية / ٣.

[4] كنز العمال ـ ج١٦ ـ ص٣٠٢.

[5] أبي عثمان عمرو بن الجاحظ البصري ـ المحاسن والأضداد ـ طبع بيروت ١٩٩١ ـ ص٢١٩ ـ كنز العمال ـ ج١٦ ـ ص٣٠٠.

[6] كنز العمال ـ ج١٦ ـ ص٢٩٦ ـ ٣٠٢.

والنفسية، وأن تكون أديبة وفصيحة.

وهناك صفات مذمومة في الزوجة، ابتعد عنها العرب. من هذه الصفات أن تكون حمقاء، فابتعدوا عن الزواج منها، لأنها تلد الحمقى. قال حكيم العرب أكثم بن صيفي: (إياكم ونكاح الحمقى، فإنّ نكاحها غرر، وولدها إلى ضياع)[1]. كما تجنب العرب النسوة اللاتي منحن وسامة وقسامة. لكنهنّ نشأن في بيئة فاسدة. قال أكثم بن صيفي في وصيته لابنه: (يا بُنَيَّ إيّاكَ واختيارَ اللئيمة بما عندها من المال. فإن المال يذهب، ويبقى في حالك اللؤم الذي لا يفنيه شيء)[2].

وتجنب العرب المرأة الثيّب، وكذلك المرأة المتحارضة، والغنية التي تمن بمالها، وغير المصونة. قال رجل لولده: (يا بُنَيَّ لاَ تَتّخذها حَنّانةً، ولا أَنّانةَ، ولا مَنّانةَ، ولا عُشبةَ الدَّار، ولا ركّيه القَفا)[3] كما كان الزواج بالثيب قبيحاً في العصرين الأموي والعباسي.

ومن عيوبها الأخرى تقطيب الحاجبين، والصخب، والضجاج، والمشارة. قال شيخ من بني سليم لابنه: (إياك والغضوب القطوب)، وقالت ابنة الُخّس: شر النساء (السَّويداءِ المِمراض، والحُمَيراءَ المِحياض، والكثيرُ المِظَاظ)[4]. ومن العيوب الأخرى هجرانها فراش زوجها ـ طلبها للطلاق ـ عدم الحفاظ على مال زوجها، وعدم وفائها، وغدرها ـ شكواها من غير سبب ـ خروجها من البيت بدون علم زوجها.

وكان العرب يجرون على عادة الزواج من العشيرة نفسها. إلا أنهم اعتمدوا الزواج من الغريبات، وجرى العرب بعد الإسلام على اختيار الغريبات، قال النبي (ص): «**اغتربوا، لا تضووا**». لأن الاقتران بالغريبات يقوي النسل جسمياً وعقلياً. وإن الاقتران بالقريبات يضعفه. وللاغتراب عند العرب بواعث آخرى، فالمصاهرة بين قبيلتين، تصلهما برباط من المودة والتحالف، وتزيد ما بينهما من محبة وألفة، ولم يقف الزواج عند العرب من قبيلة أخرى، بل تعداه إلى الزواج من أمم أخرى، فاختاروا الزواج من الحبشيات والروميات. لكنهم قليلاً ما كانوا يرغبون بزوجات فارسيات لأن الفرس كانوا يأبون زواج بناتهم من العرب في الجاهلية. وعاب العرب أيضاً الزواج

---

[1] مجمع الأمثال ـ ج٢ ـ ص١١٨.

[2] نزهة الأبصار ـ ص٣٢.

[3] الجاحظ ـ المحاسن والأضداد ـ ص٢٢٠ ـ الأمالي ـ ج١ ـ ص٢٥٦.

[4] القالي: أبي علي إسماعيل بن القاسم القالي البغدادي ـ الأمالي ـ طبع بيروت ١٩٩٦ ـ ج٢ ـ ص٢٥٦.

من النبطيات.

ثالثاً ـ الكفاءة: أما الشروط التي راعتها المرأة وقومها في الزوج، فكلها تدور حول الكفاءة والمكانة والحسب والنسب والمهنة والدين والمال. إلا أن ذلك كان مجالاً لخلاف الفقهاء، وأنا لا أرى الكفاءة إلاّ في القيمة من جهة، والمقدرة العقلية من جهة أخرى. فالزوج الشاب مستحب لأنه الأقرب إلى الزوجة سناً، وأشبه بها خلقاً وميلاً، ولأنه في ريعان شبابه وعنفوانه. ومن الشروط الأخرى أن يكون الزوج حسن العشرة رفيقاً رقيقاً، متحلياً بالفضائل التي تعارف عليها العرب، واقتضتها البيئة من كرم وشجاعة وألفة وسماحة وإباء.

فالجود يحقق آمال الزوجة في حياة ناعمة، ويكفل لها شهرة وسيادة، وسئلت امرأة: أي الرجال أحب إليك؟ فقالت: (السهل النجيب، السمح الحبيب، الندب الأريب، السيد المهيب، وأفضل منه الأهيف الهناف والأنف العياف، المقيد المتلاف، الذي يخيف ولا يخاف)[1]. كما كانت الفتاة ترغب الزواج من أبناء عشيرتها إيثاراً لقربها من أهلها، ورغبتها في الإقامة بوطنها. لأن الكثير من المتزوجات في غربة، كن يتغنين بالحنين إلى أوطانهن. ومن الشروط الأخرى: مراعاة الفتاة وقومها أن يكون الزوج عربياً. لأن العرب كانوا ذوي حمية وأنفة واعتداد بالنفس، وتشدد العرب في حظر تزويج غير العربي، وإن كان ملكاً ولنا من قصة رفض النعمان زواج ابنته من كسرى خير مثال[2]، ورفض العرب تزويج العبيد، وأيضاً الحر المنحدر من عبد.

وعندما جاء الإسلام جعل الحرية شرطاً، والكفاءة فيها كالكفاءة في الإسلام خاصة بالعجم. لأن الأعجمي الرقيق ليس كفئاً للمرأة، والحر بنفسه ليس كفئاً لمن لها أب نشأ في الحرية، ومن له أب لم يسترق ليس كفئاً لمن لها أبوان حران وغير ذلك. لقد كان العرب ينشدون عواقب النسب ومساواة الخاطب لهم في الشرف، فيرفضون من يهبط نسبه، ويقل شرفه.

قيل: (**إذا جاءكم الأكفاء فانكحوهن ولا تربصوا بهنّ الحدثان**)[3] وقيل: (**زوجوا الأكفاء**

---

[1] ذيل الأمالي ـ ص١١٩.

[2] الطبري ـ تاريخه ـ ج٢ ـ ص١٥٠.

[3] الكنز ـ ج١٦ ـ ص٣١٦ وما بعدها.

وتزوجوا الأكفاء، وإياكم والزنج فإنه قسوة)[1] وقيل: **(العرب بعضهم أكفاء لبعض قبيلة بقبيلة ورجل برجل، والموالي بعضهم أكفاء لبعض قبيلة بقبيلة ورجل برجل إلا حائل أو حجام)**[2].

استمتعت المرأة العربية بحريتها في اختيار زوجها، فلم تكن تقسر على زوج لا ترتضيه، وكانت تستشار عند خطوبتها وزواجها، أي أنها كانت تختار زوجها، وقد تزوج نفسها أحياناً، ففي زواج البالغة اختلف الفقهاء في تزويجها نفسها، فالشافعي ومالك منعاها من مباشرة عقد زواجها، وأيد أبو حنيفة تزويجها لنفسها.

الطلاق:

الطلاق: معناه انفصال الزوجين بعضهما عن بعض، وكان الطلاق شائعاً عند العرب قبل الإسلام كغيرهم من الشعوب، وكانت مبرراته كثيرة، منها الفقر، والكبر في السن، وعصبية الزوجة لقومها ضد قوم زوجها، وسوء معاملة الزوج للأولاد من زوجة له أخرى، عدم إتيانه بها، وميله إلى غيرها، وكان العرب في الجاهلية يطلقون ثلاثاً على التفرقة، والزوج أحق بزوجته إلى أن يستوفي ثلاث طلقات، بعدها لا سبيل له إليها. فلما جاء الإسلام أحل الطلاق، لكن أكد أنه أبغض الحلال إلى الله تعالى، وأكد عند الطلاق على أمور وآداب، كان لابد من مراعاتها. منها أن جعل الطلقات ثلاثاً، ثم زاد أموراً منها: أن الزوجة لا تحل لزوجها بعد الثالثة، إلا إذا تزوجت غيره، ثم طلقت وأن يكون الطلاق بعد أن يتم طهر المرأة، وكان بعضهم بعد أن يطلق، يندم، وتبقى في نفسه مطلقته، كما حدث للفرزدق بعد أن طلق زوجته نوار فقال[3]:

نَدِمْتُ نَدَامَةَ الكُسَعِيِّ لَمّا غَدَتْ مِنّي مُطَلَّقَةً نَوَارُ

وقيل: (أيما امرأة نكحت بغير إذن وليها، فنكاحها باطل، فإن كان دخل بها، فإن صداقها بما استحل من فرجها، ويفرق بينهما. وإن لم يدخل بها، يفرق بينهما، والسلطان ولي من لا ولي له)[4]. أما اليتيمة فتستأمر في نفسها، فإن سكتت، فهو إذنها، وإن أبت فلا جواز عليها، والبكر رضاؤها صمتها، وسكاتها إقرارها، والبنت أحق بنفسها من وليها، فهي تعرب عن نفسها.

---

[1] الكنز - ج١٦ - ص٣١٧.

[2] المرجع نفسه - ج١٦ - ص٣١٩..

[3] الفرزدق همام بن غالب بن صعصعه - الديوان - تقديم وشرح مجيد طراد - طبع بيروت ١٩٩٤ - ج١ - ص٣٢٤. ج١ - ص ٧٢.

[4] الكنز - ج١٦ - ص ٣٠٩.

ومن صور الطلاق في الجاهلية: أن تفتدى المرأة من زوجها بمالها وتختلع منه، إذا أساء عشرتها[1]، وأقر الإسلام الخلع[2]، ومن صور الطلاق الأخرى: الظهار، كأن يقول الرجل لزوجته: أنت علي كظهر أمي، أراد بذلك تحريمها عليه تحريماً مؤبداً[3]، فلما جاء الإسلام أبطل الظهار، وحرمه، وكان الإيلاء أحد صور الطلاق في الجاهلية، وهو: أن يولي الرجل من زوجته السنة أو السنتين أو أكثر، فلا يقربها، ويسيء عشرتها، فلما جاء الإسلام حدد للرجل مدة، يراجع فيها نفسه، ثم يطلق إذا شاء، قال ا لله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ ، فَإِن فَاءُوا فَإِنَّ ا للهَ غَفُورٌ رَّحِيم وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ فَإِنَّ ا للهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾[4].

و لم يكن الطلاق حصراً على الرجال في الجاهلية، إنما امتازت به المرأة العربية، بأنه كان لها الحق في أن تكون العصمة بيدها، فتطلق الرجل سواء أكان على بدل أم لم يكن، وكان لها الحق أيضاً أن تطلب الطلاق باختلاع، إما لعيب في الزوج، وإما لامتناعه عن الإنفاق، أو لسوء عشرته، أو لغيبته الطويلة، وأن تطلق بغير اختلاع أيضاً، ولما جاء الإسلام أبقى على حق المرأة في الطلاق، إذا اشترطت على الزوج، وأباح لها زواجها وهي صغيرة، وأن تفسخه عند بلوغها، أو أن تمضيه.

والطلاق[5]: أقره الشرع إلا أنه أبغض الحلال عند ا لله ومع ذلك فقد نظم الشرع الطلاق، وقيده، وجعله على أنواع، **أولاً**: الطلاق الذي تنتهي فيه عقدة النكاح، **ثانياً**: الفسخ، وكلا الحالتين يعدّ أثراً من آثار الزواج، ينهي العلاقة الزوجية، وذكر: أن الطلاق هو حق، يملكه الزوج بمقتضى عقد الزواج. وعند حدوث الطلاق إذا كان قبل الدخول فكان يوجب نصف المهر.

أما الفسخ، فهو نوعان، **الأول**: فسخ ينقض أصل العقد بسبب خلل، حدث فيه وقت إنشائه، فيجعله غير لازم للزوجين، وهذا لا يوجب شيئاً من المهر. **والثاني**: فسخ لا يعدّ نقضاً للعقد من أصله، وإنما سبب خلل، طرأ يمنع استمراره، وفي هذه الحالة يوجب نصف المهر.

---

[1] أبي هلال العسكري ـ الأوائل ـ تحقيق محمد المصري ـ وليد القصاب ـ طبع دمشق ١٩٧٥ ـ ص٤٣ ـ عيون الأخبار ـ ج٤ ـ ص٧٦.

[2] القرطبي محمد بن أحمد الانصاري القرطبي ـ تفسير القرطبي ـ طبع القاهرة ١٩٦٧ ـ ج٣ ـ ص ١٣٧.

[3] تفسير القرطبي ـ ج٢٨ ـ ص٣ ـ طبقات ابن سعد ـ ج٨ ـ ص٢٧٦.

[4] سورة البقرة الآية / ٢٢٦ ـ ٢٢٧.

[5] محمد ضيف ا لله ـ الحياة الاجتماعية في صدر الإسلام ـ ص٤٨ وما بعدها.

والطلاق يكون بلفظ الطلاق، ويكون بالخلع[1]، ويكون بالإيلاء، ويكون باللسان. وقد يكون بسبب عيب في الزوج، وقد يحدث بسبب امتناع الزوجة عن الإسلام. أما الفسخ، فيتم إذا كان العقد غير صحيح (كأن تكون الزوجة أختاً في الرضاعة)، وقد يحدث في عدم بلوغ السن، وقد يحدث بسبب عدم كفاءة الزوج، وقد يحدث بسبب امتناع الزوج عن الإسلام، وأمور أخرى لا داعي لذكرها، لأنه لا مجال لبحثها. والطلاق لا يقع إلا إذا كان طالبه عاقلاً بالغاً، ولا يحصل أيضاً في حالة الغضب، ولا في عدم الإدراك والوعي، ولا في حالة الإكراه، باللفظ أو الكتابة أو ما شابه ذلك.

---

[1] البخاري - صحيح البخاري - ج٧ - ص٢١٩.

الفصل الثاني

الطعام

- **الطعام:**
  - التمر - الخبز
  - اللحم - اللبن
  - الخمرة
- **الأوعية**



الفصل الثاني

الطعام

من المعروف أن الأطعمة ومستلزماتها ضرورة من ضرورات الحياة منذ البداية إلى النهاية. والأطعمة تأثرت مع تطور البشرية، وتنوعت نتيجة العلاقات الدولية، وساهمت البشرية جمعاء في هذا التطور والتنوع. وهذا ما حدث، عندما وجدت الدول العربية الإسلامية، وانتشرت حتى أخذت وأعطت واستفادت وأفادت. وهذا شيء طبيعي، يفرضه الواقع والتطور.

إذن أكل العرب قبل الإسلام الأطعمة بمجملها، وعلى رأسها اللحم من الحيوانات البرية. والسمك من الحيوانات البحرية، والطيور من الحيوانات الجوية. وعندما جاء الإسلام، حرم بعض الحيوانات، سواء أكانت برية أم جوية أم بحرية. وجرت خلافات حول ذلك، لسنا في حاجة إلى ذكرها. أما عن وجبات الطعام، فكانت تختلف من وقت لآخر، ومن مكان لآخر. ففي صدر الإسلام كانت وجبتين، الأولى صباحاً، والثانية عشاء. إلا أن المترفين كانوا يتناولون أكثر من وجبتين؛ حتىأن عددها وصل عند بعضهم إلى خمس وجبات، يذكر البلاذري: أن عبيد الله بن زياد بن أبيه، كان يأكل خمس وجبات يومياً[1]. لكن وبشكل عام كانت الوجبات ثلاثاً فقط.

---

[1] البلاذري - أبي العباس أحمد بن يحيى بن جابر - كتاب جمل من أنساب الاشراف - تحقيق - سهيل زكار - رياض دركزلي - طبع بيروت ١٩٩٦ - ج٤ - ص٨٦.

وأقام العرب مناسبات في الأعياد والولادات، وحتى في المـوت. وفي هـذه المناسبات، كـانوا يقيمون المآدب، وتتأثر هذه المآدب بالوضع الاجتماعي والاقتصادي لصاحبها. يقول ابن قتيبـة عنـد ذكره تفصيل أطعمة العرب: (طعام الضيف: القرى، طعام الدعـوة: المأدبـة، طعـام الزائـر: التحفـة، طعام الأملاك: الشُّنْدُخِيَّةُ، وعن ابن دريد، طعام العرس: الوليمة، طعام الولادة: الخُرْسُ، وعـن حلـق شعر المولود: العَقيقَةُ، وطعام الختان: العذيرة، وعن الفراء، طعام المأتم: الوضِيمةُ، وعن ابن الأعرابي، طعام القادم من سفر: النِقِّيعَةُ، طعام البناء: الوَكِيرَةُ، طعام المتعلل قبل الغداء: السُّلْفَةُ واللُّهْنَةُ. طعـام المستعجل قبل إدراك الغداء: العُجَالَةُ. طعام الكرامة: القَفِيُّ والزلَّةُ)[1] . قيل لبقراط: مالك تقل الأكل جداً؟ قال: (إني إنما آكل لأحيا، وغيري يحيا ليأكل)[2] . وأجمعـت الأطبـاء علـى أن رأس الـداء كلـه إدخال الطعام على الطعام، وحذّروا من إدخال اللحم على اللحم.

ومن الآداب التي اعتمـدهـا العرب قبل الطعـام وبعـده: غسـل الأيـدي، وكـان قبـل أن يبـدأ الطعام، يذكر اسم الله تعالى، وبعد الانتهاء يحمد الله على نعمه. ومن الآداب الأخـرى. أن يـأكل الإنسان مما يليه في بعض الطعام والشراب وأن يأكل بحرية في بعضه الآخر. وكره العرب عند تنـاول الطعام[3] التمعن في ضيفه، وفي مـا يأكلـه، وكيـف يـأكل؟ وقـال النبي (ص): **«الأكـل في السـوق دناءة»**[4] وقــال: **«إذا أكـل أحدكـم، فليـأكل وليشـرب بيمينـه، فـإن الشيطان يـأكل بشـماله، ويشرب بشماله»** وقال (ص): **«سموا إذا أكلتم واحمدوا إذا فرغتم»**[5].

وقال (ص): **«الوضوء قبل الطعام ينفي الفقر، وبعده ينفي اللحم»**[6]. وقـال (ص): **«طعـام الاثنين كافٍ لثلاثـة، وطعـام الثلاثـة كـاف الأربعـة»**[7] وقـال (ص): **«كلـوا العجـين، فإنـه أحـد الربعين»**. واسـتخدم السواك لتنظيف الأسنان، وحدد العرب أيضاً أسـاليب مؤاكـلة الحكام والولاة

---

(1) ابن قتيبة - أدب الكاتب - طبع بيروت ١٩٨٨ - ص١٣٦ - الثعالبي - فقه اللغة - ص٣٦٤.

(2) ابن عبد ربه - أحمد بن محمد بن عبد ربه الأندلسي - العقد الفريد - طبع بيروت (دار الكتب العلمية) بدون تاريخ - ج٨ - ص١٦.

(3) عبد الأمير مهنا - أخبار النساء في كتاب الأغاني - طبع بيروت ١٩٩٣ - ص١٤٨.

(4) ابن قتيبه الدينوري - عيون الأخبار - المجلد الثاني - ج٣ - ص٢١٤.

(5) صحيح البخاري - ج٩ - ص٢٤.

(6) المرجع نفسه - ج٣ - ص٢١٥.

(7) البخاري - صحيح البخاري - طبع القاهرة ١٩٩٠ (٤٧٢٣) - ج٨ - ص٢٤.

وموائدهم المملوءة بالأوعية والصحون والملاعق الثمينة[1].

امتازت الحالة الاجتماعية في صدر الإسلام والعصر الأموي بعدم الاستقرار، كما هو معلوم، وحدثت تغييرات كثيرة، انعكست على الوضع الاجتماعي بشكل عام، وعلى التفنن في أنواع الأطعمة والأشربة، فالإسلام ألغى الفوارق الطبقية في المجتمع الجديد، ثم إن الهجرة من مكة إلى المدينة شكلت عبئاً اجتماعياً على الأنصار بشكل عام، إلا أن الأمور أخذت تختلف شيئاً فشيئاً، نحو الأفضل في العصر الراشدي، نتيجة التخطيط السليم والقيادة القادرة على قلب الواقع، إلى واقع أكثر تطوراً في شتى المجالات المادية.

وكان تحرير العرب لبلاد الشام ومصر من الرومان، والعراق من الفرس، والقضاء على سيطرة القوى العظمى الفارسية والرومانية، وانتشار الفتوحات شرقاً وغرباً كل ذلك ساعد في العصر الراشدي على التفنن في أنواع الأطعمة وحتى الأشربة، ورغم تحريم المسكر من المشروبات، دخلت أطعمة جديدة من الشعوب المعاصرة كالأطعمة الفارسية والرومانية وغيرها، من ذلك تنوع الحلوى والكعك والفواكه اليابسة والمجففة واستخدام البقول وأنواع الخبز وغير ذلك. وقد عرف العرب الكرمة قبل الإسلام وبعده، وأكلوها بعد نضجها، وجففوها، حتى صارت زبيباً، وأخذوا من العنب نبيذاً وغير ذلك، كما سيرد.

إذن دخلت إلى الأطعمة العربية أنواع جديدة، ما كان للعرب عهد بها من قبل، خاصة الحلوى (كالخشكناج[2] والأخبصة اليابسة والذانجوج والأقراص المعجونة باللبن والسكر ودقيق السميد والكعك المسمن والفواكه اليابسة[3]، وعرفوا الخبز الرقيق الواسع، وأكلوا البقول[4]، وأكلوا

---

[1] حسن إبراهيم حسن - تاريخ الإسلام السياسي والثقافي والاجتماعي - طبع مصر ١٩٦٤ - ج١ - ص٥٤٤.

[2] الخشكناج: نوع من الخبز يعد بالزبدة والسكر واللوز والفستق ويكون بشكل هلال.

[3] أبي الحسن علي بن الحسن بن علي المسعودي - مروج الذهب ومعادن الجوهر - تحقيق عبد الأمير مهنا - طبع بيروت ١٩٩١ - ج٣ - ص٤٠.

[4] محمد كشاش - الرجز في العصر الأموي - طبع بيروت ١٩٩٥ - ص٣٢.

أيضاً الكمأة[1]، وعرف العرب طعام العرس[2] المعروف بطعام الوليمة، وأكلوا (الفحا)[3]، وهي توابل، كالفلفل والكمون وغيرها.

ولم يقف التطور عند نوعية الأطعمة، بل شمل طرق الأطعمة وأدواتها، فاستعملوا في طعامهم الملاعق الخشبية أو الخزفية المستوردة، واستعملوا المناديل حول أعناقهم[4]، واستخدموا موائد الطعام، والكراسي حولها[5]، واستخدموا الخوان الذي يؤكل عليه الطعام، يقول الأخطل في عبد الملك بن مروان[6]:

وقَدْ جَعَلَ اللَّـه الخلافَـةَ فيكُـمُ   بأبيَضَ لا عاري الخِوانِ ولا جَـدْبِ

كما استخدموا السفرة، وهي في الأصل طعام، يتخذه المسافر، ثم أطلق مجازاً على جلد مستدير[7]، يحمل فيه هذا الطعام، كما يطلق على ما يبسط ليؤكل عليه، وعرفوا الأسواق والحوانيت، لبيع كل ما يحتاجه الناس، واستعملوا الدسيعة[8]، أي الجفنة أو المائدة الكريمة، واستخدموا القنع أو القناع[9]، أي الطبق الذي يؤكل عليه الطعام، واستعملوا النمارق[10]، (الوسائد) أو المرفق (المخدة) أثناء تناول الطعام أو الشراب، وما شابه ذلك، واستعملوا أيضاً العجاية، وهي: عصب فيه فصوص، كانوا إذا جاعوا دقوه، وأكلوه، وكانوا يدقونه بين فهرين، والفهر:الحجر

---

[1] محمد ضيف الله بطاينة - الحياة الاجتماعية في صدر الإسلام - ص١٧١.

[2] الأصفهاني - الأغاني - ج١٨ - ص٩.

[3] الأصفهاني - الأغاني - ج١٢ - ص٣٥٣.

[4] محمد كشاش - الرجز في العصر الأموي - ص٣٣.

[5] سيد أمير علي - مختصر تاريخ العرب - ترجمة رياض رأفت - طبع القاهرة ١٩٣٨ - ص١٩١.

[6] محمد عبد المنعم خفاجة - الحياة الأدبية بعد ظهور الإسلام - ص - ٥٤٣ - ديوان الأخطل - شرح مهدي محمد ناصر - طبع بيروت ١٩٨٦ - ص٢٧.

[7] عبد الأمير مهنا - أخبار النساء في كتاب الأغاني - طبع بيروت ١٩٩٣ - ص١٥ - الأغاني ج٢ - ص٣٥٨.

[8] محمد عبد المنعم خفاجة - الحياة الأدبية بعد ظهور الإسلام - ص٣١.

[9] أبي بكر محمد بن الحسن بن دريد الأسدي - كتاب الملاحم - طبع سورية ١٩٩٢ - ص١٢٨.

[10] أحمد بن يحيى بن زيد الشيباني (تغلب) شرح ديوان زهير بن أبي سلمى - طبع مصر ١٩٦٤ - ص٢٤٨- عبد الأمير مهنا - أخبار النساء - ص٢١.

يملأ الكف، يدق به الجوز وغيره، يقول حسان بن ثابت[1]:

وَعَصَاكِ إِسْتُكِ تتّقين بِهِ ... دقَّ العُجايَةِ عاريَ الفِهْرِ

إذا رجعنا إلى القرآن الكريم نلاحظ وجود الكثير من أنواع الخضار مثل: البصل والثوم والقثاء، والكثير من الحبوب: كالقمح والعدس والبقول، والأشجار المثمرة: كالتين والزيتون والكرمة، التي اشتهرت بها بلاد الشام قبل الإسلام، فمثلاً: كانت سورية تصدر زيت الزيتون، كما كانت تصنع الخمر، وتصدره أيضاً. وكان خمر أنطاكية واللاذقية قبل الإسلام من أحسن الأنواع وأفضلها.

إذن كانت حياة العرب الاجتماعية في بداية الإسلام بسيطة، والطعام كان بسيطاً، قوامه اللبن والتمر والقمح والبقول وبعض الفاكهة. أما اللحوم، فلم تكن عنصراً أساسياً في الغذاء اليومي، أما فيما بعد أن انتشر الإسلام، واتسعت رقعة الدولة، فقد وجدت طبقة اجتماعية راقية، أقامت المآدب الفخمة، التي تقدم فيها أغلى المأكولات، وأندرها. علماً أنهم كانوا يتفننون في إعدادها، ووجد من أجل ذلك أمهر الطهاة، حتى أن بيوت الحكام والولاة حفلت بموائد، زينت بالعاج المطعم بالذهب. وأما عامة الشعب، فكانت حياتهم مرهقة، تناولوا الطعام حسب وضعهم الاجتماعي. أما أهم المأكولات، التي كانت موجودة قبل الإسلام، واستمرت بعده، فهي: العسل[2] (الاري): حيث استخدم في الجاهلية، واستمر استخدامه بعد الإسلام يقول الأعشى[3]:

كَأَنّ جَنِيّاً مِنَ الزّنْجَبِيلِ ... خالَطَ فَاهَا وَأرياً مَشُوراَ

واستخدم العرب الشراب، كشراب الزبيب[4]، وعصارة قصب السكر[5]، كما استخدموا الفطائر، يقول جرير[6]:

---

[1] ديوان حسان بن ثابت - طبع دار صادر - بيروت - ص١٣٢ - محمد محمد حسين - الهجاء في الجاهلية - طبع بيروت ١٩٧٠ - ص٢٤٢.

[2] غازي طليمات - عرفان الأشقر - أدب الجاهلي - طبع سورية ١٩٩٢ - ص١٢٤ - الأغاني - الأصفهاني - ج٢١ - ص١٦٦ - الطبري - تاريخ الرسل والملوك - ج٤ - ص٢٠٨.

[3] ديوان الأعشى - تحقيق عمر فاروق الطباع - طبع بيروت - دار القلم - ص١٠٨.

[4] الأغاني - الأصفهاني - ج٢٠ - ص٣٩٥.

[5] المرجع نفسه - ص٤١١.

[6] محمد حسين - الهجاء والهجاؤون في الإسلام - طبع بيروت ١٩٦٩ - ص١٣٤.

تُكَلِّفُني مَعيشَةَ آلِ زَيْدٍ وَمَنْ لَي بالصَّلائِقِ وَالصَّنابِ

والمرفق[1] هنا: نوع من الفطائر، وقيل: نوع من الأرغفة الواسعة الرقيقة، أما الصناب: فهو لون من الحساء، يتخذ من الخردل والزبيب. وعند الختان كان يصنع طعام، عرف بطعام الغذاء[2] وهو طعام، لا يصيب منه المرء إلا القليل، وعرفوا وليمة العرس أيضاً، واستخدم العرب الرحى لطحن الحبوب، وكانوا يضعون تحت الرحى جلدة، عرفت باسم: (الثفال). إذن استخدمت الرحى، ليقع الدقيق عليها، يقول زهير بن أبي سلمى[3]:

فَتعرُكُكُمْ عَرْكَ الرَّحَى بِثِفالِها وَتلقَحْ كِشافاً ثمّ تُنتَجْ فتُتئِمِ

وقال مسكين الداري[4]:

كِلانا شاعرٌ من حَيٍّ صِدقٍ ولكن الرَّحَى فوقَ الثِّفالِ

وعند طهي الطعام استخدموا (الأثافي)[5]: أي الحجارة، التي يجعل عليها القدور، واحدتها: أثفية، يقول زهير بن أبي سلمى:

أثافيَّ سُفعاً في مُعَرَّسِ مِرجَلٍ وَنُؤياً كجِذمِ الحَوْضِ لَمْ يَتَثَلَّمِ

ووصف العرب بالكرم وخاصة في فصل الشتاء، لأنه وقت الجدب، حيث يحرص فيه الناس على ما عندهم. والكريم كان يعرف بأنه كلما ارتفعت أعمدة الخباء عنده، كان أهلاً لذلك. فاتساع الخباء أدل على شرفه، وهذا عكس ما كان للفقراء والسوقة، فأعمدة الخباء عندهم كانت قصيرة لاصقة بالأرض. ومن آداب الطعام عندهم استعمال الماء قبل الطعام وبعده أو استخدام

---

[1] ابن منظور ـ لسان العرب ج٨ ـ ص٥٨.

[2] عبد الأمير مهنا ـ أخبار النساء في كتاب الأغاني ـ ص٢٤٨ ـ الأصفهاني ـ الأغاني ـ ج١٤ ـ ص١١٦.

[3] غازي طليمات ـ عرفان الأشقر ـ الأدب الجاهلي ـ ص٣٠١.

[4] الجاحظ ـ البيان والتبين ـ ج١ ـ ص٣٥١ ـ محمد محمد حسين ـ الهجاء والهجاؤون في الجاهلية ـ ص١٠٥.

[5] الأصفهاني ـ الأغاني ـ ج١٧ ـ ص ١٨ ـ غازي طليمات ـ عرفان الأشقر ـ ص٢٩٦ ـ ديوان زهير بن أبي سلمى ـ دار صادر ـ ص٧٥.

السواك لتنظيف الأسنان وحددوا أيضاً أساليب مؤاكله الحكام والولاة[1] وموائدهم المملوءة بالأوعية الثمينة.

أولاً ـ طعام التمر:

نظراً لتوفر التمر كان يعد من الأطعمة الرئيسية عند العرب. فكانوا يأكلونه قبل النضوج، ويسمى: (بسراً)، ويأكلونه رطباً أي ناضجاً، واستعمل التمر مع مواد أخرى للأكل، كما سيرد. وللتمر أنواع متعددة، ذكر منها:

ـ **البسر**: وهو التمر قبل أن يكون رطباً.

ـ **الرطب**[2]: وهو التمر حين ينضج على شجر النخيل، وقيل: هو ما نضج من البسر، قبل أن يصير تمراً. والواحدة رطبة، والجمع، رطاب أو أرطاب، وكان العرب يدخرونه قوتاً لسنتهم، وكانوا يحفظونه في أوعية تتخذ من الخوص، عرفت باسم الجلة[3]، والجلة: وعاء تتخذ من الخوص، كما ذكرنا، يوضع فيها التمر ويكنز، وقيل: الصقر وهو دبس الرطب[4]، وقيل: الرطب في رؤوس النخل[5]، وقيل: الصقر اللبن الشديد الحموضة، وقيل: الصقر ما يجلب من العنب والزبيب والتمر، من غير أن يعصر. أخيراً العجوة: وهي من التمر اليابس.

واستخدموا التمر مع مواد أخرى، وأكلوه. من ذلك أنهم كانوا ينقعون التمر باللبن، حتى ينتفخ، ثم يأكلونه. ويعرف بهذه الحالة باسم: الحيس[6]، وكانوا يضيفون إلى التمر اللبن والسمن بعد أن ينتزعوا من التمر نواته، ويعرف أيضاً باسم: الحيس. وهو ألذ وأشهى. وقيل الحيس[7]: تمر يخلط بسمن وأقط. فيعجن عجناً شديداً. وأكلوا الأقط. وقيل الحساء: (يؤخذ الخبز النقي اليابس أو الكعك، ويدق جيداً، وليكن منه رطل، ومن التمر الأزاذ أو المكتوم نصف أو ربع رطل، وليكن

---

[1] حسن إبراهيم حسن ـ تاريخ الإسلام السياسي والثقافي والاجتماعي ـ ج١ ـ ص٥٤٤.

[2] البخاري ـ صحيح البخاري ـ كتاب الأطعمة باب الرطب ـ ج٩ ـ ص٤٠.

[3] محمد عبد المنعم خفاجة ـ الحياة الأدبية بعد ظهور الإسلام ـ ص١٥٦ ـ الأصفهاني ـ الأغاني ـ ج١٢ ـ ص٢٥٢ ـ ج٢ ـ ص٣٥٤.

[4] الأزدي ـ أبي بكر محمد بن الحسن بن دريد ـ كتاب الملاحم ـ ص٧٦ ـ التعالبي ـ فقه اللغة ـ ص٢٩١.

[5] عبد القادر حرفوش ـ فصيحات العرب وبليغاتهم في الجاهلية والإسلام ـ ص١٨٦.

[6] عبد الأمير مهنا ـ أخبار النساء ـ ص١٤٨.

[7] حسن إبراهيم حسن ـ تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي ـ ج١ ـ ص٥٤٤.

منزوع النوى، ومن لب اللوز أو الفستق المدقوقين ثلاث أواق، ويمرس الجميع باليد مرساً جيداً قوياً. ثم يخلع من الشيرج أوقيتان، وتسكب عليه. ولا يزال يمعك باليد حتى يختلط، ويعمل منه كبب، وترمل في السكر المدقوق ناعماً. ومن أراد جعل عوض الشيرج سمناً، وهذا يصلح للمسافرين).

والأقط[١]: شيء يتخذ من المخيض الغنمي، وقيل: الحيس[٢]، ثم ينزع نواه، ويدق مع أقط، ويعجنان بالسمن، ثم يدلك باليد، حتى يبقى كالثريد. وقيل: إذا خلط التمر بالسمن، عرف باسم الخبيص[٣] وقد يطلق على حيس التمر اسم الثريد، وقد يخلط التمر مع الدقيق والسمن، ثم يؤكل، كما أكل التمر مع القثاء أو البطيخ. واستخدم التمر أيضاً لأغراض الشراب كما سيرد.

ومن التمر ما عرف باسم: **(القسب)**[٤] التمر اليابس، صلب النواة يتفتت في الفم، وكل ما يطبخ من التمر وسواه عرف باسم: **(الرب)**[٥]، وأكلوا **الجمار**[٦] وهو شحم النخل واحدته تسمى جمارة، وجمارة النخل شحمته، التي في قمة رأسه، تقطع قمته، ثم تكشط عن جمارة في جوفها بيضاء، كأنها قطعة سنام ضخمة، وهي رخصة، تؤكل بالعسل والكافور.

ثانياً: الخبز:

بعد انتشار العرب خارج وطنهم، شاع استعمال الخبز[٧]، وأصبح من الأطعمة الرئيسية. كان الخبز يستعمل من الحبوب: كالقمح والشعير، كان يدق الحب، ثم يطحن، ثم ينخل[٨]، ثم يعجن، بعد ذلك يخبز في فرن، عرف باسم التنور[٩]، ولطحن الحبوب استعملت الرحى، وكان يوضع تحتها

---

[١] البخاري ـ صحيح البخاري ـ كتاب الأطعمة ـ باب الأقط ـ ص٢٧.

[٢] عبد القادر حرفوش ـ فصيحات العرب وبليغاتهم في الجاهلية والإسلام ـ البخاري ـ صحيح البخاري ـ كتاب الأطعمة ـ باب الحيس ـ ص٣٤.

[٣] محمد عبد المنعم خفاجة ـ الحياة الأدبية بعد ظهور الاسلام ـ ص٤٣٠.

[٤] الأصفهاني ـ الأغاني ـ ج١ ـ ص٣٨٦ ـ ج١٦ ـ ص٥٣.

[٥] الأصفهاني ـ الأغاني ـ ج٢ ـ ص٢٧٤.

[٦] الأصفهاني ـ الأغاني ـ ج٢ ـ ص٣٥٣ ـ ابن منظور ـ اللسان ج٤ ـ ص١٤٧.

[٧] البخاري ـ صحيح البخاري ـ الجزء التاسع ـ كتاب الأطعمة ـ باب الخبز ـ ص٢٢ ـ ابن عساكر ـ تاريخ دمشق ـ ج٣٩ ـ ص٥٣ ـ الطبري ـ تاريخ الرسل والملوك ـ ج٤ ـ ص١٨٧.

[٨] الأصفهاني ـ الأغاني ـ ج٣ ـ ص١١٩.

[٩] ليلى صباغ ـ المرأة في التاريخ العربي ـ طبع دمشق ١٩٧٥ ـ ص٦٦.

جلد، يتجمع عليه الدقيق، يسمى هذا الجلد الثِفَال. وقد يطبخ الشعير مع بعض الخضار كالسلق، ويؤكل. واستعمل العرب الخبز مع أطعمة أخرى[1]. فالخبز كان يؤكل مع الزيت أو السمن أو اللبن أو خبز بالزيت والخل أو باللبن أو بالزيت والملح أو بالقديد. وبعضهم كان يأكل اللحم، أي أن الموائد كانت تختلف من أسرة إلى أخرى، حسب وضعها الاجتماعي وطبقتها. ومن الأطعمة التي استعمل الدقيق فيها:

- **السخينة**[2]: ذكرها عبد الرحمن بن همام السلولي في مبايعة معاوية لابنه يزيد، وهو يهاجم نظام الوراثة، الذي استحدثه معاوية[3] قائلاً: إنه كسروية ليس في الإسلام في شيء يقول:

إذا مات كسرى قام كسرى ... نعدُّ ثلاثةً متَنَاسقينَا
إذاً لضربتُمُ حَتَّى تعودوا ... بمكة تلعقون بها السَّخِينَا
خشينا الغيظ حَتَّى لو شَرِبْنَا ... دماء بني أُميَّة ما رَوِيَنَا
لقد ضاعت رَعِيَّتكُم وأنتم ... تَصِيدُون الأرانبَ غافلينا

وقيل السخينة[4]، التي ارتفعت عن الحساء، وثقلت عن أي حساء، وهي طعام يتخذ من الدقيق دون العصيدة في الرقة وفوق الحساء، وإنما يأكلون السخينة في شدة الدهر وغلاء السعر وعجف المال، وكانت قريش تعير بها، حتى سموا بالسخينة. وقيل: السخينة طبخ الدقيق مع الماء[5]. وقد تسمى السخينة: الحريرة، وفي أيام القحط أكل العرب القت[6]، والقت: حب بري، يدقه أهل البادية، ويطبخونه على ما فيه من الخشونة، في عام القحط، وأكلوا حب السلم، وخزنوه للشتاء، والسلم[7]: شجرة ذات أشواك، يدبغ بورقها وقشرها، وسمي ورقها: القرظ، لها زهرة صفراء، فيها حبة خضراء طيبة الديم، وتؤكل في الشتاء، وهي في الصيف تخضر.

---

[1] المسعودي - مروج الذهب - ج٣ - ص٣٨.

[2] محمود فردوس العظم - إبراهيم سيف الدين التركماني - الشهد المذاب فيما لذ وطاب - طبع دمشق - بدون تاريخ - ص١٣.

[3] محمد ضيف الله البطاينة - الحياة الاجتماعية في صدر الإسلام - ص١٧٧.

[4] الأصفهاني - الأغاني - ج١٦ - ص٢٤٦ - ج١٣ - ص٢٠٦.

[5] المرجع نفسه - ج١ - ص٣٨٦.

[6] المرجع نفسه - ج٦ - ص٢٥ - لسان العرب لابن منظور - ج١٢ - ص٢٩٦.

[7] ابن عبد ربه - العقد الفريد - ج٦ - ص٦٤ - ابن قتيبه - الشعر والشعراء - الأغاني للأصفهاني - ج٥ - ص٢٧.

ـ **الثريد:** يذكره يحيى بن نوفل الحميري، عندما هجا بلالاً بن أبي بردة الأشعري، الذي وصف بأنه كان مدمناً للشراب، لا يصبر عنه ليلاً ولا نهاراً يقول[1]:

فانقع في السمنِ أوصاله كما أَنقَعَ الآدُمون الثريدا

وإدام الخبز المذكور عبارة عن حلقة بطبيخ أو حساء أو شيء يسقيه به[2]، والثريد يكون بلحم أو بلبن أو بخل وزيت أو بسمن، وقيل: ثريد الخبز، وهو فتة بتمر وبله بالمرق.

ـ **السويق**[3]: هو طعام يتخذ من مدقوق الحنطة والشعير وقيل: السويق هو معالجة الشعير والقمح بالنار، ثم يطحن، ويضاف إليه العسل والسمن، وهذا الطعام كان يستخدمه العرب في الأسفار، وسميت غزوة السويق بهذا الاسم لأن المشركين كانوا يحملون السويق بكثرة، وسمي بالسويق لانساقه بالحلق[4].

ـ **التلبيتة:** وهي حساء، يتخذ من الدقيق أو النخالة أو اللبن، وقد يضيفون إليه العسل، وقد ذكرتها عائشة زوج النبي (ص) بقولها: سمعت رسول الله (ص) يقول: «**التلبيتة محمة لفؤاد المريض، تذهب الحزن**»[5].

الأطعمة من اللحم:

مصادر اللحم ثلاثة: إما برية أو بحرية أو جوية فمن الحيوانات البرية أكل لحم البقر والشاة والماعز والجمال، ومن البحرية الأسماك، ومن الجو الطيور كالحمام والسلوى والحباري والدجاج، وأكلوا الجراد[6] وأكلوا اللحم مطبوخاً أو مشوياً[7] أو جعلوه مع أطعمة أخرى وجعلوا منه القديد.

واستعملوا أسياخ اللحم من الحديد، والمعروفة باسم السفود[8]، والتي كان ينظم بها اللحم،

---

(1) محمد محمد حسين ـ الهجاء في صدر الإسلام ـ ص٦١ ـ صحيح البخاري ـ كتاب الأطعمة ـ باب الثريد ـ ج٩ ـ ص٣٢.

(2) عبد الأمير مهنا ـ أخبار النساء في كتاب الأغاني ـ طبع بيروت ١٩٩٣ ـ ص٨٠ ـ الأغاني للأصفهاني ـ ج١٧ ـ ص٢٧ ـ ج٣ ـ ص٦٨ ـ ج١٢ ـ ص٧٨ ـ ج١٢ ـ ص٢٧٤ ـ ج١٦ ـ ص١٦٧ ـ ج٢١ ـ ص٣٧٦.

(3) صحيح البخاري ـ كتاب الأطعمة ـ باب السويق ـ ص٢٣.

(4) ابن هشام ـ السيرة ـ ج٣ ـ ص٤٨.

(5) البخاري ـ صحيح البخاري ـ كتاب الأطعمة ـ باب التلبينة ـ ص٣٢ ـ مالك الموطىء ـ ج٢ ـ ص٩٢٧ ـ ٩٢٨.

(6) الزبير بن بكار ـ الأخبار الموفقيات ـ تحقيق سامي مكي العاني ـ طبع بغداد ١٩٧٢ ـ ص١٤٥ ـ ١٤٦.

(7) ابن عساكر ـ تاريخ دمشق ـ ج٣٩ ـ ص٥٣.

(8) محمد محمد حسين ـ الهجاء في صدر الإسلام ـ ص٨١ ـ عبد الأمير مهنا ـ أخبار النساء في الأغاني ـ ص١٩١.

حتى يشوى، كما وجدت حوانيت لبيع اللحم. وكان اللحم يقطع إلى قطع، عرفت باسم الخصائل[1] وكان اللحام يستخدم قطعة خشبية، يقطع عليها اللحم عرفت باسم الوضح، وعرفوا اللحم المتشل من القدر على غير نضج باسم النشيل[2].

وعرف العرب مرق اللحم باسم السكباج[3]، «وصنعته أن يقطع اللحم السمين أوساطاً ويجعل في القدر، وغمرة ماء وكسفرة خضراء وعود دار صيني وملح قدر الحاجة. ثم إذا غلى، تخرج رغوته وزبده بالمغرفة، ويرمى، ثم يجعل عليه كسفرة يابسة، وتنحى عنه الخضراء. ثم يؤخذ البصل الأبيض والكراث الشامي والجزر، إن كان أوانه، أو الباذنجان، ويقشر الجميع ويشق البذنج صليباً ويسلق في قدر أخرى في ماء وملح نصف سلقة، ثم ينشف من مائه ويترك في القدر فوق اللحم، (وتلقى عليه الأبازير، ويعدل ملحه) فإذا قارب النضج، يؤخذ خل خمر ودبس، ومن أحب جعل العسل، إلا أنها بالدبس أليق، وتمزج مزجاً معتدلاً في الحموضة والحلاوة، ثم يصب في القدر، فتغلى ساعة، فإذا أراد قطع النار أخذ من المرقة قليلاً، وداف فيه قدر الحاجة زعفراناً، وصبه في القدر، ثم يؤخذ لوز مقشر حلو مفرد بنصفين، ويترك في رأس القدر مع يسير عناب وزبيب وتين يابس وتغطى ساعة، حتى تهدأ على حمرة النار، وتمسح جوانبها بخرقة نظيفة، ويرش على رأس القدر ماء ورد فإذا هدأت على النار، رفعت».

وهناك سكباج تنوري، «يعمل بأن يقطع اللحم، ويلقى في القدر، وتجعل معه الأبازير والتوابل، ويحل الدبس بالخل، ويصبغ ذلك جميعه بالزعفران، ثم يعدل ملحها، وتحط في التنور مغطاة الرأس من أول الليل إلى بكره، ثم ترفع». وعرفوا مرق السكباج المبرد المصفى من الدهن باسم (الهلام)، وعرفوا دق السكباج المبرد المصفى من الدهن، والمعروف باسم الخاميز[4]؛ وقيل: السكباج لحم، يطبخ بخل، وقيل: الخاميز طعام يتخذ من لحم العجل، وقيل هو مرق السكباج.

وعرف العرب أيضاً: الموشق[5] وهو الذي يطبخ بماء وملح، ثم يجفف، ويحمله القوم معهم.

---

[1] عبد الأمير مهنا ـ أخبار النساء في الأغاني ـ ص٢٩٩.

[2] المرجع نفسه ـ ص٢٦٠ ـ الأصفهاني ـ الأغاني ـ ج٥ ـ ص٢٣١.

[3] الأصفهاني ـ الأغاني ـ ج١١ ـ ص١٤٨.

[4] المرجع نفسه ـ ج١١ ـ ص١٤٨.

[5] غازي طليمات ـ ص٢٦٣.

وعرف طعام الشتوات[1]، وهو ما عرف بطعام الشتاء، ويصنع من البر ولحم الغنم والشياه، وخاصة في حال الضيق. وعرف العرب أيضاً صيد الطيور، وأكلوا لحومها، كما اصطادوا الأسماك، وأكلوا أيضاً لحومها وصنعوا منه طعاماً، عرف باسم الصحناة[2]، الذي كان يتخذ من صغار الأسماك. يقول ابن هشام همام السلولي:

مـــا رابـــني منهـــمُ إلا ارتفـــاعهمُ   إلى الخبيـص عـن الصَّحْنَـات والبصَـلِ

ومن الأطعمة الأخرى السنبوسجة[3]: وهي ما يحشى بقطع لحم وجوز ونحوه من الرقاق المعجون بالسمن.«أما السنبوسج، فهو أن يؤخذ اللحم الموصوف في عمل المقلوبة، ويقطع الخبز الرقيق المتخذ لذلك، ويحشى باللحم المذكور، بعد أن يقطع سيوراً ويعمل مُثَلثَاً، ثم يلصق بيسير عجين. ويلقى في الشيرج، ثم يرفع.

وأما الذي يسمى: **المكلّل**، فهو أن يُحشى عوض اللحم بالسكر واللوز المدقوقين ناعماً المعجونين بماء الورد أو بالحلواء الصابونية، ويقلى. ومن الناس من يخرجه من الشيرج، فيجعله في الجلاّب، ثم يرفعه منه، ويتركه في السكر المدقوق ناعماً المطيب بالمسك والكافور لمن أراده».

ومن أنواع اللحوم (**الغريض**)[4]: وهو الغض الطري من اللحم والماء واللبن والتمر. **والنحض** (النحضة)[5]: اللحم المكتنز كلحم الفخذ.وعرف الدسم دسم اللحم بالودك[6]، وقيل ودك جعل فيه الودك، وهو الدسم أو دسم اللحم ودهنه، الذي يستخرج منه.وعرف العرب: ـــ **الفريك**[7]: طعام يفرك، و يلت بسمن وغيره.

ـ **البزماورد**[8]: طعام لقمة القاضي، وفخذ الست، ولقمة الخليفة، وهو مصنوع من اللحم

---

(1) محمد عبد المنعم خفاجة ـ الحياة الأدبية بعد ظهور الإسلام ـ ص٢١٥.

(2) شوقي ضيف ـ التطور والتجديد في العصر الأموي ـ طبع مصر ١٩٧٧ ـ ص ١٢٦.

(3) الأصفهاني ـ الأغاني ـ ج١ ـ ص٩٢.

(4) المرجع نفسه ـ ج١ ـ ص١٨٧.

(5) المرجع نفسه ـ ص١٨٨.

(6) المرجع نفسه ـ ج٣ ـ ص٩٢.

(7) المرجع نفسه ـ ج٦ ـ ص٢٢ ـ ابن منظور ـ لسان العرب ـ ج١٠ ـ ص٤٧٣.

(8) المرجع نفسه ـ ج٥ ـ ص٧٧.

المقلي بالزبدة والبيض، وقيل: (صنعته أن يؤخذ الشواء الحار، الذي قد فتر وهجه ويقطع، ويجعل عليه ورق النعنع ويسير خل وليمون مملوح ولب جوز. ويرش عليه يسير من ماء ورد، ويدق بالساطور دقاً ناعماً ولا يزال يسقى خَلاً إلى أن يشربه جيداً. ويؤخذ الخبز السميد الفائق الملبّب، فيخرج لبابه، ثم يحشى من ذلك الشواء حشواً جيداً ويقطع بالسكين قطعاً متوسطة مستطيلة، ويؤخذ مركن فخار يبل بالماء وينشف، ويرش فيه ماء ورد، ثم يفرش فيه نعنع طري، ويعبأ فيه بعضه فوق بعض، ثم يغطى أيضاً بشيء من النعنع ويترك ساعة ويستعمل، ويؤكل أيضاً بائتاً فيكون طيباً).

ـ **المصوص**[1]: ضرب من الطعام، يطبخ باللحم المنقوع في الخل، وهو لحم الطير خاصة.

ـ **الكمأة**[2]: قيل عنها: جدري الأرض، وقيل: هي نبات، يقال له: شحم الأرض، فطر من رتبة الزرقيات، والفصيلة الكمئية وهي أرضية، تتفتح حاصلات أبواغها (أكياس بذورها)، فتجنى وتؤكل مطبوخة، توجد في الربيع من تحت الأرض. وأصلها مستدير كالقلقاس، لا ساق لها بل عروق، لونه يميل إلى الغبرة، والجمع كمأة، وقيل: إن الذباب لا يقرب قدراً فيه كمأة، وفي الحديث الشريف أن الرسول (ص) كان يقول: «الكمأة من المن، وماؤها شفاء للعين، والعجوة من الجنة، وهي شفاء من السقم»[3].

ـ **الصبر**[4]: نوع من الحساء.

ـ **طعام المز**[5]: هو ما كان بين الحموضة والحلاوة، وهذا النوع من الطعام يستساغ مع الشراب. وعرف العرب أنواعاً من الحلواء منها:

الخبيص[6]: الحلواء المخبوصة، وخبص الحلواء خلطها وعملها، ذكرها الأصفهاني قال: (تزوج زيد بن عمرو بن عثمان بن عفان سكينة، وكان أبخل قريش رأيته، فخرج حاجاً، وخرجت سكينة معه، فلم تدع إوزة ولا دجاجة ولا خبيصة ولا فاكهة إلا حملته معها). وقيل الخبيصة:

---

(1) الأصفهاني ـ الأغاني ـ ج٢٤ ـ ص١٩١.

(2) المرجع نفسه ـ ج١١ ـ ص١٠٤.

(3) مختصر صحيح مسلم ـ تحقيق ـ البغا ـ طبع دمشق ١٤٧٦ ـ ص٤٣٦.

(4) الأصفهاني ـ الأغاني ـ ج٢١ ـ ص٣٩٧.

(5) المرجع نفسه ـ ج٣ ـ ص١٩٧.

(6) المرجع نفسه ـ ج٥ ـ ص٧١ ـ ج١٦ ـ ص١٦٦ ـ ج٢١ ـ ص٣١٤ ـ ج١٩ ـ ض١٨٨.

الحلواء المخبوصة من التمر والسمن، ومنها:

الحريرة[1]: طعام اللبن والدقيق يحلى بالعسل أو التمر، وطريقة صنعها: يوضع الدقيق مع اللبن، ثم يترك على النار حتى درجة الغليان، ثم يحلى بالسكر أو العسل. ومنها:

اللوزينج[2]: من الحلواء شبه القطائف يؤدم بدهن اللوز، وقيل: (يؤخذ رطل سكر، فيسحق، ويؤخذ ثلث رطل لوز مقشر، فيسحق أيضاً ناعماً، ويخلط مع السكر، ويعجن بماء الورد، ثم يؤخذ من الخبز المرقق كخبز السنبوسك، وإن كان أرق فهو أجود، فيبسط الرغيف من ذلك الخبز، ويجعل عليه اللوز والسكر المعجون، ثم يطوى كالسير، ويقطع قطعاً صغاراً ويصفّ، ويخلع الشيرج الطري حسب الحاجة، ويجعل عليه، ثم يغمر بالجلاب، الذي قد أضيف إليه ماء الورد، وينثر عليه الفستق المدقوق ناعماً).

خشكنانج[3]: (هو أن يؤخذ الدقيق السميد الفائق، ويجعل على كل رطل ثلاث أواق، ويعجن عجناً قوياً، ويترك حتى يختمر، ثم يقرص مستطيلاً، ويجعل في وسط كل واحدة بمقدارها من اللوز والسكر الدقيق المعجون بماء الورد المطيب، (وليكن اللوز مثل نصف السكر)، ثم تجمع على العادة، وتخبز في الفرن، وترفع).

اللبن:

هو غذاء رئيسي عند العرب، وعرف بأسماء مختلفة من ذلك.

- (**الصريف**)[4]: وهو اللبن ساعة حلبه، أو الحليب ساعة يصرف عن الضرع، وهو ما يسمى: بالحليب الطازج، وقيل: هو الذي يتصرف وقت حلبه حاراً، فإذا سكنت رغوته، فهو الصريح.

- ومنه ما عرف باسم (**الضريب**)[5]: وهو اللبن، يحلب من عدة لقاح في إناء واحد.

---

[1] الأغاني - الأصفهاني - ج١٦ - ص٢٣٤.

[2] المرجع نفسه - ج١ - ص ٩٣.

[3] أبو الحسن المسعودي - مروج الذهب - ج٣ - ص٤٠.

[4] عبد القادر فياض حرفوش - ص١٨٦، محمد فردوس العظم - ص١٨٣ - الأغاني للأصفهاني - ج٤ - ص١٧٣- ج١٦ - ص٨٠ - ص٢٤٤.

[5] المرجع نفسه - ص١٨٦.

- ومنه ما عرف باسم (**لبن جهير**)[1]: وهو الذي لم يمزج بماء.

- ومنه ما عرف باسم (**لبن ثمير**)[2]: وهو اللبن الذي لم يخرج زبده.

- ومنه ما عرف باسم **القارص**[3]: وهو الحامض من ألبان الإبل خاصة.

- ومنه ما عرف باسم (**المحض**)[4]: وهو اللبن حين حلبة وذهاب رغوته، وقيل هو اللبن الخالص.

- ومنه ما عرف باسم (**لبن جازر**)[*]: وهو اللبن الحامض.

- ومنه ما عرف (**الرثيئة**)[6]: وهو اللبن الخاثر مباشرة، وقيل الحليب يصب عليه اللبن الحامض، فيروب من ساعته، وقيل: اللبن الحامض يخلط بالحلو، فيختر.

- وعرف باسم (**الصقر**)[7]: وهو لبن أشد حموضة، وقيل: دبس رطب.

- ومنه ما عرف باسم (**الظليم**)[8]: وهو اللبن قبل أن يروب. وقيل: المظلوم، هو السقاء، الذي يشرب لبنه قبل مخضه وإخراج زبدته.

- ومنه ما عرف أيضاً باسم (**المروب**)[9]: وهو الذي لم يمخض، و لم تؤخذ زبدته وقيل: أرابت اللبن إرابة، وروبته ترويباً: إذا جعلته في الشمس، لتمخضه، أما الرائب: فهو الممخوض المخرج زبدته.

- ومنه ما عرف باسم (**الأقط**)[10]: وهو اللبن المجفف، ويجفف الأقط على حجرين ينصبان، ليطرح عليهما حجر رقيق، يسمى المغلاة، يجفف عليها الأقط وقيل: الأقط: شيء يتخذ من اللبن المخيض يطبخ، ثم يترك، حتى يمصل، والقطعة منه أقطة، وقيل: هو من ألبان الإبل خاصة.

---

(1) عبد القادر فياض حرفوش - ص١٩٤.

(2) المرجع نفسه - ص١٩٤.

(3) غازي طليمات - ص١٢٤.

(4) المرجع نفسه - ص ١٢٤ - الأغاني - للأصفهاني - ج٥ - ص٣١٨.

(*) محمد فردوس العظم - ص ١٨٢ - الأغاني - للأصفهاني - ج٢ - ص ٢٨٤ - ج٥ - ص٢٠.

(6) المرجع نفسه - ص ١٨٣ - الأغاني - للأصفهاني - ج١٦ - ص٨٠.

(7) أبي بكر محمد بن الحسن بن دريد الأزدي - كتاب الملاحن طبع دمشق ١٩٩٢ - ص٧٦.

(8) المرجع نفسه - ص٨٥.

(9) المرجع نفسه - ص٨٥.

(10) المرجع نفسه - ص٨٦ - الأغاني - للأصفهاني - ج١١ - ص٨٧ - ج٢ - ص١١٢.

وقيل: الأقط: هو لبن محمض، يجمد، حتى يتحجر، ويطبخ أو يطبخ بـه، يذكره الأصفهاني بقوله: «إذا كان أيام عكاظ أتاها زهير، ويأتيها الناس من كـل وجه، فتأتيه هوازن بالأتاوة، التي كانت له في أعناقهم، فيأتون بالسمن والأقط والغنم».

وكان اللبن يحفظ، ويجمع في وعاء اسمه (**الحقين**)[1]: أي يحقن في السقاء، ويجمع، والغاية إخراج زبدته، ويستعمل اللبن مع الخبز واللحم والتمر وغير ذلك، كما ورد.

وعرف اللبن عند أول الإنتاج باسم (**اللبأ**)[2].

كما عرف باسم (**الرسل**)[3].

وعرف أيضاً باسم المذقة[4]، وهو اللبن المخلوط بالماء.

وعرف اللبن باسم: **الوطب**[5] كما عرف باسم: لبن **قرص**[6]، وهو ما يلدغ اللسان من شدة حموضته، وعرف باسم: **الدر**[7]، وعرف باسم **المحض**[8]، وعرف باسم **القيل**[9]: أي ما يشرب نصف النهار.

الخمرة:

كان الخمر شائعاً قبل الإسلام، وعندما جاء الإسلام أبطله، وهنا شروحات وخلافات كثيرة في كتب الفقه حول ذلك. إلا أن استعماله استمر، وللخمر أسماء كثيرة في كتب الأدب.

ـ منها (العصير)[10] أي عصير العنب، أو ما يعتصر ليخمر يقول الأخطل[11]:

---

[1] أحمد بن يحيى بن زيد الشيباني ـ ثعلب ـ شرح ديوان زهير بن أبي سلمى ـ طبع بيروت ١٩٦٤ ـ ص١٩٢.

[2] الأصفهاني ـ الأغاني ـ ج٢ ـ ص٣١٢.

[3] الأصفهاني ـ الأغاني ـ ج٢ ـ ص٣١٢.

[4] الأصفهاني ـ الأغاني ـ ج٢٢ ـ ص٣١٦.

[5] المرجع نفسه ـ ج١٠ ـ ص١٤٤ ـ ج١٦ ـ ص٢٢١.

[6] المرجع نفسه ـ ج١١ ـ ص١٤٤.

[7] المرجع نفسه ـ ج١٢ ـ ص٢٧٧ ـ ج١٤ ـ ص٢٣١.

[8] المرجع نفسه ـ ج١٣ ـ ص٢٤٩.

[9] المرجع نفسه ـ ج١٣ ـ ص٢٤٩.

[10] محمد محمد حسين ـ الهجاء والهجاؤون في صدر الإسلام ـ ص٧٦.

[11] المرجع نفسه ـ ص٧٦.

قـــومُ إذا هـــدَرَ العصـــيرُ رأيتَهـــم حمـــراً عيونُهُـــم كجمـــر النـــار

- ومن أسمائه الصهباء[1] وهي من عنب أبيض - يذكرها أيضاً الأخطل بقوله[2]:

ولقَـــد تُبـــاكرُني عَلـــى لذّاتهـــا صَهْبـــاءُ عاريَـــةُ القـــذى خُرطـــومُ

مِـــنْ عـــاتِقٍ حَدِبَـــتْ عَلَيـــهِ دِنانُـــهُ وكأنّهـــا جَرْبـــى بِهـــنَّ عَصِيـــمُ

وعرفت الصهباء باسم الصهباء المروق، أي الخمر الصافي، وقيل: هي الخمر الضاربة إلى الحمرة والبياض، وقيل صهباء إلياسية وهي خمرة منسوبة إلى إلياس بائع الخمور.

وعرفت الخمزة أيضاً باسم (الجربال)[3] وذكرها جرير في هجائه الفرزدق بقوله:

خَمَمـتَ وَجَهـكَ فَـوقَ كِـيرِكَ قائمـاً وَسَـقَيتَ أمَّـــكَ فَضلَـــةَ الجِربَـــالِ

وغنت جميلة[4] (المغنية في صدر الإسلام):

وتكـــون رِيقَتُهـــا إذا نَبهّتَهـــا كالمســـك فـــوق سُـــلاَفة الجِربـــالِ

ومن أسمائها (**الراح**)[5] وسميت الراح، لأن القلب يرتاح إليها، وعرفت باسم (**السلاف**)[6] والسلاف والسلافة ما سال، وتحلب قبل العصر، وهو أفضل الخمر، ذكرها عمر بن أبي ربيعه بقوله[7]:

وَكَـــأنَّ فاهـــا بَعْـــدَ مـــا رَقَـــدَتْ تجَـــرِى عَلَيـــهِ سُـــلاَفَةُ الخَمـــرِ

وذكره الوليد بن يزيد[8]، عندما نعي له هشام يقول:

---

(1) محمد محمد حسين - الهجاء والهجاؤون في صدر الاسلام - ص١١، الأغاني - للأصفهاني - ج٣ - ص٢٣٣ - الأغاني للأصفهاني - ج١٤ - ص٢٤٨ + ٢٤٩ - ج٢٢ - ص١٠٩.

(2) ديوان الأخطل - طبعة دار صادر - ص٣٠٥.

(3) محمد محمد حسين - الهجاء في صدر الاسلام - ص١٣٦ - ديوان الفرزدق - طبع دار صادر - ص٣٧٧.

(4) محمد عبد المنعم خفاجة - الحياة الأدبية بعد ظهور الاسلام - ص٥٣٢ - عبد الأمير مهنا - أخبار النساء - ص٨٢.

(5) ثعلب - أحمد بن يحيى بن زيد الشيباني - شرح ديوان زهير بن أبي سلمى - ص٧٢ - الأغاني - للأصفهاني - ج٢١ - ص٢٣٨.

(6) عبد الأمير مهنا - أخبار النساء - ص٢٧٦ - الأغاني للأصفهاني - ج٧ - ص٢٣ - ج٢٠ - ص٣٤٤.

(7) ديوان عمر بن أبي ربيعه - تقديم أكرم أحمد الطباع - طبع بيروت - دار القلم (بدون تاريخ) ص٩٢.

(8) الأغاني - الأصفهاني - ج٧ - ص٢٣.

طــاب يومــي ولــذّ شــربُ السُّــلاَفة   إذ أتـــاني نَعِـــيٌّ مــــن بالرُّصَافَــــةْ

وعرفت باسم (**الريه**)[1]: ذكرها المرقش الأكبر بقوله:

قــد بِـــتُّ مالكهـــا وشـــاربَ رَيَّـــةٍ   قبـــل الصبـــاح كريمـــةٍ بسِبـــابِئِها

وعرفت باسم (**الرحيق**)[2]: وهي صفوة الخمر وعرف بأنه من أطيب الخمور، يقـول حسـان ابن ثابت:

يَسـقونَ مـــنَ وِرْدَ الـبَرِيصَ عليهـــمِ   بَـــرَدَى يُصَفَّـــقُ بـــالرّحيقِ السَّلسَـــلِ

ومن أسمائه أيضاً (**الدرياق**)[3] وهو خالص الخمر وجيده، ذكره أيضاً حسان بن ثابت بقوله:

يُسـقونَ دريـــاقَ الرّحيـــقِ ولم تكـــن   تُدعـــى ولائِدُهُـــم لنَقـــفِ الحَنْظَـــلِ

ووجد الخمر في كل مكان، حتى أن بعض الحوانيت[4] كانت مخصصة للخمر. وشرب الخمر كان يتم في كل الأوقات دون استثناء، ولذلك كانت له أسماء خاصة بأوقاتها:

فمثلاً يقال: شربت الخمر على ريقها غبوقاً، والغبوق[5] شرب الليل، وقيل: هو شرب العشي. وشرب الغداة سمي: الصبوح[6] أو حمرة الصباح أو شرب حمرة الصباح. وشرب نصف النهار يسمى: (القيل)[7] وشرب السحر يسمى: الجاشرية[8]. وشرب أول الليل يسمى: (الفحمة)[9]. ومن الخمر ما عرف باسم الشمول[10]، لأنها تشتمل على عقل صاحبها.

---

[1] غازي طليمات ـ ص١٤٦ ـ محمد محمد حسين ـ الهجاء والهجاؤن في الجاهلية ـ ص٩٧.

[2] محمد عبد المنعم خفاجة ـ الحياة الأدبية بعد ظهور الإسلام ـ ص٢٦٣ ـ الأغاني ـ للأصفهاني ـ ج١٤ ـ ص٢٤٨ ـ ديوان حسان بن ثابت ص١٨٠.

[3] المرجع نفسه ـ ص٢٩١.

[4] غازي طليمات ـ ص١٣٩ ـ محمد محمد حسين ـ الهجاء والهجاؤون في الجاهلية ـ ص٢١٨.

[5] عبد الأمير مهنا ـ أخبار النساء ـ ص٣٣ ـ ثعلب ـ شرح ديوان زهير بن أبي سلمى ـ ص٣٦ ـ الأغاني للأصفهاني ـ ج١٨ ـ ص٤٤.

[6] الأصفهاني ـ الأغاني ـ ج١٨ ـ ص٤٦.

[7] ثعلب ـ شرح ديوان زهير بن أبي سلمى ـ ص٣٦.

[8] المرجع نفسه ـ ص٣٦.

[9] المرجع نفسه ـ ص٣٦.

[10] الأغاني ـ الأصفهاني ـ ج٢ ـ ص٩٥.

وإذا قيل شراب مز[1]، كان المراد من ذلك الخمر، سئل بشار بن برد: أي متاع الدنيا آثر عندك؟ فقال: مز وشراب مز وبنت عشرين بكر، والطعام المز: هو ما كان بين الحموضة والحلاوة. وقيل (والمزاء شراب، يقال: إنه إنما سمي بذلك لقولهم: هذا الشراب أمز من ذا) أي أفضل و(هذا الشراب مز على هذا) أي أفضل. ومنه قيل للخمرة: (مزة). و(مزة) للذعها اللسان. وقيل: الخمطة التي أخذت شيئاً من الريح)[2]. وقيل للرغوة التي تعلو الخمرة بعد مزجها: الزيدات[3].

ومن أسمائها (**السبيئة**)[4]، سميت بذلك، لأنها تسبي، أي تشتري. ذكرها حسان بن ثابت. يقول[5]:

كَأَنَّ سَبِيَّةً مِن بَيْتِ رَأْسٍ   يَكُونُ مِزَاجَهَا عَسَلٌ وَمَاءُ

وعرفت الخمرة باسم: **القهوة**.سميت بذلك لأنها تقهي،أي تذهب بشهوة الطعام[6]، ذكرها الأعشى بقوله[7]:

نَازَعْتُهم قُضُبَ الرَّيحانِ مُتَّكِئاً   وَقَهْوةً مُزَّةً رَاوُوقُهَا خَضِلُ

وعرفت باسم: (**المشعشعة**)[8] كناية عن الخمر، وقيل: الممزوجة بالماء الرقيق المزاج أو المخلوط بماء السحاب، يذكرها عبيد بن الأبرص بقوله:

إذا ذُقتَ فَاهَا قُلتَ: طَعمُ مُدامَةٍ   مُشَعشَعَةٍ تُرْخِي الإِزَارَ قَدِيحُ

واستخلص شراب من عصير العنب بالشام، عرف **بالأسفنط**[9]. كما عرف

---

(1) الأغاني - الأصفهاني - ج٣ - ص١٩٧.

(2) ابن قتيبة الدينوري - أدب الكاتب - طبع بيروت ١٩٨٨ - ص٢٨.

(3) الأغاني - الأصفهاني - ج٣ - ص٢٦٢.

(4) محمد محمد حسين - الهجاء والهجاؤون في الجاهلية طبع بيروت ١٩٧٣ - ص٢١٧.

(5) ديوان حسان بن ثابت - طبع دار صادر - ص٨.

(6) ديوان الأعشى - تحقيق عمر فاروق الطباع - ص١٧٧.

(7) محمد محمد حسين - الهجاء والهجاؤون في الجاهلية - ص١٦٣ - الأغاني - الأصفهاني - ج٢١ - ص٢٣٧.

(8) غازي طليمات - ص٤٤٦ - الأغاني - الأصفهاني - ج١٨ - ص٢٩٣ - ديوان عبد الله بن الأبرص - طبع دار صادر ص٣٠.

(9) غازي طليمات - ص١٥٢.

بأن أول ما يخرج من دن الخمر: **بالناجود**[1] وقيل: الناجود أول ما يخرج من الخمرة وقيل: هو كل إناء فيه الخمر، وقيل الناجود والخرطوم[2] صفوة الخمر وأولها. وقيل الخرطوم هي الخمر السريعة الإسكار. ومن أسماء الخمرة: **القرقف**[3] أي التي تقرقف صاحبها لشدتها، وقيل: سميت بذلك لأنها تصيب شاربها بقرقفة أي رعدة. وعرف عصير العنب: **بالفضيخ**[4].

الطلاء[5] : ما طبخ من عصير العنب، حتى ذهب ثلثاه، وقد يكنى عن الخمر، وقيل: أم الطلى، وهي كنية الخمر، لأنها مصدر اللذة ومبعثها. وعرف **الرادوق**[6] باسم الخمر، وعرف باسم **الكسيس**[7]، وهو شراب يتخذ من الذرة والشعير، وعرفت الخمرة باسم **المز**[8] وهي الخمر اللذيذة الطعم يذكرها الأخطل في مدح عبد الملك بن مروان. ويهجو قيساً وبني كليب.

بئس الصُّحاةُ وبئس الشَّرْبُ شَرْبُهمُ   إذا جرى فيهمُ المُزَّاء والسَّكَرُ

وعرف باسم **المروق**[9] وهو الشراب المصفى، كما عرف باسم: **الرازقي**[10]. وهو ضرب من العنب (عنب الطائف) أبيض طويل الحب، يقال له: العنب الملاحي، يتخذ منه الخمر. كما عرف باسم: **الكميت**[11]، وهو الخمر لما فيها من سواد وحمرة، وعرف باسم: **السويق**[12]، وسويقة الكرم:

---

(1) عبد المنعم خفاجة ـ الحياة الأدبية بعد ظهور الإسلام ـ ص٤٥٩.

(2) ثعلب ـ أحمد بن يحيى بن زيد الشيباني ـ شرح ديوان زهير ـ ص٣٧ ـ الأغاني ـ ج١٥ ـ ص١٥٧.

(3) الأصفهاني ـ الأغاني ـ ج١٧ ـ ص٢٣٠ ـ ج١٥ ـ ص ٥٣ ـ ج٧ ـ ص١٢٤.

(4) المرجع نفسه ـ ج١٧ ـ ص١٧٠ ـ ج٦ ـ ص٣١١.

(5) المرجع نفسه ـ ج١١ ـ ص٢٥٨ ـ ج١٥ ـ ص١٣٢ ـ ج٢٢ ـ ص٩٦.

(6) الأغاني ـ للأصفهاني ـ ج٢١ ـ ص٢١٦.

(7) المرجع نفسه ـ ج٢١ ـ ص٣٩٧.

(8) المرجع نفسه ـ ج١١ ـ ص٦٨.

(9) الأغاني ـ الأصفهاني ـ ج١١ ـ ص ١٢٧.

(10) المرجع نفسه ـ ج١١ ـ ص١٢٩.

(11) المرجع نفسه ـ ج١١ ـ ص٢٧٠ ـ ج١٧ ـ ص٢٤٠.

(12) المرجع نفسه ـ ج١٢ ـ ص٧٨.

الخمر، وعرف باسم: **الخندريس**[1] وهو الخمر القديم، وعرف باسم: **العاتق**[2] أي الخمرة المعتقة، وعرف باسم **العقار**[3]: أي عاقرت الدن زماناً: أي لازمته. وقيل: هي التي تعقر صاحبها، وعرف باسم: **الكلفاء**[4]، وهي الخمرة فيها كدرة وأخيراً، عرفت الفقاقيع التي تطفو على وجه الخمر، حين تمزج بالماء باسم **الحباب**[5].

وفي خبر امرئ القيس وزواجه ما يشير إلى الكثير مما ورد من الأطعمة والأشربة وورد هذا الخبر في الأغاني، ونقله عبد الأمير مهنا[6] على النحو التالي:

قدم علينا عمر بن هبيرة[7] الكوفة، فأرسل إلى عشرة ـ أنا أحدهم ـ من وجوه الكوفة، فسمروا عنده، ثم قال: ليحدثني كلّ رجل منكم أحدوثة. وابدأ أنت يا أبا عمرو. فقلت: أصلح الله الأمير! أحديث الحق أم حديث الباطل؟ قال: بل حديث الحق. قلت: إن امرأ القيس أقسم ألا يتزوج امرأة حتى يسألها عن ثمانية وأربعة واثنتين، فجعل يخطب النساء، فإذا سألهنّ عن هذا، قلن أربعة عشر. فبينما هو يسير في جوف الليل، إذا هو برجل، يحمل ابنة له صغيرة، كأنها البدر ليلة تمامه، فأعجبته، فقال لها: يا جارية، ما ثمانية وأربعة واثنتان؟ فقالت: أما ثمانية فأطباء[8] الكلبة. وأما أربعة فأخلاف[9] الناقة. وأما اثنتان فثديا المرأة، فخطبها إلى أبيها، فزوجه إياها، وشرطت هي عليه أن تسأله ليلة بنائها عن ثلاث خصال، فجعل لها ذلك، وأن يسوق إليها مائة من الإبل وعشرة أعبد وعشر وصائف وثلاثة أفراس، ففعل ذلك.

---

[1] الأغاني ـ الأصفهاني ـ ج١٥ ـ ص٥٣.
[2] المرجع نفسه ـ ج٢٢ ـ ص١٠٨.
[3] المرجع نفسه ـ ج٧ ـ ص٥٠.
[4] المرجع نفسه ـ ج٨ ـ ص٣٠٤.
[5] المرجع نفسه ـ ج١١ ـ ص٣٢٥.
[6] عبد الأمير مهنا ـ أخبار النساء.
[7] عمر بن هبيرة ـ أمير من الدهاة ـ من أهل الشام توفي سنة ١١٠ هـ.
[8] أطباء: حلمات الضرع التي من ذوات الظلف والخف والحافر والسباع.
[9] الخلف: حلمة ضرع الناقة.

ثم إنه بعث عبداً له إلى المرأة، وأهدى إليهـا نحيـاً[1] مـن سمـن ونحيـاً مـن عسـل وحلـة مـن عصب[2]، فنزل العبد ببعض المياه، فنشر الحلة، ولبسها، فتعلقت بشجرة، فانشقت، وفتـح النحيين، فطعم أهل الماء منهما، فنقصا، ثم قدم على حي المرأة، وهم خلوف، فسألها عن أبيها وأمها وأخيها، ودفع إليها هديتها فقالت له: أعلم مولاك: أن أبي ذهب يقرب بعيداً ويبعد قريبـاً، وأن أمـي ذهبـت تشق النفس نفسين، وأن أخي يراعي الشمس، وأن سماءكم انشقت، وأن وعاءيكم نضبا.

فقدم الغلام على مولاه، فأخبره. فقال: أما قولها: إن أبي ذهب يقرب بعيداً ويبعد قريبـاً فـإن أباها ذهب يحالف قوماً على قومه. وأما قولها: ذهبت أمي تشـق النفـس نفسـين، فـإن أمهـا ذهبـت تولّد امرأة نفساء، وأما قولها: إن أخي يراعي الشمس، فإن أخاها في سرح لـه، يرعـاه، فهـو ينتظـر وجوب الشمس ليروح به. وأما قولها: إن سماءكم انشقت، فإن البرد الـذي بعثت بـه انشـق، وأمـا قولها إن وعاءيكم نضبا، فإن النحيين اللذين بعثت بهما نقصا، فاصدقني، فقال:

يا مولاي، إني نزلت بماء من مياه العرب، فسألوني عن نسبي، فأخـبرتهم: أنـي ابـن عمـك، ونشرت الحلة، فانشقت، وفتحت النحيين فأطعمت منهما أهل المـاء. فقـال: أولى لـك.. ثـم سـاق مائة من الإبل وخرج ومعه الغلام، فنزل منزلاً، فخـرج الغـلام، يسـقي الإبـل فعجـز، فأعانـه امـرؤ القيس، فرمى به الغلام في البئر، وخرج، حتى أتى المرأة بالإبل، وأخبرهم أنه زوجها. فقيل لهـا: قـد جاء زوجك. فقالت: وا لله ما أدري أزوجي هو أم لا؟ ولكن انحروا له جزوراً وأطعموا من كرشها وذنبها ففعلوا، فقالت: اسقوه لبناً حازراً (وهو الحامض)، فسقوه، فشرب. فقالت: افرشوا لـه عنـد الفرث[3] والدم، ففرشوا له فنام.

فلما أصبحت أرسلت إليه: إني أريد أن أسألك. فقال: سلي عما شئت، فقـالت: مـم تختلـج شـفتاك؟ قال: لتقبيلي إيـاك. قالت: فمم يختلـج كشـحاك؟ قـال: لالتـزامي إيـاك. قالـت: فمـم يختلـج فخداك؟ قال: لتوركي إياك. قالت: عليكم العبد، فشدوا أيديكم به، ففعلوا.

قال: ومر قوم فاستخرجوا امرأ القيس من البئر، فرجـع إلى حيـه، فاسـتاق مائـة مـن الإبـل، وأقبل على امرأته. فقيل لها: قد جاء زوجك. فقالت: وا لله ما أدري أهو زوجي أم لا؟ ولكن انحروا

---

[1] النحي: زق السمن.

[2] العصب: نوع من البرود اليمنية.

[3] الفرث: السرجيل (الذيل).

له جزوراً فأطعموه من كرشها وذنبها، ففعلوا، فلما أتوه بذلك قال: وأين الكبد والسنام والملحاء؟ فأبى أن يأكل، فقالت: اسقوه لبناً حازراً، فأبى أن يشربه، وقال: فأين الصريف [1] والرثيئة [2]؟ فقالت: افرشوا له عند الفرث والدم، فأبى أن ينام وقال: افرشوا لي فوق التلعة الحمراء، واضربوا عليها خباء، ثم أرسلت إليه: هلم شريطتي عليك في المسائل الثلاث. فأرسل إليها أن سلي عما شئت. فقالت: مم تختلج شفتاك؟ قال: لشربي المشعشعات [3]. قالت: فمم يختلج كشحاك؟ قال: للبسي الحبرات [4]. قالت: فمم تختلج فخداك؟ قال: لرضي المطهمات. فقالت: هذا زوجي لعمري، فعليكم به، واقتلوا العبد، فقتلوه. ودخل امرؤ القيس بالجارية، فقال ابن هبيرة: حسبكم، فلا خير في الحديث في سائر الليلة بعد حديثك يا أبا عمرو، ولن تأتينا بأعجب منه. فقمنا، وانصرفنا، وأمر لي بجائزة.

الأوعية:

تنوعت الأوعية التي كان يستخدمها العرب. فمنها ما كان للطعام ومستلزماته، كالتمرواللبن واللحم وغيره، ومنها ما كان للشراب: كشراب الماء والخمر وغير ذلك. وسنحاول ذكر بعضها.

ـ **المرجل** [5]: القدور: وهي آنية طهي الطعام وكانت عميقة، وفيها طعام كثير، ذات ألوان بيضاء وسوداء. وقيل: هو القدر من الطين المشوي أو من النحاس.

ـ **الدسيعة** [6]: الجفنة، وهي أعظم ما يكون من القصاع. وقيل: الجفنة الواسعة والمائدة الكريمة.

---

[1] الصريف: الحليب الطازج.

[2] الرثيئة: اللبن.

[3] المشعشعات: الخمر وغيره.

[4] الحبرات: البرود اليمنية.

[5] غازي طليمات ـ ص١٠٤ ـ محمد عبد المنعم خفاجة ـ الحياة الأدبية بعد ظهور الإسلام ـ ص٢١٦ ـ الأغاني ـ ج٢١ ـ ص٣٢ ـ ثعلب ـ شرح ديوان زهير ـ ص١٠٧.

[6] محمد عبد المنعم خفاجة ـ الحياة الأدبية بعد ظهور الإسلام ـ ص٢٣١ ـ الأغاني ـ للأصفهاني ـ ج١٧ ـ ص٢٩٠ ـ ج٢١ ـ ص٢٥.

ـ **المقارى**[1]: القدور والقصاع.

ـ **نحي**[2]: وعاء من جلد، ويقال نحيى من السمن، أو نحيى من عسل، وهو جرة فخار، يوضع فيها اللبن، وقيل هي زق السمن.

ـ **الحلة**[3]: القصعة الكبيرة، تتخذ من سعف النخل لحفظ التمر، وقيل: هي وعاء، يتخذ من الخوص. يوضع فيه التمر ويكنز فيها.

ـ **القعب**[4]: إناء يحلب فيه اللبن. وقيل: قدح ضخم، يحلب فيه اللبن، وقيل: هو القدح الضخم الغليظ. وقيل: قدح من خشب مقعر، يروي الرجل والجمع (أقعب).

ـ **العلاة**[5]: أداة يحلب بها.

ـ **الوطب**[6]: وعاء للبن من جلد.

ـ **القواقيز**[7]: جمع قاقوزة، وهي آنية من أواني الشراب، والقاقزة: قدح كالقارورة الصغيرة.

ـ **الإداوة**[8]: إناء صغير، يتخذ من جلد للماء.

ـ **المجمر**[9]: وعاء للخمر.

ـ **الزق**[10]: جلد صغير، يحمل فيه الخمر، وقيل: جلد يحفظ فيه الماء أو الخمر، يتخذ في الأسفار خاصة، وقيل: وعاء من جلد، يجز شعره ولا ينتف، للشراب وغيره.

ـ **الباطية**[11]: إناء واسع من الأعلى ضيق من الأسفل، يوضع بين الشاربين ليغترف منه.

---

(1) عبد الأمير مهنا ـ أخبار النساء ـ ص١٠٣ ـ الأغاني ـ ج١٧ ـ ص٩٩.

(2) محمود فردوس العظم ـ ص ١٨١ ـ الأغاني ـ ج١١ ـ ص٨٨.

(3) محمد محمد حسين ـ الهجاء والهجاؤون في صدر الإسلام ـ ص١٨٦ ـ الأغاني ـ ج٢ ـ ص١٧٤.

(4) المرجع نفسه ـ ص٨٠ ـ ١٨٦ ـ الأغاني ـ للأصفهاني ـ ج١٢ ـ ص٣٢٣ ـ ج٤ ـ ص٣٠ـ ٣٤٨ ـ ابن منظور ـ لسان العرب ـ ج١ ـ ص٦٨٣ ـ عبد الأمير مهنا ـ ص١٤٦.

(5) شوقي ضيف ـ التطور والتجديد في الشعر الأموي ـ ص٢٠٠.

(6) عبد الأمير مهنا ـ أخبار النساء ـ ص٣٣٢.

(7) محمد محمد حسين ـ الهجاء والهجاؤون في صدر الإسلام ـ ص٦٠ ـ الأغاني ـ ج١١ ـ ص٢٧٥.

(8) المرجع نفسه ـ ص٩٢.

(9) عبد الأمير مهنا ـ أخبار النساء ـ ص١٥٢.

(10) غازي طليمات ـ ص٣٤٩ ـ الأصفهاني ـ الأغاني ـ ج٢١ ـ ص١٥١.

(11) المرجع نفسه ـ ص٣٤٩.

ـ **المكوك**[1]: إناء من فضة، يشرب فيه.

ـ **الصاع والديسق**[2]: آنية يكال بها الخمر.

ـ **الشكوه**[3]: وعاء من جلد، يتخذ للماء واللبن.

ـ **التّوْرُ**[4]: إناء يشرب فيه.

ـ **الشاصيات**[5]: زقاق الخمر.

ـ **الركوة**[6]: إناء صغير من جلد، يستعمل لوضع الشراب.

ـ **المشارب**[7]: إناء يشرب فيه.

ـ **الجام**[8]: إناء للشراب والطعام من فضة أو نحوه.

ـ **الدن**[9]: وعاء كبير من فخار، يخزن فيه الخمر، يطلى بالقطران، لتسد مسامه.

ـ **ذات القار**[10]: خابية للخمر المطلية بالقار.

ـ **القلال**[11]: آنية صغيرة من الفخار، وقيل: هي الجرة، وقيل: الكوز الصغير، وقيل: زق صغير للسمن.

ـ **غرب**[12]: دلو عظيمة، وقيل الدلو، تتخذ من جلد ثور.

ـ **الراووق**[13]: هي الكأس أو المصفاة، وقيل: المصفاة هي خرقة، يصفى بها الخمر، أو الذي

---

(1) غازي طليمات ـ ص٣٤٩.

(2) محمد محمد حسين ـ الهجاء والهجاؤون في الجاهلية ـ ص ١٥٦.

(3) محمد محمد حسين ـ الهجاء والهجاؤون في الإسلام ـ ص٧٤ ـ عبد الأمير مهنا ـ أخبار النساء ـ ص٣٤٨ ـ الأغاني ـ للأصفهاني ـ ج١٨ ـ ص١٦.

(4) الأصفهاني ـ الأغاني ـ ج١٧ ـ ص٤٦.

(5) المرجع نفسه ـ ج١ ـ ص٣٧١.

(6) المرجع نفسه ـ ج٢ ـ ص٣٤١ ـ ج٢١ ـ ص٣٤٤.

(7) المرجع نفسه ـ ج٢ ـ ص٣٦٢.

(8) الأغاني ـ للأصفهاني ـ ج٣ ـ ص١٤٥.

(9) محمد محمد حسين ـ الهجاء والهجاؤون في صدر الإسلام ـ ص١١١.

(10) شوقي ضيف ـ التطور والتجديد في الشعر الأموي ـ ص١٣٧.

(11) محمد محمد حسين ـ الهجاء في صدر الإسلام ـ ص١١٢ ـ الأغاني ـ للأصفهاني ـ ج٦ ـ ص٤٤.

(12) غازي طليمات ـ ص٢٩٩ ـ الأغاني للأصفهاني ـ ج٤ ـ ص٣٤٧.

(13) غازي طليمات ـ ص٢٩٨ ـ الأغاني ـ للأصفهاني ـ ج٢ ـ ص٢٥٠ ـ ج١١ ـ ص٢٠٣ ـ ج١٩ ـ ص٦ ـ اللسان ـ ج١٠ ـ ص١٣٤.

تراق فيها الخمر. وقيل الراووق: ناجود الشراب، الذي يروق فيه، فيصفى، والشراب يتروق منه من غير عصير.

ـ **السلم**[1]: الدلو التي لها عروة، وهو طويل غير مصلّب.

ـ **الطست**[2]: الوعاء الفارغ.

ـ **العس**[3]: القدح الكبير الضخم، وهو أكبر من الغمر، وهو إلى الطول يروي ثلاثة أو أربعة، والعدة والرفد أكبر منه.

ـ **الغمر**[4]: (القدح الصغير)، وهو الذي لا يبلغ الري.

ـ **السجال**[5]: جمع سجل، وهو الدلو العظيمة مملوءة، أو فيها ماء قل، أو كثر.

ـ **الصحن**[6]: القدح العظيم.

ـ **الحِق**[7]: وعاء صغير ذو غطاء، يتخذ من عاج أو زجاج أو غيرهما.

ـ **الصراحيات**[8]: جمع صراحية، وهي إناء من آنية الخمر، ولا يعرف أصلها، وقيل: عربية صحيحة، استعملها الفرس والروم، والزجاجة معروفة، يوضع فيها الشراب.

ـ **الرفد**[9]: القدح العظيم.

ـ **المزادة**[10]: وعاء يحمل فيه الماء في السفر كالقربة ونحوها.

ـ **الجفان**[11]: جمع جفنة، وهي القصعة، يقدم بها الطعام، وقيل: الجفنة أعظم ما يكون من

---

[1] ثعلب ـ شرح ديوان زهير بن أبي سلمى ـ ص٢٤٤.

[2] عبد الأمير مهنا ـ أخبار النساء ـ ص٢٥٢.

[3] الأصفهاني ـ الأغاني ج١٨ ـ ص٢٦٣ ـ ج٥ ـ ص١٢٣ ـ ج١١ ـ ص٢٥٩ ـ ج١٢ ـ ص٢٨٧ ـ ج١٦ ـ ص٣٨٤ ـ ابن منظور ـ لسان العرب ـ مادة عن ج٦ ـ ص١٤٠ ـ عبد الأمير مهنا ـ ص٢٢١.

[4] عبد الأمير مهنا ـ ص٢٢١ ـ ابن منظور ـ لسان العرب ـ ج١ ـ ص٦٨٣.

[5] محمد عبد المنعم خفاجة ـ الحياة الأدبية بعد ظهور الإسلام ـ ص١٥٩.

[6] غازي طليمات ـ ص٤٠٤.

[7] الأصفهاني ـ الأغاني ـ ج٣ ـ ص٣١٧ ـ ج١١ ـ ص١٧٦ ـ ١٩٦ ـ ٣٢٦.

[8] المرجع نفسه ـ ج٥ ـ ص١٢٣.

[9] المرجع نفسه ـ ج١١ ـ ص١٦.

[10] المرجع نفسه ـ ج١١ ـ ص٢١٧.

[11] المرجع نفسه ـ ج٢١ ـ ص٣٧٣ ـ ج١١ ـ ص٢٤٧ ـ ج١٥ ـ ص٢١١ ـ ج١٦ ـ ص٢٠٢ ـ ج٢١ ـ ص٢١٦.

القصاع، تصنع من خشب أسود، اسمه الشيزي أو الشيز.

- **العلاب**[1] : جمع علبة، وهي قدح عظيم من خشب، أو من جلود الإبل، وقد يكون لها طوق من خشب، يحلب فيه.

- **الناطل**[2] : كوز تكال به الخمر.

- **القارورة**[3] : واحدة القوارير من الزجاج فيها صفاء.

- **الراوية**[4] : (القربة) المزادة من ثلاثة جلود فيها الماء.

- **القمقم**[5] : إناء من نحاس، يسخن فيه الماء.

- **الطاس**[6] : إناء يشرب فيه والجمع طاسات.

- **العكة**[7] : زق صغير للسمن.

- **المكللات**[8] : القصعات المملوءات.

- **الشن**[9] : القربة الخلق الصغيرة، يكون الماء فيها أبرد من غيرها.

- **القرب**[10] : جمع قربة، وهي وعاء من جلد، يخزز من طرف واحد، ويحفظ فيه الماء.

- **الدورق**[11] : الجرة ذات العروة.

- **البرنية**[12] : إناء واسع الفم من خزف أو زجاج ثخين، وقيل إناء من خزف كالجرة (الجمع براني).

---

[1] الأصفهاني - الأغاني - ج٤ - ص ٤٠٣.

[2] المرجع نفسه - ج٦ - ص ٢٨٤ - ابن منظور - لسان العرب - ج٥ - ص٨٧.

[3] المرجع نفسه - ج٧ - ص١٠٧.

[4] الأصفهاني - الأغاني - ج٧ - ص٧١.

[5] المرجع نفسه - ج٧ - ص٢٢.

[6] المرجع نفسه - ج١٠ - ص٣٦٠.

[7] المرجع نفسه - ج٨ - ص١٦٢.

[8] المرجع نفسه - ج٢١ - ص٢١٦.

[9] المرجع نفسه - ج٤ - ص١٨٥ - ج٢٢ - ص١١٥.

[10] المرجع نفسه - ج٢٢ - ص٣٢٦.

[11] المرجع نفسه - ج٢٤ - ص١٩١.

[12] المرجع نفسه - ج٣ - ص٦٨ - ج١٥ - ص٣٠٨.

- **الخوابي**[1]: جمع خابية، هي الحوض الضخم.

- **القطرميز**[2]: وعاء يشبه الجرة من زجاج، وله رقبة قصيرة، وفوهة واسعة.

- **الزكوة**[3]: زقيق صغير للشراب.

- **الدلاه**[4]: الدلو.

- **الذنوب**[5]: الدلو العظيم، التي لها ذنب.

- **الجوالق**[6]: وعاء من الخيش ونحوه، يوضع فيه القمح وغيره.

- **الفرارة**[7]: وعاء من الخيش ونحوه.

---

[1] الأصفهاني - الأغاني - ج١٣ - ص١٤٣.

[2] المرجع نفسه - ج١٤ - ص١١٢.

[3] المرجع نفسه - ج١٥ - ص٢١.

[4] الأصفهاني - الأغاني - ج١٤ - ص٢٥٧.

[5] المرجع نفسه - ج٢١ - ص٣٣٥ - ج٥ - ص٥٦.

[6] المرجع نفسه - ج٢٣ - ص٢٦٢.

[7] المرجع نفسه - ج٣ - ص٦.

الفصل الثالث

الغناء

أهم المغنين في صدر الإسلام

الفصل الثالث

الغناء

الغناء ظاهرة اجتماعية، وإنسانية قديمة، اشترك الإنسان مع بقية الأحياء الأخرى في صنعها، وخص الإنسان في تطورها، إنما محاولة تحديد هذه الظاهرة ـ كما هو معلوم ـ مجهود ضائع، لا طائل منه. إذن كان الغناء في غابر العصور يؤدى بصورة بسيطة وساذجة، ثم تطور، فإلى بطليموس تنسب قواعد الغناء وضوابطه، وإلى فيثاغورث ينسب أول سلم موسيقي.

من المعلوم أن الخمر والطعام والمرأة والغناء والموسيقى هي العناصر الأساسية في حياة العرب الاجتماعية والدينية قبل الإسلام وبعده.

فالغناء هو ما أطرب ذوي المعرفة به[1] والمتذوقين له، أي هو الصوت المشتمل على الترجيح، **والترجيح**: هو إدارة الصوت في الحلق مع تقارب حركات الصوت والنفس. أما الطرب فهو خفة، تلحقك، وتسرك، أو تحزنك. والمغني هو صاحب الغناء، أي هو

(1) الحسن بن أحمد بن علي الكاتب ـ كمال أدب الغناء ـ تحقيق غطاس عبد الملك خشنه ـ طبع مصر ١٩٧٥ ـ ص١٩.

المطرب الذي عمله الغناء، يطرب غيره بحسن صوته. أما الأغنية، فهي ما يترنم، ويتفنن به من الشعر ونحوه.

إذن الغناء بشكل عام هو صناعة في أداء الألحان المقرونة بالأقاويل الدالة على المعاني. وهيئة هذه الصناعة، إما أن تكون: هيئة صياغة اللحن، فتسمى: هيئة الصياغة، وإما أن تكون هيئة الأداء. والأولى أقدم في الزمن. وصناعة الغناء تختلف عند الأمم[1] باختلاف عنصر اللغة وأسلوبها اللفظي، ومدى صلاحيتها للتلحين الموزون بالإيقاع[2]، أو التلحين المطلق المسرود. يضاف إلى ذلك النسبة في ترتيب جماعة النغم الأساسية عامة، وترتيب جماعة النغم المستعملة في مقامات الألحان.

والمغني الحاذق هو من (تمكن من أنفاسه، ولطف في اختلاسه، وتفرع في أجناسه). إذن الغناء غذاء للروح، كما أن الطعام هو غذاء للجسد، وقيل: (غناء بلا شرب كنحلة بلا عسل، ورعد بلا مطر وشجر بلا ثمر، وحداء بلا بعير، وروضة بلا غدير، والسماع كالروح للبدن، والخمر كالجسد)، وقيل: خير الغناء ما أشجاك، وأبقاك، وأطربك، وألهاك[3].

والطرب عند العرب ينقسم إلى ثلاثة أقسام: الأول طرب محرك، وهو ما ينعش النفس، ثانياً: طرب شجن وحزن، وعلى الأخص إذا كان الشعر في وصف أيام الشباب، والشوق إلى الأوطان، والمراثي لمن عدم الأحباب، ثالثاً: طرب يكون في صفاء النفس ولطافة الحس وعلى الأخص عند سماع جودة التأليف، وأحكام الصنعة. والمغني يحتاج أن يضيف إلى صوته كلاماً رقيقاً، له معنى مرتبط بالوجدان، كأحاديث العشق والغرام، المجازفات والخصام، الصد والهجران، لذلك ارتبط الغناء بالشعر والأدب، ومع الزمن تطور الغناء، وارتبط بالآلات الموسيقية، فأصبح صناعة وفناً.

والمطلع على التاريخ يلاحظ ولع العرب بالغناء، وعلى رأسهم الخلفاء والأمراء. فكان لذلك أكبر الأثر في تنشيط الشعراء. وتشجيعهم على الإبداع والتفنن في الشعر الغنائي، لذلك كان الشعر الغنائي طريقاً إلى جوائز وخلع الخلفاء والأمراء وصلاتهم. إن وجود دور اللهو والغناء كان ـ يتطلب وبشكل دائم ـ شعراً يغنى. في الوقت نفسه كان بعض الحكام والأشراف والسادة يطلبون الشعراء لمغنياتهم ومغنيهم الموجودين داخل قصورهم.

[1] علي العسيلي العاملي ـ الغناء في الإسلام ـ تاريخه ـ دائرة أحكامه على المذاهب الخمسة ـ طبع بيروت ١٩٨٤ ـ ص١١.

[2] الخوارزمي ـ مفاتيح العلوم ـ مادة الإيقاع ـ طبع بغداد.

[3] أبي منصور الثعالبي ـ كتاب من غاب عنه الطرب ـ تحقيق عبد المعين الملوحي ـ طبع دمشق ١٩٧٧ ـ ص ١٣٧.

لذلك استمر الغناء بالنمو عبر التاريخ، وأخذ يزدهر، ويزداد عشاقه ومحبوه وفي الوقت نفسه كان ينمو معه الشعر الغنائي، فاكتسب هذا النوع من الشعر قوة وانتصاراً، وساعده على ذلك عوامل[1] متعددة منها: ارتباطه بالطبيعة البشرية وميل الناس إليه، فهو يجلو الهموم وأثقال وتعاسة الحياة. يضاف إلى ما ورد عذوبة موسيقاه ووضوح معانيه وسهولة ألفاظه. كما كان لتطور القيم في المجتمعات دور مهم في ذلك. فلقد كره الناس شعر المدح والهجاء والفخر، وأحبوا أن يستمعوا إلى الشعر الغنائي في أصوات المغنين، لكي يخفف عنهم المعاناة في أوقات فراغهم.

وللغناء كما هو معلوم تأثير على النفس. فأثره على العين توليد البكاء، وأثره على اللسان هو ما يحدث من الصياح، وما يصيب اليد يحدث منه تمزيق الثياب واللطم، وما يصيب الرجل يحدث منه الرقص. والتأثر بالغناء قوي. فمنه ما يسر، ومنه ما يبكي، ومنه الذي إذا سمعه الإنسان ينام[2]، ومنه ما يزيل العقل، حتى يغشى على صاحبه[3]، حتى أن بعض المستمعين كانوا يمزقون ثيابهم، وبعضهم الآخر كان يدق الحائط برأسه، وبعضهم الآخر يتمرغ في التراب، وبعضهم كان يهيج، ويعض على ثيابه، ويركل برجله، ويلطم وجهه. قال التوحيدي«الغناء معروف الشرف، عجيب الأثر، عزيز القدر، ظاهر النفع، في معانيه الروح، ومناغاة العقل وتنبيه النفس، واجتناب الطرب، وتفريج وإثارة الهزة، وإعادة العزة، وأذكار القد، وإظهار النجدة، واكتساب السلوة، وما لا يحصى عدده»[4].

ومما لاشك فيه أن غناء النساء ذو أثر في النفوس. لأنه أندى وأشجن، لأن الصوت الناعم الرخيم من الجارية الناعمة الرخمة أفضل وأشجن وأحسن وأشهى، والغناء الحسن من الوجه الحسن أحسن، وأشهى. وإن الحناجر مختلفة الأصوات، منها ما هو عذب، ومنها ما هو مستكره منكر، إلا أن صوت المرأة بطبيعة تكوين حنجرتها يكون رقيقاً في الغالب. لذلك، فإن لها السبق في هذا المضمار[5].

---

[1] ابن القيسراني ـ السماع ـ تحقيق أبي الوفا المراغي ـ ص١٥.

[2] البغدادي ـ كتاب الأدوار في الموسيقا ـ تحقيق غطاس عبد الملك خشنة ـ طبع مصر ١٩٨٦ ـ ص٩.

[3] كمال النجمي ـ يوميات المغنين والجواري ـ طبع بيروت ١٩٧٧ـ ج١ ـ ص٥٩.

[4] التوحيدي ـ أبو حيان علي بن محمد بن علي بن العباس الصوفي ـ الامتاع والمؤانسة طبع القاهرة ١٩٣٩ـ ج٢ ـ ص١٣٦.

[5] عالم المعرفة ـ تراث الإسلام ـ العدد ١٢ ـ ص٢٣٩.

ولقد اختلف الفقهاء في سماع الغناء[1] في أقوالهم ومذاهبهم وثبات آرائهم. فمنهم من رأى كراهته، وأنكر استماعه، وحرمه، ومنهم من رأى خلاف ذلك، وأباحه، وصمم على إباحته. وفريق منهم أباحه على انفراده، وكرهه إذا انضاف إلى غيره، وحرم سماع الآلات مطلقاً، ولكل من هذه الآراء مقالات وأدلة، استدلت على ذلك برأيها. ورغم ذلك لم يستطع المانعون للغناء أن يمنعوه على الإطلاق، وها هو ابن عبد ربه، يذكر أن الناس اختلفوا في الغناء بقوله (فأجازه عامة أهل الحجاز، وكرهه عامة أهل العراق. فمنهم من أجازه بأن أصله الشعر، الذي أمر به النبي (ص)، وحض عليه، فندب أصحابه إليه، وتجند به على المشركين)[2].

أما آراء المذاهب الأربعة فهي: إن مذهب أبي حنيفة كما يذكر الغزالي كان يكره الغناء، ورغم إباحته شرب النبيذ، جعل سماع الغناء من الذنوب[3]، وفي الوقت نفسه أباح آلات الطرب[4]. أما الشافعي فقال «إن الغناء مكروه، يشبه الباطل، ومن استكثر منه، فهو سفيه، ترد شهادته» وقال: بأن محترف الموسيقا غير مؤهل للشهادة. أما مالك بن أنس، فكان ينهى عن الغناء وعن استماعه، يؤكد ذلك ما قاله: «إذا اشترى أحد جارية، فوجدها مغنية، كان له ردها»[5]. وأحمد بن حنبل قد كره السماع. وأخيراً هناك من يقول لك بأنه ليس هناك من تحريم واضح للموسيقى في فجر الإسلام. أخيراً: لم يرد نص واضح في كتاب الله العظيم، يشير إلى تحريم الغناء والموسيقى. إنما كان التحريم فيما بعد، نتيجة الابتعاد عن كل ما يبعدهم عن العبادة والزهد، ولم يكن ابتعادهم عن الموسيقى والغناء نابعاً عن نص صريح أو سنة، اعتمدها النبي (ص).

كان عصر النبي (ص) عصر زهد وعبادة. وهذا لا يعني أن العلوم جمدت في تلك المرحلة، فالأدب ظل يتطور، والشعر بأشكاله وألوانه لم يتوقف، والغناء والموسيقى استمرا على ما كانا عليه

---

[1] هنري جورج فارمر ـ تاريخ الموسيقى العربية ـ ترجمة جرجيس فتح الله ـ طبع بيروت ـ دار مكتبة الحياة ـ بدون تاريخ ـ ص٧٢ ـ ظاهر القاسمي ـ الحياة الاجتماعية عند العرب ـ طبع بيروت ١٩٨٨ ـ ص٧٧ ـ أحمد تيمور باشا ـ الموسيقا والغناء عند العرب ـ ص١٣ ـ عالم المعرفة ـ تراث الإسلام ـ العدد ١٢ ـ ص٢٣٩ ـ نهاية الإرب ـ النيربي ـ ج٣ ـ ص١٣٢.

[2] ابن عبد ربه ـ العقد الفريد ـ ج٣ ـ ص١٨٧.

[3] تفسير القرطبي ـ ج١٤ ـ ص ٥٦٥٥ ـ الغزالي ـ ص٢٠٢.

[4] الهداية ـ ج٣ ـ ص٥٥٨.

[5] الغزالي ـ ص٢٠١.

قبل الإسلام. فحسان بن ثابت كان شاعراً للرسول (ص)، وهو شاعر مخضرم، كان له مغنية، اسمها شيرين، وكان بلال بن رباح أول مؤذن في الإسلام، ويذكر بأن النبي (ص) كان قد سأله أن يغني له.

وفي عصر الخلفاء الراشدين حرمت الموسيقى منذ بداية عصرهم مع ما حرم، وشمل التحريم قينات الحانات والمغنيات المحترفات، بصورة عامة، حتى لم يعد أحد يمتهن هذه الصنعة. واستمر تحريم الموسيقى والغناء حتى كان عهد الخليفة الراشدي الثالث عثمان ابن عفان، حيث طرأ في عهده تبدل واضح في حياة الدولة العربية الإسلامية من الناحية الاجتماعية والاقتصادية وغيرها. كان هذا الخليفة ـ كما يذكر ـ مغرماً بالترف والأبهة. ففي عهده بنيت القصور الضخمة، وضمت الحشم والعبيد، والحاشية المترفة بعيشهم الرغيد، حيث أصبحت هذه الحالة مظهراً اعتيادياً في المدن الرئيسية الإسلامية، في الوقت نفسه ولج الموسيقيون قصور الأشراف والأغنياء. أما في عهد الخليفة الراشدي الرابع الإمام علي فقد بسط ظل رعايته على سائر الفنون الجميلة والأدب، فأباح دراسة العلوم، وقرض الشعر، حيث اطمأنت الموسيقى على مستقبلها من عهده فصاعداً.

لقد حصل تقدم في صناعة الموسيقى في هذه المرحلة، وكان ذلك نتيجة العوامل التالية: ـ إن هذا التطور كان نتيجة الالتقاء الثقافي الجديد للعرب مع غيرهم؛ وقيام طبقة محترفة من المغنين، يضاف إلى ذلك الشوق إلى الموسيقى التي تولت الطبقة الاجتماعية الراقية في الدولة حمايتها وقيادتها. كما كان لانتقال العاصمة من الحجاز إلى العراق دور بارز وهام في تطور الموسيقى. فمثلاً لقد جعل عبد الله بن جعفر ـ وهو من هواة الموسيقى المعروفين ـ بيته معهداً لها. وفي كنفه ورعايته عاش بعض مشاهير الموسيقى مثل ـ طويس ـ سائب خاثر ـ نشيط ـ عزة الملاء ـ وغيرهم.

أما أهم آلات الموسيقا التي كانت سائدة في هذا العصر، فهي على ثلاثة أنواع، الآلات الوترية: وتشمل المعزفة، وكانت شائعة عند أهل الحجاز بصورة خاصة، العود، المزهر: وهو من فصيلة العود، الطنبور، الجنك. وآلات النفخ هي: المزمار ـ البوق ـ آلات النفير: القصب ـ الدف[1] ـ الصنوج الصغيرة: وكانت جزءاً من عدة الراقصين والراقصات ـ الطبل: وهو الآلة المفضلة لكل أسرة.

---

[1] ابن عساكر ـ تاريخ دمشق ـ ج٣٩ ـ ص٢٨.

في عهد الدولة الأموية امتدت حدود الدولة العربية من الهند شرقاً إلى شواطئ المحيط الأطلسي وجبال البرنس غرباً. كما تم نقل العاصمة من العراق إلى دمشق. وضمت قصور الخلفاء الأمويين كبار المغنين والموسيقيين. ففي بلاط معاوية وجد المغني الشهير سائب خاثر، حيث أكرمه معاوية. وبعد أن آلت السلطة إلى ابنه يزيد، الذي وصفه المؤرخون: بأنه كان صاحب لهو وطرب. وذكر عنه بأنه كان أول من سن الملاهي في الإسلام وأول المغنين وهناك أمور أخرى، كقتال الديكة والكلاب[1]، ووصف بأنه كان يشرب الخمر، ويعزف بالطنابير، ويلبس الحرير. وعندما تسلم المروانيون السلطة شجع عبد الملك بن مروان الغناء والتأليف والأدب، وعلى رأسه الشعر، ورعى الموسيقى والموسيقيين كابن مسجع وبديح المليح. ثم أخذت الموسيقى في تطورها وتقدمها ونقدها أكثر فأكثر، ابتداء من عهد الوليد بن عبد الملك، الذي استقبل أئمة الغناء والموسيقى؛ كابن سريج ومعبد في بلاطه، وأحاطهما بالحفاوة والتكريم.

وفي عهد خلفه سليمان، الذي عرف عنه حبه للهو، خطت الموسيقى قدماً نتيجة تشجيعه لها. وسليمان هذا هو الذي وضع جائزة سبق بين المغنين بمكة، عندما كان أميراً، حيث نال ابن سريج الجائزة الأولى، وقيمتها عشرة آلاف درهم. ثم تعثرت الموسيقى نسبياً في عهد عمر بن عبد العزيز، بعد استلامه السلطة، حيث عمل على تحريم سماع الغناء، علماً أنه قبل استلامه للسلطة ــ وبالتحديد، عندما كان أميراً على الحجاز ــ كان قد دونت له صنعة التلحين، وكان من محبي الموسيقى.

أما في عهد يزيد بن عبد الملك فقد أصبح للغناء والشعر مكانتهما في بلاطه، وهو الذي أباح الغناء والموسيقى في الحياة الاجتماعية العامة، حيث لم يعد استخدامها وسماعها مقتصراً على الطبقة المميزة في المجتمع، بل أصبح الغناء في متناول الجميع، كما شجع الغناء والموسيقى، وأكرم أرباب صناعتهما، وتابعت الموسيقى والغناء طريقها في عهد هشام، الذي عرف عهده بالرخاء والازدهار.

وأكثر الحكام الأمويين انغماساً في الملذات واللهو هو الوليد الثاني، الذي عرف عنه حبه للطرب وسماع الغناء، وهو الذي حمل المغنين من كل مكان إلى بلاطه، وعاشر المطربين والمغنين، وأظهر الشرب والملاهي والعزف، واتخذ القيان، ولا عجب في ذلك فهو فنان، كما عرف عنه

---

[1] المسعودي ـ مروج الذهب ـ ج٥ ـ ص٣١٠.

بالفطرة. فقد نبغ بالموسيقى والشعر، وكان له أصوات، طبقتها مشهورة، وكان يطرب بالعود، ويدق على الطبل، ويحسن استخدام الدف. وضم بلاط يزيد الثالث كل أصناف الملاهي وأفضل المغنيات.

لقد كان العصر الأموي يذخر بالموسيقيين من كلا الجنسين، وخاصة بلاط الخلفاء، ولقي فن الموسيقى من الحكام الأمويين كل تشجيع. فكانت الجوائز والعطايا تصب على رؤوس المغنين والمغنيات، والموسيقيين والشعراء، ومن ألف هذه الصنعة، وفي هذا العصر استعاد الموسيقيون مكانتهم السامية في الحياة الاجتماعية. وفي هذا العصر أيضاً كان يضرب ستارة شفافة بين الخليفة وبين المطربين أثناء العزف والغناء، وفي بعض الحالات كانت ترفع، لكن خارج قصور الخلفاء، لم تخضع الموسيقى لمثل هذه القيود.

الآلات الموسيقية:

قيل: ((الموسيقى حكمة عجزت النفس عن إظهارها في الألفاظ المركبة فأظهرتها في الأصوات البسيطة، فلما أدركتها عشقتها، فاسمعوا من النفس حديثها)) [1] وقال أفلاطون:((الموسيقى معشوق النفس وهو منها فلا ينبغي أن يمنع العاشق من المعشوق)) [2]. وقال: ((إلا أن هذا العلم، لم تضعه الحكماء للهوى ولا للاشتغال بالهوى بل للمنافع الذاتية، ولذة الروح الروحانية وبسط النفس الشعشعانية وترطيب اليبوسات وتعديل السوداء، وترويق الدم)) [3]. وقيل:

((والموسيقا مشجعة مواسية، يبعث لون منها سروراً، ويبعث آخر أشجاناً، وهي التي تهز في مواكب الأنس، ويسمع أنينها ونواحها في مواكب التشييع إلى الرمس، والموسيقا تحرك ساكن الألم، كما أنها مظهر من مظاهره، فإن الحزين يبث حنجرته أو معزفه شجوه، فيصدر النغم مثيراً للشجون، مفيضاً للشؤون، وأي سلطان غير الموسيقا يملك العواطف ويهز المشاعر؟ فالموسيقا المحزنة تذكي إحساس الحزن في نفس الحزين، وقد تخفف من حزنه، لشعوره بأن في العالم حزيناً غيره، هو ذلك

---

[1] مؤلف مجهول: كتاب الشجرة ذات الأكمال الحاوية لأصول النغم، تحقيق غطاس عبد الملك خشبة ــ ايزيس فتح الله ــ طبع مصر ١٩٨٣ - ص٢٥.

[2] المرجع نفسه.

[3] صلاح الدين الصفدي ـ رسالة في علم الموسيقا ـ تحقيق عبد المجيد أبو تراب ـ غطاس عبد الملك خشبة ـ طبع مصر ١٩٩١ ص١١٩.

الفتى الذي ألهم تلك الأنغام الشجية، فرددها للبائسين بحبل متين، فتؤلف بين قلبيهما رابطة الأسى، وتخفف من أساهما وبوحهما به، واشتراكهما فيه.

تلك الألحان الباكية، قد تصل أسباب فجيعة السامع بفجيعة العازف، وفي وسع هذه الأنغام العجيبة، أن تنسينا همومنا وشجوننا، فتضحكنا بل وترقصنا، ثم تبكينا بعد لحظة.. إنها قادرة جبارة، ليس للإنسان حيالها حول، وماله أمامها من ثبات. وخلاصة القول: إن الموسيقا الفرحة تجلب الفرح والمحزنة تجلب الحزن[1].

تعتبر الآلات الموسيقية وهي من صنع الإنسان جزءاً من الحضارة العالمية. فبعضها ظهر قبل التاريخ بآلاف السنين، ولا تزال موجودة إلى الآن عند الشعوب والقبائل البدائية. فمثلاً الناي يعود تاريخه إلى آلاف السنين قبل الميلاد. وهذا ابن إياس يذكر في تاريخه بدائع الزهور بقوله: ((أول من عصر الخمر وصنع الطار والمزمار وآلات الطرب إبليس))[2]. وقال إن إبليس صنع آلات الألحان والطرب مثل العود.

وذكر أن النبي داوود كان قبل بلوغ النبوة يوقع بالعود لطالوت.. وكان النبي داوود يعطي لكل خلط نغمة لمعرفته بذلك.. وكان داوود عارفاً بصنوف الألحان. وقال ابن إياس: إن الله تعالى خص داوود بالصوت الحسن. قال أفلاطون: ((من حزن فليسمع الألحان يزل حزنه فإن الحزن خمود النفس، وإذا سمعت مايطرب شعشعت وأثارت))..

اذن اهتدى الإنسان إلى صنع الآلات الموسيقية، وكان أول ما صنع الآلات الإيقاعية. تطورت من حركة الأيدي والأرجل أي تصفيق الأيدي والأرجل إلى صنع الطبول والدفوف ثم الصنوج على اختلاف أنواعها، إذن آلات النقر (أو الإيقاعية) هي التي تحدث أصواتاً بواسطة الضرب عليها وآلات الإيقاع نوعان منها نوع يقع الضرب فيه على جلد رقيق مشدود على صندوق. وتسمى هذه الآلات ذات الرق وينقر عليها باليد أو بالضرب، وكلما صغر حجم الآلة وزادت قوة شد الرق زاد لون أصواتها حده وبالعكس.

---

[1] صلاح الدين الصفدي ـ رسالة في علم الموسيقا ـ تحقيق عبد المجيد أبو تراب ـ غطاس عبد الملك خشبة ـ طبع مصر ١٩٩١ ـ ص١٤ ـ١٥.

[2] ابن إياس ـ بدائع الزهور ص٦٦.

ومن الآلات الموسيقية التي كانت مستخدمة في صدر الإسلام والعصر الأموي: العود ـ الطنبور المزمار ـ القضيب ـ الصنوج ـ الطبل ـ الصنج ـ المعزف وغيرها.

العود: من الآلات الوترية العريقة في القدم عرفه العرب القدماء واستخدموه سواء في مصر أو في بلاد الرافدين أو بلاد الشام وتفننوا به. قيل إن أول من استخدم العود وناح به هو متوشلح بن لامك، وأول من غنى في العرب بالعود كانت الجرادتان وقيل إن نوح هو أول من أظهر العود وأخرج منه الأنغام[1]. استمر استخدامه عند العرب في بدء الإسلام وهذا هو حسان بن ثابت الشاعر الذي أدرك الإسلام يصف لنا ليلة من الليالي التي عاشها قبل الإسلام ويذكر العود والغناء وهذا الفن بقوله: ((لقد رأيت عشر قيان خمساً روميات يغنين بالرومية بالبرابط (العود) وخمساً يغنين غناء أهل الحيرة))[2].

ومن أشهر القيان في بداية الإسلام جاريتان كان المقوقس ملك مصر أهداهما إلى الرسول (ص) وكانت إحداهما تدعى شيرين وهي معروفة، وقد أعطاها الرسول (ص) للشاعر حسان بن ثابت، وبواسطة هذه الجارية انتقل الغناء واللحن المصري إلى الجزيرة العربية.

ومن أشهر المغنين العرب في صدر الإسلام الذين استخدموا العود سعيد بن مسجح، وقد استفاد من الغناء الفارسي، ونقل عنه، ورحل إلى الشام، وأخذ من الألحان الرومية، ودمج الألحان، وعمل صناعة جديدة بالعربية، قال: قصدت فارس فتعلمت، ضربت العود، واشتريت عيداناً كثيرة، وعدت إلى مكة، وقد أخذت محاسن تلك النغم[3]. ومن الذين أتقنوا الغناء على العود ابن سريج الذي يذكر بأنه كان في الضرب على العود أشد حزناً من كل المطربين، وقال: يتعجب الناس من العود الذي أضرب عليه وأغني وفق نغماته. وللعود عند العرب تسميات مختلفة منها (الكران ـ المزهر ـ البربط ـ الموتر) وبهذه الأسماء كانت ترد في أشعار الشعراء.

---

(1) صيانات محمود حمدي ـ تاريخ آلة العود وصناعته ـ طبع دار الفكر ١٩٧٨ص٩.

(2) أحمد بتموريات ـ كتاب الموسيقى والغناء عند العرب ـ طبع ١٩٦٣ ص٢١ ـ الأصفهاني ـ الأغاني ـ أخبار عزة الميلاء ـ ج١٧ ص١٧٠.

(3) كمال النجفي ـ حكايات من أغاني الأصفهاني ـ يوميات المغنين والجواري ـ طبع دار الهلال ١٩٨٦ ـ ج١ـ ص١٣ـ١٧ ـ٣١.

وقد ورد ذكر العود في الأغاني كثيراً. من ذلك ماذكره في أخبار ابن عائشة ((كان ابن عائشة يضرب بالعود و لم يكن مجيداً))[1] وفي أخبار الغريض: ((كان الغريض يضرب العود وينقر الدف ويوقع بالقضيب))[2] وفي أخبار عزة الميلاء: ((وأحسن ضربها بالمزاهر والمعازف وسائر الملاهي))[3] وقال: ((فوضع في حجرها مزهر فضربت به ثم تغنت))[4] .



عود فرعوني عثر عليه في مدافن طيبة (محفوظ بالمتحف المصري ببرلين الشرقية، وهو وريشته من الخشب)

---

(1) الأصفهاني - الأغاني - ج٢- ص١٩٧.

(2) المرجع نفسه - ج٥ - ص٣٥٤.

(3) المرجع نفسه - ج١٧- ص١٦٥.

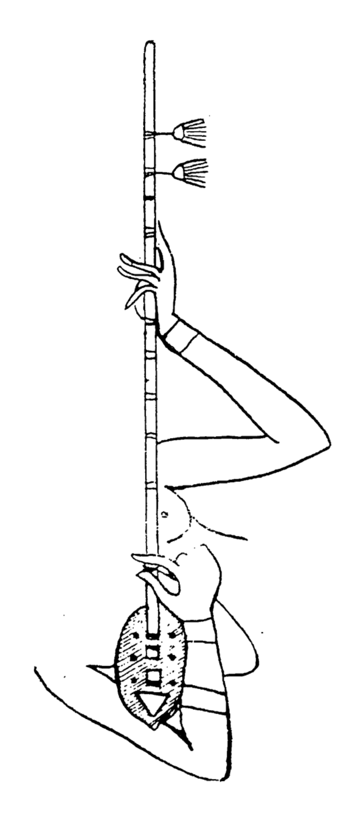
(4)

الطنبور: آلة وترية من فصيلة العود عرفها العرب المصريون منذ عام ١٦٠٠ ق.م والطنبور أقدم من العود، وأول من استعمله كما يروى قوم لوط[1] وكان إذا أعجبهم الغلام الأمرد استمالوه بذلك يضربون له بالطنبور.



عازفة بالطنبور من نقوش مدافن طيبة (الأسرة الثامنة عشرة)

[1] أبي طالب المفضل بن سلمة النحوي - كتاب الملاهي واسمائها من قبل الموسيقى - تحقيق غطاس عبد الملك خشبة - طبع مصر ١٩٨٤- ص١٤.



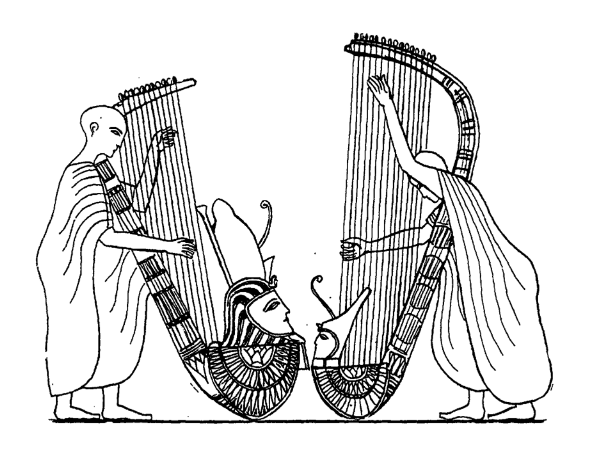
عازفة بطنبور ذي وترين ودساتين متعددة من نقوش طيبة (الأسرة الثامنة عشرة)

الكنارة: آلة وترية أيضاً آلة مصريـة، ظهـرت هـذه الآلـة عنـد المصريـين مـع ظهـور الدولـة الوسطى وشوهدت صورها لأول مرة حوالي عـام ٢٠٠٠ق.م ثـم عـم استعمالها في الدولـة الحديثـة (واستمرت فيما بعد.)



عازفة بكنارة (السمسمية) من مدافن طيبة مقبرة ٣٨ (الأسرة الثامنة عشرة)

الهارب: آلة موسيقية وترية، عرفها المصريون القدماء منذ عهد الأسرة الأول وهي أقدم الآلات الوترية وعن المصرية أخذت وطورت، وانتشرت، تتألف هذه الآلة من ثلاثة أقسام (الصندوق ـ الرقبة ـ الأوتار ـ) أوتار هذه الآلة عمودية على الصندوق المصوت.

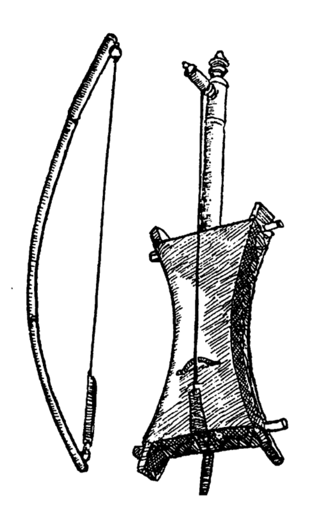


عازفان بآلة الصنج (الهارب) ـ مقبرة رمسيس الثالث، نقوش الأسرة العشرين

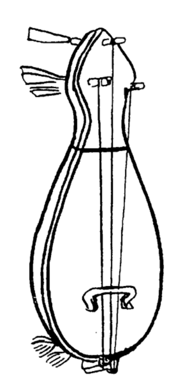
السنطور: آلة وترية وهي فارسية معربة تشبه في شكلها شبه منحرف غير قائم الزاوية وتتألف من صندوق مصوت يصنع من خشب الجوز وأوتاره معدنية.

الربابة: للعرب الفضل في إحياء بعض آلات القوس، فهم الذين أوجدوا الآلة الوترية المعروفة بالربابة. وكانت ذات وتر واحد، ثم تطورت بعد ذلك، فأصبحت ذات وترين متساويين في

السماكة، ذات أربعة أوتار وتنوعت أشكالها عند العرب فيما بعد والرسم التالي يوضح شكل الربابة:



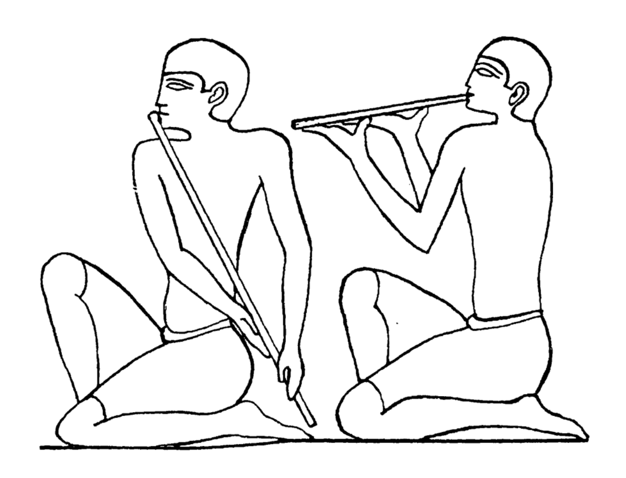
رباب الشاعر ذات وتر واحد (مصرية)



رافانا سترون (أقدم آلة وقع عليها بالقوس)

الناي: من آلات النفخ، عبارة عن آلة موسيقية تصدر الصوت عن طريق النفخ، والناي عبارة عن قصبة جوفاء مفتوحة الطرفين ذات ثقوب على جانبي القصبة وتعتبر هذه الآلة صناعة مصرية بحتة منذ ما قبل الميلاد بآلاف السنين، وعن المصريين تطورت، وانتقلت لتعم العالم. استخدمها العرب قبل الإسلام وبعده.

المزمار: إحدى آلات النفخ، ذكر الأصفهاني، عند ذكر أخبار حنين فقال: ((ومعي عـودي وإلى جانبي زامر يزمر لي وأنا أغني)).



ناي قصير (وزمارة) - فرعوني (من نقوش الدولة القديمة)

الدف: أول من اتخذ الدف هم العرب والشعر العربي قبل الإسلام وبعده مليء بذكر هذه الآلة، واستمر استخدامه عند العرب في بداية الإسلام. يؤكد ذلك قول السيدة عائشة زوج الرسول (ص) قالت: ((دخل علي أبو بكر، وعندي جاريتان من جواري الأنصار تغنيان بدفتين، فقال أبو بكر: أمزمار الشيطان في بيت رسول الله (ص))[1] وذكر البخاري عن الربيع بنت معوذ قالت: ((دخل علي رسول الله (ص) صبيحة عرسي، وعندي جاريتان تغنيان ويضربن بالدف)) وقال طويس: كنت أنقر بالدف وأتمشى به خلال الغناء بين صفوف المستمعين، وقال: كنت أحسن الناس علماً وظرفاً وحسن غناء وجود نقر الدف. ورد ذكر الدف عند الأصفهاني كثيراً: من ذلك من أخبار الغريض: ((ثم أخذ الدف فرمى به وتمشى مشية لم أر أحسن منها ثم تغنى))[2] وورد في أخبار جميلة[3] في مواضيع كثيرة.

الطبل: هو من آلات النقر المصوته بذاتها، وينقسم إلى آلات يمكن تمييز درجة الصوت مثل الجرس وهناك آلات مصوته بذاتها، لكنها غير لحنية مثل الصاجات[4].

وأهم المغنين في صدر الإسلام هم:

١ - طويس[5]:

طويس (٦٣٧-٧١٠) لقب غلب عليه، واسمه عيسى بن عبد الله، وكنيته أبو عبد المنعم، وغيّرها المخنّثون، فجعلوها أبا عبد النّعيم، وهو مَولَى بني مخزوم، وهو أوَّل من غنى بالعربي بالمدينة (يثرب) وهو أوَّل من ألقى الخَنَث بها، وكان طويلاً أحول، لا يضرب بالعود، إنما كان ينقر بالدف، وكان ظريفاً عالماً بأمر المدينة وأنساب أهلها، وكان يُتّقَى للسانه، وسئل عن مولده، فذكر أنه وُلد يوم قُبض رسول الله (ص)، وفُطم يوم مات أبو بكر، وخُتن يوم قتل عمر، وزُوّج يوم قتل

[1] صلاح الدين الصفدي - رسالة في علم الموسيقى - تحقيق عبد المجيد دياب - غطاس عبد الملك خشبة - طبع مصر ١٩٩١ - ص٣٧.

[2] الأصفهاني الأغاني ج٢ - ص٣٩٣.

[3] المرجع نفسه - ج٨ - ص٢٠٥ - ٢٣٤ - ٢٣٧.

[4] المرجع نفسه - ج٨ص٣٣٣.

[5] سمير شيخاني - أشهر المغنين عند العرب ونوادرهم - طبع بيروت ١٩٩٢ - ص ٧٩ وما بعدها - الأصفهاني - الأغاني - ج٣ - ص٢٨ وما بعدها.

عثمان، ووُلد له يوم قُتل علي، رضوان الله عليهم أجمعين. وقيل: ولد له يوم مات الحسن بن علي عليهما السلام، لذلك وصف بالشؤم.

٢ ـ ابن سريج[1]:

هو عُبَيد بنُ سُرَيج، ويكنى أبا يحيى، مولى بني نوفل بن عبد مناف، ومنزله مكة، وقيل: هو مولى لبني عائذ بن عبد الله بن عمر بن مخزوم. وصف ابن سريج أنه كان آدم أحمر ظاهر الدم سُناطاً في عينيه قيل، بلغ خمساً وثمانين سنة، وصلع فكان يلبس جُمَّةً مركَّبة، وكان أكثر ما يرى مقنعاً، وكان منقطعاً إلى عبد الله بن جعفر. وقيل: كان ابن سريج مخنثاً، أحول أعمش، يُلَقَّب (وجه الباب)، وصلع فكان يلبس جمة، وكان لا يغني إلا مقنعاً، يسبل القناع على وجهه، لا يرى حوله، وكان أحسن الناس غناءً، يغني مرتجلاً ويُوقِع بقضيب، وغنى في زمن عثمان بن عفان رضي الله عنه، ومات في خلافة هشام بن عبد الملك، وكانت علته التي مات منها الجذام.

ذكر أن عود ابن سريج كان على صنعة عيدان الفرس، وكان ابن سريج أول من ضرب به على الغناء العربي بمكة، وأنه رآه مع العجم الذين قدم بهم ابن الزبير لبناء الكعبة، فأعجب أهل مكة غناؤهم، فقال ابن سريج: أنا أضرب به على غنائي، فضرب به، فكان أحذق الناس.

وقيل: أصل الغناء أربعة نفر: مكيّان ومدنيّان، فالمكيان ابن سريج وابن محرز، والمدنيان معبد ومالك، وقيل: ما خلق الله تعالى بعد داود النبي، عليه الصلاة والسلام، أحسن صوتاًمن ابن سريج، ولا صاغ الله عز وجل أحداً أحذق منه بالغناء.

كان ابن سريج أول من غنى الغناء المتقن بالحجاز بعد طويس. وكان مولده في خلافة عمر ابن الخطاب، وأدرك يزيد بن عبد الملك، وناح عليه، ومات في خلافة هشام، وكان قبل أن يغني نائحاً ولم يكن مذكوراً فعلاً على جيل أبي قبيس[2]، وناح بشعر، فاستحسن الناس ذلك منه، فكان أول ما ندب به هو:

يا عينُ جُودِي بالدُّمُوعِ السِّفَاح وابكي على قَتلَى قُرَيشِ البِطَاح

---

[1] سمير شيخاني ـ ص٥٥.

[2] اسم الجبل المشرف على مكة، وجهُه إلى قيقعان، ومكة بينهما، أبو قبيس من شرقيها، وقعيقعان من غربيها. سمي باسم رجل من مذحج كان يكنى أبا قبسي، لأنه أول من بنى فيه قبة ـ ياقوت ـ ج١ ـ ص٨٠.

٣ ـ بُديح المليح[1]:

كان يقال له: بُديح المليح، وله صنعة يسيرة، كان يغني أغاني غيره مثل سائب خاثر، ونشيط، وطويس، وهذه الطبقة.دخل عبد الله بن جعفر على عبد الملك بن مروان، وهو يتأوه فقال: يا أمير المؤمنين! لو أدخلت عليك من يؤنسك بأحاديث العرب وفنون الأسمار؟ قال: لست صاحب هزلٍ والجِدّ عليّ أحجى بي؟ قال: وما علتك يا أمير المؤمنين؟ قال: هاج بي عرق النسا في ليلتي هذه، فبلغ مني. قال: فإن بديحاً مولاي أرقى الناس منه. فوجه إليه عبد الملك، فلما مضى الرسول، سُقِط في يدي ابن جعفر وقال: كذبة قبيحة عند خليفة، فما كان بأسرع من أن طلع بديح فقال: كيف رقيتك من عرق النساء، قال: أرقي الخلق، يا أمير المؤمنين. قال: فسُرّي عن عبد الله. لأن بديحاً كان صاحب فكاهة، يعُرف بها، فمد رجله، فتفَلَ عليها، ورقاها مراراً.

فقال عبد الملك، الله أكبر وجدت والله خفاً، يا غلام! ادع فلانة، حتى تكتب الرقية، فإنّا لا نأمن هيجها بالليل، فلا نذعر بديحاً. فلما جاءت الجارية، قال بديح: يا أمير المؤمنين! امرأته الطلاق إن كتبتها حتى تعجل حِبائي. فأمر له بأربعة آلاف درهم، فلما صار المال بين يديه، قال: وامرأته الطلاق إن كتبتها أو يصير المال إلى منزلي. فأمر به فحمل إلى منزله، فلما أحرزه، قال: يا أمير المؤمنين! امرأته الطلاق إن كنت قرأت على رجلك إلا أبيات نصيب:

ألا إنَّ ليلَى العامريةَ أصبحَتْ   على النأيِ منّي ذَنْبَ غيريَ تَنقِمُ
وما زِلْتُ أستصِفي لكِ الودَّ أبتغي   مُحاسَنَهُ حتّى كأنّيَ مُجْرِمُ

قال: ويلك! ما تقول؟ قال امرأته الطلاق إن كان رقاك إلا بما قال. قال: فاكتمها علي قال: وكيف ذلك، وقد سارت بها البُردُ إلى أخيك بمصر؟ فطفق عبد الملك ضاحكاً يفحص برجليه.

٤ ـ معبد[2]:

هو معبد بن وهب، وقيل: ابن قطنيّ مولى ابن قطر، وقيل: ابن قطن مولى العاص بن وابصة المخزومي، وقيل: بل مولى معاوية بن أبي سفيان، وكان أبوه أسود، وكان هو خلاسياً، مديد القامة

---

[1] الأصفهاني ـ الأغاني ـ ج١٥ ـ ص ١٦٩.

[2] الأصفهاني ـ الأغاني ـ ج١ ـ ص٤٣ ـ سمير شيخاني ـ ص٩.

أحْوَل. وقد أصابه الفالج، وارتعش، وبطل، فكان إذا غنى يُضحك منه، ويهزأ به، مات في أيام الوليد بن زيد بدمشق، وهو عنده، وقيل: أصابه الفالج قبل موته، وارتعش، وبطل صوته، وقال كردم بن معبد المغني: مات أبي، وهو في عسكر الوليد بن يزيد، وأنا معه. فنظرت، حين أخرج نعشه إلى سلامة القس (جارية يزيد بن عبد الملك) وقد أضرب الناس عنه، ينظرون إليها، وهي آخذة بعمود السرير، وهي تبكي أبي وتقول:

قد لَعَمري بِتُّ لَيلي كأخي الدّاءِ الوَجيعِ
ونجيُّ الهَمِّ منّي بات أدنى من ضَجيعي
كُلمَّا أبصرتُ ربعاً خالياً فاضتْ دموعي
قد خلاَ من سَيِّدٍ كان لنا غيرَ مُضيعِ
لاَ تلُمْنا إن خَشَعنا أو هَمَمْنا بخُشُوع

وكان يزيد أمر أبي أن يعلمها هذا الصوت، فعلمها إياه، فندبته به يومئذ، قال: رأيت الوليد ابن يزيد والغمر أخاه متجردين في قميصين ورداءين، يمشيان بين يدي سريره، حتى أخرج من دار الوليد، لأنه تولى أمره، وأخرجه من داره إلى موضع قبره. كان معبد من أحسن الناس غناءً، وأجودهم صنعة، وأحسنهم خلقاً، وهو فحل المغنين، وإمام أهل المدينة في الغناء، وأخذ عن سائب خاثر، ونشيط مولى عبد ا لله بن جعفر، وعن جميلة. وفي معبد يقول الشاعر:

أجاد طُوَيسُ والسَّريجيُّ بعدَه وما قَصَبَاتُ السَّبْقِ إلا لَمعبَدِ

قال معبد: «وا لله لقد صنعت ألحاناً لا يقدِر شَبْعانُ ممتلىء ولا سَقَّاً يحمل قِرْبةً على الترنُّم بها، ولقد صنعتُ ألحاناً لا يقدر المتكىُء أن يترنَّم بها، حتى يقعُدَ مُستوفزاً، ولا القاعدُ حتى يقوم». وقيل لمعبد: كيف تصنع إذا أردت أن تصوغَ الغناء؟ قال: «ارتَحلُ قَعودَي وأُوقِعُ بالقضيب على رحلي، واترنم عليه بالشعر حتى يستوي لي الصوت».

٥ ـ سائب خاثر:

كان سائب خاثر[1] مولى بني ليث. وأصله من فيء كسرى، واشترى عبد ا لله بن جعفر

[1] الأصفهاني ـ الأغاني ـ ج٨ ـ ص ٣٣٣.

ولاءه من مواليه. وقيل: بل اشتراه، فأعتقه، وكان يبيع الطعام بالمدينة. وهو أول من عِمل العود بالمدينة وغنى به، وهو أوَّل صوت غُنّي به في الإسلام من الغناء العربي المتقن الصنعة. ولم يكن يضرب العود، إنما كان يقرع بقضيب ويغني مرتجلاً. وكان قد آلى ألا يغني أحداً سوى عبد الله بن جعفر. إلا أن يكون خليفة أو ولي عهد أو ابن خليفة. فكان على ذلك إلى أن قتل، وأخذ معبد عنه غناءً كثيراً، فنحل الناس بعضه إليه.

أشرف معاوية بن أبي سفيان ليلاً على منزل يزيد ابنه، فسمع صوتاً أعجبه واستخفّه السماع، فاستمع قائماً حتى مل، ثم دعا بكرسي، فجلس عليه، واشتهى الاستزادة، فاستمع بقية ليلته، حتى مل. فلما أصبح غدا عليه يزيد، فقال له: يا بني! من كان جليسك البارحة؟ قال: أي جليس، يا أمير المؤمنين؟ واستعجم عليه. قال: عرفني فإنه لم يخف علي شيء من أمرك. قال: سائب خاثر. قال: فأَخْثِرْ له يا بني! من برِكَ وصلتك، فما رأيت بمجالسته بأساً. قتل سائب خاثر يوم الحرة سنة ٦٣ هـ.

٦ ـ الغريض:

الغريض[1] لقب، لقب به، لأنه كان طري الوجه نضراً غض الشباب حسن المنظر، فلقب بذلك. والغريض: الطري من كل شيء، واسمه عبد الملك، وكنيته: أبو يزيد، وكان يكنى: أبا مروان، كان الغريض يضرب العود، وينقر بالدف، ويوقع بالقضيب، وكان جميلاً وضيئاً. وكان قبل أن يغني خياطاً، وأخذ الغناء في أول أمره عن ابن سريج، لأنه كان يخدمه. فلما رأى ابن سريج طبعه وظرفه وحلاوة منطقه، خشي أن يأخذ غناءه. فيغلبه عليه عند الناس، ويفوقه بحسن وجهه وجسده، فاعتل عليه، وشكاه إلى مولياته، وهن كن دفعنه إليه، ليعلمه الغناء، وجعل يتجنى عليه، ثم طرده، فشكا ذلك إلى مولياته، وعرفهن غرض ابن سريج في تنحيته إياه عن نفسه، وأنه حسده على تقدمه، فقلن له: هل لك في أن تسمع نواحنا في قتلانا فتأخذه، وتغني عليه؟ قال: نعم فافعلن، فأسمعنه المراثي، فاحتذاها، وخرّج غناءً عليها كالمراثي.

لما غضب ابن سريج على الغريض، فأقصاه، وهجره، لحقَ بَحوْراءَ وبَغُوم ـ جاريتان نائحتان

---

[1] الأغاني ـ ج٢ ـ ص ٣٥٣.

كانتا في شِعب ابن عامر بمكة، و لم يكن قبلهما ولا بعدهما مثلهما ـ فرأتاه يوماً يعصر عينيه، ويبكي فقالتا له: مالك تبكي؟ فذكر لهما ما صنع به ابن سريج، فقالتا لـه: ((لا أرقى ا لله دمعك، ألـزُز رأسك بين ما أخذته عنه، وبين ما تأخذه منا، فإن ضِعتَ بعدها فأبعدك ا لله)). وكان الغريض أحذق أهل زمانه بمكة بالغناء بعد ابن سريج، وكان لا يفرق بينهما لمقاربتهما في الغناء. قالت سكينة لما غنى الغريض وابن سريج:

عُوجِـــي علينـــا ربّـــة الهـــودَج

((وا لله! ما أُفرِّق بينكما، وما مَثَلكُما عندي إلا كَمَثَل اللؤلـؤ والياقوت في أعناق الجواري الحسان، لا يدري أي ذلك أحسن)) وقيل: إن الغريض أشجى غناءً، وإن ابن سريج أحكم صنعة، توفي سنة ٩٥ هـ.

٧ ـ محمد بن عائشة[1]:

محمد بن عائشة، ويكنى: أبا جعفر. و لم يكن يعرف له أب. فكان ينسب إلى أمه، ويلقبه من عاداه، أو أراد سبه «ابن عاهة الدار»، وعائشة أمه مولاة لكثير بن الصلت الكندي حليف قريش. وقيل: إنها مولاة لآل المطلب بن أبي وداعة السهمي. وقال ابن عائشة: كانت أمي ماشطة، وكنت غلاماً، فكانت إذا دخلت إلى موضع، قالوا: ارفعوا هذا لابن عائشة، فغلبت على نسبي. وكان ابن عائشة يفتن كل من سمعه، وقد أخذ عن معبد ومالك، و لم يموتا، حتى ساواهما على تقديمه لهما واعترافه بفضلهما. وقيل: إنه كان ضارباً، و لم يكن بالجيد الضرب. وقيل: بل كان مرتجلاً لم يضرب قط.

كان أحسن الناس صوتاً. وقيل ثلاثة من المغنين كانوا أحسن الناس حلوقاً: ابن عائشة وابن تيزن وابن أبي الكنّات. وقيل: ما عرف بالمدينة أحسن ابتداءً من ابن عائشة، إذا غنى، ولو كان آخر غنائه مثل أوله لقدمته على ابن سريج. وكان يضرب بالعود، و لم يكن مجيداً، وكان غناؤه أحسن من ضربه. فكان لا يكاد يمس العود، إلا أن تجتمع جماعة من الضُّرَّاب، فيضربون عليه، ويضرب هو، ويغني. وكان يصلح أن يكون نديم خليفة أو سمير ملك توفي سنة ١٠٠ هـ.

---

[1] الأغاني ـ الأصفهاني ـ ج٢ ـ ص١٩٥ وما بعدها.

٨ ـ حنين الحيري[1]:

حنين بن بُلوَع الحيري. مختلف في نسبه. فقيل: إنه من العباديين من تميم، وقيل: إنه من بني الحارث بن كعب، وقيل: إنه من قوم، بقوا من جديس وطسم، فنزلوا في بني الحارث بن كعب، فعدوا فيهم، ويكنى أبا كعب، وكان شاعراً مغنياً فحلاً من فحول المغنين، وله صنعة فاضلة متقدمة، وكان يسكن الحيرة، ويكري الجمال إلى الشام وغيرها.

((وكان حنين غلاماً، يحمل الفاكهة بالحيرة، وكان لطيفاً في عمل التحيات. فكان إذا حمل الرياحين إلى بيوت الفتيان ومياسير أهل الكوفة وأصحاب القيان والمتطربين إلى الحيرة، ورأوا رشاقته، وحسن قده وحلاوته وخفة روحه، استحلوه، وأقام عندهم. فكان يسمع الغناء، ويشتهيه، ويصغي إليه، ويستمعه، ويطيل الإصغاء إليه، فلا يكاد ينتفع به في شيء، إذا سمعه، حتى شدا منه أصواتاً، فأسمعها الناس ـ وكان مطبوعاً حسن الصوت ـ واشتهوا غناءه والاستماع إليه وعشرته. وشهر بالغناء، ومهر فيه، وبلغ منه مبلغاً كبيراً، ثم رحل إلى عمر بن داود الوادي وإلى حكم الوادي، وأخذ منهما، وغنى لنفسه في أشعار الناس، فأجاد الصنعة، وأحكمها، ولم يكن بالعراق غيره، فاستولى عليه في عصره)).

ذكر أن خالداً بن عبد الله القسري، حرم الغناء بالعراق في أيامه، ثم أذن للناس يوماً في الدخول عليه (عامة)، فدخل إليه حنين، ومعه عود تحت ثيابه. فقال: أصلح الله الأمير! كانت لي صناعة، أعود بها على عيالي، فحرمها الأمير، فأضر ذلك بي وبهم، فقال: وما صناعتك؟ فكشف عن عوده، وقال: هذا، فقال له خالد: غن، فحرك أوتاره، وغنى:

أيها الشامتُ المُعَيِّر بالدهـ ـرِ أأنت المُبَرَّأ الموفورُ
أم لديك العهدُ الوثيقُ من الأيّامِ بل أنت جاهلٌ مغرورُ
مَن رأيتَ المنونَ خلّدن أم مَن ذا عليه من أن يُضَامَ خَفِيرُ

فقال له: قد أذنت لك وحدك خاصة، فلا تجالس سفيهاً ولا معربداً. فكان إذا دعي قال: أفيكم سفيه أو معربد؟ فإذا قيل له: لا، دخل. توفي سنة ١١٠ هـ.

---

[1] الأغاني ـ ج٢ ـ ص٣٣٤.

٩ ـ عزة الميلاء[1]:

كانت عزة مولاة للأنصار، ومسكنها المدينة، وهي أقدم من غنى الغناء الموقع من النساء بالحجاز، وماتت قبل جميلة، وكانت من أجمل النساء وجهاً، وأحسنهن جسماً. وسميت الميلاء لتمايلها في مشيتها. وقيل: بل كانت تلبس الملاء، وتُشبَّهُ بالرجال، فسميت بذلك. وقيل: بل كانت مغرمة بالشراب.

كانت ممن أحسن ضرباً بعود، وكانت مطبوعة على الغناء، لا يعيبها أداؤه ولا صنعته ولا تأليفه، وكانت تغني أغاني القيان ممن سبقها، مثل سيرين، وخولة والرباب، وسلمى، ورائقة، وكانت الأخيرة أستاذتها. فلما قدم نشيط وسائب خاثر المدينة غنيا أغاني بالفارسية، فلقنت عزَّة عنهما نغماً، وألفت عليها ألحاناً عجيبة. فهي أول من فتن أهل المدينة بالغناء، وحرَّض نساءهم ورجالهم عليه. وإذا ذكروا عزة، قالوا: لله درها! ما كان أحسن غناءها ومدَّ صوتها، وأندى حلقها، وأحسن ضربها بالمزاهر والمعازف وسائر الملاهي، وأجمل وجهها، وأظرف لسانها، وأقرب مجلسها، وأكرم خلقها، وأسخى نفسها، وأحسن مساعدتها.

كان ابن سريج في حداثة سنه يأتي المدينة، فيسمع من عزة، ويتعلم غناءها ويأخذ عنها، وكان بها معجباً، وكان إذا سئل: من أحسن الناس غناءً؟ قال: مولاة الأنصار المفضلة على كل من غنى، وضرب بالمعازف والعيدان من الرجال والنساء، وقيل: هي سيدة من غنى من النساء مع جمال بارع، وخلق فاضل وإسلام لا يشوبه دنس، تأمر بالخير، وهي من أهله، وتنهى عن السوء، وهي مجانبة له، فناهيك ما كان أنبلها، وأنبل مجلسها! كانت إذا جلست جلوساً عاماً فكأن الطير على رؤوس أهل مجلسها، من تكلم، أو تحرك نقر رأسه.

وكانت عفيفة وجميلة، وكان عبد الله بن جعفر، وابن أبي عتيق، وعمر بن أبي ربيعة يغشونها في منزلها، فتغنيهم، وغنت يوماً عمر بن أبي ربيعة لحناً لها في شيء من شعره، فشق ثيابه، وصاح صيحة عظيمة، صعق معها، فلما أفاق، قال له القوم: لغيرك الجهل، يا أبا الخطاب! قال: إني سمعت ـ والله ـ ما لم أملك معه نفسي، ولا عقلي. كان حسان بن ثابت معجباً بها، وكان يقدمها

---

[1] الأغاني ـ ج١٧ ـ ص١٦٤.

على سائر قيان المدينة.

وكان ابن أبي عتيق معجباً بها، فأتى يوماً عند عبد الله بن جعفر، فقال له: بأبي أنت وأمي، هل لك في عزة، فقد اشتقت إليها، قال: لا، أنا اليوم مشغول، فقال: بأبي أنت وأمي، إنها لا تنشط إلا بحضورك، فأقسمت عليك إلا ساعدتني، وتركت شغلك، ففعل، فأتياها ورسول الأمير على بابها، يقول لها: دعي الغناء، فقد ضج أهل المدينة منك، وذكروا أنك قد فتنت رجالهم ونساءهم، فقال له ابن جعفر: ارجع إلى صاحبك، فقل له عني: أقسم عليك إلا ناديت في المدينة: أيما رجل فسد، أو امرأة فتنت بسبب عزة، إلا كشف نفسه بذلك، لنعرفه، ويظهر لنا ولك أمره، فنادى الرسول بذلك، فما أظهر أحدٌ نفسه، ودخل ابن جعفر إليها وابن أبي عتيق معه، فقال لها: لا يهولنّك ما سمعت، وهاتي فغنينا، فغنت، بشعر القطامي[1]:

إنّا مُحيُّوك فاسْلَمْ أيُّها الطَّلَلُ   وإن بليتَ، وإن طالتْ بك الطِّيَلُ

فاهتز ابن أبي عتيق طرباً، فقال عبد الله بن جعفر، ما أراني أدرك ركابك بعد أن سمعت هذا الصوت من عزة، توفيت سنة ١١٥ هـ.

١٠ ـ جميلة:

هي جميلة[2] مولاة بني سليم، وكان لها زوج من موالي بني الحارث بن الخزرج، فقيل: إنها مولاة للأنصار، وهي أصل من أصول الغناء، وعنها أخذ معبد وابن عائشة وحبابة وسلامة وغيرهم، وكانت جميلة من أعلم خلق الله بالغناء، وكان معبد يقول: أصل الغناء جميلة، وفرعه نحن، ولولا جميلة لم نكن نحن مغنين.

سئلت جميلة: أنى لك هذا الغناء؟ قالت: والله ما هو إلهام ولا تعليم، ولكن أبا جعفر سائب خاثر كان لنا جاراً، وكنت أسمعه يغني، ويضرب بالعود، فلا أفهمه، فأخذت تلك النغمات، فبنيت عليها غنائي، فجاءت أجود من تأليف ذلك الغناء، فعلمت، وألقيت، فسمعتني موالياتي يوماً، وأنا أغني سراً، ففهمنني، ودخلن علي، وقلن: قد علمنا، فما تكتمينا. فأقسمن علي، فرفعت صوتي،

---

[1] الأب لويس شيخو ـ شعراء النصرانية بعد الإسلام ـ طبع بيروت ١٩٩١ ـ ص١٩٦.

[2] الأصفهاني ـ الأغاني ـ ج٨ ـ ص١٩٥.

وغنيتهن بشعر زهير بن أبي سلمى[1]:

وما ذكرتُكِ إلاّ هِجتِ لي طَرَبا إنَّ المحبَّ ببعض الأمر معذورُ
ليس المحبُّ بمن إن شَطَّ غيَّره هجرُ الحبيب وفي الهِجران تغييرُ

كانت جميلة ممن لا يشك في فضيلتها في الغناء، ولم يدَّعِ أحدٌ مقاربتها في ذلك، وكل مدني ومكي يشهد لها بالفضل، توفيت سنة ١٢٥ هـ.

١١ ـ سلامة القس:

كانت سلامة[2] مولدة من مولدات المدينة، وبها نشأت، وأخذت الغناء عن أشهر المغنين، فمهرت، سميت سلامة القس، لأن رجلاً يعرف بعبد الرحمن بن أبي عمار الجشمي، من قراء أهل مكة، وكان يلقب بالقس لعبادته، شغف بها، وشهر، فغلب عليها لقبه، واشتراها يزيد بن عبد الملك في خلافة سليمان، وعاشت بعده، وكانت إحدى من اتهم به الوليد من جواري أبيه. وقيل: كانت حبابة وسلامة القس من قيان أهل المدينة، وكانتا حاذقتين ظريفتين، وكانت سلامة أحسنهما غناءً، وحبابة أحسنهما وجهاً، وكانت سلامة تقول الشعر، وكانت حبابة تتعاطاه، فلا تحسن.

والقس هو عبد الرحمن بن أبي عمار من بني جشم بن معاوية، وكان منزله بمكة، وأما سبب[3] افتتانه بها، فهو أنه سمع غناء سلامة القس على غير تعمد منه. لذلك، بلغ غناؤها منه كل مبلغ، فرآه مولاها، فقال له: هل لك أن أخرجها إليك، أو تدخل فتسمع؟ فأبى، فقال: مولاها: أنا أقعدها في موضع، تسمع غناءها، ولا تراها، فأبى، فلم يزل به، حتى دخل، فأسمعه غناءها، فأعجبه، فقال له: هل لك في إخراجها إليك؟ فأبى.

فلم يزل به حتى أخرجها، فأقعدها بين يديه، فتغنت فشغف بها، وشغفت به، وعرف ذلك أهل مكة، فقالت له يوماً: أنا والله أحبك، قال: وأنا والله أحبك، قالت: وأحب أن أضع فمي على فمك، قال: وأنا والله أحب ذلك، قالت: فما يمنعك؟ فوالله

---

[1] زهير بن أبي سلمى ـ ديوانه ـ طبع بيروت (دار صادر) ـ بدون تاريخ ص٣٧.
[2] الأغاني ـ ج٨ ـ ص٣٤٧.
[3] سمير شيخاني ـ أشهر المغنين عند العرب ونوادرهم ـ ص ٦٨.

إن الموضع لخال، قال: إني سمعت الله عز وجل يقول: ﴿الأَخِلاَّءُ يَوْمَئِذٍ بَعضُهُم لِبَعضٍ عَدُوٌّ إلاّ المُتَّقِينَ﴾[1] وأنا أكره أن تكون خلة ما بيني وبينك تؤول إلى عداوة، ثم قام وانصرف، وعاد إلى ما كان عليه من النسك.

كانت سلامة وريا أختين، وكانتا من أجمل النساء، وأحسنهن غناءً فاجتمع أحوص وابن قيس الرقيات عندهما، فقال لهما ابن قيس الرقيات: إني أريد أن أمدحكما بأبيات، وأصدق فيها، ولا أكذب، فإن أنتما غنيتماني بذلك، وإلا هجوتكما، ولا أقربكما، قالتا: فما قلت؟ قال: قلت[2].

لقد فتنتْ ريَّا وسلاَّمةُ القَسَّا	فلم تتركا للقَسِّ عقلاً ولا نفسا
فتاتانِ أمَّا منهما فشبيهة	الهلالِ وأُخرَى منهما تُشبه الشمسا

توفيت سنة ١٣٠ هـ.

[1] القرآن الكريم ـ سورة الزخرف ـ الآية /٦٧.

[2] عبيد الله بن قيس الرقيات ـ ديوان ـ طبع لبنان تحقيق محمد يوسف نجم (دار صادر) ـ بدون تاريخ ـ ص٣٣.



الفصل الرابع

اللباس

. لباس الرأس.

. أدوات الزينة والحلي.



الفصل الرابع

اللباس

بدأت قصة استعمال الملابس في التاريخ، منذ وجد الإنسان على وجه الأرض. والكل يعلم قصة آدم عليه السلام، وكيف أكل من الشجرة، ونودي عليه بالمعصية. أثناء ذلك كان آدم وحواء عريانين، حيث طافا على أشجار الجنة ليتسترا بأوراقها، فلجأ إلى شجرة التين[1] فغطتهما من ورقها، وقيل: غطتهما شجرة العود. لذلك أكرمها الله تعالى بالرائحة الزكية الطيبة، وقيل: غطتهما شجرة الحناء.

وقد ورد ذلك في القرآن الكريم، بقوله الله تعالى: **﴿فأكلا منها، فبدت لهما سوءاتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة، وعصى آدم ربه فغوى﴾**[2].

ثم اهتدى الإنسان الأول إلى جلود الحيوانات[3]، يتخذ منها لباساً ووقاية. فكان بذلك أول تطور للألبسة، ثم ابتكر الإنسان أنواع النسيج المختلفة، وفي مقدمتها الصوف، حيث تذكر

---

[1] محمد بن أحمد اياس ـ بدائع الزهور في وقائع الدهور ـ طبع حلب المطبعة اليوسفية، بدون تاريخ ـ ص٤٢.

[2] سورة طه الآية / ١٢١.

[3] عبد المجيد أبو تراب ـ أسرار المهن تاريخاً وحاضراً ـ طبع دمشق ١٩٨٧ ـ ص٧٤ ـ ٧٥.

المصادر: أن حواء هي أول من نسج، وحاك الصوف[1]، وكانت أول من نسجت منه عباءة صوف، قدمتها لخليفة الله على الأرض نبينا آدم عليه الصلاة والسلام.

ومع الزمن استخدمت الألياف النباتية، وغزلت الخيوط، ونسجت حيث يذكر أن النبي إدريس عليه السلام، كان أول من خاط الثياب، ولبس المخيط[2] وأول من صنع المكيال. فلما ابتكر الخياطة، استحسن الناس ذلك، ولبسوا المخيط، وبعضهم الآخر ينسب الخياطة إلى هرمس الحكيم[3]. ثم تطورت هذه الصناعة، فكانت الريادة فيها للمصريين. وقيل إن السوريين كانوا سادة في هذه الصناعة منذ أواخر الألف الرابع قبل الميلاد، حيث يذكر بأن التجارب الأولى لصناعة الغزل والنسيج كانت على أرض سورية.

إذن تعدّ الحضارة العربية حضارة عريقة، حيث بلغ الترف والتأنق مبلغاً رفيعاً. فلم يتخذوا من الزي مجرد لباس، بل كانوا يقومون بعملية حضارية مركبة، يعتمدون فيها على تأثير المناخ واللون من جهة، ونوع النسيج من جهة أخرى.

ولما كان الجو عند العرب حاراً ومعتدلاً، فقد اتخذوا اللون الأبيض؛ لأنه يتلاءم مع لون بشرتهم. وهذا لا يعني أنهم لم يستخدموا الألوان الأخرى. كما تفنن العرب، وخاصة المصريون في صناعة نسيج التيل. فكان منه الشفاف الناعم، ومنه الغليظ السميك، والرخو الشفاف. لذلك بقي التيل هو القماش الرئيسي الأكثر استعمالاً. ثم أدخلوا الصوف والحرير عن طريق الدول والممالك المجاورة بحكم العلاقات المتبادلة معها.

كما امتازت الأزياء عند العرب بخصائص، فبعضها كان يميل إلى البساطة، وبعضها الآخر إلى الترف، فاستعملوا الأزياء الضيقة بدون ثنيات، وأخرى فضفاضة بثنيات، تتجمع في الأمام، حيث تظهر الجسم من الخلف، ومنها القصير، ومنها الطويل، وأزياء قدماء العرب تدل على تشابه الأزياء عند الرجل والمرأة، مع وجود بعض الاختلافات.

ومن المعلوم أن الأزياء من الصعب أن ينسبها الإنسان إلى شعب ما. والعرب كجنس، لهم

---

[1] ابن اياس - بدائع الزهور - ص٢٢.

[2] المرجع نفسه - ص٥٢.

[3] المرجع نفسه - ص٥٢.

قدم سحيق في تاريخ البشرية، ولهم حضارة عريقة في مختلف المجالات. وعلى أرض العرب قامت أقدم الحضارات كالمصرية والفينيقية والآرامية والبابلية والحميرية والآشورية والكلدانية وغيرها. ومع تقدم العلم والبحث والتدقيق سيتضح أن دور العرب في الحضارات العالمية، كان له الريادة والسبق، وليس ثانوياً، كما يعتقد بعضهم، أولئك الذين يحاولون طمس معالم هذه الحضارة وآثارها. يجب ألا ننسى أثر الحضارة العربية سواء المصرية أو الممالك القديمة، التي عاشت على أرض سورية والعراق، فقد أفادت البشرية في مختلف مجالات الحياة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والعسكرية والفنية والفكرية. لقد كان اللباس عند العرب في البداية بسيطاً ومريحاً ومعتدلاً ومحتشماً ومتواضعاً.

إذن تفنن العرب ـ قبل الإسلام وبعده ـ بالأزياء لكلا الجنسين. يؤكد ذلك ما ذكره الشعراء في شعرهم عن هذه الملابس بأسمائها، دون التحدث عن أشكالها. فالشعراء العرب قبل الإسلام، كانوا سجلاً صادقاً للأحداث، يصفون ما يشاهدونه بصدق وأمانة.

لقد اختلط العرب بالشعوب المجاورة، فأثروا وتأثروا، فتكون بذلك حضارة راقية، اكتسبت وأكسبت الحضارة الإغريقية والرومانية، كما أكسبت الفرس، واكتسبت منهم ما أثراها في مختلف الميادين. ومن ضمنها الأزياء. ومع تطور الزمن، وبعد ظهور الإسلام وانتشاره على الأرض العربية وخارجها، أصبحت الفنون الشعبية وعلى رأسها الأزياء مترفة، وقد غدا اللباس مترفاً متأنقاً وأحياناً أخرى باذخاً يتناسب ومراكزهم، فكان للأمراء أزياء، وللقضاة والعلماء والفقهاء أزياء، ولمجالس الأنس أزياء، وللجند أزياء، حيث تختلف الأزياء باختلاف وتنوع الوضع الاجتماعي.

ومن المعلوم أن الخياطة[1] كانت شائعة عند العرب، والمخيط ما خيط به، وهي الإبرة. والحديث الشريف يؤكد ذلك، وعمل الأبرار من الرجال الخياطة، وعمل الأبرار من النساء الغزل[2]. ومن المواد النسيجية التي استخدمها العرب القز والحرير، واستعملوا الخز[3] وهو ما نسج من صوف وحرير، كما استعملوا الطيلسان[4]: الذي هو ضرب من الألبسة، وأول من لبسه من العرب عبد الله بن عامر، وقيل جبير بن مطعم، كما استخدموا الصوف والقطن والكتان وغيرها، كما

---

[1] ابن منظور ـ لسان العرب ـ ص٢٩٨.

[2] الكتاني ـ التراتيب الإدارية ـ ج٢ ـ ص٦٠.

[3] عمر بن أبي ربيعه ـ ديوانه ـ ص٣٨٨.

[4] ابن هلال العسكري ـ الأوائل ـ ج٢ ـ ص١٢.

سيرد.

أخيراً: عندما جاء الإسلام، بأفكاره الجديدة الرامية إلى خلق مجتمع جديد يحل محل المجتمع القديم، بمرتكزات وأساسات ومنطلقات جديدة، لم يعمد إلى نسف كل قديم. والمطلع على التاريخ يلاحظ بشكل عام أن الإسلام لم يغير من أسلوب اللباس في الجاهلية، ولم يفرض زياً خاصاً، إنما تذكر بعض المصادر: أن الرسول (ص) كان قد نهى عن بعض أنواع الثياب، من ذلك: (المقدم)[1] الذي يعد من الثياب المشبعة حمرة، حيث نهى الرسول عن لبسه، وأهم أنواع الثياب عند العرب مايلي:

- **البرد**[2]: من الثياب، والبرد ثوب فيه خطوط، خص بعضهم به الوشي، والجمع أبراد وبرود، والبردة كساء، يلتحف به. وقيل: إذا جعل الصوف شقة، له هدب، فهي بردة، وقيل: البرد معروف من برود القصب والوشي. أما البردة: فكساء مربع أسود، فيه صفر، تلبسه الأعراب. وكانت الملابس تسمى بأسماء دالة على نقوشها.

يقول زهير بن أبي سلمى[3]:

يَجُرّونَ البُرُودَ وقَدْ تَمَشَّتْ ... حُمَيَّا الكأسِ فيهِم والغِنَاءُ

وقال عنترة العبسي[4]:

شقّت عَلى العَليا وَفاةُ كَرِيمَةٍ ... شَقّت عَلَيها المَكرُماتُ بُرودها

وذكر البرد كل من الشعراء المرقش الأكبر[5]، والحصين بن حمان[6]، والحطيئة[7]، ودريد بن

---

[1] الأعلم الشنتمري - أشعار الشعراء الستة الجاهليين - طبع بيروت ١٩٧٩ - ج٢ - ص١٤٩.

[2] ابن منظور - لسان العرب - ج٣ - ص٨٧ - صحيح البخاري - كتاب اللباس - باب البرود - ج٩ - ص١٦٣ - الطبري - تاريخ الرسل والملوك - ج٤ - ص٢٠١.

[3] شرح ديوان زهير بن أبي سلمى - ص١١.

[4] ديوان عنترة العبسي شرح كرم بستاني - طبع بيروت - دار صادر - بدون تاريخ - ص١٢٨.

[5] لويس شيخو - شعراء النصرانية - ص١٨٥.

[6] المرجع نفسه - ص٧٤٠.

[7] ديوان الحطيئة رواية ابن حبيب عن ابن الاعرابي - شرح أبي سعيد السكري - طبع بيروت - دار صادر - بدون تاريخ - ص٢٠.

الصمة[1]. واستخدم العرب في عهد الرسول (ص) البردة. ففي الحديث عن سهيل بن سعد قال: جاءت امرأة ببردة منسوجة، قال: أتدرون ما البردة؟ كساء مخطط، وقيل: كساء مربع أسود، فقيل: نعم هي الشملة منسوج في حاشيتها، فأخذها النبي (ص)[2]. وذكر في الحديث: «رأيت رسول الله (ص) بمنى على بغلته، وعليه برد أحمر»[3]. وعن أنس بن مالك «قال: كنت أمشي مع رسول الله، وعليه برد بحراني غليظ الحاشية[4]، وذكر البردة الفرزدق[5] بقوله:

فَقَالاَ لَهُم: مَا بَالُكُم في بِرَادِكُم أَمِن فَزَعٍ أم حَوْلَ رَبَّانَ لاَعِبِ

وورد ذكرها في الأغاني مراراً منها في أخبار زهير بن أبي سلمى: «ما رأيت كاليوم قط رجلاً ولا بردين ولا فراساً»[6]، وفي أخبار مجنون بن عامر: «وعليه برد من برود الأعراب»[7] وفي أخبار جميلة: «وعلى عاتقها بردة يمانية»[8]. وفي أخبار جميلة أيضاً: فطرحت برداً لها من حيرة في النار، وقالت: احترقت بردي..! وللبرد أشكال وتسميات أخرى، كانت شائعة عند العرب. أهمها مايرد:

ـ **الحبرة**[9]: ضرب من برد اليمن. الجمع حُبُر وحبرات، وهي ثوب موشى مزين، والحبرة ضرب من ثياب كانت تجلب من اليمن، ذكرها أمرؤ القيس[10] بقوله:

وَعنسٍ كألوَاحِ الإرانِ نَسأْتها على لاحبٍ كالبُرد ذِي الحَبَرَاتِ

واستعملها العرب في عهد رسول الله (ص). ففي الحديث حدثنا قتادة، قال: «قلنا لأنس

---

(1) ديوان دريد بن الصمة ـ تحقيق محمد خير البقاعي ـ طبع دمشق ١٩٨٠ـ ص٧٨.

(2) سنن ابن ماجه ـ ج٢ ـ ص٣٦٧ ـ الكتاني ـ التراتيب الإدارية ـ ج٢ ـ ص٥٨.

(3) عبد الحي الكتاني ـ التراتيب الإدارية ـ ج٢ ـ ص٧٩ ـ سنن ابن ماجه ـ ج٢ ـ ص٣٦٧.

(4) صحيح البخاري ـ المجلد الثالث ـ ج٧ ـ ص١٨٩ ـ صحيح مسلم ـ ج٦ ـ ص١٤٩.

(5) ديوان الفرزدق ـ ص٩٦ ـ ١٦١.

(6) الأغاني ـ للأصفهاني ـ ج١٠ ـ ص٣١٣.

(7) المرجع نفسه ـ ج٢ ـ ص١٣.

(8) المرجع نفسه ـ ج٨ ـ ص٢٢٦.

(9) ابن منظور ـ لسان العرب ـ ج٤ ـ ص١٥٩.

(10) ديوان امرىء القيس ـ تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ـ طبع دار المعارف بمصر ١٩٩٠ـ ص٨١.

ابن مالك: أي اللباس كان أحب إلى رسول الله (ص) ؟ قال: الحبرة»[1]. وذكرها عبيد الله بن قيس الرقيات[2]، بقوله:

يَهَبُ الْبُخْتَ والنّجَائِبَ والقَيْنَةَ   تَمشي في الرَّيْطِ والحَبَرَاتِ

وقال عمر بن أبي ربيعة[3]: «وعليه الخز والقز ووشي الحبرات»

- **السيراء**[4]: ضرب من البرود، وقيل: ثوب مسير، فيه خطوط، تعمل من القز كالسيور. وقيل: برود، يخالطها حرير، وقيل: هي من ثياب اليمن، والسيراء برود، فيها خطوط صفر، استعملها العرب في صدر الإسلام، وقد ورد ذكرها مراراً في صحيح مسلم[5]، كتاب اللباس والزينة ذكرها النابغة[6] بقوله:

صَفراءُ كالسِّيَراءِ أُكمِلَ خَلقُها   كالغُصنِ في غُلَوائِهِ المتأوِّدِ

وقال قيس بن الحطيم[7]:

كَشَقِيقةِ السَّيَرَاء أو كغَمَامةٍ   بَحَرِيةٍ في عارضٍ مَجنُوبِ

وقال عبيد الله بن قيس الرقيات[8]:

صَفرَاءُ كالسَّيَرَاءِ لَم   تَشمِط غُذوبَتَها بُحوُرَة

- **العقل**[9]: ضرب من برود اليمن أحمر، يذكره علقمة الفحل[10] بقوله:

---

(1) صحيح مسلم - ج٦ - ص١٤٤.

(2) ديوان عبد الله بن قيس الرقيات - ص٢١.

(3) شرح ديوان عمر بن أبي ربيعة - ص٣٨٨.

(4) ابن منظور - لسان العرب - ج٤ - ص٣٩٠.

(5) صحيح مسلم - ج٦.

(6) ديوان النابغة الذبياني - تحقيق عمر فاروق الطباع - طبع بيروت ١٩٩٤ - ص٤٨.

(7) ديوان قيس بن الخطيم - تحقيق ناصر الدين الأسدي - طبع بيروت - دار صادر - بدون تاريخ - ص٦٠.

(8) ديوان عبيد الله قيس بن الرقيات - ص٤٤.

(9) ابن منظور - لسان العرب.

(10) الأعلم الشنتمري - أشعار الشعراء الستة الجاهليين - ج١ - ص١٤٩- ديوان علقمة - شرح سعيد شيبب مكارم - طبع دار صادر - ١٩٩٦ - ص٤٨.

عَقــلاً وَرَقمــاً تَظَــلُّ الطَّــيرُ تتبعـــه كأنّـــهُ مِـــنْ دَمِ الأَجْـــوافِ مَدمُـــومُ

والعقل والرقم ضربان من برود اليمن، والشيح[1]: أيضاً من برود اليمن.

ـ **الخنيف**[2]: الكتان، وقيل ثوب خفيف رديء، لايكون إلا من كتان خاصة، وقيل هو ثوب كتان أبيض غليظ، وقيل: هو ضرب من البرود، كانت تصنع من الكتان الأبيض الغليظ، وهو أردأ الأنواع، ذكره امرؤ القيس[3]، بقوله:

عَلـى كـالخَنيفِ السَّـحِقِ يَدعُـو بِـهِ لَـهُ صَـدَدُ وَرِدُ الـتِرابِ دفـينُ

ـ **الأنب**[4]: البقيرة، وهو برد أوثوب، يؤخذ فيشق في وسطه، ثم تلقيه المرأة في عنقها، من غير جيب ولا كمين، والجمع الأنوب، والأنب درع المرأة وقيل: الأنب من الثياب، ماقصر، فنصف الساق وقيل: الأنب غير الإزار، لا رباط له كالكتة، وليس على خياطة السراويل. ولكنه قميص غير مخيط الجانبين، وقيل: هو السروال بلا رجلين، والجمع أناب وآناب.

ـ **المضلع**[5]: أو الثياب المضلعة مخططة على شكل الضلع. وقيل: هو الموشى. و قيل: هو المضلع من الثياب المسير. وقيل: هو المختلف النسج الرقيق. وقيل: المضلع الثوب الذي قد نسج بعضه، وترك بعض. وقيل: برد مضلع إذا كانت خطوطه عريضه، وتضليع الثوب الذي جعل وشيه على هيئة الأضلاع. يذكره امرؤ القيس[6]، بقوله:

تُجَـافي عـن المـأثور بيـني وبينَهـا وتُدنـي عليَهـا السَّـابريَّ المضلَّعـا

ـ **الرقم**[7]: خز موشى. ويقال: ضرب من برود اليمن. وقيل: ضرب مخطط من الوشي. وقيل: من الخز، أو هو ثوب أحمر، يجَلل به الهوادج. وقيل: الرقم من ثياب اليمن، تلبسه الهوادج.

---

[1] ابن منظور ـ لسان العرب ـ ج٢ ـ ص٥٠١.

[2] المرجع نفسه ـ ج ٩ ـ ص٩٨.

[3] ديوان امرىء القيس ـ ص٢٨٣.

[4] ابن منظور ـ لسان العرب ـ ج ١ ـ ص٢٠٥.

[5] المرجع نفسه ـ ج٨ ـ ص٢٣٦.

[6] ديوان امرىء القيس ـ ص٢٤٢.

[7] ابن منظور ـ لسان العرب ج ١٢ ـ ص٢٤٩.

وقيل: الرقم البرود.

ويذكره طرفة بن العبد[1] بقوله:

عالَين رقماً فاخراً لَونُهُ من عَبقَريٍّ كَنجَيعِ الذّبيح

وذكره المثقب العبدي[2] وعمرو بن قميئة[3]، كما ذكره الحطيئة[4]، بقوله:

وعالَينَ رَقماً فَوقَ عَقمٍ كأنّهُ دمُ الجَوفِ يَجرِي في المذارِعِ وَاشلُه

- **العصب**[5]: ضربٌ من برود اليمن، سمي: عصباً لأن غزله يعصب، أى يدرج، ثم يصبغ، ثم يحاك، ولايجمع، يذكره امرؤ القيس[6]، بقوله:

كأنَّ جِواءً من يمانٍ مُعَصَّبٍ بمنكبها وَالآخِنَى المشَّمس

- **الأتحمية**[7]: نوع من البرود موشى، وقيل: الأتحمية من ثياب اليمن، يذكرها امرؤ القيس[8] بقوله:

ففِئنَا إلى بيَتٍ بعَليَاءَ مُردَحٍ سماوتُه من أَتحميٌّ معصّبِ

- **الأكباش**[9]: ضرب من ضروب اليمن، يذكرها عمر بن أبي ربيعة[10] بقوله:

فإذا شُخوصُ كُنْتُ أَعرِفُها في المِسكِ وَالأكباشِ وَالعَصَبِ

---

(1) ديوان طرفة بن العبد - طبع بيروت - دار صادر - بدون تاريخ - ص١٦.

(2) ديوان المثقب العبدي - تحقيق حسن كامل الصيرفي - طبع سوريا ١٩٧١- ص١٥٦.

(3) ديوان عمرو بن قميئة - شرح خليل إبراهيم العطية - طبع بيروت - دار صادر ١٩٩٤- ص٥٠.

(4) ديوان الحطيئة - ص٧٨.

(5) ابن منظور - لسان العرب ج ١ - ص٦٠٤.

(6) ديوان امرىء القيس - ص٢٧٥.

(7) ابن منظور - لسان العرب - ابن قتيبة - كتاب المعاني الكبير - طبع حيدر أباد الهند - ج ١ - ص٤٨٤.

(8) ديوان امرىء القيس - ص ٣٨٨.

(9) ابن منظور - لسان العرب - ج ٦ - ص٣٣٩.

(10) ديوان عمر بن أبي ربيعة - ص٣٨١.

- **الوصائل**[1] :ضرب من برود اليمن المخطط. وقيل: ضرب من الثياب الحمر المخططة، يذكرها امرؤ القيس[2] بقوله:

مكّللــــةً حمــــــراءَ ذاتَ أَسِـــــرّةٍ لهـــا حُبُــكٌ كأنّهـــا مِـــن وَصَـــائِلِ

وقال لبيد[3] :

غَرائِـــرُ أبكـــارٌ عَلَيهــا مَهَابَـــةُ وَعُـــونٌ كـــرامٌ يَرتَدِيـــنَ الوَصَـــائِل

- **المرحل**[4] : ضرب من برود اليمن، سمي مرحلاً: لأن عليه تصاوير رحل. ورد ذكره في صحيح مسلم[5] ، وذكره عمر بن أبي ربيعة[6]، بقوله:

يَمشـــــينَ في الخَــــزِّ وَالمراحِـــــلِ أن يَعـــــرِفَ آثـــــارَهُنَّ مُقْتَفِـــــرُ

- **المرجل**[7] : ضرب من برود اليمن، وثوب ممرجل على صفة المراجل من البرود.

أي: عليها نقوش تماثيل الرجال. يذكرها عبيد الله بن قيس الرقيات[8] بقوله:

جُنِّبْـــــنَ الفُـــــرُوجَ[9] مِـــــنَ المَرَاجِــــلِ وَالْمُضلَّعَـــةِ الْمُنِـــيرَهْ

- **الخال**: ضرب من برود اليمن، لونها أبيض، ويذكرها امرؤ القيس بقوله[10] :

ذعَـــرتُ بهـــا سِـــرباً نَقِيـــاً جلـــوُدُه وأَكرُعُـــه وَشـــيُ الـــبرُودِ مِـــن الخـــالِ

---

[1] ابن منظور - لسان العرب - ج ١١ - ص٧٢٩.

[2] ديوان امرىء القيس - ص٩٦.

[3] أبي زكريا يحيى علي التبريزي، شرح ديوان الحماسة - أبو تمام، ط عالم الكتب، بيروت بدون تاريخ ج ٣ - ص - لبيد بن ربيعه العامري - ديوانه - طبع دار صادر - بيروت بدون تاريخ - ص١١٨.

[4] ابن منظور - لسان العرب - ج ١١ - ص٢٧٨.

[5] صحيح مسلم - ج ٦ - ص١٤٥.

[6] شرح ديوان عمر بن أبي ربيعة - ص١٤٣.

[7] ابن منظور - لسان العرب - ج ١١ - ص٦٢٢.

[8] ديوان عبيد الله بن قيس الرقيات - ص٤٥.

[9] الفروج: واحدها فرج.

[10] امرىء القيس - ديوانه - ص٣٧.

ـ **القميص**[1]: الذى يلبس معروف الذكر، وقد يعنى به الدرع، فيؤنث، والجمع أقمصه وقميص وقمصان. والقميص: ثوب من قطن أو كتان أوحزير. عرفه العرب في الجاهلية والإسلام. له أشكال وألوان وأسماء مختلفة، وقد ورد ذكره في القرآن الكريم بقوله تعالى: **﴿وَجاؤوا عَلى قَميصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ﴾**[2] وقال تعالى: **﴿ قالَ هِيَ راوَدَتْني عَنْ نَفْسي، وَشَهِدَ شاهِدٌ مِنْ أَهْلِها إِنْ كانَ قَميصُهُ قُدَّ مِنْ قُبُلٍ، فَصَدَقَتْ، وَهُوَ مِنَ الكاذِبينَ، وَإِنْ كانَ قَميصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ، فَكَذَبَتْ، وَهُوَ مِنَ الصّادِقينَ، فَلَمّا رأى قَميصَهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ قالَ: إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ. إِنَّ كَيْدَكُنَّ عظيمٌ﴾**[3] وقال الله تعالى على لسان يوسف:

﴿ اِذْهَبوا بِقَميصي هذا فَأَلْقوهُ عَلى وَجْهِ أَبي يَأْتِ بَصيراً﴾[4]. وجاء في الحديث **«عن ابن عمر أن رسول الله (ص) رأى على عمر قميصاً أبيض»**[5]. وعن ابن عباس **«قال: كان رسول الله (ص) يلبس قميصاً قصير اليدين والطول»**[6]، فقد ورد ذلك أيضاً في صحيح البخاري[7] وصحيح مسلم[8]. وورد ـ ذلك أيضاً في الكتاب المقدس ـ العهد القديم، سفر الخروج، الإصحاح الثامن والعشرين. وعرفه المصريون القدماء[9]، والممالك الشرقية القديمة[10] عبر التاريخ. والقميص من الأزياء التي كان استعمالها مشتركاً بين الرجال والنساء. وقد ورد ذكره عند الشعراء العرب قبل الإسلام وبعده كما ذكره

---

(1) ابن عساكر ـ تاريخ مدينة دمشق ـ طبع بيروت ـ ج٤٤ ـ ص٣٠٦ ـ الطبري ـ تاريخ الرسل والملوك ـ ج٤ ـ ص١٧٥ ـ ابن سعد ـ الطبقات الكبرى ـ ج٣ ـ ص١٠٣ ـ ابن منظور ـ لسان العرب ـ ج٧ ـ ص٨٢.

(2) سورة يوسف الآية / ١٨.

(3) سورة يوسف الآية / ٢٦ ـ٢٨.

(4) سورة يوسف الآية / ٦٣.

(5) سنن ابن ماجه ـ ج٢ ـ ص٣٦٨.

(6) المرجع نفسه ـ ج٢ ـ ص٣٧٢.

(7) صحيح البخاري ـ مجلد أول ـ ص١٠٢.

(8) صحيح مسلم ـ ج ـ ص .

(9) ثروت عكاشة ـ الفن المصري ـ طبع دار المعارف بمصر ١٩٧٢ـ ج٢ ـ ص٦٣٨ ـ ٨١١.

(10) علي أبو عساف ـ الممالك القديمة في سورية ـ طبع دار دمشق ١٩٨٨ ـ ص٤٦٢.

عميرة بن جعبل[1] بقوله:

يُثيرَانِ مِنْ نَسجِ التُّرابِ عَلَيهِمَا ... قَميصَينِ أَسْماطاً وَيرتَدِيانِ

وقال دريد بن الصمة[2]:

تَرَاهُ خَمِيصَ البَطنِ والزَّادُ حَاضِرٌ ... عَتِيدٌ وَيَغدُو في القَمِيصِ المُقَدَّدِ

وورد ذكره - في الأغاني للأصفهاني - مراراً. منها في أخبار كثير ونسبه (ثم ألقى قميصه، فإذا به قد صار مثل الغش)[3]، وعند ذكر غزوة بدر (صوت ضمضم بن عمرو الغفاري، وهو يصرخ ببطن الوادي، واقفاً على بعيره، وقد جدع بعيره وحول راحلته، وشق قميصه، وهو يقول: يا معشر قريش! اللطيمة اللطيمة[4]. وفي أخبار معبد، قال كروم: (فلقد رأيت الوليد بن يزيد والغمر أخاه متجردين من قميصين ورداءين)[5]، وفي أخبار عمر بن أبي ربيعه: (لست بمنصرف، أو توجه إليّ بقميصها، الذي يلي جسدها... فأخبرتها، ففعلت، ووجهت إليه بقميص من ثيابها)[6] وفي أخبار جرير: (ففزع جرير، وعليه قميص غليظ وملاءة صفراء)[7]. وورد ذكره في الأمالي[8]. قال نصيب يصف سواده عند عبد الملك بن عبد الملك، قائلاً:

سَوِدتُ فلم أملك سوادِي وَتَحتَه ... قَميصٌ مِنَ القُوهِيِّ بيضٌ بَنائقُه[9]

وذكره الحادره[10] يقول:

ومُنْشَقٌّ أَعْطافِ القَمِيصِ كأَنَّه ... إذا لاحَتِ الظَّلْماءُ نارٌ تَوَقَّدُ

---

[1] لويس شيخو - شعراء النصرانية قبل الإسلام - ص١٩٦.

[2] ديوان دريد بن الصمة - ص٦٨.

[3] الأغاني، للأصفهاني - ج٩ - ص٣٥.

[4] المرجع نفسه - ج٤ - ص١٧٣. وبدر سميت باسم بدر بن قريش بن الحارث بن مخلد وبين بدر والمدينة سبعة برد - ياقوت الحموي - معجم البلدان ج١ - ص٣٥٧ وما بعدها.

[5] المرجع نفسه - ج١ - ص٣٧.

[6] المرجع نفسه - ج١- ص١٩٣.

[7] المرجع نفسه - ج٨ - ص١٥.

[8] القالي: أبي إسماعيل بن القاسم القالي البغدادي - ذيل الأمالي والنوادر - طبع بيروت ١٩٨٠ - ص١٢٧.

[9] البنائق: جمع بنيقة وهي: ما تزاد في القميص ليتسع، والقوهي منسوب لقوهستان، وكانت تعمل منها الثياب.

[10] ديوان الحادره - تحقيق ناصر أسد الدين - ط دار صادر بيروت ١٩٩١ - ص٩٥.

وقال الفرزدق[1]:

حَـزْنٌ وَمُنخـرِقُ القَمِيـصِ هَـوَى بِـهِ   سُـكرُ النُّعـاسِ فَخـرَّ غَـيَر مُوَسَّـدِ

وكان السادة العرب يكفون قمصهم بالديباج[2]، وكان يقال لأسافل القميص الطويل: الذلاذل. يؤكد ذلك طرفة بن العبد[3]، بقوله:

وكم دونَ سَلمى من عـدُوٍ وبلـدةٍ   يَحـارُ بهـا الهـادى الخفيـفُ ذلاذلُـهْ

ويقال لمقدم كم القميص: أرادن، يؤكده النابغة الذبياني[4] بقوله:

يَصونـونَ أجسـاداً قديمـاً نَعيمُهـا   بخالصَـةِ الأردانِ خُضـرِ المنـاكِبِ

أي أن ممدوحه عمر بن الحارث الأكبر بن أبي شمر كان ممن يصونون أجسادهم العريقة في النعيم. وكيف لا يكون ذلك؟ وهم الملوك الذين يلبسون الثياب البيض، بيض الأردان، خضر المناكب. أي أن هذا الزي هو زي الملوك، والردن[*]: أصل الكم. وقيل: مقدم كم القميص. وقيل: أسفله والجمع أردان، وأردنه. والقميص منه الطويل ومنه القصير، وعرف مخرج الرأس من الثوب: قطاب الجيب. يؤكد ذلك طرفة بن العبد[6]، بقوله:

رَحيـبُ قِطـابُ الجَيـبِ منهـا رقيقَـةُ   بِجَـسّ النّدامـى بَضّـةُ المُتجـرَّدِ

أي أن هذه القينة واسعة الجيب لإدخال الندامى أيديهم في جيبها للمسها، وهي رقيقة على جس الندامى لها، وما يعرى من جسدها الناعم اللحم، رقيق الجلد، صافي اللون. ومن أنواع القمصان:

- **السربال**[7]: القميص والدرع. وقيل كل ما يلبس، فهو سربال، وقيل: هو من أسماء

---

[1] شرح ديوان الفرزدق - إيليا الحاوي - ج١ - ص٢٣٤.

[2] ابن قتيبة: أبي محمد عبد الله بن مسلم الدينوري - كتاب المعاني الكبي - ط بيروت ١٩٨٤ - ج١ - ص٤٧٩.

[3] ديوان طرفة بن العبد - ص٧٧.

[4] ديوان النابغة الذبياني - تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم - ط دار المعارف بمصر ١٩٩٠ - ص٤٧.

[*] ابن منظور - لسان العرب - ج١٣ - ص١٧٧.

[6] ديوان طرفة بن العبد - ص٣٠.

[7] ابن منظور - لسان العرب - ج ١١ - ص ٣٣٥.

القميص. وورد ذكره في القرآن الكريم، بقول الله تعالى: ﴿سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الحرَّ﴾[1]. وقيل: هي معربة، وذكر السربال سلامة بن جندل[2]، بقوله:

وَلَولاَ سَوَادُ اللَّيلِ مَا آبَ عَامِرٌ إِلى جَعفَرٍ سِرَبَالُهُ لَمْ يُمَزَّقِ

وقال قيس بن زهير[3]:

عَلَيهِ كَمِيٌّ وَسِرَبَالُهُ مُضَاعَفَةٌ نَسجُهَا مُحكَمُ،

كما ذكره يزيد بن مفرغ الحميري[4]، وعبيد الله بن الأبرص[5]، والحطيئة[6] وعامر بن طفيل[7] وغيرهم.

- **الجلباب**[8]: هو من أسماء القميص، وهو ثوب واسع أوسع من الخمار، وهو دون الرداء، تغطي به المرأة رأسها وصدرها. وقيل: الجلباب ثوب واسع دون الملحفة. وهو لباس مشترك للرجال والنساء. وقيل: هو الملحفة. وقيل: جلباب المرأة ملاءتها، التي تشتمل بها. ووجد الجلباب في عهد الرسول (ص)، واستخدم. ففي الحديث (قالت امرأة: يا رسول الله! أحدنا ليس لها جلباب، قال: «**لتلبسها صاحبتها من جلبابها**»[9]. وورد ذكر الجلباب في الأغاني: في أخبار الأعشى ونسبه (فأعطته جلبابها، فاشترى به عشيراً جذواً وخمراً)[10]، وورد أيضاً في أخبار ابن سريج: (هاتي جلبابي، وعودي)[11].

---

[1] سورة النحل - الآية / ٨١.

[2] لويس شيخو - شعراء النصرانية قبل الإسلام - ص٤٩١.

[3] لويس شيخو - شعراء النصرانية قبل الإسلام - ص٩٢٧.

[4] ديوان يزيد بن مفرغ الحميري - عبد القدوس أبو صالح - طبع بيروت ١٩٧٥- ص١٢٠.

[5] ديوان عبيد الله بن الأبرص - شرح عمر فاروق الطباع - طبع بيروت دار القلم - بدون تاريخ - ص٩٣.

[6] ديوان الحطيئة - ص٦١ - ١٥١.

[7] ديوان عامر بن طفيل - طبع دار صادر بيروت ١٩٧٦ - ص٩٠.

[8] مجلة التراث العراقية - السنة العاشرة - العدد الحادي عشر - ص٦.

[9] صحيح البخاري - مجلد أول - ج١ - ص٩٩.

[10] الأغاني للأصفهاني - ج٩ - ص١١٧.

[11] المرجع نفسه - ج١ - ص٢٨٧.

ـ **الدرع**[1]: لبوس الحديد. يذكر، ويؤنث. والجمع في القليل: أدرع وأدراع، وفي الكثير دروع، وتصغير درع دُرَيع. ودرع المرأة قميصها. وهو أيضاً الثوب الصغير تلبسه الجارية الصغيرة في بيتها، ودرع المرأة مذكر، والجمع أدراع. وقيل: الدرع ثوب، تجوب المرأة وسطها، وتجعل له يدين، وتخيط فرجيه، والدراعة والمدرع: ضرب من الثياب، التي تلبس. وقيل: جبة مشققة المقدم.

والمدرعة: ضرب آخر، ولا تكون إلا من الصوف خاصة، وورد ذكرها في الأغاني مراراً. منها عند ذكر الأعشى وأخباره وعند ذكر امرىء القيس وأخباره «كان امرؤ القيس بن حجر قد أودع السموءل بن عادياء أدراعاً مائة»[2]. وقصة امرئ القيس مع السموءل معروفة، لا داعي لذكرها هنا. وعند ذكر موقعة بدر، قال عبد الرحمن بن عوف: (ومعي أدراعي، قد سلبتها، وأنا أحملها)[3]. وفي ذكر أخبار معبد: (عليه دراعة، قد صبغها بزعفران)[4].

ـ **الصدار**[*]: ثوب رأسه كالمقنعة، وأسفله يغشي الصدر والمنكبين، تلبسه المرأة. والعرب يقولون: للقميص الصغير والدرع الصغيرة الصدرة. وقيل: لما يلي الصدر من الدرع الصدار. وقيل: الصدار قميص صغير، يلي الجسد، وهو ما يلبس على الصدر للرجال والنساء. والصدار لباس، كانت تتخذه المرأة الحزينة من شعر، كما فعلت الخنساء تحقيقاً لقول أخيها صخر[6]:

وا الله لا أَمنَحُهـا شـرَارَها ولـو هَلَكْـتُ مَزَّقَـتْ خِمَارهَـا

وَجعَلَـتْ مـن شَـعَرٍ صِدارَهَـا

وقيل: اتخذت من شعرها صدارها، أي أن المرأة الثكلى عندما تفقد حميماً لها كانت تلبس الصدار من صوف أو شعر حداداً عليه. وذكر الصدار عروة بن الورد عند فخره بسباياهم من

---

[1] ابن منظور ـ لسان العرب ـ ج٨ ـ ص٨١.

[2] الأصفهاني ـ الأغاني ـ ج ـ ص١١٩.

[3] المرجع نفسه ـ ج ـ ص١٩٦.

[4] المرجع نفسه ـ ج ـ ص١٣٦.

[*] ابن منظور ـ لسان العرب ـ ج٤ ـ ص٤٤٧، رينهارت دوزي ـ ص٢٤٥، مجلة التراث العراقية السنة الحادية عشر ـ العدد الحادي عشر ـ ص١٩.

[6] ابن قتيبة: أبو محمد عبد الله بن مسلم ـ الشعر والشعراء ـ تقديم الشيخ حسن تميم ـ مراجعة محمد عبد المنعم العريان ـ طبع بيروت ١٩٨٦ ـ ص٢٢٠.

طيء، بقوله[1]:

تـرى كـلَّ بيضـاءِ العـوارضِ طَفلَـةٍ   تفَـرّي إذا شـال السـماكُ صِدارهَـا

- **الكرباس**[2]: والكرباسة ثوب، فارسية معربة، والجمع كرابيس، وفي الحديث حديث عمر: وعليه قميص من كرابيس. هي جمع كرباس، وهو من القطن الأبيض. ومنه حديث عبد الرحمن بن عوف: (فأصبح وقد اعتم بعمامة كرابيس سوداء). وورد ذكر الكرباس في الأغاني عند ذكر أخبار الحطيئة: (فجعل يعرض عليه الخز ورقيق الثياب، فلا يريدها ويومئ إلى الكرابيس والأكسية الغلاظ، فيشتريها له، حتى قضى أربه، ثم مضى)[3].

- **القرقل**[4]: قميص لطيف، لا أكمام له، تلبسه تحت الدروع، وربما اقتصرت عليه في أوقات الفراغ.

- **الخيعل**[5]: وهو ثوب غير مخيط الفرجين، أو درع، يخاط أحد طرفيه، ويترك الآخر، وتلبسه المرأة كالقميص، أو قميص بلا كمين، يذكره حسان بن ثابت، بقوله[6]:

لَمـن مَـنزِلٍ عَـافٍ كَـأَن رُسُـومَهُ   خَيَـاعِلُ رِيَـطٍ سـابِرِيٌّ مُرَسَّـمِ

- **الإزار**[7]: الملحفة، وجمع الإزار الأزر، وأزر الشيء أحاط، ومنه الحديث: «**أزر المؤمن إلى نصف الساق، ولا جناح عليه فيما بينه وبين الكعبين، وما أسفل الكعبين في النار**»[8] أي أن طول الإزار يجب أن يكون من منتصف الساق إلى الكعبين فقط. ولبس الإزار الذي يجر على الأرض غير مستحب. ولابس الإزار الطويل الذي يتجاوز الكعبين في النار. والإزار لباس مشترك، عرفه العرب عبر التاريخ، وهو ملحفة، يؤتزر بها، أي هو كل ما يستر الجسم من الثياب، أو هو كل ثوب،

---

(1) ديوان عروة بن الورد والسموأل - كرم البستاني - طبع صادر بيروت ١٩٦٤ - ص٤٣.

(2) ابن عساكر - تاريخ مدينة دمشق - طبع بيروت ٩٦ - ج٤٤ - ص٣٠٦ - ابن منظور - لسان العرب - ج ٦ - ص١٩٥.

(3) الأغاني - الأصفهاني - ج٢ - ص١٦٨.

(4) أبو هلال العسكري - الأوائل - طبع دمشق ١٩٧٥- ج٢ - ص١٦.

(5) مجلد التراث العراقي - السنة العاشرة - العدد الحادي عشر - ص٢٥.

(6) ديوان حسان بن ثابت - ص١٨٠.

(7) ابن عساكر - تاريخ مدينة دمشق - ج٤٤ ص٣٠٥ - الطبري تاريخ الرسل والملوك - ج٤ - ص٢٢٦- ص٣٠٦ ابن منظور - لسان العرب - ج٤ - ص١٦.

(8) السندي - شرح سنن ابن ماجة - القزويني - طبع بيروت بدون تاريخ - ج٢ - ص٣٦٧.

يؤتزر به. وقد ورد ذكره عند الشعراء العرب قبل الإسلام وبعده، قال طرفة بن العبد[1]:

ثـم راحـوا عَبَـقُ المِسـكِ بهـم   يُلحفِـونَ[2] الأرضَ هُـدَّابَ الأُزُرْ

وذكـرته الخرنـق أخـت طرفـة[3]، وكعـب بـن زهـير[4]، وعلـقمـة الفحـل[5]، ودريد بن الصمة[6]، والبراق[7]، وعبيد بن الأبرص[8]، كما استخدم الإزار في أول الإسلام، يؤكد ذلك الحديث: «**دخلت عائشة، فأخرجت لي إزاراً غليظاً**»[9]، وعن حذيفة قال: أخذ رسول الله (ص) بأسفل عضلة الساق أو ساقه فقال: «**هذا موضع الإزار، فإن أبيت فأسفل، فإن أبيت فلاحف للإزار في الكعبين**»[10]. كما ورد ذكر الإزار في صحيح مسلم[11]، كتاب اللباس، وذكر: بأن رسول الله (ص) كان يلبسه، وورد ذكر الإزار في صحيح البخاري[12] بأن: رسول الله كان يلبسه. وذكره الحطيئة[13]، بقوله:

مـن البيـضِ كـالغِزلانِ والغُـرَّ كـالدُّمى   حِسـانٌ عَلَيهـنَّ المعـاطِفُ وَالأُزُر
إذا الخَفِـراتُ البيـضُ أبـدت خِدامهَـا   وَقـامَت فَزالَـتَ عَـن معاقِدِهـا الأُزُر

[1] ديوان طرفة بن العبد ـ تحقيق كرم البستاني ـ طبع دار صادر بيروت ١٩٦١ ـ ص٥٥.

[2] يلحفون الأرض: يقطعون الأرض بجر ذيولهم عليها كبراً. والهداب: الخيوط التي تبقى في طرفي الثوب من عرضيه دون حاشيته.

[3] الأب لويس شيخو ـ شعراء النصرانية قبل الاسلام ـ طبع بيروت ١٩٩١ ـ ص٣٢٤.

[4] شرح ديوان كعب بن زهير، مراجعة نخبة من الأدباء، شرح أبي سعيد السكري، طبع بيروت ١٩٦٨، ص١٦٧.

[5] الأب لويس شيخو ـ شعراء النصرانية قبل الإسلام ـ ص٥٠٦.

[6] ديوان دريد بن الصمة ـ تحقيق عمر عبد الرسول ـ ط دار المعارف بمصر ١٩٨٥ ـ ص٦٦.

[7] الأب لويس شيخو ـ شعراء النصرانية قبل الإسلام ـ ص١١٤.

[8] ديوان عبيد بن الأبرص ـ طبع دار صادر بيروت ١٩٦٤ ـ ص٤٦.

[9] أبي الحسن الحنفي المعروف بالسندي ـ شرح سنن ابن ماجة القزويني ـ ط بيروت بدون تاريخ ـ ج٢ ـ ص٣٦٧.

[10] المرجع نفسه ـ ج٢ ـ ص٣٧١ ـ صحيح البخاري ـ تحقيق مصطفى ديب البغا مجلد رابع (٥٤٥٠) ص٢٠٥٤.

[11] صحيح مسلم ـ ج٦ ـ ص١٤٥.

[12] صحيح البخاري ـ المجلد الأول ـ ص١٠٢.

[13] ديوان الحطيئة ـ شرح أبي سعيد السكري ـ ص١٠٠ ـ ١٠١.

وذكره عبيد الله بن قيس الرقيات[1]، وحميد بن ثور الهلالي[2]، وورد ذكره في الأغاني للأصفهاني، منها ما ذكره في أخبار عمر بن عبد العزيز (فجئته فأجده متكئاً على إزار وكساء من صوف)[3]، وفي أخبار الدلال: (قالت حبيبتي: ائتزري، فضمها الإزار، أي حبيبتي وضحي، فألقت إزارها، فإذا هي أحسن خلق الله، كأنها سبيكة)[4]، وفي أخبار هلال: (وبت وليس علي الإزار إلا أني قد شددت بعمامتي وسطي)[5]، وفي أخبار جميلة وهو حديث لبثينة، لما سُمِعَت تبكي جميلاً فقالت: (لم أكتحل بعده بإثمد، ولا فرقت رأسي بمخيط، ولا دهنته إلا من صداع، خفت على بصري منه، ولا لبست خماراً مصبوغاً ولا إزاراً، ولا أزال أبكيه إلى الممات)[6] وفي أخبار حماد الرواية: (فإذا هو على سرير ممهد، وعليه ثوبان من إزار ورداء، يقيئان الزعفران قيئاً)[7] وفي أخبار معبد (وإذا هو بغلام ملتحف بإزار وطرفة على رأسه)[8]. والإزار أيضاً على أشكال وألوان نذكر منها ما يلي:

- **الشملة**[9]: عند العرب مئزر من صوف أو شعر، يؤتزر به. فإذا لفق لفقين فهي مشملة، يشتمل بها الرجل، إذا نام بالليل. والشمال: جمع شملة، وهو الكساء. والمتزر يتشح به. وفي الحديث عن عبادة بن الصامت: «**أن رسول صلى الله عليه وسلم صلى في شملة، قد عقد عليها**»[10]. وذكر الشملة الأصفهاني في الأغاني عند ذكر أخبار يزيد بن الظثرية: (وتجلل بشملة سوداء بلون شاة من الغنم)[11]، وفي أخبار العرجي: (كان العرجي يستقي على إبله في شملتين، ثم يغتسل، ويلبس

---

[1] ديوان عبيد الله بن قيس الرقيات ـ تحقيق محمد يوسف نجم ـ ص٢٣.

[2] ديوان حميد بن ثور الهلالي ـ تحقيق عبد العزيز الميمني ـ ط القاهرة ١٩٦٥ ـ ص٨٤.

[3] أبو الفرج الأصفهاني علي بن الحسين ـ نسخة مصورة عن دار الكتب ـ ط بيروت بدون تاريخ ـ ج٩ ـ ص٢٦٣.

[4] أبو الفرج الأصفهاني علي بن الحسين ـ ج٤ ـ ص٢٨٨.

[5] المرجع نفسه ـ ج٣ ـ ص٥٧.

[6] أبو الفرج الأصفهاني علي بن الحسين ـ نسخة مصورة عن دار الكتب ـ ط بيروت بدون تاريخ ـ ج٨ ـ ص٢٠٤.

[7] المرجع نفسه ـ ج٦ ـ ص٧٩.

[8] المرجع نفسه ـ ج١ ـ ص٤٤.

[9] ابن منظور ـ لسان العرب ـ ج١١ ـ ص٣٦٨.

[10] السندي ـ سنن ابن ماجة ـ ج ٢ ـ ص٣٦٧.

[11] الأصفهاني ـ الأغاني ـ ج٨ ـ ص١٦١.

حلتين بخمسمائة دينار)[1] .

- **المِرْط**[2]: لباس مشترك، وهو كساء من خز وصوف أو كتان، وقيل: هو الثوب الأخضر يؤتزر به، وجمعه مروط. وقيل: هو كل ثوب غير مخيط. وقيل: هو إزار، لـه علـم، وكـانت النسـاء يأتزرن به، وربما ألقته المرأة على رأسها، وتلفعت به. استخدمه العرب قبل الإسـلام وبعـده. يذكـره امرؤ القيس[3] بقوله:

خرجـتُ بهـا نمشـي تَجُـرُّ وراءَنَـا   علـى أَثَرَيْنَـا ذَيـلَ مِـرطٍ مُرَحَّـلِ

والمِرط الذي يذكره الشاعر هنا: من الزي الطويل الذي يجر على الأرض، والمـرط المرحـل: هو إزار فيه خز، وعليه علم. ويسمى مرحلا: لما عليه من تصاوير رحل، وما ضاهاه كالنقوش. وفي الحديـث عـن عائشـة، قـالت: «**خـرج النـبي (ص) ذات غـداة، وعليـه مـرط مرحـل مـن شـعر أسود**»[4].. وعن عائشة قالت: إنه (ص) قال لها «**أرخي على مرطـك، فقـالت: أنـا حـائض قـال: أعلة وبخلاً**»[5]. وذكره جميل بثينة بقوله[6]:

إذا ضَرَبتهـا الريـحُ في المِـرطِ أجفَلَـت   مَآكِمُهـا[7] والرِّيـحُ في المِـرطِ أفضَـحُ

- **الحلة**[7]: تكون إما إزاراً أو رداءً أو برداً. ولا تكون حلة إلا من ثوبين أو ثـوب لـه بطانـة، وهي لباس مشترك للرجال والنساء. والحلة: هي وشي، قد تكـون منسـوجة مـن الذهـب. ذكـر أن ملك الروم قيصر كان قد أهدى امرأ القيس حلـة مذهبـة. إلا أنهـا مسـمومة، وقـال لـه: (إني قـد أرسلت إليك بحلتي، كنت ألبسها تكرمة لك، فإذا وصلت إليك فالبسها باليمن والبركة)[8]، والحلة

---

[1] الأصفهاني - الأغاني - ج١ - ص٢٩٥.

[2] ابن عساكر - تاريخ مدينة دمشق - ج٣٩ - ص٨٤ - ابن منظور - لسان العرب - ج٧ - ص٤٠٢.

[3] ديوان امرىء القيس - ص١٤.

[4] صحيح مسلم - ج٦ - ص١٤٥.

[5] السندي - سنن ابن ماجة - ج٢ - ص٣١٠ - صحيح البخاري - المجلد الأول - ص١٠٤.

[6] ديوان جميل بثينة - تحقيق بطرس البستاني - ط دار صادر بيروت بدون تاريخ - ص٣٤.

[7] المآكم: جمع مأكم ومأكمه، وهي لحمة على رأس الورك تصل بين العجز والمتن.

[7] ابن عساكر - تاريخ دمشق - طبع بيروت ١٩٩٦ - ج٤ - ص٣٠٥ - الطبري تاريخ الرسل والملوك - ج٣ - ص١٤٩ - ابن منظور - لسان العرب - ج ص.

[8] الأعلم الشنتمري - أشعار الشعراء الستة الجاهليين - ج١ - ص٦١٦.

من العصب: هي نوع من البرود، ذكرها عنترة العبسي[1] بقوله:

وَبَـــدرٌ قَـــد تَرَكنَـــاهُ طَريحـــاً   كَـــأَنَّ عَلَيـــه حُلَّـــةَ أُرجـــوانِ

وقال دريد بن الصمة[2]:

يمشُـونَ فِـي حُلَـلِ الدِّيبَـاجِ نَاعمَـةً   مَشْيَ البَنَـاتِ إِذَا مَـا قُمْـنَ فِـي السَّـحَرِ

واستعملت الحلة في عهد رسول الله (ص). ففي الحديث: أهدي لرسول الله (ص) حلة مكفوفة بحرير[3] وفي الحديث عن عبد الله بن عمر قال: **«وجد عمر بن الخطاب حلة من استبرق، تباع بالسوق، فأخذها، فأتى بها رسول الله (ص)، فقال: يا رسول الله! ابتع هذه، فتجعل بها للعيد وللوفد. فقال رسول الله (ص):« إنما هذه لباس من لا خلاق له»**[4].

وورد ذكرها في الأغاني مراراً. منها في أخبار الأعشى (كان لأبي المحلق شرف، فمات، وقد أتلف ماله، وبقي المحلق، وثلاثة إخوة له، لم يترك لهم إلا ناقة واحدة، وحلتي بردة وحبرة، كان يشهد فيها الحقوق)[5]. وفي أخبار الفرزدق: (إذا طلع علينا في حلة أفواق يمانية موشاة، له غديرتان)[6]. وفي أخبار الدلال: (خمس حلل من حلل معاوية، وخمس حلل من حلل حبيب بن مسلمة ، وخمس حلل من حلل النعمان بن بشير)[7]، وفي أخبار مجنون بن عامر: (وعليه حلتان من حلل الملوك[8]، ولبس حلته، وركب[9]). (ولبس حلتين فاخرتين وطيلسان وقلنسوة)[10]، وفي أخبار

[1] ديوان عنترة ـ طبع دار صادر ببيروت ١٩٩٢ ـ ص٢٣٣ ـ الطبري ـ تاريخ الرسل والملوك ـ ج٤ ـ ص٢٢١.

[2] دريد بن الصمة ـ ص٩٨.

[3] السندي ـ سنن ابن ماجة ـ ج٢ ـ ص٣٧٦.

[4] أبو مسلم القشيري النيسابوري ـ صحيح مسلم ـ المجلد الثالث ـ الجزء السادس ـ ص١٣٨.

[5] الأغاني ـ للأصفهاني ـ ج٩ ـ ص١١٥.

[6] المرجع نفسه ـ ص٣٣٨.

[7] المرجع نفسه ـ ج٤ ـ ص٢٩٢.

[8] المرجع نفسه ـ ج٢ ـ ص١٢.

[9] المرجع نفسه ـ ج٢ ـ ص١٣.

[10] المرجع نفسه ـ ج٢ ـ ص٢٩.

نصيب: (وأمرت له بثلاثمائة دينار، وحلتين وطيب)[1].

وفي أخبار العرجي (يغتسل، ويلبس حلتين بخمسمائة دينار)[2]، وفي أخبار عمر بن أبي ربيعه: (ويلبس تلك الحلي والوشي ويركب النجائب المخضوبة بالحناء، عليها القطوف والديباج)[3]، وفي أخبار سريج: (ولبس حلتين... وعليه حلية موشية يمانية)[4]. وفي نسب جرير وكساه حلة من حلل الملوك[5] ... فكسوني الحلة التي كساكها الوليد بن عبد الملك[6]، وفي ذكر أخبار جميل (فإذا بجميل، قد جاء، عليه حلتان، ما رأيت مثلهما على أحد قط)[7].

- **السروال**[8]: أعجمية[9] عربّت، وأنثت، والجمع سراويلات، وقيل: سراويل جمع، واحدته، والسروال: هو القميص، الذي لا جيب له، وهو لباس شرقي أصيل، ورد ذكره في الكتاب المقدس العهد القديم سفر الخروج الإصحاح الثامن والعشرين. والسروال: لباس مشترك للرجال والنساء. شاع استعماله عند العرب قبل الإسلام وبعده، فذكر: أن رسول الله (ص) كان قد أشار على الحجاج استبدال السراويل بالأزر[10]. وفي الحديث: «**سئل الرسول (ص): إنك لتلبس السراويل. قال: أجل في السفر والحضر، بالليل والنهار. فإني أمرت بالستر، فلا أجد أستر منه**»[11]. وفي الحديث عن سويد بن قيس قال: «**أتانا النبي (ص) فساومنا سراويل**»[12]. وعن أبي

---

[1] الأغاني - للأصفهاني - ج١ - ص٣٦٠.

[2] المرجع نفسه - ج١ - ص٣٩٥.

[3] المرجع نفسه - ج١ - ص٢٢١.

[4] المرجع نفسه - ج٨ - ص٢٥٨ - ٢٥٩.

[5] المرجع نفسه - ج٨ - ص١٣.

[6] المرجع نفسه - ج٨ - ص١٢.

[7] المرجع نفسه - ج٨ - ص١٣٥.

[8] ابن منظور - لسان العرب - ج١١ - ص٣٤، رينهارت دوزي - ص٩٣.

[9] الجواليقي: أبي منصور الجواليقي موهوب بن أحمد بن محمد بن الخضر، المعرب من الكلام الأعجمي على حروف المعجم - تحقيق أحمد محمد شاكر - طبع طهران ١٩٦٦ - ص١٩٦.

[10] العسقلاني، شهاب الدين أبو الفضل أحمد بن علي حجر العسقلاني - الإصابة في تمييز الصحابة - طبع بيروت ط أولى ١٣٢٨ هـ - ج - ص .

[11] الكتاني - التراتيب الإدارية - ج٢ - ص٣٥.

[12] سنن ابن ماجة - ج٢ - ص٣٧٣.

هريرة قال: دخلت السوق مع رسول الله (ص)، فجلس إلى البزازين، فاشترى سراويل بأربعة دراهم[1]. وورد ذكره في الأغاني للأصفهاني في أخبار أبي النجم: فأخذ سراويله، فجعل إحدى رجليه فيه، واتزر بالأخرى، وركب الجمل[2]، وفي أخبار الوليد بن يزيد فألبسه سراويل من جلد قرد، له ذنب، وقال له: ارقص[3].

- **التبان**[4]: سروال صغير مقدار شبر بشبر، يستر العورة المغلظة، فقط يكون للملاحين، والجمع: تبانٍ، استخدمه العرب، وورد ذكره في صحيح البخاري[5]. كما ذكره الشعراء العرب، منهم يزيد بن مفرغ الحميري[6] بقوله:

بزند ورد[7] خذوا منها مساحيكم[8] واستبدلوا بالمآزير التبابينا

وقال الفرزدق[9]:

كَم لكَ يا ابنَ دَحمةَ من قريبٍ مَعَ التُّبانِ يُنسَبُ وَالزَّبارِ

- **الجبة**[10]: ضرب من مقطعات الثياب تلبس، وجمعها جبب، وجباب، وجبة من أسماء الدرع، وهي لباس مشترك للرجال والنساء، تعرف بجبة الرداء، يكون رأسها في وسطها، ويكون لفتحها حاشية. صنع الحايك[11] كفتحة الدرع، يكون لها، لا تشق، تصنع من أنسجة مختلفة. ومنها

---

(1) الكتاني - التراتيب الإدارية - ج٢ - ص٣٣.

(2) الأغاني - للأصفهاني - ج١٠- ص١٥٣.

(3) المرجع نفسه - ج٧ - ص٤٦.

(4) ابن منظور - لسان العرب ج١٣ - ص٧٢.

(5) صحيح البخاري - المجلد الأول - ص ١٠٢.

(6) ديوان يزيد بن مفرغ الحميري - ص٢١٨.

(7) زند ورد: هو منزل من منازل الأنباط بالسودا، وزند ورد مدينة قرب واسط ممايلي البصرة خربت بعمارة واسط، معجم البلدان ج٤ - ص٤١٠.

(8) مساحيكم: ج مسحاة، مجرفة من الحديد يسحى بها الطحين عن وجه الأرض.

(9) ديوان الفرزدق - كرم بستاني - ط دار صادر بيروت بدون تاريخ - ج١ - ص٣٣٠.

(10) الطبري - تاريخ الرسل والملوك - ج٤ - ص٢٠٧ - ابن منظور - لسان العرب - ج ١٣ - ص٢٤٩.

(11) عبد المجيد أبو تراب - أسرار المهن ص٨٣.

الديباج[1] والسندس[2] والحرير والصوف، ومنها الجبة الكسروانية[3] ومنها الجبة الشامية[4]. ومن المعلوم أن الأزياء كانت تختلف عند العرب. فلكل طبقة زيها. فللحرائر زي، ولذوات الرايات زي، وللإماء زي، وللعبيد زي، وللسادات زي. والجبة ثوب واسع، استخدمتها الإماء بدليل قول أوس ابن حجر[5]:

تَمشي بِهَا رُبدُ النَّعامِ كمّا   تَمشي إمَاءُ سُرْبِلَتْ جُبَبَا

وشاع استعمالها في عهد الرسول (ص)، حيث يذكر: أنه استخدمها. ففي الحديث: **«يا جارية! هاتي جبة رسول الله (ص)، فجاءت بجبة مكفوفة الكمين والجيب والفرجين بالديباج»**[6]. وفي الحديث قال: **« فلبس عمر ما شاء الله، ثم أرسل إليه رسول الله(ص) بجبة، فأقبل بها عمر، حتى أتى رسول الله، فقال: يا رسول الله! قلت: إنما هذه لباس من لا خلاق له، أو إنما يلبس هذه من لا خلاق له، ثم أرسلت إلي بهذه، فقال رسول الله (ص): تبيعها، وتصب بها حاجتك»**[7].

روي عن سنان بن سعد قال: **«حكت للنبي (ص) جبة من صوف، وجعلت حاشيتها سوداء»**[8]، وقيل: خيطت للنبي (ص) جبة من صوف أنمار، فلبسها[9]. وروي عن عبادة بن الصامت، قال: **« خرج علينا رسول الله (ص) ذات يوم، وعليه جبة رومية ضيقة الكمين، فصلى بنا فيها، ليس عليه شيء غيرها»**[10].

وورد ذكر الجبة في الأغاني للأصفهاني مراراً. منها أخبار النابغة، قال: (فهب لي جبتك

---

[1] صحيح مسلم - ج٦ - ص١٣٩.

[2] المرجع نفسه - ج٦ - ص ١٣٨.

[3] المرجع نفسه - ج٦ ص١٤٠.

[4] صحيح البخاري - مجلد أول - ج١ - ص١٠١.

[5] ديوان أوس بن حجر، طبع دار صادر بيروت تحقيق محمد يوسف نجم، ط دار صادر بيروت ١٩٧٩. ص١.

[6] سنن ابن ماجه - ج٢ - ص٣٧٦.

[7] القشيري - صحيح مسلم - طبع بيروت - ج٦ - ص١٣٨.

[8] عبد الحي الكتاني - التراتيب الادارية - نظام الحكومة النبوية - ط بيروت بدون تاريخ - ج٢ - ص٥٣.

[9] المرجع نفسه - ج٢ - ص٦٠.

[10] سنن ابن ماجه - ج٢ - ص ٣٦٩.

هذه)[1] ، وفي أخبار هلال: فلما كان من الغد غدوت عليه، وعلي جبة من صوف[2] ، وفي أخبار نصيب: دخل نصيب في جبة صوف محتزماً بعقال[3] ، وفي أخباره أيضاً: ثم ردوه في جبة وشي، رداء وشي[4] . وفي أخبار الأخطل: لقد كان الأخطل يحيى، وعليه جبة خز[5] . وفي أخباره أيضاً فلبس جبة خز، وركب فرساً، وتقلد صليباً من ذهب[6]. وفي أخبار جرير: فأكرمه الحجاج، وكساه جبة صبرية[7]. وفي أخبار المهلهل:

وَهَجرِي الغَانِيَاتِ وَشُربَ كَأسٍ   وَلبسِي جُبَّةً لاتُستَعَارُ

- الرداء[8]: هو ما يلبس عامة.وهو من الملاحف.استخدمه العرب بألوان وأشكال مختلفة، تتلاءم والبيئة. يذكره أبو زيد الطائي[9] ويذكره أيضاً عبد يغوث[10] وعبد المسيح بن بقيلة[11]. وورد ذكره في صحيح البخاري[12] ، كما ذكره الحطيئة[13] مراراً متعددة. منها قوله في مدح الوليد بن أم مغيط:

يَظَلُّ الرَّداءُ العصب فَوقَ جَبِينهِ   يَقِي حَاجِبيهِ ما تُثِيرُ قَنَابِلُه.

أي يظل الرداء العصب، وهو ضرب من برود اليمن فوق جبينه، يقي حاجبيه ما تثير جماعة الخيول من غبار وغيره. وورد ذكره في الأغاني للأصفهاني في أماكن مختلفة،

---

(1) الأغاني - للأصفهاني - ج٥ - ص٢٥.

(2) المرجع نفسه - ج٣ - ص٥٧.

(3) المرجع نفسه ج١ - ص٣٣٠.

(4) المرجع نفسه - ج١ - ص٣٣٠.

(5) المرجع نفسه - ج٨ - ص٢٩٩.

(6) المرجع نفسه - ج٨ - ص٣١٩. والجبة الصبرية منسوبة الى جبل صبر وهو جبل شامخ مطل على قلعة تعز.

(7) لويس شيخو - شعراء النصرانية قبل الإسلام - ص١٦٤.

(8) ابن عساكر - تاريخ دمشق - ج٣٩ - ص١٨.

(9) لويس شيخو - شعراء النصرانية قبل الإسلام - ص٧٧.

(10) المرجع نفسه - ص٧٩.

(11) المرجع نفسه - ص١٦.

(12) أبو مسلم القشيري النيسابوري - الجامع الصحيح المسمى صحيح مسلم - ط بيروت بدون تاريخ - ج٦.

(13) ديوان الحطيئة - ص (٨٠ - ٦٠ - ١٣٨- ٢١٧).

منها في ذكر أخبار الأحوص: (فعلف رداءه على وتد، وحل إزاره)[1]. وذكر أيضاً: (فوثب أبو عبيد بن عمار بن ياسر قائماً، ثم أرخى رداءه، ومضى يمشي على تلك الحال، ويجره، حتى بلغ العرض، ثم رجع)[2]، وفي أخبار الدلال: (وجارية، إلى جنبه، وعليها غلالة ورداء معصفران، وعليها وشاحان من ذهب، وفي عنقها فصلان من لؤلؤ وزبرجد وياقوت)[3]، ومن تسمياته الأخرى: **المطرف**: رداء من خز مربع، ذو أعلام، ذكره عمر ابن أبي ربيعة[4] بقوله:

فقالَتْ لَهـا الصغرى: سَأُعْطِيهِ مُطْرَفِي وَدِرْعي وَهَذا البُردَ إن كان يَحذرُ

وذكره الأصفهاني في أخبار نصيب: (جاءت جارية جميلة، قد سترت بمطرف[5]). وفي أخبار الوليد بن عبد الملك: (إذا طلع الوليد بن عبد الملك على الناس، وهو نشوان، يجر مطرف خز عليه[6]).

- **الغلالة**[7]: شعار، يلبس تحت الثوب، لأنه يتغلل فيها أي: يدخل. وقيل الغلالة الثوب الذي يلبس تحت الثياب، أو تحت الدرع الحديد. واغتلت الثوب، لبسته تحت الثياب، وتسمى الغلالة الشليل، ذكرها دريد بن الصمة[8] بقوله:

تَقُولُ هِلالٌ خارِجٌ مِن غَمَامَةٍ إذَا جَاءَ يَجرِي في شَلِيلٍ وَقَونَسِ

وذكرها الأصفهاني في الأغاني في أخبار الوليد بن يزيد: (فطرب، وبرز إلينا، وعليه غلالة موردة، وشرب، حتى سكر)[9].

---

[1] الأصفهاني ـ الأغاني ـ ج٤ ـ ص٢٥٣.
[2] المرجع نفسه ـ ج٤ ـ ص٢٦٢.
[3] المرجع نفسه ـ ج٤ ـ ص٢٧٤.
[4] شكري فيصل ـ تطور الغزل ـ طبع بيروت ١٩٨٢ ـ ص٣٩٣.
[5] الأصفهاني ـ الأغاني ـ ج١ ـ ص ٣٤٢.
[6] الأصفهاني ـ الأغاني ـ ج٧ ـ ص٧.
[7] ابن منظور ـ لسان العرب ـ ج١١ ـ ص٥٠٢.
[8] ديوان دريد بن الصمة ـ ص٢٤.
[9] الأصفهاني ـ الأغاني ـ ج٧ ـ ص٤٦.

- **العبب**[1]: ضرب من الثياب. وقيل: العبب من الأغلات. وقيل: ثوب واسع. وقيل: كساء غليظ كثير الغزل ناعم. يعمل من الإبل. وقيل: من الأكسية الناعمة الرقيقة. وقيل: هو كساء مخطط من صوف مفتوح من أمام، يلبس فوق الثياب. يذكره زهير بن أبي سلمى[2] بقوله:

فــــإِنَّكُمُ وقومــــاً أَخفَروكُــــم   لَكَالدِّيبـــاجِ مـــالَ بِـــهِ العَبَـــاءُ

وقالت ميسون بنت بحدل الكلبية[3]:

ولُبـــسُ عبـــاءَةٍ وتَقَـــرَّ عيـــني   أحـــبُّ إليَّ مـــن لبـــسِ الشُّـــفوفِ

وقال كعب بن زهير[4]:

ألِمّـــا علـــى ربـــعٍ بـــذاتِ المَزاهِـــرِ   مقيـــمٍ كـــأخلاقِ العبـــاءةِ داثِـــرِ

وورد في الأغاني ذكر العباء عند ذكر أخبار الوليد بن يزيد. يقول الوليد[5]: ولباسي ثوب شيخ من عباء ومسوح. وفي أخبار العرجي: ولبسا عباءتين، واجتمع الناس، ينظرون إليهما[6].

- **الملاءة**: ذكرها زهير بن أبي سلمى[7]، بقوله:

فـــذِرَوهُ فالجِنـــابُ كـــأنّ خُنَـــسَ   النّعـــاجِ الطّاويـــاتِ بهـــا المُـــلاءُ

---

[1] ابن منظور - لسان العرب - ج١ - ص٥٧٢.

[2] شرح ديوان زهير بن أبي سلمى - ضع أبي العباس تعليق تحقيق فخر الدين حناوي - طبع بيروت ١٩٨٢ - ص٦٨.

[3] لويس شيخو - شعراء النصرانية بعد الإسلام - ص٦٤.

[4] ديوان كعب بن زهير - ص٤١.

[5] الأصفهاني - الأغاني - ج٧ - ص٢٩.

[6] المرجع نفسه - ج١ - ص٤١٢.

[7] ديوان زهير بن أبي سلمى - ص٥٧.

وقالت الخنساء[1]:

جــارَى أبــاهُ فــأقبَلا وهُمَــا   يتَعَــاوَرَانِ مُــلاءَةَ الفَخْــرِ

وورد ذكرها في الأغاني عند ذكر أخبار ابن عائشة: (فنهض، فلبس ملاءة مدلوكة)[2]. وفي أخبار معبد: (فرفع الوليد الستر، ونزع ملاءة مطيبة، كانت عليه)[3].

- **الربطة**[4]: الملاءة إذا كانت قطعة واحدة، ولم تكن لفقين. وقيل: الربطة كل ملاءة غير ذات لفقين، كلها نسج واحد. وقيل: كل ثوب رقيق لين، والجمع: ربط ورباط، ولا تكون الربطة إلا بيضاء.

وذكرها المثقب العبدي[5]، يقول:

وآقــت صَواديــحُ النَّهــارِ وأَعَرضَــت   لَوامِــعُ يُطــوَى رَيطُهــا وبُرودُهــا

وذكرها الأعشى[6] - والحطيئة[7] - وسلمى بن أبي ربيعه[8] - والنابغة[9] ودريد بن الصمة[10] - وأوس بن حجر[11] - وسحيم[12] - وبشر بن أبي حازم[13] - وحسان ابن ثابت[14] - وعبيد الله ابن قيس الرقيات[15] - ولبست الريطة في عهد رسول الله (ص) ففي

---

[1] ديوان الخنساء - ص١٧٦.

[2] الأغاني - الأصفهاني - ج٢ - ص٢٣٤.

[3] المرجع نفسه - ج١ - ص٥٢.

[4] ابن عساكر - تاريخ مدينة دمشق - ج٣٩ - ص١٦ - ابن منظور - لسان العرب - ج٧ - ص٣٠٧.

[5] ديوان المثقب العبدي - ص٨٧.

[6] شرح ديوان الأعشى - شرح إبراهيم جزيني - طبع بيروت ١٩٦٨ - ص١٤٩.

[7] ديوان الحطيئة - ص٢٧٣.

[8] شرح ديوان الحماسة للتبريزي - ج٣ - ص٨٣.

[9] ديوان النابغة - ص٢٣.

[10] ديوان دريد بن الصمة - ص٤٤.

[11] ديوان أوس بن حجر - ص١٦.

[12] ديوان سحيم بن عبد الحسحاس - طبع مصر - ص٤٧.

[13] ديوان بشر بن أبي حازم - شرح مجيد طراد - طبع بيروت ١٩٩٤ - ص١٩٦.

[14] ديوان حسان بن ثابت - تحقيق سعيد حنفي حسنين - طبع مصر ١٩٧٤ - ص١٨٠.

[15] ديوان عبيد الله بن قيس الرقيات - ص١٠.

الحديث: «**أقبلنا مع رسول الله (ص) من ثنيه. فإذا خرف التفتت إلي وعلي ريط مضرجة بالعصفر**[1]». وقال عمر بن قميئة[2]:

وأسحب الرّيط والبردي إلى أدني تجاري وأنفض اللّمما

وورد ذكر الريطة في الأغاني عند ذكر أخبار جميل: دخل علينا كثير يوماً، وقد أخذ بطرف ريطته وألقى طرفها الآخر... وقال: يجر ريطه، حتى يبلغ إلينا ثم يومئ عنا، ويجره[3].

- **القباء**: في الحديث عن جابر بن عبد الله قال[4]: «**لبس النبي (ص) يوماً قباء من ديباج، أهدي له، ثم أوشك أن نزعه، فارسل به إلى عمر بن الخطاب، فقيل له: قد أوشك ما نزعته، يا رسول الله! فقال: نهاني عنه جبريل، فجاءه عمر يبكي. فقال: يا رسول الله! كرهت أمراً، وأعطيتنيه، فما لي؟ قال: إني لم أعطكه لتلبسه، إنما أعطيتكه تبيعه، فباعه بألفي درهم**».

- **البرنس**[5]: كل ثوب، رأسه عنه ملتزق به ذراعه كان أو ممطراً أو جبة، وقد يكون قلنسوة طويلة. والبرنس لباس مشترك للرجال والنساء. استخدمه العرب قبل الإسلام وبعده، وذكره المهلهل[6] يقول:

وَاِذَا تَشَاءُ رَأَيتَ وَجهاً وَاضِحاً وَذِراعَ بَاكِيَةٍ عَلَيهَا بُرنُسُ

وورد ذكره في صحيح البخاري[7] ـ كما ذكره أبو زيد الطائي[8] ـ وعمر بن أبي ربيعه[9] ـ الذي يقول:

لَصَبَا وَأَلقَى عَنهُ بُرنُسَهُ وَسَعَى وَأَهوَنُ سَعيِهِ رَمَلُهْ

وورد في الأغاني في أخبار جميلة: (وضربت بالعود، وعلى رأسها البرنس الطويل[10]. وفي

---

[1] سنن ابن ماجة ـ ج٢ ـ ص٣٧٨.

[2] ديوان عمرو بن قميئة ـ تحقيق حسن كامل الصيرفي ـ ط جامعة الدول العربية ١٩٦٥ ـ ص٥٠.

[3] الأغاني للأصفهاني ـ ج ٨ ـ ص١٢٥.

[4] صحيح مسلم ـ ج ٦ ـ ص١٤٢.

[5] ابن منظور لسان العرب ـ ج ٦ ـ ص٢٦ ـ الطبري ـ تاريخ الرسل والملوك ـ ج٤ ـ ص٨٧.

[6] الأب لويس شيخو ـ شعراء النصرانية قبل الإسلام ـ ص١٧٩.

[7] صحيح البخاري ـ ج٤ ٥٤٥٨ ـ ص٢٠٥٤.

[8] لويس شيخو ـ شعراء النصرانية بعد الإسلام ـ ص٦٧.

[9] ديوان عمر بن أبي ربيعة ـ ص٣٦٦.

[10] الأغاني للأصفهاني ـ ج٨ ـ ص٢٢٦.

أخبار جرير. فيخرج إلينا، ويجلس في برنس[1]).

- **السمط**[2]: هو الثوب، الذي ليست له بطانة طيلسان، أو كان من قطن. ولا يقال: كساء سمط ولا ملحفة سمط، لأنها لا تبطن.

- **المجسد**[3]: هو المشبع عصفراً أو زعفراناً. والمجسد الأحمر والجمع: مجاسد. وقيل: هو ما كان ملاصقاً للجسد، أي الذي يلي الجسد، ذكره عمر بن أبي ربيعه[4]، بقوله:

فَرأَيـــــتُ رِيمـــــاً في مجاسِـــــدِها وَسـَــطَ الحدَائِـــقِ مُشـــرِقاً بَشَـــرُهْ

وقال الفرزدق[5]:

أُنيخَـت إذا انشَـــقَّ العَمُــودُ كَأَنَّمــا بَنَائِقُــهُ مِـــنْ طَيَلَســـانٍ وَمُجسَـــدِ

وذكره طرفة بن العبد[6]، وقيس بن الحطيم[7]، والحطيئة[8]، والزبرقـان[9]، والمرقـش الأكـبر[10] وغيرهم.

- **الخميصة**[11]: كساء أسود مربع، له علمان. فإن لم يكن معلماً، فليس بخميصة. وقيل: هي ثوب أسود من خز أو صوف معلمة، جمعها: الخمائص، وتكون تحت الثياب. ذكرها الحطيئة[12]، بقوله:

خَميصَـةُ مـا تَحـتَ الثِّيـابِ كأنّهـا عَسِـيبُ نَمـا في نـاضِرٍ لَم يُخضَّـدِ

---

(1) الأغاني - الأصفهاني - ج٨ - ص٤٤.

(2) ابن منظور - لسان العرب - ج - ص٣٢٤.

(3) ابن منظور - لسان العرب - ج٣ - ص١٢١.

(4) ديوان عمر بن أبي ربيعة - ص ١٦٩ - تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد - ط بيروت ١٩٨٨ - ص١٦٦.

(5) ديوان الفرزدق - الحاوي - ج١ - ص٣٣٠ - ٢٦٠.

(6) ديوان طرفة بن العبد - ص٣٠.

(7) ديوان قيس بن الخطيم - تحقيق ناصر الدين الأسد - ط بيروت ١٩٦٧ - ص١٤٦.

(8) ديوان الحطيئة - ص٩٩.

(9) لويس شيخو - شعراء النصرانية قبل الإسلام - ص٢٨٥.

(10) المرجع نفسه.

(11) ابن منظور - لسان العرب - ج٧ - ص٣١ - صحيح البخاري - كتاب اللباس - باب الخميصة - ج٩ - ص١٦٦.

(12) ديوان الحطيئة - ص٤٦.

وقال المسيب بن علس[1]:

فَتَسَلَّ حَاجَتَهَا إذَا هِيَ أعرَضَت   بِخَمِيصَةٍ سُرُحِ اليَدَيْنِ وَسَاعِ

واستعملها رسول الله (ص). ففي الحديث عن عائشة قالت: «**صلى رسول الله (ص) في خميصة، لها أعلام**[2]». وذكرها سحيم[3]، بقوله:

إذا انْدَفَعَتْ فِي رِيْطَةٍ وَخَمِيصَةٍ   ولاَنتْ بِأَعَلى الرِّدْفِ بُرْداً يَمانِيَا

- **القبطية**[4]: ثياب من كتان بيض رقاق. تعمل بمصر. وهي منسوبة إلى القبط. والجمع قباطي، وقيل: هي كل ثوب أبيض، ويقال: هي ثياب الشام البيض، يذكرها زهير بن أبي سلمى[5] بقوله:

لَيَأتِيَنكَ مِنّي مَنطِقٌ قَذِعُ   باقٍ كمَا دَنّسَ القُبْطِيّةَ الوَدَكُ

والقباطي: هو النسيج المعروف بالتستري، ويمتاز نسيج القباطي: بأن زخارفه تتكون من لحمات غير ممتدة في عرض المنسوج وغير متقطعة. ووجد القباطي في مصر زمن الفراعنة، واستمر في مصر، حتى عُدّ مصري النشأة والفكرة والوسيلة. وورد ذكر القباطي في صدر الإسلام. يذكر ذلك المقريزي[6]، بقوله:(إن المقوقس أهدى إلى الرسول (ص)، فيما أهدى، قباءاً وعشرين ثوباً من قباطي مصر) ويعدّ نسيج القباطي من أقدم المنسوجات الزخرفية.

- **المرانب**[7]: جمع مرنباني وهو الثوب المبطن بفراء الأرانب. وهي ثياب سود، يقال لها المرنبانية، تشبه أثواب النسور. وقيل: أكسية من جلود الأرانب، يذكرها النابغة الذبياني[8] بقوله:

تراهنّ خلفَ القومِ خُزراً عُيُونُها   جُلُوسَ الشّيوخِ في ثيابِ المرانبِ

---

(1) لويس شيخو - شعراء النصرانية قبل الإسلام - ص٣٥٠.

(2) السندي - سنن ابن ماجة - ج٢ - ص٣٦٦.

(3) ديوان سحيم عبد بني الحسحاس - تحقيق عبد العزيز اليمن - ط القاهرة ١٩٦٥ - ص١٨.

(4) ابن منظور - لسان العرب - ج٧ - ص٢٧٣.

(5) شرح دوان زهير بن أبي سلمى - ص١٨٣.

(6) الأعلم الشنتمري - أشعار الشعراء الستة الجاهليين - ج٢ - ص٢٠٣.

(7) ديوان النابغة - ص٤٣.

(8) ابن منظور - لسان العرب - ج٩ - ص٢٨٦.

- **القطيفة**[1]: كساء، له خمل، والجمع: قطائف. وقيل: هي كساء، كانت النساء ينسجنها لبعولتهن[2]. ورد ذكرها في الأغاني عند ذكر أخبار النابغة، (وهو متوسد قطيفة حمراء، وهي تضفر سعفانه ـ أي على رأسه ـ بهدب القطيفة[3]). وفي أخبار مالك بن أبي السمع (فنزل مالك عنده، فبسط له المخنق جرد قطيفة كانت عنده، فجلس[4]). وفي الحديث عن ابني بشر السلميين قال: دخل علينا رسول الله (ص) فوضعنا تحته قطيفة لنا، صببناها له صباً فجلس عليها[5]. ومن القطيفة: القرطق.

- **البريم**: خيط فيه ألوان، تشده المرأة على حقويها. وقيل: البريم خيط، ينظم فيه خرز، فتشده المرأة على حقويها. وقيل: هو ثوب، فيه خز وكتان. وقيل: هو الحبل المفتول. يكون فيه لونان، وربما شدته المرأة على وسطها وعضدها. وقيل: هو الحقاب، وسمي: بريماً لاختلاف ألوانه، يذكره جرير، بقوله[6]:

وَكَم يَرجُو الخَلِيفَةَ مِن فَقِيرٍ ... وَمِن شَعثاءَ جَائِلَةِ السَبَرِيمِ

- **الخسرواني**: هو الحرير الرقيق الحسن الصنعة. ذكره الفرزدق[7]، بقوله:

لبسن الفرند الخسرواني فوقه ... مشاعر من خز العراق المفوق

والخسرواني منسوب لعظماء الأكاسرة.

- **الدمقس**: هو الإبريسم أو القز أو الديباج. ومن المعروف أن السوريين تفننوا عبر التاريخ بالنسيج المزركش، وخاصة الدمقس، الذي عرف باسم دمشق. يذكر الدمقس عمر بن أبي ربيعه[8] بقوله:

---

[1] الكنز ـ ج١٥ ـ ص٤٧٥.

[2] الأغاني للأصفهاني ـ ج٥ ـ ص٢٨.

[3] المرجع نفسه ـ ج٥ ـ ص١٨.

[4] الأغاني للأصفهاني ـ ج٥ ـ ص١٨.

[5] السندي ـ شرح سنن ابن ماجة ـ ج٢ ـ ص٣١٧.

[6] ديوان جرير ـ طبع دار صادر بيروت بدون تاريخ ـ ص٤١٢.

[7] ديوان الفرزدق ـ ص .

[8] ديوان عمر بن أبي ربيعة ـ ص٩٩.

فَقــامَت إليهَــا حُرَّتــانِ عَلَيهِمـــا   كِساءآنِ مِــنْ خَــزٍّ دِمَقْــسٌ وَأَخضَــرُ

وذكره عامر بن الطفيل[1]، يقول:

ومـا رُمـتُ حتى بَـلّ صَـدري ونَحـرهُ   نَجيـعٌ كهُـدابِ الدِّمقَـسِ المُسَـيَّرِ

والنسيج الدمقسي من المنسوجات الزخرفية[2]، التي يخصص لها سداة واحدة أو لحمة واحدة، وكلاهما من لون واحد أو لونين مختلفين.

- **الديباج**[3]: هو النقش والتزيين. وقيل: هو النمط. وقيل: هو الرقوق أي الثوب الرقيق حسن الصنعة. وقيل: ضرب من الثياب الخضر مبسط. وقيل: هو ما رق من الحرير. وقيل: هو نسيج من الحرير الخالص دقيق الصنعة، ويعدّ الديباج من الناحية التطبيقية من مشتقات النسيج الدمشقي. ومن الناحية الزخرفية من المنسوجات المزركشة الموشاة بخيوط الذهب والفضة. وقيل: الديباج: هي الثياب المتخذة من الإبريسم، وهو أحسن أنواع الحرير. ذكره المثقب العبدي[4]، بقوله:

أَرَيــنَ مَحاسِــنَا، وكَنَــنَّ أُخــرى   مــن الأجيــادِ والبَشَــرِ المَصــونِ

وقال المتلمس[5]:

وَبِالوَجــهِ دِيبَــاجٌ وَفَــوقَ سَــرَاتِهِ   دَبَـا نُـورَهِ وَالـرَّوقُ اَسَــحمُ اَملَـسُ

- **القسي**[6]: الثياب القسي منسوب إليه، وهي ثياب فيها حرير، تجلب من نحو مصر. وقد نهى الرسول (ص) عن لبس القسي، وقيل: هي ثياب من كتان مخلوط بحرير، يؤتى بها من مصر، نسبت إلى قرية على ساحل البحر قريباً من تنيس[7]، يقال لها: القس. وفي الحديث عن أبي بردة قال: «**قلت لعلي: ما القسي؟ قال: ثياب، أتتنا من الشام أو من مصر مصنعة، فيها حرير**».

---

(1) ديوان عامر بن الطفيل - ص٦٥.

(2) سعاد ماهر - الفنون الإسلامية - ص١٠٠.

(3) سعاد محمد ماهر - الفنون الإسلامية - ص١٠٠.

(4) المثقب العبدي - ص٣٥٥. الأوائل - ج٢ - ص٨٢.

(5) المتلمس - ديوان المتلمس - تحقيق حسن كامل الصيرفي - طبع القاهرة ١٩٧٠ص٢٣٠.

(6) صحيح بخاري - كتاب الألبسة - باب لبس القسي - ج٩ - ص١٣١.

(7) جزيرة في بحر مصر قريبة من البر ما بين القرماء ودمياط والقرماء في شرقيها - ياقوت الحموي - معجم البلدان - ج٢ - ص٥١.

ـ **المنطق**[1] **والمنطقة والنطاق**: كل ما شد به وسطه، والنطاق: شبه إزار، فيه تكة، كانت المرأة تتمنطق به، وهو كل ما شددت به وسطك. وقيل: هو شقة، تلبسها المرأة، تشد به وسطها، فترسل الأعلى على الأسفل، والأسفل يجر على الأرض، ليس لها بحزة، ولا ساقان، ولا متسع، يذكره جرير[2]، بقوله:

نَفَضُوا نِطَاقَكَ وَالفرزَدقُ شَاهِدُ نَفْضَ الشَّرُوبِ بِعَانةَ المِعطَارَا

وقال عنترة[3]:

وَضَجّت تحْتَهُ الفُرسانُ حَتى حَسِبتُ الرّعدَ محلولَ النِّطاقِ

ـ **الزنار والزنارة**[4]: ما علا وسط المجوسي والنصراني. وقيل: ما يلبسه الذمي، يشده على وسطه.

ـ **الجوارب**: هو ما يلبس في الرجل، أو هو لفافة الرجل، ذكره الأصفهاني عند ذكر أخبار امرئ القيس، (ما ذهب نتن ريح جوربك من أنف، منذ قبلت رحيلك إلى يومي هذا)[5].

ـ **النعل والنعلة**[6]: ما وقيت به القدم من الأرض. والنعل: الحذاء، مؤنثة، وتصغيرها نعيلة، يذكرها النابغة الذبياني[7]، بقوله:

رِقاقُ النّعالِ، طَيِّبُ حُجُزاتُهم يُحَيّونَ بالرّيحانِ يومَ السَّباسِبِ

أراد: أنهم ملوك، لا يخصفون نعالهم، إنما يخصفها من يمشي، ويشدون أزرهم على عفة في يوم الشعانين.

---

[1] الطبري ـ تاريخ الرسل والملوك ـ ج٢ ـ ص٣٧٩ ـ ابن منظور ـ لسان العرب ـ ج١٠ ـ ص٣٥٤.

[2] ديوان جرير ـ ج١ ـ ص٥٢٠.

[3] ديوان عنترة ـ ص١٧٥.

[4] ابن منظور ـ لسان العرب ـ ج٤ ـ ص٣٣٠.

[5] الأغاني للأصفهاني ـ ج٩ ـ ص٨٠.

[6] ابن عساكر ـ تاريخ مدينة دمشق ـ ج٣٩ ـ ص٦٩ ـ ابن منظور ـ لسان العرب ـ ج ١١ ـ ص٦٦٧.

[7] ديوان النابغة الذبياني ـ تحقيق عمر فاروق الطباع ـ بدون تاريخ ـ ص٢١.

وقال عنترة[1]:

بَطَـــلٍ كَـــأَنَّ ثِيَابَـــهُ فِي سَـــرحَةٍ   يُحـذَى نعـالَ السِّـبتِ ليـسَ بتَـوأمِ

أراد بذلك: أنه ملك، يلبس الرقاق من النعال الطيبة الريح، وهم أشراف، ليسـت نعالهـم مطبقة، وهؤلاء لا يمشون، حتى يخصفوا نعالهم، كما يفعل الرعاء، وكانت الأعراب تلبس قطعاً من جلود الإبل غير محذوة، وكانت العرب إذا نتونت في النعـال خصرت، والسبت[2]، ونعـل مخصر رقيق. ورجل مخصر القدمين، إذا كانت قدمه تمس الأرض مـن مقدمهـا، والسبت: أي النعـال الـتي فيها طول ولطافة على هيئة اللسان. ومن أنواع الألبسة الأخرى:

ـ **السحل**[3]: ثوب، لا يبرم غزله، أي لا يفتل طاقتين. والسحيل من الثياب: ما كـان غزلـه طاقاً واحداً، والمبرم المفتول الغزل طاقين، وهـو الثـوب الأبيـض الرقيـق مـن القطـن، يذكـره النابغـة الذبياني[4] بقوله:

وناجيَـهِ عَدّيـتُ فِي مَـتنِ لا جـبٍ   كسَـحلِ اليَمـاني قـاصِدٍ للمنَـاهِلِ

ـ **التزيدات**: هي ثياب منسوبة إلى تزيد بن حيدان القضاعي. تجلل بها الهـوادج. يذكرهـا علقمة[5] بقوله:

رَدّ الإمــاءُ جمــال الحـيّ فَـاحتَمَلوا   فكُلُّهَـــا بِالتّزيدِيَّـــاتِ مَعَلُــــومُ

ـ **النصع**[5]: ضرب من الثياب شـديد البيـاض، وهـو لبـس الرجـال، ذكـره بشـر بـن أبي خازم[6] بقوله:

فَجَـالَ كَـأَنَّ نِصْعـاً حِمْيَرِيـاً   إِذَا كَفَـرَ الغُبَـارُ بِـهِ يَلُـوحُ

---

[1] ديوان عنترة ـ ص .

[2] ابن قتيبة ـ كتاب المعاني الكبير ـ ج١ ـ ص٤٩١.

[3] ابن منظور ـ لسان العرب ـ ج١١ ـ ص٣٢٧.

[4] ديوان النابغة ـ ص٩٩.

[5] الأعلم الشنتمري ـ أشعار الشعراء الستة الجاهليين ـ ج١ ـ ص١٤٩.

[5] ابن منظور ـ لسان العرب ـ ج٨ ـ ص٣٥٦.

[6] ديوان بشر بن أبي حازم ـ ص٥٠.

ـ **الرهاويات**: هي الثياب المنسوبة إلى الرها. وقيل: هي ثياب رقيقة، اشتدت حمرة، يذكرها عمرو بن قميئة[1]، بقوله:

قَنــأ العهــون علــى حواملهــا وعلــى الرُّهاويــاتِ والكِلــلِ

ـ **الخز**[2]: والجمع خزوز، وقد نهي عن ركوب الخز والجلوس عليه. قال ابن الأثير: الخز المعروف أولاً: ثياب، تنسج من صوف وإبريم. وهي مباحة. وقد لبسها الصحابة والتابعون، فيكون النهي عنه لأجل التشبه بالعجم والمترفين.

ـ **البرجد**[3]: كساء من صوف أحمر. وقيل: كساء غليظ. وقيل: كساء مخطط، يصلح للخبا. ويذكره المثقب العبدي[4]، بقوله:

فِي لاحِــبٍ تَعــرِفُ جِنّانُــهُ مُنفَهِــقِ القَفــرَةِ كالــبُرجُدِ

وقال طرفة بن العبد[5]:

أمــوُنٍ كــألْواحِ الأرانِ نصَأْتُهــا علـى لاحِــبٍ كأنّــهُ ظَهــرُ بُرجُــدِ

ـ **السابري**[6]: من الثياب الرقاق، وكل رقيق سابري، وهي ثياب، منسوبة إلى سابور. وقيل: السابري ثوب دقيق النسج رقيقه، يذكره عنترة، بقوله[7]:

وَبَطــنُ كَطَــيِّ السّــابرِيّة لَيّــنُ أَقَــبُّ لَطيــفٌ ضَــامرُ الكشــحِ مُدمَــجُ

وقال الفرزدق[8]:

---

[1] ديوان عمرو بن قميئة ـ ص٨٩.

[2] ابن منظور ـ لسان العرب ـ ج ـ ص٣٤٥.

[3] ابن منظور ـ لسان العرب ـ ج٣ ـ ص٨٩.

[4] ديوان المثقب العبدي ـ ص٣١.

[5] ديوان طرفة بن العبد ـ ص٢٢.

[6] ابن منظور ـ لسان العرب ـ ج٤ ـ ص٣٤١.

[7] ديوان عنترة ـ ص١١٠.

[8] ديوان الفرزدق ـ ج١ ـ ص١٧٢.

وَلَكِــنَّ حِيرِيّــاً أَصَــابَ نَقِيعَــةً   فَزَعزَعَهَــا فِي سَــابِرِيٍّ وَفِــي بُــرِدِ

- **الالتفاع**[1]: التلفع: الالتحاف بالثوب، وهو أن يشتمل به، حتى يجلل جسده، أو هو ما تلفع به من رداء أو لحاف أو قناع، وهو الشال في عصرنا الحاضر.

- **المحبر**: هو المزين، يذكره عمر بن أبي ربيعه[2]، بقوله:

قَليــلٌ عَلَــى ظَهْــرِ المَطِيــةِ ظِلُّــهُ   سِــوىَ مــا نَفَــى عنَــهُ الــرِّداءُ المحــبرَّ

لباس الرأس:

١- الخمار[3]: الخمار: هو النصيف، أو ما تغطي به المرأة رأسها، وقد يطلق على العمامة، لأن الرجل يغطي رأسه بها، والخمار كالنقاب، هو ما تستر به المرأة رأسها ووجهها، يذكره دريد ابن الصمة[4]، بقوله:

مــن الخفــرات لا ســقوط خمارهــا   إذا بــرزت ولا خــروج المقيــد

واستخدم الخمار في عهد الرسول (ص)[5]. وقال عمر بن أبي ربيعه[6]، يذكر الخمار:

وَاشْــتَكَتْ شِــدَّةَ الإزارِ مِــنَ البُهْــرِ   وَأَلقَــتْ عَنْهــا لَــدَىَّ الخِمــارا

وورد ذكر الخمار عند الأصفهاني في ذكر أخبار النابغة حيث: ذكر الفرزدق نابغة بني جعدة فقال: (كان صاحب خلقان عنده مطرف بألف وخمار بواف)[7]. وفي أخبار الدارمي: (فلم يبق في المدينة ظريفة إلا ابتاعت خماراً أسود[8]. وفي ذكر أخبار جميلة:(ولبست خماراً مصبوغاً)[9].

---

[1] ابن منظور - لسان العرب - ج٨ - ص٣٢٠.

[2] ديوان عمر بن أبي ربيعة - ص٩٤.

[3] لسان العرب - لابن منظور - ج٤ - ص٢٥٧.

[4] دريد بن الصمة - ص٥٨.

[5] صحيح البخاري - مجلد ثالث - ج١ - ص١٩٢.

[6] ديوان عمر بن أبي ربيعة - ص١٤٠.

[7] الأصفهاني الأغاني - ج٥ - ص٢٨.

[8] المرجع نفسه - ج٣ - ص٤٠٦.

[9] المرجع نفسه - ج٨ - ص٢٠٦.

- **النصيف**[1]: الخمار أو ما تستر به المرأة وجهها. وقيل: هو ثوب أبيض، يذكره النابغة[2]، بقوله:

سَقَطَ النّصيفُ، ولم تُرِد إسقاطَهُ فتناوَلَتْهُ، واتّقَتنا باليَدِ

وذكره حميد بن ثور الهلال[3]، وعمر بن أبي ربيعه[4] الذي يقول:

وَتدْنى النّصيفَ عَلَى وَاضِحٍ جَميلٍ إِذا سَفَرَتْ عَنْهُ حُرْ

إذن النصيف هو الخمار، يقال: نصفت المرأة رأسها بالخمار، وانتصفت الجارية، وتنتصف إذا اختمرت. وقيل: النصيف: المعجر. وقيل: ثوب، تتجلل به المرأة فوق ثيابها كلها. وسمي نصيفاً، لأنه نصف حاجز بين الناس وبينها، يحجب أبصارهم عنها.

- **المعتجر**[5]: ثوب، تعتجر به المرأة، أصغر من الرداء وأكبر من المقنعة. وقيل: ضرب من ثياب اليمن. وقيل: ما ينسج من الليف كالجواليق. وقيل: هو ثوب، تلفعه المرأة على رأسها. يصنع من نسيج اليمن، يذكره عمر بن أبي ربيعه[6] بقوله:

بِيَدَيِ ضَعيفِ البَطْشِ مُعْتَجِرٍ فَرَمَى وَلَمَ آخُذْ لَهُ حِذْري

- **البخنق**[7]: برقع، يغشى به العنق والصدر. والبرنس الصغير يسمى: البخنق. وقيل: البخنق البرقع الصغير. وقيل: هو خرقة، تلبسها المرأة، فتغطي بها رأسها، ما قبل منه، وما دبر غير وسط الرأس، يذكره عنترة العبسي[8]، بقوله:

فَخرُ الرّجالِ سَلاسِلٌ وَقُيُودُ وَكَذَا النَسّاءُ بَخَانِقٌ وعُقُودُ

[1] لسان العرب ـ لابن منظور ـ ج٩ ـ ص٣٣٢.
[2] ديوان النابغة ـ ص٩٣.
[3] ديوان حميد بن ثور الهلالي ـ ص٨١.
[4] ديوان عمر بن أبي ربيعة ـ ص١٥٥.
[5] ابن منظور، لسان العرب ـ ج٤ ـ ص٥٤٤.
[6] ديوان عمر بن أبي ربيعة ـ ص١٥٥.
[7] ابن منظور ـ لسان العرب ـ ج١٠ ـ ص١٣.
[8] ديوان عنترة ـ ص١٣١.

- **الوصاوص**[1] : برقع صغير. وقيل هو ثقب البرقع، إذا كانت صغاراً. أما إذا كانت كباراً، فهي منجولة، وقيل: لا يلبس منجول البرقع إلا الحسان، لأنهن يحببن أن ترى محاسن وجوههن، أما القباح فتلبس الوصوص لقبحها، حتى لا يرى قبيح وجهها. وذكر الوصوص المثقب العبدي[2]، بقوله:

ظَهَرنَ بِكِلَّةٍ وسَدَلْنَ رَقماً ... وثقَّبن الوصَاوِصَ للعيُونِ

والوصوصة: إذا أدنت المرأة نقابها إلى عينيها، ولا يظهر إلا العينان. وقيل: الوصاوص.

- **البرقع**[3] **والبرقوع**: هو للدواب، ونساء الأعراب، وجمع البرقع: البراقع. وبرقع موصوص إذا كان صغير العينين.وذكر البرقع الحرقه هند بنت النعمان[4] فقالت:

ذات الحجابِ لغير يوم كريهةٍ ... ولدى الهياج يُحَلُّ عنها البُرقُعُ

وورد ذكر البرقع عند الأصفهاني في الأغاني، عند ذكر أخبار قيس بن ذريع: (فرأى جارية حسناء، قد حسرت برقع خز عن وجهها[5]).

- **اللثام**[6] : على الأنف واللفام على الأرنبة. وقيل إذا كان على الفم فهو اللثام، وإذا كان على الأنف فهو اللف أمن يذكره قيس بن الحدادية[7]، بقوله:

نشرت على فيها اللثام ... وأمعن بالكحل الحسيف المدامع

---

[1] ابن منظور - لسان العرب - ج١٢ - ص٥٣٣.

[2] ديوان المثقب العبدي - ص١٥٦.

[3] ابن منظور - لسان العرب - ج٨ - ص٩.

[4] لويس شيخو - شعراء النصرانية بعد الإسلام - ص٢٤.

[5] الأصفهاني - الأغاني - ج٩ - ص١٩٧.

[6] ابن منظور - لسان العرب - ج١٢ - ص٥٣٣.

[7] ديوان قيس بن الحدادية - ص .

- **القناع والمقنعة**[1]: ما تتقنع به المرأة من ثوب، تغطي رأسها ومحاسنها، والقناع أوسع من المقنعة. وهو لباس مشترك للرجال والنساء. وحرم ارتداؤه في صدر الإسلام على الإماء. يذكره عنترة بن شداد[2]، بقوله:

إن تُغدِ في دُوني القِناعَ فإنّني　　طَبٌّ بأخذِ الفَارسِ المُستَلئِمِ

ويذكره عمر بن أبي ربيعه[3]. وورد في الأغاني للأصفهاني في أخبار ابن سريج: (كان لايغني إلا مقنعاً، يسبل القناع على وجهه[4]).

- **العمامة**[5]: من لباس الرأس، وربما كني عن البيضة: المغفر، والجمع عمائم وعمام. ويقال: إن الإسكندر كان أول من لف العمامة[6]. والعمامة تكون من خز أحمر وغيره كالبوص. وقيل: العمائم تيجان العرب، وهي بأشكال مختلفة، يذكرها عنترة[7]، بقوله:

ومَا الفَخْرُ إلا أن تكونَ عِمامَتِي　　مُكَوَّرَةَ الأطْرافِ بالصّارِمِ الهندي

وقال كعب بن زهير[8]:

وهاجِرةٍ لاتَستَريدُ ظِباؤُها　　لأعلامِها مِن السَّرابِ عَمَائمُ

إذن استخدم العرب العمامة قبل الإسلام، فكان يقال لسعيد بن العاص بن أمية: ذا العمامة، لأنه كان في الجاهلية إذا لبس عمامته، لم يلبس قرشي عمامته، حتى ينزعها[9]، وفي الحديث عن جعفر بن عمرو بن حريث عن أبيه قال: (رأيت النبي (ص) يخطب،

---

[1] ابن منظور - لسان العرب - ج٨ - ص٣٠٠.
[2] ديوان عنترة بن شداد - ص٢٣.
[3] ديوان عمر بن أبي ربيعة - ص١٨٤.
[4] الأصفهاني - الأغاني - ج١ - ص٢٤٩ - ابن عساكر - تاريخ مدينة دمشق - طبع بيروت ٩٦ - ج٤٤ - ص٣٠٦.
[5] ابن منظور، لسان العرب - ج ١٢ - ص٤٠٤.
[6] ابن اياس - بدائع الزهور - ص١٦٢.
[7] ديوان عنترة - ص١٢٩.
[8] ديوان كعب بن زهير - ص١٠١.
[9] الكتاني - التراتيب - ج٢ - ص٣٨٦.

وعليه عمامة سوداء[1]). وكان السادة يلبسون العمامة مصبوغة، ولا يكون ذلك لغيرهم. وسمي الزبرقان بذلك[2]، ويقال لكل شيء صفرته زبرقته، وكان يقال للعمامة العصابة[3]، والمتختم المتعمم. وذكر العمامة الفرزدق، بقوله[4]:

وَتَبكِ عَلَيهِ الشَّمسُ وَالقَمَرُ الَّذي ... بِهِ يَدَعُ السّارينَ ميلَ العَمائِمِ

وورد ذكر العمامة في الأغاني للأصفهاني عند ذكر أخبار أبي قطيفة: (وقال عبد الله بن أبي عمرو بن حفص ابن المغيرة المخزومي... خلعت يزيد، كما خلعت عمامتي[5])، وفي أخبار عمر ابن أبي ربيعه: (فمدت هند يدها، فانتزعت عمامتي، فألقتها من رأسي)[6]، وفي أخبار الحطيئة (فلبس عمامة مزبرقة بالزعفران، فسمي الزبرقان)[7].

- **القلنسوة**[8]: من ملابس الرأس، وجمع القلنسوة والقلنسية والقلنساة: قلانس وقلاس وقلنس. وورد ذكرها في الأغاني للأصفهاني عند ذكر خبر الوليد بن عقبة:(عليه كساء روزباري وقلنسوة طويلة[9]. فطرب الوليد، وخلع عليه قلنسية وشيء مذهب، كانت على رأسه)[10]. وفي أخبار جرير: (فرمحتني رمحة، وقعت منها قلنسوتي)[11]. والقلانس كانت بأطوال مختلفة. فالطويلة والموشاة المذهبة كانت للسادة دون غيرهم.

---

(1) السندي - سنن ابن ماجة - ج٢ - ص٣٧٤.
(2) الأصفهاني - الأغاني - ج٢ - ص١٨٠.
(3) ابن قتيبة - كتاب المعاني الكبير - ج١ - ص٤٧٩.
(4) ديوان الفرزدق - ج٢ - ص٢٣٦.
(5) الأصفهاني، الأغاني - ج١ - ص٢٣.
(6) المرجع نفسه - ج١ - ص١٧٦.
(7) الأصفهاني - الأغاني - ج٢ - ص١٨٠.
(8) ابن عساكر - تاريخ مدينة دمشق - طبع بيروت ٩٦ - ج٤٤ - ص٣٠٦ - ابن منظور - لسان العرب - ج٦ - ص١٨١.
(9) الأصفهاني - الأغاني - ج٥ - ص١٥١.
(10) المرجع نفسه - ج٧ - ص٩١.
(11) المرجع نفسه - ج١ - ص٢٣.

- **التاج**[1]: الجمع: أتواج وتيجان، وقد توجه إذا عممه. والتاج: هو ما يصاغ للملوك من الذهب والجواهر، والأكاليل تيجان ملوك العجم، يذكره المرقش الأصغر[2]:

كَأَنَّ عَلَيْهِ تَاجَ آلِ مُحَرِّقٍ   بِأَنْ ضَرَّ مَوْلاَهُ وأصبح سالماً

وورد في الأغاني للأصفهاني عند ذكر عدي بن زيد:(وألبسه تاجاً، قيمته ستون ألف درهم، فيه اللؤلؤ والذهب)[3]. وفي أخبار جميلة: (وضعت فوق الشعور التيجان، وزينتهن بأنواع الحلي)[4].

- **الخوذة**: عرفت بأسماء مختلفة، منها: البيض، وتعني الخوذة: بأنها غطاء للرأس في الحرب، ذكرها عبيد الله بن قيس الرقيات[5]، بقوله:

ضَرَّابِ بَيْضِ الْمُدَجَّجِينَ إذا   الفُرسانُ هَابوا مَوَاقِفَ الْبُهَمِ

الشعر: عرف عند العرب قبل الإسلام الشعر الطويل، والقصير. وكان العرب يمشطون شعرهم، ويسرحونه، ويفرقونه. وفي الحديث عن ابن عباس قال: «**كان أهل الكتاب يسدلون أشعارهم. وكان المشركون يفرقون، وكان رسول الله (ص) يحب موافقة أهل الكتاب. قال فسدل رسول الله (ص) ناصيته، ثم فرق**[6]، **وقيل: كان شعر رسول الله (ص) شعراً رجلاً بين أذنيه ومنكبيه**»[7].

ولقد استعمل العرب الشعر المستعار قبل الإسلام وبعده، وقد ورد ذكر ذلك عند الأصفهاني في الأغاني في أخبار جميلة. وجعلت على رؤوس جواريها شعوراً مسدلة كالعناقيد إلى

---

[1] ابن منظور - لسان العرب - ج٢ - ص٢١٩.

[2] لويس شيخو - شعراء النصرانية قبل الإسلام - ص٣٢٩.

[3] الأصفهاني - الأغاني - ج٢ - ص١٠٨.

[4] المرجع نفسه - ج ٨ - ص٢٢٧.

[5] ديوان عبيد الله بن قيس الرقيات - ص١٠.

[6] السندي - سنن ابن ماجة - ج٢ - ص٣٨٣.

[7] المرجع نفسه - ج٢ - ص٣٨٣.

أعجازهن[1].

واعتمد في أول الإسلام قص اللحية، لأن الطول المفرط، قد يشوه الخلق، وقد جاء في الحديث: أن رسول الله (ص) «**كان يأخذ من طول لحيته وعرضها بالسوية، لتقترب من التدوير من جميع الجوانب، وتعتدل**[2]»، وقيل: يؤخذ من اللحية، ما زاد على القبضة.

أيضاً الشوارب كان يؤخذ منها، ففي الحديث:« **خالفوا المشركين، وأحفوا الشوارب**»[3] وذكر أيضاً: من لم يأخذ من شاربه، فليس منا أي قص الشارب، حتى تتبين الشفة العليا بياناً ظاهراً، أما أطراف الشوارب (السبال)، فإنه لابأس بتركها. وقيل: قصوا سبالاتكم، ولا تتشبهوا باليهود، أما شعر الأنف فيبقى، ما لم يحصل في طوله تشوه، عند ذلك يجب قصه، أما نتفه فهو مكروه.

الغدائر والذوائب[4] : واحدتها غديرة، وقيل الغدائر للنساء، وهي المضفورة. والضفائر للرجال، واحدتها غديرة، وهي الجديلة من شعر النساء، ويذكرها امرؤ القيس[*] وفي الحديث: قالت أم هاني: دخل رسول الله (ص) مكة، وله أربعة غدائر، تعني الضفائر[6].

والذوائب جمع ذوابة، وهي الشعر المضفور من شعر الرأس، ذكرها المثقب العبدي[7]، بقوله:

وهُنّ على الظّلام مُطَلّيَاتٌ   طويلاتُ الذّوائبِ والقُرونِ

---

[1] الأصفهاني ـ الأغاني ـ ج٨ ـ ص٢٢٧.

[2] الوسم في الوشم ـ ص٢٣.

[3] أحمد ابن إسماعيل ـ الوسم في الوشم ـ طبع مصر ١٣٢٣ ـ ص٢٣.

[4] ابن منظور ـ لسان العرب ـ ج٥ ـ ص١٠.

[*] ديوان امرىء القيس ـ ص ١٧، نشوة الطرب في تاريخ جاهلية العرب ـ ج١ ـ ص١٨٢.

[6] السندي ـ سنن ابن ماجة، ج ٢، ص ٣٨٣.

[7] ديوان المثقب العبدي ـ ص١٦٠.

والقرن[1]: الذؤابة. وخص بعضهم به ذؤابة المرأة. وضفيرتها، والجمع: قرون، والقرون كل ضفيرة من ضفائر الشعر. **الضفيرة والعقيصة**[2]: وقد ضفر الشعر ونحوه يضفره ضفراً أي: نسج بعضه على بعض. وذكرها الأصفهاني في الأغاني عند ذكر النابغة : فأخذت بضفيرته، ومالت عليه، فصرعته[3].

أدوات الزينة والحلي:

أولاً ـ أدوات الزينة:

ـ **الحناء:** استخدم العرب الحناء لأغراض طبية وتزيينية، والحناء نبات معروف، أعد للخضاب، وعرفه قدماء المصريين، واستعملوه في التحنيط[4]، وعن طريقهم انتقل إلى العالم، كما استعملوه للتجميل، واستعمل لخضاب الأطراف والشعر. ففي الحديث عن أم رافع مولاة رسول الله (ص) قالت:«**كان لا يصيب النبي (ص) قرحة ولا شوكة، إلا وضع عليه الحناء**[5]» وقال(ص): «**إن أحسن ما غيرتم به الشيب الحناء**»[6].

ـ **الكحل:** هو كل ما يكتحل[7] به، وقيل: الكحل: ما وضع في العين، يستشفى به، والمكحال: الميل، تكحل به العين من المكحلة، وهو الآلة التي يكتحل بها، وقيل: هو المملمول الذي يكتحل به. كانت المكاحل من مستلزمات فن التجميل عند النساء. وكانت النساء تكحلن به العين والحاجب، كما كن يعملن على تدقيقها وترقيقها ومدها، حيث أدت الوسائل التجميلية إلى إخفاء العيوب، التي تختص بها العيون والحواجب. وعن ابن عباس قال: (**كانت للنبي (ص) مكحلة، وكان يكتحل فيها ثلاثاً في كل عين)**[8].

---

[1] ابن منظور ـ لسان العرب ـ ج١٣ ـ ص٣٣١.

[2] ابن منظور ـ لسان العرب ـ ج٤ ـ ص٤٨٩.

[3] الأصفهاني ـ الأغاني ـ ج٥ ـ ص٢٥.

[4] محمد حمامي ـ فن ونقش الحناء عند العرب ـ طبع بيروت ـ بدون تاريخ ـ ص٥ ـ الطبري ـ تاريخ الرسل والملوك ـ ج٤ ـ ص١٩٦.

[5] السندي ـ سنن ابن ماجة ـ ج٢ ـ ص٣٥٧.

[6] المرجع نفسه ـ ج٢ـ ص٣٨١.

[7] ابن منظور ـ لسان العرب ـ ج١١ ـ ص٥٨٤.

[8] السندي ـ سنن ابن ماجة ـ ج٢ ـ ص٣٥٤.

والمكحلة هي وعاء الكحل، وتعدّ أداة هامة من أدوات التجميل. وكان يكتحل بمادة اسمها: إثمد، كانت النساء تذرها على الشفاه واللثة، فيكون ذلك أشد لمعاناً للأسنان. وفي الحديث: «**قال رسول الله(ص): عليكم بالإثمد، فإنه يجلو البصر، وينبت الشعر**[1]». وكان يستعمل الميل في عملية الاكتحال، ويعرف بالمرود، تذكره الخنساء[2] بقولها:

يا عَينِ جودي بالدّموعِ   فقَدْ جَفَّتْ عنكِ المَراوِدْ

- **الوشم**[3]: ما تجعله المرأة على ذراعها بالإبرة، ثم تحشوه بالنور، وهو دخان الشحم، والجمع: وشوم، ووشام، ووشم اليد وشماً: غرزها بالإبرة، ثم ذرّ عليها النور، وهو النيلج. والوشم كان يغرز ظهر الكف والمعصم بإبرة أو مسلة، حيث تؤثر فيه، ثم تحشوه بالكحل أو النيل أو النورو، فيزرق أثره، أو يخضر.

والفن الشعبي كما هو معلوم، مرآة صادقة عكست صوراً من الحياة الاجتماعية عند العرب قبل الإسلام وبعده، تكاد تنطق بالحيوية والحركة، فالفن الشعبي صور الأمل والألم، والأخلاق والعادات والجمال والقبح، والحب والرعب وغير ذلك.

والوشم أحد عناصر الفن الشعبي، حيث يعود إلى العصور القديمة ممثلاً في الديانات، وبقي الوشم بعد ظهور الديانات السماوية، وللوشم غايات مختلفة، منها: ما كان يعتقد من أنه وسيلة علاجية للشفاء من بعض الأمراض، وغايات أخرى تجميلية، ومع ظهور الإسلام لقيت أكثر الفنون الشعبية، ومنها الوشم، معارضة عنيفة من رجال الدين، ورغم ذلك بقي متوارثاً عبر التاريخ.

والوشم: علامة ثابتة، تنقش على الجسم غير قابلة للنقل أو غيره، وكان يتم الوشم[4] بوخزات ملونة في الجلد بواسطة عظمة مدببة أو إبرة مغموسة بمزيج، يترك أثراً على الجلد، لا يسبب ألماً، ولا يمكن إزالته. إذن تابع العرب توارث الفنون الشعبية، رغم ما ألم بها من انتكاسات عبر مسيرتها، ويذكر الوشم الشعراء العرب، فيقول طرفة بن العبد[5]:

---

[1] السندي - سنن ابن ماجة - ج٢ - ص٣٥٣.

[2] ديوان الخنساء - تحقيق أنور أبو سويلم - طبع الأردن ١٩٨٨ - ص٣٥.

[3] ابن منظور - لسان العرب - ج١٢ - ص٦٣٨ - صحيح البخاري - كتاب الألبسة - باب الواشمة - ج٩ - ص٢٠١.

[4] أحمد بن اسماعيل الحلواني - الوسم في الوشم - طبع مصر ١٣٢٣ - ص٤.

[5] ديوان طرفة بن العبد - ص .

لِخَولَـةَ أَطْـلالٌ بِبُرقَـةِ ثَهمَـدِ تَلوحُ كَبَـاقي الوَشْـمِ في ظَـاهِرِ اليَـدِ

وقال الفرزدق[1]:

وَكَـم في قُـرَى مَيسَانَ مِـنْ عِلْـجِ قَرْيَـةٍ قَرِيـبٍ بِكَفَّيـهِ الوُشُـمُ لِصَـالِحِ

وكان الوشم يتم بأشكال مختلفة متنوعة، فمنهم من كان يجعله كتابة، ومنهم من جعله صورة حيوان، يقصد به من يحب، ومنهم من جعله على شكل دوائر، ومنهم من جعله كالهلال أو الصليب أو غير ذلك، وفي الحديث عن ابن عمر عن النبي (ص)«**أنه لعن الواصلة والمستوصلة والواشمة والمستوشمة**»[2].

وعن عبد الله قال:«**لعن رسول الله(ص) الواشمات والمتوشمات والمنمصات والمتفلجات**»[3]. فالواصلة هي التي تصل الشعر بشعر آخر، سواء فعلت ذلك لنفسها أم لغيرها، أما المستوصلة: فالتي تطلب ذلك، وكذلك الواشمة والمستوشمة. أما النامصة: فهي فاعلة النمص. والنمص: إزالة شعر الوجه بالمنماص، وهو المنقاش[4].

أما الواشرة[5]: فهي التي تحدد الأسنان، وترققها بنحو المبرد، وتسمى هذه العملية: التفليج، والمقصود بالتفليج: هو أن تحدد ما بين الثنايا والرباعيات، ليبعد ما بينها، فتظهر كأن بها فلجا، وهو فرجة لطيفة بين الثنايا والرباعيات، وتكون ظاهرة عند الصغار، واستعمالها عند الكبيرات يزيدهن حسناً لأن الفلج من الجمال والحسن.

- **العطور**[6] : اسم جامع للطيب، والجمع: عطور. والعطار: بائعه، وحرفته العطارة. كان استخدام العطور شائعاً عند العرب قبل الإسلام وبعده، يذكره كعب بن زهير[7] بقوله:

وهُـمُ إذا انْقَلَبُـوا كَـأَنَّ ثيـابَهم منهـا تَضَـوَّعُ فَـأْرَةِ العَطَّـارِ

---

[1] ديوان الفرزدق - ج - ص١٢٤.

[2] البخاري - صحيح البخاري - كتاب اللباس - باب الواشمة - ج٩ - ص٢٠٠.

[3] المرجع نفسه - كتاب اللباس - ج٩ - ص٢٠١.

[4] أحمد بن إسماعيل - الوسم في الوشم - ص١٣.

[5] أحمد بن اسماعيل - الوسم في الوشم - ص٦٣.

[6] ابن منظور - لسان العرب - ج٤ - ص٥٨٢.

[7] ديوان كعب بن زهير - ص١٦١.

وتنوعت العطور عند العرب والدهون، فكان منها أنواع، منها ما يستخدم عند الذهاب لزيارة الأماكن المقدسة، ومنها ما يستعمل عند الذهاب للمساجد والأديرة، ومنها ما يستعمل عند حضور الندوات وعند ارتياد الملاهي وغير ذلك. وفي الحديث سئلت عائشة: أكان النبي (ص) يتطيب؟ قالت: نعم بذِكارة[1]. بالكسر ما يصلح للرجال: كالمسك والعود والعنبر. وروي أن النبي (ص) أمر نساءه أن يبعثوا لزوجته أم حبيبة، عندما تزوجها بكل ما عندهن من العطر: (فلما كان من الغد أتتني بعود ورس وعنبر وزباد كثير)[2].

وقالت عائشة: كنت أغلل لحية رسول الله(ص)[3]. ومن المعلوم أن معجونات العطر كلها عربية[4] مثل: الغالية والشاهرية والخلوق واللخلخة والعطر: وهو العود المطري والبربرة، وعملت النساء العربيات في بيع العطور، فكانت أسماء بنت مخربة تبيع العطر[5] في المدينة، وكانت بالمدينة امرأة عطارة[6] تسمى: خوله بنت ثويب.

- **الخضب**: ويكون بحمرة أو صفرة[7] للأشيب والأسود من الشعر للرجال والنساء، وشعر اللحية للرجال والشوارب.

- **المشط**[8]: هو ما مشط به، والجمع أمشاط ومشاط، وقيل في أسمائه[9]: المكد، المرجل، المسرح، المشقا والمد، والنحيت، المفرج، أما الماشطة فهي التي تحسن المشط، وحرفتها المشاطة، وقيل للماشطة: الجالية، لأنها تجلو المرأة وتزينها عشية زواجها، واستخدمت المشاطة المقراض والموس (آلة من الحديد، يحلق بها) وقيل: وهي الجارية التي تحسن المشاطة، وذكر: أن آمنة بنت عفان بن أبي العاص كانت في الجاهلية ماشطة. وذكر ابن اسحاق قال: (لما أعرس رسول الله (ص) بصفية بنت

---

[1] الكتاني - التراتيب الادارية - ج٢ - ص٣٦.

[2] المرجع نفسه - ج٢- ص٣٦.

[3] المرجع نفسه - ج٢ - ص٣٧.

[4] المرجع نفسه - ج٢ - ص٣٧.

[5] شهاب الدين أبي الفضل أحمد بن حجر العسقلاني - الاصابة في تمييز الصحابة - ط بيروت ١٣٢٨هـ - ج٤ - ص٢٣٢.

[6] المرجع نفسه - ج٤- ص٢٧٨.

[7] أحمد بن إسماعيل - الوسم في الوشم - ص٦١.

[8] ابن عساكر - تاريخ مدينة دمشق - طبع بيروت ٩٦ - ج٣٩ - ص٩٧ - ابن منظور - لسان العرب - ج٧ - ص٤٠٢.

[9] محمد مرتضى الزبيري - تاج العروس - طبع بيروت (دار صادر) بدون تاريخ ج٥ - ص٢٢٣.

حيي بخيبر[1] أو ببعض الطريق، كانت التي حملتها وأصلحت من أمرها أم سليم[2]. والأمشاط، كما هو معلوم، كانت تستعمل في تصفيف الشعر وتهذيب اللحية.

- المرايا: من أدوات التجميل، وهي قديمة. وقد ورد ذكرها في الكتاب المقدس، ووجدت نماذج منها عند قدماء المصريين والممالك الشرقية القديمة، كالآشوريين والبابليين والسومريين والكنعانيين وغيرهم.

ثانياً - الحلي:

الحلي: من أدوات التجميل، حيث تعبر الحلي عن الذوق الشعبي، والذوق الشعبي غني بإبداعاته، وخاصة الحلي، ونرى ذلك واضحاً في صياغة الذهب والفضة، ونظم الخرز والمرجان والجواهر والأحجار الكريمة وغيرها، وما توارثوه من عادات شعبية في هذا المجال، وقد ظهر ذلك جلياً في شعر الشعراء العرب. فالشاعر كان متتبعاً للأحداث في عصره، وعلى رأسها الجمال، حيث كان يترصد الجمال، ليخلده بشعره. ومن المعلوم أن الحلي أضافت للمرأة جمالاً إلى جمالها، وشاع استخدام الحلي عند العرب، وتعددت أشكالها وألوانها، فكان لكل عضو من أعضاء الجسم حلي، يلائمها، ومن الحلي التي استخدمها العرب:

- الخلخال[3]: هو من الحلي، والمخلخل موضع الخلخال من الساق، والخلخال، كما يذكر، هو اسم لكل ما يلبس من الحلي في اليدين والرجلين، ويصنع من الذهب والفضة أو مواد معدنية أخرى. واستخدامه يتوقف على الوضع المادي، للذي يريد أن يتحلى به، والخلخال، كما هو معلوم، يحدث صوتاً ويبرز جمالاً، والحلي تتزين بنقوش، ويذكره مجنون بني عامر[4] بقوله:

إذا جاء قَعقَعنَ الُحليَّ ولم أكُن إذا جئتُ أرضىَ صوتَ تلكَ الخلاخِلِ

---

[1] خيبر - ناحية على ثمانية بُردُ من المدينة عن بريد الشام - يطلق هذا الاسم على الولاية، وتشتمل هذه الولاية سبعة حصون ومزارع ونخل كثير - ياقوت الحموي - معجم البلدان - ج٢ - ص٤٠٩.

[2] الكتاني - التراتيب الادارية - ج٢ - ص١١١.

[3] ابن منظور - لسان العرب - ج١١ - ص٢٢١.

[4] ديوان مجنون بني عامر ص - الأغاني - للأصفهاني - ج٩ - ص١٥٠.

ويذكره الأصفهاني في أخبار الدلال: (كانتا تخرجان، فتركبان الفرسين، فتستبقان عليهما، حتى تبدو خلاخيلهما)[1].

ـ **الخـدم**[2] : من أسماء الخلخال، وهو من ذلك، لأنه ربما كان من سير، يركب فيها الذهب والفضة، وقد تسمى الساق خدمة حملاً على الخلخال، لأنها لكونها موضعه، والجمع: خدم وخدام، يذكره النابغة[3]، بقوله:

بُـرُزُ الأكـفّ مـن الخِـدمِ خـوارجُ مِـنْ فَـرْجِ كـلّ وَصيلَـةٍ وإزارِ

وذكره عبيد الله بن قيس الرقيات[4] يقول:

تُجِبّهـمُ عُـوَّذُ النِّسَـاءِ إذا أَبْـدَى العَـذَارى مَوَاضِـعَ الخَـدَمِ

ـ **البرة**[5]: من أصناف الخلخال، والجمع: برات وبرى وبرين . ذكره عبيد الله بن قيس الرقيات[6] بقوله:

تُذهِـلُ الشَّـيخَ عـن بَنِيـهِ، وتُبـدِي عـن بُرَاهـا العَقيلَـةُ العَـذرَاءُ

ـ **القلادة**[7]: ما جعل في العنق. يكون للإنسان والفرس والكلب، والبدنة التي تهدى ونحوها، والقلادة لها أسماء مختلفة. منها: العقد، ومنها السخاب، وتوضع القلادة في العنق، وتكون من ذهب أو ياقوت أو لؤلؤ أو زبرجد أو من معادن أخرى. وقد يكون من ورود أو غيرها، مما يلبس في العنق، ويجلب الانتباه، ويشكل الجمال، ويستخدمه الرجال والنساء. يذكر العقد حميد بن ثور الهلالي[8] . وذكر الأصفهاني في الأغاني عند ذكر أخبار الوليد بن يزيد: (لقد كان الوليد بن يزيد

---

[1] الأغاني ـ للأصفهاني ـ ج٤ ـ ص٢٧٩.

[2] ابن منظور ـ لسان العرب ـ ج١٢ ـ ص١٦٧.

[3] ديوان النابغة ـ ص٦٦.

[4] ديوان عبيد الله بن قيس الرقيات ـ ص ٩.

[5] ابن منظور ـ لسان العرب ـ ج١٤ ـ ص٣٦٦.

[6] ديوان عبيد الله قيس الرقيات ـ ص٩٦.

[7] ابن منظور ـ لسان العرب ـ ج٣ ـ ص٣٦٦.

[8] ديوان حميد بن ثور الهلالي ـ ج٧ ـ ص٥٦.

يلبس منه العقود)[1] .

- **السخاب**[2]: قلادة، تتخذ من قرنفل، ومسك، ومحلب، ليس فيها من اللؤلؤ والجوهر شيء، والجمع: سخب، وقيل، السخاب عند العرب: كل قلادة كانت ذات جوهر، أو لم تكن، وفي الحديث أن النبي (ص) حضّ على الصدقة، فجعلت المرأة تلقي الخرص والسخاب، يعني القلادة. وفي حديث فاطمة: فألبسته سخاباً يعني ابنها الحسين. ويذكر السخاب عمر بن أبي ربيعة[3] بقوله:

قَلدّوهــا مِــنَ القَرَنفُــلِ وَالــدُّرِ   سِـخَاباً واهـاً لَـهُ مِـنْ سِـخابِ

- **القرط**[4]: الذي يعلق في شحمة الأذن، والجمع: أقراط وقراط وقروط، وقرطه. والقرط نوع من حلي الأذن. يذكر: أن أول من استعمل القرط هي هاجر[5] زوجة سيدنا إبراهيم الخليل، عليه الصلاة والسلام. إذن لبست المرأة العربية القرط منذ القديم، حيث كثرت أنواعها، واختلفت أسماؤها.

- **الدملج**[6]: تسوية الشيء، كما يدملج السوار، ودملج الشيء: إذا سوّاه، وأحسن صنعته، والدملج: ضرب من الحلي، يلبس في المعصم. يذكره عمر بن أبي ربيعة[7]، ويذكره عنترة فيقول[8]:

وَتَحتَـي منهـا سَـاعِدٌ فيـه دُملُـجٌ   مُضِـيءٌ وَفَوقـي آخَـرُ فيـه دُملُـجُ

وقال عبيد ا لله بن قيس الرقيات[9]:

فَكِـدْتُ أمـوُتُ وَقَـدْ حُمِّلَـتْ   خَطِيئَتَـهُ رَبَّـةُ الدمُّلُـجِ

---

[1] الأصفهاني - الأغاني - ج٧ - ص٥٩.

[2] ابن منظور - لسان العرب - ج٢ - ص٤٦١.

[3] ديوان عمر بن أبي ربيعة - ص٤٣٢.

[4] ابن منظور - لسان العرب - ج٧ - ص٣٧٤.

[5] أبو هلال العسكري - الأوائل - ج١ - ص١٥.

[6] ابن منظور - لسان العرب - ج٢ - ص٢٧٦.

[7] ديوان عمر بن أبي ربيعة - ص١٣٥.

[8] ديوان عنتره - ص١١١.

[9] ديوان عبيد ا لله بن قيس الرقيات - ص٦١.

ـ **الخاتم**: يصنع من ذهب أو ياقوت أو فضة أو معادن أخرى، حسب الوضع المادي، للذي يرغب أن يرتديه. ففي الحديث «**اتخذ رسول الله (ص) خاتماً من ورق، ثم نقش فيه رسول الله**»[1]. وقال: «**اتخذ خاتماً من فضة، له فص حبشي، ونقش محمد رسول الله**»[2]. وورد ذكره في الأغاني للأصفهاني مراراً، منها في أخبار كثير ونسبه: (فادفع إليها خاتمي، وأعلمها مكاني)[3]. وفي أخبار الوليد بن عقبة: (وأخذ خاتمه من يده)[4].

وفي أخبار ابن سريح: (فنزع حليه وخاتمه، فدفعها إليه)[5]، وفي أخبار عمر الوادي: (خرج إلى الوليد بن يزيد، وفي يده خاتم ياقوت أحمر[6]، وقال: ثم جلس، ونزع الخاتم)[7].

ـ **سلسلة الذهب**: ذكرها الأصفهاني في كتاب الأغاني عند ذكر الأخطل: (في عنقه سلسلة ذهب، فيها صليب ذهب)[8].

ـ **السوار**[9]: من الحلي، والمسور موضع السوار، والأساور جمع إسورة وأسورة جمع سوار، ورد ذكره في القرآن الكريم ﴿**أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ**﴾[10] وقال تعالى: ﴿**فَلَوْلاَ أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِن ذَهَبٍ**﴾[11]. والسوار: حلية كالطوق تلبسه المرأة في زندها أو معصمها، يذكره عمر بن أبي ربيعه[12]:

بِتُّ في نِعمَةٍ وَباتَ وِسادي   مِعصَماً بَينَ دُملُجٍ وَسِوارِ

---

[1] السندي ـ سنن ابن ماجه ـ ج٣ ـ ص٣٨٤ ـ ابن عساكر ـ تاريخ مدينة دمشق ـ طبع بيروت ١٩٩٦ ـ ج٣٩ ـ ص٢٨٢.

[2] المرجع نفسه ج٢ ـ ص٣٨٥ ـ الطبري ـ تاريخ الرسل والملوك ـ ج٤ ـ ص٢٨١ وما بعدها.

[3] الأصفهاني ـ الأغاني ـ ج ـ ص٣١.

[4] المرجع نفسه ـ ج٥ ـ ص١٢٩.

[5] المرجع نفسه ـ ج١ ـ ص٢٥٨ ـ ٢٥٩.

[6] المرجع نفسه ـ ج٧ ـ ص٨٨.

[7] المرجع نفسه ـ ص٩٨.

[8] المرجع نفسه ـ ج٨ ـ ص٢٩٩.

[9] ابن منظور ـ لسان العرب ـ ج٤ ـ ص٣٨٨.

[10] سورة الكهف الآية / ٣١.

[11] سورة الزخرف الآية / ٥٣ .

[12] ديوان عمر بن أبي ربيعه ـ ص٨٢.

ـ **السمط**[1]: الخيط، مادام فيه الخرز، وإلا فهو سلك، والسمط: خيط النظم، لأنه يعلق، وقيل: هو القلادة أطول من المخنقة، وجمعه: سموط. وقيل: السمط الخيط الواحد المنظوم. وقيل: السمط من الدر، وقيل: لايكون سمطاً، وفيه لؤلؤ، والسمط: خيط، فيه لؤلؤ، والخيط ما دام فيه الخرز، وإلا فهو سلك، يذكره المثقب العبدي[2] بقوله:

مُرمَعِلاّتٌ كَسِمْطَي لُولُو خُذِلَتْ أخراتُهُ فيهِ مَغَرْ

ـ **الشذر**[3]: قطع من الذهب: يلقط من المعدن من غير إذابة الحجارة، ومما يصلح من الذهب فرائد، يفصل بها اللؤلؤ والجوهر، والشذر: صغار اللؤلؤ، وقيل: هو خرز، يفصل به النظم. وقيل: الشذر حبة من الخرز، يفصل بها بين الجواهر في نظم العقود، ذكره عمر بن أبي ربيعه بقوله[4]:

وَبَدائِدُ المَرجَانِ في قَرْنٍ وَالدُّرُّ وَالياقوتُ وَالشَّذرُ

ـ **الوشاح**[5]: حلي للنساء، تتوشح المرأة به، والجمع: أوشحة، ووشح ووشائح، وينسج من أديم عريض، ويرصع بالجواهر، تشده المرأة بين عاتقيها وكشحيها، والتوشح: أن يتشح الثوب، ثم يخرج طرفه، الذي ألقاه على عاتقه الأيسر من تحت يده اليمنى، ثم يعقد طرفيهما على صدره.

الهوادج[6]: من مراكب النساء مقبب وغير مقبب، يصنع من العصي، ثم يجعل فوقه الخشب، فيقبب، وهدجت الناقة، ارتفع سنامها، وضخم. والهوادج لها أشكال وتسميات منها:

ـ **الظعينة**[7]: الجمل تظعن عليه، والظعينة الهودج. تكون فيه المرأة، وقيل: هو الهودج، كانت فيه أم لم تكن، والظعينة المرأة في الهودج، وقيل: كل بعير، يوطأ للنساء، فهو ظعينة، وإنما

---

(1) ابن منظور ـ لسان العرب ـ ج٧ ـ ص ٣٢٢.

(2) ديوان المثقب العبدي ـ ص٣٦.

(3) وفيق خليل عطوي ـ صورة المرأة في شعر الغزل الأموي ـ طبع بيروت ١٩٨٦ ـ ص١٠٤.

(4) ديوان عمر بن أبي ربيعه ـ ص٨٥.

(5) ابن منظور ـ لسان العرب ـ ج٢ ـ ص١٣٢.

(6) المرجع نفسه ـ ص٣٨٩.

(7) المرجع نفسه ـ ج١٣ ـ ص٢٧١.

سميت النساء ظعائن، لأنهن يكن في الهودج. وذكر الظعينة عنترة[1] بقوله: (إني أحاذر أن تقول ظعينتي). وقال المثقب العبدي[2]: (إن رأى ظُعناً لِليلى غُدوَةً). وورد في نشوة الطرب[3]: وذكره بشر ابن أبي حازم[4].

ـ **الأحداج**[5]: من مراكب النساء، يشبه المحفة، والجمع: أحداج وحدوج، وقيل: الحدج مركب، ليس برحل، ولا هودج، تركبه النساء من الأعراب، وقيل: الحدج مركب من مراكب النساء مثل الهودج والمحفة، يذكره المثقب العبدي[6] بقوله:

قَد عَلَتْ مِن فَوقِها أَنْماطُها وعلى الأحداجِ رَقمٌ كالشَّقِرْ

وقال عنترة[7]:

لِمَنِ الشُّمُوسُ عَزِيزَةَ الأحداجِ يَطلعْنَ بَينَ الوَشيِ وَالدِّيباجِ

وقال طرفة بن العبد[8]: (كأن حدوج المالكية غدوة). وذكره الفرزدق[9]، وذكره بشر بن أبي حازم[10]، وعمرو بن قميئة[11] وغيرهم.

ـ **المحفة**[12]: رحل، يحف بثوب، ثم تركب فيه المرأة، وقيل: المحفة مركب كالهودج، إلا أن الهودج يقبب، بينما المحفة لا تقبب، وسميت بها: لأن الخشب يحف بالقاعدة فيها، أي يحيط به من جميع جوانبه، وقيل: المحفة مركب من مراكب النساء، وهي فوط يجعل عليها الهودج.

---

[1] ديوان عنترة العبسي ـ ص٣٣.

[2] ديوان المثقب العبدي ـ ص٣٧.

[3] نشوة الطرب ـ ج٢ ـ ص ٥٣ ـ ١٤٨.

[4] ديوان بشر بن أبي حازم ـ ص٢ ـ ٩.

[5] ابن منظور ـ لسان العرب ـ ج٢ ـ ص٢٣٠.

[6] ديوان المثقب العبدي ـ ص٣٧ ـ ١٤٨، نشوة الطرب ـ ج٢ ـ ص٥٣ ـ ١٤٨.

[7] ديوان عنترة ـ ص١١٣.

[8] ديوان طرفة بن العبد ـ ص٢٠.

[9] ديوان الفرزدق ـ ج١ ـ ص٣٧٢.

[10] ديوان بشر بن أبي حازم ـ ص١٣٠.

[11] ديوان عمر بن قميئة ـ ص١٠٧.

[12] ابن منظور ـ لسان العرب ـ ج٩ ـ ص٤٩.

ـ **الخدر**[1]: ستر، يمد الجارية في ناحية البيت، ثم صار كل ما واراك من بيت ونحوه خدراً والجمع: خدور وأخدار، وأخادير جمع الجمع، والخدر: خشبات، تنصب فوق قتب البعير مستورة بثوب، وهو الهودج. والخدر من مراكب النساء، يذكره امرؤ القيس بقوله[2]:

ويومَ دخلتُ الخَدْرَ خِدْرَ عُنَيزَةٍ   فقالت لَكَ الوَيلاتُ إنَّك مُرْجِلِي

كما ويذكره جرير بقوله[3]:

وَقَدْ عَمِرَتْ تَيْمُ زَماناً ومَا يُرَى   لِنسَوةِ تَيْمٍ مِن خِفاقٍ وَلا خِدْرِ

ـ **الحمول**[4]: الهوادج سواءً كان فيها النساء أم لم تكن، واحدها: حمل، ولا يقال: حمول من الإبل إلا لما عليه الهودج، وقيل: ما يكون على البعير، وقيل: الحمولة الإبل التي تحمل عليها الأثقال، وقيل: الحمول الإبل بأثقالها، ويذكره الأعلم الشنتمري في كتابه أشعار الشعراء[5].

ـ **الرحل**[6]: مركب للبعير والناقة، وجمعه أرحال ورحال والرحالة نحوه من مراكب النساء، وقيل: الرحالة في أشعار العرب السرج، وقيل: الرحالة سرج من جلود، ليس فيه خشب، كانوا يتخذونه للركض الشديد، والجمع: الرحائل، وقيل: هو أكبر من السرج، ويغشى بالجلود، ويكون للخيل والنجائب، وقيل: هو أصغر من القتب، وقيل هو ما يوضع على الناقة كالسرج للفرس، وقيل: هو ركب للبعير والناقة، يوضع على ظهرها للركوب. كما ذكره المثقب العبدي[7].

ـ **السرج**[8]: رحل الدابة، والجمع سروج، وأسرجها إسراجاً، وضع عليها السرج، والسراج بائع السروج، وصانعها، وحرفته السراجة.

---

[1] ابن منظور ـ لسان العرب ـ ج٤ ـ ص٢٣١.

[2] ديوان امرئ القيس ـ ص١١.

[3] ديوان جرير ـ ص١٦٢.

[4] ابن منظور ـ لسان العرب ـ ج١١ ـ ص١٧٩.

[5] الأعلم الشنتمري ـ أشعار الشعراء ـ ج٨ ـ ص١١٩ ـ ١٤٣.

[6] ابن منظور ـ لسان العرب ـ ج١١ ـ ص٢٧٤ ـ ٢٧٦.

[7] ديوان المثقب العبدي ـ ص٢٠٣.

[8] ابن منظور ـ لسان العرب ـ ج٢ ـ ص١٩٧.

- **الرجائز**[1]: مراكب أصغر من الهودج، وقيل: هو كساء، تجعل فيه أحجار، تعلق بأحد جانبي الهودج، إذا مال مال، والرجازة مركب للنساء دون الهودج، والرجازة أيضاً ما زين به الهودج من صوف وشعر أحمر. يذكره المثقب العبدي[2] بقوله: (وهن على الرجائز)، ويذكره عمرو ابن قميئة[3].

- **الغبيط**[4]: المركب الذي هو مثل أكف البخاتي، ويقبب بشجار، ويكون للحرائر وقيل: الغيد جمع غبيط، وهو الموضع الذي يوطأ للمرأة على البعير، كالهودج يعمل من خشب وغيره. يذكره امرؤ القيس[*].

- **الحرج**[6]: سرير، يحمل عليه المريض أو الميت، وقيل: هو خشب، يشد بعضه إلى بعض. وقيل: هو مركب للنساء، أو هو سرير للأموات، يذكره امرؤ القيس[7] بقوله:

فَإِمَّا تَرَيْنِي فِي رِحَالَةِ جَابِرٍ   عَلَى حَرَجٍ كَالقَرِ تَخفِقُ أَكْفَانِي

- **الحلس**[8]: هو كل شيء، ولي ظهر البعير والدابة تحت الرحل والقتب والسرج. وقيل: هو كساء رقيق، يكون تحت البردعة، والجمع: أحلاس. يذكره بشر بن أبي حازم[9].

- **السوية**[10]: كساء، يحشى بثمام أو ليف أو نحوه، ثم يجعل على ظهر البعير، وهو من مراكب الإماء وأهل الحاجة. وقيل: السوية الكساء، يحوي حول السنام للبعير، ثم يركب، والجمع: سوايا، يذكره جرير[11].

---

(1) ابن منظور - لسان العرب - ج٥ - ص٣٥٣.
(2) ديوان المثقب العبدي - ص١٥٠.
(3) ديوان عمر بن قميئة - ص٩٢.
(4) ابن منظور - لسان العرب - ج٧ - ص٣٦١.
(*) ديوان امرىء القيس - الأعلم الشنتمري - أشعار - ج١ - ص٣١.
(6) ابن منظور - لسان لعرب - ج٢ - ص٢٣٥.
(7) ديوان امرىء القيس - ص٩٠٠.
(8) ابن منظور - لسان العرب - ج٦ - ص٥٤.
(9) ديوان بشر بن أبي حازم - ص٥٠.
(10) ابن منظور - لسان العرب - ج١٤ - ص٤١٦.
(11) ديوان جرير - ج٢ - ص٧٩٢.

ـ **الكفل**[1]: من مراكب الرجال، وهو كساء، يؤخذ، فيعقد طرفاه، ثم يلقى بقدمه على الكاهل ومؤخرة مما يلي العجز، وقيل: هو شيء مستدير، يتخذ من خز أو غيره، ويوضع على سنام البعير وفي الحديث عن أبي رافع قال: ذاك كفل الشيطان، يعني مقعده، واكتفل البعير: جعل عليه كفلاً والكفل ما اكتفل به الراكب، وهو أن يدار الكساء حول سنام، ثم يركب، والكفل يجعل تحت الرحل، يذكره عمر بن أبي ربيعه[2].

ـ **القر**[3]: مركب من مراكب الرجال بين الرحل والسرج، وقيل: هو الهودج، يذكره امرؤ القيس[4].

---

[1] ابن منظور ـ لسان العرب ـ ج١١ ـ ص٥٨٨.

[2] ديوان عمر بن أبي ربيعه ـ ص١٧٨.

[3] ابن منظور ـ لسان العرب ـ ج٢ ـ ص٢٣٥.

[4] ديوان امرىء القيس ـ الأعلم الشنتمري ـ أشعار الشعراء ـ ج١ ـ ص٦٥ ـ ٨١.

الفصل الخامس

الفن الإسلامي

- المدينة الإسلامية في عصر الرسول وصدر الإسلام.
- أهم آثار العصر الأموي.



الفصل الخامس

الفن الإسلامي

إن الإنسان بالفطرة يستطيع التعبير عما يجول في نفسه، من آمال ومخاوف وحب وكره، من صدق وكذب من خير وشر وغير ذلك، وهذا التعبير وممارسته بأشكاله المختلفة وبمعرفة دقيقة، تجعل من الفرد فناناً، والفن كما هو معلوم ضروري للإنسان رغم الاختلاف في مدى استجابة وتذوق الفرد للفن...

إذن نشأ الفن مع بداية وجود الإنسان، والذي يمتاز بالعقل للتفكير، ثم يترجم هذا التفكير عن طريق العمل بالأيدي إلى واقع.

فعندما جاء الإسلام، دعا إلى عمارة الأرض في مختلف مجالاتها، والتفكير في الظواهر الكونية، والبحث عنها. من ذلك أخذ يبحث في هذا المجال، ويخرجه واقعاً ملموساً. ففي مجال العمران، ـ كالبناء ـ وقد وجدت خامات البناء بكثرة عند العرب، كالحجر والطوب بأنواعه والخشب، ووجد العقل ووجدت الأيدي العاملة. فكان تطور البناء وكانت المساجد، والأضرحة، والأسواق، والحمامات والبيمارستانات، وكانت الدور العامة، والدور الخاصة وهي متنوعة في شكلها ومضمونها.

لقد كان الفن عند العرب المسلمين مبتكراً أصيلاً في أكثر جوانبه . والأعمال التي وصلتنا تدل على أصالة وابتكار وخيال الفن العربي الإسلامي، وكان عبارة عن صياغة بطريقة جديدة للفن عند العرب قبل الإسلام أي أنه تأثر بجوهر العقيدة الإسلامية الجديدة، حيث امتاز الفن العربي بالبعد عن الترف وتحويل الخسيس إلى نفيس، كما امتاز بالبعد عن تصوير الكائنات الحية، وابتعد عن التجسيم. واعتمد الفن الإسلامي عناصر الزخرفة والتزيين معتمداً عناصر بنائية وهندسية وخطية وحيوانية وآدمية، ودمج بين بعضها أحياناً. ففي عصر الرسول (ص) كانت بداية فن العمارة بناء مسجد الرسول (ص) في المدينة. وفي عصر الخلفاء الراشدين، أنشئت البصرة والكوفة، وتتابع بناء المساجد والدور العامة كدور الإمارة والقصور، وغير ذلك كما سنرى.

دلت المنشآت العمرانية الأموية على خلق الحياة في الصحراء، وعلى احتفاظ الخلفاء الأمويين بطابعه العربي، فقد ظلوا يحنون إلى البوادي، ويتشوقون إلى الحياة فيها. كان بناء القصور جزءاً من البرنامج العمراني الذي رسمه الأمويون في عمران بلاد الشام.. ولم تكن العمارة العربية كما يصورها بعض مؤرخي الفن العربي، على أنها كانت مزيجاً من عناصر متفرقة من فنون عالمية، بل على العكس، كانت هناك عمارة عربية قوية منظمة مترفة.

وكان قصر الخضراء أول أعمال الأمويين ابتداء من معاوية. وقصر الخضراء هو دار الإمارة، يقع في جنوب الجامع الأموي محاذياً الجدار الجنوبي. ثم قصر الحجاج بن عبد الملك بن مروان عندما كان والياً على دمشق، ثم قصر الخليفة الأموي هشام، وغيرهما من القصور في دمشق، والتي لم يبق لها أثر يذكر. أما أعمالهم خارج دمشق فلا تزال آثارها باقية إلى اليوم.

وكان لمعاوية وأولاده منازل في منطقة طبرية[1] ويذكر المسعودي أن ليزيد بن معاوية قصراً في حوارين، وأقام ابنه خالد قصراً في البلقاء، أما مروان فيذكر ابن الأثير أن له قصراً في الجابية[2] وأما عبد الملك بن مروان، فقد أقام مسجد قبة الصخرة الذي أتمه ابنه الوليد، كما جدد المسجد الأقصى على بعد يسير من قبة الصخرة، وأما مكان إقامته فكان في دمشق وبنى لنفسه قصراً في قنسرين، كما أقام أبنية في بعلبك والجابية، بالإضافة لأبنية أخرى في فلسطين.

---

[1] عفيف بهنسي ـ القصور الشامية ـ مجلة الحوليات الأثرية السورية ـ ج٢٥ ـ ص١٤.

[2] ابن الأثير ج٤ ـ ص١١٦.

عندما تسلم الوليد الخلافة، كانت السلطة مستقرة، امتاز عهده بإقامة المنشآت، وكان ولعه بالبناء عظيماً. فوسع المسجد الحرام بمكة، ورمم مسجد المدينة، وبنى في الشام المدارس والجوامع، وأروع أعماله الجامع الكبير في دمشق. ومن مخلفاته أيضاً: قصر عميرة في الأردن، وقصر المنية قرب بحيرة النضارة في فلسطين، وقصر الحران في الأردن الذي أنشىء لأغراض دفاعية وقصر أسيس في جنوبي شرقي دمشق، وحمام الصرح الذي أنشىء ليكون منطلقاً لرحلات الصيد الخاصة.

واهتم الوليد بالعمارة الدينية في بيت المقدس[1]، واهتم بإعادة بناء مسجد النبي (ص) ومسجد الكعبة[2]، وعمل على بناء البيمارستان. ولعله أقام في قصر الحلابات، ثم خربة البيضاء أو القصر الأبيض، وإلى سليمان بن عبد الملك يرجع الفضل في إنشاء مدينة الرملة، عندما كان والياً على فلسطين، وأقام فيها داراً للصباغين[3]، ثم خطط المسجد، وشرع بناؤه قبل خلافته، كما بنى قصراً له هناك.

أما عهد عمر بن عبد العزيز، فتذكر بعض المصادر أنه أقام في دير سمعان، بينما يذكر محمد كرد علي أنه أقام في خناصرة[4]، وورث داره في دمشق من أبيه.

وهكذا كان لابد من الإشارة إلى أن الخلفاء الأمويين، قد استهوتهم حياة الصحراء، وهذه صفة يزيد بن الوليد بن عبد الملك، حيث كان مقر إقامته في قصر الموقر الذي بناه لخليلته ((حبابه))[5]، ويقع في البلقاء جنوب شرق الأردن.

ويعتبر هشام بن عبد الملك من أكثرهم اهتماماً بالمنشآت العمرانية.. وأكثرهم حباً لإظهار دولته، ويعتبر من أعظم الأباطرة[6] البنائين الذين كان لهم الباع الطويل في إنشاء الحضارة العمرانية

[1] عبد المنعم ماجد - ج٤ - ص١٩٨.

[2] المرجع نفسه - ج٢ - ص١٩٠.

[3] البلاذري - فتوح البلدان - ص١٤٤.

[4] خطط الشام - محمد مرد علي - ج - ص٢٨١.

[5] الأغاني - ج١٣ - ص١٦٥.

[6] سليم عادل عبد الحق - مجلة الحوليات الاثرية السورية طبعة دمشق - ١٩٥١ - مجلد أول - ص٧.

العربية. ومن أعماله العمرانية، أنه أمر حسان بن ماهوية الأنطاكي أن يبني المربض وحصن المنقب[1]، كما أمر ببناء حصن مورة، وحصن بوقا، من أعمال انطاكية[2]. وبنى قصراً في القطيفة[3].

ويذكر محمد كرد علي[4] ـ نقلاً عن وصف لحماد الراوية ـ دار هشام، بأنها كانت مفروشة بالرخام، وبين الرخام قضبان من ذهب، وحيطانه أيضاً كانت مرخمة، وبينهما أيضاً قضبان من الذهب. وأهم المهندسين المعماريين، الذين اعتمدهم، كما يعتقد، هم: حسان بن ماهوية الأنطاكي ـ سليمان بن عبيد ـ ثابت بن أبي ثابت. ومن الذين عملوا في مجال الهندسة من العرب زمن بني أمية ووفد إلى بلاد الشام المهندس عمر الوادي.

. المدينة الإسلامية في عصر الرسول وصدر الإسلام:

كل منا اطلع على قصة خلق آدم. قال تعالى: **﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾**[*] وخلق حواء وقصتهما في الجنة وهبوطهما إلى الأرض (اختلف في مكان هبوطهما).

وعرف آدم حواء امرأته فحبلت وولدت قابيل وقالت اقتنيت رجلاً من عند الرب ثم عادت فولدت أخاه هابيل راعياً للغنم وكان قابيل عاملاً في الأرض[6].

ووجدت من بعد أيام أن قابيل قدم من أثمار الأرض قرباناً للرب، وقدم هابيل أيضاً من أبكار غنمه ومن سمانها[7].

ما ورد يوضح أن الإنسان الأول عندما هبط إلى الأرض بأمر ربه استطاع أن يستغلها كما

---

[1] البلاذري ـ فتوح البلدان ـ ص١٦٩ ـ ١٧١.
[2] المرجع نفسه ـ ص١٦٨ ـ ١٧١.
[3] اليعقوبي ـ ص١١٢.
[4] محمد كرد علي خطط الشام ـ ج٥٥ ـ ص٢٨.
[*] القرآن الكريم ـ سورة البقرة ـ الآية /٣٠.
[6] التوراة ـ الإصحاح الرابع ـ سفر التكوين.
[7] المرجع نفسه.

استفاد من الحيوانات الموجودة عليها وأن يروضها لصالحه. يضاف لما ورد أن الإنسان منذ البدء استطاع أن يكون المجتمع الصغير نتيجة التزاوج الذي تم بين أبناء آدم حيث شكلت الخلية الأولى للمدينة، وأخذ الإنسان يبحث عن وسائل معيشية عن طريق العمل في الأرض وتربية الحيوانات وغير ذلك مما يساعده على الاستمرار والاستقرار.

وقصة ولدي آدم تذكر لنا كيف قتل قابيل أخاه حسداً وغدراً هذه الرواية تؤكد لنا أن الإنسان الأول أيضاً اكتشف وسائل القتل والتدمير وتؤكد أيضاً قدرة الإنسان على الأرض والسيطرة عليها. بعد قتل هابيل طرد قابيل من منطقة سكن أبيه وسكن في أرض نود شرقي عدن[1]، وهناك أخذ قابيل يبني مدينة فدعا اسم المدينة كاسم ابنه حنوك. إذن مدينة حنوك الواقعة حسب الرواية شرقي عدن تعتبر أقدم مدينة في التاريخ بعد عدن. ثم أخذت المدن تنتشر على الأرض العربية وأفضل دليل على ذلك أن أقدم مدن التاريخ وجدت على أرض العرب وعلى الأخص أرض بلاد الشام ومن هذه المدن مدينة دمشق ومدينة أريحا[2] واللتان تعتبران من أقدم المدن في التاريخ.

كما أن نشأة المدن وتخطيطها تطور في مصر وعلى الأخص في عهد الفراعنة وبرزت فكرة تخطيط الشوارع المستقيمة المنتظمة التي تقطعها شوارع عريضة مستقيمة أيضاً ضمن هذه المدن، أي أن الشوارع كانت عبارة عن شبكة تقطع المدينة من الغرب إلى الشرق ومن الشمال إلى الجنوب وهذه الشبكة تشبه رقعة الشطرنج، كما عرفت المدن العربية القديمة عملية تقسيم في طبقاتها الاجتماعية حيث قسمت المدن إلى قسمين أحدهما للطبقة الممتازة والقسم الآخر للعامة.

أما المدن الإسلامية فقد تم إنشاؤها بعد تحديد المكان الذي يشمل أفضل استخدام للموارد البيئية ثم تبدأ عملية تخطيط المدينة وفق شروط مرسومة على أسس دينية (المسجد الجامع) وسياسية (دار الإمارة وبيت المال) واقتصادية (السوق) يضاف لما ورد المرافق العامة. ومن المعلوم أن الأهداف التي أنشئت من أجلها المدن الإسلامية هي عديدة لكن كان أهمها أن المدينة أنشئت أو مصرت في

---

[1] العهد القديم والجديد - سفر التكوين - الإصحاح الرابع وعدن مدينة مشهورة على ساحل البحر من ناحية اليمن - ياقوت الحموي - معجم البلدان - ج٤ - ص٨٩.

[2] أريحا: مدينة الجبارين في الغور من أرض الأردن بالشام - بينها وبين بيت المقدس يوم للفارس في جبال صعبة المسالك - ياقوت الحموي - ج١ - ص١٦٥.

البداية كعاصمة أو حاضرة للدولة الناشئة، وهذا ما حدث عندما مصرت يثرب وأصبحت عاصمة الدولة العربية الإسلامية ومنها ما كان على هيئة معسكرات حربية إلا أن هذا النموذج تطور مع مرور الزمن إلى مدن كالبصرة والكوفة والفسطاط والقيروان وغيرها. إذن لقد اهتم العرب المسلمون باستحداث المدن وبنائها منذ بداية حركة الفتح وأنشئ بعضها في البداية لتكون معسكرات ومقرات للجند ثم تحولت بمرور الزمن إلى مدن معاصرة.

وتعتبر البصرة أول مدن المعسكرات بناها عتبة بن غزوان بعد أن حصل على موافقة الخليفة الراشدي عمر بن الخطاب عندما كتب إليه بذلك سنة (١٤هـ). بعد اختيار المكان تم انتقاء موقع المسجد ثم بنى عتبة دار الإمارة دون المسجد في الرحبة التي يقال لها اليوم رحبة بني هاشم، وكانت تسمى الدهناء وفيها السجن والديوان[1] كذلك فعل الخليفة نفسه مع سعد بن أبي وقاص عند بناء الكوفة، والتزم عمرو بن العاص بما ورد عند بناء الفسطاط على الضفة الشرقية لنهر النيل.

كانت مدن المعسكرات الإسلامية عند إحداثها تعتبر قواعد عسكرية تستطيع الدولة عن طريقها فرض سيطرتها، وإحكام قبضتها على الأقاليم ومواجهة أي تهديد خارجي قد يقوم به العدو وكانت أيضاً مراكز متقدمة تنطلق منها الجيوش العربية الإسلامية لاستكمال الفتوحات. فالكوفة مثلاً كانت قاعدة لأمير الجيوش العربية المنطلقة في فتوحاتها نحو المناطق الشمالية من أملاك الدولة الرومانية، كما كانت البصرة معسكراً للجند وقاعدة للجيوش التي كلفت بالفتوحات نحو المناطق الشرقية من أملاك فارس وغيرها في هذا الاتجاه ثم أصبحت بعد أن ضمت الكوفة إلى البصرة مقر قائد الجيوش الإسلامية في المشرق الإسلامي ولعبت الفسطاط دوراً بارزاً في فتوح المغرب العربي أما القيروان فكان بناؤها سنة (٥٠هـ) حدثاً هاماً في تاريخ المغرب العربي حيث انفصلت إمارة المغرب عن مصر وأصبحت مركزاً لوالي المغرب العربي.

هذه المدن الأربعة هي أول وأهم المدن العسكرية التي شيدت في بداية تاريخ الإسلام وكان لبناء هذه المدن وبهذه الشروط دوافع أخرى غير العسكرية من هذه الأغراض: حرص عند بنائها على توفير أكبر قدر مستطاع من المزايا الصحية للجند كجفاف الجو وطيب الهواء مما يضمن للجند حسن المقام والاحتفاظ بسلامة أجسامهم وقوة معنوياتهم. ومن المعلوم أن المدن هذه كانت عند

---

[1] البلاذري - فتوح البلدان - تحقيق عبد الله أنيس الطباع - طبع بيروت ١٩٨٧ - ص٣٤٢.

بنائها قاصرة على احتواء المقاتلين من العرب فقط إلا أنها بعد ذلك فتحت أبوابها لتستقبل أسر الجند وأهاليهم وبذلك اجتمع الشمل وزالت أسباب المعاناة النفسية والمعيشية وغيرها من المشاكل التي كانت تولد الفرقة عند المقاتلين.

ثم اتسعت دائرة هذه المدن وازداد عمرانها بالعناصر التي قامت داخلها، وامتزجوا بعضهم ببعض وتصاهروا وتزاوجوا بذلك تحولت هذه المدن بعد هذه التغييرات الاجتماعية وما تبعها من تطور ونمو في الحياة الاجتماعية والاقتصادية إلى مدن كبيرة شاملة جامعة.

أهم الميزات التي كانت سائدة عند بناء مدن المعسكرات:

١ ـ اختيار المكان والمساحة المطلوبة التي يقام عليها البناء بعد هذا التحديد كانت تحدد بسياج من المواد المتوفرة في المنطقة كالقصب كما حدث عند بناء البصرة والكوفة ثم استغني عن القصب كونه مادة قابلة للاحتراق وعمره قصير باللبن.

٢ ـ تخطيط المكان وأول ما كان يخطط له هو المسجد الجامع كأن يكون في قلب المعسكر وإلى جواره كانت تقام دار الإمارة قصر الوالي ومركز ممثل السلطة التنفيذية في الدولة.

٣ ـ بيت المال كان يخطط له ويقام بجوار المسجد الجامع في أغلب الأحيان أو ملاصقاً له من ناحية جدار القبلة لأن المسجد يبقى دائماً آهلاً وعامراً بالمصلين ليلاً نهاراً فيأمن بذلك بيت المال[1] من العبث به.

٤ ـ أما الخدمات العامة وعلى رأسها السوق فكان يقام في المنطقة الخالية من البناء حول الأبنية الواردة الذكر فالمسجد ودار الإمارة وهذه المنطقة المحيطة بدار الإمارة والمسجد كانت خالية من البناء ومفتوحة أمام جميع التجار.

٥ ـ خطط القبائل والقطائع وخصصت لمنازل الجند ودورهم، أي أن هذه المدن امتازت بظاهرها القبلي في التوزيع السكاني. وكانت المدينة تتألف من كتلة متشابكة من البيوت المنخفضة مرتبطة بعضها ببعض بدهاليز من الممرات المتعرجة والباحات الصغيرة وهذه الدهاليز قد تؤدي إلى المسجد الجامع في أكثر الحالات أو إلى دار الإمارة أو إلى الأسواق، ومن المعلوم أن الأسواق الإسلامية امتازت بأنها كانت صاخبة على عكس الأحياء التي تمتاز بسكونها، ومن المظاهر الأخرى

---

[1] الطبري ـ تاريخ الرسل والملوك ـ ج٤ ـ ص٤٦.

للمدينة الإسلامية في البداية أنها كانت على شاكلة المخيمات الدائمة المتوضعة في أمكنة وفق شروط مناسبة كما ذكرنا وكانت مهمتها في البداية احتضان المقاتلين المسلمين ووجودها قرب الحدود المعادية.

والمطلع على المواد التي بنيت بها المساكن يلاحظ أن هذه الإقامة كانت مؤقتة في البداية لأنها أنشئت آنذاك كمقر لقيادة وتجميع القوات، لكن مع تقدم الفتوحات كانت القوات تترك هذا المكان إلى مكان أفضل يساعدها في الجهاد وفعلاً تم ذلك وتحولت هذه المعسكرات فيما بعد إلى مدن، ولتأكيد ما ورد يقول البلاذري (فكانوا إذا غزوا نزعوا القصب وحزموه حتى يرجعوا من الغزو فإذا رجعوا أعادوا بناءه فلم يزل الحال كذلك).

ما ورد يؤكد لنا التدرج في عملية بناء البلاد من مخيم ومعسكر إلى مدينة فرضتها العودة إلى هذا المكان الذي قررته القيادة السياسية والعسكرية للقوات الإسلامية.

ولدت المدينة نتيجة التطور الحضاري بذلك يمكن القول إن المدن اختلفت باختلاف الحضارات ولكل منها طابع وخصائص ونمط وفكر أي أن المدينة كانت صورة عن الحضارة في كل مكان، والمدينة العربية في صدر الإسلام كانت نتيجة حضارة العرب قبل الإسلام وزادت نتيجة التطور فأصبحت المدينة العربية الإسلامية اعتباراً من صدر الإسلام صورة عن المجتمع العربي وعن نظمه السياسية والعسكرية ومركز اقتصاده وإدارته ومكان مؤسساته الثقافية ومرافقه العامة. أي أن المدينة العربية أصبحت ذات طابع مميز مع احتفاظها بخصائص وجذور المدينة العربية التي كانت موجودة قبل الإسلام.

من ذلك نلاحظ أن جذور المدينة العربية الإسلامية بمواصفاتها الحضارية وجدت مع وجود الإسلام فالرسول (ص) كان من أوائل أعماله بعد هجرته هو تخطيط مدينة يثرب وبناء المسجد الجامع للناس كمكان للعبادة، ثم بناء بيت الرسول الكريم (ص) كمقر للنظام الجديد وبعد التآخي الذي أقره الرسول (ص) منح القطائع للمهاجرين يعمرونها ووضع دستوراً للدولة بذلك تعتبر يثرب أول مدينة وضعت بعد الإسلام بمواصفات مدينة حضارية أو عاصمة حضارية لدولة كانت في بداية تكوينها.

ونظراً لعظمة اللغة العربية ومفرداتها المتطورة ومصطلحاتها الواسعة فقد تعددت منذ البداية التسميات لأماكن التجمع السكاني من ذلك: ـ **المصر**: وهو كل كورة تقام فيها الحدود ويقسم فيها الفيء وقيل للمصر فيما بعد العاصمة، ـ **القصبة**: تعني مركز المدينة وموقع الحركة واللقاء، ـ **الحاضرة**: هم سكان المدن والقرى، ـ **المدينة**: مكان محدد تجتمع فيه الناس لهم نشاطات اقتصادية وتقوم فيها سلطة سياسية. **بلد (بلدة) ـ حوز (كورة) ـ قرية**: يغلب فيها الطابع الزراعي إضافة إلى بعض معالم في المدينة كالسوق والجامع والمنبر والبناء، ـ **عمل ـ مدره** ـ واستعملوا لما يحيط بالمدن تسميات مختلفة منها: **الريف ـ الضيعة ـ الربض**: هو ما حول المدن ويكون تابعاً لها، ويكون خارج أسوارها.

ـ **الضاحية**: الناحية أي ظواهر المدن، الغوطة: اسم خاص بارياض دمشق، وهذه التسميات المختلفة دليل على وجودها ومعايشتها وسهولة التعبير عنها بأسماء وتعابير مختلفة.

ووردت هذه التسميات في القرآن الكريم من ذلك قوله تعالى ﴿**وَجَاءَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ**﴾[1] ووردت كلمة المدينة في آيات كثيرة من القرآن الكريم من ذلك الآية (٥٣) من سورة الشعراء، الآية (٣٠) من سورة يوسف، الآية (١٩) من سورة الكهف، الآية (٢٠) من سورة يس، الآية (٨٢) من سورة الكهف الآية (٤٨) من سورة النمل أما كلمة القرية فقد وردت بقوله تعالى: ﴿**وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ**﴾[2] كما ورد لفظ البلد مراراً عديدة في القرآن الكريم بقوله تعالى: ﴿**وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ وَطُورِ سِينِينَ وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ**﴾[3] كما وردت كلمة قرية مراراً من ذلك قوله تعالى: ﴿**وَلِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا**﴾[4] كما وردت في الحديث الشريف بكل الألفاظ الواردة سابقاً.

إذن ولدت المدينة مع بداية الإسلام على يد الرسول العظيم النبي محمد (ص) عندما هاجر إلى يثرب فحولها إلى مدينة واهتم بشق الطرق فيها وتنظيمها وأمر بصيانة الطرق كما أمر بالرقابة على

---

(1) سورة الحجر ـ الآية / ٦٧.

(2) سورة الاعراف ـ الآية / ١٦٣.

(3) سورة التين ـ الآية / (١-٣).

(4) سورة الانعام ـ الآية / ٩٢.

الأسواق وحصن المدينة وأقام المعسكرات وأحيا الأرض.

كانت دار الرسول (ص) عبارة عن عدة حجرات على نسق واحد شكل الغرفة مربع طولها (٨-٩) أذرع وعرضها من (٤-٤,٥) أذرع كانت جدرانها عبارة عن أكسية من الشعر مربوطة بخشب من العرعر وبعضها باللبن، ولكل حجرة عند مدخلها حجرة أخرى تحجب ما بداخل الحجرة الكبيرة وسقوف الغرفة من جذوع النخل والطين وضمن مخطط البيت كان بيت الخلاء.

ومن أهم المدن الإسلامية: البصرة: بنيت بأمر الخليفة عمر بن الخطاب وكانت في البداية عبارة عن معسكر للمسلمين ثم مصرها عتبة بن غزوان[١] . **مدينة جبلة**[٢]: فتحها أبو عبيدة وجلا عنها أهلها فانشأ معاوية مدينة جبلة وشحنها بالرجال وبنى بها حصناً، **حلوان**[٣] : اختطها عبد العزيز بن مروان عندما ولي مصر وضرب فيها الدينار وبنى فيها دوراً وقصوراً. رصافة هشام ابن عبد الملك بناها عندما وقع الطاعون بأرض الشام، **الرملة**[٤] : مصرها سليمان بن عبد الملك عندما ولي جند فلسطين، **الفسطاط**[٥]: بناها عمرو بن العاص، **القيروان**[٦]: بناها عقبة بن نافع الفهري، **الكوفة**: مصرت في عهد عمر بن الخطاب في السنة التي مصرت فيها البصرة سنة (١٧هـ) أو التي تليها، **واسط**[٧]: عمرها الحجاج بن يوسف الثقفي سنة (٨٤هـ)، وفي عهد مروان بن محمد مصرت الموصل[٨]. هذا مع العلم أن مدن الوطن العربي آنذاك كانت آرامية عربية الأصل وقد حررت من الرومان فعادت إلى أصلها واندمجت مع التطور الجديد.

---

[١] شاكر مصطفى ـ المدن في الإسلام حتى العصر المملوكي ـ طبع دمشق ١٩٩٧ ـ ج١ ـ ص١٩٠.

[٢] قلعة مشهورة بساحل الشام من أعمال حلب قرب اللاذقية ـ معجم البلدان ـ ياقوت الحموي ـ ج٢ ـ ص١٠٥

[٣] حلوان: من أعمال مصر بينها وبين الفسطاط نحو فرسخين من جهة الصعيد مشرفة على النيل ـ أول من اختطها عبد العزيز بن مروان لما ولي مصر ـ ياقوت الحوي ـ المعجم ـ ج٢ ـ ص٢٩٣.

[٤] الرملة: مدينة عظيمة بفلسطين ـ معجم البلدان ـ لياقوت الحموي ـ ج٣ ـ ص٦٩.

[٥] الفسطاط: كل مدينة فسطاط ومنه قيل لمدينة مصر التي بناها عمرو بن العاص الفسطاط ـ ياقوت الحموي ـ المعجم ـ ج٤ ـ ص٢٦٤.

[٦] القيروان: مدينة مصرت في الإسلام أيام معاوية ـ ياقوت الحموي ـ المعجم ـ ج٤ ـ ص٤٢٠.

[٧] واسط: مدينة بالعراق بين البصرة والكوفة ـ ياقوت الحموي ـ المعجم ـ ج٥ ـ ص٣٤٧.

[٨] الموصل: تقع على طرف دجلة ومقابلها من الجانب الشرقي نينوى وسميت الموصل لأنها تصل الجزيرة بالعراق ـ ياقوت الحموي ـ المعجم ـ ج٥ ـ ص٢٢٣.

إذن تكونت المدينة العربية بصورة عفوية خلفتها الضرورة وامتازت بأن أزقتها ضيقة وملتوية والأسواق فيها غطيت بقبوات خشبية أو معدنية وهي ضيقة شبه مستقيمة تقوم على طرفيها الحوانيت المختلفة وارتفاع أبنية المدينة تكاد تكون واحدة فالبيوت فيها لا تزيد عن طابقين، والمساكن تلتصق بعضها ببعض أي أنها متداخلة، وأحياناً تفصلها الأزقة والدروب الضيقة، والمساكن فيها تنفتح على فناء داخلي يسمى الصحن الذي تنفتح عليه الغرف، ويفتح على الصحن قاعة تسمى الإيوان الذي يستقبل فيه الضيوف، وارتفاع سقف القاعة الكبرى والإيوان ضعف ارتفاع سقوف الغرف الأخرى.

والمساكن تحتوي برك تتوسط الصحن يبلغ قطرها (٣ ــ ٦م) كما تضم فستقيه صغيرة قطرها متر وتصنع من الرخام والفسيفساء الرخامي الهندسي كما تضم سلسبيلاً يسيل من أعلاه الماء وكان الاهتمام بالمياه عبارة عن محاولة لتلطيف الجو داخل المسكن، وكانت المساكن في الداخل منفتحة نحو السماء على العكس كانت منغلقة من الخارج نسبياً وحول الصحن كانت الأشجار المثمرة والزهور والورود.

أهم آثار العصر الأموي:

الفن البيزنطي كان زخرفةً وتجميلاً وتصويرًا للأماكن المقدسة كالتكريم الذي كان يتم للسيد المسيح والعذراء والكنائس وما شابهها ولم يكن فناً بالمعنى الصحيح، وإن الفن الصحيح ابتداء مع عصر النهضة والفن العربي الذي بدأ مع عصر النهضة ليس هو مقياس الفنون كلها وليس هو الفن العالمي وانتشار فن النهضة كان نتيجة النفوذ الغربي خلال هذه المرحلة.

لكل عصر فنه وللعرب المسلمين فنهم ابتداء من عصر الرسول (ص) إلا أنه كان متغيراً دائماً لكن باتجاه الأفضل والمتطور أكثر فأكثر، إلا أنه يمكن القول إن الفن العّربي بعد الإسلام ارتبط في بعض جوانبه بالفن العربي الذي كان سائداً قبل الإسلام، كالفن العربي عند الفراعنة المصريين، أيضاً الفن الأكادي والآشوري، والبابلي وأيضاً الفن الآرامي الذي كان سائداً في بلاد الشام.

إضافة إلى الفنون الفينيقية التي كانت سباقة ورائجة في العالم ورواجه وانتشاره كان نتيجة السيطرة على الطرق التجارية البحرية العالمية، وقدرتهم العالية على بناء المستوطنات في الأماكن التي

تعاملوا معها، إذن سيطرتهم على التجارة العالمية خلال مرحلة ساعدتهم على نشر فنهم في كل مكان وصلوا إليه حتى يذكر أنهم وصلوا إلى أمريكا، وهم أول من اكتشفها في العالم قبل كولومبس بآلاف السنين، وتركوا أثراً فنياً فيها يؤكد براعتهم الفنية آنذاك.

إذن الفن القديم كما أعتقد كان يرتبط بالفن العربي القديم وهو أساسه وليس كما يذكر عن الفن الروماني أو أي فن آخر، وأكبر دليل على ذلك الفن المصري القديم الذي ما زال إلى يومنا هذا قبلة العالم وإليه تتجه الأنظار من كل أصقاع الأرض. بالإضافة إلى الفن العراقي القديم الذي اعتبر البداية الأولى للفن، ذلك الفن الذي كان الأسبق بكثير من مجمل الفنون العالمية.

نعود إلى الفن العربي بعد الإسلام عندما بعث النبي العربي محمد (ص) بعث صاحب رسالة سماوية بعث هادياً بعث لنبذ كل ما يخالف الأديان السماوية المنزلة من رب العالمين ولتحطيم كل ما يقف دون تحقيق ذلك، فعندما جاء الإسلام ونشر النبي (ص) تعاليمه لم يلغ الفن كما يعتقد أو يمنعه، إنما استمر الفن مستمداً أصوله من تقاليد الفن العربي القديم الذي كان سائداً في مصر وسورية والعراق كما هو معروف، وأخذ الإسلام أبعاداً جديدة فاعتمد المبادئ الروحية الواضحة القائمة على التوحيد التي شملت جميع النشاطات ومنها النشاط الفني.

فالفن الأموي الذي ما زال قائماً حتى تاريخه في القصور الأموية كما في قصر الحير الشرقي والغربي لأكبر دليل على تمثل العرب بالأسس الفنية العربية والصور التشبيهية الموجودة في هذه القصور تؤكد سيطرة الروح العربية على قواعد التصوير التي كانت سائدة عند من سبقهم وخاصة الفن الساساني والروماني الذي كان مستمداً في الأصل من الفن العربي القديم كما ذكرنا ومنع العرب لبعض الفنون كالتماثيل والصور والرسوم وغيرها لأنها كانت تمثل مفاهيم وثنية وهي مجافية للقيم التي وضعها العرب بعد الإسلام وتحمل أسماء آلهة أو غير ذلك مما يتنافى مع الإسلام، والدين الجديد حارب ذلك من أساسه من الناحية الروحية وليس من الناحية الفنية، و لم يلغ العرب منذ البداية الفن المرتبط بالتراث القومي والتقاليد التي كانت سائدة وغير المرتبطة بالروح، إذن اعتمد العرب المسلمون الفن الموضوعي المرتبط بالحياة الاجتماعية والاقتصادية والفكرية والسياسية والعسكرية التي لا تؤذي ولا تضر المعتقدات الدينية ولا تؤثر عليها.

وامتاز الفن الإسلامي بأنه كان يتمثل في أشكال مجردة نباتية أو هندسية أطلق عليها اسم الرقش العربي يختلط فيها أو يماثلها فن الخط العربي المتعدد الأشكال والرقش اعتمد أشكالاً هندسية تقدم تشكيلات ثلاثية أو رباعية وخماسية مع مضاعفاتها وأطلق على هذا النوع من الرقش اسم الخيط ويمتاز هذا النوع بالعقلانية والدقة والنظام، أما النوع الثاني فقد استمدت عناصره من الأشكال النباتية وأطلق عليه اسم الرمي ويمتاز هذا النوع بالعفوية والانسياب. ونوع ثالث مشترك بين الاثنين هو الخط العربي. إذن استمد فن التصوير الإسلامي شخصيته من الدين الجديد كما اصطبغ الفن بالطابع الروحاني، حيث يقوم على فكرة فلسفية عقائدية هي فكرة البقاء السرمدي.

والخط العربي يمثل ذروة الإبداع في الفن العربي ومن أوائل أشكال الخط التي ظهرت أيام الرسول الخط المكي والمدني، والخط المزوي، ومنشأة الكوفة، وفي عهد الخليفة عمر بن الخطاب ظهر الخط المشقق وفي عهده أيضاً ظهر الخط الكوفي، وفي العهد الأموي ظهر الخط الشامي، ويقال: إن الخطاط قحطبة المحرر هو أول من أبدع الخط العربي، واشتهر من الخطاطين في العهد الأموي مالك بن دينار، وخالد بن أبي الهياج، وشعيب بن حمزة، وإسحاق بن حماد، وإبراهيم الشجري.

المساجد:

يعتبر القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة المصدرين الأساسيين للتشريع الإسلامي فبواسطتهما أمكن للشرع الإسلامي استخلاص القوانين والتشريعات الدينية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية والعسكرية وبذلك أصبحت أساساً لأصول التشريع في دولة الإسلام الكبرى بعد الفتوحات.

من المعلوم أن الإنسان هو محور كل حضارة كونه أداتها بعقله وفكره وهو هدفها وغايتها، لذلك حظي الإنسان في الديانة الإسلامية بمكانة خاصة حيث فضل على كل ماعداه من مخلوقات، ولتأكيد ذلك نورد بعض الآيات من القرآن الكريم. ١ ـ ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾[1]. ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾[2]. بذلك يعتبر الإسلام بحق وصدق دين الفكر والعلم والمعرفة.

---

[1] سورة الاسراء ـ الآية / ٧٠.

[2] سورة النبأ ـ الآية / ٤.

لقد كان المسجد يحتل رأس قائمة المنشآت التي اهتم بها الإسلام منذ هجرة الرسول الأعظم من مكة المكرمة إلى المدينة المنورة واستقراره بها حيث شارك بنفسه في عمارة المسجد النبوي فكان ينقل الحجارة مع الصحابة للبناء، و لم يبق هذا المسجد على حاله لكن تناولته يد التعمير والتجديد والتوسع على امتداد العصور والأزمنة حتى أصبح من أكبر وأعمر مساجد الدنيا.

وللمساجد دوافع متعددة غير الدافع الديني في عهد الرسول (ص) حيث كان المسجد هو المقر الرسمي الذي يلتقي فيه بكبار الصحابة وأهل الرأي من المهاجرين والأنصار بل ومع المسلمين عامة يشاورهم في أمور الدين، فاتخذ له مجلساً في (أسطوانة التوبة)، بجوار السارية[1]. فكان (ص) بعد انتهائه من الصلاة يتوجه إلى مجلسه المخصص وقد سبقه المسلمون والضعفاء والمؤلفة قلوبهم وغيرهم، فكان (ص) يعلمهم ويفقههم في الدين ويتلو عليهم ما أنزل الله عز وجل عليه.

كذلك كان المهاجرون من قريش يجتمعون في مكان آخر بالمسجد عرف بأسطوانة القرعة (أسطوانة عائشة) حتى اشتهر بمجلس المهاجرين كذلك جعل الرسول (ص) في مسجده مكاناً معيناً عرف بأسطوانة الوفود يلقى بها وفود القبائل العربية وغيرهم من السفراء والمبعوثين إليه لأي أمر من الأمور كطلب لعهد أو تجديد، أو تقديم الجزية وأموال الصدقة وغيرها من الأموال، أو للدخول في الدين الجديد وإعلان الطاعة وأمور أخرى لها علاقة بأمور الدولة الناشئة الجديدة.

وساعد على استكمال الدور القيادي لمسجد المدينة أن النبي (ص) بنى مساكن ملاصقة للمسجد من جهاته الثلاث شمالية وجنوبية وشرقية، فكان (ص) يخرج من دار من دوره إلى المسجد مباشرة كذلك كانت دار ابنته السيدة فاطمة الزهراء ملاصقة لدار رسول الله. لذلك اتسعت الأبنية حول المسجد فأصبح المسجد قلب المدينة النابض بالحياة ومركز خدمة المجتمع الإسلامي، ومجمع أهل الرأي والشورى ومحور أنشطة الدولة ومصالحها المتعددة. حتى وصف هذا المسجد فيما بعد بأنه كان مركزاً للصلاة والتعليم والسياسة وعقد الألوية والرايات وتأمير الأمير وتعريف العرفاء وغير ذلك.

---

[1] سميت بذلك لأن السارية هي التي شد فيها بالباة بن عبد المنذر الروسي نفسه قبل أن ينزل الله تعالى توبته في قصته المعروفة مع يهود بني قريضة.

أقسام المسجد (الجامع) الرئيسية:

يمتاز المسجد الجامع بعناصر معمارية كان أهمها:

١ - **بيت الصلاة**: وهو أهم أجزاء المسجد الجامع ويحتوي بيت الصلاة الممرات الموازية لجدار القبلة الذي يتوسط المحراب ويعرف بالأساكيب كما يحتوي البلاطات وهي ممرات عمودية على هذا الجدار ويتكون من تقاطع الأساكيب والبلاطات وبين كل أربعة أعمدة مساحة عرفت باسم أسطوانة كانت تعقد فيها حلقات الدرس.

٢ - **الصحن**: وهو قسم غير مسقوف ترك هكذا ليساعد على وصول الضوء إلى بيت الصلاة.

٣ - **المجنبات**: وهي الأروقة المسقوفة التي تحيط بالصحن من جهاته.

٤ - **المئذنة**.

٥ - **المنبر**: وكان يصنع إما من الخشب وإما من الرخام، وموقعه بجانب المحراب.

٦ - **المقصورة**: وهي حاجز خشبي وتخصص للخليفة وحاشيته وكبار رجال الدولة كما فعل زياد ابن أبيه في مسجد الكوفة.

٧ - **الكراس**: وهو من الأثاث المستحدث وكان يتخذ منه المقرىء مكاناً يجلس عليه لتلاوة القرآن الكريم. **ومن أهم المساجد:**

أولاً - البيت العتيق: هو أقدم منشأة تحمل قدسيتها عند العرب ورد ذكرها في القرآن الكريم[1] والذي بناه كما هو معروف هو إبراهيم الخليل[2] بمساعدة ابنه إسماعيل وقد ورد أيضاً في القرآن الكريم وكان بناؤه من الحجر ولم يجعل له سقفاً أو باباً أو منفذاً، وأعيد بناؤه في عهد جرهم ورمم في عهد خزاعة قبل الإسلام، أصيب بحريق فتصدع فأعادت قريش بناءه وقد ساعد الرسول (ص) في بنائه، وكان ارتفاعه (٥,٢٥م) أعادت قريش بناءه وسقفه وجعلوا فيه ستة

---

(١) عفيف بهنسي - الفن الإسلامي - طبع دمشق ١٩٦٨ - ص١٣٧.

(٢) سورة آل عمران - الآية / ٦٩ - سورة الحج الاية / ٢٧.

دعائم في صفين وكان ارتفاعه من الخارج (١٠,٥) وجعلوا له باباً ودرج يصعد منه إلى أعلاه وأعادوا إليه الحجر الأسود وسقفوه.

وعندما أعلن ابن الزبير نفسه خليفة عام (٦١هـ) هدم الكعبة وأعاد بناءها وزينها بالفسيفساء وفتح لها أبوابا ونوافذ ثم أعاد الحجاج بعد القضاء على ابن الزبير بناءها وجعل لها باباً واحداً وعندما حج عبد الملك بن مروان أمر بتجديد سقف المسجد الحرام المحيط بالكعبة بخشب من الساج، وأمر عامله خالد القسري بإضاءة ما بين الصفا والمروة وأمر باتخاذ مصابيح كبيرة مقابل الركن الأسود ثم أنشأ للمصابيح عموداً وهو أول عمود اتخذ في المسجد الحرام وأهدى إلى الكعبة شمسيتين من الديباج وقدحين من الزجاج وفي عهد الوليد أعيدت عمارة المسجد بشكل أفضل وسقف بالخشب المزخرف.

ثانياً ـ مسجد الرسول في المدينة[1] : هو أول مسجد حدد الرسول (ص) مخططه بعد الهجرة وهو أول مسجد في الإسلام بعد مسجد قباء وكان مؤلفاً من حرم في الشمال محدد بعضادات من جذوع النخل ومغطاة بغصون الأشجار وفي الجنوب أقيمت مظلة أخرى، وأنشأ الرسول (ص) مسكنه في الركن الجنوبي الشرقي خارج حدود المسجد.

وفي العصر الأموي ضم مسكن الرسول (ص) إلى المسجد وفي صحن المسجد أقيمت الروضة وكانت مخصصة للقاء الرسول (ص) مع أصحابه وكان للمسجد باب واحد من الغرب اسمه باب عاتكة، وكان للمسجد قبلة مبنية من اللبن تتجه إلى بيت المقدس ثم حولت باتجاه الكعبة (المسجد الحرام). جدد هذا المسجد في عهد الخليفة عمر وعثمان الذي بناه من الحجارة المنقوشة وأصبحت أبعاده (٦٠، ٦٢، ٥٠، ٧٢م) وجعل أبوابه ستة منها باب جبريل ـ باب النساء ـ باب الرحمة ـ باب السلام.

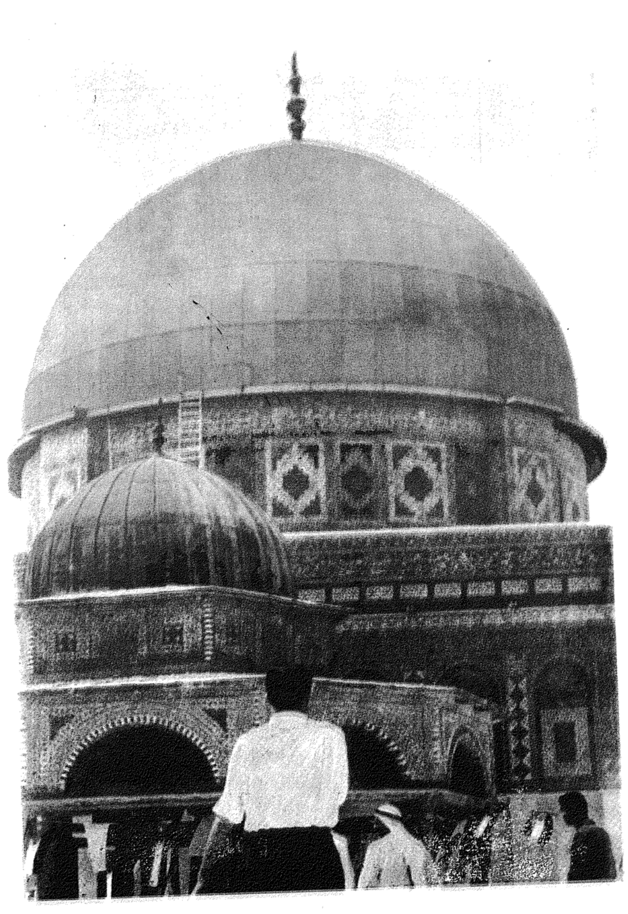
في العهد الأموي أمر الوليد بن عبد الملك بإنشائه من جديد وأشرف عليه عمر بن عبد العزيز عندما كان والياً على المدينة عام (٦٠٧م) وانتهى في عام (٧١٠م) وكان في المسجد أربع مآذن في أركانه أزال سليمان بن عبد الملك واحدة منها وهي الجنوبية الغربية لإشرافها على مسكنه، ثم

---

[1] ارنست كوتل ـ الفن الإسلامي ـ ترجمة أحمد موسى ـ طبع بيروت دار صادر ١٩٦٦ ـ ص١٧ـ١٨ ـ ياقوت الحموي ـ معجم البلدان ـ ج٥ ـ ص١٤٤ ـ عفيف بهنسي ـ الفن الإسلامي ـ ص١٣٧.



المسجد النبوي الشريف في المدينة المنورة



قبة الصخرة بعد ترميمها وتجديد سقفها

أزيلت اثنتان أخريان هما الشماليتان فبقيت واحدة هي عبارة عن برج مربع طول ضلعه (٤,٥م) وارتفاعه (٢٩م)، ولما ولي الوليد بن عبد الملك واستعمل عمر بن عبد العزيز على المدينة أمره بهدم المسجد وبنائه فاستعمل عمر على ذلك صالح بن كَيسان وكتب الوليد إلى ملك الروم يطلب منه عُمّالاً وأعلمه أنه يريد عمارة مسجد النبي، صلى الله عليه وسلم، فبعث إليه أربعين رجلاً من الروم وأربعين من القفط ووجّه إليه أربعين ألف مثقال ذهباً وأحمالاً من الفُسَيْفساء، فهدم الروم والقفط المسجد وخمّروا النورة للفسفساء سنة وحملوا القصّة من بطن نخل وعملوا الأساس بالحجارة والجدار والأساطين بالحجارة المطابقة وجعلوا عمد المسجد حجارة حشوها عمد الحديد والرصاص، وجعل عمر المحراب والمقصورة من ساج وكان قبل ذلك من حجارة وجعل طول المسجد مائتي ذراع وعرضه في مقدمه مائتين وفي مؤخره مائة وثمانين وهو سقف دون سقف، قال صالح بن كيسان: ابتدأتُ بهدم المسجد في صفر سنة ٨٧ وفرغت منه لانسلاخ سنة ٨٩ فكانت مدة عمله ثلاث سنين، وكان طوله يومئذ مائتي ذراع في مثلها[1] .

ثالثاً ـ مسجد قبة الصخرة[2]: من أقدم المساجد الأموية وهو فريد من نوعه وكان سبب بنائه أن عبد الملك بن مروان كان قد منع الناس من الحج إلى بيت الله الحرام عندما أعلن ابن الزبير نفسه خليفة فبنى على الصخرة قبة وعلق عليها ستور الديباج وأقام لها سدنة وأمر الناس أن يطوفوا حولها كما يطوفون حول الكعبة، ثم بنى المسجد وولى عمارته رجاء بن حياة ويزيد بن سلام، وكان قد رصد له خراج مصر سبع سنين انتهى من عمارته سنة (٦٩٦م).

مخطط المسجد ثماني طول كل ضلع (٢٠,٢٥م) تغطي الصخرة المشرفة قبة متطاولة قطرها (٢٠,٤٤م) وارتفاعها (٣١,٥م) مؤلفة من طبقتين الأولى عليا مكسوة بصفائح من الرصاص والصق عليها (١٠٢٠٠) لوحاً من النحاس المذهب، الثانية داخلية وبنيت هذه القبة من الداخل بالخشب المنقوش والملون وترتفع على رواق من الأعمدة عددها اثني عشر بين كل ثلاثة منها ركيزة مستطيلة طول ضلعها الكبير ثلاثة أمتار يعلو الرواق رقبة القبة فيها ست عشرة نافذة من الزجاج

---

[1] ياقوت الحموي ـ معجم البلدان ـ ج٥ ـ ص٨٧.

[2] أبو صالح الألفي ـ الفن العربي ـ أصوله فلسفته مدارسه ـ طبع دار المعارف بمصر ١٩٨٤ ـ ص١٤٤.

المذهب، وتعلو هذه الرقبة كتابات قرآنية كتبت بماء الذهب وبالخط النسخي، وعدد النوافذ في جدران المسجد ستاً وخمسون نافذة خلف كل منها آية قرآنية أربعون منها مفتوحة والباقي مسدود.

في المسجد أربعة أبواب هي باب شرقي وباب غربي وباب شمالي وباب جنوبي، يعتبر هذا المسجد من أجمل الأوابد التاريخية في العالم استخدم في كسوته الخارجية الرخام الرمادي المعرق بالقاشاني والخزف المزين بالرقش على خلفية زرقاء، وفي الداخل كسيت الجدران بأبهى وأغنى أنواع الرخام الملون.

وموضوع الفسيفساء في قبة الصخرة تعبير عن الجنة، علماً أن زخرفة قبة الصخرة تعتبر مفخرة الفن الإسلامي في العصر الأموي، ومساحة الفسيفساء فيها بحدود (١٢٠٠م) غطت الأقسام العلوية من الرواق الأوسط مع رقبة القبة بالإضافة إلى أقسام خارجية.

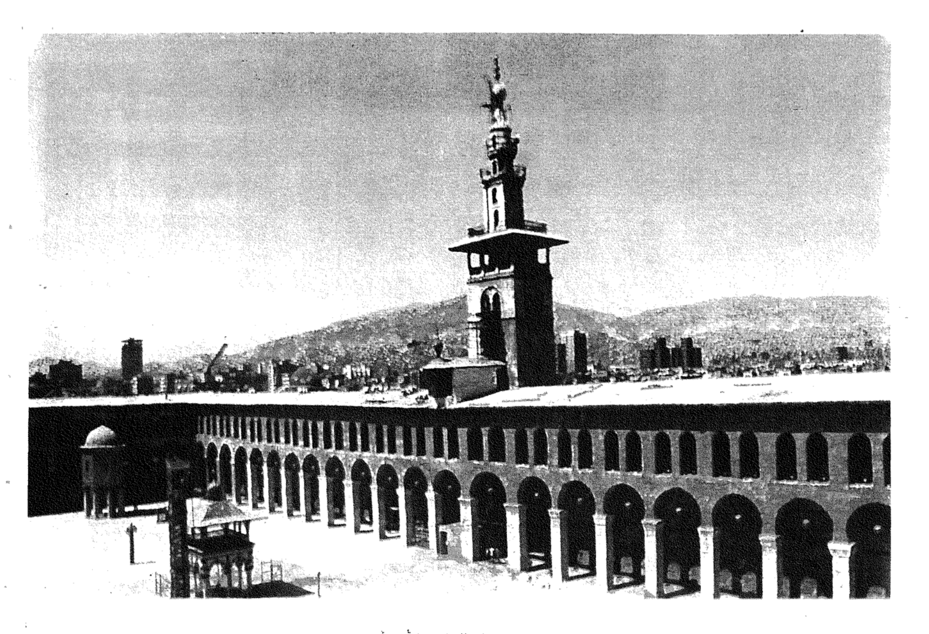
رابعاً ـ المسجد الأقصى[1]: أنشأه عبد الملك وأتمه ابنه الوليد وهو مرتبط بالإسراء والمعراج ويتألف المسجد من جناح أساسي وإلى جانبه جناحان صغيران وتقوم القبة على مضلعين في نهاية الجناح وقرب المحراب.

خامساً ـ الجامع الأموي[2] : بناه الوليد بن عبد الملك على مثال مسجد النبي (ص) في المدينة أي حرم مغطى وصحن محاط بأروقة وتم إنشاء الحرم وزخرفت جدرانه وتغطيته بالجمولانات المحمولة على قناطر مرفوعة على أعمدة، وأقام الوليد قبة النسر وواجهة الحرم المطلة على الصحن وأقام ثلاثة أروقة من جهة الشرق والغرب ومن جهة الشمال، وأضاف من جهتي الشرق والغرب ملحقين بعرض (٩,٤٥م) على امتداد الصيوان، وجعل هذه الملاحق في الأركان الأربعة أساساً لأبراج أربعة هي أول المآذن في الإسلام، بين كل مئذنتين صالتان يقطعهما صيوان، وقد استعملت هذه الصالات مقراً للخليفة يستقبل فيها الضيوف العامة والخاصة، وإلى الوليد يعود الفضل في بناء قبة النسر يبلغ قطرها (١٦,٥م) وارتفاعها مع الرقبة (١٧,٥م) وارتفاعها من ذروتها حتى أرض الحرم (٤٣م).

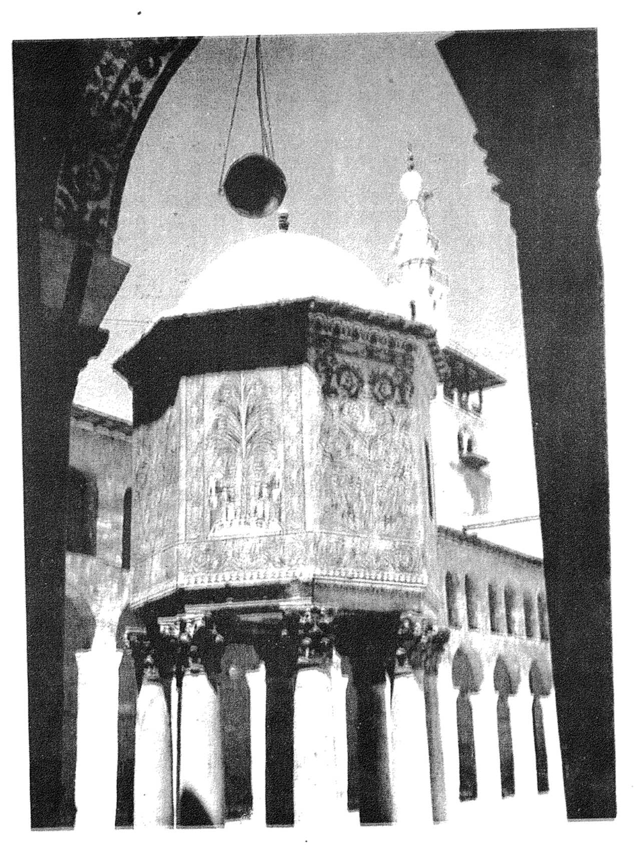
---

[1] عفيف بهنسي ـ الفن الإسلامي ـ طبع دمشق ١٩٨٦ ـ ص١٤٩.

[2] الجامع الأموي الكبير ـ لجنة إصلاح وتطوير الجامع ـ طبع دمشق ـ ص٢٦.



رواق الجامع الأموي



قبة الخزنة (المال) في صحن الجامع

يتألف الجامع من صحن عرضاني (١٢١- ٤٨م) يحيط به من ثلاث جهات عدا الجنوبية أروقة عالية محمولة على أعمدة أسطوانية وعضادات، الجدران مكسوة والصحن مبلط بالحجارة، أما حرم الجامع فمؤلف من ثلاثة أجنحة عرضانية وجناح متوسط متعرض يصل بين المحراب والصحن يعلوه جملون مرتفع تعلوه قبة النسر، وفي الحرم ثمانية وستون دعامة وله محاريب منها في الجنوب محراب الصحابة (المالكية) المحراب الكبير ثم المنبر وبعده مقصورة الخطابة ويغطي الحرم جملونات عرضانية وواحدة معترضة، وصور الفسيفساء في هذا الجامع تحقق الغرض الذي أراده الوليد وهو التعبير عن عظمة الإسلام كدين واتساع رقعته كدولة مترامية الأطراف علماً أن الجامع هذا كان يعتبر مركز سلطان الخليفة في العاصمة دمشق.

إذن غطى الفسيفساء جميع سقوف وجدران الأروقة وجميع بطون الأقواس والدهاليز والأقسام العليا من الحرم بعد ارتفاع سبعة أمتار استغرق العمل به تسع سنوات وأنفق فيه كما يذكر أربعمائة صندوق في كل منها أربعة عشر ألف دينار.

وقال ياقوت الحموي إن للجامع أربعة أبواب باب جير وباب البريد باب الزيادة وباب الناطق نبين مقابله وباب الفراديس، «وحكي أنه بلغ ثمن البقل الذي أكله الصنّاع فيه ستة آلاف دينار، وضج الناس استعظاماً لما أنفق فيه وقالوا: أخذ بيوت أموال المسلمين وأنفقها فيما لا فائدة لهم فيه، قال: فخاطبهم وقال بلغني أنكم تقولون وتقولون وفي بيت مالكم عطاء ثماني عشرة سنة إذا لم تدخل لكم فيها حبة قمح، فسكت الناس، وقيل: إنه عمل في تسع سنين، وكان فيه عشرة آلاف رجل في كل يوم يقطعون الرخام، وكان فيه ستمائة سلسلة ذهب، فلما فرغ أمر الوليد أن يسقف بالرصاص فطلب من كل البلاد وبقيت قطعة منه لم يوجد لها رصاص إلا عند امرأة وأبت أن تبيعه إلا بوزنه ذهباً فقال: اشتروه منها ولو بوزنه مرتين، ففعلوا فلما قبضت الثمن قال: إني ظننت أن صاحبكم ظالم في بنائه هذا، فلما رأيت إنصافه فأشهدكم أنه لله! وردّت الثمن»[1].

القصور:

القصور الأموية أنشئت وفق مخطط متشابه وبشكل معماري موحد ويحتوي المخطط السور المحيط والصحن الداخلي، تشرف عليه أروقة تعقبها غرف في طابق أو طابقين ومن أهم القصور

---

[1] ياقوت الحموي - معجم البلدان - ج١ - ص٤٤٦.

الأموية قصر الخضراء في دمشق الذي بناه معاوية وقصر حوارين وأقامه يزيد بن معاوية، قصر الجابية أقام به مروان بن الحكم، وأقام عبد الملك بن مروان ثلاثة قصور في القدس وقصوراً في صنبرة وبعلبك وقنسرين، وأقام الوليد بن عبد الملك قصور المنية والصرح وقصر عمره وقصر أسيس، وبنى سليمان بن عبد الملك مدينة الزملة وقصره فيها، وأنشأ يزيد الثاني قصر الموقر في البلقاء، وأقام هشام بن عبد الملك قصر الرصافة وقصر الحير الغربي وقصر الحير الشرقي، وقصر المفجر، وبنى الوليد الثاني بن يزيد قصر المشتى والطوبة، وبنى مروان بن محمد قصر حران.

قصر عمرة[1]: يقع هذا القصر على بعد خمسين كيلو متراً غرب الرأس الشمالي للبحر الميت يتألف هذا القصر من حمام ومنزل يعود إلى عهد الوليد بن عبد الملك، كان يقيم به للصيد أو الاستجمام بني هذا القصر بالحجر ولبست أرضه بالرخام والفسيفساء، يحيط بهذا القصر سور بطول خمسين متراً وعرض خمسة وعشرين متراً، ويضم غرفاً ومخازن وإسطبلات، وبالقرب من القصر حمام مؤلف من قاعة واسعة لخلع الملابس، وبجانبها مقصورتان تليهما القاعة الباردة، والقاعة الفاترة ثم القاعة الحارة، ويمتاز بالرسوم الجدارية الرائعة، حفلت جدران قصر عمرة برسوم ملونة تمثل مشاهد الصيد، وبعضها يمثل صيد وذبح الظباء، كما تظهر مشاهد استحمام وتمارين رياضية، وأشكال مصارعة وبعض الصور لنساء عاريات في أوضاع مختلفة.كان الماء يرفع إلى سطحه من بئر ثم يجرى إلى غرفه.

قصر أسيس[2]: يقع إلى الجنوب الشرقي من دمشق ويضم أول جامع وحمام إسلامي يقع خارج المدن، وزخرفته الجصية أيضاً تعتبر الأقدم في تاريخ الزخرفة الإسلامية والقصر مؤلف من سور شكله مربع طول ضلعه (٥٣ - ٦٧م) عدا الضلع الجنوبي فهو أقصر في زواياه أربعة أبراج دائرية وفي منتصف أضلاعه الثلاثة أبراج دائرية، أما الشمالي ففيه المدخل الرئيسي وتنظيم هذا القصر يشبه التنظيم الداخلي لقصر عنجر الذي بناه أيضاً الوليد.

قصر عنجر[3] : يقع عنجر بين دمشق وبيروت وموقع عنجر له سور سمكه متران يدعمه ثمانية

---

[1] ارتست كوتل - الفن الإسلامي - ص٢٢.

[2] عفيف بهنسي - الفن الإسلامي - ص٢٥٥.

[3] أبو صالح الألفي - الفن الإسلامي - ص١٤٩ وما بعدها.

أبراج في الجهة الشمالية ومثلها في الجنوبية وعشرة أبراج في كل من الجهتين الشرقية والغربية يضاف لها الأبراج الدائرية الواقعة في الزوايا الأربعة وفي منتصف كل جدار يوجد باب محاط باثنين من الأبراج. يتألف القصر من قسمين متشابهين مبني من الحجر المنحوت وله مدخلان واحد من الشرق والثاني من الغرب، وقسما القصر ينفتحان على فناء محاط بأروقة ذات أقواس في طابقين. ومساحة مدينة عنجر كانت (١١٤ ألف متر مربع) وفيها أقنية وشوارع متقاطعة.

قصر الحير الغربي[١]: يقع جنوب غرب تدمر، وقيل يقع في منطقة التقاء طريقين مهمين، هما طريق دمشق ـ تدمر التي تمر على القريتين، وطرق تجارية أخرى هي طريق حمص ـ الجوف. تعود عملية اختيار موقع قصر الحير إلى وجود قاعدة ساعدت على وجوده مثل سد حريقة الذي يبعد ستة عشر كيلو متراً ونصف جنوبي قصر الحير.. وللسد ثلاث فتحات. ثم القناة بين السد، ومنطقة السكن، تصل هذه القناة بين السد، وبين منطقة قصر الحير الغربي، حيث تتجمع في محطة تبعد أربعة كيلو مترات.

يتفرع من هذه المحطة قناة صغرى تسير إلى الحمام والقصر. حيث ساعدت هذه المياه المتدفقة إلى القصر، لوجود أربعة أفران كانت توضع فيها قطع الآجر، والجص اللازم لأعمال بنائه. بالإضافة لوجود بستان تنقل إليه المياه، لتغذيته، وله مدخلان. وفي طرقه برجان صغيران، كما ويوجد في البستان سد لتجميع المياه، ويحتوي قصر الحير على خان، وحمام يقع في شمال القصر.

شكله مربع طول ضلعه (٧٠×٧١م) مدعم من الخارج بأبراج مستديرة مبني من الحجر، إلى ارتفاع مترين ثم من الطوب والآجر مع عوارض خشبية له بوابة يحيط بها من طرفيها برجان نصف دائريين مزخرفين وتتصل هذه البوابة مع الفناء بواسطة دهليز محاط بأروقة محمولة على عمد قديمة. في وسط الفناء حوض صغير، وقاعات القصر وحجراته مرتبة ضمن بيوت ستة مستقلة عن بعضها اثنان من الجهة الشرقية واثنان من الجهة الغربية، وواحد في الجنوب وآخر في الشمال، وكل بيت يحتوي من (٣ ــ ١٣) غرفة واكتشف درجان خشبيان مما يؤكد وجود طابق ثانٍ كما عثر على درابزون رواق

---

[١] سليم عبد الحق بمجلة الحوليات الاثرية السورية ـ المجلد الأول ـ ص١٢.

الطابق الثاني، والطابق الثاني كما هو الطابق الأول ويدخل النور إلى الداخل عن طريق كوات، وللقصر فتحات داخلية كنوافذ عليها مشبكات جصية.

ويتغذى قصر الحير الغربي بالماء من خزان يمده بالماء نبع الكوم كما كان يمد الجامع والحمام والطاحونة والخان، يقع الحمام شمالي القصر ويتألف من قسم بارد وقسم دافئ، فرشت أرضيته بالرخام وكان البخار يمر عبر فراغات تحت الأرض.

وتتألف زخارف هذا القصر من مجموعة من الزخارف الجصية النافرة على البرجين المحيطين بالمدخل الشرقي الوحيد وتتألف هذه الزخرفة من أوراق نباتية ومن مواضيع هندسية مختلفة بالإضافة إلى بعض الفسيفساء الزجاجية الموجودة فوق المدخل، ويمتاز هذا القصر أيضاً بالنحت الزخرفي وهو عبارة عن أشكال نباتية وهندسية مصنوعة من الجص البارز كما امتاز هذا القصر بالنحت التشبيهي.

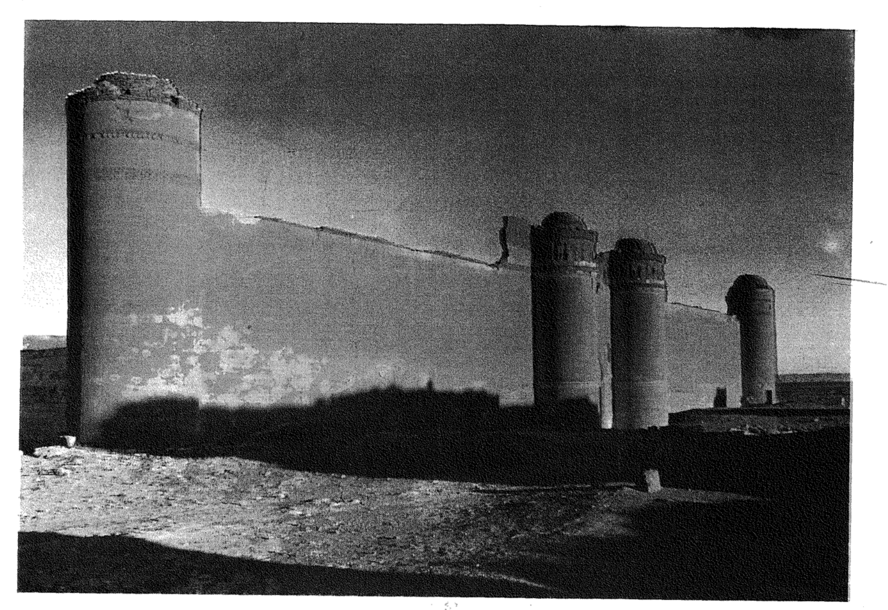
قصر الحير الشرقي[1]: يقع في الصحراء السورية ـ يبعد عن تدمر (١٠٥)كم أي بين تدمر والرصافة وقيل يقع شمال شرق تدمر على مسافة ستين كيلو متراً جنوب الرصافة تم اكتشاف قصرين أحدهما صغير والآخر كبير يعتقد أنه كان دار إمارة، طول ضلع القصر الكبير (١٦٠م) وطول ضلع القصر الصغير (٧٠م) وكل من القصرين مدعم بأبراج دائرية في القصر الكبير بوابة على طرفيها برجان ثم دهليز يصل إلى الفناء المحاط بغرف بطابقين وله عدد من المداخيل تتقاطع بممرات كالشوارع، يحتوي هذا القصر على معصرة ومسجد له حرم مؤلف من ثلاثة أجنحة عرضانية وجناح معترض ومن صحن محاط بأروقة مؤلفة من أقواس حجرية وله صحن محاط بأروقة مؤلفة من أقواس حجرية محمولة على عضائد ومئذنته مربعة تقع بين القصرين، وللقصر الصغير مدخل وحيد وفناؤه محاط بغرف واسعة مبني بالحجر يرتفع خمسة عشر متراً، وللقصر سور خارجي له أربعة أبواب تمتد منها شوارع تتقاطع وسط المدينة، يزود هذا البناء بالمياه بواسطة قناة تجر المياه إليه من نبع الكوم الذي يبعد إلى الشمال الغربي مسافة (٣٠)كم.

قصر خربة المفجر[2]: ويقع قرب أريحا شيده هشام بن عبد الملك وفيه جامع وحمامات وفناء أمامي ذي أعمدة وبركة ماء مزخرفة بني على شكل مربع طوله (٦٤,٥م) والضلع الشرقي

---

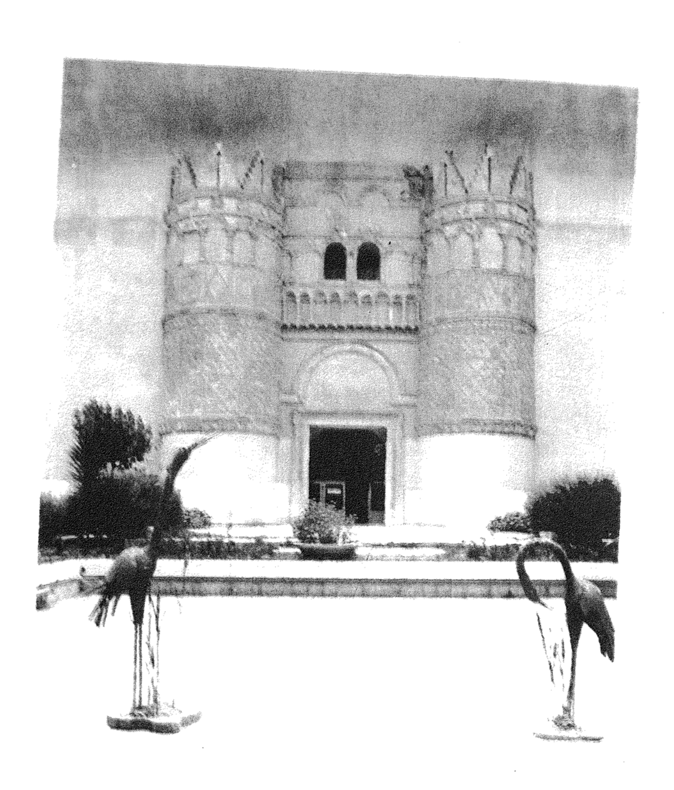
[1] عفيف بهنسي ـ الفن الاسلامي ـ ص٢٥٩.

[2] محمد عبد العزيز مرزوق ـ قصة الفن الإسلامي ـ طبع مصر ١٩٨٠ ـ ص٥٨ وما بعدها ـ ارنست كوتل ـ الفن الإسلامي ص١٣.



الحير الشرقي

الحير الشرقي



الحير الغربي



قصر خربة المفجر ـ فلسطين

(٦١,٢٥م) في أركانه الأربعة أبراج مدعمة ويحيط بالمدخل برجان في وسط الفناء بركة مربعة عمقها متر تعلوها قبة ذات ثمانية أضلاع فوق أربعة أقواس ضخمة والقصر مؤلف من طابقين. يقع الجامع في الجهة الشرقية بين القصر والحمامات أما الحمامات فتتألف من رحبة أمامية ومدخل معقوف وقاعة ضخمة كما توجد غرف للمياه الساخنة وأخرى للباردة وغرفة بخار كما توجد غرفة خاصة للاستراحة، ويمتاز هذا القصر بزخارفه الفسيفسائية [1] الهامة.

قصر المشتى[2]: بناه الوليد بن عبد الملك يقع جنوب شرق عمان يحيط به سور خارجي محصن بأبراج مستديرة كشف عنه سنة ١٨٤٠م، مربع طول ضلعه (١٤٤م) يكتنفه خمسة وعشرون برجاً دائرياً، عدا برجين للمدخل يقسم إلى ثلاثة أجنحة الجناح الوسطى مقسم إلى ثلاثة أقسام أما الجناح الجنوبي فهو حجرات ومسجد، وأما الجناح الشمالي فكان مقراً للخليفة ويعتبر هذا القصر من أكثر القصور الأموية زخرفة. ويشبه في تقسيمه قصور الغساسنة بالشام.

قصر الطوبة[3]: يقع في بادية الأردن طوله (١٤٠م) وعرضه (٧٣م) تدعم جدرانه الخارجية خمسة أبراج نصف دائرية من الشمال وبرجان من الشرق والغرب، إضافة إلى أربعة أبراج في الزوايا، أما في الجنوب فيوجد برج في أواسط الجدار ذو مخطط غريب وإلى جانبي المدخلين برجان مربعان، يمتاز هذا القصر بطابعه الأموي.

---

(١) عبد الرحيم إبراهيم أحمد - تاريخ الفن في العصور الإسلامية - العمارة وزخارفها - عام ١٩٨٩ - ص٤٥ وما بعدها.

(٢) محمود وصفي محمد - دراسات في الفنون والعمارة العربية الإسلامية طبع القاهرة ١٩٨٠ - ص٥٢. - ارتست كوتل - الفن الإسلامي ص٢٢ - عفيف بهنسي - الفن الإسلامي - ص٢٦١ - أبو صالح الألفي الفن الإسلامي ص١٥٢ وما بعدها..

(٣) عفيف بهنسي - الفن الإسلامي - ص٢٦١.



الباب الثاني

الحياة الاقتصادية

الفصل الأول: حالة بلاد الشام الاقتصادية.

الفصل الثاني : الزراعة.

الفصل الثالث: التجارة.

الفصل الرابع: الصناعة.



الفصل الأول

حالة بلاد الشام الاقتصادية

- السمات الرئيسية للاقتصاد.



الفصل الأول

حالة بلاد الشام الاقتصادية

بعد قرن من ميلاد السيد المسيح وجدت ثلاثة مجتمعات قوية لها الدور الرئيسي في عالم البحر هي:

١ ـ **الدولة البيزنطية:** عاصمتها القسطنطينية، والدولة اللاتينية في الغرب يرأس هذه الدولة الكرسي البابوي في روما.

٢ ـ **الدولة الساسانية:** تمكن الرومان من هذه الدولة في أواخر القرن الرابع الميلادي[1].

٣ ـ **الدولة الإسلامية:** ومرت بمراحل مختلفة، وبعواصم متنقلة من الحجاز إلى الشام إلى العراق. لكن، ورغم تعدد هذه الدول، فقد بقيت الإمبراطورية الرومانية في الشرق هي القوة الحقيقية نتيجة اعتمادها القدرة الاقتصادية، التي رفدت القدرة العسكرية بكل مستلزماتها. حيث ازدهرت الصناعة والزراعة والتجارة في كل من آسيا الصغرى (عاصمتها القسطنطينية)، ومصر (وعاصمتها آنذاك الإسكندرية)، وسورية (وعاصمتها انطاكية)، كما شاركت عدة مدن سورية

[1] ارشيد بالد ـ لويس ـ القوى البحرية والتجارية في حوض المتوسط ـ ترجمة أحمد عيسى طبع القاهرة ١٩٥٠.

مدينة انطاكية في الميدان الاقتصادي والتجاري والعسكري. ومنها عكا وصور ودمشق وحلب وغيرها.

وساعد العرب الدولة الرومانية اقتصادياً بشكل مباشر. فمثلاً كانت مصر تنتج كميات وفيرة من الحبوب، حيث كان يرسل إلى القسطنطينية من قبل هيئة خاصة من أمراء البحر، عهد إليها مسؤولية وصول الحبوب إلى العاصمة البيزنطية، كما أنتجت سورية الأخشاب والنبيذ، وصدرت زيت الزيتون. أي أن سورية تطورت فيها الصناعة إلى جانب الزراعة والتجارة، فالمدن السورية لم تعش عالة على الريف إنما كانت مراكز صناعية لعالم البحر المتوسط، ومن أهم الصناعات كانت صناعة النسيج من (الصوف والحرير والكتان)، التي امتازت بها كل من بيروت وغزة وقيسارية وطرابلس[1] وانطاكية ودمشق وطرطوس[2]. يضاف لها الإنتاج المصري من الإسكندرية. وكان إنتاجها من هذه المواد ليس من أجل الاستهلاك المحلي، وإنما للتصدير في الأسواق الخارجية، كما صنع في هذه المدن ورق البردي (الإسكندرية) والزجاج، والأواني المعدنية المصنوعة من الصلب والبرونز والنحاس، ويدل ازدحام السكان بتلك المدن على مدى نشاطاتها الاقتصادية المتطورة. ولم تكتف هذه المدن بالاتجار بمنتوجاتها، إنما عملوا بتجارة التوابل الآتية من بلاد الصين والهند، وجوز الهند، وتصديرها إلى الخارج، مع منتوجاتهم الصناعية والزراعية الخاصة بهم.

ونظراً للامتيازات التجارية، التي كانت متوفرة، فقد سعى التجار العرب السوريون، وغيرهم، على السعي للحصول على هذه الامتيازات، والإيصال في الداخل بعيداً عن المدن الساحلية الواقعة على المتوسط، كمدينة ناربون، ومرسيليا وآرال، ورافنا، حيث امتد نشاطهم، قبل نهاية القرن الرابع الميلادي، في معظم مدن الغرب الكبيرة. أثناء ذلك كانت العملة السائدة في عالم التجارة الدولية هي عملة القسطنطينية الذهبية.

أما في الدولة الفارسية، فقد ظلت العملة الفضية أساس التعامل هناك. لكن بعد وجود الدولة العربية الإسلامية. فقد اتخذ العرب عملات، سنتحدث عنها في موضوعها. في عام ٥٥٢م تمكن بعض الرهبان النسطوريين من تهريب دود القز عبر آسيا، حيث لم تمض غير سنوات قليلة، حتى

---

[1] طرابلس: تعنى ثلاث مدن لأن طرا تعني ثلاث - وبلطيه تعني (محافظة لبنانية) - على ساحل البحر من الشام - معجم البلدان - لياقوت الحموي - ج٤ - ص٢٥.

[2] طرطوس: مدينة بالشام مشرفة على البحر قرب المرقب وعكا (محافظة سورية) معجم البلدان - لياقوت الجموي - ج٤ - ص٣٠.

انتشرت دودة الحرير في سورية.

خلال هذه المرحلة، احتاجت الدولة البيزنطية للمال لأمور متعددة. منها إدارة شؤون الحكم، ودفع مرتبات الجيش العامل ورجال البحرية والموظفين، يضاف إلى ذلك أغراض دبلوماسية. ولتحقيق ذلك، تدفقت على العاصمة أتاوات ضخمة، تراوحت بين عشرين ألفاً، وثلاثين ألف قطعة ذهبية سنوياً. ولتحقيق هذه الدبلوماسية، صحب هذا الذهب ألقاب الشرف التي أغدقها الحكام البيزنطيون على بعض الولاة. كما استخدم الذهب في تأليب بعض العناصر وإحداث الشغب.

وإحالة هذه المنح المقيمين على أطراف الدولة إلى تابعين. كما حدث للغساسنة في سورة وملوك الحبشة والأفار والصقالية في الشرق. كما ساعدتهم في الغرب لدى كل من الفرنجة واللومبارد والقوط الغربيين، والبربر في شمال أفريقية. وبذلك كانت سياستهم هذه أكثر فائدة، وأقل نفقة من الحرب. مع العلم أن هذا المال المبذول في هذا الاتجاه، كان يعود مرة أخرى إلى القسطنطينية، في عمليات التعامل التجاري.

كانت مصر نهاية لطريق البحر الأحمر، وسورية نهاية لطريق الخليج العربي والطريق البري عبر فارس، وكانت القسطنطينية نهاية طريق أرمينية والبحر الأسود. وبذلك أصبح العرب السوريون والمصريون ابتداءً من القرن الثاني الميلادي سادة التجارة العالمية[1]. إذن تعددت الطرق التجارية، التي احتازتها السلع التجارية الشرقية إلى أسواق العرب. من هذه الطرق:

- طريق يقع في الشمال، ويبدأ من تركستان، ويتجه عن طريق بحر الخزر والبحر الأسود إلى شبه جزيرة القرم؛ إلى القسطنطينية، ومنها إلى الموانئ الرئيسية على المتوسط. لكن هذه الطريق بشكل عام ظلت في حالة اضطراب معظم القرنين الرابع والخامس الميلاديين، بسبب غارات قبائل الهون والافار.

- طريق الجنوب، اكتشفه البطالمة، واستخدمه الرومان، وهو طريق بحري، يبدأ عند سيلان[2] وجنوب الهند، ويصل إلى مصر، عن طريق البحر الأحمر. وهناك كانت نهايته عند مدينة القلزم[3]، وجزيرة يوتاب (تيران الحالية). ومن هناك انتقلت المواد المستوردة إلى الإسكندرية.

---

[1] ارشيبالد لويس ـ ص١٧.

[2] جزيرة عظيمة دورها ثمانمائة فرسخ بها سرنديب ـ ياقوت الحموي ـ معجم البلدان ـ ج٣ ـ ص٢٩٨.

[3] القلزم: بمصر على ساحل بحر اليمن قرب أيله والطور ومدين ـ ياقوت الحموي ـ معجم البلدان ـ ج٤ ـ ص٣٨٧.

- الطريق المتوسط عبر الأراضي الساسانية.

- الطريق البحري من سيلان والهند إلى بحر العرب، ومن هناك إلى الحدود السورية.

- طريق بري من تركستان وشمال إيران، إلى حدود أرمينية إلى سورية. ومرت التجارة على هذا الطريق عبر مدن كثيرة. مثل دارا وارتكساتا وكالينيكوم ونصيبين[1]. ومن هذه المراكز التجارية، كانت السلع تأخذ طريقها إلى الموانئ السورية والبيزنطية.

نظراً لأهمية الاقتصاد البيزنطي وتطوره، فقد سيطروا على البحر المتوسط، وأوجدوا قوة بحرية ضخمة، كان من مهامها قهر القراصنة، وحماية الواردات السنوية من الحبوب وغيرها، المنقولة على السفن المتوجهة إلى القسطنطينية.

عندما اعتلى الإمبراطور جستنيان السلطة (٥١٨هـ)، ركز نشاطه على عودة البحر المتوسط إلى الحكم البيزنطي. أي استعادة الأقاليم الغربية، التي احتلها القوط الشرقيون والوندال والقوط الغربيون والفرنجة. أي إخضاعهم لحكم القسطنطينية مباشرة. ولتحقيق هذا الهدف الكبير ضحى جستنيان بمصالحه في كل من سورية ومصر وآسيا الصغرى. حيث فرض عليها ضرائب باهظة من أجل تغطية النفقات، التي استخدمتها حروبه في الغرب. هذا من جهة، ومن جهة ثانية. أصبحت هذه المناطق فريسة سهلة للفرس، كما ضحى بما كان هناك من توازن، بين كل من الحزبين الدينيّين، (الحزب الأرثوذكسي والحزب المنوفيسيتي). فعمل على اتساع شقة الخلاف الديني، بين كل من سورية ومصر، وبين سائر الإمبراطورية. لكن ورغم ذلك كانت الظروف العامة مواتية لجستنيان لتحقيق رغباته وأمانيه. فالخزائن كانت مكدسة بالذهب، والرخاء يعم البلاد، ونواة الأسطول الموجودة لا بأس بها. يضاف إلى ذلك، حنكته وخبرته. كما ساعده على ذلك الأحوال في الغرب، وحكامهم الذين لا كفاية ولا قدرة لديهم للمواجهة.

ولتحقيق هدفه، رتب (جستنيان) أموره فعمل - أولاً: صلحاً دائماً مع فارس، دفع - بموجبه لعاهل الفرس - جزية سنوية من الذهب، كما عمد إلى إضعاف خصمه في الغرب، بعد مناورات سياسية. وفي الوقت نفسه، جهز حملة حربية كبيرة، تكونت من: (٥٠٠ ناقلة - ٩٢ سفينة حربية). وكان عدد ملاحي الأسطول /٣٠ ألف ملاح/. وبلغت القوة البرية التي نقلتها السفن ١٥,٠٠٠

[1] نصيبين: مدينة عامرة من بلاد الجزيرة على جادة القوافل من الموصل إلى الشام - ياقوت الحموي - معجم البلدان - ج٥ - ص٢٨٨.

رجلاً منهم ١٠,٠٠٠ من المشاة، وخمسة آلاف من الفرسان، وحملت سفن الحراسة (٩٢ سفينة) ألفي رجل، لأعمال التجديف، ثم أبحرت هذه الحملة سنة (٥٣٣م) من القسطنطينية إلى شمال أفريقية، حيث ملك الوندال.

ولإنجاح هذه الحملة، عمد جستنيان إلى الحيلة، حيث أشعل الثورة في سردينية[1]، بأسطول صغير، وببعض المال، لاستدراج ملك الوندال بأسطوله إلى هناك، وإبعاده عن طريق حملته، ونجح في ذلك، حيث وصل الأسطول إلى شمال أفريقية دون مقاومة، وتمكن من الاستيلاء على قرطاجنه[2]. وبذلك استعاد شمال أفريقية كله، واستعاد جزيرة سردينية، وجزيرة ابليار، وجزيرة كورسيكا. كما احتل جزيرة صقلية[3]، وفرض سيطرته على روما. وهناك توقف هذا الزحف لعوامل. منها مقاومة القوط الشرقيين، الذين تمكنوا من استعادة شمال ووسط إيطالية، كما استعادوا كورسيكا وسريدينية. لكن رغم المقاومة المذكورة، تمكن جستنيان من إخضاع إيطالية واستعادة كورسيكا وسريدينية. وبذلك قضى على أسطول القوط الشرقيين، وأسطول الواندال. وفي عام ٥٥٤م، انتهز فرصة ضعف القوط الغربيين، واحتل معظم إقليم إسبانية.

ومن العوامل المساعدة لجستنيان في حملته، الجاليات الشرقية الكبيرة. ومنها السورية، والمقيمة في معظم المراكز التجارية في الغرب، حيث وقفت إلى جانب الحملة التي أوفدها جستنيان لتحقيق هدفه. بعد ذلك، عمد جستنيان إلى تحديد القوات العاملة للجيش، مع الاحتفاظ بقوة بحرية، رغبة منه في تطور الاقتصاد ووضع خطة دفاعية، تضمن له السلامة على الحدود الطويلة. كما اعتمد على كتائب الجند المحلي، وزود حكام الحصون المهمة بحاميات من الجيش النظامي.

واعتمد على أسلوب التحصينات الضخمة، على طول الحدود في داخل الإمبراطورية. كما احتفظ بأسطول دائم، وبقواعد بحرية، ودور للصناعة في قرطاجة وعكا والإسكندرية والقسطنطينية وسرقسطة[4] وصقلية ورافنا، وتم بناء الكثير من السفن الحربية الخفيفة السريعة الحركة. يضاف إلى

---

[1] جزيرة في بحر المغرب كبيرة ليس هناك بعد الأندلس وصقلية واقريطش آكبر منها - ياقوت - المعجم - ج٣ - ص٢٠٩.

[2] قرطاجنه: بلد قديم من نواحي افريقية - ياقوت - المعجم - ج٤ - ص٣٢٣.

[3] صقليه: من جزائر بحر المغرب مقابل افريقيه - ياقوت - المعجم - ج٣ - ص٤١٦.

[4] بلدة مشهورة بالأندلس - ياقوت الحموي - المعجم - ج٣ - ص٢١٢.

ذلك، عمد ـ جستنيان في حالة الحرب ـ إلى ضم عدد من السفن التجارية إلى الأسطول. ومهمتها كانت نقل الجنود والإمدادات إلى ساحة العمليات الحربية. وهكذا خضعت المناطق الصناعية والتجارية ـ في البحرين الأبيض والأسود ـ لحكام القسطنطينية. كما خضعت كل من سورية ومصر وآسية الصغرى وسواحل شبه جزيرة القرم، وسيطروا أيضاً على سواحل أفريقية وجنوب إسبانيا وموانئ إيطالية وغير ذلك من ممالك الفرنجة القريبة منهم.

في عام ٦٣٤م، واجه البحر الأبيض المتوسط أول فوج من العرب المؤمنين برسالة التوحيد. و لم تمض فترة طويلة حتى حدثت معركة اليرموك[1]. وبذلك حررت سورية والعراق، تلتهما مصر عام ٦٤٠م. بعد ذلك نبذ العرب حضارة الغرب التي فرضت عليهم قسراً، وأشاح بوجهه عنها، وبدأ عصر العرب الذهبي سياسياً وعسكرياً.

كان الهدف من التنمية الاقتصادية في ظل النظام الاقتصادي الإسلامي منذ البداية هو تطوير الزراعة، وإنتاج المواد الطبيعية، ورفع مكانة الإنسان بالإضافة إلى الموارد البشرية. إذن كان الهدف شمولياً مستهدفاً الإنسان بالدرجة الأولى سواء على مستوى الفرد أو الجماعة.

أي أن النظام الاقتصادي الإسلامي عمل على عمارة الأرض وعمارة البلاد وهناك أمثلة كثيرة توضح ذلك مثل قوله تعالى: **﴿هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الأرضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾**[2]. أي أنه أمر من الله تعالى للعباد بوجوب عمارة الأرض في مختلف المجالات، وفي الحديث الشريف ما يؤكد ذلك.

قال الرسول (ص): **«من أعمر أرضاً بالإحياء فهو أحق بها من غيره»**[3]. وقال (ص): **«إذا قامت الساعة وفي يد أحدكم فسيلة فاستطاع ألّا تقوم حتّى يغرسها فليغرسها فله بذلك أجر»**[4]. وقال الخليفة عمر بن الخطاب: «من عطل أرضاً ثلاث سنين لم يعمرها فجاء غيره فعمرها فهي له» أي الأرض لمن يعمل بها ويعمرها.

ووصايا الإمام علي إلى عامله (الأشتر النخعي) تؤكد القواعد والضوابط الاقتصادية.

---

[1] اليرموك ـ واد بناحية الشام في طرف الغور يصب في نهر الأردن ثم يمضي إلى البحيرة المنتنة ـ ياقوت ـ المعجم ـ ج٥ ـ ص٤٣٤.

[2] سورة هود ـ الآية / ٦١.

[3] البخاري ـ صحيح البخاري ـ كتاب المزارعة ـ باب من أحيا أرضاً ـ ج٢ ـ ص٧٦٨.

[4] المرجع نفسه ـ كتاب المزارعة.

بسم الله الرحمن الرحيم

«هذَا مَا أَمَرَ بِهِ عَبْدُ اللهِ عَلِيٌّ أَمِيرُ المؤمِنِينَ. مالك بن الحارث الأشتر في عهدِهِ إِلَيْهِ، حينَ وَلاَّهُ مِصْرَ: جبَايَةَ خرَاجِهَا، وَجِهَادَ عَدُوِّهَا، وَاستِصْلاَحَ أَهْلِهَا، وَعِمَارَةَ بلاَدِهَا». وقال: «وأكثر مُدَارَسَةَ العُلماءِ، ومُنَاقَشَةَ الحُكَمَاءِ، في تَثْبِيتِ مَا صَلَحَ عَلَيْهِ أمرُ بلاَدِكَ، وَإِقَامَةِ مَا استَقَامَ بِهِ النَّاسُ قَبْلَكَ».

وقال: «وتفقد أَمْرَ الخَرَاجِ بِما يُصْلِحُ أَهْلَهُ، فَإِنَّ فِي صلاَحِهِ وصلاَحِهِمْ صلاَحاً لمنْ سِوَاهُمْ، وَلاَ صَلاَحَ لِمَنْ سِوَاهُمْ إِلاَّ بِهِمْ، لأَنَّ النَّاسَ كُلَّهُمْ عِيالٌ عَلَى الخَرَاجِ وأَهْلِهِ. وليكنْ نَظَرُكَ فِي عِمَارَةِ الأرْضِ أَبْلَغَ مِنْ نَظَرِكَ فِي استِجْلاَبِ الخراجِ، لأَنَّ ذلِكَ لاَ يُدْرَكُ إِلاَّ بالعمَارَةِ، ومن طلبَ الخَرَاجَ بغير عِمَارةٍ أَخْرَبَ البِلادَ، وأهلكَ العبادَ، و لَمْ يَسْتَقِمْ أَمْرُهُ إِلاَّ قلِيلاً. فإن شكوا ثِقَلاً أو عِلةً، أو انقِطَاعَ شربٍ أو بالةٍ، أو إحالةَ أرضٍ اغتمرَهَا غَرَقٌ، أو أَجْحَفَ بها عَطَشٌ، خفَّفْتَ عنْهُمْ بما تَرْجُو أن يصلح بِهِ أَمْرُهُمْ.

وَلاَ يثقلنَّ عَلَيْكَ شيءٌ خفَّفْتَ بِهِ المؤُونَةَ عَنْهُمْ، فإِنَّهُ ذُخْرٌ يَعُودُونَ بِهِ عليكَ فِي عِمَارةِ بلادِكَ، وَتَزْيِينِ وِلاَيَتِكَ، مَعَ استِجْلاَبِكَ حُسْنَ ثَنَائِهِمْ، وَتَبَجُّحِكَ باسْتِفَاضَةِ العدلِ فيهِمْ، معتمداً فَضْلَ قُوَّتِهِم، بما ذَخَرْتَ عِنْدَهُم مِنْ إجْمَامِك لهمْ، وَالثِّقَةَ منهمْ بِمَا عَوَّدْتَهُمْ مِنْ عَدْلِكَ عَلَيْهِمْ ورفقكَ بهِمْ، فَرُبَّمَا حَدَثَ مِنَ الأمورِ مَا إذا عَوَّلْتَ فِيهِ عَلَيْهِمْ مِنْ بَعْدُ احتملُوهُ طيبةً أنفُسُهُمْ بِهِ، فإنَّ العُمْرَانَ مُحْتَمِلٌ مَا حَمَّلْتَهُ، وإنَّما يُؤْتَى خَرَابُ الأَرْضِ مِنْ إعْوَازِ أَهْلها، وإنما يُعوزُ أهلها لإشْرَافِ أَنْفُسِ الولاةِ عَلَى الجَمْعِ وَسُوءِ ظَنِّهِمْ بِالْبَقَاءِ، وَقِلَّةِ انتفاعهِمْ بِالْعِبَرِ»[1].

من الإطلاع على كتابه لواليه الأشتر المذكور نلاحظ فيه الضوابط والقواعد الاقتصادية[2] لعناية الدولة بشؤون التجارة ورعايتها للتجار ــ محاربة الاحتكار والإضرار بالناس ــ تحقيق العدالة الاجتماعية والاقتصادية، وضبط الموازين والمكاييل ـ التوجه إلى السماحة في البيع والشراء ــ محاسبة الذين يضيقون على الناس كالتجار والولاة والحكام وغيرهم ـ العمل على زيادة الإنتاج ورفع مستوى الدخل القومي ـ العمل على عدالة توزيع الدخل أخيراً يمكن أن نقول إنّ وسائل تحقيق العمارة تكمن في تحقيق التوازن الاقتصادي ـ لإقرار الأمن والسلامة ـ توجيه النشاط الاقتصادي ـ وعدالة التوزيع.

---

[1] نهج البلاغة ـ تحقيق صبحي الصالح ـ ص٤٢٦ وما بعدها.

[2] زيد بن محمد الروماني ـ مفهوم العمارة في الاقتصاد الإسلامي ـ بحث نشر في المجلة العربية للعلوم الإنسانية ـ طبع الكويت ــ العدد ٥٧ ـ السنة (١٥) ١٩٩٧ ـ ص٢٤١ وما بعدها.

والعامل الذي يتولى مهمة النشاط الاقتصادي أي عمارة الأرض والبناء بما يخدم الناس كان من الواجب أن تتوفر فيه شروط أهمها[1] - الدين - الصلاح - الأمانة - العفة - المشاورة لأهل الرأي - الخبرة - العلم والفقه وبهذه الشروط تنعم البلاد بالرفاه والعدل الاجتماعي ويتحقق بناء الدولة وعمرانها.

حقق الأمويون لبلاد الشام، وللعالم الإسلامي حضارة متطورة من جهة، ووحدة سياسية من جهة ثانية. وفكرة المساواة في الحقوق، التي كانت سائدة فيما يتعلق بالأخلاق والمثل، حل محلها في العصر الأموي، مبدأ السلطة المركزية الواحدة، بالرغم مما باعد بين أقاليم هذه الدولة من انقسامات وخصومات وأحياناً منافسات.

إن النزعة التي جاشت في ضمائر الأمويين، بإنشاء إمبراطورية واسعة، كانت قد تبنت حركة أعادت الفتوحات، بعد القضاء على المنازعات الداخلية، كما استطاعت أن تفرض سياسة أساسها التوازن النسبي، بعد أن فرضت السلطة المطلقة، لحاكم واحد وإدارة واحدة.

أما ولايات الدولة، فقد تحولت - في العهد الأموي - إلى دول شبه منفصلة، مستقلة عن كل تبعية، إلا من تبعيتها للسلطة المركزية في العاصمة دمشق، وكانت بلاد الشام - إبان السيطرة الأموية، رغم بطء المواصلات، وكثافة السكان، حيث تبدو شاسعة واسعة - تتكون من مناطق خصبة، تفصل بينها مساحات شبه صحراوية، وغابات وجبال، ومدن مكتظة بالسكان، ومدن متفرقة.

إن هذه الجغرافية السياسية، لتاريخ بلاد الشام في العصر الأموي، جاءت حتمية. ورغم النزعات التي حاربت ذلك. وفي النهاية، خضعت كل فئات الشعب للسلطة المركزية، واعترفت بمبدأ الولاية والتبعية، وجاء ذلك وفقاً لعهود، نصت - من جهة السلطة - على احترام الأعراف والتقاليد والعادات المرعية، وعلى حقها، بأن يتولى الإدارة فيها موظفون محليون من سكانها.

لقد استطاعت بلاد الشام - بما تم لها من اتساع الرقعة، وانبساطها، وتوزع السكان في المدن بنسب متفاوتة - أن تتحمل أي صدمة حربية، تتعرض لها. دون أن تحسب حساباً لأي احتمال تصدع أو تفكك، بعد أن أمن الأمويون فيها ما هم بحاجة إليه من العدة والعتاد، ومن موارد تفي

---

[1] أبو يوسف - كتاب الخراج - ص١٠٦.

بأود الحرب، ونفقاتها المرهقة.

لقد اتجهت الدولة في بلاد الشام وخارجه نحو تطورها، وتطلعها إلى التكامل نحو الملكية المطلقة (الحكم الاستبدادي)[1]. وتجلى ذلك، عندما جسم الخلفاء الأمويون في شخصيتهم المثل الوطنية، وتمتعهم بقانون يمنحهم كل مؤهلات السلطة العليا ومقوماتها وصلاحياتها، كحق التشريع، وسن القوانين، وحق إقامة العدل، وإشاعته بين الناس، وفرض الضرائب وجبايتها، وتجييش الجيوش، وتكتيب الكتائب، وتعيين العمال، وإنزال القصاص الصارم بمن يتطاولون على مصلحة الدولة، لاسيما من يتعرض منهم للسلطة الملكية، وذلك بفضل ما تتمتع به السلطة من صلاحيات مطلقة.

لقد امتاز حكام بلاد الشام بحب الوطن الذي كان يبعث الحيوية والنشاط، ويحملها على تحقيق وحدة البلاد. وكان مصدر هذا الحب التعلق بإقليم الشام، وبسكانه الذين يحملون الولاء للسلطة، التي تشحذ الروح الوطنية في النفس، والجهاد ضد العدو، خارجياً كان أم داخلياً. إذن فالسلطة كانت تعمل على إيقاظ النفوس، والاهتمام بالمصالح العامة المشتركة لهذا الإقليم، حيث تبعث الحرية التي كانت تصدر عن أعماق النفس.

لقد كان سكان بلاد الشام ينعمون بالوحدة والاستقلال المرتبط بالسلطة المركزية مباشرة، والتي يمثلها الخليفة الأموي، الذي كان يعدّ بطلاً قومياً. نظراً لحاجة الشعب له في البلاد. لأن مثل ذلك يعدّ من المتطلبات التي يقتضيها صراع الأمم. إن بروز الأمويين على رأس دولة كبيرة، جعل لها من القوة، والبطش ما يجعلهم يسيطرون على المنازعات الداخلية، ويحزمون أمرهم، لبسط سيطرتهم على الخارج.

لقد انطلقت حروب داخلية واسعة الانتشار، طويلة الأمد، ابتدأت مع وجود الدولة، وانتهت بزوالها. حيث كانت غاية معظمها توطيد تفوق الدولة، ووحدتها الاقتصادية والسياسية. فالحرب تتطلب حكومة قوية، تتخذ ـ بمنتهى السرعة ـ قرارات، تسهر على تنفيذها، مهما كانت الظروف.

---

[1] الحصني ـ محمد أديب بن تقي الدين الحصني ـ منتخبات التاريخ لدمشق ـ طبع بيروت ١٩٧٩ ـ ص١١٣.

أدرك الأمويون أن قيام سلطة قوية، كان من مقتضيات الأمم، ومتطلبات كيانها. لذلك أدركوا أنه كان لابد من أن يكون جانب السلطة قوياً، ليقضي في اختلافاتها، والانسجام التام بين أعمالها وتصرفاتها، لما فيه الخير الذي يعم الجميع.

لقد لاحظنا المنافسات، التي نشأت بين ممثلي البيوتات الكبيرة في قريش على السلطة، وتكوينهم أحزاب معارضة في أماكن مختلفة. حيث اتبع الأمويون في القضاء عليها كل أساليب الغدر والخديعة[1]. لقد كانت هذه الأسر، ترتبط ـ مع بعضها بعضاً ـ، بوشائج الدم، وأواصر التبعية، وروابط المصاهرات والتزاوج. إلا أن ذلك لم يمنع من حدة المنافسة بين هذه الأسر، رغم متانة الروابط، التي جمعت بينها.

لقد تمكن الأمويون من أن يجدوا في بطانتهم ولاة، كانوا يسعون لنصرة السلطة، ويتخذون أنصاراً ومريدين، وكانوا على أتم استعداد لشد أزر السلطة، إذا ما تعرضت للعصيان والتمرد والتآمر. علماً أن السلطة الأموية كانت واثقة من قدرتها، على التغلب على خصومها، بما تملكه من مقدرات.

أدرك الأمويون أن تمتين حكمهم الاستبدادي، يجب العمل على ترسيخه في القلوب والنفوس. انطلاقاً من سكان بلاد الشام، فعملوا على خلق الصراع الطبقي في البلاد من جهة، والصراع القبلي مع خلق توازن نسبي، بما يكفل لهم تحقيق ما يرغبون من جهة ثانية فالسلطة الأموية كانت تسعى لخلق طبقة برجوازية، تسلم إليها مقاليد الأمور في أقاليم الدولة، نتيجة شعورها بالحاجة لمثل ذلك، وكونها تقدم للإدارة الموظفين، والعمال والأموال الطائلة. بالإضافة لموقفها المعارض للأحزاب، بالعنف والاضطهاد.

لقد كان من السهل على السلطة الأموية، تأمين ولاء هذه الطبقة من العمال ومساندتها، لأنها ساعدت على خلقها، كما ساعدت على إنماء الثروة لديهم، بما عهدت إليهم من تكليف لجباية الرسوم، وبما أولتهم أيضاً من حقوق فرض الاحتكارات،

[1] من ذلك قتل، عبد الرحمن بن خالد بن الوليد بالسم، في عهد معاوية، والقضاء على ابن الزبير، وقتل أخيه مصعب، وقتل الحسين بن علي، ومصادرة الولاة، وقتل بعضهم، وغير ذلك.

وحمايتهم من مفعول القوانين، ووقوفهم إلى جانبهم ضد العراقيل، والمصاعب التي قد تثار ضدهم.

كل ذلك كان من العوامل التي هيأت لهم الظروف، التي تساعدهم على الإثراء، وأن يحققوا ما حلموا به. لقد أدركت هذه الطبقة من العمال، أن السلطة المركزية هي وحدها، التي تستطيع أن تحقق لهم مثل ذلك الشرف. وكان هذا التصرف سبباً في خلق طبقة موالية للسلطة.

لقد كانت هذه الطبقة حديثة العهد، ووصولهم إلى ما هم عليه كان بعد جهود مريرة. أي بعد أن احترف بعضهم مهنة السلاح والحرب، وبعضهم الآخر السعي لكسب السلطة، عن طريق الحرب والولاء، ويغريها لذلك العيش بحياة البزخ التي كانت تسعى إليها، وحول هذه الطبقة حشد من الخدم، وفي بيوتهم الحفلات الرائعة، التي كانت تقام بمناسبة الأعراس. تلك الحالة التي فتحت المجال واسعاً للغناء والرقص. كل ذلك كان من الأمور، التي جعلت هذا الأمير أو غيره في خدمة السلطة، وتحت تأثيرها.

لقد وضع الأمويون حدوداً لحريات الفرد والجماعات، وبين ما لها من حقوق وما عليها من واجبات والتزامات وأعراف وعادات. كان ذلك من عوامل الحد من سلطة الشعب، وزيادة في استبداد السلطة وقدرتها. فمثلاً كان عدد الموالي عندما سيطر الأمويون في ازدياد، نتيجة الفتوحات التي أوجدت الرقيق عن طريق الأسر أو الإهداء. فالعمال كثيراً ما كانوا يبعثون بمئات أو ألوف من الرقيق الأبيض، أو الأسود إلى بلاط الخليفة هدية، أو بدلاً من خراج أو نحوه[1].

وكان الخليفة يفرق ذلك في أهله وبطانته، أو قواده. وكان هؤلاء أيضاً يفرقون الرقيق فيمن حولهم، أو يبيعونهم، فينتقل الرقيق إلى الناس على اختلاف طبقاتهم، ومن أنجب من الأرقاء أو أعتق صار مولى، بالإضافة إلى أولئك الذين كانوا يدخلون في الولاء، بالعقد وغيره.

نتيجة ما ورد تزايد عدد الموالي في العصر الأموي تزايداً لا حدود له. فاستخدمهم العرب في مصالحهم الصناعية، أو الزراعية أو العلمية، وبعضهم الآخر في الدينية. بينما استقل العرب بالرياسة والسياسة. ومع كثرتهم أصبح بعضهم من القراء والشعراء والمغنين والكتاب والحجاب. علماً أن

---

[1] المسعودي - مروج الذهب - ج٢ - ص٣٥٤ .

طبقة الموالي لم يوضع لها قيود، تحد من حريتهـا في ممارسة حياتها العادية، كما يمارسها العرب، فبعضهم كان بإمكانه أن يبتاع العبيد ويعتقهم، فيصيرون منه وإليه، وهكذا الحال بالنسبة لعبد المولى، حيث يسمح القانون آنذاك أن يصبح مولى، وهكذا دواليك[1].

إلا أن الأمويين حدوا من حرية الموالي لكثرتهم، وتعدد جنسيتهم. فمنهم التركي والديلمي والرومي والبربري والخراساني والسندي، فسخرهم العرب آنذاك بما يحتاجون إليه من المهن والصناعات والآداب وغيرها.

يضاف إلى ما ورد الموالي المحاربون. ففي بعض القبائل العربية، كان منهم عدد كبير. فإذا خرجت القبيلة للحرب، خرجوا معها، وحاربوا في سبيل نصرتها. أما نسبتهم إلى عدد السكان الأصليين، فكانت تختلف من عهد إلى آخر. ففي عهد علي كانت نسبة الموالي إلى الأحرار، ممن يخرجون للحرب من واحد إلى خمسة[2] من العرب الأحرار.

ثم تفاقم هذا العدد في العصر الأموي، حتى زاد عددهم على عدد الأحرار. علماً أن بني أمية كانوا يحتقرونهم ويضطهدونهم، والموالي يعبرون عن ذلك، أو يفرون من سلطانهم إلى أطراف الدولة. وممّن رفض الجور ميمون بن إبراهيم الموصلي المغني المشهور[3].

وكثيراً ما يذكر عن تعصب الأمويين للعرب على سواهم. قد يكون هذا صحيحاً بالنسبة لسكان بلاد الشام على بقية العرب، سواء في العراق، أو في الجزيرة العربية، أو في أي منطقة أخرى. وقد نرى تعصب الأمويين، لبعض القبائل في بلاد الشام على غيرها. كتعصبهم لليمانية، وتفضيلهم إياها في العطاء على من سواها، حتى كادت تساوي الأمويين أنفسهم في العطاء. لماذا؟ لأن هذه القبيلة كانت عماد سلطة الأمويين، وعليها جل اعتمادهم.

مما ورد لا يمكن لنا أن نعمم، ونقول التعصب للعرب، ولكل العرب دون تمييز، وكيف نعده تعصباً للعرب، والعصر الأموي يعدّ عصر الهموم العربي، نظراً لما حدث فيه من حروب داخلية،

---

[1] ابن قتيبة ـ المعارف ـ ص١٩٧.

[2] ابن الأثير ـ عز الدين أبي الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني ـ الكامل في التاريخ ـ طبع بيروت ـ دار صادر ـ ١٩٦٥ ـ ج٣ ـ ص١٧٣.

[3] الأصفهاني ـ الأغاني ـ ج٥ ـ ص١٥٤.

بدأت قبل بداية الدولة الأموية، وانتهت بنهايتها. حيث لم تهدأ الثورات والحروب. ومن خلال ذلك، أعتقد أن الأمويين لم يتعصبوا للعرب كلّ العرب. وإنما لبعض قبائل بلاد الشام على كل العرب، ولم يكن الموالي إلا كبقية العرب خارج بلاد الشام، وتأكيداً على ذلك توجيه طارق بن زياد ـ وهو من الموالي ـ على رأس جيش لفتح الأندلس، وغير ذلك من تفضيل الأمويين لأهل الذمة في مجالات مختلفة. فهم عماد الإدارة الأموية قبل التعريب وبعده.

ومهما يكن فلقد تعصب الأمويون لعرب بلاد الشام، ودافعهم لذلك استمرار سلطتهم، لا لشيء سوى ذلك. وكان تعصبهم للعرب في بلاد الشام أن تفرقت القلوب ضد بني أمية، وأصبح الموالي عوناً لكل من خلع الطاعة، أو طلب الخلافة. أي أن كل من كان يقوم ضد الأمويين، كان يستعين بهم وبالعبيد. وأشهر من حاربهم بالعبيد والموالي المختار ابن أبي عبيد في العراق، عندما ثار مطالباً بدم الحسين سنة (٦٦هـ)، وطلبه الخلافة لمحمد بن الحنفية. فكان عدد الموالي في جنده أضعاف عدد الأحرار[1]، وكان دورهم فعالاً فاق في شدته الأحرار، لنقمتهم على أسيادهم، لذلك كان قتلاهم ـ كما يذكر ابن الأثير ـ أكثر بكثير من غيرهم. لقد كان المختار أول من جند الموالي وفاز بهم. وكان ما فعله، أن جعل الموالي يستخفون بالسلطة، وينصرون أعداءها، مما اضطر بني أمية لاسترضائهم بالعطاء ونحوه. فكان معاوية أول من فرض لهم العطاء[2].

ومن جهة أخرى كان بعض الموالي ثقة عند سيده. إذا أنس منه رضاه، وعامله معاملة حسنة، حيث اضطر الخلفاء ـ لما لهم من قوة ـ إلى تقريب بعضهم، فكانوا يعهدون لهم بمهام، ويرفعون بعضهم الآخر. كما كانوا يستشيرونهم في بعض الأمور. علماً أن بعض الموالي قد يكون من أصل رفيع، حيث يرقى بعضهم إلى أعلى المراتب. ولنا من طارق بن زياد، وكان من الموالي، مثال على ذلك، عندما كلف بقيادة الجيش الذي فتح الأندلس.

رغم ما ورد، يمكن عدّ الموالي أعداء للدولة الأموية، يقومون مع المعارضة، أينما كانت، انتقاماً لما كانوا يقاسونه من الاحتقار والجور. ومن القوانين التي سنت عليهم آنذاك، منعهم من الزواج بالعربيات[3] فمثلاً الشاعر محمد بن بشير الخارجي، وكان الموالي عندما أراد أن يخطب امرأة

---

[1] ابن الأثير ـ الكامل في التاريخ ـ ج٤ ـ ص١٢١.

[2] ابن عبد ربه ـ العقد الفريد ـ ج٢ ـ ص٢٤٩ ـ ابن الأثير ـ الكامل في التاريخ ـ ج٥ ـ ص٢٤. ابن قتيبة ـ المعارف ـ ص١١٥.

[3] المسعودي ـ مروج الذهب ـ ص١٩٦ . ابن قتيبة ص١٦٧ ـ ابن عبد ربه ـ ج٢ ـ ص١٣٢ ـ ٢٣٢ ـ الأغاني ـ ج١٢ ـ ص١٥٠.

لنفسه. لم يستشر أباها وأهلها، وإنما كان يخطبها من سيدها، وقراره هو الحسم في ذلك[1] أي أن زواج الموالي من العربيات، لم يكن محرماً في الدين، إقتداءً بما فعله الرسول (ص). عندما أعتق صفية بنت حي بن أخطب وتزوجها، وأعتق زيد بن حارثة، وزوجه زينب بنت جحش.

أما أهل الذمة، أصحاب الكتب المقدسة، والذمة تعني العهد والأمان والضمان. وأهل الذمة هم المستوطنون العرب في بلاد الإسلام من غير المسلمين. وسموا بذلك، لأنهم دفعوا الجزية أماناً على أرواحهم وأعراضهم وأموالهم. وفي التاريخ الإسلامي عهود كثيرة كتبت لأهل الذمة، عاهدهم فيها المسلمون بالحماية، وتسهيل أعمالهم، مقابل ما يؤدونه من الجزية[2].

أما الأمويون، فقد ضيقوا على أهل الذمة من جهة الجزية والغاية من ذلك جمع الأموال لاصطناع الأحزاب من جهة، والتمتع بمباهج الدنيا من جهة ثانية. وتحقيقاً لذلك، فقد رفعوا من قيمة الجزية والخراج، وشددوا في تحصيلها، وضيقوا عليهم حتى أخذوا الجزية ممن أسلم. وحتى فرضها الأمويون على الرهبان، لأن هؤلاء - قبل الأمويين - كانوا لا يدفعون جزية، حتى كان عهد عمر بن عبد العزيز[3] فرفعها عنهم، إلا أنه من بعده عاد على ما كان عليهم.

ذكرنا أن الأمويين اهتموا بجمع الأموال، وأهل الذمة كانوا أقدر على مساعدتهم في جمعها، لاقتدارهم على الأعمال الإدارية وما شاكلها، بما يتناسب مع ذلك، فاستخدموهم في هذا السبيل. ويؤكد على ذلك تولية خالد القسري العراقين. علماً أن أمه مسيحية رومية، فكان خالد هذا يولي أهل الذمة، ويطلق أيديهم. لقد كان أهل الذمة - رغم ذلك - يدخلون المساجد، فلا يعترضهم أحد، والأخطل الشاعر، كان يدخل على عبد الملك بن مروان بغير إذن[4].

إن الإدارة الأموية، وهيئاتها المنظمة بمؤسساتها، كانت تقوم كلها تحت إشراف السلطة ورعايتها، فأتاح ذلك خلق أحزاب متباينة أصلاً وفعلاً وأوضاعاً، حيث كانت هذه الإدارة

---

[1] ابن عبد ربه - العقد الفريد - ج٢ - ص٧٣.

[2] كتاب رسول الله (ص) إلى صاحب ابله في العقبة (ابن هشام ج٣ - ص٤٠) وكتابه أيضاً إلى أهل أذرع أثناء غزوة تبوك. السنة التاسعة للهجرة (فتوح - البلدان للبلاذري - ص٦٠).

[3] ابن عبد ربه - العقد الفريد - ج٢ - ص٢٦٣ - ابن الأثير - الكامل في التاريخ - ج٥ - ص٣١.

[4] الأصفهاني - الأغاني - ج٧ - ص٧٤ - ١٧٨ - ج١٩ - ص١٩ - ص٥٩ - ج١ - ص٧٣.

والقائمون عليها، تقف من المعارضة موقف العنف والشـدة، حيـث كـانت تـرى ذلـك بالنسبة لها ولترفها مسألة موت أو حياة.

إذن كان الأمويون يقبضون على السلطة بيد من حديد، حيث عدّوهـا هبـة مـن الله، وحقـاً مكتسباً لهم. حتـى أن بعـض الأمـراء ـ كالحجـاج ـ كـان يفضـل الخلفـاء الأمويـين علـى الأنبيـاء والملائكة. فالخليفة إذن كان مسؤولاً أمام الله وحده، يتمتع بكـل السـلطات العليـا والصلاحيـات، كحق إعلان الحرب، وعقد المعاهدات الـتي تعيـد السـلام لسـلطتهم المطلقـة، ويفـرض إرادتـه علـى رعاياه. لأنه وحده هو الذي يملك سلطة التشريع، وإصدار القوانين. والحكم الذي يصـدره لا يقبـل المراجعة. وهو المتصرف بأموال الدولة، يوزعها حسب هواه.

وكان عليه أن يحترم القسم الذي أداه أثناء توليته العهد. هذا القسم الذي يلقي عليه مسؤولية ضخمة. إلا أن أكثر هذه العهود كان يغدر بها،وتذهب أدراج الريـاح، إذا لم يكتـب لهـا النجـاح. لذلك، كنا نرى أنه ليس من حريات ـ عامة أو خاصـة ـ في وسـعها الوقوف بوجه السـلطة أو الحد منها.

حاول الأمويون توجيه سياسة البلاد الاقتصادية، بما يتناسب ومصلحتهم، كما حاولوا تطبيق سياسة الاكتفاء الذاتي في الاقتصاد، لكي تنعم كل طبقات الشعب بحياة اجتماعية أفضل. لكن عدم توزيع الثروة القومية، كان غير عادل حتى في بلاد الشام، مما جعـل بعـض طبقـات الشـعب تعمـل، لعدم توطيد نظام الحكم المستبد. رغم مـا يميز الواحـدة منهـا عـن غيرهـا. ورغـم مـا لبعضهـا مـن الامتيازات أو المنافسات بعضها لبعض، وحتى الطبقة التي كانت تنعم في حياتها، وتقدم لها إعفاءات واستثناءات، وغير ذلك من روابط، تشدها إلى السلطة بأوثق أواصر الولاء. لم تخل مـن تنـاقض مـع السلطة.

ووجود الدولة الأموية ـ منذ البداية ـ خلق حروباً دينية دامية، أدت إلى تعزيز الحكم المطلق في البلاد. علماً أن مثل هذه الحروب، كانت قد حدّت من تطور البلاد في مرافقها التجارية والصناعيـة وحتى التجارية. بعد أن عمها الخراب، إلا أن الحكومة الأموية، ـ رغم ذلك ـ اسـتطاعت أن تمضـي قدماً، في توجيه الحياة الاقتصادية عن طريق إدارتها، وخاصة في المناطق التي انكمش فيها ظل الخليفة الأموي، محاولين بذلك مضاعفة نفوذهم. ورغم الحروب، فقد تاقت البلاد ـ بمـلء جوارحهـا ـ إلى

الهدوء والسلام، وإلى قيام سلطة تثبت وجودها. لأن هذه الحروب، بمختلفها ذهبت بزهرة القادة الشباب، وبخيرة الأشراف في البلاد.

فالطبقة الواصلة إلى إدارة الدولة حديثاً كانت مدانة للخليفة وحده، والشعور الوطني الذي خلفته هذه الحروب، والحقد الذي كتمته للأحزاب المعارضة، والخوف الذي شكلته هذه الأحزاب. كل ذلك كان مؤيداً للسلطة، معززاً لها. لذلك يمكن أن نرى هذه الحروب، قد أثارت في البلاد جدلاً ومناقشات ومشاحنات، ترك فيها سكان البلاد الأمور السياسية، وأمور الحكم للسلطة كي تدير شؤونها، كما تريد. فكان ذلك من دوافع زيادة شعبية الأمويين في بلاد الشام، والتعلق بهم.

أما من الناحية التجارية، فلقد نهجت السلطة الأموية سياسة ناجحة، حيث جعلتها هذه السياسة تتدخل بحياة البلاد الاقتصادية. ولما كانت الدولة في مواجهة الإمبراطورية البيزنطية، فقد أخذت تنمي مواردها العامة، ووسائل دفاعها، كالبحرية ومناعاتها. لقد حلت على التجار روح الجشع، فأخذوا يطلبون أثماناً وأجوراً غالية ما كانوا يطلبونها، لولا روح الخلخلة السياسية التي اجتاحت البلاد، من الحروب الدموية الطويلة الأمد.

أما الطرق والجسور، فكان يجري عليها عمليات إصلاح دائمة، لتأمين عملية التجارة. ونشاط التجارة شجع الدولة على بناء أساطيل بحرية، ربطت ساحل الشام، بغيره من الموانئ العالمية في الشرق والغرب. لقد كانت أسواق بلاد الشام تعج بالمتاجر والمصانع. ويرجع هذا إلى موقعها الممتاز من جهة، وإلى تجارتها وتجارها وخدمتهم وحبهم للمغامرة، من جهة ثانية حيث لم يكن ينافسهم في دهائهم التجاري أحد من غيرهم.

فكانت السفن التجارية تخترق البحار شرقاً وغرباً، يفرغون تجارتهم في الموانئ البحرية، وينقلون منها موارد جديدة بحرية تجارية ترد إلى هذه الموانئ، حيث كانت تنقل براً أو بحراً إلى أسواق داخلية وخارجية. وبفضل حركة التجارة ونشاطها، ارتفعت أسواق بلاد الشام إلى أعلى درجات الثروة والغنى، محتفظة بمكانتها التجارية.

لقد كان تجار بلاد الشام، يتمتعون بثراء عظيم، وبمظاهر الترف، قلما استمتع بها أمثالهم.

فهم كانوا يقومون بمغامرات تجارية في أقطار نائية، تتناسب أرباحهم مع ما كانت تتعرض له أسواقهم من الخطر.

وأهم وسائل النقل البري كانت الإبل، والخيل، والبغال، والحمير، والرجال. إلا أن الحصان كان أثمن من أن يستخدم في حمل الأثقال. لقد كان الجمل سفينة الصحراء، يحمل معظم التجارة الداخلية، حيث كان التجار يقودون قوافل تخترق بلاد الشام إلى أنحاء العالم الإسلامي وخارجه، علماً أن التجارة كانت لها قيود (ترانزيت).

لقد كانت التجارة عملاً تخصصت به بلاد الشام، وكادت أن تحتكره في عهد الأمويين. فأحمالهم وسلعهم وسفنهم كانت تجتاز الصحراء والجبال والبحار، حتى أصبحوا حلقة الاتصال التجاري في العالم الإسلامي، ويعينهم على النجاح مهارتهم، وقدرتهم على الاستيعاب في التعامل مع أمثالهم.

لقد تمكنت بلاد الشام في العهد الأموي من تطوير التجارة البحرية. عندما عمل العرب على إثبات سطوح السفن في المتوسط بمسامير[1] من حديد، وعملوا على طليها بالقطران منعاً لتسرب الماء إلى داخلها[2]. وفي هذا المجال يذكر أن سفن الحجاج بلغت جزيرة سيلان، حيث تعرضت ـ في بعض الأحيان في المياه الشرقية، ـ لغارات القرصان الهنود[3].

وكان عبد الملك بن مروان قد أنشأ داراً لصناعة السفن[4] علماً أن معاوية كان قد سبقه إلى إنشاء مثل ذلك في عكا. ثم نقل ابنه هذا المركز إلى صور[5].

وكان الإصلاح النقدي، الذي أحدثه عبد الملك بن مروان في بلاد الشام، قد أدى إلى ازدهار البلاد اقتصادياً وخاصةً من الناحية الزراعية.

---

(1) فيليب حتي ـ تاريخ سورية ولبنان وفلسطين ـ ج٢ـ ص١٠٢-١٠٣.

(2) البلاذري ـ الفتوح ـ ص٤٣٥.

(3) ابن خلدون ـ المقدمة ـ طبع بيروت بدون تاريخ ـ ص٢١١.

(4) فيليب حتي ـ ج٢ ـ ص ١٠٣.

(5) أمر عبد الملك بن مروان بضرب الدرهم سنة ست وسبعين، ثم أمر بعد ذلك بضرب الدنانير، وهو أول من ضربها في الإسلام، وإنما كانت الدراهم والدنانير قبل ذلك مما ضربت العجم (الأخبار الطوال ـ لأبي حنيفة الدنيوري ـ ص٣١٦.

لقد كان الاقتصاد الزراعي من المشروعات الفردية. علماً أن امتلاك الفلاحين للأراضي التي يقومون بزراعتها، كان هو القاعدة المعمول بها في الزراعة، وكثير من الزراع كانوا يضطرون للخضوع للإقطاعي، أو للولاة، الذين أصبحوا بدورهم إقطاعيين، ومما يرغمهم على ذلك الجفاف، والعجز عن فلاحة الأرض، والضرائب، والحروب، وغير ذلك.

إذن لقد اهتم معاوية بالنواحي الاقتصادية، ودفعه لذلك الانفاق على مشاريعه الحربية ضد البيزنطيين. وكان ذلك موضع اهتمامه، منذ أن انفرد بشؤون الشام. أما الموارد المعدنية التي يحتويها باطن الأرض، فكانت ملكاً للدولة. إلا أن معظمها كانت تستعملها هيئات خاصة، بعد أن تستأجرها من الحكومة.

ومعظم عمال الصناعة كان يرغمهم على العمل، عدم رغبتهم في الموت جوعاً. علماً أن الدولة كانت تنتج في مصانعها، معظم ما يحتاجه الجيش والموظفون والحاشية من البضائع. فصناعة المنسوجات كانت منتشرة بشكل واسع، وبمختلف أنواعها. علماً أن أغلاها وأفضلها. لم يكن يسمح بارتدائه، إلا للأسرة الحاكمة، وكبار الموظفين.

فازدهرت دمشق بنسيج التيل الدمشقي[1]. كما اشتهرت أيضاً بالسيوف المصنوعة من الصلب[2]. كما اشتهرت صيدا وصور بزجاجهما الذي لا يدانيه زجاج في رقته وصفائه. وكما اشتهرت الرقة والساحل السوري بزيت الزيتون والصابون، حيث بلغت الدولة الإسلامية في العهد الأموي درجة من الرخاء الصناعي.

لقد اعتمدت السلطة الأموية مبدأ المركزية ضد الأحزاب المعارضة، والمطالب المحلية. وكان ذلك مما شجع السلطة في الرغبة الفردية في التحكم بهذه الأحزاب؛ وعلمت السلطة أن هذا لا يمكن تحقيقه إلا على أيدي ولاة أقوياء الجانب شديدي الشكيمة.

وحكمهم المطلق زاد من المعارضة الاجتماعية. عندما حاولت المعارضة ـ متمثلة بالأحزاب ـ من تنظيم مرافقها الاقتصادية، بما يجيز لها ضد سلطة بني أمية. وقد تجلى ذلك منذ البداية في موقف

---

[1] ويل ديورانت ـ قصة الحضارة ـ ترجمة زكي نجيب ـ محمود ثميره ـ طبع القاهرة ١٩٧٣ ـ ج١٣ ـ ص١٠٨.

[2] المرجع نفسه ـ ج١٣ ـ ص١٠٨.

الحسين بن علي، وفي موقف ابن الزبير، عندما كون دولة لها مقوماتها الاقتصادية، ثم في ثورة المختار، واستقلاله بالعراق ومقوماتها الاقتصادية أيضاً. إن أعمال الأمويين - في معاملتهم لأحزاب المعارضة من أهل البلاد - لا تمت بصلة لمصالح البلاد، بل كانت غايتهم من ذلك مصلحتهم. فأخذوا يحسنون وفادة الوافدين، مهما كان لونهم أو دينهم.

والحروب الداخلية والخارجية أدت إلى ضعف الحالة الاقتصادية. علماً أن غايتها - أي غاية المعارضة، خلال العصر الأموي - كانت الانتقال بالبلاد، من حكم مطلق مستبد، إلى حكم ديمقراطي سليم. لقد أخذت المعارضة تذيع على الناس نشرات تثير الشغب، وتذكي حقده ضد السلطة، بعد أن رمتها بكل فردية، وما أخذت عليها من مؤاخذات، في ما تم لها من ثراء وغنى لا يحد.

لقد كان صراع الأمويين مع أحزاب المعارضة ذا أثر على كلا الطرفين. فأنزلت الدمار بالبلاد من الناحية الاقتصادية، فكان ذلك أن زادت من شقة الخلاف بينهما، حتى تمكن العباسيون، بدعوتهم الناجحة من السيطرة على الحكم، ونقل عاصمة الدولة من بلاد الشام إلى العراق.

لقد اتخذ الأمويون - على مدى حدودهم مع بيزنطة - سلسلة من القلاع، والحصون المحصنة، حيث لم يكن اختيار المواقع الثغرية على أطراف بلاد الشام، أو بلاد المسلمين اختياراً عشوائياً بحتاً. فالواقع أن اختيار هذه الأماكن فرضته ظروف كثيرة، لعب العامل الاقتصادي فيها دوراً كبيراً. أما إقامة قوات تدافع عن مناطق الحدود، فكان لابد لها من توفر موارد ثابتة للإعاشة على الأقل، سواء من ناحية المأكل، أو المشرب، أو التسلح. علماً أن غالبية القلاع الثغرية كانت تتمتع، بخصوبة عالية في تربتها، وبخضرة دائمة في أرضها، وبوفرة في مياهها، سواء من الأنهار أو من الأمطار، وبعضها الآخر كان يتخذ مركزاً تجارياً هاماً، كما هي الحال بالنسبة لثغر مرعش[1]، الذي كان - منذ أقدم العصور - واحداً من أهم المراكز التجارية الهامة على أطراف سورية. كذلك كان ثغر فلسطين، الذي كانت له أهمية تجارية كبيرة، بل إن الثغور الشامية، كانت مراكز تجارية هامة في السهول الشرقية للمتوسط.

---

[1] مرعش: مدينة في الثغور بين الشام وبلاد الروم لها سوران وخندق في وسطها حصن عليه سور - ياقوت - المعجم - ج٥ - ص١٠٧ - علي عبد السميع الجنزوري - الثغور البرية الإسلامية على حدود الدولة البيزنطية في العصور الوسطى (طبعة مصر ١٩٧٩) ص١٦١.

فثغر طرطوس كان كثير الخصب والغلات والكروم. وقد اشتهرت بصناعة النبيذ الفاخر، والأواني المخروطية[1]، وفيها من الحمامات والخانات، مما اشتهر لها بغناها الاقتصادي، ورواج التجارة فيها. أما المصيصة[2]، فكانت كثيرة الخضرة، وكثرت فيها الماشية والكروم[3]، لوفرة المراعي، وكثرت فيها البساتين التي تسقى من نهر جيحان[4]، وكثر فيها الصناع. كما اشتهرت مرعش والحدث[*] بأنهما كان لهما زروع وأشجار وفواكه. فقد اشتهرت مرعش بحدائقها. وأما فلسطين، - فاشتهرت كونها تقع في سهل خصيب غني ــ بالخيرات من كل نوع، وفيها يكثر القمح والقطن والفواكه، والمراعي المشهورة.

لقد عمل الأمويون على توسيع الجيش وتقويته، بما يتناسب مع حجم المعارضة الداخلية، والمخاطر الخارجية. ولتحقيق ذلك كان لا بد من جباية الأموال، ولو بطرق غير مشروعة، تأميناً لموارد طائلة تقتضيها طبيعة المرحلة.

لقد عرفت التجارة - كما ذكرنا - نشاطاً متزايداً، حيث توافد على البلاد مواكب التجار، ومعلموا المهن والحرف والصناع. يدفعهم لذلك كون عاصمة الدولة الإسلامية هي عاصمة لبلاد الشام / دمشق.

لقد تمكن التجار من أن يتبادلوا، مع بعضهم بعضاً داخلياً وخارجياً، وأن يتقاسموا السلع، فزاد النقد في التداول، إلى جانب الاتجار بأدوات البذخ والزينة، حيث أصبحت تجارة المحاصيل، والغلال الزراعية في اضطراد، ونمو مستمر. لقد تمكن الأمويون من استغلال الاقتصاد لحل الأزمة السياسية، حتى وصل مرحلة نضب فيها بيت المال، في سبيل تأمين أود الجيش. عندئذ كان يفرض على الشعب ضرائب ورسوم تزيد على طاقته.

---

[1] ابن مسكويه - تجارب الأمم - تحقيق مجموعه - طبع مجمع اللغة العربية بدمشق - ج٢ - ص٢١٢.

[2] المصيصة - على شاطىء جيحان من ثغور الشام بين انطاكيه وبلاد الروم تقارب طرسوس ــ ياقوت ــ معجم البلدان ــ ج٥ ــ ص١٤٥.

[3] ابن حوقل - صورة الأرض - طبعة بيروت - مكتبة دار الحياة - ص١٨٣ - ١٨٤.

[4] ابن حوقل - صورة الأرض - ص١٨٣، نهر جيحان - نهر بالمصيصة بالثغر الشامي - ياقوت - المعجم - ج٢ - ص١٩٦.

[*] الحدث - قلعة حصينة بين ملطية وسمسياط ومرعش من الثغور - ياقوت الحموي - المعجم - ج٢ - ص٢٢٧.

إن بعض الإصلاحات الأموية كشفت معارضة. وللرد من الأمويين على ذلك، كان الجيش الأموي في بلاد الشام، ـ وعلى الأخص في دمشق ـ كان الحرس الخاص، الذي عهد إليه السهر على أمن وسلامة السلطة، وتصفية كل من تحدثه نفسه بالخيانة والغدر، كما وأوكلت لهم مهمة مراقبة كل من تحوم حولهم الظنون، فأوكل إليهم تصفية كثير من رجال المعارضة.

أخيراً، إن الصراع الطبقي أعطى نتائج ومعطيات كانت، ـ ومازالت ـ منذ البداية، الدولة فيه هي الحكم المطلق والسيد. لذلك، كنا نرى الدولة تشد أحياناً من حدَّة هذا الصراع الطبقي؛ وأحياناً توازن بين هذه الطبقات، بما يحقق لها الأمن والاستقرار. إلا أن الأمويين كانوا هم المستفيدون نهائياً من هذا الصراع. بيد أنه كان في النهاية وبالاً عليهم، ومن عوامل ضعفهم، وتقصير الفترة التي سيطروا فيها على الدولة. مما ساعد على قيام أسرة قرشية جديدة مكانها هي أسرة العباسيين.

السمات الرئيسية للاقتصاد العربي:

كان الاقتصاد العربي قبل الإسلام رعوياً وشبه زراعي، وعاجزاً عن استخدام مجموع اليد العاملة القادرة على العمل. وكانت الحياة قبلية، ولكل قبيلة نظمها الاقتصادية الخاصة بها. ومع هذا، فقد كان للعرب أسواق اقتصادية وأدبية، تجري فيها عملية تبادل المنتوجات والأفكار. وعندما جاء الإسلام وحد القبائل العربية. وظهرت حاجة الوحدة السياسية إلى وحدة اقتصادية، أي وضع برنامج اقتصادي مخطط ومدروس، يطرح قضيتين أساسيتين للمجتمع العربي المكوّن حديثاً وهما:

أولاً: توفير المواد الضرورية.

ثانياً: توجيه الاستثمار ليحقق التطور في الدخل، وتحسين المستوى المعاشي للأفراد. وذلك من خلال التدابير التالية:

أ ـ توجيه الاستثمار، ليحقق أكبر وأسرع معدل ممكن لزيادة الإنتاج.

ب ـ توجيه الاستثمار نحو القطاع الزراعي، لزيادة المواد الغذائية الضرورية، لإشباع حاجات الشعب.

ج ـ توجيه الاستثمار نحو صناعات ضرورية، لإشباع حاجات ا لفلاحين والصناع.

وكانت الحاجات الواجب إشباعها في المجتمع العربي إبان صدر الإسلام محدودة. نظراً لبساطة الحياة السائدة، وعدم التهافت على الرفاهية، وما تتطلبه من منتجات. وكانت تلبية هذه الحاجات تتم عن طريق تربية المواشي، والزراعة المحدودة، وبعض المبادلات التجارية مع الهند وشرقي أفريقية، وبعد أن غدت التجارة مع العراق وبلاد الشام عرضة للانقطاع، بسبب حالة العداء، التي سادت بين الدولة العربية الإسلامية الفتية والإمبراطوريتين البيزنطية والفارسية.

ومن المؤكد أن حاجات المجتمع العربي الإسلامي قد تزايدت مع بداية حشد الجيوش، ودفعها لتحقيق الفتوحات. لذا كان لابد في ـ مرحلة الفتوحات الأولى ـ من تعبئة الطاقة الاقتصادية الذاتية المحدودة في الجزيرة العربية، ووضعها في خدمة الحرب. أي تبني أسلوب بسيط من أساليب الاقتصاد في الجزيرة العربية، ووضعها في خدمة الحرب.

أي تبني أسلوب بسيط من أساليب الاقتصاد الحربي، يعتمد على حشد إمكانات الأفراد والقبائل والدولة، بشكل يسمح بتجييش الجيوش الأولى، وتسليحها وتموينها، حتى تكون قادرة على تنفيذ المراحل الأولى من المهمة (الوصول إلى أرض الخصم). على أن تقوم هذه الجيوش ـ بعد ذلك ـ بسد متطلباتها الإدارية، عن طريق الإمداد المتعاقب، الذي يصلها من عاصمة الدولة العربية الإسلامية، بالإضافة إلى ما تنتزعه من مناطق العدو، وما تغنمه من الخصم إبان المعارك.

ولقد تطور الاقتصاد العربي الإسلامي في المراحل التالية، وأصبحت تلبية حاجات المجتمع العربي الإسلامي تتم عن طريق الزراعة، التي اتسع نطاقها مع الفتح، والصناعات الحرفية التي تطورت منذ اختلاط العرب الفاتحين، مع سكان الشام والعراق ومصر، وانفتاحهم على الحضارتين البيزنطية والفارسية، وتماسهم مع الصينيين والهنود والإسبان. فنتجت عن ذلك ـ علاقات اقتصادية ـ داخل كل مصر، وبين مختلف الأمصار أكثر تطوراً من العلاقات التي كانت قائمة قبل الفتح، وأخذ المجتمع، في ظل الاستقرار والأمن، شكلاً أقرب إلى المجتمع الزراعي من ذي قبل، مع بقاء سمات المجتمع الرعوي شبه الزراعي سائدة، وبنسب متباينة، في المناطق الصحراوية (بادية الشام، الجزيرة العربية، شمالي أفريقية).

وعملت الدولة العربية الجديدة على إعادة تنظيم الاقتصاد، مستفيدة من ريع الأراضي الجديدة، وما يرد إلى بيت المال من الغنائم. وشملت إعادة تنظيم اليد العاملة، واستثمار الموارد الطبيعية، وحركة الثروة. وفي هذا الإطار قامت الدولة بإعداد المواطنين للقيام بوظائفهم، والنهوض بخدمات الدولة بشرف ووفاء. فتطورت من جراء ذلك قدراتهم وتعددت اختصاصاتهم. فكان فيهم الصانع والفلاح والمهندس والطبيب.

ولم تسمح الدولة بإخضاع الفلاح لمالك الأرض، الذي لم يكن له أي حق في إساءة معاملة الفلاحين، أو قهرهم، أو التصرف في حياتهم الاجتماعية. وبقي حق المالك محصوراً في الحصول على نسبة معينة من المحصول.

وإذا لم يكن في طاقة الإنسان أن يمارس نشاطاً عملياً، فالدولة تؤمن له السكن والغذاء الكافي والملبس اللائق، وتهيئ له أسباب الزواج والتعليم والحاجات الضرورية من وسائل الصحة، وما يحتاج إليه من أدوية. يقول الطبري: إن هشام بن عبد الملك قال: (يا سالم قد سكن بعض ما كنت أجد، فانصرف إلى أهلك، وخلف الدواء عندي).

وإذا عجز العامل أو الفلاح عن وفاء ما استدانه من الآخرين، فلا يجوز مطالبته بفظاظة أو إيقاع الحجز عليه، بل من الواجب انتظاره لحين يسره، وإلا كان على الدولة تسديد ما عليه من بيت المال (الخزينة)، الذي يضم المال المجمع من الزكاة، والأنفال، وخمس الغنائم، وبعض الموارد الأخرى. وحتى لا تؤدي البطالة إلى تعطيل الإنتاج، كان الولاة يحضون الناس على العمل، والسعي لكسب الرزق، وينهون عن السؤال والبطالة.

ومع تطور الاقتصاد العربي الإسلامي، حدث تطور مماثل في الاقتصاد الحربي، الذي أخذ شكل تعبئة لموارد الدولة كلها، وتوجيهها لدعم الجهد الرئيسي للحرب، مع متابعة الاعتماد على موارد مسارح العمليات، كمصدر أساسي من مصادر إمداد القوات. الأمر الذي كان يفرض على الجيوش العربية التريث، وعدم توسيع النشاطات القتالية في المناطق التي يصيبها القحط، ويغدو من المتعذر الاستفادة من مواردها، لتموين القطعات المحاربة. يقول الطبري: (وفي هذه السنة كان القحط الشديد بالشام، حتى لم يقدروا من شدته على الغزو).

وقد اهتم القادة العرب المسلمون في جميع المراحل بعملية الإمداد والتموين في كل صورها (النقل والإسكان والإمداد للقوات). فعند قيام أي حرب، كان يسبقها استعداد اقتصادي شامل وواسع وعميق، يتضمن تخزين الحكومة للمواد الهامة، وإعداد احتياطي لوسائل الإنتاج ومعداته، وزيادة الطاقة الإنتاجية، اعتماداً على دراسة تقارن بين الحاجات المتوقعة والإمكانات المتاحة.

بيد أن تعبئة الاقتصاد لأغراض الحرب، بقيت محصورة في نطاق الحاجات الضرورية، والظروف الضاغطة، حتى لا يؤدي استمرارها ـ بدون مبرر ـ إلى إنهاك الاقتصاد. ولقد وجد العرب المعادلة الدقيقة بين التعبئة المكثفة للاقتصاد في الحالات الملحة، والانصراف عن هذه التعبئة والعودة بالاقتصاد إلى حالة السلم، عندما يصبح الوضع مناسباً.

وكانت الدولة العربية تسرح كل من لا تحتاجه بعد كل معركة فاصلة، منطلقة من أن إمكاناتها الاقتصادية غير قادرة على استيعاب هذه التعبئة، وبشكل دائم، وأن التعبئة الخاطئة قد تقود أصحابها إلى الهزيمة العسكرية. يؤكد ذلك ما قاله ابن الأثير صاحب الكامل في التاريخ، في ذكر الخبر عن قتل عبد الله بن الزبير:

(وقدم عليه قوم من الأعراب فقالوا: قدمنا للقتال معك، فنظر فإذا مع كل امرئ منهم سيف، كأنه شفرة وقد خرج من غمده، فقال: يا معشر الأعراب لا قربكم الله. فوالله إن سلاحكم لرث، وإن حديثكم لغث، وإنكم لقتال في الجدب، أعداء في الخصب. فتفرقوا ولم يزل القتال بينهم دائماً). في هذا المجال، لابد من الإشارة إلى أن العودة إلى حالة السلم (التسريح)، دون تنظيم جيد، قد تسبب في فقدان نتائج النصر، التي تم الوصول إليها عن طريق القتال. والتنظيم الجيد هنا يعني:

١ ـ التسريح عندما تنتفي الحاجة. ٢ ـ تخزين العتاد والمواد الحربية. ٣ ـ بقاء القوات على معرفة دائمة بمهامها. ٤ ـ التخطيط وقت السلم، حيث يتم الانتقال من حالة السلم إلى حالة التعبئة في أسرع وقت ممكن.

ومن دراسة هذه العوامل، نلاحظ اتصالها الوثيق بالعوامل الاقتصادية لعملية التسريح، وضرورة تقرير حجم القوة اللازمة في مختلف المجالات لبقائها في الخدمة الفعلية، وتسريح ما يزيد

عنها، وتحديد حجم أدوات القتال الواجب تصنيعها لتعويض الخسائر واستكمال النواقص، دون أن يؤدي هذا التصنيع إلى عرقلة التحول، من الاقتصاد الحربي، إلى اقتصاد السلم.

عدّ العرب جميع الأعمال النافعة، من أقلها شأناً إلى أعظمها قدراً (بما في ذلك رئاسة الدولة)، داخلة كلها تحت عنوان العمل. وذكر ابن تيميه في كتاب السياسة الشرعية، أن أبا مسلم الخولاني دخل على معاوية فقال: (السلام عليك أيها الأجير، فقال من حوله، قل أيها الأمير. فأعاد ثانية ثم ثالثة أيها الأجير، ثم قال، إنما أنت أجير استأجرك رب هذه الغنم، فإن أنت داويت مرضاها ورددت أولاها على أخراها، وفاك سيدك أجرك، وإن أنت لم تفعل، عاقبك سيدك). وعلى هذا، فقد كان المجتمع العربي الإسلامي كله عاملاً، مع تفاوت في تقسيم العمل، بحسب القدرات والمواهب، ووجود بعض الاستثناءات بالنسبة إلى الأحداث والإماء من النساء.

وعلى الرغم من تفضيل القوي على الضعيف، والمنتج على الخامل، والذكي على البليد، واليد العليا على اليد السفلى، فإن هذا التفضيل لم يأخذ شكل تمييز طبقي. فالناس متساوون في الحقوق الإنسانية، ولا تفضيل لفرد على فرد في القضاء. فالكل أمام القانون سواسية. وكان دور الحسبة والقضاة إقامة العدل، وتنظيم المجتمع وفق قواعد المساواة، وتأمين الناس على أنفسهم وأموالهم.

ولقد وضع العرب المسلمون، قواعد ومبادئ لحماية العمل والعاملين، فنظموا علاقات العمل بين جميع الأطراف. فالعلاقة بين التاجر وزبائنه، وبين البائعين والمشترين، ينظمها باب البيع في الفقه. والعلاقة بين العامل وصاحب العمل، ينظمها باب الاجار، حيث العدل في التشريع، وتحديد الحقوق والواجبات بين الأطراف المذكورة. وكانت هذه القواعد عوناً للدولة العربية الإسلامية، عندما واجهت ظروفاً اقتصادية صعبة، وعبأت إمكاناتها للتنمية والفتح معاً، وكرست جزءاً كبيراً من جهودها لتجاوز التخلف والركود الفكري أو الاقتصادي.

أما التخطيط الاقتصادي العربي، فكان يتمثل في تحديد عمل المستقبل، ورسم سياسته لأمر يهم الدولة. وعلى هذا فقد كان وسيلة، تتضمن أفضل طرق الاستخدام، لموارد الأمة، بطرق صحيحة، وبناء اقتصاد قويم ومتين، يتفق مع النظم الاجتماعية التي تسير عليها الدولة، ويحترم الملكية الفردية ضمن الحدود التي رسمها الشرع، وبين قواعدها وتحديداتها. وفي مقدمتها:

﴿وَ للهِ مُلْكُ السَماوَاتِ وَالأَرْض﴾[1].

إن الإنسان خليفة الله على الأرض، وإن الأرض وخيراتها مسخرة له ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ ذَلُولاً، فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا، وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾[2].

• إن على المالك أن ينفق على أفراد أسرته، حتى يقدروا على الكسب، وأن يصرف من ماله على المحتاجين، وأن يجاهد بماله كما يجاهد بنفسه، وأن يمتنع عن الاكتناز أو تعطيل الأرض، وعدم الاستفادة منها.

• اكتساب الملكية بطرق مشروعة (العمل بكل أشكاله، النفقة، الميراث، الغنائم.. الخ)، وعدم شرعية الملكية، إذا جاءت نتيجة لعمل غير شرعي (اغتصاب مال الآخرين، الرشوة، البغاء، السرقة، الربا...الخ).

منذ أن حمل العرب راية الإسلام، وغدوا قوة فاعلة، تعمل من أجل التغيير والتحرر، أخذت القوى الخارجية، والفئات الداخلية المعارضة، موقفاً معارضاً وصدامياً. وكان من الطبيعي أن يتحول هذا الموقف إلى صدام مسلح. وعلى الرغم من أن الإسلام دين سلام، فقد كان على العرب الذين اعتنقوه وآمنوا به، أن يستعدوا للحرب، من أجل حماية أنفسهم من الضربات، بأسلوب أخذ في البداية طابع الدفاع، ثم تحول بعد ذلك إلى الهجوم الذي حمل اسم الفتح. ومن أجل الاستعداد للحرب وضع العرب المسلمون خطة شاملة للتعبئة، كان من بين بنودها تعبئة الاقتصاد (الصناعة، الزراعة، وسائط النقل)، بغية تحقيق النتائج التالية:

١ ـ الوصول بالدولة إلى الحالة التي تمكنها من صد العدو في أي وقت.

٢ ـ تحقيق النصر في الحرب الهجومية.

٣ ـ الاستعداد لخوض حرب شاملة طويلة الأمد.

٤ ـ تأمين حاجات الشعب، إبان اندلاع العمليات الحربية.

---

[1] القرآن الكريم ـ سورة آل عمران ـ الآية / ١٨٩.

[2] القرآن الكريم ـ سورة الملك ـ الآية / ١٥.

تعدّ الصناعة أهم جزء في إعداد الاقتصاد. فلقد كانت هذه الصناعة مصدر الأسلحة والمعدات، التي كان المقاتل العربي المسلم في البداية يتزود بها من ماله للمشاركة في الجهاد. واستمر الأمر على هذه الحال إلى أن أصبح للدولة فيما بعد مصانع توفر حاجة الجيش من معدات القتال الفردية (السيوف، الرماح، الخوذ...الخ)، ومعدات القتال الجماعية (الدبابات، المجانيق.. الخ)، بالإضافة إلى التجهيزات، كالألبسة العسكرية والخيام، وسروج الخيول، والمعدات الطبية.

وكانت المواد الأولية اللازمة للصناعات (باستثناء الجلود) محدودة في الجزيرة العربية، إلا أن امتداد الدولة، وفتح بلاد متقدمة (آنذاك) صناعياً، وامتلاك مواد أولية ضرورية (المعادن والأخشاب والأقمشة)، جعل بالإمكان، تطوير الصناعة، واستثمار المواد الأولية المتاحة لتأمين التعبئة الاقتصادية ـ العسكرية مما فرض تكثيف المبادلات التجارية على مصادر المواد الأولية، وربط هذه المصادر بشبكة مواصلات جيدة وآمنة.

وبهذا استطاعت الصناعة العربية الإسلامية، الإفادة من نحاس أصفهان، وحديد بكرمان مصر، وأخشاب الغابات في بلاد الشام والأندلس، وقطن مصر، وأقمشة العراق وفارس وبلاد الشام ومصر.

كان المجتمع العربي يعتمد على الزراعة، كمصدر إمداد الدولة وقواتها المسلحة بالغذاء والمواد الأولية. وكانت كل منطقة تمتاز بإنتاج زراعي. فالحنطة في بلاد الشام والعراق وخوزستان، والذرة في الجزيرة وبلاد النوبة، والقطن في مصر العليا، والفواكه في اليمن وأذربيجان وجبال أرمينية وبلاد الشام والأندلس، والزيتون على شواطئ البحر الأبيض المتوسط، والتمور في العراق والجزيرة العربية، والسمسم في مناطق البصرة، وقصب السكر في كابول ومصر.

ونظراً لتعدد الزراعات بتباين مناخ الأمصار، فقد نشأت مع تكون الدولة، مبادلات تجارية ساعدت على رفع مستوى الحياة بشكل عام، وتأمين متطلبات القوات المسلحة المنطلقة إلى الفتح في مناطق نائية، وليس فيها دائماً ما تحتاجه تلك القوات من مؤن.

وبصورة متوازية مع الاهتمام بتحسين الإنتاج الزراعي لصالح الشعب والجيش، لجأ العرب إلى تحسين الإنتاج الحيواني، من أجل الحصول على وسائط نقل، تزيد حركية القوات، بالإضافة إلى ضرورات الغذاء، وللحصول على الجلود (التي كانت مادة أولية هامة للصناعة الحربية آنذاك)، كما طوروا صيد الأسماك في البحار والبحيرات، اعتماداً على خبرات السكان في المناطق التي فتحوها، والذين كانوا أطول من العرب باعاً في هذا المجال.

تلعب وسائط النقل دوراً كبيراً في حالة الحرب، وتؤمن في السلم ظروفاً أفضل، لخدمة الاقتصاد.

فعلى وسائط النقل يقع عبء نقل القوات من منطقة إلى أخرى، ونقل عتاد القوات وإمدادها أحياناً من عمق الدولة إلى مسارح العمليات، وكانت المواصلات - في بداية نشوء الدولة - تعتمد على وسائط النقل البري، ثم تطورت الأمور بعد ذلك، واستخدم النقل البحري والنهري، وتشكلت - من جراء ذلك - شبكة مواصلات برية وبحرية ونهرية متداخلة. وكانت أهم خطوط هذه الشبكة:

- الطريق البحري من الهند إلى الخليج العربي.
- الطريق البحري من اليمن حتى شواطئ مصر وجنوبي فلسطين.
- الطرق النهرية عبر دجلة والفرات.
- الطرق النهرية عبر النيل.
- الطرق البرية من سواحل بلاد الشام إلى حدود الصين والهند، عبر العراق وبلاد فارس وكرمان ومكران وسجستان، أو عبر طبرستان وخراسان وتركستان.
- الطرق البرية الداخلية من حلب حتى اليمن، مروراً بالجزء الداخلي من بلاد الشام، والجزيرة العربية.
- الطرق الساحلية من الهند إلى العراق، على محاذاة الشاطئ الشمالي للمحيط الهندي.
- الطرق الساحلية على طول شواطئ بلاد الشام، حتى مصر.
- الطرق الساحلية من اليمن إلى جنوبي فلسطين، على امتداد الشاطئ الشرقي للبحر الأحمر.

• الطرق الساحلية الممتدة من مصر إلى المغرب الأقصى وجبل طارق. وصولاً إلى الأندلس.

• الطرق الساحلية من رأس الخليج العربي إلى البصرة.

أما أهم موانئ الدولة العربية آنذاك فكانت:

- ميناء البصرة. - ميناء طرابلس. - ميناء جدة. - ميناء عسقلان. - ميناء يافا. - ميناء غزة. - ميناء الإسكندرية. - ميناء صيدا. - ميناء صور.



الفصل الثاني

الزراعة

- الأرض.
- الحمضيات.
- الأشجار المثمرة.
- البقول.
- الحبوب.
- الثروة الحيوانية.



الفصل الثاني

الزراعة

قامت في بلاد الشام حضارة، أثبتت يوماً بعد يوم، من خلال المكتشفات الأثرية. إنها من أقدم الحضارات في العالم، حيث ترجع في بعض عناصرها الأولى إلى عهود طويلة قبل التاريخ،وظهرت الزراعة في بلاد الشام مع بداية حضارة هذه البلاد، وتطورت. فلما جاء الإسلام، ووجدت الدولة العربية، أحدثت انقلاباً في مجال الزراعة.

إذن اهتم العرب بالزراعة اهتماماً بالغاً، وأولوها عناية اتضحت مظاهرها في توسيع المساحات المزروعة، وتنويع المحاصيل، وعني بمشاريع الري، وتنظيم وتصريف المياه. وذلك بشق الأنهار والقنوات، واستنباط المياه الجوفية والسواقي، وإقامة الجسور وصيانتها. فأدى ذلك لزيادة المحاصيل الزراعية بوجه عام، والحبوب بوجه خاص. كما اهتم الولاة بشؤون الزراعة والري، ووجهوا عنايتهم لمقاييس الأنهار، وخاصة في مصر، حيث أقيم مقياس الروضة الحالي على النيل الذي بني عام ٩٦هـ.

وساعد خصب الأرض في بلاد الشام، وعناية الحكام، وشق القنوات والأنهار والسواقي، واستنباط المياه الجوفية، واستصلاح الأراضي، على تطور الزراعة. وخاصة في العصر الأموي. ومن أكبر العوامل على تطور الزراعة، وجود الكادر البشري، الذي كان يقوم أفضل قيام. إذن كانت

الزراعة تدر على أصحابها دخلاً كبيراً. وبذلك أصبحت الزراعة الحرفة الأولى لغالبية السكان، والمورد الأول الذي عاش عليه معظم هؤلاء.

واستعمل العرب قبل الإسلام بعض الأدوات والآلات الزراعية واستمر بعضها وتطور بعضها الآخر. ومن هذه الأدوات: ـ الفأس. ـ المحراث. ـ المنجل. ـ المذراة. ـ الجاروف. ـ البلط. أخيراً، إن توفر المناخ المناسب، والترب الصالحة، والموارد المائية (أنهار ـ مياه جوفية ـ ينابيع ـ أمطار) ورغبة الحكام والقدرة البشرية العاملة، كل ذلك عمل على تطور الزراعة بكافة أشكالها. لقد أظهرت الدراسات الإتقان الذي رافق شبكات توزيع مياه الشرب والاستعمالات المنزلية والري، والتي مازال قسم منها إلى اليوم، واهتم العرب بمشاريع الري.

فمنذ البداية أعطى القرآن الكريم أهمية بالغة للظواهر الطبيعية والمياه. فوردت آيات قرآنية كثيرة لم يكن القصد منها البحث عن الجانب العلمي للظواهر الكونية، إنما دعا الإنسان إلى الاعتماد على الملاحظة، للبحث في مواضع هذا العلم. من ذلك قوله تعالى: **﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعاً مُخْتَلِفاً أَلْوانُهُ﴾**[1]. والآية (٧٥) من سورة الأعراف، والآية (٩٤) من سورة الروم، والآية (١٨) من سورة (المؤمنون)، وكلها تدعو إلى الملاحظة والبحث. وفي الحديث الشريف الكثير أيضاً عن ظواهر الطبيعة، والبحث عنها، والاستفادة منها. من ذلك قول الرسول (ص) «**ليس صدقة أعظم أجراً من ماء**» وغير ذلك من أحاديث سنتطرق لها في حينها.

بردى والاستفادة منه: يبعد بردى عن دمشق (٤٠) كم وعلى ارتفاع (١١٠٠) م عن سطح البحر. يجري بسرعة وعند عنق الهامة، يتفرع عنه أول تفرع له، والربوة هو الموقع الثاني للتفرع. ويذكر أن بعض فروعه الرئيسية كانت موجودة في منتصف الألف الثاني قبل الميلاد مثل نهري (بانياس وبردى) حيث يعدّ بانياس أول الأقنية المتفرعة عنه وأغزرها وكان يمد المدينة (دمشق) بالمياه. وأهم التفرعات التي تصدر عن بردى هي:

١ ـ بانياس: ويمد المدينة بالمياه.

٢ ـ تورا: ويمتد من مضيق الربوة وتؤمن منه الاحتياجات اللازمة من المياه لأراضي الغوطة.

---

[1] سورة الزمر ـ الآية / ٢١.

٣ ـ القنوات: شقت في القرن الثالث الميلادي لتغذية شبكة التوزيع المنزلية.

٤ ـ نهر يزيد: شق هذا النهر في عهد يزيد بن معاوية، بعد أن توسعت دمشق، وأصبحت عاصمة الدولة العربية.

٥ ـ قناة الديراني. ٦ ـ قناة المزاوي.

يضاف لما ورد تفرع عن نهر بردى عدة مجارٍ منها نهر العقرباني، ونهر داعية، ونهر الملك، وغيرها. وفي عهد هشام بن عبد الملك حفر نهر صغير إلى مسجد حرستا للشرب فقط. إذن شكل نهر بردى وفروعه شبكة استثمار، تكونت من أقنية توزع المياه ـ بالجريان الحر ـ إلى المناطق المنخفضة وإن التفرعات في العصر الأموي كانت أكثر مما ورد. فابن عساكر قال: (ثم شكا أهل بردى قلة الماء إلى هشام بن عبد الملك، فأمر القاسم بن زياد أن يماز لهم الأنهار فمازها فأعطى: نهر يزيد ست عشرة مسكبة.

وأعطى الغور الكبير عشر مساكب.

والغور الصغير خمس مساكب.

ونهر داريا ست عشرة مسكبة.

وأعطى نهر ثورا اثنتين وأربعين مسكبة. وفيه يومئذ أربع عشرة ماصية يسقي لها عليها رحى.

ونهر قينية إحدى عشرة مسكبة.

ونهر باناس ثلاثين مسكبة. ومسكبة حملت فيه ليزيد بن أبي مريم مولى بني الحنظلية.

وثلاث مساكب للفضل بن صالح الهاشمي حملت فيه من بعد.

ونهر مجذول اثنتي عشرة مسكبة.

ونهر داعية ثلاث عشرة مسكبة.

ونهر حيوة وهو نهر الزلف اثنتي عشرة مسكبة.

نهر التومة العليا خمس مساكب.

ونهر التومة السفلى أربع مساكب.

ونهر الزابون أربع مساكب.

ونهر الملك أربع مساكب.

والقناة لم تكن تماز يومئذ تأخذ ملء جنبتيها. وكان الوليد بن عبد الملك لما بنى المسجد، اشترى ماء من نهر السكون يقال له الوقية. فجعله في القناة إلى المسجد. والحجر شبر ونصف، والثقب شبر في أقل من شبر، على أنه إذا انقطعت القناة أو اعتلت ليس لأحد أن يأخذ من ماء الوقية شيئاً، ولا لأصحاب القساطل فيها حق. فإذا جرت يأخذ كل ذي حق حقه وتفتح القساطل على الولاء)[1].

كما وجدت شبكة قناة عليا وهي عبارة عن جدول ينبع من حيلان[2] على بعد (١٢) كم شمال حلب. وكانت تتلقى قسماً من مياه نهر قويق[3] وهذه القناة موجودة قبل الإسلام[4].

واستخدم العرب منذ البدايات الخزانات المائية. وهي عبارة عن صهاريج تحفر في الأرض على شكل غرف مختلفة الحجم[*]. من ذلك خزانات الرصافة. كما عرف العرب السدود مثل سد مأرب الذي يعود إلى قبل (٨٠٠ ق.م) والاستفادة من ذلك في عملية الري.

ومن المعروف أن وسائل الري تطورت، وتعمقت طرقه، وازدادت تطبيقاته، وتوسع انتشاره في مختلف مناطق الدولة العربية، لكن بدرجات متفاوتة. فمثلاً في مصر عرفت وسائل الري منذ عهد الفراعنة. كما عرفت في بلاد الرافدين واليمن. وكما عرف العرب حفر الآبار منذ القديم. وقد ورد ذكر الآبار في القرآن الكريم (في قصة يوسف وموسى وبنات شعيب عليه السلام). ومن أهم وسائل الري التي استخدمها العرب، كان الشادوف. وهو اكتشاف مصري قديم. واستعمله الآشوريون، واستمر استعماله عند العرب المسلمين.

والساقية أيضاً عرفها الفراعنة واستمر استخدامها أيضاً عند العرب المسلمين، حيث يذكر أن السقاية بالناعورة المائية كانت شائعة على نهر يزيد، (كما يذكر الدكتور صفوح خير في كتابه غوطة دمشق). وكما يذكر أيضاً، أن النواعير كانت منتشرة على ضفاف نهر العاصي (حماه)،

---

[1] ابن عساكر ـ تاريخ مدينة دمشق ـ ج٢ ـ ص٣٧٤.

[2] حيلان ـ من قرى حلب ـ تخرج منها عين فواره تدخل إلى حلب في قناة ـ ياقوت الحموي المعجم ـ ج٢ ـ ص٣٣٢.

[3] نهر قويق ـ نهر مدينة حلب مخرجه من قرية تدعى سبتان ـ ياقوت الحموي ـ معجم البلدان ـ ج٤ ـ ص٤١٧.

[4] كامل حسين القزي ـ نهر الذهب في تاريخ حلب ـ المطبعة المارونية في حلب ١٩٢٥.

[*] الندوة العالمية الثالثة لتاريخ العلوم عند العرب ـ إسهامات العرب في علم المياه والري طبع الكويت ١٩٨٨. المجلد الثاني ص٤٢.

ونهر قويق (حلب)، ونواعير حماه أقيمت حوالي القرن الثاني الميلادي. كما استخدم العرب الدواليب الهوائية، ويعتقد أنه من صنع الفراعنة. وهناك الكثير من الطرق الأخرى كالمطالة، والطنبور. والزراعة هي الركن الأساسي في حضارة الإنسان، ويعد الماء الشرط الجوهري والرئيسي لقيام الزراعة ومصادره المتعددة.

واهتم العرب المسلمون بالري منذ عهد الرسول (ص)، وعملوا مشاريع متعددة. فقد عني الرسول (ص) عناية فائقة بالماء، وفي وسائل السقي والإرواء، كما اهتم بإحياء الأرض، وخاصة الموات منها وجعل الماء ملكاً عاماً مشتركاً بين الناس إضافة إلى الكلأ والنار بقوله: «**المسلمون شركاء في الماء والكلأ والنار**»[1]. وقال: «**لا تمنعوا كلأ ولا ماء ولا ناراً، فإنه متاع المغلوبين وقوى للمستضعفين**»[2] وقال: «**إذا احتفر رجل بئراً في غير حق مسلم ولا معاهد كان له حولها أربعون ذراعاً إذا كانت للماشية، فإن كانت للناضح فلها من الحريم ستون ذراعاً وإن كانت عيناً فلها من الحريم خمسمائة ذراع**» وبذلك قال الرسول (ص) بهذا الخصوص: «**بئر ناضح ستون ذراعاً وحريم العين خمسمائة ذراع وحريم البئر العطن أربعون ذراعاً عطناً للماشية**»[3].

أما فيما يتعلق بوسائل الإرواء فيكتب البلاذري[4] (أن الرسول (ص) فرض على أهل اليمن فيما سقت السماء أو سقي غيلاً (السح) العشر، وفي ما سقى بالقرب (الدلو) والدالية نصف العشر وبقي ما سقي بالسواقي والدوالي، والدواليب والغرافات).

اهتم الرسول (ص) بإحياء الأراضي ويذكر يحيى بن آدم[5] معنى إحياء الأرض بقوله: «**بأن يستخرج فيها عيناً أو قليبا أو ساق إليها الماء وهي أرض لم تزرع، ولم تكن في يد أحد قبله يزرعها ويستخرجها حتى تصلح للزراعة، فهذه لصاحبها أبداً**». وشجع الرسول عملية إحياء الأرض بقوله: «**من أحيا أرضاً ميتة فهي له، وليس لعرق ظالم حق**»[6]. أي أنه أذن بامتلاك الأرض

---

(1) أبو عبيد القاسم بن سلام - كتاب الأموال طبع القاهرة ١٣٥٣ هـ - ص٢٦٥.

(2) أبو يوسف - كتاب الخراج طبع القاهرة ١٣٠٢ هـ - ص٩٧.

(3) يحيى بن آدم - كتاب الخراج - تحقيق أحمد محمد شاكر - طبع القاهرة ١٣٩٤ هـ - ص١٠٠ - ١٠٣.

(4) البلاذري - فتوح البلدان طبع مصر ١٩٥٩ - ص٨٢.

(5) يحيى بن آدم - كتاب الخراج - ص٨٦.

(6) السيوطي - جامع الأحاديث - ج٦ - ص٨١.

التي يفوز صاحبها بإحيائها بامتلاكها. وهي له ولورثته من بعده. وله حق ببيعها إذا شاء.

ومن أجل إحياء الأرض، فقد منح الرسول (ص) قطعاً من الأراضي لأصحابه[1]. من ذلك فقد أقطع الإمام علي وأبا بكر وعمر، وحمزة بن النعمان العذري ومجاعة بن مرارة اليمامي وفرات ابن حبان العجلي.

ومن جهة أخرى، وردت آيات قرآنية كثيرة، تذكر الماء، وأهميته من ذلك الآية (٥٣) من سورة الفرقان والآية (٢٧) من سورة المرسلات والآية (٢٢) من سورة البقرة والآية (١٤١) من سورة الأنعام والآية (٢٧) من سورة السجدة والآية (٢٧) من سورة الفتح.

بعد الرسول (ص) لعب الخلفاء الراشدون وولاتهم دوراً مهماً في انتشار الكثير من مشاريع الري، تناولت حفر الأنهار، وشق الجداول، وفتح القنوات، والترع والقناطر والجسور. فمثلاً عهد الخليفة عمر بن الخطاب إلى حذيفة بن اليمان، وعثمان بن ضيف، كخبيرين من الصحابة لمسح أراضي السواد، ولإحصاء أهله، وتقدير الخراج والجزية. وهذا ما يسمى بالمسح العام. وقام حذيفة ابن اليمان بإنشاء قناطر على نهر دجلة، وعمل على حفظها وصيانتها.

كما عين الخليفة نفسه أبا موسى الأشعري[2] على ولاية البصرة، وأمره بمسحها، ووضع الخراج عليها، وقام بحفر أنهار متعددة وأمره أيضاً بحفر نهر آخر، وأن يجربه على يد الصحابي معقل ابن يسار المزني. فبنى النهر (نهر معقل)[3]، وقاد أيضاً نهر الإبله إلى البصرى، وأصبح طوله أربعة فراسخ. وأمر الخليفة نفسه سعد بن أبي وقاص أن يحضر نهراً يمر بمدينة الأنبار. إلا أنه لم يتم، لأنهم انتهوا إلى جبل فلم يتمكنوا من أن يثقبوه[4]، كما يذكر البلاذري أيضاً. أن عياض بن غنم كان قد اشترط على أهلها[5] إصلاح الجسور والطرق فيها.

---

[1] عواد حجير الأعظمي الزراعة والإصلاح الزراعي طبع بغداد ١٩٧٨ - ص٣٢ وما بعدها.

[2] البلاذري فتوح البلدان - ص٣٥٢.

[3] المرجع نفسه - ص٣٥٢ - ونهر معقل منسوب إلى معقل بن يسار - وهو نهر معروف بالبصرة - ياقوت الحموي - المعجم - ج - ص٣٢٤.

[4] البلاذري - فتوح البلدان - ص٣٥١.

[5] المرجع نفسه - ص١٧٨.

وفي عهد الخليفة عثمان، تم إنجاز حفر نهر الإبله في البصرة وولى ذلك عبد الرحمن بن أبي بكرة، كما حفر عبد الله بن عامر نهره الذي عرف بنهر الأساورة[1]، وحفر أيضاً في عهده نهر ابن عميرة، وأنجز في عهده أيضاً جسر منبج[2].

وفي عهد الخليفة الراشدي الرابع الإمام علي، عمل أيضاً على إحياء الأرض، وتشجيع الزراعة وإقامة مشاريع الري. كحفر الآبار. من ذلك أمره إلى واليه فرضة بن كعب الأنصاري بحفر نهر لأهل الذمة[3].

ويذكر أبو يوسف (أن علي بن أبي طالب، كتب إلى كعب بن مالك، وهو عامله. أما بعد، فاستخلف على عملك، واخرج في طائفة من أصحابك، حتى تمر بأرض السواد كورة كورة، فتسألهم عن عمالهم فتنظر في سيرتهم، حتى تمر بمن كان منهم فيما بين دجلة والفرات، ثم ارجع إلى البهقبا ذات فتول معونتها واعمل بطاعة الله فيما ولاك منها)[4].

شهد العصر الأموي ازدهاراً كبيراً، وتطوراً زراعياً كبيراً. لأنهم رأوا فيه المورد المالي الثابت والمستمر، وأدركوا أهمية الزراعة، وما تدره عليهم من أرباح، فعملوا على إحياء الأرض، وإقامة مشاريع الري عليها. فمثلاً اتخذ معاوية تدابير اقتصادية. ووجه عنايته البالغة نحو استصفاء الصوافي[*]، واستصلاح البكائم وإحيائها. فزادت في عملية الإنتاج الزراعي. ودرت عليه هذه الأعمال مبالغ طائلة كما يقول اليعقوبي[6] (بلغت جبايته خمسين ألف ألف درهم من أراضي الكوفة وسوادها). وبعد أن ولى معاوية (عبد الله بن دراج) خراج العراق كتب إليه:

(احمل إلي من مالها ما أستعين به. فكتب ابن دراج يعلمه أن الدهاقنة أعلموه، أنه كان لكسرى وآل كسرى صواف يجتبون مالها لأنفسهم. ولا تجرى مجرى الخراج. فكتب إليه أن احصِ

---

(1) الاساورة - بالبصرة (العراق) ياقوت - المعجم - ج٥ - ص٣١٧.

(2) منبج - بينها وبين الفرات ثلاثة فراسخ وبينها وبين حلب عشرة فراسخ ياقوت - المعجم - ج - ص٢٠٦.

(3) اليعقوبي - تاريخه ج٢ - ص٢٧٠.

(4) أبو يوسف - الخراج - ص١١٨.

(*) الصوافي: هي الأرض الخاصة بالخليفة (ملك الدولة).

(6) اليعقوبي - تاريخه - ج٢ - ص٢٧٠.

تلك الصوافي واستصفها، واضرب عليها المسنيات.. فضرب عليها المسنيات، واستمد لمعاوية فبلغت جبايته خمسين ألف ألف درهم من أراضي الكوفة وسوادها.. وكتب معاوية إلى عبد الرحمن بن أبي بكرة بمثل ذلك في أرض البصرة)[1].

كما اتجهت سياسة معاوية نحو البطائح، التي كانت تشغل مساحات واسعة من الأراضي. وهي صنف من أصناف الصوافي، وعمل على استصلاحها وزراعتها. يشير البلاذري ويؤكد الماوردي: (إن غلة ما استخرج من البطائح قد بلغ خمسة ملايين درهم سنوياً). فقد ولى معاوية مولاه عبد الله بن دراج خراج العراق فاستخرج له من الأرضين بالبطائح ما بلغت غلته خمسة آلاف ألف درهم. وذلك أنه قطع القصب فغلب الماء بالمسنيات[2]. ويذكر اليعقوبي[3] أن خراج العراق وما يضاف إليه في عهد معاوية بلغ (٦٥٥ مليون درهم).

استمر العمل بعد معاوية بالتدابير الزراعية التي اتخذها، نظراً لأهميتها، وما تدره من أموال. كما ذكرنا وظاهرة البطائح الواردة الذكر كانت ذات أهمية في خلافة الوليد بن عبد الملك، وقام مسلمة بن عبد الملك في عهد أخيه الوليد باستخراج أرض واسعة من البطائح، كلفته كما يذكر البلاذري[4] بحدود ثلاثة آلاف ألف درهم.

ومن أهم الأنهار التي تم حفرها في العصر الأموي نهر معقل، الذي ينسب إلى الصحابي معقل بن يسار، كما ذكرنا. وحفر في عهد زياد بن أبيه، كما حفر نفسه نهر دبي وبثق الحيري ونهر أم حبيب[5] (نسبة إلى أم حبيب بنت زياد) ونهر حرب[6] (نسبة إلى حرب بن مسلم بن زياد) نهر مسلم (نسبة إلى مسلم بن زياد بن أبي سفيان) ونهر مره[7] (نسبة إلى مره بن أبي عثمان مولى عبد الرحمن بن أبي بكر) ونهر البنات (نسبة إلى بنات زياد) كما وأقام زياد بن أبيه قنطرة في

---

[1] اليعقوبي - تاريخه ج٢ - ص٢٧٠.

[2] البلاذري: فتوح البلدان ص٢٩١ - الماوردي: الأحكام السلطانية طبع القاهرة - ج١١ - ١٩٦٠ - ص١٧٩.

[3] اليعقوبي: ج٢ - ص٢٢١.

[4] البلاذري: الفتوح - ص٢٩٢.

[5] نهر أم حبيب - بالبصرة كان عليه قصر كثير الأبواب يسمى المزاردر - ياقوت - المعجم - ج٥ - ص٣١٧.

[6] نهر حرب - بالبصرة - ياقوت - المعجم - ج٥ - ص٣١٩.

[7] نهر مره - بالبصرة - ياقوت الحموي - المعجم - ج٥ - ص٣٢٣.

الكوفة.

وخلال ولاية الحجاج اهتم بالزراعة والري والحيوانات من ذلك إصداره الأوامر بمنع ذبح البقر، بغية زيادة عددها والاستفادة منها. وأكمل حفر نهر الآبار، وحفر من الأنهار نهر الصيني، ونهر النيل (سماه بهذا الاسم تيمناً بنهر النيل ونهر الزابي[1]، وأعاد حفر نهر صراه جاماسب.

وفي عهد سعيد بن عبد الملك بن مروان، عندما كان والياً على الموصل حفر نهر سعيد[2]، ونسب إليه كما حفر مسلم بن عبد الملك نهراً سمي باسمه في بالس وكان أعظم مشروع ري هو ما قام به مسلمة بن عبد الملك وهو سد حصن مسلمة على نهر بليخ[3] وقد ذكره ياقوت الحموي[4].

وفي عهد الخليفة عمر بن عبد العزيز، تم حفر نهر في البصرة، عرف بنهر عدي[5]، نسبة إلى عدي بن أبي أرطأة، الذي حفره، وفي البصرة حفر يزيد بن المهلب نهر يزيد[6] (نسبة إليه). أما في عهد هشام بن عبد الملك فقد زاد الاهتمام بالزراعة والري، وشجعه على ذلك رغبته الجامحة لامتلاك الضياع الواسعة. فهو الذي استحدث الرصافة، وهو الذي حفر نهري الهني والمري، وحفر خالد بن عبد الله القسري نهر الجامع في الكوفة، وأصلح قنطرتها وحفر كثير بن عبد الله السلمي في البصرة نهراً نسب إليه أيضاً.

كما اشتهر خالد بن عبد الله القسري بحفر نهر المبارك، حيث يذكر أن تكاليفه بلغت اثني عشر مليون درهم، وفي عهد الخليفة يزيد بن الوليد، قام عبد الله بن عمر بن عبد العزيز عامل العراق بحفر نهر في البصرى عرف باسمه.

الأرض: قسمت الأرض التي دخلت في حوزة الدولة الإسلامية إلى أربعة أقسام.

---

(1) الصَّراه نهر ببغداد - ياقوت الحموي - معجم البلدان - ج٣ - ص٣٩٩.

(2) نهر سعيد اسم نهر بالبصرة - ياقوت الحموي - المعجم - ج٥ - ص٣٢١.

(3) بليخ، نهر بالرقة - ياقوت الحموي - المعجم - ج١ - ص٤٩٣.

(4) ياقوت الحموي - شهاب الدين أبي عبيد الله ياقوت بن عبد الله الحموي الرومي معجم البلدان - طبع بيروت - دار صادر - بدون تاريخ - ج١ - ص٧٣٤.

(5) نهر عدي - اسم نهر بالبصره - ياقوت - المعجم - ج٥ - ص٣٢١.

(6) نهر يزيد بالبصره - ياقوت الحموي - المعجم - ج٥ - ص٣٢٤.

الأول: أرض مملوكة خاصة، وسميت بالأراضي العشرية[1] ونشأ هذا النوع في عهد الرسول (ص) وحدد هذا النوع بقوله «**إن القوم إذا أسلموا أحرزوا دماءهم وأموالهم**» وقال: «**من أسلم على شيء فهو له**»[2] وقسم هذا النوع إلى أقسام:

١ - الأراضي التي أسلم أهلها قبل الفتح طوعاً، كأراضي المدينة والطائف والبحرين.

٢ - الأراضي التي فتحت عنوة ثم أسلم أهلها.

٣ - الأراضي التي فتحت عنوة و قسمت بين الفاتحين.

٤ - الأراضي الموات التي أحياها المسلمون[3].

الثاني: أراضي أهل الذمة، أي الذين بقوا على دينهم (وهي أراضي المصالحة) أو الأراضي الخراجية[4] ومنها كانت تجبى ضريبة الخراج وكذلك الجزية.

الثالث: الأرض التي فتحت عنوة واختلف فيها، ففي عهد الرسول (ص) ترك الأرض لأهلها وفرض عليهم العشر (**أراضي عشرية**). كما ورد في القسم الأول، ومنها ما اختاره الرسول (ص) في أرض خيبر[*] حينما جعلها غنيمة فقسم أراضيها بين الذين فتحوها، وفرض عليهم العشر. وفي عهد الخليفة عمر بن الخطاب، جعلت الأرض ملكاً عاماً ومنع بيع وشراء هذه الأراضي وفرض عليها الخراج والجزية.

الرابع: وهي الأراضي المشاع من غير ملكية وهي نوعان أراضي الموات، أي التي مات عنها أصحابها أو التي لم يكن لها صاحب وأراضي الصواف وكلها أصبحت للدولة.

كانت سياسة الخليفة عمر بن الخطاب عدم السماح للعرب بامتلاك أو زراعة الأرض خارج الجزيرة العربية. وغايته في هذا الإجراء الجهاد في سبيل الله من جهة، ولكي لا يشتغل المقاتلون بالأعمال الزراعية التي تشجع على الاستقرار من جهة ثانية. أما الخليفة عثمان بن عفان، فقد خالف

---

[1] الحنبلي أبو الفرج عبد الرحمن بن رجب - الاستخراج لأحكام الخراج - طبع بيروت ٩٧٩ - ص١١ - ١٢ - أبو يوسف - الخراج - ص٦٩ - أبو عبيد - الأموال ص٥٧ - الماوردي - الأحكام السلطانية ص١٤٧ - ١٧٢.

[2] السيوطي - جامع الأحاديث مسلسل (٢٠٢٤٨) - ج٦ - ص٩٨.

[3] الندوة العالمية الثالثة لتاريخ العلوم عند العرب - إسهامات العرب في علم الفلاحة طبع الكويت ١٩٨٨ - ص٤٣١.

[4] الماوردي الأحكام السلطانية طبع بيروت ١٩٧٨ - ص١٥٢ - ١٧٢ - ١٧٦ - الحنبلي ص٤٠ - ٤٦.

[*] خيبر - ناحية على ثمانية برد من المدينة لمن يريد الشام - ياقوت - المعجم - ج٢ - ص٤٠٩.

هذه السياسة بعد استلامه السلطة، لذلك نـراه يـوزع الأرض، ويقطعهـا (إقطـاع إجـازة لا إقطـاع تمليك).

وعندما تسلم معاوية السلطة عمل على تنمية الموارد الاقتصادية. لأنه كان بأشـد الحاجـة إلى استمالة قلوب الناس بالمنح والعطايا والهبات. إذا أضفنا إلى ذلك حاجة القصر الأموي ـــ ابتـداءً مـن عهد معاوية ـ إلى نفقات تنفق مع الأبهة والعظمة التي عاشها الخلفـاء الأمويـون. كـل ذلـك شـجع الأمويين على تملك الضياع [1] اعتباراً من عهد عثمان الذي اقتطع الكثير مـن أرض الصـواف وحـاز الأمويون النصيب الأكبر منها. فمثلاً كان قد أقطع مـروان بـن الحكـم [2] بالمدينـة، وعثمـان بـن أبـي العاص [3] (بالبصرة) ومعاوية بن أبي سفيان [4] في سورية وغير ذلك.

ولما تولى معاوية الخلافة عمل مسـحاً شـاملاً لأراضي الصواف بالدولة. فأمر بالاسـتيلاء على الكثير منها، هو وأهل بيته. ولذلك انتشرت إقطاعات الأمويين في الأمصار الـتي استملكتها الدولـة العربية آنذاك. ويؤكد ذلك اليعقوبي بقوله (أخـرج معاويـة مـن كـل بلـد مـا كـانت ملـوك فـارس تستصفيه لأنفسها من الضياع العامرة، وجعله صافياً لنفسـه، فأقطعـه جماعـة مـن أهـل بيتـه، وفعـل معاوية بالشام والجزيرة واليمن مثل ما فعل بـالعراق، مـن استصفاء مـا كـان للملـوك مـن الضيـاع وتصييرها لنفسه خالصة وأقطعها أهل بيته وخاصته. وكـان أول مـن كـانت لـه الصـواف في جميـع الدنيا حتى بمكة والمدينة. فإنه كان فيهما شيء يحمل في كل سنة ما أوساق التمر والحنطة) [5].

وسار الخلفاء الأمويون بعد معاوية على نهجه، واستولوا علـى الكثـير مـن أراضـي الصـواف وامتلكوها ملكية كاملة وورثوها لأبنائهم. واستمر الأمر على ما هو عليه، حتى عهد الخليفـة عمـر ابن عبد العزيز، الذي أدرك عدم شرعية امتلاك مثل هذه الأراضي. لذلك حض الأمويين على ردهـا وسماها المظالم [6] ورد ما آل إليه عن آبائه للدولة. وقد أرعب هذا التصرف الأمويـين. إلا أن تصرفـه

---

[1] صفاء حافظ عبد الفتاح ـ ضياع بني أمية في عصر الخلافة ـ طبع القاهرة ١٩٩١ ـ ص١٣ وما بعدها.

[2] الماوردي الأحكام السلطانية ص١٧٠.

[3] أبو عبيدة ـ الأموال ص٢٦٢.

[4] عبد القادر بدران ـ تهذيب تاريخ مدينة دمشق لابن عساكر ـ طبع بيروت ١٩٧٩ ـ ج١ ـ ص١٨٤.

[5] اليعقوبي تاريخه طبع بيروت ١٩٨٠ ـ ج٢ ـ ص٢٣٣.

[6] ابن الأثير ـ الكامل في التاريخ ج٤ ـ ص١٦٤.

هذا كان من طرف واحد. فلما توفي عادت الأمور على ما كانت عليه. إن ما فعله الأمويون في عملية إحياء أرض الموات وزراعتها واستملاكها، عاد عليهم بالفائدة العظيمة من جهة، وعلى الأرض الزراعية بالخير من جهة أخرى. فاتسعت رقعة الزراعة، ونما العمران والاهتمام بمشاريع الري والتوسع بها.

واعتمد الأمويون خلال حكمهم مسائل كثيرة، زادت من رزقهم وغناهم. منها شراء الأراضي الزراعية في كل الأمصار (بلاد الشام ـ الحجاز ـ مصر) حتى أنه كان يحمل إلى معاوية من ممتلكاته في المدينة فقط مائة وخمسون ألف وسق من التمر، ومائة ألف وسق من الحنطة[1]. ومن الوسائل الأخرى الإلجاء. وحدث مثل هذا النوع نتيجة زيادة الضرائب المفروضة على الأراضي الزراعية، وتشديد الجباة في تحصيلها. لذلك كان أصحاب الأراضي يلجؤون إلى طلب الحماية من الأشخاص الأقوياء ذوي الجاه والسلطان. فكانوا يسجلون أملاكهم بأسماء هؤلاء في ديوان الخراج. وبمرور الزمن تحولت هذه الملكيات إلى هؤلاء.

والمصدر الآخر كان المصادرات. وهي من أهمها. لأن الأمويين كانوا يصادرون أموال وممتلكات الخارجين عليهم. فمثلاً صادر عبد الملك بن مروان ضياع عبد الله بن الزبير، بعد فشل ثورته وقتله[2] وصادر الوليد بن عبد الملك أملاك بني عمرو بن حزم[3]. وصادر يزيد بن عبد الملك أملاك وأموال أسرة المهلب بن أبي صفرة[4]. وصادر هشام بن عبد الملك أملاك وأموال خالد بن عبد الله القسري والي العراق في عهده.

ولم يكتف الأمويون بما ورد من امتلاك الأرض. وإنما امتد ليشمل العمران. من ذلك امتلاكهم المدن، بما فيها، من ذلك مدينة حلوان التي اختص بها عبد العزيز بن مروان، وعمرها بالدور والقصور والمساجد، واهتمامه بتوسيع زراعتها وإنشائه البساتين

---

[1] أبو عبيد القاسم بن سلام ـ الأموال ـ ص٦٥ ـ ٤٤٦ ـ اليعقوبي تاريخه ـ ج٢ ـ ص٢٣٤ ـ ٢٥٠.

[2] الأزرقي أبو الوليد عمر بن عبد الله بن أحمد ـ أخبار مكة ـ تحقيق رشدي ملحس ـ طبع بيروت ١٩٨٣ ـ ص٢٥٢ ـ ابن عبد الحكم أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله ـ فتوح مصر وأخبارها ـ طبع القاهرة ١٩٦٨ ـ ص٨٣.

[3] البلاذري ـ فتوح البلدان ـ ص٤٥١ ـ ٤٥٤.

[4] الطبري ـ تاريخه ـ ج٧ ـ ص١٤٢ ـ١٥٤.

وزراعة أرضها بالكروم والنخيل[1]. وكما فعل سليمان بن عبد الملك، عندما أنشأ مدينة الرملة[2]، وبناها. وحفر فيها آباراً، وزراعته فيها الفواكه[3] أيضاً ما فعله هشام بن عبد الملك، عندما بنى مدينة الرصافة[4] (رصافة هشام) وعمرها بالقصور والمساكن والأسواق والأسوار، وحفر لها الأنهار (الهني والمري)، وإقامته الضيعة المشهورة المعروفة بالهني والمري.

وكانت الضياع والأملاك الأموية تدار بواسطة وكلاء كان لهم دور فعال في سياسة الدولة حتى قيل إن أحدهم وهو حسان النبطي وكيل ضياع هشام بن عبد الملك كان له دور فعال في عزل خالد بن عبد الله القسري ومصادرته[5].

الأشجار المثمرة: تعددت مظاهر الأشجار المثمرة وأنواعها، منها:

- **الكرمة**: وهي مشهورة في بلاد الشام عبر التاريخ.

- **الزيتون**: اشتهرت بلاد الشام بزراعته، واستخراج الزيت منه، وكانت تصدره إلى الخارج منذ ما قبل الإسلام، واستمر بعد الإسلام، له فوائد كثيرة وقد ورد ذكر الزيتون في القرآن الكريم بقوله تعالى: ﴿وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ﴾[6].

- **التين**: أيضاً اشتهرت بلاد الشام بزراعته قبل الإسلام وبعده وورد ذكره في القرآن الكريم كما ورد، وللتين فوائد طبية كثيرة.

- **النخيل**: اشتهرت الأرض العربية بزراعته منذ القديم.

---

[1] ابن عبد الحكم ـ أخباره ـ ص٧٦.

[2] الرملة: مدينة عظيمة بفلسطين ـ معجم البلدان ـ لياقوت ـ ج٣ ـ ص٦٩.

[3] التنوخي أبو علي الحسن بن علي ـ المستجاد من مقلات الأجواء ـ طبع القاهرة ١٩٨٥ ـ ص١٩.

[4] الأصفهاني الأغاني ـ طبع بيروت ١٩٨٣ ـ ج٤ ـ ص٤٢٢ ـ ياقوت الحموي ـ المعجم ـ ج٢ ـ ص٤٧ ـ الرصافة: تقع غربي الرقة بينهما أربعه فراسخ على طرف البريد ـ ياقوت ـ المعجم ـ ج٣ ـ ص٤٧.

[5] الطبري ـ تاريخه ـ ج٧ ـ ص١٤٢ ـ ١٤٣.

[6] القرآن الكريم ـ سورة التين ـ الآية الأولى.

- **التفاح والرمان**[1]: وقد ورد ذكره في القرآن الكريم.

- **الخروب واللوز والجوز والخوخ والمشمش والدراق**[2]: وهو اسم الخوخ بلغة أهل الشام.

- **الغرقد**[3]: وهي شجرة تسمو من متر إلى ثلاثة أمتار تشبه العوسج في أوراقها اللحمية وفروعها الشائكة وأزهارها البيضاء الطويلة العنق عبق الرائحة، مخضر وثمره مخروطي الشكل يؤكل.

- **الآس**[4]: ضرب من الرياحين خضرته دائمة أبداً ويسمو حتى يكون شجراً ورقه عطري وقيل شجر دائم الخضرة أبيض الزهر أو ورديه، وثماره لبية تؤكل غضة وتجفف فتكون من التوابل وهو من فصيلة الآسيات، ومن الأشجار المثمرة الأخرى.

- **السلم**[5]: وهي شجرة ذات أشواك يدبغ بورقها وقشرها، ويسمى ورقها القرظ لها زهرة صفراء فيها حبة خضراء طيبة الريح تؤكل في الشتاء وهي في الصيف تخضر.

- **العناب**[6]: شجر شائك من الفصيلة السدرية يبلغ ارتفاعها ستة أمتار ثمره على شكل ثمرة الزيتون.

- **الدوم**[7]: شجر عظام من الفصيلة النخلية له ثمار في حجم التفاحة ذات قشر صلب أحمر ونواة ضخمة.

- **ذات لب الفستق**[8].

ومن الأشجار التي جادت بها الأرض العربية ويتخذ خشبها للصناعة:

- **السراء**[9]: وهو الشجر الذي يتخذ منه القسي.

---

[1] القرآن الكريم - سورة الأنعام - الآية / ١٤١.

[2] الأصفهاني - الأغاني (أخبار معبد) ج ١ - ص٦٤.

[3] المرجع نفسه (أخبار جرير) ج٨ - ص٦٦ - ج١٣ - ص٣٨٠ - ج٢٢ - ص٦.

[4] المرجع نفسه - ج١٤ - ص٦٢.

[5] الأصفهاني - الأغاني (أخبار أبي كامل) ج٧ - ص١٠٤ - ابن منظور لسان العرب (مادة سلم) ج١٢ - ص٢٩٦.

[6] المرجع نفسه - (أخبار بشار بن برد) ج٣ - ص١٩٢.

[7] المرجع نفسه (خبر يوم شعيب حيله) ج٨ - ص١١٤ - ج١١ - ص١٤٩.

[8] الأصفهاني - الأغاني - أخبار عمر بن أبي ربيعة ج١ - ص٨٤.

[9] الأصفهاني - الأغاني - أخبار أبي حجر الهذلي ج٢٤ - ص٩٤ - ١٠٥.

- **الشوحط**[1]: ضرب من الشجر يتخذ منه القسي، أوراقه رقاق طوال نباته قضبان تنمو كثيرة من أصل واحد تختلف أسماؤها بكرم منابتها فما كان في قمة الجبل فهو النبع، وما كان في سفحه فهو الشريان وما كان بالحيض فهو الشوحط ومن الشوحط يصنع قدح الشوحط.
- **النبع**[2]: ضرب من الشجر تتخذ منه القسي ومن أغصانه السهام، وقيل هو من أشجار الجبال يكبر ويرتفع وقيل هو شجر صلب وثقيل أصفر العود وإذا تقادم احمرّ.
- **المرج**[3]: شجر من العضاة ينغرس ويطول في السماء ليس له ورق ولاشوك سريع الوري يقتدح به.
- **الأثل**[4]: شجر طويل مستقيم يعمر جيد الخشب كثير الأغصان متعددها رقيق الورق طويله تسوى منه الأقداح الجياد وقيل: منه اتخذ منبر الرسول (ص).
- **النشم**[5]: شجر جبلي تتخذ منه القسسي.
- **الأرطي**[6]: شجر من أشجار البادية تدبغ منه الجلود، وقيل هو شجر ينبت عصياً بالرمل من أصل واحد قدر قامة ورائحته طيبة.
- **البشام**[7]: شجر طيب الرائحة والطعم يستاك به، ويدق ورقه ويخلط بالحناء للتسوية، وقيل هو شجر ذو ساق وأفنان وأوراق صغار أكبر من ورق الصقر ولا ثمر له وإذا قصفت ورقته أو قصف غصنه هرق لبناً أبيض.
- **الأراك**[8]: شجر معروف هو شجر المسواك يستاك بفروعه أي تنظف به الأسنان، وقيل الأراك شجرة طويلة خضراء، ناعمة كثيرة الورق والأغصان حبه فوق حب الكزبرة.
- **العرفج**[9]: ضرب من الشجر يتخذ منه الوقود.

---

(1) الأصفهاني - الأغاني - أخبار كعب الأشقري - ج١٤ - ص٨٨ - ج٢١ - ص١٦٧.

(2) المرجع نفسه - أخبار حارثة بن بدر - ج٨ - ص٣٩٧ - ١٣١ - ج١١ - ص٦٩ - ج١٧ - ص٣١٨ - ج٨ - ص٩٢ - ج٢٢ - ص٩.

(3) المرجع نفسه - أخبار أبي جلدة - ج١١ - ص٣٢.

(4) المرجع نفسه - أخبار أبي جلدة ج١١ - ص٣٢٧ - ابن منظور - لسان العرب (مادة اثل) ج١١ - ص١٠.

(5) المرجع نفسه - أخبار امرئ القيس ج٩ - ص١٠١.

(6) المرجع نفسه - سويد بن كراع - ج١٢ - ص٤٠١ - ج٩ - ص١٣٩.

(7) المرجع نفسه - أخبار الصمة القشيري ج٦ ص٨ - ابن منظور - لسان العرب (مادة بشم) ج١٢ - ص٥٠.

(8) المرجع نفسه (أخبار النميري) ج٦ - ص٤٤ - ٢١٨ - ابن منظور لسان العرب (مادة أراك) ج١ - ص٣٨٨.

(9) المرجع نفسه (أخبار خالد بن عبد الله) ج٢٢ ص٦.

- **الغنوم**[1]: نوع من الشجر المثمر يستعمل ثمره مغلياً مع الخل لقلع التآليل.

- **الساج**[2]: شجر يعظم ويذهب طولاً وعرضاً له ورق كبير يتغطى الرجل بورقة فيقيه المطر تصنع من أخشابه الأبواب والسفن وهو أسود اللون يشبه الآبنوس.

- **الغرب**[3]: نوع من الشجر تسوى منه السهام.

- **آبنوس**: شجر من فصيلة الأبنوسيات يعيش في المناطق الحارة خشبه ثمين أسود اللون صلب العود.

- **الغضي**: شجر من الأثل خشبه من أصلب الخشب، وجمره يبقى زماناً طويلاً لا ينطفئ.

- **الشيز**[4]: خشب أسود تتخذ منه الأمشاط وغيرها - والشيزي: شجر تعمل منه القصاع والجفان وقيل هو شجر الجوز، ويقال للجفان التي تسوى من هذه الشجرة الشيزي.

- **الورس**[5]: نبات أصفر اللون، وقيل هو نبات من الفصيلة النعلية والفراشية، وثمرتها فرش مغطى عند نضجه بغدد حمراء، يستعمل لتلوين الملابس الحريرية، وقيل يتخذ منه طلاء للوجه.

وهناك نباتات كثيرة جادت بها الأرض العربية منها:

- **الثغام**[6]: شجرة بيضاء الثمر والزهر تنبت في قمة الجبل إذا يبست اشتد بياضها.

- **القسب**[7]: ضرب من الشجر ينبت خيوطاً من أصل واحد يرتفع قدر ذراع.

- **السمر**[8]: ضرب من شجر الطلع.

---

[1] الأصفهاني - الأغاني - (أخبار عتبة) ج٢٢ - ص٢٣٦.

[2] المرجع نفسه - (أخبار الفرزدق) ج٢١ ص٣٢٤ - ٣٤٨.

[3] المرجع نفسه - ج١٠ - ص١٤٨ - ج٢٣ - ص١٦٧ - ١٤٨.

[4] المرجع نفسه - (أخبار الشماخ) ج٩ - ص١٩٢ - ج٨ - ص١٢ - ابن منظور - اللسان (مادة شية) ج٥ - ص٣٦٣.

[5] المرجع نفسه - (أخبار أبي حلدة) ج١١ - ص٣١٩.

[6] المرجع نفسه - (أخبار الأحوص) ج٢١ - ص١٠٨.

[7] المرجع نفسه - (أخبار كعب الأشقري) ج١٤ - ص٢٨٨.

[8] المرجع نفسه - (أخبار كعب الأشقري) ج١٤ - ص٢٨٨.

- **السيال**[1] : شجر سبط الأغصان عليه شوك أبيض.
- **القتاد**[2]: شجر صلب له شوك كالإبر.
- **البان**[3]: شجرة سبطة القوام لينة ورقها كورق الصفصاف.
- **الدوحة**[4]: الشجرة العظيمة المتشعبة ذات الفروع الممتدة من الفصيلة النخلية.
- **السرحات**[5]: شجرة طويلة الأغصان. وقيل الشجرة الخالية من الشوك.
- **الحماظ**[6]: شجرة شبيهة بشجر التين.
- **الهراس**[7]: نوع من الشجر له أذينات متحولة إلى أشواك.
- **السدر**[8]: هو شجر النبق.
- **العشر**[9]: ضرب من الشجر له صمغ حلو عريض الورق.
- **الضراء**[10]: ضرب من الشجر الملتف.
- **العشة**[11]: شجرة دقيقة القضبان اللئيمة المنبت.
- **السخير**[12]: شجر إذا طال تدلت رؤوسه وانحنت وقيل السخير شجر من شجر الشمام له قضب مجتمعة.
- **السمرات**[13]: ضرب من شجر الطلع.

---

[1] الأصفهاني ـ الأغاني ـ أخبار العباس بن مرداس ـ ج١٤ ـ ص٢٠٦ ـ ج٢٣ ـ ص١٠٧.
[2] المرجع نفسه ـ أخبار الحارث بن الطفيلي ـ ج١٣ ـ ص٢٤٨ ـ ج٢٣ ـ ص١٠٧.
[3] المرجع نفسه ـ أخبار تأبط شراً ج٢١ ـ ص١٧٢ ـ ج١٣ ـ ص٤٤.
[4] المرجع نفسه ـ أخبار خالد بن عبد الله ـ ج٢٢ ـ ص٨.
[5] المرجع نفسه ـ أخبار التمر بن تولب ـ ج٢٢ ـ ص٢٧٧.
[6] المرجع نفسه ـ أخبار الشنفري ـ ج٢١ ـ ص١٨٦.
[7] المرجع نفسه ـ أخبار الفرزدق ـ ج٢١ ـ ص٢٩٣.
[8] المرجع نفسه ـ أخبار عجرد ـ ج١٤ ـ ص٣٥٨.
[9] المرجع نفسه ـ خبر رحران الثاني ـ ج١١ ـ ص١٣٥.
[10] المرجع نفسه ـ أخبار أبي جلدة ـ ج١١ ـ ص٣١٧.
[11] المرجع نفسه ـ أخبار جرير ـ ج٨ ـ ص٧٢.
[12] المرجع نفسه ـ أخبار معن بن اوس ـ ج١٢ ـ ص٧٩.
[13] المرجع نفسه ـ أخبار الورقاء بن زهير ـ ج١١ ـ ص٨٤.

- **العبرية**[1]: شجر النبق ينبت على ضفاف الأنهار.
- **الصاب**[2]: شجر مر عصارته بيضاء كالتين بالغة المرارة إذا أصابت العين أتلفتها.

النباتات التي تأكلها الحيوانات والتي جادت بها الأراضي العربية:

- **الخمخم**: وهو ضرب من النبت له شوك دقيق وهو من خيار العشب.
- **الشيح**[3]: نبت سهلي رائحته طيبة قوية وهو كثير الأنواع ترعاه الماشية.
- **العنظوان**[4]: وهو نبت من الحمض إذا أكثرت منه الدابة وجعت بطنها.
- **الشيرم**[5]: نبات له حب كالعدس مسهل له أوراق طوال كورق الحرمل.
- **السعدان**[6]: نبت ذو شوك يستلقي وهو أنجع المراعي.
- **الحلبات**[7]: ضرب من النبات الطويل الجيد المراعي.
- **الحمض**[8]: هو نبات تأكله الإبل، وقيل كل نبت مالح أو حامض يقوم على سوق لا أصل له وقيل فيه ملوحة إذا أكلته الإبل شربت عليه وإذا لم تجده رقت وضعفت وقيل هو للماشية كالفاكهة للإنسان.
- **الحاذة**[9]: شجر من الحمض يعظم منابته في السهل والرمل، وهو ناجع للإبل.
- **الجثاث**[10]: ضرب من الشجر ينبت بالقيظ، له زهرة طيبة الرائحة تأكله الإبل إذا لم تجد غيره. وهناك نباتات كثيرة جادت بها الأرض العربية منها.

---

[1] الأصفهاني - الأغاني - أخبار أبي سريح - ج١ - ص٥٦٧.

[2] المرجع نفسه - أخبار الأحوص - ج٤ ص٢٣٥.

[3] المرجع نفسه - أخبار جرير - ج٨ - ص٦٦.

[4] المرجع نفسه - أخبار جرير - (أخبار يوم شعيب حليه) ج١١ - ص١٦٦ - ٢٨٠.

[5] المرجع نفسه - (أخبار بن مفرغ) ج١٨ - ص٢٧٣ - ابن منظور لسان العرب (مادة شيرم) ج١٢ - ص٣١٧.

[6] المرجع نفسه - (أخبار ابن الأشرم) ج٢١ - ص٢٤ - ج٢٣ - ص٦١.

[7] المرجع نفسه - (أخبار خالد بن عبد الله) ج٢٢ - ص١٥.

[8] المرجع نفسه - (أخبار ابن الأسكر) ج٢١ - ص٢٢ - ج١٧ - ص٢٩٩ - ج١٣ - ص١٦.

[9] المرجع نفسه - (أخبار زهير بن حذيمة العيسى) ج١١ - ص٩٠.

[10] المرجع نفسه - (ذكر جميلة المغنية وأخبارها) ج٨ - ص٢٧٧.

ومن النباتات الوردية والطيبة الرائحة:

ـ **الزعفران**[1]: وهو نبات بصلي أصفر معمر من الفصيلة السوسنية وقيل يستخرج منه صبغ أحمر منه نوع صيفي طبي مشهور.

ـ **الثمام**[2]: نبات ضعيف وقيل هو نبات له خوص أو ما يشبه بالخوص.

ـ **العرار**[3]: النرجس البري وقيل هو بهار طيب الرائحة.

ـ **الحوذان**[4]: نبات سهلي طيب الطعم، يرتفع قدر ذراع له زهرة حمراء في أصلها خضرة ورقته مدورة، وقيل هو نبات عشبي من ذوات الفلقتين.

ـ **الكرش**[5]: من عشب الربيع وهي نبتة لاصقة بالأرض بطيحاء الورق مغرضة غبيراً لا تنبت إلا في السهل.

ـ **العوق**[6]: نبت طيب الرائحة.

ـ **العوسج**[7]: ضرب من الشوك.

ـ **عالج**[8]: نبت يشبه العلندي.

ـ **الأدخر**[9]: حشيش طيب الرائحة.

ـ **الأقحوان**[10]: نبت زهره أصفر وأبيض ورقه كأسنان المنشار.

ـ **الأسل**[11]: نبات ذو أغصان كثيرة دقاق بلا أوراق ينبت في الماء وفي الأرض الرطبة.

---

(1) الأصفهاني ـ الأغاني ـ (أخبار هدبة بن خشرم) ج٢١ ـ ص٢٧٠ ـ ج٢٢ ـ ص٣٢٤ ـ ج١١ ـ ص٣٤٩.

(2) المرجع نفسه ـ (أخبار جميل) ـ ج٩ ـ ص٩٩.

(3) المرجع نفسه ـ (ذكر جميلة وأخبارها) ج٨ ـ ص٢٢٧.

(4) المرجع نفسه ـ (ذكر جميلة وأخبارها) ج٨ ـ ص٢٢٢.

(5) المرجع نفسه ـ (أخبار أبي دعبل) ج٧ ـ ص١٣٥.

(6) المرجع نفسه ـ (ذكر جميلة وأخبارها) ج٨ ـ ص٢٢٢.

(7) المرجع نفسه ـ (أخبار أمية ابن الأسكر) ج٢١ ـ ص٢٤.

(8) المرجع نفسه ـ (أخبار أبي دحزة) ج١٢ ـ ص٢٩٢.

(9) المرجع نفسه ـ (أخبار أبي الطحان القشي) ج١٣ ـ ص١٤.

(10) المرجع نفسه ـ (أخبار عمر ذي كبار) ج٢٤ ـ ص١٩٤.

(11) المرجع نفسه ـ (أخبار كعب الأشعري) ج١٤ ـ ص٢٨٨.

- **التربه (التَّرباء)**[1] : نبت سهلي مفرض الورق وقيل شجرة شائكة.

- **الغسويل**[2]: ضرب من النبات ينبت في السباخ (الأرض المالحة).

- **الخروع**[3]: كل نبات قصيف ريان من شجر أو عشب.

- **الخزامى**[4]: عشبة طويلة العيدان طيبة الرائحة صغيرة الورق حمراء الزهر فيها نور كنور البنفسج.

- **العنم**[5]: نبات أملس ثمره أخضر.

- **العصفر**[6]: نوع من النبت الأحمر.

- **الحاج**[7]: نبت من الحمض، وقيل: نبت من الشوك.

- **الدفلي**[8]: نبت مر زهره كالورد، وثمره كالخرنوب.

- **الينبوت**[9]: نبات ذو شوك.

- **الأرينة**[10]: نبت معروف بشبه الخطمي عريض الورق.

الحبوب:

تعد الحبوب وخاصة القمح والشعير من أقدم الحبوب المزروعة في بلاد الشام. والقمح من أهم الحاصلات الزراعية. لأنه الغذاء الرئيسي للإنسان من البدء علماً أن القمح البري كان قد اكتشف في سورية منذ ما قبل التاريخ بقرون طويلة، ثم انتقل منها إلى بقية دول العالم ومن الحبوب التي جادت بها أرض بلاد الشام:

---

[1] الأصفهاني ـ الأغاني ـ ـ (أخبار الربيع بن زياد) ج١٧ ـ ص١٨٨ (ابن منظور لسان العرب (مادة شرب)) ج١ ـ ص٢٣١.

[2] المرجع نفسه ـ (أخبار الربيع بن زياد) ج١٧ ـ ص١٩٠.

[3] المرجع نفسه ـ (أخبار خفان) ج١٨ ـ ص٩٢ ـ ج٢٠ ـ ص٣٦٨ (ابن منظور لسان العرب (مادة خرع) ج٨ ـ ص٦٧.

[4] المرجع نفسه ـ (أخبار ربيعه بن مخزوم) ج٢٢ ـ ص١٠٦ ـ ١٥٦ ـ ص٢٥٨.

[5] المرجع نفسه ـ (أخبار عمار ذي كبار) ج٢٤ ـ ص١٩٤.

[6] المرجع نفسه ـ (أخبار تأبط شراً) ج٢١ ـ ص١٧٣.

[7] المرجع نفسه ـ (الوليد بن يزيد) ج٧ ـ ص٥١ ـ ابن منظور ـ السان ـ (مادة حيج) ج٢ ـ ص٢٤٦.

[8] المرجع نفسه ـ (أخبار جميلة) ج٨ ـ ص٢٣٠.

[9] المرجع نفسه ـ (أخبار عمرو بن كلثوم) ج١١ ـ ص٦١.

[10] المرجع نفسه ـ (أخبار أبي وخزة) ج١٢ ـ ص٢٨٣ ـ ابن منظور ـ اللسان ـ (مادة ارن) ج١٣ ـ ص١٥.

- **القمح**: الأرض العربية كما أعتقد هي الموطن الأول للقمح فمثلاً اكتشف في سورية قبل التاريخ من خلال التنقيبات الأثرية، ووجد أيضاً خلال هذا التاريخ في كل من مصر وبلاد الرافدين ففي مصر كلنا يدرك أن النبي يوسف في مصر كان قد جمع القمح في سنبله وخزنه ومن منا لا يعلم أن سورية كانت عنبر الحبوب للسلوقين والرومان من بعدهم. وأنا أعتقد أن القمح وموطنه الأصلي هو بلاد العرب، والبلاد العربية تعدّ من حيث شروط زراعة القمح من أفضل ما يكون لذلك كثرت زراعته وتنوعت وانتشرت، وإلى العرب يعود الفضل في انتشاره وتهجينه وتطور زراعته، كما جادت أرض العرب بالشعير لأن عوامل زراعة القمح والشعير واحدة، وما ينطبق على القمح كثيراً ما يتوافق مع الشعير.

- **الرز**: يعتقد أن الموطن الأول لزراعة الرز هي الهند أو الصين. إلا أن الوثائق تشير إلى أن الرز كان يزرع في بابل في القرن الثاني قبل الميلاد، وفي المنخفضات السورية (وادي الأردن)، وفي بلاد ما بين النهرين. وكان يزرع في فلسطين، وبعضهم الآخر، يرى أن الرز انتشر مع حملة الإسكندر المقدوني نحو الشرق، ومن ضمنها العرب، وبعد الإسلام توسعت زراعته، وخاصة على ضفاف وادي الفرات ودجلة. ولا ننسى قدم زراعة الرز في مصر قبل الإسلام بكثير، نظراً لتوفر عوامل زراعته هناك. وكان الرز معروفاً عند الآشوريين[1] في بلاد ما بين النهرين منذ القرن السابع قبل الميلاد.

- **الذرة**: ذكر أن أفريقية هي الموطن الأصلي للذرة وفي الألف الثاني قبل الميلاد، انتشر غرباً وشرقاً. ويقال إنها وصلت إلى الهند في النصف الأول من الألف الثاني قبل الميلاد، ومهما يكن، فالذرة موجودة عند العرب منذ أكثر من قرنين قبل الإسلام. ومن المعروف أن الذرة وجدت في جنوب الجزيرة في وقت مبكر، وخاصة في اليمن وعمان.

الحمضيات:

تسارع انتشار بعض أنواع الحمضيات في بلاد الشام. ومن أشهر أنواع الحمضيات التي وردت في صدر الإسلام الأترج: يذكره الأصفهاني[2] (مررت ببشار (بن برد) يوماً وهو جالس

---

[1] اندريه واطسون: الإبداع الزراعي في بدايات العالم الإسلامي طبع سوريا ١٩٨٥ - ص٤٠ هامش (٨).

[2] الأصفهاني - الأغاني (أخبار بشار بن برد) ج٣ - ص١٦٢ - ج٢٢ - ص١٩٩.

على بابه وحده وليس معه خلق وبيده مخصرة (العصى) يلعب بها وقدامه طبق فيه نفاع وأترج).
وقال الشاعر لقيط بن زرارة[1] يذكر الأترجة وهو جاهلي:

فيهن أترجة نضج العبير بها   تكسي ترائبها شَذْرا ومَرجانا

ومن أنواع الحمضيات الأخرى النارنج، الذي ذكر أن موطنه الأول كان الهند وأنه انتقل منها إلى العالم الخارجي،ومن ضمنها البلاد العربية، وذكر الحمضيات هذه في الشعر الجاهلي وصدر الإسلام ـ يؤكد كما أعتقد زراعته ـ في هذه المنطقة حتى أن الشاعر بشار كان يتناوله كما ورد.

الموز: لا يعرف موطنه الأصلي إلا أن بعضهم يذكر أنه كان معروفاً في الصين منذ القديم. ويعتقد أن حملة الإسكندر إلى الشرق، كانت قد ساعدت على نقل زراعة الموز إلى سواحل بلاد الشام، وإلى بلاد ما بين النهرين. وقيل إن الموز نشأ في عمان[2] وانتشر في الجزيرة العربية قبل الإسلام، وقيل إنه (كان مألوفاً هناك لدى النبي محمد (ص) في القرن السابع)[3] وقيل إن الموز كان يزرع في مصر قبل الإسلام.

قصب السكر: يعتقد أن قصب السكر أول ما ظهر في الصين. ومنها امتد إلى الهند. ومنها إلى باقي دول العالم. ويذكر أن العرب بعد تحريرهم الوطن العربي، وابتداء فتوحاتهم، كانوا قد نقلوا معهم قصب السكر فكان كما يعتقد أول انتشار له في بلاد الشام وخاصة المناطق الجنوبية (فلسطين ـ الأردن)، والمناطق الشمالية (حلب وما حولها) والساحلية (ابتداءً من أنطاكية حتى الناقورة) إذن شهدت بلاد الشام في القرن الأول[4] الهجري فيما بعد توسعاً كبيراً في زراعته. ولاننسى زراعة القصب في مصر. فقد كانت مصر أغنى شعوب العالم بالسكر، وكانت تصدره.

وقد ورد ذكره في الأغاني[5] (ذكر عن العيني أن أبا نخيلة (توفي سنة ١٤٥هـ) حج ومعه جريب من سويق قد حلاه بقند) والقند عصارة قصب السكر إذا جمد وقيل القند: عسل قصب السكر[6].

---

[1] الأصفهاني ـ الأغاني ج٢٢ ـ ص١٩٩.

[2] عُمان ـ اسم كوره عربية على ساحل بحر اليمن ـ ياقوت الحموي ـ المعجم ـ ج٤ ـ ص١٥٠.

[3] اندريه واطسون ـ الإبداع الزراعي ـ طبع سوريا ١٩٨٥ ـ ص١٢١.

[4] اندريه واطسون ـ الإبداع الزراعي ـ طبع سوريا ١٩٨٥ ـ ص٥٩.

[5] الأصفهاني ـ الأغاني (أخبار أبي نخيلة) ج٢٠ ـ ص٤١.

[6] ابن منظور ـ لسان العرب (مادة قند) ـ ج٣ ـ ص٣٦٨.

القطن: اختلف العلماء في أصل موطن القطن إلا أن إحدى النظريات تشير إلى أن الجزيرة العربية والسودان هما موطن القطن. ووجد القطن في جنوب الجزيرة العربية منذ ما قبل التاريخ، ثم تطور هناك. وقيل الهند هي الموطن الأول للقطن ومنها انتشر غرباً وشرقاً، مهما يكن، فقد كانت الأرض العربية تشمل الطرق التجارية للعالم القديم فإن القطن منذ وجوده عرفه العرب، واستعملوه. ومن يقرأ الأدب الجاهلي يلاحظ وجود الكثير من الألبسة القطنية التي كانت مستعملة. وترد كلمة القطن عند الشعراء.

يذكر بعضهم أن منطقة جنوب سوريا (طبريا بالأردن) كانت تزرع القطن قبل الإسلام. وقيل كان يزرع في شبه الجزيرة العربية (اليمن ـ البحرين ـ الحجاز). وقيل إن زراعة القطن انتقلت من سورية إلى اليونان. والقطن باللغة العربية يعرف (القطن ـ كوباس ـ عطب ـ كرسف). ومما يؤكد وجود القطن في سورية ما كشف في تدمر أن الأكفان المكتشفة في بعض القبور التدمرية كانت مصنوعة من القطن وقد يكون من إنتاج محلي كما كشف عن أكفان في بعض القبور الحميرية كانت مصنوعة من القطن. أيضاً وقد يكون مصنوعاً محلياً. وهذا ما يؤكد قدم زراعة القطن في الأرض العربية (أن بعض الأقمشة المنسوجة جزئياً من القطن، كانت تصنع في سورية في القرنين اللذين سبقا الفتح العربي)[1].

البقول:

اشتهرت بلاد الشام بزراعة البقول والخضراوات. وقد ورد ذكر بعضها في القرآن الكريم. وهذه الأنواع مع غيرها تدخل ضمن الغذاء الرئيسي. من هذه الأنواع: الفول، العدس[2]، والبقل والقثاء[3] والبصل. وقد ورد ذكرها في القرآن الكريم ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نَصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا﴾[4] وكانوا قبل ذلك يأكلون المنّ والسلوى. من ذلك يعتقد أن هذه الأنواع من البقول والخضراوات.

---

[1] اندريه واطسون ـ الإبداع الزراعي ـ طبع سوريا ١٩٨٥ هامش (٢٩) ـ ص٩١.

[2] الأصفهاني ـ الأغاني ـ (أبي نخيلة) ج٢٠ ص٤١٥.

[3] محمود فردوس العظم ـ إبراهيم سيف الدين التركماني ـ الشهد المذاب فيما لذ وطاب ـ ص١٣٨.

[4] القرآن الكريم ـ سورة البقرة الآية / ٦١.

حيث كانت قد وجدت في سائر أرض بلاد الشام قبل الميلاد واستمرت بعد الإسلام من ذلك:

- **البهار**: وهو نبت طيب الرائحة وقد ذكره الأصفهاني[1] في أخبار عبد الله بن العباس الربيعي. كما ذكره الأصفهاني في أخبار حماد عجرد[2].

كما ذكر **الكمون**: والكمون نبات زراعي عشبي حولي من الفصيلة الخثمية بذوره من التوابل وورد ذكر الثوم في صدر الإسلام في كتب الفقه كثيراً.

ومن الأنواع الأخرى **الكمأة**: وهو نبات يقال له شحم الأرض أو جدري الأرض يوجد في الربيع تحت الأرض. وهو في الأصل مستدير كالقلقاس لا ساق له ولا عرق لونه يميل إلى الغبرة. وقيل هو فطر من الفصيلة الكمئية والكمأة كانت موجودة قبل الإسلام وبعده يذكره الأصفهاني[3] في أخبار زهير بن خباب. ومن ذلك البصل. وقد ذكره ابن قتيبة الدينوري في كتابه عيون الأخبار، يقول: (دخل الداخل على نصر بن سيار وحوله بنون له صغار. فقال: هل تدرون ما ولدي هؤلاء؟ هؤلاء بنو البصل، وكان يأكله نيئاً ومشوياً ومطبوخاً)[4]. ومن الخضار التي كانت موجودة في صدر الإسلام السلق[5].

الثروة الحيوانية:

ساعد خصب الأرض في بلاد الشام وعناية الخلفاء والحكام بالثروة الحيوانية، خاصة في العصر الأموي. وعرف شعب بلاد الشام الكثير من الحيوانات، للاستفادة منها في الأعمال الزراعية. ومن جلودها وصوفها وشعرها.

ومن هذه الحيوانات:

---

[1] الأصفهاني - الأغاني ج١٩ - ص٢٥٨.

[2] المرجع نفسه - (أخبار حماد عجرد) ج١٤ - ص٣١٦.

[3] المرجع نفسه - (أخبار زهير بن خباب) ج١٩ - ص٢٥.

[4] ابن قتيبة الدينوري - عيون الأخبار ج٣ - ٢٨٣.

[5] البخاري - صحيح البخاري - كتاب الأطعمة - باب السلق والشعير - ج٩ - ص٢٧.

- **البقر**[1]: كثر استخدامها يستفاد منها في الأعمال الزراعية كالحراثة ومن حليبها وجلودها ولحمها ومّما تطرحه من سماد.

- **الماشية:** عرف العرب الماشية بأنواعها المختلفة، وعرفوا كيفية الاستفادة منها. فأكلوا لحمها، واستخدموا صوفها في مجالات متعددة. كان أهمها نسج الأقمشة الصوفية. واستفادوا من لبنها وجلودها وغير ذلك.

- **الإبل:** عرف الجمل عند العرب قبل الإسلام واستمر استخدامه بعد الإسلام، وكان يدعى سفينة الصحراء، وكان يستخدم للأكل والركوب ونقل الأحمال وجلده لاستعمالات عدة.

- **الخيل:** استخدم الخيل في الأعمال الزراعية والنقل والحرب والرياضة، وغير ذلك. وفي الحديث الشريف «**الخيل معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة**»[2] وقال: لرجل أراد أن يشتري فرساً. «**فاشتِره إذاً أدهَم أو كُميتاً أَقْرح أرقم أو محجلاً مطلق اليمين**[3]» وقال «**عليكم بإناث الخيل فإن ظهورها حرز وبطونها كنز**»[4].

- **الحمار:** استخدم الحمار وكان أكثر استخدامه للنقل، ودرس الغلال على البيادر. توصف الحمير بالصبر.

ومن الحيوانات الأخرى التي ساعدت الطبيعة على انتشارها في بلاد الشام ما يلي:

- **الأسد:** وله أسماء متعددة منها الهصر - أسامة - الضرغام - وغير ذلك.
- **الفهد.**
- **النمر.**
- **الضبع** (العرفاء).

---

[1] الأصفهاني - الأغاني - (أخبار عبد الله بن الحجاج) - ج١٢ - ص١٨٨.

[2] أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبه الدينوري - عيون الاخبار - ج٢ - ص١٥٣.

[3] المرجع نفسه - ج٢ - ص١٥٣.

[4] المرجع نفسه - عيون الأخبار - ج١ ص١٥٣ - الأصفهاني الأغاني - (أخبار كعب بن زهير) ج١١ - ص٨٥ - ١٠٨.

ـ **الخنزير**[1]: قال عبد الله بن الزبير لعبد الله بن فضالة (ارقعها بسبت واخصفها بهلب) والهلب هنا هو شق الخنزير وهذا ما يثبت وجود الخنزير كأحد الحيوانات المنتشرة على الأرض العربية.

ـ **الفيل:** وجد في بلاد الشام، لأنه كان قد نقل إليها من مكان لآخر. ومن المعروف أن مدينة أفامية في العصر اليوناني وما تلاه كانت مركزاً مهماً لتربية الفيلة. والفيل يخاف من السنور والفيلة تضع في سبع سنين وهو من الحيوانات التي تعمر طويلاً.

ـ **الغزال:** كثر انتشاره في الصحراء العربية وتدل على وجوده في سوريه رسومه المكتشفة من خلال التنقيبات الأثرية في كل من ماري ـ إيبلا وغيرها.

ـ **الظبي**[2]: الظباء على أنواع منها (اليعفور) وهو أضعف أنواع الظباء عدداً ومنها (الرشاء) وهو الذي إذا قوي وتحرك ومشى مع أمه ومنها (الشادن) وهو ولد الظبية.

ـ **الكلب:** وله استخدامات كثيرة منها الحراسة واستخدم أيضاً في عمليات القنص والصيد.

ـ **الذئب**[3]: ويسمى السرحان وهو أشد السباع مطالبة وإذا عجز عوى عواء استغاثة، وفي طبع الذئب محبة الدم.

ـ **الحمار الوحشي** (المسحل): أنثاه تسمى الأتان.

ـ **القرد**[4]: والقرد على أنواع والذكر من القرود يسمى (الرباح) ومنها النسناس وغير ذلك.

ـ **الزرافة.**

ـ **فرس النهر.**

ـ **الوعل.**

ـ **الأرنب:** الأرنب تحيض، وتنام مفتوحة العينين.

ـ **السنور**[5]: وهو حيوان من الفصيلة السنورية منه ما هو أهلي ومنه ما هو بري.

---

(1) الأصفهاني ـ الأغاني ـ (أخبار أبي قطيعة) ج١ ـ ص١٩.

(2) المرجع نفسه ـ (أخبار المتلمس) ج٢٤ ـ ص٢٢٨.

(3) المرجع نفسه ـ (أخبار بن سريج) ـ ج١ ـ ص٢٦٧.

(4) المرجع نفسه ـ (حروب الفجار) ـ ج٢٢ ـ ص٦١.

(5) المرجع نفسه ـ (أخبار حماد عجرد) ج١٤ ـ ص٣٧٣.

أما السمور[1]: حيوان ثديي ليلي من أكلة اللحوم يتخذ من جلده فرو ثمين.

- **الضب**[2]: حيوان من جنس الزواحف غليظ الجسم خشنه له ذنب عريض ويكثر في الصحارى تصدر عنه رائحة كريهة.

- **الوبار**[3]: هو دويبة كالسنور لكنها أصغر من دواب الصحراء، حسنة العينين من ذوات الحوافر في حجم الأرنب ضحلاء اللون (بين الغبرة والسواد) قصيرة الذيل والأذنين تحرّك فكها السفلي كأنها تجتر، تعيش في الصحراء وصفت بأنها شديدة الحياء.

- **النحل**: يستفاد من عسله الذي كان يستخدم في الخلية وهو مذكور في القرآن الكريم وهو شفاء لكل داء.

- **البرذون**[4]: دابة الحمل الثقيل، والكردن هو البرذون الصغير.

- **الجوذر**[5]: ولد البقرة الوحشية.

- **دلول**[6]: دابة تنتفض فترمي الشوك كالسهام شبه القنفذ.

بعض الحيوانات والحشرات الأخرى:

- **القنفذ**[7]: دويبة ذات شوك حاد يلتف فيصير كالكرة،وبذلك يقي نفسه من خطر الاعتداء عليه.

- **الظربي**[8]: جمع ظربان وهي دويبة كالهرة منتنة الرائحة. وقيل دويبة يشبه الكلب أصم الأذنين طويل الخرطوم أبيض اللون.

- **الحية**: الايم - الحية الذكر ومن أسمائها الحباب الرقاش وهي الحية لرقشة جلدها ومن أسمائها الصل - الثعبان.

---

[1] الأصفهاني - الأغاني - (أشعب) - ج١٩ - ص١٧٤.

[2] المرجع نفسه - (إسماعيل بن يسار) - ج٤ - ص٤١٠ - ج٢١ - ص٢٩٢.

[3] المرجع نفسه - (أخبار نصيب) ج١ - ص٣٣٤ - ج٢ - ص١٤٣ - ابن منظور - اللسان - مادة كدن - ج١٣ - ص٣٥٦.

[4] المرجع نفسه - أخبار عمر بن أبي ربيعه - ج١ - ص٨٠ - ج٤ - ص٣٢١.

[5] المرجع نفسه - أخبار العرجي - ج١ - ص٣٨٣.

[6] المرجع نفسه - أخبار العرجي - ج١ - ص٣٩٢.

[7] المرجع نفسه - أخبار بشار بن برد - ج٣ - ص١٦١.

[8] المرجع نفسه - أخبار الحكم بن عدل - ج٢ - ص٤١٥ - ج٣ - ص١٦١ - ابن منظور - اللسان - مادة ظرب - ج١ - ص٥٨١.

- **البق**: جنس حشرات من فصيلة البعوضيات.

- **العظاية**[1]: العظاة: دويبة من الزواحف ذوات الأربع تعرف بالسحلية أو السقاية ومن أنواعها الضباب وسوام أبرص.

- **القراد**[2]: وهي دويبة متطفلة ذات أرجل كثيرة تعيش على الدواب الصغيرة.

- **النمل**[3]: وصغار النمل يعرف باسم الذور.

- **الجندب**[4]: الجراد الصغير.

- **الجعل**[5]: ضرب من الخنافس وقيل هو حيوان كالخنفساء.

- **الدعاميص**[6]: ضرب من الديدان السود تعيش في المياه الراكدة، والدعموص دويبة صحراوية.

- **الدبا**: من الدويبات الصغيرة كالجراد والنمل. وقيل هو الجراد قبل أن يطير، أو أصغر ما يكون من الجراد، وقيل أصغر ما يكون من النمل.

- **اليربوع**[7]: دويبة نحو الفأرة لكن ذنبه وأذناه أطول ورجلاه من يديه عكس الزرافة.

- **السنجاب**[8]: ضرب من الحيوان ذو شعر ناعم.

- **الخنفساء**[9]: حشرة سوداء أصغر من الجعل منتنة.

- **الزنابير**: حشرة أليمة اللسع ضامرة الوسط.

- **العلق**[10]: دود أسود يمتص الدم يكون في الماء الآسن إذا شربته الدابة علق بحلقها.

---

[1] الأصفهاني - الأغاني - أخبار بشار بن برد - ج٣ - ص١٧٣ - ج٤ - ص١٣٣.

[2] المرجع نفسه - ذكر ابن هرمة - ج٤ - ص٣٧٣ - ج٨ - ص٢٩١.

[3] المرجع نفسه - سلامة الزرقاء - ج٥ - ص٦٥.

[4] المرجع نفسه - أخبار الوليد بن عقبة ج٥ - ص١٥١.

[5] المرجع نفسه - الصمة القشيري - ج٦ - ص٦ - ج٨ - ص٢٩١.

[6] المرجع نفسه - أخبار ابن مسجح - ج٣ - ص٢٧٧ - ج١١ - ص٢١٥.

[7] المرجع نفسه - أخبار علي بن خليل - ج١٤ - ص١٨١.

[8] المرجع نفسه - أخبار علي بن خليل - ج١٤ - ص١٨٣.

[9] المرجع نفسه - أخبار بشار بن برد - ج٣ - ص٢٠٧ - ج٢١ - ص٣٣٤.

[10] المرجع نفسه - أخبار أبي العيال - ج٢٤ - ص١٦٤.

- **السلور**: السمك الجربي بلغة أهل الشام، والجربي نوع من السمك يشبه الحية. وكان الإمام علي ينهى عن أكله[1].

- **الشبوط**[2]: يكثر في دجلة.

- **القطرب**[3]: دويبة كانت في الجاهلية لا تستريح نهاراً ولا تنام ليلاً.

- **الذراريح**[4]: دويبة حمراء منقطة بسواد.

- **الغرب**[5]: ويسمى الحاتم: وهو الغراب الأسود.

- **القبرة**: وجدت قبل الإسلام، روي أن قبرة كانت قد حملت جرادة كهدية للنبي سليمان.

- **السلوى**.

- **الرخمة**[6]: طائر يشبه النسر في الخلق يقال له الأنوق.

- **بنات الماء**[7]: طيور تلازم الماء.

- **القطاة**[8]: طائر في حجم الحمام، وقيل هو نوع من اليمام. يؤثر الحياة في الصحراء. يطير جماعات، ويقطع مسافات شاسعة، مرقط، تضع بيضها أفراداً.

- **النعام**: طائر كبير الجسم طويل، قصير الجناح شديد العدو مركب في خلقه الطير والجمل وذكر النعام (الظلمان أو النقذق) وصغار النعام (الحفان) وقيل القمري ضرب من النعام.

- **الحباري**[9]: طائر طويل العنق رمادي اللون في منقاره بعض الطول. وقيل هو طائر أكبر من الدجاج وأطول عنقاً، يضرب به المثل في البلاهة.

---

(1) الأغاني - الأصفهاني -أخبار الحسين بن الضحاك - ج٧ - ص٢٣٠.

(2) المرجع نفسه - تأبط شراً - ج٢١ - ص١٤٩.

(3) المرجع نفسه - ج١ - ص٦٤.

(4) المرجع نفسه - ج١٤ - ص١٨١.

(5) المرجع نفسه - أخبار النابغة - ج١١ - ص١٢.

(6) المرجع نفسه - أخبار ابن سريج - ج١ - ص٢٨٠.

(7) المرجع نفسه - أخبار جميلة - ج٨ - ص١٤٩.

(8) المرجع نفسه - أخبار مجنون بني عامر - ج٢ - ص٤٤ - ج٨ - ص١٠٤ - ج١١ - ص١٨.

(9) المرجع نفسه - أخبار حنين الحيري - ج٢ - ص٣٤٥ - ج١٠ - ص٢٥ + ٣٤٠ - ج١٢ - ص٣٨٢.

ـ **الدراج**[1]: نوع من الطير يدرج في مشيته. وقيل هو طائر أسود باطن الجناحين وقيل هو طائر يشبه الحجل وأكبر منه. أرقط بسواد وبياض قصير المنقار ويطلق على الذكر والأنثى.

ـ **الهام**: نوع من البوم الصغير تألف القبور والأماكن الخربة.

ـ **الصردان**[2]: وهو طائر أبيض البطن يتشاءم به. وقيل هو طائر أكبر من العصفور ضخم الرأس والمنقار يصيد صغار الحشرات وربما صغار العصافير.

ـ **العقاب**[3]: طائر من كواسر الطير ذوي المخالب. له منقار قصير أعقف حاد البصر، الأنثى تبيض ثلاث بيضات.

ـ **الصافر**[4]: طائر يتعلق بالشجر برجليه وينكس رأسه خوفاً من أن ينام فيؤخذ فيصفر منكوساً طول ليلته.

ـ **الصدى**[5]: طائر يصيح في هامة المقتول إذا لم يثائر به وقيل هو طائر يخرج من رأسه إذا بلي يدعى الهامة.

ـ **المطوق**: من الحمام وهو ما كان له طوق في عنقه.

ـ **الحمام الهداء**: الحمام الزاجل: وهو ضرب من الحمام يدرب حتى يصبح قادراً على الانتقال من مكان إلى آخر مزوداً بالرسائل.

ـ **الحمام الراعبي**: جنس من الحمام يرعب في صوته وهو شديد الصوت. ومنه ضرب من الحمام المطوق إذا مشى توسع في مشيته وباعد بين جناحيه وإبطيه وتمايل.

ـ **الشواهين**: جمع شاهين وهو من سباع الطير.

ـ **الغرانيق**: طائر مائي.

---

(1) الأصفهاني ـ الأغاني ـ إسماعيل بن يسار ـ ج٤ ـ ص٤٠٥.

(2) المرجع نفسه ـ أخبار ضريح ـ ج٤ ـ ص٣١٤ ـ ج٩ ـ ص١٧٤ ـ ج١١ ـ ص٨٣.

(3) المرجع نفسه ـ يوم شعب جبلة ـ ج١١ ـ ص١٥٢.

(4) المرجع نفسه ـ أخبار أبي وجزه ـ ج٢ ـ ص٢٩٥.

(5) المرجع نفسه ـ أخبار الأسود ـ ج٢ ـ ص٢٥.

ـ **البغاث**[1]: طائر أبغث اللون أصغر من الرخم بطيء الطيران.

ـ **المكاء**[2]: طائر صغير يألف الريف يجمع يديه ثم يصفر فيها، صفيراً حسناً.

ـ **البواشق**[3]: جمع باشق وهو البازي ضرب من الصقور يستخدم في الصيد.

ـ **الهدهد**[4]: جنس من طير الجواثم الرقيقات المناقير له قنزعة على راسه. وقيل هو الحمام الكثير الهدهدة. وقد ورد ذكره في القرآن الكريم.

ـ **الحدأة**: طائر من الجوارح ينقض على الجرذان والدواجن والأطعمة ونحوها.

ـ **الذبال**[5].

الطيور:

عرف العرب ـ قبل الإسلام وبعده ـ الطيور، واستفادوا من لحمها وبيضها في وجبات الطعام، وريشها في حشو الوسائد والفرش وما شابه ذلك. كما كانت الطيور عنصراً من عناصر التسلية عند الحكام. وخاصة في أوقات الفراغ، حيث كانوا يقومون بصيدها ومن الطيور التي عرفها العرب أنواع عديدة منها:

ـ **النسر**: أحد الطيور الكواسر وفرخه يسمى المعقن ريشه أجود أنواع الريش.

ـ **الصقر**: أحد الطيور الكواسر.

ـ **الدجاج**: يستفاد من لحمه وبيضه وريشه.

ـ **الحمام**[6]: كان يستفاد من لحمه وريشه وبيضه وكان نوع منه يستخدم في البريد لنقل الرسائل الهامة من مكان لآخر، كما هو معروف.

ـ **البط**: يستفاد من لحمه وريشه.

ـ **الإوز**: يستفاد من لحمه وريشه.

---

(1) الأصفهاني ـ الأغاني ـ الأحوص ـ ج٢١ ـ ص١١٠.

(2) المرجع نفسه ـ أخبار بعلي ـ ج٢٢ ـ ص١٥٣.

(3) المرجع نفسه ـ ج٢٣ ـ ص١٨٥.

(4) ورد ذكره في القرآن الكريم.

(5) المرجع نفسه ـ أخبار النابغة ـ ج١١ ـ ص٤٠.

(6) المرجع نفسه ـ أخبار سلامة القس ـ ج٨ ـ ص٣٥٤.

- **الخفاش:** لا يبصر في الضوء الشديد ولا في الظلمة الشديدة، تحمل الأنثى ولدها تحت جناحها وتحبل وتلد وتحيض وترضع وتطير بلا ريش. ذكره الإمام علي في نهج البلاغة[1].

- **الكركي.**

- **السمن.**

- **البجع.**

- **الطاووس**[2] ذكره الإمام علي في نهج البلاغة.

- **عصفور الجنة.**

- **البومة:** طائر رمز التشاؤم عند العرب.

---

(1) نهج البلاغة ـ صبحي الصالح ـ ص٢١٧.

(2) المرجع نفسه ـ ص٢٣٨.

الفصل الثالث

التجارة

التجارة الإسلامية



الفصل الثالث

التجارة

التجارة الإسلامية:

من المعلوم أن الطرق التجارية الكبرى قبل الإسلام بقيت هي نفسها بعده وكانت بلاد الشام من أكثر الأقاليم ازدهاراً ومدنها كانطاكية كانت أولى المدن من حيث الثراء والاتساع والسكان والجمال يضاف لانطاكية أفاميا[1] وغزة[2] وصيدا[3] وصور[4] وبيروت ودمشق وحلب وغيرها وكانت بلاد الشام مشهورة بتجارة الحرير لأن الصناع السوريين لم يفتهم أن يملؤوا البلد بمزارع أشجار التوت، واستمرت هذه الأعمال الزراعية التجارية حتى بعد الإسلام.

وكان السوريون تجاراً نشيطين يصدرون إلى العالم إلى جانب الحرير أنواعاً أخرى من منتجات الشرق الأدنى حيث وصف التجار السوريون بأنهم كانوا يجوبون بقاع العالم كله ومعهم بضائعهم متحدين البؤس والموت وغارات البرابرة باحثين عن الثروة، واستقر التجار السوريون في

---

[1] أفاميا: مدينة حصنية من سواحل الشام وكورة من كور حمص ـ ياقوت ـ المعجم ـ ج١ ـ ص٢٢٧.

[2] غزة: مدينة في الشام من جهة مصر من نواحي فلسطين ـ ياقوت ـ المعجم ـ ج٤ ـ ص٢٠٢.

[3] صيدا: مدينة على ساحل بحر الشام من أعمال دمشق شرقي صور بينهما سنة فراسخ ـ ياقوت ـ المعجم ـ ج٣ ـ ص٤٣٥.

[4] صور: مدينة مشرفة على بحر الشام من ثغور المسلمين ـ ياقوت ـ المعجم ـ ج٣ ـ ص٤٣٣.

أقاليم أوربة القديمة كفرنسة وإيطالية وألمانية واليونان وإسبانية وغيرها من قبل الإسلام.

إذن كان إقليم بلاد الشام يفوق سائر أقاليم البلاد العربية وغيرها بنشاطه الصناعي والتجاري فمثلاً كان نبيذ الساحل السوري يصدر إلى العالم كما صدروا الزيتون والجلود وغيرها. واستمر التجار السوريون يقومون بدورهم الفعال في عالم التجارة.

ومن المعروف أن العرب كانوا قد اهتموا ــ منذ البداية وبعد تحريرهم الأرض العربية من البيزنطيين ـ بالأرض الزراعية والزراعة ولم يدم وقت طويل على وجود هذه الدولة حتى بلغت درجة عالية من التطور في مختلف المجالات وعلى رأسها الاقتصادية وأثبتت قدرتها على المزيد من التقدم والتطور.

فالتجارة التي كانت تلعبه الحيرة في الشمال وعرب البحرين وصلاتهم التجارية مع الشرق وخاصة مع الهند كانت قد استمرت بعد الإسلام كما لم تفقد عدن[1] أهميتها التجارية في الجنوب واستمرت القوافل التجارية تربط القبائل العربية من الفرات إلى اليمن بعضها ببعض كما كانت مكة قبل الإسلام مركزاً من مراكز العالم العربي التجارية وكان بها تجار نشطون يجوبون جنوب الجزيرة العربية والشام وقد ذكر الله تعالى ذلك في كتابه العزيز بقوله تعالى: ﴿لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ﴾[2]، تلك الرحلات التي سنها جد الرسول (ص) من هاشم إلى كل من اليمن والشام يقول ابن هشام: (كان هاشم فيما يزعمون أول من سن الرحلتين: رحلتي الشتاء والصيف، وأول من أطعم الثريد بمكة)[3].

كان تجار قريش نشطون أثرياء وكانت قوافلهم ترسل بانتظام إلى الخارج كما كانت تستقبل قوافل أخرى عائدة، ومن المعلوم أن الرسول (ص) كان قد قام مراراً برحلات لأغراض تجارية. وعندما وجدت الدولة العربية بقيادة النبي (ص) لم ولن توضع أية عراقيل أمام الاقتصاد وتطوره واستمرت قوافل مكة أداة قوية لمضاعفة المبادلات التجارية وكان الحجاج إلى الأماكن المقدسة يحملون معهم إلى أسواق مكة منتجاتهم الطبيعية أو المصنوعة، فاتسعت الطرق وتعددت وتطورت وحفرت الآبار ورقمت أماكن الينابيع على هذه الطرق وأصلحت كما وجدت أماكن لراحة

---

[1] ياقوت الحموي ـ معجم البلدان ـ ج٤ ـ ص٨٩.

[2] القرآن الكريم ـ سورة قريش ـ الآية / ١-٢.

[3] ابن هشام ـ السيرة النبوية ـ ج١ ـ ص١٣٦.

الحجاج على هذه الطرق. وغاية ذلك كان إثارة التجارة فالمسافرون والحجاج والتجار كانوا يجدون في المدن وعلى الطرق فنادق لراحتهم. ولأن اعتراض التجارة في البداية بعض العقبات ومن أهمها كانت عملية التحرير ومحاربة أعداء الدين الجديد. إلا أن ذلك لم يدم طويلاً فزالت هذه العقبات وعمت السكينة أرض العرب لمجرد اتساع أرضهم وسيطرتهم على أراض مجاورة وتشكيلهم دولة قوية وعم الرخاء والثراء الدولة فساعد ذلك كله على تشجيع ونشاط التجارة وازدهارها وخاصة في بلاد الشام بعد ولاية معاوية عليها.

فدمشق بعد أن أصبحت مقراً جديداً للسلطة الأموية أصبحت أكثر ملائمة للتجارة واتصال القوافل الخارجية من آسية الصغرى ومن العراق والمتجهة إلى داخل الدولة وبالعكس وساعدت التجارة كما هو معلوم الطرق المائية والبرية التي كانت ذات أهمية للتجارة قبل الإسلام كنهري الفرات ودجلة ونهر النيل والخليج العربي والبحر المتوسط والبحر الأحمر وغيرهما كما سيرد عند الحديث عن الطرق التجارية.

ومن المعروف أن بلاد العرب كانت تنتج البخور والصبر ووجد إلى جانب الغلات الطبيعية المنتجات الصناعية والعرب كانوا يؤمنون بالعمل وقد حث القرآن الكريم عليه وعمل على تطبيقه القادة العرب المسلمون ابتداءً من صدر الإسلام، فمثلاً استمر عرب سورية بصناعة الحرير التي كانوا يزاولونها منذ زمن بعيد.

واستسلم الأثرياء والأقوياء ابتداءً من ولاية معاوية على سورية للملذات الدنيوية دون حرج واختاروا لثيابهم أغلى الأقمشة واستعملوا في تزيين دورهم ترفاً حقيقياً كل ذلك ساعد على تطور التجارة، ففي دمشق وبعض مدن الوجه البحري وبخاصة تنيس[1] كانت تنسج وتطرز أقمشة ثمينة لصنع الملابس والبسط وستائر الخيام وكان السادة العرب يحبون الأثاث المصنوع من المعادن الثمينة (ذهب ـ فضة) ومن الخشب الثمين الزكي الرائحة المزين بالأحجار الكريمة، كل ذلك كان يتطلب القيام بأعمال تجارية واسعة.

---

[1] تنيس: جزيرة في بحر مصر قريبة من البر ما بين الفرماء ودمياط ـ ياقوت الحموي ـ معجم البلدان ـ ج٢ ـ ص٥١.

عرف العرب منذ قديم الزمان بحب الحركة والقيام بالأعمال التجارية وكان للحج دور في ذلك فالحج أحد أركان الإسلام وهو فرض واجب وقد ساعد الحج على تطور التجارة نظراً لما كان يقوم به الحجاج بالإضافة إلى مهمتهم الرئيسية الحج بأعمال تجارية تعود عليهم بالنفع والفائدة. ومن المعلوم أيضاً أن العرب في أعقاب تحرير الأراضي العربية وخاصة مصر أعيد هناك فتح القناة التجارية التي كانت تربط البحر الأحمر بعاصمة مصر آنذاك لغاية تجارية من حيث الاستيراد والتصدير مما عزز العلاقات التجارية بين الشرق والغرب.

وكان التجار العرب في المدن التجارية العالمية قبل الإسلام قد أسسوا مراكز تجارية على شواطئ البحر المتوسط والأحمر كما عمل البحارة العرب داخل الدول على إنشاء مراكز أخرى على الأنهار الرئيسية في الوطن العربي تعمل وتساعد المراكز البحرية، بالإضافة إلى الموانئ التجارية البرية التي كانت منتشرة في أقصى الوطن العربي في العراق إلى أقصى المغرب العربي ومن شماله إلى جنوبه مما يؤكد وجود حركة تجارية راقية وسامية مستمرة وكانت هذه المراكز من حيث موقعها ملائمة للوساطة التجارية العالمية واستمرت فيما بعد على ما هي عليه مع تفاوت فيما بينها.

في الوقت نفسه بقي العرب المنتشرون في العالم يرسلون سفنهم إلى شواطئ البحر المتوسط الشمالية والشرقية والجنوبية بعد قيام الدولة العربية وكانوا يتزودون بالمنتوجات المتوفرة وكانت السفن تحمل الركاب والبضائع وتجوب السواحل العربية التي اعتادت الصلات التجارية مع العالم القديم ولم تطلها الدولة العربية الجديدة.

إذاً استفادت الدولة العربية بعد تحريرها وانتشارها إلى أراض واسعة خارج الوطن العربي من الهدوء والاستقرار لاستصلاح ما أفسدته الدولة الرومانية وعم الرخاء والأمن رغم وجود بعض الاضطرابات الداخلية وأصبحت الدولة العربية تقوم على قدرات اقتصادية وحربية واسعة الانتشار وازدهرت الصناعة والزراعة والتجارة في المدن العربية وازدادت شهرة دمشق التجارية والسياسية بعد أن أصبحت العاصمة وبلغ الإنتاج أشده في العصر الراشدي وتبلور تطوره في العصر الأموي فمصر كانت تنتج كميات كبيرة ووفيرة من الحبوب كما أنتجت حاصلات زراعية أخرى ذات قيمة تصديرية كالنبيذ والأخشاب وزيت الزيتون وبعض المعادن.

ومن المعلوم أن المدن الرئيسية في الوطن العربي آنذاك كدمشق وبيروت وانطاكية والإسكندرية وبصرى[1] والموصل وحلب وصيدا وصور وغيرها من مدن الساحل الجنوبي والشرقي للبحر المتوسط لم تكن عالة على الريف و لم تكن مجرد أماكن لسكنى السلطة الحاكمة وأفراد الطبقة الأرستقراطية أولئك الذين يحصلون على ثرواتهم من جهد سلطته الحكومية أو من استغلال الآخرين على العكس كانت هذه المدن مراكز صناعية فالنسيج كان في مقدمة الصناعات الهامة من الصوف والحرير والكتان لا من أجل استهلاكها المحلي إنما للتصدير الواسع النطاق إلى الأسواق العالمية رغم الظروف القاسية.

كما انتشرت في هذه المدن صناعة ورق البردي وخاصة في مصر والزجاج والأواني المعدنية المصنوعة من الحديد الصلب والبرونز والنحاس إلا أن معظم الإنتاج كان من المواد الكمالية وكان ازدحام السكان بهذه المدن يدل على مدى نشاطها الاقتصادي وإلى كون هذا الوطن من أهم مناطق التصدير العالمية كما كانت سوقاً رائجة لمنتجات الشرق ومما ساعد الاقتصاد على التطور وتشجيع الحكومة العربية المركزية للتجارة والصناعة.

كما ساعد التجارة ابتداءً ـ من عصر معاوية وحتى قبل أن يكون خليفة ـ تأسيس قوة بحرية دائمة في البحر المتوسط وإنشاء دور للصناعة البحرية في الإسكندرية بمصر وعكا في سورية وقرطاجة، لأن مصر كانت قبل الإسلام تملك قوة بحرية لا بأس بها كما كانت مدن الساحل السورية تملك أيضاً بحرية متطورة حيث استمرت هذه الصناعة بعد الإسلام لكن بمستوى أقل في البداية ثم أخذ في تطويرها معاوية بعد ولايته لسورية وتمكن العرب في العصر الأموي من السيطرة والتحكم على الطرق البرية لتجارة الحرير الواردة من الشرق الأقصى علماً أن الحرير كان قد انتشر في سورية بحدود (٥٥٢م).

لقد أولت الحكومات العربية شؤون التجارة الخارجية والداخلية اهتماماً واسعاً شأنها شأن الزراعة والصناعة وساعد على تطور الاقتصاد بشكل عام تعريب الاقتصاد وخاصة العملة وساعد ذلك على الرخاء الاقتصادي وأكبر دليل على ذلك تلك التحصينات التي أقامها الأمويون على

---

[1] بصرى: من أعمال دمشق وهي قصبة حوران مدينة قديمة مشهورة ـ ياقوت الحموي ـ المعجم ـ ج١ ـ ص٤٤١.

الحدود مع الإمبراطورية البيزنطية والجيوش الموزعة شرقاً وغرباً وتمويلها.

وكانت مصر من أكثر أقاليم الدولة العربية رخاء، لاسيما مدينة الإسكندرية، التي كانت تعتبر أعظم مدن البحر الأبيض المتوسط قاطبة، وكانت أيضاً أعظم مركز تجاري على المتوسط، وكانت الإسكندرية أكبر محطة لتجار الشرق، لذلك كانت مصر ذات سيادة تجارية على البحر المتوسط والبحر الأحمر في حدود شواطئها، حيث كانت تقلع منها السفن محملة بالحبوب، وبفاخر صناعاتها إلى الداخل والخارج، وأصبحت صلة الوصل البحرية بين أقاليم الوطن العربي. وفي العصر الأموي وجدت الصناعات نوعاً من التعادل في الميزان التجاري مع دول العالم المجاورة.

إذاً نبذ العرب الحضارة الغربية، التي فرضت عليهم قسراً، وبدأ عصر العرب في دنيا البحر المتوسط بدأ العرب قوة اقتصادية ذات أهمية عالمية، وبدأ العرب قوة سياسية وعسكرية مسيطرة ذات سيادة عالمية، وبدأت اللغة العربية بعد فترة غير طويلة لغة السياسة والتجارة العالمية رغم كل الظروف التي حاولت الحد من ذلك.

شرعت التجارة قبل الإسلام وبعده فقريش كان لها رحلتان تجاريتان كما ذكرنا، وكان أبو سفيان أحد تجار قريش الذي كان يخرج على رأس قافلة تجارية من مكة إلى بلاد الشام، وقبل الإسلام وجدت الأسواق التجارية وتضمنت السلع والبضائع[1]، التي منها ما كان محلياً ومنها ما كان مستورداً فما كان من إنتاج محلي كان (آنية الذهب والفضة وحلي النساء أسورة ذهبية، دمالج، خلاخل، خواتم وقلائد متنوعة)، وكانت التجارة من اختصاص الموالي واليهود قبل الإسلام وبعده إلا أن ذلك لم يكن عاماً فأبو سفيان كما ذكرنا كان علماً من أعلام التجارة في الجزيرة العربية.

والمدن العربية قبل الإسلام كانت تحتوي ساحات تعتبر هذه الساحات أسواقاً فالفلاح كان يتوجه إلى المدينة. يبيع فيها ما فاض من منتوجاته للتاجر الموجود في سوق المدينة. وبالمقابل كان الفلاح يشتري ما هو بحاجة له من الصناع، وهكذا استمرت الحياة الاقتصادية بعد الإسلام فكان في

---

[1] الواقدي - أبو عبد الله محمد بن عمر الواقدي - المغازي طبع بيروت بدون تاريخ - ج٢ - ص٦٦٥ + ٦٧٣ + ٦٨٠ .

كل مدينة سوق وساحات غايتها التجارة والمطلع على تخطيط المدن العربية منذ صدر الإسلام يلاحظ وجود مثل هذه الساحات والأسواق والحوانيت، وفي البداية كانت التجارة حرفية أو موسمية فبعض التجار كان ينتقل بمنتوجات يحملها على ظهره أو على ظهر الدواب حسب وضعه المادي وينتقل بها متحدياً المشاق بأنواعها مهما كانت النتيجة.

والتجارة كما هو معلوم نوعان إما أن تكون برية أو بحرية، فالبرية كانت تنظم بواسطة القوافل تجوب الدول العربية من أقصاها إلى أدناها، وكانت القوافل التجارية حتى نهاية العصر الأموي وفي أكثر الأحيان مؤمنة من قطاع الطرق نظراً لانتشار الأمن والاستقرار فكثرت حركة التجارة وتطورت وتنوعت حيث الاستيراد والتصدير، فالقوافل التجارية كانت تنقل من الخارج السلع غير المتوفرة وتحمل إلى الداخل السلع المفقودة وفي التاريخ العربي الكثير من النصوص، التي تؤكد التجارة، وتنقلها داخل أقاليم الدولة العربية ابتداء من صدر الإسلام حتى نهاية العصر الأموي.

أما التجارة البحرية فمنها ما كان عبر الأنهار الكبرى المتواجدة داخل الدولة العربية كأنهار دجلة والفرات والنيل وغيرها من الأنهار الكبرى ومنها ما كان يتم عبر البحار كالبحر المتوسط والأحمر والخليج العربي والمحيطات كالأطلسي لأن الدولة العربية امتدت في العصر الأموي حتى كادت تسيطر على العالم كما هو معلوم لذلك نرى الموانئ القديمة على هذه البحار استمرت بعد التحرير العربي بقدرة أقل إلا أن ذلك لا يعني انحطاط التجارة، لأن التجار العرب كانوا متسامحين بالنسبة للأديان الأخرى مما سهل عملية التجارة واعتبروا التجارة نشاطاً مشروعاً، فالسفن العربية ذات الأشرعة كانت تمخر عبر المحيطات والبحار وكان العاج والذهب والرقيق من أهم مواد تجارتهم.

ومنذ البداية استفاد العرب في تطورهم الاقتصادي من كميات الذهب والمعادن الأخرى التي وجدوها في قصور الأمراء والحكام ومن الكنائس والأديرة والمقابر كمقابر الفراعنة وغير ذلك، كما ساعد على تطور التجارة اهتمام الحكومة بالطرق، وإصلاح الجسور والمعابر وتأمينها واستقرار الأمن والسلام في ربوع الدولة والتجارة كما هو معروف في العصر الأموي كانت محمية من الحكام وعلى رأسهم الخلفاء والأمراء والولاة وغيرهم من ذوي الجاه والمال فكان ذلك من عوامل تطور

التجارة واستقرارها وكانت التجارة تدر ربحاً كبيراً ووفيراً مما أسهم في رواجها.

عندما هاجر رسول ا لله (ص) إلى المدينة وبعد أن اختط المسجد عمد إلى مكان البيع والشراء فحدده وقال: «**هذا سوقكم فلا ينتقص ولا يضرب عليه خراج**»[1] وحدد لكل نوع من أنواع السلع مكاناً وكان سوق التجارة قبل الهجرة في بني قينقاع، فكان هذا السوق متاحاً للجميع فحض منذ البداية على المعاملة الإنسانية، فقال(ص): «**رحم ا لله رجلاً سمحا إذا باع وإذا اشترى وإذا اقتضى**»[2] إذاً أمر الرسول (ص) بالسماحة لأنها تيسر عمل التجارة وترسي الثقة وتنشط تداول السلع التجارية، إذاً حض النبي (ص) على التجارة قال: «**تسعة أعشار الرزق للتجارة**»[3].

وحض الرسول (ص) على الأمانة والصدق في التعامل التجاري فقال (ص): «**التاجر الأمين الصدوق مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين**»[4] وكان (ص) ينهى عن الكذب وعن الحلف الكاذب يقول: «**الحلف منقصة للسلعة ممحقة للبركة**»[5] ومنذ البداية كانت التعليمات التي أصدرها للتجار أن لا يغالوا في أسعار سلعهم لأن الربح الفاحش فيه غبن إنما كان خفض الأسعار ضرورة لكي يسهل على الجميع شراؤها وفي ذلك منفعة للجميع قال الرسول (ص): «**ابشروا فإن الجالب إلى سوقنا كالمجاهد في سبيل ا لله وإن المحتكر في سوقنا كالملحد في كتاب ا لله**»[6] وقال (ص): «**غبن المسترسل الذي أمنك حرام**»[7].

وقد حض ا لله تعالى المسلمين على الأمانة من ذلك الأمانة في الكيل والميزان وأمر بالعدل في ذلك لأنه خير عام يقول تعالى: ﴿**وَأَوْفُوا الكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالقِسْطَاسِ المُسْتَقِيمِ ذلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً**﴾[8] وأمر الرسول (ص) بإظهار عيب السلعة إذا وجد فيها عيب يقول (ص): «**لا**

---

[1] عبد السميع المصري ـ التجارة في الإسلام ـ طبع مصر ١٩٨٦ ـ ص١٦.

[2] المرجع نفسه ـ ص١٧.

[3] المرجع نفسه ـ ص١٠.

[4] المرجع نفسه ـ ص١٧.

[5] المرجع نفسه ـ ص١٨.

[6] المرجع نفسه ـ ص١٨.

[7] المرجع نفسه ـ ص٢٢.

[8] القرآن الكريم ـ سورة الاسراء ـ الآية / ٣٥.

يحل لامرئ بيع سلعة يعلم أن بها داء إلا أخبر به»[1] لأن إخفاء العيب غش والغش خطير.

وأمر ا لله تعالى عباده الشهادة في العقود بقوله تعالى: ﴿**وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ**﴾[2] ونهى (ص) عن الحسد وما شابهه كالخداع والمكر والاحتيال حفاظاً على روابط الأخوة يقول (ص): «**لا تحاسدوا ولا تناجشوا ولا تباغضوا ولا تدابروا ولا يبع بعضكم على بيع بعض وكونوا عباد ا لله إخواناً»**[3]. وأوصى (ص) بالسماحة أي عند استيفاء الدين أو استيفاء الثمن فقال (ص):«**اسمح يسمح لك»**[4] وقال: «**من انظر معسراً أو ترك له حاسبه ا لله حساباً يسيراً**»، وقال: «**من أقرض ديناراً إلى أجل فله بكل يوم صدقة إلى أجله فإذا حل الأجل فأنظره بعده فله بكل يوم مثل الدين صدقة»**[5] وأوصى (ص) بالإحسان عند توفية الدين فقال: «**خيركم أحسنكم قضاءً»**[6].

من هذا يجب على التاجر أن يذكر ا لله في عمله ولا ينسى ذكر ا لله لأن ما عند ا لله هو الباقي يقول تعالى: ﴿**وَمَا عِنْدَ ا للهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى**﴾[6] وحرم الإسلام الرياء بكافة أنواعه من أول عهده والربا هو الزيادة بلا مقابل من عمل أو سلعة وهو استغلال للجهد من جهة ولعجز الناس عن سداد الدين وقت حلوله. يقول الرسول (ص): «**الذهب بالذهب والفضة بالفضة والبر بالبر، والشعير بالشعير، والتمر بالتمر، والملح بالملح، مثل بمثل، سواء بسواء، يداً بيد، فإذا اختلفت هذه الأوصاف فبيعوا كيفما شئتم إذا كان يداً بيد فمن زاد أو استزاد فقد أبى الآخذ والمعطي فيه سواء»**[7] وقال تعالى: ﴿**أَحَلَّ ا للهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا**﴾[8].

واهتم الإسلام منذ بداية عهده بتنظيم العقود، ووضع لها شروطاً تنظم المعاملات بين الناس.

---

(1) عبد السميع المصري ـ ص٢٠.

(2) القرآن الكريم ـ سورة البقرة ـ الآية /٢٨٢.

(3) عبد السميع المصري ـ ص٢٠.

(4) المرجع نفسه ـ ص٢٢.

(5) المرجع نفسه ـ ص٢٢.

(6) المرجع نفسه ـ ص٢٢.

(6) القرآن الكريم ـ سورة القصص ـ الآية /٦.

(7) عبد السميع المصري ـ التجارة في الإسلام ـ طبع مصر ١٩٨٦ ـ ص٢٨.

(8) القرآن الكريم ـ سورة البقرة ـ الآية / ٢٧٥.

روى البخاري عن ابن عمر (أنهم كانوا يشترون الطعام من الركبان في عهد النبي (ص) فبعث إليهم من يمنعهم) أي أن الرسول (ص) كان قد أوجد وظيفة مثل وظيفة المحتسب التي تطورت فيما بعد وأصبحت من أهم وظائف الدولة، قال الله تعالى: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالبَاطِلِ إلاَّ أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ﴾**[1].

وضع الله تعالى في كتابه العزيز والرسول (ص) ضوابط تحدد علاقة الناس بعضهم ببعض فوضع العقود والعهود وأمر باحترامها والتقيد بها، قال تعالى: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالعُقُودِ﴾**[2]، وقال: **﴿وَأَوْفُوا بِالعَهْدِ إِنَّ العَهْدَ كَانَ مَسْئُولاً﴾**[3] وقال الرسول (ص): **«المسلمون عند شروطهم إلا شرطاً أحل حراماً أو حرم حلالاً»**[4] وقال (ص): **«لا أمان لمن لا أمانة له ولا دين لمن لا عهد له»**[5] وحدد الله شروط العقد في الآية ٢٨٦ من سورة البقرة بما يلي:

- أن يكون العقد مكتوباً - لقوله تعالى: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدَيْنٍ إِلَى أَجَلٍ مُسَمَّىً فَاكْتُبُوهُ﴾**[6].

- أن يوثق العقد كاتب بالعدل ويحدد الأجل والدين، فيقول تعالى: **﴿وَلْيَكْتُبْ بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالعَدْلِ وَلا يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللهَ رَبَّهُ وَلاَ يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئاً﴾**[7].

- الاعتراف بالدين وشروطه من قبل المدين بقوله تعالى: **﴿فَإِنْ كَانَ الَّذي عَلَيْهِ الحَقُّ سَفِيهاً أَوْ ضَعِيفاً أَوْ لاَ يَسْتَطِيعُ أَنْ يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ﴾**[8].

- وحدد الشهود على العقود بقوله تعالى: **﴿وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ، فَإِنْ لَمْ يَكُونَا**

[1] القرآن الكريم - سورة النساء - الآية / ٢٩.
[2] القرآن الكريم - سورة المائدة - الآية / ١.
[3] القرآن الكريم - سورة الاسراء - الآية / ٣٤.
[4] عبد السميع المصري - ص٥٧.
[5] المرجع نفسه - والصفحة نفسها.
[6] القرآن الكريم - سورة البقرة - الآية / ٢٨٢.
[7] القرآن الكريم - سورة البقرة - الآية / ٢٨٢.
[8] القرآن الكريم - سورة البقرة - الآية / ٢٨٢.

رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى﴾[1]. وغير ذلك مما ذكره الله تعالى. وحرم الرسول (ص) منذ أول الإسلام بيع ما ليس عندك قال (ص): «**لا تبع ما ليس عندك**»[2] كما لا يجوز البيع قبل ظهور الزرع أو الثمر قال (ص): «**أرأيت إذا منع الله الثمرة بم يستحل أحدكم مال صاحبه**»[3].

والتجارة قد يقوم بها شخص واحد، وقد تكون قائمة بين أكثر من شخص والشراكة تكون باشتراك شخصين أو أكثر في القيام بعمل ما أو تأسيس شركة تجارية أو صناعية أو شراء عقار وغير ذلك قال الرسول (ص): «**يد الله مع الشريكين ما لم يتخاونا فإذا تخاونا رفع يده عنهما**»[4]، إذن الشركة عقد بين اثنين أو أكثر للقيام بعمل مشترك يعود عليهما بالمنفعة شرط الأمانة والثقة بينهما.

إذن عند انتشار الإسلام سادت المودة بين الجميع وعمرت الأرض وكثر أهلها وعاش الفلاح من ضمن طبقات المجتمع بنوع من الأمان والسلام وبحبوحة من العيش وبذلك تحسنت أحوال الفلاحين إلا أن ذلك لم يستمر ففي العصر الأموي زاد إرهاق الفلاح وقلت أهميته الاجتماعية نتيجة زيادة الضرائب وتوزيع الأرض غير العادل وكثرة المصادرة والهروب من الريف إلى المدينة والقسوة في المعاملة من ملاك الأراضي ففي عهد ولاية عمرو بن العاص بلغ خراج مصر ١٢ مليون دينار.

والفلاح كما هو معروف عنه كان يعيش على ما تغله أرضه فيأكل الخبز والتين والزيتون والتمر بأنواعه واللبن بأشكاله، وفي أيام الأعياد كان يأكل اللحم، ويشرب الخمر إلا أن ذلك لم يكن ميسراً لجميع الفلاحين.

بلغت بلاد الشام خلال الحكم العربي الأموي درجة رفيعة من الرقي والازدهار ففي التجارة بلغت درجة عالية وازدهرت وكان تطور التجارة نتيجة تطور كل من الزراعة والصناعة آنذاك فقد

---

(1) القرآن الكريم - سورة البقرة - الآية / ٢٨٢.

(2) عبد السميع المصري - ص٦٠.

(3) المرجع نفسه - ص٦٠.

(4) المرجع نفسه - ص١١٧.

مارس العرب تجارة الأقمشة والألبسة والمواد الغذائية والعطور والمساحيق والزيوت والرطب والتمر والحبوب والدقيق وتجارة الحيوانات.

وانتشرت التجارة الداخلية وتوسعت بين أقاليم الدولة وكثر التجار وتنقلوا بتجارتهم فبعضهم كان ينقل تجارة الزيت من الكوفة إلى حلوان والحبشة والجوز إلى الكوفة[1] وبعضهم الآخر كان ينقل تجارة الزيت من المدينة إلى الكوفة[2] وبعضهم الآخر كان يتاجر بالدقيق على السفن في البصرة أيام مصعب بن الزبير[3] وكثرت تنقلات التجار إلى كل من مصر والحجاز وبلاد الشام وغيرها[4]. ولم تقتصر التجارة على الإقليم الواحد بل تعدت ذلك إلى التجارة التي شملت الدولة العربية بكافة أمصارها فمثلاً كان تجار البصرة يتاجرون في الهند وفارس وأذربيجان وغيرها. قال الرسول (ص): **«بعثت مرغمة ومرحمة، ولم أبعث تاجراً ولا زارعاً، وإن شر هذه الأمة التجار والزراعون إلا من شح عن دينه»**[5].

وسئل النبي (ص) أي الكسب أطيب قال: **«عمل الرجل بيده وكل بيع مبرور»**[6]. وقال الخليفة عمر بن الخطاب (من تجر في شيء ثلاث مرات فلم يصب فيه فليتحول منه إلى غيره). وقال: (فرقوا بين المنايا، واجعلوا الراس راسين، ولا تلثوا بدارٍ معجزة). ومعنى هذا إذا اشتريتم الرقيق أو غيره من الحيوان فلا تغالوا في الثمن واشتروا بثمن الرأس الواحد رأسين فإن مات الواحد بقي الآخر فكأنكم فرقتم مالكم عن الميتة (ولا تلثوا بدارٍ معجزة) أي لا تقيموا بدار يعجزكم فيها طلب الرزق وتحولوا منها إلى غيرها. وقال الخليفة عمر أيضاً: (بع الحيوان أحسن ما يكون في عينيك)[7] وقيل: (الأسواق موائد الله في الأرض فمن أتاها أصاب منها).

وفي الحديث الشريف، أمر رسول الله (ص) الأغنياء باتخاذ الغنم، والفقراء باتخاذ الدجاج.

---

[1] ابن قتيبة - المعارف ص ٥٢٩ - ابن حجر - تهذيب ج٣ - ص٢٧.

[2] ابن سعد - الطبقات - ج٣ - ص١٤٧ - الذهب سبر - ج٤ - ص٦١٦-٦٢٠.

[3] الأصفهاني - الأغاني ج٢٢ - ص٣٤٢.

[4] ابن سعد - طبقات ج٥ - ص٢٢٢ - الأغاني - ج٤ - ص٤٠٠ - القسوى ج٢ - ص٤١٧ وما بعدها.

[5] ابن قتيبة - عيون الأخبار -ج١ - ص٢٤٩.

[6] المرجع نفسه - ص٢٥٠.

[7] المرجع نفسه - ج١ - ص٢٤٩.

وفي الحديث مر رسول الله (ص) برجل يبيع شيئاً فقال: «**عليك بالسوم أول السوق فإن الرباح مع السماح**»[1] وقيل: «**اسمح يسمح لك**»[2]، وسئل الزبير بن العوام ما بلغت من اليسار قال: (لم أرد ربحاً ولم استر عيباً) وقيل دخل ناس على معاوية بن أبي سفيان فسألهم عن صنائعهم فقالوا: بيع الرقيق. قال: (بئس التجارة ضمان نفس ومونة ضرس).

ورئي عبد الله بن جعفر يماكس في درهم فقيل: (أتماكس في درهم وأنت تجود من المال ما تجود به؟ قال: ذلك مالي جدت به، وهذا عقلي بخلته). وقيل ابتاع ابن عمر شيئاً فحثا له البائع على المكيال فقال له ابن عمر أرسل يدك ولا تمسك على رأس فإنما لي ما يحمله المكيال.

وقيل إن ابن عمر كان لا يجد بالمكايسة والمماكسة في الشراء والبيع بأساً وقيل: (أتى عمر غلاماً له يبيع الحلل، فقال له: إذا كان الثوب عاجزاً فانشره وأنت جالس، وإذا كان واسعاً فانشره وأنت قائم فقلت فقلت له: الله الله يا عمر قال: إنما هي السوق) وفي الحديث «**من غشنا فليس منا**»[3].

ذكر الأصفهاني أن إسماعيل بن يسار النسائي كان منقطع آل عروة بن الزبير ويسمى باسمه المذكور، لأن أباه كان يصنع طعام العرس ويبيعه، فيشتريه منه من أراد التعريس من المتجملين وممن لم تبلغ حالة اصطناع ذلك. وقيل سمي باسمه (لأنه كان يبيع النجد والفرش التي تتخذ للعرائس) وقيل لقب بذلك، لأن أباه كان يكون عنده طعام العرسان مصلحاً أبداً فمن طرقه وجده عنده معداً[4].

ومن النصوص العائدة للعصر الأموي والتي تؤكد القيام بأعمال تجارية شملت معالم الحياة من ذلك ما ذكره من أن رجلاً قال لبشار بن برد وقد سأله فأجابه: (أنا رجل من عكل، وخالي يبيع الفحم)[5] أي أن الفحم وصناعته والاتجار به كان رائجاً عند العرب وذكر أن غلام بشار بن برد رفع إليه في حساب نفقته جلاء مرآة[6]، بقيمة عشرة دراهم وذكر أن بشار بن برد كان طياناً

---

(1) ابن قتيبة - عيون الأخبار - ج١ - ص٢٥٠.

(2) المرجع نفسه - ص٢٥٠.

(3) عبد السميع المصري - ص٢٧.

(4) الأصفهاني - الأغاني - ج٤ - ص٤٠٠.

(5) المرجع نفسه - أخبار بشار بن برد - ج٣ - ص١٦٦.

(6) المرجع نفسه - ج٣ - ص١٥٥.

يضرب اللبن[1] كما ذكر أن أم بشار بن برد كـانت قـد بـاعت ابنهـا بشـار كرقيـق[2] إلى أم الظبـاء السدوسية بدينارين فاعتقته الأخيرة.

وكان العرب ينتقلون بتجارتهم من مكان إلى آخر من ذلك ما ذكر من أن ابن هباز القرشـي كان يذهب إلى الشام في تجارة[3] له أو إلى بعض بني أمية وفي إحـدى رحلاتـه هـذه اعترضـه جماعـة فيهم القتال الكلابي وغيره فقتلوه وأخذوا ماله.

أي أن التجارة وطرقها لم تكن في كل الأوقـات في أمـان مـن لصـوص الطـرق. وعملـوا في مهنة الحلاقة حيث يذكر أن الحكم بن ميمون كان مولى للوليد بن عبد الملك وأن أباه كان حلاقاً[4] يحلق رأس الوليد، فاشتراه فاعتقه، وكان حكم هذا يكري الجمال وينقل عليها الزيـت[5] مـن الشـام إلى المدينة، ومن أدنى الفرس إلى المدينة، ومن جده إلى المدينة.

وذكر أن سائب خاثر كان تاجراً مؤسراً يبيع الطعام[6] بالمدينة وذكر أن عبد العزيز ابن يســار مولى بجير كان يتاجر بالدقيق على حمولة السفن في البصـرة علـى أيـام مصعـب بـن الزبـير فقـال لـه عكرمة بن ربعي البكري (يعني هذا الدقيق بتأخير، ولك فيه مثل ثمنه ربحـاً)[7] وعـن تجـارة الأسـلحة وصنعها قال عبد الله بن ياسين: (رأيتُ جدّ حمّاد عجرد.. وكانت صناعَتـُهُ صناعـة لا يكـون فيهـا نَبَطِي كان يبري النبال ويُرَيِّشها)[8].

وعن مهمة الخياطة والعمل فيها يذكر أن ميمـون بـن مهـران كـان بـزازاً[9] وكـان يجلـس في حانوته وهو يتولى الخراج، وقال ابن قتيبة عن عيسى بن أبي عيسى بأنه كان يقول أنا خياط وحناط

---

(1) الأصفهاني - الأغاني - ج٣ - ص١٢٩.
(2) المرجع نفسه - ج٣ - ص١٢٩.
(3) المرجع نفسه - أخبار القتال - ج٢٤ - ص١٤٦.
(4) المرجع نفسه - أخبار حكم الواوي - ج٦ - ص٢٩٤.
(5) المرجع نفسه - أخبار حكم الواوي - ج٦ - ص٢٩٤.
(6) المرجع نفسه - أخبار سائب خاثر -ج٨ ص٣٣٤ .
(7) المرجع نفسه - أخبار العديل - ج٢٢ - ص٣٤٤.
(8) المرجع نفسه - أخبار حماد عجرد - ج١٤ - ص٣١٨.
(9) ابن قتيبة - المعارف - ص٤٤٩.

وخباط كلاً قد عالجت[1] وذكر أن أشعث بن سوار مولى ثقيف كان يعالج الخشب[2] وقيل إن حمزة الزيات مولى آل عكرمة كان يجلب الزيت من الكوفة إلى حلوان ويجلب من حلوان الجبن والجوز إلى الكوفة[3] وبعضهم كان يبيع ويتاجر بالخمر[4] وقال ابن سعد أن معن بن عيسى كان يعالج القز[5] بالمدينة ويشتريه وكان له غلمان حاكة وكان يشتري ويلقي إليهم. وذكر ابن سعد أيضاً أن إبراهيم ابن مقسم كان يتاجر ما بين الكوفة والبصرة[6].

أما التجارة الخارجية فقد اعتمدت البحار والأنهار وأكد الله تعالى مثل هذه التجارة وحللها بقوله تعالى: **﴿وَتَرىَ الفُلْكَ مَوَاخِرَ فيهِ ولِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾**[7]. وقال تعالى: **﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الأَنْعامِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأكُلُونَ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الفُلْكِ تُحْمَلُونَ﴾**[8].

وقال: **﴿رَبُّكُمُ الَّذِي يُزْجِي لَكُمُ الفُلْكَ فِي البَحْرِ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ﴾**[9] وقال تعالى: **﴿وَمِنْ آياتِهِ الجَوَارِ فِي البَحْرِ كالأَعْلَامِ﴾**[10] وقال تعالى: **﴿ا للهُ الَّذِي خَلَقَ السَّماوَاتِ وَالأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقاً لَّكُم، وَسَخَّرَ لَكُمُ الفُلْكَ لِتَجرِيَ فِي البَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الأَنْهارَ﴾**[11].

ما ورد إشارة واضحة في القرآن الكريم إلى أهمية التجارة الخارجية وخاصة في البحار والأنهار كوسيلة من وسائل الكسب واهتم الإسلام بتنظيم العلاقات التجارية مع الدول المجاورة من

---

(1) ابن قتيبة ـ المعارف ـ ص٤٨٥.

(2) المرجع نفسه ـ المعارف ـ ص٤٨٦.

(3) المرجع نفسه ـ المعارف ـ ص٥٢٩ ـ ابن النديم ـ الفهرست ـ طبع بيروت ١٩٧٨ ـ ص٤٤.

(4) ابن سعد ـ الطبقات الكبرى ـ ج٥ ـ ص٥٩٦.

(5) المرجع نفسه ـ ج٥ ـ ص٤٣٧.

(6) المرجع نفسه ـ ج٧ ـ ص٣٢٥.

(7) سورة النحل ـ الآية / ١٤.

(8) سورة المؤمنون ـ الآية / ٢١.

(9) الإسراء ـ الآية / ٦٦.

(10) الشورى ـ الآية / ٣٢.

(11) سورة إبراهيم ـ الآية / ٣٢.

الناحية الجمركية في صدر الإسلام يؤكد ذلك ما فعله الخليفة عمر بن الخطاب عند وضع ضريبة عشور التجارة وهي كالضريبة الجمركية المعروفة اليوم (وكانت تحصل على ما يدخل البلاد من عروض التجارة بحد أدنى للبضائع مائتي درهم أو عشرين مثقالاً من ذهب يعفى ما دونها من الضريبة)[1]. وذكر أن زياد بن جدير كان قد كتب إلى الخليفة عمر في أناس من أهل الحرب يدخلون أرض الإسلام فيقيمون، فرد عليه بقوله (إن أقاموا ستة أشهر فخدمتهم العشر وإن أقاموا سنة فخدمتهم نصف العشر)[2].

وأجاز الإسلام الاتجار مع الدول المجاورة حتى في حالة الحرب إلا تجارة السلاح كما حرم الإسلام الاحتكار في التجارة الدولية يقول الرسول (ص): «**من احتكر طعاماً أربعين يوماً فقد برئ من الله وبرئ الله منه**»[3] وبذلك زرع الإسلام التواصل بين الشعوب والمودة وفتح باب السلام لأن الحرب تكون بين المقاتلين من كلا الطرفين بينما الشعوب تستمر علاقاتها التجارية وتستمر المودة بين الشعوب وكان شعار المسلمين منذ البداية ينهى عن القتل بالعطش أو الجوع[4] لأن دين الإسلام كان دين رحمة.

ومن المعروف أن العصر الأموي سادته حروب داخلية وخارجية كانت قد أثرت على التجارة بطرفيها الداخلية والخارجية وأضعفتها إلا أن التجار تابعوا نشاطهم التجاري حسب ظروفهم وبما يتناسب مع الموقف المتشكل واستمرت عمليات استيراد السلع غير الموجودة من الخارج كالعاج والذهب والقصدير ومواد أخرى. ومن الأمثلة عن التجارة الخارجية أن عيسى بن أبي موسى وهو من الكوفة (هو الذي كان يعمل عنده أبو مسلم الخراساني) كان رجلاً تاجراً مؤسراً يعاني بالسروج إلى أصفهان والجبال والرقة ونصيبين وأمد ونواحي البلاد فيبيعها.

---

[1] عبد السميع البصري ـ التجارة في الإسلام ـ طبع مصر ١٩٨٦ ـ ص١٣٠.

[2] أحمد الشرباصي ـ الإسلام والاقتصاد ـ ص٥٥.

[3] عبد السميع المصري ـ ص٤٦.

[4] محمد أبو زهرة ـ العلاقات الدولية في الإسلام طبع مصر ١٩٦٤ ـ ص٤٢.

الفصل الرابع

الصناعة

- الصناعات المختلفة.
- النقود.



الفصل الرابع

الصناعة

بعد التحرير الإسلامي ظل الصناع والفنانون يزاولون مهمتهم دون تدخل من السلطة لذلك ظل الأسلوب الذي كان سائداً قبل الإسلام متبعاً وخاصة في المجالات الاقتصادية. إلا أن الطابع الإسلامي اتضح في الاقتصاد بشكل عام اعتباراً من العصر الأموي وخاصة من عهد عبد الملك بن مروان.

ومن الحرف اليدوية التي ساد انتشارها عند العرب في صدر الإسلام الحدادة والنجارة وعمل الطوب، والحلاقة، والعرافة والطبابة والقصابة وحذي الحيوانات وغير ذلك، وأكثر هذه الأعمال إذا لم تكن كلها من أعمال الموالي[1] من صدر الإسلام إلى نهاية العصر الأموي.

ومن الحرف الأخرى صناعات الزينة والحلي، وآلات الحرب وأدواتها، وآلات الصيد سواء صيد[2] الطير أو صيد السمك وكل ما يحتاجه تنظيف الألبسة وما شابه ذلك[3] والأواني الفخارية،

---

(1) جمال جودة: الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية للموالي في صدر الإسلام طبع الأردن ١٩٨٩ - ص١٠٧.

(2) الأصفهاني - الأغاني - ج٢ - ص٥٢.

(3) المرجع نفسه - ج٢ - ص٥٢.

والزجاجية والصولجانات[1] والحبر وأدواتها[2] والفحم[3] (أخبار بشار بن برد) وصناعة البناء بأشكاله وأنواعه، والطرق وآلات رصفها وتذليلها[4] وصنع أدوات نقل وحفظ المياه[5] وما شابهها وصناعة القطران[6] وأدوات تنظيف الأسنان وصناعة الدباغة، واستعمال الجلود في صناعة النعال والجعب وقرب الماء والسروج والرق للكتابة وغير ذلك.

ومن الصناعات الأخرى - **المساحي**: وهو المجرفة من الحديد يجرف بها الطين حتى وجه الأرض. **المهراس**: وهو الهاون ونحوه من آلات الهرس - صناعة الغربال وصناعة البسط وصناعة الخيش[7] وهي مراوح تصنع من نسيج غليظ من الكتان كشراع السفينة وتعلق في سقف البيت ويعمل لها حبل تجر به وهي مبلولة، فيهب منها نسيم بارد يبعد أذى الحر.

ومن الصناعات الزراعية العربية التي استقلت بها خامات البيئة الطبيعية. واهتم بها العرب كان صناعة الحصر والسلال والفخار والنسيج والورق والخشب والزيوت والعطور والدباغة، والصناعات الغذائية وغيرها.

صناعة الحصر:

انتشرت هذه الصناعة عند العرب قبل الإسلام فمثلاً انتشرت في مصر الفرعونية كما انتشرت في سورية وفي بلاد الرافدين وفي الجزيرة العربية وبعد الإسلام استمرت هذه الصناعة وتطورت. ففي مصر استعمل في صناعة الحصر الاسل بالإضافة إلى قش النباتات فكانت السداة وهي الخيوط الطولية من الكتان بينما اللحمة وهي الحشو العرضي من الاسل وهذه الصناعة كانت متطورة ومزدهرة خلال العصر الأموي للاستعمالات المنزلية من جهة ولتغطية أرض المساجد من جهة أخرى يؤكد ذلك معاوية بن أبي سفيان عندما أمر واليه على مصر عام (٥٣هـ) عمرو بن

---

[1] الأصفهاني - الأغاني - ج٢ - ص٩٣.

[2] المرجع نفسه - ج٢ - ص٢٢١.

[3] المرجع نفسه - ج٣ - ص١٦٦.

[4] المرجع نفسه - ج١ - ص١٩.

[5] المرجع نفسه - ج١ - ص١٩.

[6] المرجع نفسه - ج١ - ص٢٢٩.

[7] الأصفهاني - الأغاني - ج٣ - ص٢١٤.

العاص بأن يوسع جامع عمرو بن العاص بمدينة الفسطاط وفرشه بالحصر. وذكرها الأصفهاني[1] في أخبار الحكم بن عبدل:

وبُوريٌّ وأربعةُ زُيُوتٌ ... وثَوْبا مُفْلِسٍ مُتَخَرِّقانِ

البورى هنا هي الحصير المنسوج من القصب.

صناعة السلال:

وجدت صناعة السلال عند العرب قبل الإسلام واستمرت هذه الصناعة وتطورت. وتعتبر السلال من الصناعات الريفية الرائجة، واستخدم في صناعتها النخل أو قش المحاصيل الزراعية بالإضافة للسلال صنعت القفف لاستخدامها في حفظ الطعام ونقل المواد الغذائية ونقل الأتربة وغير ذلك.

صناعة الأواني الفخارية:

وجدت هذه الصناعة عند العرب قبل الإسلام واستمرت بعده لكن الفخار كان بدون ألوان من ذلك الأطباق والقدور، وجرار الماء، والأكواب، والقلل، والمسارج، وقوراير الزيت وما شابه ذلك وقدور الكثير منها في فصل الأطعمة وخاصة الأواني من هذا الكتاب.

صناعة النسيج:

كانت صناعة النسيج منتشرة عند العرب قبل الإسلام وبعده فمثلاً كانت مصر موطناً لصناعة نسيج الكتان وكانت منتجات هذه الصناعة أهم صادراتها إلى الخارج وصناعة النسيج تعتبر صناعة منزلية وكانت تناط بالنساء لكن إلى جانب هذه الصناعة المنزلية وجدت مصانع تخصصت في صناعة أنواع راقية من المسنوجات الكتانية وكانت للدولة مصانع خاصة بها وكان المشتغلون بهذه الصناعة تحت إشراف الدولة ونظراً لشهرة المنسوجات المصرية فمن المعلوم أن المقوقس كان قد أهدى الرسول (ص) قباء وعشرين ثوباً من قباطي مصر.

وكان الرسول (ص) قد أمر أن يكفن في ثياب من منسوجات مصر كما كانت كسوة

---

[1] الأصفهاني ـ الأغاني ج٢ ـ ص٤١٠.

الكعبة من المنسوجات المصرية في أكثر الأوقات فمثلاً كتب الخليفة عمر بن الخطاب ومن بعده الخليفة عثمان بن عفان إلى ولاة مصر لتحاك فيها كسوة الكعبة فكسيت من القباطي كما فعل معاوية بعد استلامه السلطة. والنسيج كان يتم على الأنوال اليدوية وكانت النساء تقوم بغزل الكتان والقطن والحرير أو الصوف أما الرجال فكانوا يقومون بمساعدة النساء بهذه الأعمال.

صناعة الحبال:

كانت هذه الصناعة موجودة قبل الإسلام واستمرت أيضاً وكان يستخدم فيها الألياف الزراعية مثل ليف النخيل وألياف الكتان وفي مصر كانت تنبت نوعاً من النيل يصلح لصناعة حبال وأدوات السفن.

الصناعات الخشبية:

استخدم العرب الأخشاب المحلية والمستوردة مثل الجميز والسنط والسرو والاتل والبلوط والأرز وخشب الشاك والساج والأبنوس وغيرها في صناعة الآلات والأدوات الزراعية المختلفة كالفأس والمحراث والدرج والطواحين والمعاصر والساقية والطنبور والأنوال والمغازل بالإضافة إلى بعض الأدوات المنزلية كما واستخدم الخشب في صناعة السفن.

صناعة الورق:

اشتهرت صناعة الورق في مصر من نبات البردي واحتكرت هذه الصناعة وكثر الوراقون في أسواق المدن العربية وانتشرت القراطيس انتشاراً واسعاً.

صناعة الزيوت:

اهتم العرب من قبل الإسلام باستخراج الزيت فكان يصنع من شجرة الزيتون وكثر انتشار زراعة الزيتون كما هو معروف في بلاد الشام كما استخرج العرب الزيت من البذور الزيتية كالكتان والخروع والسمسم وغير ذلك وكانت الزيوت تستخدم في الإضاءة وفي صناعة الصابون وفي الطعام وفي الأدهنة.

صناعات غذائية:

اعتمد العرب صناعات غذائية كثيرة منها صناعة الطحن والخبز وعرفوا صناعة الحلويات كما ورد والفطائر (القطايف) وغير ذلك.

صناعة الخمور:

اشتهر العرب بهذه الصناعة قبل الإسلام إلا أن صناعته تدهورت في صدر الإسلام كونه محرما إلا أن صناعته لم تنقطع واستمر إلا أنه كان بشكل أقل مما كان حتى كان العصر الأموي حيث شاع وانتشر وكثرت معاصره وكان يصنع من العنب النبيذ والخمر والزبيب وصنع من الشعير والقمح والبلح أشربة كانت تسكر شاربيها.

صناعة الجلود:

صنع العرب الجلود قبل الإسلام واستعملوه في استخدامات عدة واستمر استعمالها بعد الإسلام وازدهرت في العصر الأموي فمنها كانت تصنع أغلفة الكتب والسبور والسروج والأحذية والصنادل وغير ذلك كما ترى.

صناعة الأحذية:

ذكر الأصفهاني أن عبد الله بن فضالة قدم على عبد الله بن الزبير فقال له: (نفدت نفقتي ونقيت راحلتي، قال: أحضرهما فاحضرهما فقال: اقبل بها، أو بربها ففعل، فقال أرقعها بسبت واخصفها بهلب وانجد بها ببرد خفها وسر البردين تصح)[1]. ومعنى أرقعها بسبت، فالسبت كل جلد مدبوغ أو هو المدبوغ بقرظ خاصة، تحذى منه النعال السبتية، والخصف: أن يظاهر الجلدين بعضهما إلى بعض ويخرزها بالمخصف والهلب: هو شعر الخنزير الذي يخرز به.

صناعة السروج:

راجت هذه الصناعة وتطورت نظراً لاستخدام العرب الحيوانات كالحمير والبغال والخيل والجمال في النقل والحرب وغير ذلك لذلك راجت صناعة السروج. من ذلك الرّحل[2]: مركب

[1] الأصفهاني ـ الأغاني ـ ج١ ـ ص١٨ـ ١٩.

[2] المرجع نفسه ـ أخبار معبد ـ ص٤٨.

للبعير والناقة وهو أكبر من السرج وتتغشى بالجلود وتكون للخيل والنجائب من الإبل قال الطرماح: فتروا النجائب عند ذلك بالرّحال[1] وبالرحائل.

الصباغة:

عرف العرب الصباغة قبل الإسلام وعرفوا النباتات الملونة وحسنوا زراعتها من ذلك زراعة النيلة للتلوين باللون الأزرق، والقرطم الذي استخدمت أزهاره (العصفر) في التلوين (الأصفر والأحمر).

صناعة الزجاج:

كانت هذه الصناعة متطورة عند العرب قبل الإسلام وكان لها شأن كبير وكان الفينيقيون والمصريون سادتها في العالم قبل الإسلام.

النقود العربية:

تعتبر النقود من أقدم الأسس التي تسير الحالة الاقتصادية في تاريخ الحضارة العربية ويطلق لفظ السكة، على جميع النقود التي تعاملت بها الشعوب من دنانير ذهبية، ودراهم فضية، وفلوس وغيرها. وتلك أصبحت وسيلة التعامل الرئيسية في العصور الوسطى، والعملة الإسلامية تعد من المصادر الأثرية لدراسة التاريخ. والعملة والعملات التي تناولها العرب في عصري الجاهلية والإسلام[2].

هي: - **الدينار:** هو اسم وحدة من وحدات السكة الذهبية عند العرب، وهي عملة رومانية تعامل بها العرب قبل الإسلام وبعده، وهنالك أجزاء للدينار: نصف دينار - ثلث دينار - ربع دينار.

- **الدراهم:** عملة فضية، استخدمها العرب في معاملاتهم نقلاً عن الفرس، لأن الفضة كانت النقد الرئيسي لهم - وللدراهم أجزاء: - نصف درهم - الفلس. كانت قيمة الفلوس وأوزانها تختلف باختلاف الأقاليم التي ضربت فيها، لذا كان لها قوة شرائية متباينة.

---

[1] الأصفهاني - الأغاني - أخبار عمر بن أبي ربيعة - ج١ - ص١٦٩ - ص١٠٨ - ص١٠٢.

[2] سمير شما - النقود الإسلامية التي ضربت بفلسطين - مطبعة الجمهورية ١٩٨٠ - ص٢٥.

لقد احتفظ العرب بعد تحرير بلاد الشام بالعملات، والنقد الموجود لديهم لاستخدامها في عملياتهم التجارية من جهة، والوفاء بالتزامهم من جهة أخرى. ولم يفكر العرب في تبديل النقود التي تعاملو بها، رغم اتساع سيطرتهم بشكل جذري. لأنهم رأوا أن الإبقاء عليها يساعد على استقرار البناء الاقتصادي للدولة... لكن هذا لا يعني أنهم لم يحاولوا ضرب النقود الخاصة بهم، بل على العكس، فقد جرت عدة محاولات منذ فجر الإسلام لتلك الغاية.

ففي عهد الرسول، أبقي على العملة المتواجدة[1]، ولم يحاول إلغاءها. كذلك استمرت في عهد أبي بكر، أما عمر بن الخطاب، فقد ضرب الفلوس على طراز عملة كسرى[2].

وظهر هذا النقد في قنسرين[3]، كما ضرب دراهم، أي أن عمر بن الخطاب[4] ضرب هذه العملات ولها الطابع البيزنطي أو الفارسي أو الحميري. لهذا يعتبر عمر بن الخطاب أول من ضرب النقود في الإسلام، إلا أن المؤرخين يذكرون أن خالد بن الوليد سبق عمر بن الخطاب، بضرب النقود في طبرية[5] سنة ١٥ هـ.

ثم إن عثمان بن عفان ضرب أيضاً نقوداً، ونقش عليها عبارة (الله أكبر) خلافاً لذلك، ويذكر أن علياً بن أبي طالب هو أول من ضرب النقود بنقوش عربية في البصرة سنة ٤٠ هـ.

وضرب العملة أيضاً بعض الثوار والمطالبين بالخلافة، حيث ضربوا بأسمائهم عملاتٍ تعبيراً عن استقلالهم، منهم: قطري بن الفجاءة الخارجي، وعبد الله بن الزبير.

ويقال في هذا المجال إنّ أول من ضرب الدراهم المستديرة[6] مصعب بن الزبير. لقد كان ما ورد محاولات أولية لم تستكمل عناصرها من حيث تعريبها، وإصلاحها إلا في عهد عبد الملك بن

---

[1] حسن محمود الشافعي ـ العملة وتاريخها ـ طبعة مصر ـ ١٩٨٠ ـ ٨٥.

[2] محمد باقر الحسيني ـ تطور النقود العربية ـ ص٤١.

[3] عبد الرحمن فهمي ـ صنع السكة في فجر الإسلام ـ ص٣٧ ـ ياقوت الحموي ـ معجم البلدان ـ ج٤ ـ ص٤٠٣.

[4] حسن محمود الشافعي ـ العملة وتاريخها ـ ص٤٥. انستاس متري الكرملي ـ النقود العربية وعلم المنميات طبعة بيروت ١٩٣٩ ـ ص٩٢.

[5] طبرية ـ مطلة على البحيرة المعروفة ببحيرة طبرية وجبل الطور مطل عليها وهي من أعمال الأردن ـ ياقوت الحموي ـ معجم البلدان ـ ج٤ ـ ص٧.

[6] حسان علي الحلاق ـ تطور النقود في العصر الأموي ـ بيروت والقاهرة ١٩٧٨ ـ ص٢٥.

مروان. وبعد استقرار السلطة لعبد الملك بن مروان في جميع أطرافها أدرك الحاجة لوضع نظام إداري واقتصادي موحد للدولة، فبدأ بحركة تعريب السكة وتوحيدها. ففي سنة ٧٧ هـ ضرب الدراهم على طراز إسلامي خاص يحمل نصوصاً إسلامية نقشت عليها بالخط الكوفي، ويعتبر عبد الملك بن مروان أول من ضرب النقود من الذهب[١] .

ووجود نقود تخالف في نقوشها النقود المركزية، كنقود الحجاج وهذا لايعني استقلال الحجاج، وهناك ولاة أيضاً ضربوا السكة على غرار السكة المركزية: عمر بن هبيرة[٢] والي العراق ليزيد بن عبد الملك، وخالد بن عبد الله[٣] والي العراق لهشام بن عبد الملك، ويوسف بن عمر[٤] والي العراق للوليد بن يزيد، حيث عرفت النقود التي ضربوها بأسمائهم.

لقد دفعت حركة التعريب الدولة العربية خطى واسعة إلى الأمام، وساعدتها الظروف السياسية المواتية على تحقيق هذا الغرض. لأن عبد الملك بن مروان كان يرى أن ضرب العملات ضرورة لازمة اقتضتها الظروف، لتدعيم البناء الاقتصادي والسياسي والقومي للدولة، ولتحقيق الاستقلال الاقتصادي للدولة.

أنشأ عبد الملك بن مروان داراً للضرب[٥]، وهكذا استطاع أن يطبق حقاً من حقوق الدولة العربية تظهر فيه شخصيتها المستقلة، وكانت رغبته في تعريب الإدارة والدواوين يرتبط بتعريب النقود لإرساء قواعد الدولة على أسس متينة.

وعمل أخيراً عبد الملك بن مروان على تقوية الحكم العربي، عندما عمل على تحويل كل شيء في جهاز الدولة إلى العربية[٦]، فعمل على أن تكون اللغة العربية وحدها هي لغة الدواوين جميعها[٧]، ففي عهده نقل ديوان الشام من اليونانية إلى العربية[٨]، وحولها عن الرومية سليمان بن

---

[١] انستاس ماري الكرملي ـ النقود العربية وعلم النميات ـ طبعة بيروت ١٩٣٩ ـ ص٩٢.

[٢] المرجع نفسه ـ ص٩٣.

[٣] المرجع نفسه ـ ص٩٢.

[٤] المرجع نفسه ـ ص٩٣.

[٥] حسن محمود الشافعي ـ العملة وتاريخها ـ ١٩٨٠ ـ ٣١.

[٦] عبد المنعم ماجد ـ التاريخ السياسي للدولة العربية ـ عصر الخلفاء الأمويين ـ طبع مصر ١٩٨٢ ـ ج٢ ـ ص١٦٢.

[٧] ابن خلدون ـ المقدمة ـ ص١٩٢.

[٨] المقريزي ـ الخطط والاثار ـ طبع بالاوفست ـ بدون تاريخ ـ ج١ ـ ص١٣٩ ـ البلاذري ـ فتوح البلدان ـ ص١٩٣ ـ الدنيوري ـ ص٣٩٩.

سعد، كما نقل الحجاج ديوان العراق عن الفارسية إلى العربية، وحولها عن الفارسية صالح بن عبد الرحمن.

لم يقف الحجاج في عهد عبد الملك بن مروان على حفظ البلاد ضد الفتن، بل عمل على إصلاحها، حيث كانت قد أهملت منذ آخر عهد عثمان، بسبب الفتن المتتالية. إلا أن زياد بن أبيه أصلح في عهد معاوية، فعمل على حفر الأنهار[1]، إلا أنه دون الحجاج في ذلك، فالحجاج كان يستخدم الفلاحين غير العرب في إصلاح الأراضي[2]، كما عمل على إعادة توزيع أغلب أرض السواد، بسبب حرق الناس للديوان في الكوفة[3]، فهو الذي ثبت سلطة الفرع المرواني[4].

أما ديوان مصر، فتأخر نقله إلى أواخر عهد الوليد[*]، كان من نتائج ذلك في مجال الإدارة أن أقبل الكتاب من غير العرب على تعلم العربية، لكي يستمروا في عملهم في الدووايين. وفي ذلك الوقت، كانت اللغة العربية هي اللغة الرسمية في جميع أقاليم الدولة، كما أصبحت اللغة العربية لغة الدين.

إلا أن تعريب الدولة كان ينقصه المنهجية في جميع الأقاليم، ثم توجيهه توجيهاً سليماً لأن عملية التعريب، كانت منذ بداية الدولة، وحتى نهايتها هي التي أحدثت هذا الانقلاب الثوري في مختلف المجالات، و لم يأخذ أبعاده الوطنية والقومية كما يجب، ولو حدث مثل ذلك، لكان في ذلك وجه جديد، ومشرق للدولة العربية، ويبدو في هذا المجال أن ما عانته الدولة في سياستها الداخلية والخارجية كان من عوامل عدم الاهتمام بمثل ذلك. والمطلع على هذا الحدث يلاحظ أيضاً أن اتخاذ قرار التعريب سياسياً واقتصادياً كان موقفاً ارتجالياً، إلا أنه كان ينقصه بعد النظر في نتائجه الاجتماعية والفكرية وأبعادهما.

---

[1] فتوح البلدان - ص٣٥٨.

[2] عبد المنعم ماجد - ج٢ - ص١٦٢.

[3] المرجع نفسه - ص٢٧٣.

[4] عبد المنعم ماجد - ج٢ - ص١٦٢.

[*] المقريزي - الخطط - ج١ - ص١٥٨.

من جانب آخر عمل عبد الملك بن مروان على ضبط ميزانية الدولة من الناحية الاقتصادية[1]، حيث يعتبر أول من جعل دولته تشرف على ضرب العملة[2]، ونقشها سنة ٧٥ هـ، وضربها الحجاج بالعراق[3] سنة ٧٦ هـ، ثم ضرب بقية الولاة على الأقاليم بتفويض[4] من الخلفية، وعرفت هذه العملة بالعملة الإسلامية[5]، وعرفت العملة الأموية بالدنانير الدمشقية، وسكها عبد الملك بن مروان[6]، والدينار الأبيض، وأجودها ما كان في العراق، حيث عرفت بأسمائهم[7]، مثل الهبيرية والخالدية واليوسفية.

أنواع النقود:

- **الوافية**: الدرهم الوافي، وهو درهم وأربعة دوانق. والدانق: سدس الدرهم.

- قال ابن سعيد بن العاص بعد وفاة أبيه لمعاوية بن أبي سفيان، وقد أخذ الأخير قصر العرصة (لسعيد بن العاص) مقابل وفاء دين (هو لك على أن تحملها إلى المدينةوتحملها بالوافية)[8].

- **البدرة**[9]:عشرة آلاف درهم. والبدرة من المال كمية عظيمة منه، والبدرة أيضاً الكيس الموضعة فيه، وقيل هو كيس فيه مقدار من المال يتعامل به، ويقدم في العطايا، ويختلف باختلاف العهود.

---

[1] يذكر أن سبب اتخاذ عبد الملك بن مروان مثل هذا الإجراء يعود لتهديد ملك الروم له. (الكامل في التاريخ ـ ابن الأثير ـ ج٤ ـ ص٥٣). يمكن أن يكون عائداً لمصالح اقتصادية وسياسية، حيث أصبحت من لوزام السيادة العربية (النقود الإسلامية ـ ص٩).

[2] ابن سعد ـ الطبقات ـ ج٥ ـ ص١٧٠ ـ مقدمة ابن خلدون ـ ص٢٠٦ ـ ابن كثير ـ البداية والنهاية ـ ج٩ ـ ص١٥ ـ فتوح البدان ص٤٦٨.

[3] البلاذري ـ فتوح البلدان ـ ص٤٦٨ ـ المعارف ـ ص١٨١.

[4] المرجع نفسه ـ ص٤٦٨.

[5] تعيين خاتم الحديد ـ الذي تطبع عليه العملة أو تضرب عليه بالمطرقة ـ ابن خلدون ـ المقدمة ـ ص٢٠٦ ـ ابن سعد ـ الطبقات ـ ص٢٧٦ ـ ابن الأثير ـ الكامل في التاريخ ـ ج٢ ـ ص٥٤.

[6] فتوح البدان ـ ص٤٦٦.

[7] ابن الأثير ـ الكامل في التاريخ ـ ج٤ ـ ص٥٤ ـ الهبيرية: نسبة إلى عمر بن هبيرة أيام يزيد بن عبد الملك ـ الخالدية: نسبة إلى خالد بن عبد الله القسري ـ اليوسفية: نسبة إلى يوسف بن عمر أيام هشام بن عبد الملك.

[8] الأصفهاني ـ الأغاني ـ أخبار ج١ ـ ص٣٩.

[9] المرجع نفسه ـ أخبار ج٥ ـ ص٧٨ ـ ١٩٥ ـ ج٨ ـ ص ٣٨٥.

- **الأوراق**[1]: الدراهم المضروبة، وقيل الفضة مضروبة كانت أم غير مضروبة.
- **الوذيلة**[2]: السبيكة من الفضة أو الذهب.
- **الفلس.**
- **العشير**[3]:جزء من عشرة أجزاء كالعشر.
- **الدنانير الهرقلية:** نسبة إلى هرقل ملك الروم قبل تعريب النقود.
- **الدنانير الإسلامية:** التي ضربها عبد الملك بن مروان.
- **الدرهم.**

المقاييس:

- **الفرسخ**[4]: مقياس من مقاييس الطول بقدر ثلاثة أميال.
- **الجريب**[5]: الجريب من الأرض ثلاث آلاف وستمائة ذراع، وقيل عشرة آلاف ذراع، وقيل مكيال قدر أربعة أقفزه.
- **الفرق**[6]: مكيال لأهل المدينة يسع ثلاثة أصواع.
- **القنقل**[7]: المكيال الضخم.
- **الكر:** ضرب من المكاييل.

الأوزان:

- **الرطل**[8]: كان قديماً يقرب من الأوقيتين.

---

(1) الأصفهاني - الأغاني - أخبار ج٥ - ص٤١٦.
(2) المرجع نفسه - أخبار ج٦ - ص١٤٧.
(3) المرجع نفسه - أخبار ج٩ - ص١٣٨.
(4) المرجع نفسه - أخبار بشار بن برد - ج٣ - ص١٥٣.
(5) المرجع نفسه - ج١٠ - ص٢١٧ - ٢٨٣.
(6) المرجع نفسه - ج١٥ - ص١٩٠.
(7) المرجع نفسه - ج٢٠ - ص٥٢.
(8) المرجع نفسه - أخبار ج٥ - ص١٧٥.

- **الوسق**[1]: ثلاثمائة وعشرون رطلاً عند أهل الحجاز، وأربعمائة وثمانون رطلاً عند أهل العراق في مقدار الصاع والمد. وقيل الوسق هو ستون صاعاً.

- **الفرارة**[2]: وعاء من الخيش.

- **القباع**[3]: من المكاييل الواسعة.

- **الصاع**: خمسة أرطال وثلث.

---

[1] الأصفهاني - الأغاني - أخبار - ج٥ - ص١١٣.

[2] المرجع نفسه - أخبار قيس بن الخطيم - ج٣ - ص٦.

[3] المرجع نفسه - أخبار قيس بن الخطيم - ج٣ - ص٦ - ج١٢ - ص٢٥٩.

الباب الثالث

الحياة الأدبية والعلمية



الفصل الأول

الشعر

- المدح
- شعراء النقائض
- الهجاء
- الغزل
- الرثاء
- الرجز



الفصل الأول

الأدب

من المعروف أن اللغة العربية هي من أهم العوامل التي ساعدت على قيام الحضارة العربية بمصر بعد الإسلام. فالعرب أسبق الأمم إلى التأليف في تاريخ الأدب كما أنهم أسبق الأمم في مختلف الموضوعات. والعرب أسبق من بقية الأمم في تدوين العلم. يؤكد ذلك آثار بلاد الرافدين، والحضارة الفرعونية المصرية التي ألفت الكتب منذ عهد الأسرة الفرعونية الثالثة. وأهم الكتب الفرعونية التي وصلتنا: كتاب الموتى. ففي هذا الكتاب الشعر والأدب وتاريخ وعلاقات اجتماعية واقتصادية.

أما الحضارة الرافدية فقد أنشئت منذ عهد الورقاء. وفي مدينة الورقاء نفسها مكتبة عرفت باسم مدينة الكتب، وعمل أحد حكام الورقاء (شرجينا) الذي أنشأ هذه المكتبة على جمع الكتب في هذه المكتبة، وكلف بعض المختصين بتفسير بعضها، وترجمة بعض الكتب. فكانت هذه المكتبة عامة، تحوي مختلف العلوم. وشريعة حمورابي من الآثار المكتشفة في هذه المكتبة.

واللغة العربية كانت أغنى وأرقى لغات العالم حتى قبل الإسلام سواء في أساليبها أم في معانيها وتراكيبها، وكما ذكرنا تعتبر أقدم لغة في العالم حافظت على ميزاتها الواردة. فآداب اللغة

العربية وما كانت عليه من التطور قبل الإسلام لم تكن وليدة قرن أو قرنين، على العكس وكما أعتقد أن آداب هذه اللغة لها جذور عميقة في التاريخ يمتد إلى قرون عديدة قبل الإسلام لأن تطورها قبل الإسلام (شعر أو نثر) يؤكد ذلك.

والأدب المسمى (الجاهلي) لم يكن تطوره وليد فترة قصيرة، إنما كان وليد فترة طويلة كما ذكرنا، ثم إن الأدب العربي رغم الزمن الذي يمتد إلى ما قبل الإسلام، ما يزال يقرأ ويسمع لدى كل فرد عربي، ولا يجد أية غرابة ولا صعوبة في تناوله رغم مرور الزمن. واللغة العربية وآدابها ما تزال هي هي منذ آلاف السنين، على عكس اللغات الأخرى كالإنكليزية والفرنسية والألمانية وغيرها التي تعتبر لغات حديثة (اشتقت من اللاتينية) إذا ما قيست باللغة العربية.

ومن خلال ما وصل إلينا من العرب قبل الإسلام، نلاحظ أنهم كانوا على مستوى متطور. ومن يقرأ شعر زهير بن أبي سلمى والحكمة في شعره، ومن يقرأ خطب قس بن ساعدة وغيرهما يستدل من ذلك على صفاء الذهن والذكاء والحنكة والنباهة. كما أن هذا التراث يؤكد أن العرب كانوا من أرقى الأمم. فالألفاظ عند الشعراء والأدباء والحكماء العرب تدل على أن هذه اللغة هي أغنى اللغات بالألفاظ الحضارية.

كما تؤكد على ارتقاء العرب في الاقتصاد والسياسة. يؤكد ذلك كثرة الألفاظ اللغوية التي تشير إلى ذلك، ولا غرابة في ذلك فإبراهيم الخليل وابنه إسماعيل وفدوا على الجزيرة العربية، ولهم تاريخ حافل في تاريخها، فهم الذين بنوا بيت الله الحرام وهم أنبياء ولا ننسى قصي جد الرسول (ص) عندما سيطر على مكة الذي أسس الندوة وأسس السلطة السياسية والعسكرية والاجتماعية والاقتصادية والفكرية. أخيراً لقد وصلت اللغة العربية وآدابها إلى قمة مجدها قبل الإسلام.

وعندما جاء الإسلام جاء بلغة عربية فصيحة، مبينة، أحدثت تغيراً جذرياً. فالخطابة ازدادت بلاغة وحكمة نتيجة اعتمادها القرآن الكريم بالدرجة الأولى. فكان العرب بعد الإسلام أكثر الأمم تطوراً وتقدماً في فن الخطابة. أما الشعر، فاستمر في صدر الإسلام إلا أنه كان أقل أهمية من الخطابة في هذه المرحلة لأن العرب شغلوا في بناء الدولة، وكان هم الخلفاء نشر الدين الجديد. ورغم ذلك فقد استمر الشعر، وحدث تغيير في الأسلوب، واستمدت اللغة ألفاظاً وتراكيب جديدة من القرآن الكريم تواكب العصر الجديد.

الأدب صورة الحياة ومرآتها، وتاريخ أدب اللغة هو علم، يبحث عن أحوال اللغة وآدابها، وهو يتصل بالتاريخ العام. والأدب ينقسم إلى: إنشائي، ووصفي. فالإنشائي: يعني الشعر أو النثر. أما الوصفي: فهو ما يسمى بالنقد، كما ينقسم الأدب إلى: ذاتي، وموضوعي. وما يهمنا من ذلك هو الأدب الإنشائي، الذي يشمل الشعر والنثر.

والشعر هو الكلام الجيد، الذي يعتمد على الوزن والقافية. قال ابن خلدون: إن الشعر: ((هو الكلام الموزون المقفى))[1]، وقال: ((الشعر هو الكلام البليغ المبني على الاستعارة والأوصاف، المفصل بأجزاء متقنة في الوزن والروي، مستقل كل جزء فيها في غرضه ومقصده عما قبله وبعده، الجاري على أساليب العرب المخصوص بهم))[2]. والشعر لكي يكون شعراً لابد له من عناصر، وأهمها:

المعنى ـ اللفظ ـ الوزن ـ القافية.

الشعر الجاهلي قديم، ومن الصعب تصور أطواره الأولى، وكيف تطور،حتى انتهى إلى هذه الحالة الراقية النموذجية. والشعر الجاهلي شعر غنائي، يصور نفسية الفرد وعواطفه وأحاسيسه في المدح والهجاء والحماسة والغزل أو الرثاء أو الوصف أو غير ذلك. يقول إسحاق الموصلي: (غناء العرب قديماً على ثلاثة أوجه: النَّصْب والسِّناد والهَزج، فأما النصْبُ: فغناء الركبان والقينات، وهو الذي يستعمل في المراثي، وكله يخرج من أصل الطويل في العروض. وأما السناد: فالثقيل ذو الترجيع الكثير النغمات والنبرات. وأما الهَزجُ: فالخفيف، الذي يُرْقَصُ عليه، ويُمْشَى بالدفِّ والمزمار، فيطرب، ويستخف الحليم. هكذا كان غناء العرب قديماً، حتى جاء ا لله بالإسلام، وفُتحت العراق، وجُلب الغناء الرقيق من فارس والروم، وتغنوا الغناء المجزَّأ المؤلف بالفارسية والرومية، وَغَّنوْا جميعاً بالعيدان والطنابير والمعازف والمزامير))[3].

---

[1] ابن خلدون ـ المقدمة ـ ص٦٦٦.

[2] المرجع نفسه ـ ص٥٧٣.

[3] ابن رشيق ـ أبو علي الحسن بن علي بن رشيق القيرواني ـ العمدة في صناعة الشعر ونقده ـ تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ـ طبع القاهرة ١٩٣٤ ـج ٢ ص ٢٤١.

وموضوعات الشعر الجاهلي كثيرة، واختلف في تعدادها. فالنابغة عدّدها ستة. في حين جعلها ابن رشيق تسعة. وأما أبو هلال العسكري، فحددها بخمسة، ومنهم من حددها: بالمدح والهجاء. وعن المعاني في الشعر الجاهلي، فكانت واضحة بسيطة، لا تكلف فيها، ولا بعد، ولا إغراق في الخيال، فالشاعر لا يعرف في ألفاظه الغلو، ولا المبالغة، وبث في المعاني الحركة والحيوية. وكانت التراكيب تامة، والعبارة تستوفي أداء مدلولها، والصيغة صيغة موسيقية وقد أحسن الشعراء التشبيه والمقارنة والاستعارة، كما استعملوا الطباق والجناس.

أما الشعر في صدر الإسلام، فقد ظل مزدهراً. لأن الإسلام لم يقف عائقاً أمام نظمه. ودليل ذلك أن الرسول (ص) كان قد اتخذه سلاحاً للرد على خصومه من مشركي قريش وشعرائهم. وساعدت الأحداث المتتالية على تطوره وازدهاره. ففي بداية الإسلام نظم الشعر بصورة جديدة، استمدها الشعراء من روح الدين الجديد. فمثلاً خلقت حروب الردة أشعاراً كثيرة، منها ما كان حماسياً دينياً، وخلال الحروب المتلاحقة شاع الحنين إلى الأهل والديار، والشكوى من الولاة والجنود والعمال وغير ذلك.

لقد أشاع الإسلام في نفوس الشعراء الرحمة والبر بالأهل، وجعلهم يستهدون بآي الذكر الحكيم، وسنة نبيه الكريم. أي أن الإسلام كان قد أثر في موضوعات الشعر، كالغزل مثلاً، تأثر وطهر وصفاً ونقاءً. وخير دليل على ذلك، ظهور الغزل العذري. وفي المدح اتخذ جانب الفضيلة. وكان شعر الحماسة الأقوى في تأثره بالإسلام من غيره من موضوعات الشعر، وطبع الرثاء بالتسليم والرضاء بقضاء الله، والدعوة إلى الاستعانة بالصبر، وعدم الشكوى إلا إلى الله تعالى.

والشعر الأموي مرّ بأدوار، الأول كان أقرب إلى البداوة، والثاني: دور الفحول من الشعراء وخاصة في عهد عبد الملك بن مروان كالأخطل وجرير والفرزدق. أما الثالث: فقد غلب عليه طابع الخلاعة والمجون.

أولاً - المدح:

المدح أحد أبرز فنون الشعر، وكان الشعراء قبل الإسلام وبعده يستهلون مدائحهم بـالوقوف على الأطلال والبكاء على الأحبة، ثم الأخذ في تعداد مناقب الممدوح ووصف محامده ومآثره، والمدح قد يكون فردياً يخص شخصاً بذاته، يعظم من شأنه وصفاته، وقد يكون جماعياً، موضوعه: الإشادة بالجماعة كالقبيلة أو العائلة أو القوم.

نشأ المدح في الأصل، ووجد من أجل التغني بالمثل العليا والإعجاب بالبطولة والقبيلة والمروءة بعيداً عن مظاهر التذلل والتكسب والابتذال. إلا أنه لم يحافظ على نبل معانيه وأغراضه، ففقد مصداقيته مع الزمن، اتجه اتجاهاً عكسياً، أي اتجاهاً مادياً تكسبياً. ومن شعراء المدح في الجاهلية: طرفة بن العبد، الذي توفي سنة (٥٥٢م)، وترك معلقة مشهورة، والنابغة الذبياني. ومن شعراء المدح، الذين أدركوا الإسلام حتى نهاية العصر الأموي:

حسان بن ثابت: الذي دافع عن الرسول (ص) والإسلام ضد المشركين، وكان يحظى عند الرسول (ص) بمنزلة رفيعة، وكان الخلفاء الراشدون يجلونه. خلف ديواناً. توفي سنة (٦٧٤م).

كعب بن زهير: ابن زهير بن أبي سلمى، من فحول الشعراء في الجاهلية، أدرك الإسلام، وأسلم وحسن إسلامه، وضم شعره الحكم والمواعظ، وله القصيدة[1]، التي تبدأ:

بَـانَتْ سُـعُاد فقلـبي اليـومَ مَتبُـولُ

وهو الذي كساه النبي (ص) بردة، اشتراها معاوية منه بعد ذلك بعشرين ألف درهم[2]، وكان الخلفاء الأمويون يلبسونها بعد معاوية في العيدين، وقد لقبت قصيدته المذكورة من أجلها: بالبردة وشعره أروع شعر بالمدح، وأخلده. توفي سنة (٦٦٢م).

لبيد بن أبي ربيعة: ينتمي إلى عشيرة، كانت ذات سيادة وشرف. له معلقة معروفة، وهي: (عَفَتِ الدِّيارُ مَحَلُهَا فَمُقَامُهَا)[3] أسلم، وحسن إسلامه، ويقسم شعره إلى قسمين: قسم جاهلي، وقسم إسلامي، وشعره في الجاهلية كان: إما مديحاً وإما هجاءً وإما فخراً. أما شعره

---

[1] ديوان كعب بن زهير - - ص٨٤.

[2] شوقي ضيف - العصر الإسلامي - ص٨٥.

[3] ديوان لبيد بن ربيعه العامري - ص١٦٣.

الإسلامي، فقد تهذبت ألفاظه نتيجة لقراءته القرآن الكريم، وأصبح يتحدث عن التقوى والبر والعمل الصالح والوعظ، عاد إلى قبيلته ينشر الإسلام، ثم انتقل إلى الكوفة، فنزلها، وبقي فيها، إلى أن توفي سنة (٤٠هـ).

الحطيئة: اسمه جرول، والحطيئة لقبه وصف: بأنه كان مغمور البيت، ضعيف الجسم، قبيح الوجه، غير شجاع، وصف بالبخل ودناءة النفس، وفساد الدين، لذلك غلب الهجاء على شعره، لزم زهيراً بن أبي سلمى، وتعلم منه صناعة الشعر، أسلم. إلا أنه ارتد في خلافة أبي بكر، وأعان المرتدين بشعره، يقول[1]:

أطعنا رسولَ الله إذ كان بيننا فيا لعبادِ الله ما لأبي بكر

أيورثها بكراً إذا ماتَ بعده فتلكَ وبيتِ الله قاصمةُ الظهرِ

ثم عاد إلى الإسلام مع من عادوا. حبس في عهد الخليفة عمر بن الخطاب، لأنه هجا الزبرقان ابن بدر ، فأخذ الحطيئة يستعطف الخليفة بقوله[2]:

مَاذا تَقُولُ لأفَراخٍ بِذِي مَرَخٍ زُغْبِ الحَوَاصِلِ لا مَاءٌ وَلا شَجَرُ

فعفا عنه الخليفة، بعد أن أخذ عليه العهد ألا يعود إلى الهجاء ومع ذلك كان أجود شعره الهجاء. هجا نفسه بقوله[3]:

أرى لي وَجهاً شَوَّه اللهُ خَلْقَهُ فقُبِّحَ من وَجهٍ وقُبِّحَ حامِلُهْ

وشعره في المديح يكثر فيه ذكر الله والحمد والثناء، يقول[4]:

من يَفْعَلِ الخيْرَ لا يُعْدَمْ جوازِيَهُ لاَ يذْهَبُ العُرْفُ بَيْنَ اللهِ والنّاسِ

وقال[5]:

---

[1] الأصفهاني - الأغاني - ج٢ ص ١٤ - ديوان الحطيئة - طبع دار صادر - ص١٤٣.

[2] المرجع نفسه - ج٢ ص١٨٠ - ديوان الحطيئة - طبع دار صادر - ص١٦٤.

[3] المرجع نفسه - ص٢٥٧.

[4] المرجع نفسه - ص١٠٩.

[5] المرجع نفسه - ص٢٥٢.

وَلَسْتُ أَرَى السَّعادَةَ جَمْعَ مالٍ ... ولكنَّ التَّقيَّ هُوَ السَّعيدُ

وتَقْوَى اللهِ خَيرُ الزَّادِ ذُخْراً ... وعِنْدَ اللهِ للأَتْقَى مَزيدُ

توجه إلى العراق في عهد الخليفة عثمان، ومدح الوليد بن عقبة، والي الكوفة[1]، كما مدح بعده سعيد بن العاص، الذي خلفه في الولاية. توفي كما يذكر، في فترة ولاية سعيد بن العاص للكوفة حوالي (٦٧٩م) ومن جيد شعره في المدح، مدحه لبني أنف الناقة، بقوله[2]:

قَوْمٌ هُمُ الأنفُ والأذنابُ غيرُهُمُ ... وَمَنْ يُسَوّي بأنفِ النّاقَةِ الذَّنَبا

النابغة الجعدي: هو أبو ليلى حسان بن قيس الجعدي، الملقب بالنابغة، كان في الجاهلية ممن أنكر الإسلام. تغنى بمفاخر قومه وانتصاراتهم، وهجا خصومهم. أسلم مع قومه في السنة التاسعة للهجرة، ويعتقد أنه أقام في المدينة مهاجراً،ولم يرجع، وقال قصيدة أمام الرسول (ص) منها قوله[3]:

بَلَغنَا السماءَ مَجدُنا وجُدودُنا ... وإنّا لنرجُو فَوقَ ذلكَ مَظهَرا

وفي حرب صفين[4] كان إلى جانب الإمام علي يمدحه، ويهجو معاوية، ومدح عبد الله بن الزبير، بعد أن دعا لنفسه بالخلافة. توفي بأصبهان سنة (٦٥هـ) كان النابغة، بعد إسلامه قد خرج للجهاد في سبيل الله بقراءة القرآن، وكان دائم الحديث عن نعم الله، يقول[5]:

الحمدُ للهِ لا شَريكَ لَهُ ... مَن لم يَقُلها فنفسَهُ ظَلَما

توفي حوالي سنة (٦٨٠م)، ومن شعراء المديح في العصر الأموي كان:

---

[1] ديوان الحطيئة ـ ص٧٧ ـ ٨٨.

[2] المرجع نفسه ج ٢ ـ ص١٧.

[3] شوقي ضيف ـ العصر الاسلامي ـ ص١٠١ ـ محمد محمد حسين ـ الهجاء والهجاؤن في الجاهلية ـ ص١٨٣.

[4] صفين: موضع قرب الرقة على شاطىء الفرات من الجانب الغربي بين الرقة وبالس ـ ياقوت الحموي ـ معجم البلدان ـ ج٣ ـ ص٤١٤.

[5] المرجع نفسه ـ العصر الإسلامي ـ ص١٠٣.

نصيب بن رباح[1]: هو شاعر حجازي. وصف بأنه كان شديد الشعر. تيقظت موهبة الشعر عنده مبكراً. كان عبداً لرجل، فتوجه إلى عبد العزيز بن مروان بمصر، فرد إليه حريته، فمدحه، وبقي معه في مصر، حتى توفي أمير مصر، فبكاه، ثم لزم بعده سليمان ابن عبد الملك، وله مدائح في يزيد بن عبد الملك وأخيه هشام، وله مدائح كثيرة في الولاة. كولاة مكة والمدينة والعراق. توفي في أواخر عهد الدولة الأموية.

القطامي[2]: أسلم، واشترك في الحروب، التي نشبت بين قبيلتي تغلب وقيس أثناء ثورة ابن الزبير. أسر في هذه الحروب، وأطلق سراحه زفر بن حارث القيسي، ورد عليه ما سلب منه، وأعطاه مائة من الإبل، فأخذ بعدها يدعو للصلح، ووقف هذه الحروب، وفد على الوليد بن عبد الملك، وقيل: على عمر بن عبد العزيز، توفي في أواخر القرن الثاني للهجرة.

كعب بن حمدان الأشقري الأزدي[3]: برع في المدح، وصف بأنه كان فارساً شجاعاً. له أثر في حروب المهلب مع الأزارقة، لازم المهلب وابنه يزيد، يمدحهما، كما مدح قتيبة بن مسلم والي خراسان، وعندما ولي يزيد بن المهلب خراسان لسليمان بن عبد الملك، غضب المهلب عليه غضباً شديداً، فهرب إلى عمان، وظل بها إلى أن ثار يزيد بن المهلب على الأمويين.

زياد الأعجم: وصف: بأنه كان يحسن فن المديح، مدح والي فارس عمر بن عبيد الله بن معمر، فأعطاه على كل بيت، مدحه فيه ألفاً، ولزمه، حتى توفي، فتوجه إلى خراسان، فمدح عبد الله بن الحشرج والي خراسان، بقوله[4]:

إنَّ السَّماحة والمروءةَ والنَّدَى   في قُبَّةٍ ضُرِبتْ على ابن الحَشْرَجِ

---

[1] شوقي ضيف - العصر الإسلامي - ص٢٢٣ وما بعدها.

[2] جرجي زيدان - تاريخ آداب اللغة العربية - تعليق شوقي ضيف - ج١ - طبع دار الهلال - ج١ - ص٣٠٠ - شوقي ضيف - العصر الإسلامي - ص٢٢٤.

[3] المرجع نفسه - ج١ - ص٢٧٢ - شوقي ضيف - العصر الإسلامي - ص٢٢٦.

[4] يحيى الشامي - أروع ما قيل في المدح -طبع بيروت ١٩٩٢ - ص٧٩ - شوقي ضيف - العصر الإسلامي - ص٢٢١.

ثانياً - الرثـاء:

قيل: «إن في الله عزاء من كل مصيبة، وعوضاً عن كل مَرزِئةٍ، ودركاً من كل فائت، وخلفاً من كل هالك. فبالله ثقوا وإياه فارجوا. المحبور من حيره الثواب والخائب من أمِنَ العقاب»[1].

وقيل: «العزاء هو السلوُّ وحسن الصبر على المصائب، وخير من المصيبة العوض منها، والرضا بقضاء الله والتسليم لأمره»[2].

ومن أجمل المراثي القديمة ما ذكر عن الاسكندر الكبير، حيث يذكر: أنه لما رجع من حروبه، وبلغ بابل، مرض هناك مرضاً، شديداً فكتب إلى أمه يعزيها بنفسه، يقول: (يا أماه! اصنعي طعاماً، واجمعي من قدرت عليه،ولا يأكل طعامك من أصيب مصيبة، واعلمي هل وجدت لشيء قراراً باقياً، وخبالاً دائماً؟ إني قد علمت يقيناً أن الذي ذهبت إليه خير من مكاني) فلما قرأت أمه كتابه، صنعت طعاماً، وجمعت الناس، فقالت: (لا يأكل هذا من أصيب بمصيبة) فلم يأكلوا، فعلمت ما أراد فقالت: (من يبلغك عني، إنك وعظتني، فاتعظت، وعزيتني، فتعزيت، فعليك السلام حياً وميتاً). وقد عزى أحد الحكماء الاسكندر، بقوله: (كان الملك أمس أنطق من اليوم، وهو اليوم أوعظ منه أمس)[3].

يعدّ الرثاء أحد أغراض الشعر العربي، يعبر فيه عن تجربة الأسى والحزن والتفجع واللوعة، لفقدان عزيز، والرثاء أنواع مختلفة منها الندب كبكاء الأهل والأقارب والأصحاب ومنه الترنح من هول المصاب وبث اللوعة ومنه التأبين وهو فن التعبير عن حزن الجماعة لفقدان الميت. وهو يعدّ فن البكاء على الميت، والتفجع على فقده فالرسول (ص)، عندما توفي ولده إبراهيم، بكى عليه، وقال: **«إن العين تدمع، والقلب يحزن، ولا نقول إلا ما يرضي ربنا، وإنا بفراقك يا إبراهيم لمحزنون»**[4]
وإذا تجاوز الراثي في رثائه حد اللوعة والبكاء يصل إلى حد التأمل والتفكير في حقيقة الموت والحياة، وهذا ما يسمى العزاء، وفيه الحث على الصبر إزاء نوائب الدهر، لأن المصائب كمصيبة الموت تبدأ

---

[1] المبرد - أبي العباس محمد بن يزيد بن المبرد - التعازي والمراثي تخفيف محمد الديباجي - طبع بيروت ١٩٩١ - ص١٠.

[2] المرجع نفسه - ص ٨.

[3] المرجع نفسه - ص١٥٦.

[4] حسين جمعة - الرثاء في الجاهلية والإسلام - طبع دمشق ١٩٩١ - ص١٣٩.

كبيرة، ثم تصغر.

ونماذج شعر الرثاء كثيرة ومتعددة، منها ما قيل في رثاء الأهل، وهناك من رثا نفسه، وهناك من رثا أولاده وإخوته أو الأزواج أو الآباء وغير ذلك من الأهل، وهناك من رثى الأحبة والأصدقاء والعلماء والمدن وغيرها، قيل: (أحسن الشعر ما خلط مدحاً بتفجع، واشتكاء بفضيلة). فمثلاًالشاعر أبو ذؤيب الهذلي[1] من الذين رثوا أنفسهم قبل الموت، أدرك هذا الشاعر الإسلام. توفي في عهد الخليفة عمر بن الخطاب. وأبو ذؤيب الهذلي هذا كان له سبعة أولاد، فماتوا كلهم إلا واحداً فقال يرثيهم في قصيدة من أروع الرثاء وأصدق وأكثر لوعة من باقي القصائد:

أمِنَ المنون وريبهِ يُتفجّع ... والدهرُ ليسَ بمعتب من يجزعُ
أودى بَنيّ وأعقبوني حسرة ... بَعَد الرّقادِ وعبرةً ما تُقلع
فبقيتُ بعدَهُمُ بعيشٍ ناصبٍ ... وأخال أني لاحقٌ مستتبع
وإذا المنيةُ أنشبت أظفارها ... ألفيتَ كلَّ تميمةٍ لا تنفع

ورثا الشاعر عقيل بن علقمة المري[2] المتوفى سنة (١٠٠هـ - ٧١٨م) ولده، فقال:

فأقسمت لا أبكي على هلْك هالكٍ ... أصاب سبيَل اللِه خيرَ سبيلِ
تَحلُّ المنايا حيثُ شاءت فإنها ... مُحَلّلةٌ بعد الفتى ابن عَقِيل
فتى كان مولاه يحلُّ بنجوةٍ ... فحلّ الموالي بعده بَمسِيلِ

أيضاً إن مالكاً بن الريب التميمي[3] الذي أدرك العصر الأموي والذي توفي سنة (٤٤هـ - ٦٦٦م) رثا نفسه، ووصف قبره، وتعدّ قصيدته في رثاء نفسه من أشهر قصائد الرثاء، وكان قد خرج للغزو في جيش سعيد بن عثمان إلى خراسان، فأدركته المنية، وهو عائد، فقال:

ألا ليتَ شعري هل أبيتّن ليلة ... بجنب الغضا أُزجي القلاص النّواجيا
تذكرت من يبكي عليّ فلم أجد ... سوى السيف والرمح الرديّ باكياً

---

(١) العقد الفريد - ابن عبد ربه - ج٣ - ص٢١.

(٢) الأصفهاني الأغاني - أخبار عقيل بن علقمة - ج١٢ - ص٣١٣ - يحي الشامي - أروع ما قيل في الرثاء - ص٢٥.

(٣) محمد عبد المنعم خفاجي - الأدب العربي وتاريخه في العصرين الأموي والعباسي - طبع بيروت ١٩٩٠ - ص١٦٣ - ابن عبد ربه - العقد الفريد ج٣ ص٢٠٢.

وكذلك الشاعر هدبة بن خشرمة العذري[1]، والذي توفي سنة (٥٠هـ ـ ٦٧٠م)، كان من الشعراء الذين رثوا أنفسهم قبل الموت، بقوله:

وقيلَ: غدٍ يا لهفَ نفسي على غدٍ إذا راحَ أصحابي ولستُ برائح
إذا راحَ أصحابي بفيضِ دُمُوعِهِمْ وغُودِرْتُ في لحدٍ عليَّ صفائحي

ولا ننسى الطرماح بن حكيم[2]، الذي توفي سنة (١٢٧هـ ٧٤٣م)، والذي يعدّ أحد الشعراء المشهورين الذين رثوا أنفسهم في حياتهم، بقوله:

فيا ربّ لا تجعلْ وفاتيَ إنْ أتتْ على شرجعٍ يُعلى بُدكنِ المطارفِ
ولكن أجر يومي شهيداً وعصبة يُصابُون في فجّ من الأرض خائف

ومن الذين رثوا أبناءهم الشاعر جرير[3]، الذي توفي سنة (١١٠هـ ـ ٧٢٨ م) وهو أبو حرزة جرير ابن عطية التميمي، وهو من فحول شعراء العصر الأموي، يقول في تأوه لولده سوادة:

قَالُوا: نَصِيبُكَ مِنْ أجْرٍ، فَقُلْتُ لَهُمْ: كيف العزاء وقد فارقت أشْبَالِي
لَكِنْ سَوَادَةُ يَجْلُو مُقْلَتَيْ لَحِم بَازٍ يُصَرصِرُ فَوقَ المَرقَبِ العَالِي

ولجرير كما هو معروف مرثاة رائعة في زوجه منها[4]:

لَولاَ الحَيَاءُ لَهَاجَنِي اسِتعبَارُ وَلَزُرتُ قَبْرَكِ والحَبِيبُ يُزَارُ

ومن الشعراء الذين رثوا الإخوة الشاعر أبو خراش الهذلي[5]، الذي أدرك الإسلام وتوفي سنة (١٥هـ ـ ٦٣٦م)، قال يرثي أخاه عروة:

وقالت: أراه بعد عُروة لاهياً وذلك رُزْءٌ لو علمْت جليلُ

---

[1] ابن عبد ربه ـ العقد الفريد ج٣ ـ ص٢٠٤.

[2] المرجع نفسه ـ ج٣ ـ ص٢٠٢.

[3] أميل ناصيف ـ أروع ما قيل في الرثاء طبع بيروت ـ دار الجليل ـ بدون تاريخ ـ ص٣٠ ـ يحيى الشامي ـ أروع ما قيل في الرثاء ـ ص٢٧.

[4] المرجع نفسه ـ أروع ما قيل في الرثاء ـ ص ٢٨.

[5] الأصفهاني ـ الأغاني ـ ج٢١ ـ ص٢٢٨ ـ يحيى الشامي ـ أروع ما قيل في الرثاء ـ ص٤٩.

ومن منا لا يذكر الخنساء[1] (أم عمرو تماضر بنت عمرو بن الشريد) المتوفاة سنة ٢٥هـ ــ ٦٤٦م) وجلّ شعرها في رثاء أخويها معاوية وصخر، وشعرها معروف، تقول:

وَإِنَّ صَخراً لَوَالِينَا وَسَيِّدُنَا ... وإنَّ صَخراً إِذَا نَشتُوَ لَنَحَّارُ

حَمّالُ أَلوِيَةٍ هَبَّاطُ أَودِيَةٍ ... شَهَّادُ أَندِيَةٍ لِلجَيشِ جَرَّارُ

ومنهم متمم بن نويرة الذي توفي سنة (١٢هـ ــ ٦٣٤م)، والذي رثا أخاه مالكاً بن نويرة الذي قتله ضرار بن الأزور بأمر خالد بن الوليد، وقصته معروفة لا داعي لذكرها لأنها سترد في حروب الردة.

ومن الشعراء الذين رثوا: الشاعر لبيد بن ربيعة[2]، الذي توفي سنة (٤٠هـ ــ ٦٦١م) وهذا الشاعر من أصحاب المعلقات المشهورة، ويعد هذا الشاعر من أجود العرب وفرسانهم، له مرثية في أخيه من أمه (أربد بن قيس) بسبب صاعقة، أصابته، فيقول:

وقد كنتُ في أكنافِ جارِ مَضَنَّةٍ ... ففارقني جارٌ بُأَربَدَ نافعُ

كما رثا عروة بن أذينة[3]، الذي توفي سنة (١٣٠هـ ٧٤٧م) أخاه بكراً، بقوله:

على بكر أخي فارقتُ بكراً ... وأيُّ العيش يصلحُ بعدَ بكر؟

ومن الشعراء الذين رثوا الأحبة كثير بن عبد الرحمن بن الأسود[4] (كثيرة عزة)، الذي توفي سنة (١٠٥هـ ــ ٧٢٢م)، ومما قاله في حبيبته (عزة)، التي تعلق بها كثيراً، وظل محباً لها طوال عمره، وهو من زعماء المدرسة العذرية، يقول:

فيا عزّ أُنتِ البدر قد حال دونه ... رجيعُ ترابٍ والصفيعُ المضرّح

---

[1] أميل ناصيف ـ أروع ما قيل في الرثاء ـ ص١٦.

[2] الأصفهاني ـ الأغاني ـ (نسب لبيد وأخباره) ـ ج١٥ ـ ص٣٦٢ ـ يحيى الشامي ـ أروع ما قيل في الرثاء ـ ص٥٢.

[3] يحيى الشامي ـ أروع ما قيل في الرثاء ـ ص٧٦.

[4] يحيى الشامي ـ أروع ما قيل في الرثاء ـ ص٩٦.

كما رثت الشاعرة ليلى الأخيلية[1] المتوفاة سنة (٩٠هـ ـ ٧٠٨م)، وأشهر شعرها في توبة بن الحمير الذي أبى أبوها أن يزوجها إياه، تقول:

لَعَمُرك ما بالموتِ عارٌ على الفتى إذا لم تُصبْه في الحياةِ المعايرُ
وآليتُ أبكي بعدَ توبةَ هالكاً وأحفلَ مَنْ دارتْ عليه الدوائر

ومن شعر الرثاء للفرزدق[2] (همام بن غالب بن صعصعة)، المتوفى سنة (١١٢هـ ـ ٧٣٠م) ما قاله في الحوراء الشيبانية:

يقولون: زُر حوراءَ، والتُّربُ دونها وكيف بشيء وصلُه قد تقطّعا؟

أما حسان بن ثابت[3] وهو غني عن التعريف، والذي توفي سنة (٥٤هـ ـ ٦٧٤م)، فكان من روائع شعره رثاؤه لربيعة بن مكرم الكناني، وقصيدته هذه، قالها قبل الإسلام، يقول فيها:

لا يبعدنَّ ربيعةُ بنُ مكرّمٍ وسقى الغوادي قَبرَهُ بذَنوبِ

وقال الشاعر عمران بن حطّان المتوفى[4] سنة (٨٤هـ ـ ٧٠٣م)، لما فجع بأبي بلال مرداس، وهو من الخوارج (الصفرية)، يقول:

يا عينُ بكّي لمرداسٍ ومصرعِهِ يا ربَّ مرادسٍ إجْعلْني كمرادسِ

وقال ابن عبد الأعلى[5] يرثي أيوباً بن سليمان بن عبد الملك، عندما مات أكبر أولاده، وكان قد جعله ولياً لعهده:

أيوبُ مَن يشمتْ بموتِكَ لم يطقْ عن نفسه دفعاً وهل من مُدفع

ومما قاله زيادة الأعجم[6] المتوفى سنة (١٣٧هـ ـ ٧٤٥م) في رثاء المهلب بن أبي صفرة قوله:

---

(١) يحيى الشامي ـ أ روع ما قيل في الرثاء ـ ص٩٣.

(٢) الأصفهاني ـ ج٢١ ـ ص٣١٩.

(٣) يحيى الشامي ـ أ روع ما قيل في الرثاء ـ ص٩٧ـ ص١٢٠.

(٤) المرجع نفسه ـ ص١٢١.

(٥) المرجع نفسه ـ ص١٢٣.

(٦) المرجع نفسه ـ ص١٢٤.

قـــلْ للقوافـــلِ والقَـــرِىّ إذا قَـــرَوا والبـــاكرينَ وللمُجَـــدِّ الرائـــح
إنَّ المـــروءةَ والســـماحةَ ضُمِّنـــا قـــبراً بمَـــروَ علـــى الطريـــقِ الواضـــحِ

ثالثاً ـ الغزل:

يحتل الغزل الجزء الأكبر من ثروتنا الأدبية في العصر الجاهلي. يقول الدكتور شـكري فيصـل: (إن الثروة الشعرية كالقطعة الذهبية ذات الوجهين، نقش الجاهليون على صفحتها الأولى عواطفهم، التي ابتعثها فيهم الحب، وما يؤدي إليه هذا الحب من وصل أو هجر، ومـن سـعادة أو شـقاء، ومـن لـذة أوغصـة، وصـوروا هـذه العواطـف، وأفنـوا في تصويرهـا ملكـاتهم ومواهبهـم.. أمـا الصفحـة الأخرى، فقد جمعوا عليها كل أغراضهم الأخرى، ونثروا في أطرافها كل الفنون والأغراض الثانيـة، كائنة ما كانت هذه الفنون والأغراض)[1].

ومن المعلوم أن الشعر الجاهلي كان سجل حياة القبيلة ولسانها، الذي يعبر عنهـا، إضافـة إلى ذلك إن الشعر الجاهلي كان شعراً فرديـاً، أي أن الشـاعر كـان لسـاناً معـبراً، عـن وجـوده النفسـي وعواطفه الشخصية، التي أسرف الشعراء في التعبير عنها. من ذلك نلاحظ: أن أكـثر قصـائد الشـعر الجاهلي تبدأ بالغزل، حيث لا تكاد تخلو قصيدة من غزل أو حنين أو أطلال.

يرى بعض النقاد ـ كابن قتيبة ـ أن الغزل الجاهلي لم يكن تعبيراً عن حيـاة الشـاعر الوجدانيـة ولا فيضاً عفوياً، مصدره عواطفه، إنما هو صناعة مقصودة، لجأ إليها الشـاعر في شـيء مـن التعمـد، يدغدغ بها عواطف السامعين، ويوطن بذلك لأغراضه الأخرى. إذن، الغزل ليس غرضاً بذاته، إنما هو غرض لغيره، أي أن غاية الشعر الغزلي ليس الشاعر نفسه، إنما السامع، الذي يتوجه إليه. أي أنـه محض وسيلة. بينما يرى ابن رشيق: أن الغزل ليس وسيلة لأغراض أخرى، إنما يجعـل منـه وسـيلة إلى نفسه، كأن يخلو إلى ذكر أحبابه، فيهيج ذلك عنده عواطفه، ويؤجج نارها. وبذلك يقول الشاعر ما يريد قوله. أي أن الغزل هو مزج من الوسيلة والغاية، تأتلفان في نفس الشاعر، لأنه المقصود بالإثارة والتفتح. وهناك من يقول: إن الغزل الجاهلي، الذي يأتي مفتتحاً القصائد، إنما هو نظام كان سائداً، جمد عليه الشعر الجاهلي، ورأي آخر، يذهب إلى: أن الشاعر الجاهلي كان يتغـزل في أول قصـائده.

[1] شكري فيصل ـ تطور الغزل بين الجاهلية والإسلام من امرؤ القيس إلى ابن أبي ربيعة ـ ص٢٣.

إلا أنه كان ينصرف عن الغزل ذاماً له محتقراً شأنه، ثم ينتقل ـ بعد ذلك في عملية توجيهية، وقيادة ووعظ ـ إلى حياة قوية، يسود فيها الكفاح والنضال، من أجل حياة أفضل.

وشعر الغزل قسم إلى أنواع. منه ما ارتبط بالنساء اللواتي تغزل بهن الشعراء، وشعر آخر تغزل أصحابه بالقيان، وآخر تغزل أصحابه بالساقية في مجلس الشراب. ومن شعر الغزل ما كان هادئاً عفيفاً، ومنه ما كان متأثراً بالبيئة منطلقاً منها، لأن الشعراء كان بعضهم من سكان الحضر، وبعضهم الآخر من البادية، واختلف شعر الغزل تبعاً لما كان عليه الشعراء من فتوة، كطرفة بن العبد، وامرىء القيس، وعمرو بن كلثوم، ومنهم من قال الغزل، وهم شيوخ، كزهير والنابغة وأبي ذؤيب الهذلي. واختلف شعر الغزل أيضاً تبعاً لأوزانه، فبعضه قيل في الأزوان الطوال، يمثل الحنين العميق واللوعة القوية والذكرى الملحة وغير ذلك، ومنه ما قيل في الوزن القصير، حيث تمثل الفرحة السريعة والمغامرة الطارئة.

وأخيراً قسم شعر الغزل إلى الأقسام التالية: أولاً: الوقوف على الأطلال، ثانياً: مشاهد التحمل والارتحال أي ارتحال الأحبة ووصف هذا الارتحال، ثالثاً: وصف المحاسن الجسدية، الرابع: الغزل المفحش، وهناك آراء في الحب.

أولاً ـ الوقوف على الأطلال: وخير من يمثله ملك الشعراء امرؤ القيس في قصيدته التي مطلعها[1]:

قِفَا نَبْكِ مِن ذِكْرَى حبيبٍ وَمَنْزِلِ   بِسقْطِ اللّوى بين الدَّخُولِ وَحَوْمَلِ

ومن شعراء الغزل الجاهليين طرفة بن العبد، وزهير بن أبي سلمى، ولبيد بن ربيعة العامري ـ والنابغة الذبياني، ـ والمرقش الأكبر، والحارث بن حلزة اليشكري، وعميرة بن جعل التغلبي وغيرهم.

امتاز الغزل الجاهلي بقوة العاطفة وإنسانيتها. أي أنه لم يعبر عن عواطف جماعة محدودة، إنما يعبر عن الجزء المشترك من عواطف الناس جميعاً، كما امتاز الغزل بعاطفة صادقة سليمة قوية بريئة. واتسم الغزل إضافة إلى ذلك بالصدق في المشاهد والأخيلة. أي أن الشعراء التزموا الصدق الواقعي، والغنى في التعبير.

[1] ديوان امرىء القيس ـ تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ص٨.

فالصدق في التعبير لم تكن الغاية منه التأنق في التعبير والزخرفة، إنما كانوا ينساقون في المنحى، الذي تسوقهم إليه العاطفة، وما تقذف به ألسنتهم من تعابير مباشرة.

أما المعاني فكان يقود بعضها إلى بعض، وينتهي بعضها إلى بعض، حيث كان الوقوف على الأطلال يدعو إلى تحديدها. إلا أن هذه المعاني لا تكاد تختلف بين هؤلاء الجاهليين، رغم أن أحدهم كان يتفوق على الآخر. لأن المعاني كانت شائعة عندهم، في محصلتها. والذي يختلف هو الايقاع الشخصي، الذي يضفي على النتاج الفني طوابعه المميزة وصفاته الخاصة. والإيقاع الشخصي ـ كما يذكر الدكتور شكري فيصل ـ يتمثل في الإصرار على جانب من المعاني دون آخر، أو في تناول الموضوع، وطريقة تناوله، كما يمتاز بالتلون النفسي، الذي يضفيه كل شاعر من الشعراء على نتاجه الفني. ففي هذه الصيغ أو التلون تفسير للإلحاح على بعض المعاني، وتبرير لطريقة التناول، وتأويل لهذه الطوابع، التي يتخالف، ويتفارق فيها الشعراء.

إذن التلون الشخصي كان يختلف من شاعر إلى آخر فعند بعضهم كان الإيجاز في التراكيب والصور، وكان الإطناب، أما الإيقاع الشخصي. فقد يكون بائساً وقد يكون متوثباً ذا معانٍ خاطفة، وقد يكون هادئاً، يعتمد التصوير والتمثيل، وبعضهم الآخر اعتمد الإطالة والتفاصيل، وامتاز الإلحاح على الصور الفرعية، التي تفيد التأكيد والوضوح، وبعضهم الآخر اعتمد التعابير القصيرة الموجزة، التي تصور بعض الجزئيات، وبعضهم اتخذ المفاجأة التي اتخذت طابع السؤال والإقرار معاً، والمقارنة البائسة بين الماضي والحاضر، أي تحديد الزمان والمكان. ومنهم من اعتمد الطلاقة البعيدة عن التعقيد والتكلف، وبعضهم اعتمد الألم. أي أن شعراء الغزل اشتركوا في المعاني العامة والعاطفة، واختلفوا في التلون الشخصي لهذه المعاني والعواطف.

ثانياً ـ مشاهد التحمل والارتحال: وتظهر واضحة في شعر أكثر الشعراء. والمطلع على نماذج من القصائد الغزلية لشعراء الغزل، يلاحظ التباين في الطول، والاختلاف باختلاف الشعراء، ويلاحظ أن أكثر قصائد الغزل الجاهلية تعرض مشاهد الترحال عقب الحديث عن الأطلال، أي أن الشعراء بعد وقفتهم على الأطلال، انطلقوا وراء الأحبة، متحدثين عنهم، واصفين لهم. إلا أن طريقتهم اختلفت، وتباينت، غير أنهم تلاقوا في بعض النقاط: كالتساؤل، ومماشاة الركب، والوقوف عند معالم الطريق، وذكر الظعن، والهودج، وتوضيح حركته ولونه والنساء والتحدث

عنهن.

ثالثاً - وصف المحاسن: امتاز شعر الغزل الجاهلي - عند ذكره المحاسن - بطوابع عامة. منها الجرأة. لكن الجرأة كانت تختلف من شاعر لآخر، إلا أن الشاعر كان على وعي لمعنى هذه الجرأة، كما امتاز الشعراء: بالوضوح، و امتاز غزلهم أيضاً بأنه غزل مباشر عن قصد منهم، و لم يكن غرضاً عابراً. أي أنهم كانوا يتوجهون إليه عامدين.

أما الأسلوب في الغزل الجاهلي، فامتاز عندهم بنوعين من التشابيه. الأول: موجز، والثاني: مطول. كما امتاز بأن الوصف جاء مزيجاً بين الخشونة والرقة، وامتاز بالصحة والصدق، وامتاز بالعناية بالمظاهر الخارجية: كالحديث عن الجمال، حتى أن بعضهم أسرف في ذلك. إلا أنهم قليلاً ما كانوا يتحدثون عن أثر هذا الجمال في النفس. أي أنهم اقتصروا في غزلهم على المحاسن الخلقية، و لم يتعدوا جمال الصورة إلى جمال النفس. أما ألفاظ الأسلوب، فكانت أقرب إلى الرقة والألفة، واشترك شعراء الغزل الجاهلي في المعاني. إلا أنهم كانوا يتقاربون، ويتباعدون. كل منهم على قدره، أخيراً ولعل امرأ القيس خير من يمثل الشعر الغزلي في الجاهلية.

ينتمي امرؤ القيس إلى مملكة كندة، التي أسسها أحد أجداده. وهو حجر بن عمرو الكندي، واتسعت هذه المملكة في عهد جده الحارث، الذي قسم مملكته بين أولاده. فكان نصيب حجر والد امرىء القيس حكم غطفان وبني أسد[1]. فاشتد على بني أسد، وأسرف في جمع الإتاوات، وغير ذلك، فقتلوه، وورث ولده امرؤ القيس ملكه المنهار، ودمه المراق، اختلف في اسمه، فقيل: حندج، وقيل: مليكة، وقيل: عدي، ولقب: بالملك الضليل. وبذي القروح وبامرىء القيس. وعرف أيضاً بثلاث كنى هي: أبو وهب وأبو زيد، وأبو الحارث، واختلف أيضاً في سنة ولادته، فقيل: ولد سنة ٤٩٧ م، وقيل: سنة ٥٢٠م، وقيل: ٥٠٠ م أبوه حجر ملك غطفان وأسد، وأمه فاطمة بنت ربيعة أخت المهلهل، وقيل: اسمها تملك، وقيل: فاطمة، ولقبها: تملك.

نشأ امرؤ القيس في بيت موصول النسب بالشعر من جهة أبيه وأمه وتقسم حياته إلى قسمين يفصل بينهما مصرع أبيه. الأولى مرحلة الشباب العابث والثانية بعد مصرع أبيه وكان همه

---

[1] الطاهر أحمد مكة - امرؤ القيس - طبع القاهرة ١٩٧٠ - ص١٣٢.

فيها السعي العاثر للأخذ بالثأر واستعادة الملك.

إذن نشأ امرؤ القيس في أسرة توارثت الملك. فعاش حياة بذخ وصيد، ونطق بالشعر مبكراً، وتنقل بين القبائل، وخاصة بين أسرة والده وأسرة أمه أخت كليب والمهلهل، وتمادى في هذه المرحلة في اللهو والشهوات المختلفة، فطرده أبوه. ورغم ذلك تمادى في اللذائذ، أثناء ذلك قتل والده. فكان ذلك حافزاً له، لكي ينتقل من المجون إلى الشجون، ومن الخمر إلى الغم والهم. فلما علم بقتل أبيه قال: ((ضيعني صغيراً وحملني دمه كبيراً، لا صحو اليوم، ولا سكر غداً اليوم خمر وغداً أمر))[1] ، وعاهد نفسه ألا يأكل لحماً ولا يشرب خمراً، ولا يدهن بدهن،ولا يصيب امرأة، ولا يغسل رأسه من جنابة، حتى يدرك بثأره[2] .

بعد ذلك خلع أثواب الخلاعة، ولبس لامة الحرب، وأخذ يعد العدة ،وقاتل بني أسد، حتى اضطرهم للهرب. ثم استنفر بكراً بن وائل وأزد شنوءه فخذلوه، وأخيراً اضطر لترك ماله وأسلحته لدى السموءل بن عادياء، وقصد قيصر الروم[3] وقصة السموءل في الوفاء معروفة. فأحسن القيصر وفادته. إلا أنه لم يقدم له العون. وخلال عودته أصيب بمرض الجدري، ومات. وقيل: مات بالسم من خلال حلة مسمومة، خلعها عليه ملك الروم، مات كما ذكر سنة ٥٤٥م وقيل: ٥٤٠م.

وشعره أيضاً كان على مرحلتين: الأولى: مرحلة الشباب ففي هذه المرحلة كان أكثر شعره غزلاً، ووصفاً لمجالس الأنس والخمر والصيد والحصان، الذي هو واسطة التنقل الأساسية، ومطيته في الصيد والحرب. أما المرحلة الثانية، فقد غلب عليها شعر المدح والهجاء والفخر ووصف الناقة: أي أنه كان يفتخر بحيويته ونشاطه، فلما فجع بوالده غرق في الشكوى والحزن والتذمر من غدر الناس. أما ألفاظه في المرحلة الأولى: فكانت أقرب إلى العذوبة والوضوح والانسياب. وأما في المرحلة الثانية: فقد شاب ألفاظه المقت، وخالطها الكآبة، ودخلها الغريب من الألفاظ.

وأهم أغراضه القديمة ـ كما هو معروف ـ كان الغزل. فكان للمرأة مكان الصدارة في حياته وشعره، والنساء في شعره كثيرات، ذوات صفات مختلفة، وقيل عنه: إنه أفرط في وصف النساء.

---

[1] شوقي ضيف ـ العصر الجاهلي ـ ص٢٣٦.

[2] ديوان امرىء القيس ـ تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ـ ص٦.

[3] الأب لويس شيخو ـ شعراء النصرانية قبل الإسلام ـ ص٣٢.

ولدى استعراض غزله يلاحظ الغزل الذي يخالطه الوقوف على الأطلال[1] والغزل الوصفي، والغزل الماجن الصريح، وأمور أخرى، كالفخر والهجاء والمديح والرثاء والحكمة. وما يهمنا من شعره الغزل، الذي هو أرقى ما في شعره، ومن معلقته المعروفة التي مطلعها[2]:

قِفَا نَبكِ من ذِكْرَى حبيبٍ وَمَنْزِلِ　　بِسقْطِ اللِّوَى بين الدَّخُولِ وَحَوْمَلِ

ويومَ دخلتُ الخِدرَ خِدْرَ عُنَيزَةٍ　　فقالت لَكَ الوَيلاتُ إِنَّكَ مُرْجِلي

أَغرَّكِ منِّي أن حُبَّكِ قاتِلِي　　وأَنَّكِ مهما تأْمري القلبَ يَفْعَلِ

ذكر أن سبب نظم هذه المعلقة هو يوم دارة جلجل، حيث التقى بعنيزة ابنة عمه شرحبيل، وكان هائماً بها، وتنزه مع بعض العذارى، فذبح لها ولهن ناقة، على أثر ذلك، قال معلقته المشهورة، وهي لامية على البحر الطويل، وهي قصيدة طويلة، قيل: إنها كانت سبعة وسبعين بيتاً، وقيل:واحداً وثمانين بيتاً، يمكن تقسيمها إلى أقسام متفاوتة الطول. القسم الأول: كان وصف الأطلال كالأبيات الواردة الذكر،وهي ستة، نشاهد فيها الوقوف على الديار، وسرد لمنازل الديار، ووصفه لآثارها.

وفي القسم الثاني: وهو أطولها نشاهد فيه الغزل الصريح ووصف لمحاسن المرأة[3] ويضم هذا القسم سبعة وثلاثين بيتاً. في هذا القسم يدل الشاعر بأسماء محبوباته. فمنهن من داعب ولاعب، ومنهن من عاطينه خمر الوصال، ومنهن من أعرض عنهنّ، ومنهن من عاتبنه. وفي هذا القسم نرى الوصف الحسي للمرأة.

في القسم الثالث: يشكو الشاعر همه، ويصف ليله الطويل والثقيل ونجومه الثوابت. وفي القسم الرابع: يفتخر باحتماله المخاطر. وفي الخامس: وصف دقيق للفرس، وفي القسم الأخير: وصف لبقر الوحش، والعودة من رحلة الصيد، وإعداد الطهاة للطعام، وغير ذلك كوصف الطبيعة.

الغزل في الإسلام: عندما جاء الإسلام، جاء لقلب الواقع بما يخدم الإنسانية، في

---

[1] نصر الدين فارس ـ الوصف عند امرىء القيس ـ طبع سوريا ١٩٨٨ ـ ص٦٨.

[2] ديوان امرىء القيس ـ تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ـ ص٨ وما بعدها.

[3] أحمد محمد الحوفي ـ الغزل في العصر الجاهلي ـ ص٣٥.

مختلف مجالاتها. وكلنا يعلم تصوير الشعر في الجاهلية، فجاء القرآن الكريم والحديث أبلغ وأفضل وأعمق في النفس. فالإسلام لم يهمل الحياة العاطفية، وإنما عمل على جعلها قوة دافعة للخير والصلاح العام، وعمل الإسلام على تحويل اتجاه الحب من خارج النفس إلى داخلها. لذلك نلاحظ أن الشاعر الغزلي أخذ يتحدث عن عاطفته، بأقوى مما كان عليه حديث الشاعر الجاهلي. وربط الإسلام بين الحب والعفة، وقدّر الحب، وأجله،كما عمل على تنوع المحبة، وشعّب طرقها.

والشعر في صدر الإسلام لم يلقَ من الازدهار مثل الذي كان له في الجاهلية، إنما أصابه شيء من الفتور. لأن الإسلام لقي في البداية مقاومة من الشعراء والزعماء التقليديين، من قريش وغيرها. ومهما يكن فشعر صدر الإسلام تعبير،كما يقول الدكتور شكري فيصل عن: (النهاية الضعيفة الذابلة المنحرفة، للشعر الجاهلي، وهو يمثل عقابيل المعركة بين الحياة الإسلامية وبين الحياة الجاهلية. فأما الشعراء الذين أسلموا فقد وجدوا في القرآن الكريم أو في غيره تعويضاً عن حياتهم الفنية الأولى. وأما الشعراء الذين ظلوا يقولون الشعر، فقد كانوا يحاولون الصحوة من أثر الدهشة، التي جابهتهم بها إعجاز القرآن الكريم، كما كانوا يحاولون التكيف مع هذه الحياة الجديدة، والانسياق في مفاهيمها. ولهذا نرى في شعرهم هذا التراكيب من القيم الجاهلية والإسلامية على السواء)[1]. ومع ذلك استمر الشعر قوياً وعلى وتيرة مشابهة، ويكفي أن نذكر من أسماء الشعراء حسان بن ثابت، الحطيئة، كعباً بن زهير، وحميداً بن ثور، ومعناً بن أوس، وعبد الله بن الزبعري، وعبد الله بن رواحة، وكعباً بن مالك، وغيرهم. وما يهمنا هنا البحث عن الغزل في هذه المرحلة.

عند دراستنا للغزل ـ في صدر الإسلام ـ نلاحظ وجود نوعين من الشعراء: الأول: هم الشعراء الذين أسلموا إلا أن نفوسهم لم تصف من أثر الجاهلية وآثارها. لذلك بقوا على ميلهم إلى الشراب، وضعفهم أمام النساء، وإسراف فريق منهم في هذه الأمور.

ومع ذلك لم يكن شعراء هذه الطائفة متساوين. فقد تاب بعضهم فيما بعد كأبي محجن الثقفي، ولجأ بعضهم إلى التخفي في الأسلوب مثل حميد بن ثور، وفي الوقت نفسه، استمر بعضهم

---

[1] شكري فيصل ـ تطور الغزل بين الجاهلية والإسلام ـ ص٢٢٨.

على ما كان عليه في الجاهلية، مثل سحيم عبد بن الحسحاس، الذي أدى استمراره على منهجه السابق إلى قتله.

فأبو محجن الثقفي شاعر مخضرم، أدرك الجاهلية والإسلام، وعاش حتى العصر الأموي، وصف بأنه شاعر فارس شجاع معروف، من أولي البأس والنجدة، كان من المعاقرين للخمر المعدودين في شربها، أقام الخليفة عمر بن الخطاب الحد عليه مراراً على إغراقه في شرب الخمر، وهو لا ينتهي، وقصته في حرب القادسية واضحة[1]، وعبر عن استسلامه للخمرة بقوله: (ولست عن الصهباء يوماً بصابر)، أما حميد بن ثور الهلالي فيذكر: أن الخليفة عمر بن الخطاب، كان قد تقدم إلى الشعراء ألا يشبب أحد بامرأة إلا جُلد. فلجأ إلى التخفي في الأسلوب، ولم يتغير بالنهي عن شرب الخمر والتشبب بالنساء. من قوله[2]:

نأت أمُّ عَمرٍو، فالفُؤادُ مشُوّقُ ... يَحِنُّ إليها والهاً، ويَتُوقُ

أما الشاعر[3] سحيم، فهو مخضرم، أدرك الإسلام، وصف بأنه كان حلو الشعر رقيق الحواس، كان يتشبب بنساء مواليه، وكانت له مجالس مع نسوة من بني صبير بن يربوع، وشعره أكثره غزل، يذكر: أنه أحرق في أخدود نظراً لكثرة غزله في النساء.

الطائفة الثانية: هم الشعراء الذين اندمجوا في الحياة الإسلامية الجديدة، وآمنوا بمثلها، والتزموا حدودها من هؤلاء كعب بن زهير وحسان بن ثابت. إن انصراف هذه الطائفة من الشعراء عن الخمر أدى إلى ذبول الشعر الغزلي، والاقتصار فيه على العذرية التي تقرها الحياة الإسلامية، فالغزل عندهم لا يجاوز، أو لا يكاد وصف الأطلال أو ذكر الخيال، أو الحديث عن مواعيد، لا وفاء لها، ولا سبيل إلى لقاء.

لقد وقف الإسلام من الزنى والخمر موقف التحريم والعقوبة، ووقف الخلفاء موقف النهي والعقوبة من التشبّب بالنساء والتعرض لهن، وكان شعراء هذه الطائفة يلحون في شعرهم على الطهارة. من ذلك حديث كعب بن زهير عن مواعيد باطلة مضللة، يذكره بشعره[4]:

---

[1] الأصفهاني - الأغاني - ج١٩ ص ٦ وما بعدها.

[2] المرجع نفسه - ج٤ - ص٣٥٠.

[3] المرجع نفسه - ج٢٢ - ص٣٠٥.

[4] المرجع نفسه - ص٩٤ - ديوان كعب بن زهير - طبع دار صادر - ص٨٣.

كـانتْ مواعيـدُ عُرقُـوبٍ لهـا مَثَـلاً   ومـا مَواعيدُهـا إلاّ الأبـاطيلُ

ومهما يكن، فقد تغزل الشعراء في صدر الإسلام، وعلى رأسهم حسان بن ثابت من ذلك قوله[1]:

عَرَفْـتَ ديـارَ زَينَـبَ بـالكَثِيبِ   كَخَـطِّ الوَحْـيِ في الـرَّقِّ القَشِـيبِ

وتحدث حسان في قصائد أخرى عن مكـائد صاحبته، وذكـر لواعـج الحب. إلا أن تعرضـه لصاحبته كان عفيفاً، لم يجاوز امتداح إشراق وجهها ونعومة ملمسها.

انقسم شعر الغزل في العصر الأموي إلى الأقسام التالية: **أولاً ـ غزل عذري:** تفاعل مع الحياة الاجتماعية والدينية وتلاءم معها، وكان تعبيراً عن الوضع الاجتماعي لطائفة مـن العـرب المسـلمين. إذاً شعراء الغزل العذري ذهبوا مذهب التقى، وآثروا السلامة والعافيـة علـى المخـاطرة، ورأت هـذه الطائفة الالتزام بما أمر الله به وأن تعدل شهواتها، فكـانت مثـلاً واضحـاً للتربيـة العربيـة الجديـدة في تعاليمها ومفاهيمها.

ومن الصعب تحديد ولادة هذا الفن، لكنه وجد مجـالاً في العصـر الأمـوي، أكثر تطـوراً مـن المراحل التي سبقته، وساعد على تطور هذا الفن عامل الاستقرار من جهة، والتربية الجديدة للمجتمع العربي الجديد من جهة ثانية، وامتاز هذا الفن بصفات، كـان أولهـا: العفـة، كمـا امتـاز بالديمومـة، ويمتاز بالحرارة الملتهبة. ومن أشهر شعراء الحب العذري: **جميل بن معمـر**[2]، الـذي يعتـبر علمـاً مـن أعلام شعر الغزل، ينتمي جميل إلى قبيلة عذرة النازلة في وادي القرى[3].

وجميل شاعر فصيح جامع للشعر والرواية، كان راوية هدبة بن خشـرم، وكـان هدبـة شـاعراً راوية للحطيئة، وكان الحطيئة شاعراً، وراوية لزهير وابنه. كان جميل يهوى بثينة بنت حباً بنت ثعلبة ابن الهوذ بن عمر بن الأحب بن حن بن ربيعة (تلتقـي هـي وجميـل في حـي مـن ربيعـة) في النسـب وشعره في بثينة أبرز الجوانب، التي حفظها لنا التاريخ الأدبي عنه. وتتلخص قصة جميل بالتقائه ببثينـة

---

[1] الأصفهاني ـ الأغاني ـ ج٢٢ ـ ص ـ ديوان حسان بن ثابت ـ طبع دار صادر ـ ص١٢.

[2] المرجع نفسه ـ ج٨ ـ ص ٩٥.

[3] ياقوت الحموي ـ معجم البلدان ـ ج٥ ـ ص٣٤٥ ـ وادي القرى: واد بين المدينة والشام من أعمال المدينة كثر القرى.

وحبه لها، واستحكام الحب في نفسه، وطلبه الزواج منها، فلم يوفق، ويتزوجها غيره، فكان لزواجها أكبر الأثر في تفجر مشاعره، التي أبدعت ألواناً من الشعر الغزلي. فبعد زواجها أضحت حياته يأساً لا أمل فيه، وأخذ يعاني حرارة الحب الذي لا فائدة منه، وزواجها لم يثنه عن حبها بل على العكس اندفع يندب حظه ويعاتب محبوبته. ولم يكن هذا كل ما عاناه جميل من حبه، إنما استحكمت العداوة أسرتيهما، ثم تجاوزت ذلك إلى الشكوى إلى الحاكم، الذي أهدر دمه.

أخيراً اتصف شعر جميل بمجموعة من الصفات منها: اليأس، والشكوى من كثرة الواشين، والشوق المكتم والقناعة، والنجوى، والضراعة، وغير ذلك. أما طابع شعره، فقد امتاز بمعان ذات صفات فطرية، مع بساطة وسذاجة، كما امتاز شعره بالصدق، ووحدة الغرض، ووحدة الاتجاه، وكما امتاز أسلوبه: بأنه مباشر، يتجه إلى الهدف دون غيره، وسيطرت عليه العفة الممتزجة باليأس، ويتجلى ذلك في شعره.

عمر بن أبي ربيعة: هو عمر بن عبد الله بن أبي ربيعة، واسم أبي ربيعة: حذيفة بن المغيرة ابن عبد الله بن عمر بن مخزوم بن يقظة بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر، ويكنى عمر ابن أبي ربيعة (أبا الخطاب)، وكان أبو ربيعة جده يسمى: ذا الرمحين،وسمي بذلك لطوله. كان يقال: كأنه يمشي على رمحين، وقيل: إنه قاتل يوم عكاظ برمحين. لذلك لقب: بذي الرمحين، وكان اسم عبد الله بن أبي ربيعة في الجاهلية بحيراً، فسماه رسول الله (ص) عبد الله. وكانت قريش تلقبه (العدل)، لأن قريشاً كانت تكسو الكعبة بأجمعها من أموالها سنة، ويكسوها هو من ماله سنة، فأرادوا بذلك: أنه وحده عدل لهم جميعاً في ذلك، وفيه يقول ابن الزبعري[1]:

بَحيرُ بنُ ذي الرُّمحين قرَّب مجلسي وراح عليَّ خيرُه غيرَ عاتِمِ

وكان عبد الله بن أبي ربيعة تاجراًموسراً، وكان متجره إلى اليمن، وكان من أكثرهم مالاً وضرب بعزه المثل. استعمل رسول الله (ص) عبد الله بن أبي ربيعة على الجند ومخاليفها، فلم يزل عاملاً عليها، حتى قتل عمر بن الخطاب، رضي الله عنه. وروي: أن عثمان بن عفان ـ رضي الله عنه ـ استعمله أيضاً عليها.

---

[1] الأصفهاني ـ الأغاني ـ ج١ ـ ص٧٣.

ولد عمر بن أبي ربيعة ليلة قتل عمر بن الخطاب، رضي الله عنه. فأي حق رفع؟ وأي باطل وضع؟ قال عوانة: ومات، وقد قارب السبعين، أو جاوزها، كان لعمر بن أبي ربيعة ابن صالح، يقال له: (جوان) استعمل بعض ولاة مكة جوان هذا على ثيالة (بلدة من أرض تهامة)، وكان لعمر ابن أبي ربيعة أيضاً بنت يقال لها: (أمة الواحد).

كان عمر بن أبي ربيعة يقول: (لقد كنتُ، وأنا شابٌ أعشَق، ولا أعشَق، فاليوم صرت إلى مُدَاراةِ الحِسانِ إلى المَمَات. ولقد لَقِيتَني فتاتان مرّةً، فقالت لي إحداهما: ادْنُ منيِّ، يابن أبي ربيعة، أُسرَّ إليك شيئاً، فدنوتُ منها، ودَنَتِ الأخرى، فجعلتْ تَعَضُّني، فما شعرتُ بِعَضٍّ هذه من لَذّة سِرار هذه)[1].

أشرف عمر بن أبي ربيعة على جبل أبي قبيس، وبنو أخيه معه، وهم محرمون، فقال لبعضهم: خذ بيدي، فأخذ بيده، وقال: ورب هذه البَنِيَّة! ما قلت لامرأة قط شيئاً، لم تقله لي، وما كشفت ثوباً عن حرام قط، ولما مرض عمر مرضه الذي مات فيه، جزع أخوه الحارث جزعاً شديداً. فقال له عمر: احسبك إنما تجزع لما تَظُنُّه بي، والله! ما أعلم أني ركبت فاحشة قط، فقال:ما كنت أشفق عليك إلا من ذلك، وقد سَلَّيْتَ عني، عاش عمر بن أبي ربيعة ثمانين سنة، فتك منها أربعين سنة، ونسك أربعين سنة.

خصائص شعر عمر ومميزاته: ما ذكره الأصفهاني في كتابه الأغاني: (راق عمر بن أبي ربيعة الناس، وفاق نظراءه، وبرعهم بسهولة الشعر، وشدة الأسر، وحسن الوصف، ودقة المعنى وصواب المصدر، والقصد للحاجة واستنطاق الربع، وإنطاق القلب، وحسن العزاء، ومخاطبة النساء وعِفةُ المقال، وقلّة الانتقال، وإثبات الحجَّة، وبترجيع الشك في موضع اليقين، وطِلاوةِ الاعتذار، وفَتْح الغزَل، ونَهْج العِلَل، وعَطْف المسَاءَةِ على العُذّال، وأحْسَنَ التفجُّع، وبَخّل المنازلَ، واختصر الخبر، وصَدَق الصفّاء، إن قَدَح أروى، وإن اعتذر أبرأ، وإن تشكىً أشجَى، وأقدمَ عن خبره، ولم يتعذر بغرَّه، وأسر النوم، وغَمَّ الطَّير وأغذ السير، وحيَّر ماءَ الشباب، وسهَّل وقوَّل وقاس الهوى فأربى، وعَصَى وأخلى، وحالف بسمعه وطرفه، وأبرم نعت الرسل، وحذّر، وأعلن الحبَّ، وأسَرَّ، وبطن به وأظهر، وألحَّ وأسفَّ، وأنكح النوم، وجنى الحديث، وضرب ظهره لبطنه، وأذلَّ صعبه،

---

[1] الأصفهاني - الأغاني - ج١ - ص٨٥.

وقنِع بالرَّجاء من الوفاء، وأعْلَى قاتله، واستبكى عَاذِله، ونفَّض النوم، وأغلق رَهْن مِنىً وأهْدرَ قَتْلاه، وكان بعد هذا كله فصيحاً"[1].

رابعاً - الهجـاء:

قسم الهجاء إلى: هجاء شخصي، وهجاء أخلاقي، وهجاء سياسي. فالشخصي يعتمد على مهاجمة الأفراد، وهو أقدم أنواع الشعر الهجائي. وهو متأثر في معظم الأحيان بالأهواء الشخصية، وهو بعيد عن العدل والإنصاف. ولكي يكون الهجاء الشخصي ناجحاً، فمن واجب الشاعر إخفاء حقده نحو غيره. أما الهجاء الأخلاقي: فموضوعه الجرائم الأخلاقية أو الدينية، والمفاسد الاجتماعية والعادات القبيحة والعيوب الإنسانية، وأما الهجاء السياسي: فهو مهاجمة كل ما يتعارض مع الانتماء السياسي. وهناك الهجاء الديني: كالذي كان يحدث في بداية الإسلام بين الشعراء المسلمين وشعراء قريش. وهناك هجاء قبلي: وهو كالهجاء السياسي، وكان سائداً عند العرب قبل الإسلام.

والهجاء: نقد للحياة، يأخذ مادته من الواقع. لذلك نلاحظ أن أبرز ميزاته الواقعية التي تقوم على: دقة الملاحظة، والبعد عن الإسراف. لأن الإسراف في الصناعة الشعرية، والتعمق في الخيال، والتكلف في الجزالة، يضعف الهجاء. وأحياناً كثيرة يفقده قيمته. إذن الهجاء يجب أن يعتمد الوضوح، ودقة الملاحظة، والواقعية. وبذلك يحصل الشاعر على الصورة اللاذعة، التي تؤذي خصمه، وتجعله أضحوكة بين الناس. واعتماد الهجاء على قيم الحياة، يجعله عرضة لأن يفقد قيمته، بتغير الزمن، واختلاف ظروفه. إذن الهجاء الشخصي كلما كان بعيداً عن العاطفة الإنسانية، كلما كان استمراره أفضل. وخاصة ما غلبت عليه روح الدعابة. والدعابة ـ كما هو معلوم ـ شيء موهوب أكثر منها مكتسب. ومن مظاهر الدعابة وصورها التلميح إلى المعنى، والإشارة إليه في رفق، يكشف عن المقصود دون التصريح به، وبذلك تظهر موهبة الشاعر، وقدرته في علاج موضوعاته، وبراعته في الربط بين الصور.

وكان فن الهجاء أكثر الفنون الشعرية ارتباطاً بالسحر في أوهام العرب. وذلك لأن الخفاء والغموض اللذين لازما فن الشعر، كانا أليق بالشر، وأدنى أن يبعثا الرهبة والخوف

---

[1] الأصفهاني - الأغاني - ج١ - ص١٣٠.

في قلوب الناس. فقد زعم: أن لكل شاعر شيطاناً، يسمى: تابعاً أو هاجساً وقيل: إن الشاعر، إذا هجا، ربما خرج على الناس بزي غريب غير مألوف، كان يعمل على مسخ وتشويه صورته، أو يلوث شاربيه وعنقفته بالحناء دون سائر لحيته، أو كان يدهن أحد شقي رأسه، ويرخي إزاره، أو ينتعل حذاء دون آخر. ومن ذلك كان العرب شديدي الخوف من الهجاء.

واحتل الشعراء في قبائلهم مكاناً ممتازاً، حيث كان الشعراء جزءاً مهماً من النظام القبلي، يمجدون مظاهر القبيلة، ويتغنون ببطولاتها ومآثرها في السلم والحرب، ويصورون آمالها ومطامعها، وما بينها وبين جيرانها من خلاف أو عداء، وقد عظم أمر بعض الشعراء في قومهم، حتى أصبحوا أسياد القبيلة وفرسانها. والشعراء الذين سادوا في قبائلهم كثر، منهم زهير بن أبي سلمى، وعمر بن الأهتم السعدي المنقري، وعبد يغوث بن وقاص الحارثي، وأبو قيس بن الأسلت الأنصاري، الذي أسندت الأوس أمرها إليه، وجعلته رئيساً عليها، وسنان بن حارثة المري، وعنترة بن شداد، وغيرهم، ولا داعي لذكرهم.

وكان شعر هؤلاء الشعراء محدوداً في نطاق القبيلة، وما يتصل بها، يقول ابن رشيق: (وكانت القبيلة من العرب، إذا نبغ فيها شاعر، أتت القبائل فهنأتها وصنعت الأطعمة، واجتمع النساء يلعبن بالمزاهر، كما يصنعون بالأعراس ويتباشر الرجال والولدان، لأنه حماية لأعراضهم، وذبٌّ عن أحسابهم، وتخليد لمآثرهم، وإشادة بذكرهم، وكانوا لا يهنئون إلا بغلام يولد، أو شاعر ينبغ فيهم، أو فرس تنتج)[1].

وكانت مهمة الشاعر من هؤلاء هي: الدفاع عن القبيلة، حيث كان الشاعر يشارك القبيلة حروبها، فيبث في نفوس المحاربين الحماسة والحمية. ولذلك نلاحظ غلبة الشعر الحماسي على شعرهم. إذن كان الشاعر يتغنى بقوة القبيلة، ويشيد بمجدها وعزها ومكانته منها، حيث يختلط الهجاء بالحماسة في الشعر الجاهلي، وكان الشعر مزيجاً من الغناء والقصص. منه ما كان ذاتياً خالصاً، ومنه ما كان موضوعياً خالصاً، ومنه ما كان ذاتياً وموضوعياً، واعتمد الشعر الهجائي منه والحماسي على العصبية والقيم الخلقية والاجتماعية: كالكرم والصدق والجود والوفاء والحلم، وغير

---

[1] ابن رشيق ـ العمدة ـ ج١ ـ ص٣٧.

ذلك.

من أقدم صور الهجاء عنـد العـرب فـن المنـافرات. والمنـافرة المحاكـة أو هـي الصـورة البدائيـة الساذجة لفن الهجاء والجانب الهجائي فيها يعتمد على المثالب الشخصية، ويـدور حـول الفـرد، ولا يرتقي إلى الحياة في أفقها الواسع، ودائرتهـا الكبـيرة، وعرفـت بأنهـا سـاذجة، لأنهـا لا تسـمو مـن ناحيتها الأدبية إلى الخلق والإبداع، إنما تعتمد تقدير الواقع في صياغة منمقة. ورغم عنصـر الارتجـال فيها، فهي لا تسمو إلى مرتبة الفن الرفيع، وتعتمد على حضور البديهة، وسرعة الـرد، وانتهـاز كـل فرصة.

ويحكم في مثل هذه المنافرات البعض من سادة العرب، يسمونهم: الحكام. وكان لكل قبيلـة حاكم، يرجعون إليه بالسـلم والحـرب. وكـان المتنـافرون يلجـؤون في بعـض الأحيـان إلى الكهـان، كمنافرة هاشم وعبد شمس، ومن أمثلة المنافرة ما حدث بين رجلين من قبيلة واحدة، تنازعا الشـرف والرئاسة. هما: عامر بن الطفيل، وعلقمة بن علاثة[1] وكلاهما من كلاب بـن عـامر بـن صعصعـة. ومن الأمثلة الأخرى، ما حدث من منافرة بين قبيلتين متمثلتين في رجلين من سادتهما، همـا: جريـر ابن عبد الله البجلي وخالد بن أرطأة الكلبي..

وعـرف العـرب **الهجـاء الشـخصي**، وموضوعـه كـان المنازعـات الفرديـة والخلافـات، وبلغ الشعراء فيه درجـة ممتـازة، لكـن يلاحـظ أن هـذا الفـن كـان متخلفاً عنـد الجـاهليين.

ومهما يكن، فالهجاء الشـخصي كان معركة بين شاعرين، ترى في شعرهما كل ألوان العنف والاستعلاء على الخصم، وفيه السباب، وفيه التعيير والتهديد، وتـرى في بعضـه الآخـر المتعـة الفنيـة. وكان بعض هذا الهجاء يتصل بالقبائل، فيكون الهجاء في ظاهره موجهاً لشـخص، وهـو في حقيقتـه موجه للقبيلة ممثلة في هذا الفرد، الذي هو زعيمها أو شاعرها.

والهجاء الشخصي كان قليل الخطر من الناحية الفنية، حيث نبغ فيه شاعر كبير، هو الحطيئـة، حيث ارتفعت قيمته، وعظم خطره، فالحطيئة احترف الهجاء، كما المدح، وأصبح الهجـاء على يديـه صناعة، يقف عليها الشاعر جهده. والحطيئة ـ كما هو معروف ـ كـان قـد خـرج إلى الدنيـا يحمـل

---

[1] ثعلب ـ شرح ديوان الأعشى ـ ط ص ١٦٥ ـ بلوغ الأدب ـ ج١ ـ ص ٢٨٧-٣٠١.

أوزاراً لا يد له فيها، منها: أنه قبيح الوجه، وشكله رث قميء، ونسبه مغمور. لذلك تراه كارهاً للدنيا، ناقماً على كل من فيها، على أمه وأبيه، ناقماً على الظروف التي جمعت فيه قبح المنظر ودمامة الخلق. وكان لئيماً كثير الشر، انصرف منذ نشأته إلى الشعر والهجاء، واتخذه تجارة ومعاشاً. ومن المعلوم أن الخليفة الراشدي الثاني كان قد منعه من الهجاء، بعد أن سجنه في هجاء الزبرقان، ومع ذلك عظم شر الحطيئة، وذهب صيته في الهجاء،حتى اتقاه الشعراء،وصنف بأنه كان ملحداً بطبعه، وكان منافقاً يظهر الخضوع، إذا لم يكن منه بد، وكان بشعره يحمل بعض آثار المنافرة.

وأتاح الهجاء للحطيئة ذيوعاً وذلك لبراعته في خلق الصور وابتكارها، وقد نبغ في ذلك، وعرف الحطيئة بأنه كان من أكثر الناس توفيقاً لاختيار ألفاظه، التي كان لها مدلول، يوحي بالسخرية والاستخفاف، حتى أنه وصل به الحد، إلى أن يهجو نفسه.

والهجاء السياسي: هو الذي قام على العصبية للقبيلة أو الوطن. فالشاعر يعبر عن جماعة، ويدافع عنها، لأنه واحد منها، ومفهوم العصبية مرن، يتغير بتغير الظروف، وهناك صور شتى لمثل هذا الهجاء في الجاهلية. من ذلك، ما كان يحدث بين القبائل من منازعات ومنافسات إلى هجاء، يصور ما بين هذه القبائل وبين الملوك الذين يحاولون بسط نفوذهم، فيفرضون عليهم الإتاوات، مثل بني آكل المرار، وبني الحارثة بن معاوية، ومثل المناذرة والغساسنة. ومن هذا الشعر ما صحب الدعوة الإسلامية، من قتال وكفاح، في سبيل نشر الدين الجديد.

واعتمد الهجاء السياسي على التاريخ والأنساب. وأجمل ما قيل في ذلك مطولة الحارث بن حلزة، التي أنشدها بين يدي عمرو بن هند، حيث اعتمد الشاعر على التاريخ والنسب. وأفضل وأقوى ما يكون هذا اللون من الهجاء، حين يهاجم الملوك، والدول الكبيرة، التي تحاول بسط سلطانها على من جاورها من القبائل. ومعظم هذا الهجاء في القبائل القريبة من العراق، وهو شعر ثائر، يصور إباء هذه الجماعات لظلم المناذرة، وما يفرضون من إتاوات غير عادلة. والشاعر الأعشى كان أكبر هجاء سياسي جاهلي.

وصف الأعشى بأنه أكبر هجاء سياسي، ظهر في العصر الجاهلي: وقيل عنه: بأنه كان أول من كسب بشعره، إذن ظل الأعشى أولاً وآخراً شاعر السياسة، الذي يعبر عن رأي القبيلة الرسمي، يسجل ما بينها وبين جيرانها من مخالفات، منمياً روابط الود والإخاء، ويؤرخ واقعها مجدداً مجدها

وبطولتها في شعر رائع ويهاجم من تحدثه نفسه النيل منها أو مهاجمتهـا، مصغراً مـن شـأنه، مهـدداً بقوة قومه وقدرتهم. والمطلع على أهاجيه يلاحظ أنها من أعظـم وأشـد الشـعر وقعاً علـى العـدو، وكل أهاجيه متصلة بسياسة القبيلة ومصالحها، ونراه يمدح لكسب، حين لا يتعارض ذلك مع وفائـه لعصبيته. ولكنه يهجو مخلصاً بدافع من العصبية القبلية. ويبلغ الأعشـى قمـة مجـده السياسـي، حيـث يقف مدافعاً عن بكر بل عن وائل جميعاً يوم ذي قار، ونراه يهاجم قبيلة إيـاد الـتي حـالفت الفـرس، ويهاجم كسرى الفرس.

الهجاء الديـني: صـاحب الدعـوة الإسـلامية، واختلـف عـن الهجـاء السياسـي أو القبلـي، في أغراضه وأهدافه، واختلف عنه بروحه وأسلوبه. والهجاء الذي اعتمد الدعوة ظل معتمداً علـى المثـل الجاهلية. وإن الهجاء في القرآن هو وحده الذي يقوم على مثل دينية إسلامية بحتة. فهو يحـاول إقامـة الحجة، ويلزم الخصم الدليل، ويعتمد المنطق والعقل، كما اعتمد التهديد والوعيد، ومن أشهر شعراء هذا النوع في صدر الإسلام حسان بن ثـابت. فحسـان بـن ثـابت[1] خصـه الرسـول (ص) بعطفـه، وبذلك كان شاعر قومه في الإسلام، كما كان شاعرهم في الجاهلية، ويسـتمر في الإسـلام مسـجلاً حروبه في سبيل نصره، وكان شعره في الإسلام ارتجالياً، تقيد فيه بحدود الدين.

عندما اجتمعت أسد وغطفان وطيء على طليحة الأسدي، وقدموا على المدينة، يطلبـون مـن أبي بكر أن يحط عنهم الزكاة، فرفض، فقال الحطيئة[2]:

أَطَعْنـا رَسُـولَ اللهِ إِذْ كـان صَادِقـاً ... فيَا عَجَبَا مـا بـالُ دِيـن أبـي بَكْـرِ؟
أَيورِثُهـا بَكْـراً إذا مَـاتَ بَعـدَهُ؟ ... فتِلْكَ، وَبَيْـتِ اللّـهِ[3] قاصِمـةُ الظهْـرِ
فهـلاَّ رددتم وفدنـا بزمانـه ... وهـلا خشـيتم حـس راغبـة البكـر
وإن الـتي سـألوكم فمنعتُـم ... لكـالتمر أو أحلـى إليَّ مـن التمـر

عندما جاء الإسلام دعا إلى رابطة جديدة. هي رابطة الدين الواحد. وهذا ما لم يبلغـه العـرب آنذاك. وبذلك نشأ جيل جديد في سلوكهم وتفكيرهم، وتكونـت أسـس الدولـة العربيـة، وسـاد

---

[1] أحمد الشايب ـ تاريخ الشعر السياسي ـ طبع مصر ١٩٨٣ ـ ص١٠٥.

[2] ديوان الحطيئة ـ طبع دار صادر ـ ص١٤٣ ـ وذكر الطبري هذه الأبيات في تاريخه.

[3] وفي مكان آخر (وتلك لعمر الله قاصمة الظهر).

الاستقرار الاقتصادي والسياسي والاجتماعي نسبياً في عهد الرسول (ص). لكن انبعثت العصبيات بين القبائل العربية قوية جارفة بعد رسول الله (ص)، محاولة التحرر من كل قيد، والعودة إلى حياتها الأولى. ورأت هذه القبائل أن قريشاً لم تتقدم عليهم إلا بالنبوة، فأوجدوا من بينهم أنبياء. ففي ربيعة كان مسيلمة[1] وفي أسد كان طليحة بن خويلد[2]، ومن تميم سجاح[3]، ومن اليمن الأسود العنسي[4]، ونشأت الفتنة، لكن الخليفة الراشدي أبا بكر استطاع القضاء عليها وبترها. ويعود الاستقرار ويستمر إلى عهد الخليفة عثمان بن عفان.

وفي عهد الخليفة عثمان اضطربت الأمور، وتعقدت، وأفلت زمام المبادرة، وغلت البلاد بالثورة، التي أدت إلى قتل الخليفة عثمان[5]، واستمرت في عهد الإمام علي، وحدثت حروب كحرب موقعة الجمل[6] وحرب صفين[7]، واستمرت الحرب، حتى قتل الإمام علي[8]. وكره ابنه الحسن الاستمرار في المنازعات، وتسلم معاوية السلطة. فظهر بنتيجة ما ورد نوع جديد من العصبية الإقليمية، ففي الشام كان حزب لمعاوية، وفي العراق حزب لعلي، وفي الحجاز موطن المعارضة، يقودهم طلحة والزبير وعبد الله بن عمر، وعائشة، كل ذلك أدى إلى نشوء أحزاب، هي: حزب الشيعة، وحزب الخوارج، وحزب الأمويين، ثم حزب الزبيريين.

كان معاوية رجل حزم وسياسة، ورجل إدارة، استطاع أن ينشيء قواعد للحكم، وأوجد نظماً وقوانين مسايرة للتوسع الجديد، وكوّن للأمويين حزباً في الشام، وكان معاوية داهية عارفاً بالرجال، يحسن اختيار بطانته، ويعرف أين يضع ثقته،ووصف بأنه كان سياسياً محكناً، يحسن تقدير الظروف. كل ذلك ساعده على توطيد أركان دولته واستقرارها، فعمل على إيجاد حزب سياسي،

---

[1] الطبري - تاريخه - ج٢ - ص١٩٩ وما بعدها.

[2] المرجع نفسه - ج٢ - ص٢٠٤ وما بعدها.

[3] المرجع نفسه - ج٢ - ص٢٦٨ وما بعدها.

[4] المرجع نفسه - ج٢ - ص٢٠٤ وما بعدها.

[5] المرجع نفسه - ج٢ - ص٦٦١ وما بعدها.

[6] المرجع نفسه - ج٣ - ص٤٠.

[7] المرجع نفسه - ج٣ - ص٧١.

[8] المرجع نفسه - ج٣ - ص١٥٥.

قوامه الشعراء، وأحسن اختيار ولاته، وأطلق يدهم في الأقاليم، وأوجد نظام البريد[1] وديوان الخاتم[2]، واتخذ الحجاب والحرس[3]، وغير ذلك. لكن بعد وفاته ثارت الفتنة من جديد واستمرت، وخاصة بعد وفاة ابنه يزيد، واستلام ابنه معاوية الثاني، الذي ذكر: أنه رفض الخلافة، ففي هذه المرحلة ازدادت الفوضى، وكثر المطالبون بالملك والخارجون على الدولة كالزبيريين والخوارج.

لكن الحزب الأموي استطاع الاستمرار بالسلطة بالقوة، واستقرت لهم الخلافة على نظام الوراثة من جديد. لكن العصبية الجاهلية القديمة ظهرت، ولكن بصورة حزبية أكثر تهذيباً. فمثلاً اليمنية (قبيلة كلب) أقروا بالنظام الأموي[4]. أما أصحاب ابن الزبير[5]، فكانوا متمسكين بالنظام القديم، الذي يقوم على مبدأ الانتخاب والشورى. إلا أن حق الخلافة عندهم يجب أن يكون قريشياً. وأما حزب الشيعة[6] فكانوا يرون أن الخلافة أو الإمامة هي شيء مقدس، تكتسب. لكنها تورث ولذلك كانوا يرون أن سلالة النبي (ص) من فاطمة الزهراء، هم أصحاب الحق الشرعي في ذلك. وأما الخوارج[7]، فكانوا يمثلون التطرف في المساواة ويرون أن الخلافة ليست حصراً لقريش، ولا حتى للعرب وحدهم. إنما كانوا يرون: أنها حق لأي كان، بشرط أن يكون عالماً بالكتاب والسنة، عاملاً بهما، والخلافة ليست حقاً مدى الحياة، وليس لهم حق التوريث.

إذن كان للعصبية الجاهلية أثر واضح في تكوين الأحزاب[8] الواردة. فمثلاً حروب العراق والشام في العصر الأموي، هي امتداد للنزاع القديم بين الغساسنة والمناذرة من جهة، وبين النزارية والقحطانية من جهة أخرى. من ذلك أن جند معاوية كانوا يمنيين[9]، وهم أهل الشام. في الوقت

---

[1] ابن الطقطقي ـ محمد بن علي بن طباطبا ـ الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية ـ طبع بيروت ـ دار صادر١٩٦٦ ـ ص١٩.

[2] المرجع نفسه ـ الفخري في الآداب السلطانية ـ ص .

[3] عبد المنعم ماجد ـ التاريخ السياسي للدولة العربية (عصر الخلفاء الأمويين) طبع مصر ١٩٨٢ ـ ص٢٢.

[4] أحمد الشايب ـ تاريخ الشعر السياسي ـ طبع مصر ١٩٨٣ ـ ص١٦٦.

[5] عبد الحسيب طه حميدة ـ آداب الشيعة إلى نهاية القرن الثاني الهجري ـ طبع مصر ١٩٦٨ ـ ص٧٣.

[6] أحمد الشايب ـ تاريخ الشعر السياسي ـ ص٢٢٢.

[7] المرجع نفسه ـ تاريخ الشعر السياسي ـ ص٢٠٠.

[8] محمد عبد المنعم خفاجي ـ الأدب العربي وتاريخه في العصرين الأموي والعباسي ـص٩.

[9] المرجع نفسه ـ ص١٠.

نفسه كان أهل العراق، ومعظمهم نزاريون، هم حزب المعارضة. واستمرت العصبية، وظل الأمويون على كراهيتهم للقيسين وأهل العراق.

وكان للحزب الأموي تأثير على السلطة منذ بدايتها، ففي عهد معاوية وابنه يزيد كانوا يملون شروطهم على السلطة. كإعطائهم لألفي رجل منهم مبلغ ألفين ألفين، وإن مات رجل منهم حل مكانه آخر شديد القرابة منه، وكانوا أصحاب نهي وأمر لهم صدر المجلس. واستمر هذا الأمر إلى عهد المروانيين وبقي الأمويون وأنصارهم على بغضهم وكرههم للأنصار، إلا أنهم نتيجة سبقهم في الإسلام، كانوا يدارونهم لكسب ودهم.

إذن وجدت في العصر الأموي معارضة شديدة قوية وفعالة، فكانت الحكومة الأموية تتعامل مع هذه المعارضة باللين أحياناً، وبالشدة أحياناً أخرى. أي أنها كانت حريصة على إرضائها، إذن وجدت إلى ذلك سبيلاً في الوقت نفسه، فكانت الشدة سلاح الحكومة، لا بد منها. وموطن المعارضة، كما ذكرنا، كان العراق، وظلت المعارضة طوال فترة الحكم الأموي، حتى انتقلت العاصمة إلى العراق. وبذلك كانت نهاية الدولة الأموية.

والهجاء السياسي[1] من أظهر فنون الشعر الأموي، وكان شعر نهضة وانقلاب، فجمع الأمويون ضمن حربهم أكبر عدد ممكن من الشعراء، وأغدقوا عليهم الأموال، فكان لبعضهم مكانة ممتازة في الحياة السياسية، ولهم دور فعال في توجيه الرأي العام. وما أشبه دورهم بدور الإعلام في الوقت الحاضر. إذن اعتمد رجال الدولة الأموية على الشعراء في إعداد الناس لمشاريعهم، كما فعل معاوية، عندما عزم على مبايعة ابنه يزيد، حيث أوعز إلى الشاعر مسكين الدارمي التمهيد لذلك.

عندما أراد معاوية البيعة ليزيد، تهيب ذلك، وخاف (ألا يمالئه عليه الناس لحسن البقية فيهم، وكثرة من يرشح للخلافة، وبلغه ذلك، وكرهه كل من سعيد بن العاص ومروان بن الحكم وعبد الله بن عامر، فأمر يزيد مسكيناً: أن يقول أبياتاً، وينشدها معاوية في مجلسه، إذا كان حافلاً، وحضره وجوه بني أمية. فلما اتفق ذلك، دخل مسكين إليه، وهو جالس، وابنه يزيد عن يمينه، وبنو أمية حواليه، وأشراف الناس في مجلسه، فمثل بين يديه، وأنشأ يقول[2]:

[1] محمد محمد حسين - الهجاء والهجاءون في صدر الإسلام - ص٢١.

[2] الأصفهاني - الأغاني - ج٢٠ ص٢٢٧-٢٢٨.

ألا ليت شعري ما يقول ابن عامر ومروانُ أم ماذا يقول سعيد؟
بَني خلفاءِ الله! مهلاً فإنما يبوِّئها الرحمنُ حيث يريد
إذا المِنبر الغربيّ خلاّه ربه فإن أميرَ المؤمنين يزيد

فقال معاوية: ننظر فيما قلت، يا مسكين، ونستخير الله. قال: ولم يتكلم أحد من بني أمية في ذلك إلا بالإقرار والموافقة. وذلك الذي أراده يزيد، ليعلم ما عندهم، ثم وصله يزيد، ووصله معاوية، فاجزلا صلته.

وعمل الأمويون على تحريض الشعراء على مواجهة معارضيهم، وهجائهم في المحافل والمجامع، كما فعل عبد الملك بن مروان، وهو في الحج، حيث جلس للناس بمكة، فدخلوا عليه، وقامت الشعراء والخطباء، فتكلموا، ودخل أبو العباس الأعمى. فلما رآه عبد الملك، قال مرحباً بك، يا أبا العباس، أخبرني بخبر الملحد. فأخبره بخبر ابن الزبير، وكيف كسا بني أسد وأحلافها، ولم يكسه، وأنشده الأبيات، التي هجا فيها ابن الزبير، فقال عبد الملك بن مروان: أقسم على كل من حضرني من بني أمية وأحلافهم ومواليهم، ثم على كل من حضرني من أوليائي وشيعتي على دعوتهم، إلا كسا أبا العباس، فخلعت والله حلل الوشي والخز والقوهي، وجعلت ترمى عليه، حتى إذا غطته نهض، فجلس فوق ما اجتمع منها، وأمر له عبد الملك بمئة ألف درهم.

عندما غلب عبد الله بن الزبير على الحجار، جعل يتتبع شيعة بني مروان، فينفيهم عن المدينة ومكة، ثم بلغه أن أبا العباس الأعمى الشاعر كان يكاتب بني مروان بعوراته، ويمدح عبد الملك، وتصله جوائزه وصلاته، فدعاه عبد الله بن الزبير، وهمّ بقتله، ثم عفا عنه، ونفاه إلى الطائف، فأنشا يهجوه، ويهجو آل الزبير[1]:

بني أسد لا تذكروا الفخرَ إنكم متى تذكروه تُكذَبوا وتُحمَّقوا
متى تُسألوا فضلاً تَضنّوا وتبخلوا ونيرانكم بالشر فيها تَحَرُّقُ
تجيئون خلف القوم سوداً وجوهكم إذا ما قريش للأضاميم أصفقوا
وما ذاك إلا أن للّؤم طابَعاً يلوح عليكم واسمه ليس يَخلَق

---

[1] الأصفهاني - الأغاني - ج١٦ - ص١٤٢ - ج٩ - ص٢٠٣.

واستفحل الهجاء السياسي في العصر الأموي، كما كان يحدث مع الشاعرين: سديف مولى بني هاشم والشاعر شبيب مولى بني أمية:

(وسديف شاعر مقل من شعراء الحجاز ومن مخضرمي الدولتين. وكان شديد الغضب لبني هاشم، مظهراً لذلك في أيام بني أمية. فكان يخرج إلى أحجار صفا في ظهر مكة، يقال لها:صفي السباب، ويخرج مولى لبني أمية معه، يقال له: سباب، فيتسابان، ويتشاتمان، ويذكران المثالب والمعايب، ويخرج معهما من سفهاء الفريقين، من يتعصب لهذا ولهذا، فلا يبرحون، حتى تكون بينهم الجراح والشجاج، ويخرج السلطان إليهم، فيفرقهم ويعاقب الجناة. فلم تزل تلك العصبية بمكة، حتى شاعت في العامة والسفلة. فكانوا صنفين، يقال لهما: السديفية والسبابية، طوال أيام بني أمية، ثم انقطع ذلك في أيام بني هاشم، وصارت العصبية بمكة في الحناطين والحرارين)[1].

أخيراً، اختلفت صور الهجاء في العصر الأموي، وتعددت مذاهبه. فبعضهم سار على الأسلوب الجاهلي القائم على العصبية القبلية، وبعضهم الآخر هاجم أصحاب الدعوات والعاملين في سبيل السلطة، وإنكار حقهم في ذلك، وبعضهم الآخر انصب على الولاة مهاجماً سياستهم، وبعضهم الآخر ذهب مذهب الساخط على الزعماء القرشيين. الذين ازداد جشعهم وطمعهم، فكانت الويلات نتيجة ذلك.

فشعر العصبية في روحه وخصائصه في الأصل جاهلي، وبقي جاهلياً بعد الإسلام. فالصراع بين القيسية واليمينة كان شعوراً عميقاً قديماً متأصلاً في صراعهما، وكانا مدفوعين إلى ذلك بالعصبيات الجاهلية.

ومن الهجاء السياسي، الذي ولد في الإسلام - ولم يكن معروفاً في الجاهلية ــ هجاء الإقليم، هذا الهجاء الذي يصور تعلق الناس بأوطانهم الأصلية، وشعورهم برابطة جديدة هي الإقليم الجديد، الذي جمعهم. ومن أمثلة ذلك هجاء أعشى همدان (همدان قبيلة يمنية) لأهل العراق، حيث يصفهم: بأنهم أهل فتنة. وكان (الأعشى) يصف الحجاج بالكذاب، ويتغنى بانتصار همدان على ثقيف، وأمور أخرى كالتحريض الشديد على الحجاج. فلما أسره، سأله: ألستَ القائل[2]؟

---

[1] الأصفهاني - الأغاني - ج - ص١٦٩.

[2] الطبري - تاريخ الرسل والملوك - ج٦ - ص٣٣٧ - الأصفهاني - الأغاني - ج٦ - ص٦٨.

لمّـا سَـفَونا للكَفُـور الفتّـان ... بالسيّد الغِطريـف عبـد الرحمـنْ
سـار يَجمـع كالقَطَـا مـن قَحطـان ... ومـن مَعـدّ قـد أتـى ابـن عَدنَـان
أمكـن ربّـي مـن ثَقِيـف هَمْـدان ... يومـاً إلى الليـل يُسـلّي مـا كـان
إن ثقيفـاً منهـم الكَذّابـان ... كَذّابُهـا المـاضي وكـذابُ ثـان

أو لست القائل[1]؟

يـا بـنَ الأشـجّ قَريـع كِنـ ... ـدَةَ لا أبـالي فيـك عَتَبَـا
أنـت الرئيـسُ ابـنُ الرئيـ ... ـس وأنـت أعلـى النـاس كعبـا
نُبِّئـتُ حَجّـاج بـن يـو ... سـف خـرّ مـنَ زَلَـقٍ فَتنبـا
فـانهضْ فُديـتَ لعلّـه ... يجلـو بـك الرحمـنُ كَرْبَـا

بعد ذلك قال الحجاج للأعشى: (كلا يا عدو الله، بل عبد الرحمن بن الأشعث هوالذي خر من زلق، فتب وحار، وانكب، وما لقي ما أحب، ورفع بها صوته، واربد وجهه، واهتز منكباه. فلم يبق أحد في المجلس، إلا أهمته نفسه، وارتعدت فرائصه، فقال له الأعشى: بل أنا القائل أيها الأمير[2]:

أَبَـى الله إلا أن يُتَمِّـمَ نـورَه ... ويُطفـيءَ نـارَ الفاسـقين فَتُخْمَـدَا

فقال من حضر من أهل الشام: قد أحسن، أيها الأمير، فخل سبيله، فقال: أتظنون أنه أراد المدح؟ لا والله لكنه قال هذا أسفاً لغلبتكم إياه، وأراد به أن يحرض أصحابه، ثم أقبل عليه، فقال له: أظننت يا عدو الله إنك تخدعني بهذا الشعر، تفلت من يدي، حتى تنجو؟ ألست القائل ويحك[3]:

وإذا سـألت: المجـدُ أيـن محلُّـه؟ ... فـالمجدُ بـين محمـد وسـعيدِ
بـين الأغـرّ وبـين قيـس بـاذخٌ ... بَـخْ بَـخ لوالِـده وللمولـودِ

والله لا تبخبخ بعدها أبداً، أو لست القائل[4]:

---

[1] المسعودي ـ مروج الذهب ـ ج٣ ـ ص١٧٤.
[2] محمد محمد حسين ـ الهجاء والهجاءون في صدر الاسلام ـ ص٣٥ ـ الطبري ـ تاريخ الرسل والملوك ـ ج٦ ـ ص٣٧٦.
[3] الأصفهاني ـ الأغاني ـ ج٦ ـ ص٧١.
[4] المرجع نفسه ـ ج٦ ـ ص٧١.

وأصابني قومُ وكنتُ أصيبهم فاليوم أصبر للزمان وأعرف

كذبت والله، ما كنت صبوراً ولا عروفاً، ثم قلت بعده[1]:

وإذا تُصيبك من الحوادث نكبةُ فاصبر فكل غيَابة ستكشّف

أما والله لتكونن نكبة، لا تنشف غيابتها عنك أبداً، يا حرسي اضرب عنقه، فضرب عنقه[2].

وبعض الهجاء السياسي انصب على نظام الحكم والحكام، ونقد سياستهم، واتهامهم بالخروج عن الدين، وبعضه الآخر كان صورة عن الاضطراب والبلبلة، التي أسدت العصر الأموي، حتى فقد الكثير ثقتهم بقادتهم، وارتد بعضهم عن إسلامهم. أما الشيعة فقد غلب الحزن والرثاء على شعرهم لكثرة قتلاهم، وما وقع عليهم من ظلم واضطهاد. وأما عند الخوارج، فقد تمثلت الفدائية والإخلاص للمبدأ في شعرهم. فكان هجاؤهم مختلطاً بالحماسة، وشعرهم صورة صادقة عن جرأتهم النادرة، وتطرفهم الشديد في فهم الدين.

أخيراً إن اختلاط الهجاء السياسي بالهجاء الاجتماعي يكون من أمتع ألوان الشعر السياسي، وأكثره وضوحاً، لأنه يكشف معايب المجتمع، فيصور السخط على النظم السياسية والاجتماعية القائمة، حيث تدفقت الأموال، وبدأت الفوارق الطبقية، فأترف بعضهم، وهاجم الشعراء وغيرهم عمال السلطة، وزاد ذلك في النفور من السلطة، والشكوى من عمال الزكاة، وبعد الحكام عن العامة، وتأثر الولاة بالعصبية والقرابة في اتخاذ العمال، وكثرت شكوى الشعراء. وخاصة شعراء العراق، من ظلم العمال في جباية الأموال، كشكوى الشاعر عبد الله بن همام السلولي من العمال، كعامر بن مسعود والي الكوفة (لابن الزبير)، وخازنه عتاب بن ورقاء ومولاه زيد، يقول[3]:

يا بن الزبير. أميرَ المؤمنين. ألم يبلغك ما فعل العُمَّال بالعمل

باعوا التِجار طعامَ الأرض واقتسموا صُلبَ الخراجِ شِحاحاً قسَمة النَفَل

اشدد يديك بزيدٍ إن ظفرت به واشف الأرامل من دُحْرُوجة الجُعَل

---

[1] الأصفهاني - الأغاني - ج٦ - ص٧١.

[2] الطبري - تاريخ الرسل والملوك - ج٦ - ص٣٧٨.

[3] محمد محمد حسين - الهجاء والهجاءون في صدر الإسلام - ص٦٥.

شكا أيضاً العمال والجباة الشاعر الراعي للخليفة عبد الملك بن مروان، ذاكراً له جورهم وظلمهم للناس بقوله[1]:

إن السُّعاة عَصَوكَ يومَ أمَرْتَهم وأتَوا دواهِيَ لو علمتَ وغُولا
إن الذين أمرتَهم أن يَعدِلوا لم يفعلوا مما أمرتَ فتيلا
أخذوُا العِشَارَ من الكِرام ظُلامةً مِنّا ويُكتَبُ للأمير أفِيلا
أخذوُا العريف فقطّعوا حَيزُوَمهُ بالأصَبحِيَّة قائماً مغلولا
أنت الخليفةُ عَدلُه ونوالُه وإذا أردتَ لظالمٍ تنكيلا
فارفع مَظَالَم عيَّلت أبناءنا عنّا وأنقذ شِلوَنا المأكولا

أيضاً الفرزدق يشكو العمال لسليمان بن عبد الملك عند توليه الخلافة، ويذكر له في شكواه: أن الناس قد نذروا أن يحجوا حفاة، وأن يصوموا لله تعالى بولايتك السلطة، لأن أملهم فيك كبير في إقامة الاعوجاج وتحقيق المظالم، ويشير في شكواه إلى قصة السجون، التي امتلأت بالمساجين ظلماً يقول[2]:

كَمْ فِيكَ إنْ مَلَكَتْ يداكَ لَنا يَوْماً نَوَاصِيَنَا مِنَ النَّذْرِ
مِنْ حَجِّ حَافِيَةٍ وَصَائِمَةٍ سَنَتَيْن أمَّ أُفَيْرِخٍ زُغْرِ
وَتَمَنّتِ الأحْيَاءُ أنهُمُ تَحْتَ التّرَابِ وَجِيءَ بالحَشْرِ
لَوْ يُبْتَلَونَ بِغَيْرِ سَجْنِهِم صَبَرُوا وَلَوْ حُبِسُوا عَلى الجَمْرِ

كما شكا الفرزدق ظلم العمال وجورهم للوليد بن عبد الملك، بقوله[3]:

أمِيرَ المؤْمِنِينَ! وأنْتَ تَشفي بعدْلِ يَدَيْكَ أدوَاءَ الصّدُورِ
فكَيْفَ بعَامِلٍ يَسعَى علَيَنا يُكَلفنَا الدّرَاهِمَ في البُدُورِ
وأنّى بالدَّراهِم وَهْيَ مِنّا كَرَافِعِ رَاحَتَيْهِ إلى العَبُورِ؟

---

[1] محمد محمد حسين - الهجاء والهجاءون في صدر الإسلام - ص٦٨.

[2] ديوان الفرزدق - شرح مجيد طراد - ج١ - ص٢٩١ - ٢٩٤.

[3] المرجع نفسه - ج١ - ص٣١٥ وما بعدها.

أخيراً، لا ننسى الشاعر ابن مفرغ الحميري، الذي نشأ بالبصرة، والذي ظهرت موهبة الشعر لديه مبكرة، توفي سنة ٩٩هـ. اتجه بشعره إلى الهجاء والمديح، وغلب على شعره الهجاء، الذي انصب على أسرة زياد بن أبيه، يقول[1]:

ألا أبلـغْ مُعَاوِيَـةَ بـنَ حَـرْبٍ	مُغلْغَلـةً مِـن الرّجـل اليمَـانِي
أتغضـبُ أن يُقـال: أبـوك عَـفٌّ؟	وتَرضـى، أنْ يُقـال: أبُـوك زَانِـي؟
فأشـهدُ أنَّ رِحْمَـكَ مِـن زيـاد	كرحْـم الفِيـل مِـنَ وَلَـد الأتَـانِ
وأشـهدُ أنهـا ولـدت زيـاداً	وصخـرُ مـن سُـمَيَّةَ غـيرُ دَانِـي

خامساً ـ شعراء النقائض:

الأخطل: هو تغلبي الأصل، لم يسلم، استيقظت فيه موهبة الشعر مبكرة فكان يكثر من هجاء الناس، لقب: بالسفيه. اتصل بمعاوية وابنه يزيد. وبذلك أصبح شاعر بني أمية، حيث يعدّ العصر الذهبي للأخطل في عهد عبد الملك بن مروان، فأصبح شاعر الدولة الرسمي. امتاز برصانة الألفاظ وفخامتها وجزالتها، أفل نجمه بعد موت عبد الملك بن مروان، حيث أبعده ابنه الوليد، وقرب عوضاً عنه عدي بن الرفاع العاملي: وصف: بأنه كان شغوفاً بالخمر، وكان أكثر هجائه مع جرير، توفي سنة (٩٢هـ).

الفرزدق: نشأ الفرزدق في بيت كريم. مآثره ومفاخره، لا تنفع. وصف: بأنه كان يتحلى بأخلاق الجاهلية، وعرف بعفته وشربه للخمر، وكان لا يدين بالطاعة لسلطان، لذلك ظل طويلاً بعيداً عن حكام بني أمية، وكان محباً للخصام يهجو ما يحلو له وصف: بأنه كان كثير الزواج والطلاق، وله قصة مع زوجته نوار، ومن الذين هاجاهم، وهم كثر الحجاج ويزيد بن المهلب وغيرهم، تقرب من الأمويين في عهد سليمان بن عبد الملك، وأصبح شاعر بني أمية المفضل، امتاز الفرزدق بالفخر، وتفوق فيه على غيره من شعراء عصره، فبلغ الغاية القصوى، نعت بأنه كان متشيعاً لقصيدة قالها في علي بن

---

[1] الأصفهاني ـ الأغاني ـ ج١٨ ـ ص٢٧٤.

الحسين، يقول[1]:

هَـذا الّـذي تَعِـرفُ البَطْحـاءُ وَطأتَـهُ   والبَيْـتُ يَعرِفُـهُ، والحِـلُّ والحَـرَمُ

جرير: تفتحت موهبة جرير الشعرية مبكرة، لم يكن له مجد، يتغنى به في عشيرته، اقتحم فن الهجاء، وظل يجول، ويصول زمناً، حيث يذكر: أنه كان ينهشه ثلاثة وأربعون شاعراً، وقيل: كان يهاجيه ثمانون شاعراً، غلبهم جميعهم، أعجب عبد الملك بن مروان بجرير، فأعطاه مائة من الإبل مع ثمانية رعاة وغير ذلك.

عدّ شاعراً سياسياً، لأنه كان يحامي عن نظرية الأمويين في الحكم، ويناضل عنهم ضد خصومهم. كان جرير متفوقاً في جميع موضوعات شعره، التي تتصل بدقة الأحاسيس ورقة المشاعر، ويقال: إنه سبق الفرزدق والأخطل في الرثاء والغزل والهجاء.

سادساً - الرجز: في اللغة: داء يصيب الإبل في أعجازها[2] أما في الاصطلاح العروضي: فهو ضرب من الشعر وهو أحد بحور الشعر، التي ابتكرها الخليل بن أحمد[3] المتوفى سنة (١٠٠هـ - ٦٧٤م). وهو نوع من أنواع الشعر. ففي دائرة المعارف الإسلامية الأرجوزة: هي (القصيدة المنظومة على هذا البحر يكون كل مصراع منها منفرداً وهو كهيئة السجع)[4]. شاع استخدام الرجز في الجاهلية، حيث كانت العرب تقول الرجز في الحرب والحداء والمفاخرة، فتأتي منه بأبيات يسيرة[5].

ولم يقف الرجز في الجاهلية عند الصفات الحميدة، بل تجاوز ذلك إلى ميدان المخاصمات والمنافرات[6]. ودخل ميدان الحرب وساحة الوغى، كما حدث بين شعراء يوم ذي قار[7] والحض

---

(1) ديوان الفرزدق - شرح مجيد طراد - ج٢ - ص٢٣٨.

(2) ابن منظور - لسان ج٥ ص٣٤٩ - مادة ر ج ز. الزبيدي تاج العروس ج٤ ص٣٦ مادة (ر ج ز).

(3) الجوهري - الصحاح ج٣ ص٨٧٨ - (ر ج ز) - الزمخشري أساس البلاغة مادة (ر ج ز).

(4) دائرة المعارف الإسلامية - ج١٠ - ص٥٦ مادة (ر ج ز).

(5) الأصفهاني - الأغاني ج١٨ - ص١٦٤.

(6) الجواهري - الصحاح ج٤ - ص٨٣٤ - مادة (ن ق ر).

(7) ابن عبد ربه - العقد الفريد - ج٥ - ص٢١١.

على القتال والدعوة إلى الصمود والتحذير من الفرار، يقول ابن قتيبة: (كان الرجز في العصر الجاهلي يقول الرجل منه البيتين أو الثلاثة إذا خاصم، أو شاتم، أو فاخر)[1]. مما ورد يمكن عدّ الرجز في العصر الجاهلي الوجه الشعبي للشعر.

حافظ الرجز في صدر الإسلام على موضوعاته السابقة. ومع ذلك نما، وتطرق لموضوعات جديدة غير مألوفة في الجاهلية. فمثلاً ساد الرجز ميادين القتال، ولم يكن وقفاً على الرجل، بل شاركت فيه النساء كما فعلت هند بنت عتبة في غزوة أحد عام (٣هـ ـ٦٢٤م)، وهي تحض المشركين، والنساء من حولها يضربن على الدفوف، وتقول، ويرددن معها[2]:

وَيْهاً بَني عبد الدَّارْ ويهاً حُماةَ الأديارْ ضَرْباً بكلّ بتّار

وصاحب الرجز المجاهدين في فتوحاتهم، فظهرت معاني التضحية والشجاعة في سبيل الدين والدولة. وعندما سادت الخصومة والنزاع بين المسلمين، كان الرجز سجلاً بين المتحاربين، كما حدث في حرب صفين فكان هذا النوع من الشعر حافزاً للمتحاربين على الإقدام والاستمرار في القتال والفداء.

وكان الراجز يسجل ما يدور في ميدان العمل، من تشجيع، وبذل الجهد في تحسين أعمالهم، وخاصة ما كان منها في سبيل الله. كما سجل الراجز وقائع الأيام ونكبات الزمان، فمثلاً عام الطاعون[3] الذي وقع عام (٤٩هـ ـ ٦٦٩م) صور شعراء الرجز ما حدث في هذا العام. فأصبح الرجز مرآة صافية للعصر الأموي، يصور الحياة الجديدة، وتعرض الرجز في صدر الإسلام إلى أغراض شعرية مختلفة، كالمديح والهجاء والوصف والفخر، أما الغزل، فكان نصيبه وافراً، كما تعرض لفن الرثاء والحكمة، أي أنه أخذ بطرق معظم الأغراض الشعرية.

شهد الرجز في العصر الأموي تطوراً جديداً، فكثير من شعراء العصر الأموي اتخذوا الرجز أسلوباً لنظم قصائدهم، وبذلك أخذت الأرجوزة تتناول كل الأغراض الشعرية، التي كانت تتناولها القصيدة.

[1] ابن قتيبة ـ الشعر والشعراء ـ ج٢ ـ ص٦١٧.
[2] ابن هشام ـ السيرة النبوية ـ ج٣ ـ ص٦٨.
[3] ابن جرير الطبري ـ تاريخ الأمم ـ ج٤ ـ ص٦٣.

فمثلاً لم يعد الجيش وحده هو موضوع أوصاف الرجاز، بل تعداه إلى التفاصيل، كالاقتحام، وصوت جلبة السلاح، كما صور مظاهر الطبيعة كصورة السماء والرياح والسحاب والمطر، وصور الأسلحة كالمنجنيق وغيره من الأسلحة، كما عني الرجاز بوصف الحيوانات، كما فعل الشاعر ذو الرمة[1] الذي توفي سنة (١١٧هـ - ٧٣٥م) حيث كان يقول:

يا أُيُّهذيّا الصَّدى النَّبوحُ	أمَا تزال آبداً تصيح
أم هيَّجتْك البازلُ الطليحُ	مَهريَّةُ في بطنها ملقوحُ
تبني فيعروها فتستريحُ	من المهارى نسبٌ صريحُ

وظهرت الصحراء ومناظرها كثيراً في رجز العصر الأموي، كوصف مخاطرها وسرابها وأشجارها وليلها ونهارها وفضائها الواسع. وكان من الطبيعي أن يتطور شعر المديح ورجزه، نتيجة الظروف السياسية والاجتماعية المتشكلة، حيث نلاحظ أن الرجاز انزلقوا في وصف الخلفاء والأمراء بالكرم، كل ذلك رغبة في العطاء، حتى أن بعضهم تجاوز حد الاعتدال، كما فعل أبو النجم العجلي[2]، حين مدح هشام بن عبد الملك، كل ذلك رغبة في العطاء، واتسعت دائرة الهجاء فنظموا بعض الأراجيز يهجون من نال منهم، وحط من قدرهم[3]. وكان الرثاء أحد موضوعات الرجز، فهو تمجيد للخصال الحميدة[4] كما تضمنت الأراجيز معاني دينية، وتطور الفخر في العصر الأموي، وحفل بالشجاعة، وعني الرجاز بالفخر بقبائلهم. لأن الروح القبلية عادت في العصر الأموي بتشجيع الخلفاء.

كما كان لبعض الرجاز حِكَمْ، ضمنوها أراجيزهم. ومع ذلك شاعت في العصر الأموي نفحات دينية وإسلامية، كما شاعت أغاني ترقيص الأطفال ومداعبتهم، وأخيراً أصبحت الأرجوزة الميدان الأرحب لنشاط الشعر التعليمي. وساعد على ذلك سهولة الرجز في النظم، وهذا يعد اتجاهاً جديداً في الشعر العربي، وكانت الأرجوزة مخصصة بزاوية لغوية، ثم انطلقت لتتناول علوماً أخرى. بذلك أصبح الرجز فناً من الفنون الشعرية المتجددة والمتطورة، وأصبح في النهاية صناعة لغوية.

---

[1] شرح ديوان ذو الرمة - (غيلان بن عقبة العدوي) - ص٢٣.

[2] ابن شاكر الكتبي - فوات الوفيات - تحقيق إحسان عباس - طبع بيروت - دار صادر ١٩٧٣ - ج٤ - ص٢٣٨.

[3] الزركلي - الأعلام - طبع بيروت دار العلم للملايين - ١٩٧٩ - ج٨ - ص١٤.

[4] الزركلي - الأعلام - ج٣ - ص٣٣١.



الفصل الثاني

النثر

- الخطابة الجاهلية
- الخطابة في صدر الإسلام
- الخطابة في العصر الأموي



الفصل الثاني

النثر

ـ الخطابة الجاهلية:

العرب قبل الإسلام معروفون بأنهم أهل فصاحة وبيان[1]. نبغوا في فن القول، الذي تجلى ـ كما هو معروف ـ في الشعر والخطابة. وتقديم الشعر على الخطابة ـ عند العرب قبل الإسلام ـ لا يعني أن الخطابة كانت قليلة الأهمية أو هينة المكانة في نفوسهم. فلقد ارتبطت مكانة الخطيب بالشرف والرياسة والمهابة.

فمن دواعي الخطابة البيئية والتحريض على القتال، والحض على الأخذ بالثأر، والدعوة إلى الإصلاح والتأمل في الكون، والغارة بين القبائل، والوفادة على الحكام، وما شاكلها إضافة إلى المناسبات الاجتماعية كالزواج والتعازي والتهاني، وما شابه ذلك. إذن نهضت الخطابة، وازدهرت في العصر الجاهلي[2] لتوفر مقوماتها. وأغلب الخطب كانت لسادة القبائل وزعمائها وذوي المكانة فيها.

---

[1] نايف معروف ـ الأدب الإسلامي في عهد النبوة وخلافة الراشدين ـ طبع بيروت ١٩٩٠ ـ ص٣٣.

[2] صلاح الدين الهادي ـ الأدب في عصر النبوة والراشدين ـ طبع القاهرة ١٩٨٧ـ ص١٥٩.

فمن أشهر خطباء الجاهلية قيس بن خارجة خطيب داحس والغبراء، وسحبان بن وائل الباهلي، وأكثم بن صيفي، حكيم العرب وكبير قضاتها وزعيم خطبائها، وحاجب بن زرارة التميمي، وعلقمة، وغيرهم، ومن نماذج الخطابة في الجاهلية هذه الخطبة لقس بن ساعدة، قالها في سوق عكاظ يقول:

((أيها الناس، اسمعوا وعُوا، انظروا واذكروا، من عاش مات، ومن مات فاتَ، وكلّ ما هو آتٍ آت! ليلٌ داجٍ، ونهارٌ ساجٍ، وسماء ذات أبراج. نجوم تَزْهَر، وبحارٌ تزخر، وجبالٌ مُرساة، وأرض مُدحاة، وأنهارٌ مُجراة.

يا معشرَ إياد، أين الآباءُ والأجداد؟ وأين المريضُ والعُوّاد؟ وأين الفراعنةُ الشّداد؟ أين مَن بنى وشيّد، وزخرفَ ونجّد، وغرّه المال والولد؟ أين مَن طغى وبَغى، وجمع فأوعى، وقال أنا ربكم الأعلى؟ ألم يكونوا أكثرَ منكم أموالاً، وأطولَ منكم آجالاً؟

ألا إنّ أبلغ العِظات السيرُ في الفلوات، والنظر إلى محلّ الأموات. ما لي أرى الناس يذهبون ولا يرجعون؟ أرضَوْا بالمُقام فأقاموا؟ أم تُركوا فناموا؟ إنّ في السماء لخبراً! وإنّ في الأرض لَعِبَراً! يُقسم قُس بن ساعدة با لله قَسماً لا إثم فيه: إنّ لله ديناً هو أرضى له وأفضل من دينكم الذي أنتم فيه. إنّكم لتأتون من الأمر مُنكراً))[1].

وذكر عن قس بن ساعدة أنه من الأحناف. أدركه الموت قبل الإسلام ويعدّ من أشهر خطباء العرب. ففي خطبته الواردة الذكر، والتي استهلها بدعوة سامية، إلى استعمال أسماعهم وأبصارهم، لربط واقع الحياة الإنسانية بالماضي والحاضر بالمستقبل. وفيها دعوة إلى التأمل في ظواهر الطبيعة، للوصول إلى ما وراء ذلك، من وجود خالق مبدع، وفيها تذكير بالأسلاف والعظماء والجبارين والطغاة، وأخذ العبرة من ذلك. امتازت هذه الخطبة بالعذوبة والجمال، والمعاني الرقيقة، كما امتازت بعبارة قصيرة، واسجاع متوازنة، وألفاظ موسيقية، فهي تدخل الأسماع، وتنفذ إلى قلوب من يعيها.

ومن الخطب الأخرى خطبة هاني بن قبيصة الشيباني يقول: (يا مَعشرَ بكر، هالكٌ معذورٌ،

---

[1] أحمد زكي صفوت ـ جمهرة خطب العرب ـ ج١ ـ ص٣٨.

خيرٌ من ناجٍ فَرور، إنّ الحذرَ لا يُنجي من القدَر، وإنّ الصّبْرَ مِن أسبابِ الظَّفَر، المَنِيَّةُ ولا الدّنِيَّة، يا مَعشرَ بَكرٍ، استقبالُ الموتِ خَيرٌ مِنَ استدْباره، الطَّعنُ في ثغرِ النُّحور، أكرمُ منه في الأعْجازِ والظهور، يا آل بكر: قاتِلُوا فما لِلْمنايا من بُدٌّ))[1].

قال هذه الخطبة في حرب ذي قار. وذي قار أحد أيام العرب في الجاهلية، وكانت بين بني شيبان والفرس، حين قالها صاحبها، وهو يحرض قومه على مقاومة الفرس، والدفاع المستميت، والصبر في القتال. وخطبة أخرى لمرثد الخير أحد خطباء اليمن في الجاهلية. قالها، يريد بها الصلح بين قومين متشاجرين، يدعوهم لعدم إشعال نار الحرب، التي تأتي على كل شيء. ونتائجها الويل والثبور، يقول:

(لا تُنشطوا عُقُلَ الشَّوارِد، وتُلقِحوا عُونَ القَواعِد، ولا تُوَرّثوا نِيران الأحقاد، ففيها المُتلِفةُ المُستأصِلة، والجائِحَةُ والأَلِيلَةُ. وعَفُّوا بالحِلْم أبلادَ الكَلِم. وأنِيبوا إلى السبيل الأرشد، والمنهج الأقصدِ. فإنَّ الحربَ تقْبِلُ بزبرِجِ الغُرور، وتُدْبِرُ بالوَيل والثُّبور)[2]، ثم قال:

ألاَ هل أتى الأقوامَ بَذْلِي نصيحةً ... حَبَوْتُ بها مِني سُبَيعاً ومَيثما

وقلت اعلَما أنَّ التَّدابر غادرتْ ... عَواقِبُه للذّلّ والقُلّ جُرْهُما

ولا تَجْنيا حَرْباً تَجُرُّ عليكُما ... عَوَاقُبها يوماً من الشرِّ أشأما

ومن الخطب الأخرى ذات الأهمية ـ في مقصدها وجلال أمرها ـ خطبة ألقاها أبو طالب بن عبد المطلب (عم الرسول) (ص)، عندما ذهب يخطب خديجة بنت خويلد لابن أخيه الرسول (ص). ففي هذه الخطبة القصيرة، نلاحظ قيم العرب، وأعرافهم قبل الإسلام. كالفخر والمفاضلة والخطبة. كما هو وارد تبدأ بذكر الله وحمده ثم يقول:

((الحمد لله الذي جعلنا من زرع إبراهيم، وذرية إسماعيل، وجعل لنا بلداً حراماً، وبيتاً محجوجاً. وجعلنا الحكّام على الناس. ثمّ إنّ محمّداً بن عبد الله، ابن أخي، مَن لا يُوزن به فتى من قريش إلاّ رجح عليه، برّاً وفضلاً، وكرماً وعقلاً، ومجداً ونُبلاً. وإن كان في المال قُلّ، فإنّما المال ظلّ

---

[1] محمد عبد المنعم خفاجي ـ صلاح الدين محمد عبد التواب ـ الحياة الأدبية في عصر الجاهلية وصدر الإسلام ـ طبع مصر ـ بدون تاريخ ص٦٠.

[2] القالي البغدادي ـ الأمالي ـ ج١ ـ ص١٦٩ ـ ج١ ـ ص٩٣ ـ أحمد زكي صفوت ـ جمهرة خطب العرب ـ ج١ ـ ص٧٠.

زائل، وعارية مُسترجعة. وله في خديجة بنت خويلد رغبة ولها فيه مثل ذلك، وما أحببتم من الصَّداق فعليّ))[1].

أخيراً، كانت أهم ملامح الخطابة عند العرب قبل الإسلام البديهة والارتجال، فكثيراً ما كانت المواقف والأحداث تفاجئهم، فيضطرون للخطابة، والخطابة استمدت موضوعاتها ومعانيها من أغراض العبارة وفصاحتها، واشتملت الخطابة على الأمثال والحكم، لما لها من أثر في النفوس، كما اعتمدت الإقناع، وكما اعتمد الخطباء الإيجاز والاعتدال. و لم تخل من الشعر واستخدام المرادفات في المعاني، كما اعتمدت العناصر الأساسية في الخطابة. كالمقدمة والعرض والخاتمة.

أولاً ـ الخطابة في صدر الإسلام:

الخطابة فن من فنون النثر. وهي فن مخاطبة الجمهور، الذي يعتمد الإقناع والاستمالة، بما فيه الخير لهم جميعاً، والخطابة قديماً، ولدت مع ولادة الإنسان. وهي ضرورية لكل أمة في سلمها وحربها، وهي وسيلة الدعاة والرواد والمرشدين، والقادة المصلحين، وهي أيضاً أداة السياسة.

نبغ العرب بالخطابة منذ صدر الإسلام، ونبغ بها كثيرون، حيث كانوا يفضلونها على الشعر. وأغراض الخطابة كثيرة منها التحريض على القتال، أو التعزية، أو الوفادة على الملوك، أو الدعوة إلى الإسلام والمفاخرة. وقد تكون وصية، أو رسالة عامة. وكان على الخطيب أن يلتزم أموراً لابد من مراعاتها. مثل رباطة الجأش، وقوة الصوت، ووضوحه، وقوة الحجة والبلاغة، كما يجب على الخطيب ألا يكون كثير الحركة والإشارة، يتكلم بصدق.

توفر للخطابة ـ في صدر الإسلام ـ دوافع جديدة. منها الدعوة إلى الإسلام والدين القويم، تشرح للناس أسراره، وتبين مزاياه، وأكد ذلك الرسول (ص) والصحابة. وكانت الحروب والوفود والمحافل الدينية، كخطبة الجمعة، دافعاً كبيراً للخطابة. وكانت موضوعاتها متنوعة. منها الدعوة إلى الدين، كما ذكرنا، والحث على الجهاد، وغير ذلك، وامتازت الخطابة ـ في صدر الإسلام ـ بالفطرة الصادقة بما يتناسب مع الطبع، ويلائم السليقة، ووضوح الألفاظ، وسهولة الأسلوب، والانسجام،

---

[1] محمد عبد المنعم خفاجي ـ صلاح الدين محمد عبد التواب ـ الحياة الأدبية في عصري الجاهلية وصدر الإسلام ـ طبع مصر ـ ص ٦٢-٦٣ ـ أحمد زكي صفوت ـ جمهرة خطب العرب ـ ج١ ـ ص٧٧.

وترك السجع، والبعد عن التكلف، والإيجاز، عندما يطلب ذلك.

إذن كان للخطابة - في صدر الإسلام - شأن عظيم. امتازت بأسلوب ونهج خاص. وخاصة الخطابة الدينية، حيث شكلت فناً خاصاً مستقلاً متميزاً عن غيره. حيث اعتمد في الخطابة الدينية القرآن الكريم من جهة، ونصوص الحديث الشريف من جهة أخرى. وامتازت الخطابة - في صدر الإسلام - بصفاء ألفاظها، وسهولة عباراتها، وشرف معانيها، ومتانة أساليبها، إذن تطورت الخطابة بظهور الإسلام، لأن الرسول (ص) اتخذها للدعوة إلى الدين، سواء قبل الهجرة أم بعدها.

إذن كانت الخطابة لسان الدعوة الإسلامية، وأداتها الأولى، الداعية إلى نبذ العقائد الجاهلية والعصبية. وكل ما يخالف الدين الجديد، وتحثهم على اعتناق هذا الدين، كما كان للخطابة دور بارز في موضوع الجهاد والفتوحات الإسلامية. فكان الخطباء يلهبون مشاعر المقاتلين، لتحقيق النصر أو الشهادة، والخطابة في بداية الإسلام - كما هو معلوم - كانت لسان النبي (ص) في نشر دعوته، محدداً سياسته مع أتباعه، موجهاً لهم في ميدان القتال، حيث كانت خطب الرسول (ص) - مع أقواله وأفعاله - المصدر الثاني للشريعة الإسلامية بعد القرآن. وأول خطبة خطبها النبي (ص) عند بدء دعوته، هي تلك التي قدم بها نفسه لعشيرته رسولاً صادقاً أميناً، فقال بعد أن حمد الله، وأثنى عليه:

«إن الرائد لا يكذب أهله. والله، لو كذبتُ الناس جميعاً ما كذبتكم، ولو غَرَرْتُ الناس جميعاً ما غررتكم. والله، الذي لا إله إلاّ هو، إنّي لرسول الله إليكم خاصّة، وإلى الناس كافّة، والله، لتَمُوتُنَّ كما تنامون، وَلَتُبْعَثُنّ كما تستيقظون، ولتحاسَبُنّ بما تعملون، ولتُجْزَوُنّ بالإحسان إحساناً وبالسوء سوءاً. وإنّها لجنّةٌ أبداً أو لنارٌ أبداً»[1].

امتازت هذه الخطبة - رغم صغر حجمها - بوضوح المعاني، ووضوح الهدف، وسهولة الاستيعاب. فيكثر فيها ذكر الله تعالى، والقسم به، مما يؤكد الإخلاص والصدق، موضحاً فيها مآلهم، داعياً إلى الإيمان بالله تعالى، والابتعاد عن الأعمال السيئة. ومن الخطب المشهورة والتي ذاعت صيتها، تلك التي قالها في حجة الوداع. وقد ألقاها قبل وفاته، بعد أن شعر بدنو أجله. ففي

---

[1] عبد الرحمن عيسى - الخطابة الدينية في الدعوة الإسلامية - طبع دمشق ١٩٩٥ - ص١٠٨.

ذي القعدة من السنة العاشرة للهجرة، تجهز النبي (ص) إلى الحج، وأمر الناس بالجهاز لـه، وسـار إلى الحج، ومعه أشرف الناس، فأدى الناس مناسكهم، وعلمهم سنن حجهم، ثـم خطـب النـاس خطبـة الوداع[1] المشهورة والذائعة الصيت، وقد ذكرها الطبري: بعد أن «حمد الله» وأثنى عليه، قال:

«أيها الناس، اسمعوا قولي، فإنّي لا أدري لعلّي لا ألقاكم بعد عامي هذا، وبهذا الموقف أبداً. أيها الناس، إنَّ دماءكم وأموالكم عليكم حرام، إلى أن تلقَوْا ربّكم كحرْمة يومكم هذا، وحرْمة شهركم هذا، وستلقوْن ربّكم فيسألكم عن أعمالكم. وقد بَلّغْتُ، فمن كانت عنده أمانة فليُؤدِّها إلى من ائتمنه عليها. وإنّ كلّ رباً موضوع، ولكم رؤوس أموالكم، لا تَظلمون ولا تُظلمون. قضى الله أنه لا ربا. وإنّ ربا العباس بن عبد المطلب موضوعٌ كلّه، وإنّ كلّ دم كان في الجاهلية موضوع، وإنّ أوّل دم أضَعُ دمَ ابن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب ـ وكان مسترضَعاً في بني ليث، فقتلته بنو هُذَيْل ـ فهو أوّل ما أبدأ به من دماء الجاهلية.

أيّها الناس، إنّ الشيطان قد يئس من أن يُعْبَد بأرضكم هذه أبداً، ولكنه رَضيَ أن يُطاع فيما سوى ذلك مما تحقرون من أعمالكم، فاحذروه على دينكم. أيّها الناس: **﴿إنّمَا النّسِيءُ زِيَادَةٌ في الكُفْرِ يُضَلّ بِهِ الّذِينَ كَفَرُوا يُحِلّونَهُ عَاماً وَيُحَرّمُونَ عاماً لِيُوَاطِئُوا عِدَّةَ مَا حَرّمَ الله فَيُحِلّوا مَا حَرّمَ الله﴾**[2]، ويُحَرّمُوا ما أحَلّ الله وإنّ الزّمان قد استدار كهيئته يوم خلَق الله السموات والأرض، **﴿إنّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ الله اثْنَا عَشَرَ شَهْراً فِي كِتَابِ الله يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأرْضَ مِنْها أرْبعةٌ حُرُمٌ﴾**[3]، ثلاثة متوالية، ورجب مُضرَ الذي بين جمادى وشعبان.

أما بعد أيها الناس، فإنّ لكم على نسائكم حقّا، ولهنّ عليكم حقّا، لكم عليهنّ ألا يُوطِئن فرشَكم أحداً تكرهونه، وعليهنّ ألا يأتينَ بفاحشة مُبَيِّنة، فإن فعلن فإن الله أذِن لكم أن تهجروهنّ في المضاجع، وتضربوهنّ ضرباً غير مُبَرِّح، فإن انتهينّ فلهنّ رزقهنّ وكِسْوتهن بالمعروف. واستوصوا بالنساء خيراً، فإنهنّ عندكم عَوَانٍ لا يملكن لأنفسهنّ شيئاً، وإنكم إنما

---

[1] أبو عثمان عمر بن بحر الجاحظ ـ البيان والتبيين ـ طبع مصر ١٩٨٥ ـ المجلد الأول ج٢ ص ٣١ وما بعدها ـ ابن هشام السيرة النبوية ـ المجلد الثاني ج ٢ ص ٦٠٣.

[2] سورة التوبة ـ الآية / ٣٦.

[3] سورة التوبة ـ الآية / ٣٦.

أخذتموهنّ بأمانة الله، واستحللتم فروجهنّ بكلمة الله، فاعقلوا أيها الناس، واسمعوا قولي، فإنّي قد بلّغت، وتركت فيكم ما إن اعتصمتم به فلنْ تضلُّوا أبداً، كتاب الله وسنة نبيّه.

أيها الناس، اسمعوا قولي فإني قد بلّغت، واعقلوه. تعلَمُنَّ أن كلّ مسلم اخو المسلم، وأن المسلمين إخوة، فلا يحلّ لامرئ من أخيه إلاّ ما أعطاه عن طِيب نفس، فلا تظلموا أنفسكم. اللهم هل بلغتُ! قال: فذكر أنهم قالوا: اللهم نعم، فقال رسول الله: اللهمّ اشهد»[1].

وقال الطبري: (كان الذي يصرخ في الناس بقول رسول الله وهو على عَرَفَة، ربيعة بن أميّة ابن خلف، قال: يقول له رسول الله: قل: أيُّها الناس، إنّ رسول الله يقول: هل تدرون أيّ شهر هذا! فيقولون: الشهر الحرام، فيقول: قل لهم: إنّ الله قد حرّم عليكم دماءكم وأموالكم إلى أن تلقوا ربّكم، كحرْمة شهركم هذا، ثمّ قال: قلْ: إنّ رسولَ الله يقول: أيّها الناس، فهل تدرُون أيّ بلد هذا؟ قال: فيصرخُ به، فيقولون، البلد الحرام، قال: فيقول: قل: إنّ الله حَرّم عليكم دماءكم وأموالكم إلى أنْ تلقوْا ربّكم، كحرمة بلدكم هذا. ثم قال: قل: أيها الناس، هل تدرون أيّ يوم هذا؟ فقال لهم، فقالوا: يوم الحجّ الأكبر، فقال: قل: إن الله حرّم عليكم أموالكم ودماءكم إلى أن تلقوْا ربكم كحرمة يومكم هذا)[2].

كل كلام الرسول (ص) كان يبدأ باسم الله وحمده واستغفاره والتوبة إليه والاستعاذة من شرور النفس، ثم يتلو الشهادتين، ثم يأمر بالطاعة، ثم يأتي بما يريد إيضاحه واضحاً جلياً، وينتهي بخاتمة. أخيراً قال الشيخ محمد الخضر حسين في كتابه (محمد رسول الله وخاتم النبيين) مبيناً آداب خطب النبي (ص): (ولقد كانت خطبه عليه الصلاة والسلام مُثُلاً عليا، يحق على كل داع إلى الإصلاح، أن يقتدي بها، ويقتبس من آدابها، ويسوس النفوس بمثل أساليبها. يحرص عليه الصلاة والسلام، أن تطرق مواعظه آذان المستمعين، متمايزة الحروف، مفصلة الكلمات، فكان يلقي الخطبة قائماً رافعاً بها صوته، وإنما يخطب على مكان مرتفع. ولذا اتخذ المنبر في مسجده بالمدينة.

---

[1] أبو جعفر بن جرير الطبري ـ تاريخ الطبري (الأمم والملوك) طبع بيروت ١٩٩٥ ـ ج٢ ص ٢٠٥ وما بعدها. ابن عبد البر ـ الدرر في اختصار المغازي والسير ـ ص٣١٥.

[2] الطبري ـ تاريخ الأمم والملوك ج٢ ص ـ ابن هشام السيرة ج ٣ ص ٦٠٥ ـ ابن عبد البر ـ الدرر في اختصار المغازي والسير ـ ص٣١٥ وما بعدها.

ويحرص على أن تقع الموعظة في قرارات النفوس. فكان يلقي الخطبة بألفاظ مأنوسة، وتأليف محكم، ومعان بارزة، في صورة بارعة. فانظروا إلى قوله في بعض خطبه: «**مَنْ كَانَ هَمُّهُ الآخِرَةَ، جَمَعَ اللهُ شَمْلَهُ، وَجَعَلَ غِنَاهُ فِي قَلْبِهِ، وَأَتَتْهُ الدُّنْيَا، وَهِيَ رَاغِمَةٌ، وَمَنْ كَانَ هَمُّهُ الدُّنْيَا، فَرَّقَ اللهُ أَمْرَهُ، وَجَعَلَ فَقْرَهُ بَيْنَ عَيْنَيْهِ، وَلَمْ يَأْتِهِ مِنَ الدُّنْيَا إِلاَّ مَا كُتِبَ لَهُ**»[1].

وهكذا ترون خطبه مصوغة بألفاظ مألوفة، ومعان قريبة المأخذ، وهي مع سهولة ألفاظها، وقرب معانيها من أذهان الجمهور، قد حازت في مقام البلاغة الأمد الأسمى. وربما أعاد الجملة، فنطقها في ثلاث مرات، ويدل على أنها موضع اهتمام، ويخشى أن تمر على أذهان المستمعين دون أن تستقر في نفوسهم، كما قال في خطبة التشريق: «**أَلاَ لا تَظَالَمُوا**» وكررها مرتين بعد الأولى.

ولم يكن ـ عليه الصلاة والسلام ـ يلتزم السجع في خطبه، وإنما يأخذ فيها بطريقة الترسُّل، إلاّ أن يجيء السجع عفواً، وذلك أن السجع الملتزم، لا يخلو من تكلف، تفقد به صور المعاني، جانباً من الوضوح، وإن شئت مثلاً يشهد بأن خطبه لم تنسج على منوال السجع. فإليك قوله في إحدى خطبه: «**فليأخذ العبد من نفسه لنفسه، ومن دنياه لآخرته، ومن الشبيبة قبل الكِبَر، ومن الحياة قبل الموت**»[2].

بعد انتقال رسول الله (ص) إلى العالم العلوي، خلفه أبو بكر، بعد أن أخذت له البيعة فجاءت خطبه استمراراً لترسيخ الإسلام على نهج الرسول (ص). إذن كثرت في بداية العصر الراشدي المواقف الحرجة، التي تجلت فيها براعة الخلفاء في الخطابة، اعتباراً من سقيفة بني ساعدة، إلى بعث أسامة بن زيد، إلى الردة، إلى حرب التحرير، وانتشرت الخطابة، حتى كان القادة قبل بدء المعركة يعتمدونها، ليزرعوا في قلوب المقاتلين الشجاعة والجهاد في سبيل الله، وبذل النفس ابتغاء مرضاة الله، وكان لهم ما أرادوا، وخطب الخليفة بعد استلامه السلطة فقال:

(أيّها الناسُ، إنّي قد وليّتُ عليكم، ولستُ بخيركم. فإن أحسنتُ فأعِينوني، وإن أسأت فقوّموني. الصدقُ أمانة، والكذب خيانة، والضعيف فيكم قويّ عندي، حتى آخذ الحقّ له، والقويّ فيكم ضعيف عندي، حتى آخذ الحقّ منه. لا يدعُ قومٌ الجهاد في سبيل الله إلاّ ضربهم الله بالذلّ.

---

[1] عبد الرحمن عيسى ـ الخطابة الدينية ـ ص٤٦.

[2] احمد زكي صفوت ـ جمهرة خطب العرب في عصور العرب الزاهرة ـ طبع بيروت بدون تاريخ ـ ج١ ـ ص١٥٢.

ولا تشيع الفاحشة في قوم، إلا عمّهم الله بالبلاء. أطيعوني ما أطعتُ الله ورسوله. فإذا عصيتُ الله ورسوله، فلا طاعةَ لي عليكم. أقول قولي هذا، وأستغفر الله لي، ولكم، قوموا إلى صلاتكم، يرحمكم الله).

وردت هذه الخطبة في مكان آخر على الوجه التالي:(قال بعد أن حمد الله وأثنى عليه: أيها الناس: إني وليت عليكم، ولست بخيركم، فإن رأيتموني على حق فأعينوني، وإن رأيتموني على باطل فسددوني، أطيعوني ما أطعت الله. فإذا عصيته فلا طاعة لي عليكم. ألا إن أقواكم عندي الضعيف، حتى آخذ الحق له، وأضعفكم عندي القوي، حتى آخذ الحق منه، أقول قولي هذا، وأستغفر الله لي ولكم)[1].

بعد استلام الخليفة الأول السلطة أمر مناديه بأن ينادي: (ليتم بعث أسامة، ألا يبقين بالمدينة أحد من جند أسامة إلا خرج إلى معسكره بالجرة، وقام في الناس خطيباً فقال:

فحمد الله وأثنى عليه وقال: (يا أيها الناس، إنما أنا مثلُكم، وإني لا أدري لعلكم ستكلفونني ما كان رسول الله (ص) يطيق، إن الله اصطفى محمداً على العالمين وعصمه من الآفات، وإنما أنا متبعٌ، ولست بمبتدع. فإن استقمت فتابعوني، وإن زغت فقوّموني، وإنّ رسولَ الله (ص) قبض. وليس أحدٌ من هذه الأمة يطلبه بمظلمة ضربة سوط فما دونها، إلا وإنّ لي شيطاناً يعتريني. فإذا أتاني فاجتنبوني، لا أؤثر في أشعاركم، وأبشاركم، وأنتم تغدون وترُوحون في أجلٍ قد غيّب عنكم علمه. فإن استطعتم ألاّ يمضيّ هذا الأجل، إلاّ وأنتم في عمل صالح، فافعلوا. ولن تستطيعوا ذلك إلاّ بالله. فسابقوا في مَهل آجالكم، من قبل أن تُسلمَكم آجالكم إلى انقطاع الأعمال. فإن قوماً نسُوا آجالهم، وجعلُوا أعمالهم لغيرهم، فإيّاكم أن تكونوا أمثالهم. الجدّ الجدّ! والوحا الوحا! والنّجاء النّجاء! فإن وراءكم طالباً حثيثاً، أجلاً مَرُّه سريعٌ. احذروا الموت، واعتبروا بالآباء والأبناء والإخوان، ولا تغبطوا الأحياء، إلا بما تغبطون به الأموات)[2].

---

[1] أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري - عيون الأخبار - طبع مصر - نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب - المجلد الأول ص٢٣٤.

[2] المرجع نفسه - ج١ - ص١٨١.

وقام أيضاً فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: (إنّ الله عزّ وجلّ لا يقبل من الأعمال إلا ما أُريدَ به وجهه، فأريدوا الله بأعمالكم، واعلموا أنّ ما أخلصتم لله من أعمالكم فطاعة أتيتموها، وخطأ ظفرتم به، وضرائب أدّيتموها، وسلَفٌ قدَّمتموه، من أيام فانية، لأخرى باقية، لحين فقركم وحاجتكم. اعتبروا عباد الله بمَنْ مات منكم، وتفكّروا فيمن كان قبلكم. أين كانوا أمس، وأين هم اليوم! أين الجبّارون! وأين الذين كان لهم ذِكْر القتال والغلبَة في مواطن الحروب! قد تضعضع بهم الدّهر، وصاروا رميماً، قد تُركت عليهم القالات، الخبيثات للخبيثين، والخبيثون للخبيثات. وأينَ الملوك الذين أثاروا الأرض، وعمرُوها، قد بعدوا ونُسيَ ذكرهم، وصاروا كلا شيء.

ألا إنَّ الله قد أبقى عليهم التّبِعات، وقطع عنهم الشهوات، ومضوْا والأعمال أعمالهم، والدنيا غيرهم، وبقينا خلَفاً بعدهم، فإن نحن اعتبرنا بهم نجوْنا، وإن اغتررنا كنّا مثلهم! أين الوُضّاءُ الحسنة وجوهُهم، المعجبون بشبابهم! صاروا تراباً، وصار ما فرطوا فيه حَسْرة عليهم! أين الذين بنوا المدائن، وحصّنوها بالحوائط، وجعلوا فيها الأعاجيب، قد تركوها لِمنْ خَلَفَهم، فتلك مساكنهم خاوية، وهم في ظلمات القبور، هل تحسّ منهم من أحد، وتسمع لهم ركزاً! أين مَنْ تعرفون من أبنائكم وإخوانكم، قد انتهت بهم آجالهم، فوردوا على ما قدموا، فحلُّوا عليه، وأقاموا للشّقْوة والسعادة فيما بعد الموت.

ألاَ إنّ الله لا شريك له، ليس بينه وبين أحد مِنْ خلقه سببٌ، يعطيه به خيراً، ولا يصرف عنه به سوءاً، إلاّ بطاعته واتباع أمره، واعلموا أنكم عبيدٌ مَدِينُونَ وإنّ ما عنده لا يُدْرك إلاّ بطاعته، أما إنه لا خير بخير، بَعْدَه النارُ، ولا شر بشرّ بعده الجنة)[1].

وقال: (لما بويع أبو بكر رضي الله عنه، وجمع الأنصار في الأمر الذي افترقوا فيه، قال: لِيُتَمّ بعثُ أسامة، وقد ارتدت العرب، إمّا عامة وإما خاصّة في كلّ قبيلة ونجم النفاق، واشرأبّت اليهود والنصارى، والمسلمون كالغَنَم في الليلة المطيرة الشاتية، لفقد نبيّهم (ص) وقِلّتهم، وكثرة عدوّهم. فقال له الناس: إن هؤلاء جُلّ المسلمين والعرب ـ على ما ترى ـ قد انتقضت بك. فليس ينبغي لك أن تفرّق عنك جماعة المسلمين. فقال أبو بكر: والذي نفس أبي بكر بيده، لو ظننت أن السِّباع

---

[1] الطبري ـ تاريخ الطبري ـ الأمم والملوك ـ المجلد الثاني ـ أحداث سنة (١١) أحمد زكي صفوت ـ جمهرة قطب العرب ـ ج١ ـ ص١٨٢ ـ ص٤٤.

تخطّفني، لأنفذت بعثَ أسامة كما أمَر به رسول الله (ص). ولو لم يَبْقَ في القرى غيري لأنفذته!)[1].

ففي هذه الخطبة نرى: أن الحاكم لا يخاف في الله لومة لائم، وتراه كما هو واضح يطلب من الرعية مراقبة أعماله ومحاسبته، ورفض طاعته، حين يخرج عن حدود الله، وأوامر رسوله. فبعد استلامه، السلطة ظهرت الفتنة، وكثر المنافقون والمرتدون. لكنه استطاع أن يبسط سيطرته بقوة على زمام الأمور. بعد ذلك أخذ يوجه الجيوش لتحرير الوطن العربي. فعبر بذلك عن شخصية القائد العسكري المتمكن. فكان يوصي قادته ويرشدهم. لقد تمكن الخليفة من وضع مبادئ عسكرية، وسن تشريعات حربية. فعندما وجه جيش أسامة بن زيد إلى مشارف الشام، أوصاهم بعشر وصايا، وأمرهم بحفظها والعمل بها، وأوصاهم برجال الدين المقيمين في الصوامع وغيرها، وأمرهم بعدم التعرض لهم، كما هو وارد، فقال:

(يا أيّها الناس، قفوا أوصيكم بعشر، فاحفظوها عنّي. لا تخونوا، ولا تغلوا، ولا تغدروا، ولا تمثّلوا، ولا تقتلوا طفلاً صغيراً، ولا شيخاً كبيراً ولا امرأة، ولا تعقروا نخلاً، ولا تحرقوه، ولا تقطعوا شجرة مثمرة، ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيراً إلا لمأكله. وسوف تمرّون بأقوام، قد فرّغوا أنفسهم في الصوامع، فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له. وسوف تَقْدَمون على قوم، يأتونكم بآنيةٍ فيها ألوان الطعام. فإذا أكلتم منها شيئاً بعد شيء، فاذكروا اسم الله عليها. وتلقون أقواماً، قد فحصوا أوساط رؤوسهم، وتركوا حولها مثل العصائب، فاخفقوهم بالسيف خفقاً. اندفعوا باسم الله)[2].

وعندما سير يزيد بن أبي سفيان لفتح الشام أوصاه، وأرشده إلى فن القيادة العسكرية بقوله: (إنّي قد ولّيتك لأبلوك، وأجرّبك، وأخرّجك فإن أحسنتَ، رددتك إلى عملك، وزدتك، وإن أسأتَ عزلتك، فعليك بتقوى الله، فإنّه يرى من باطنك مثل الذي يرى من ظاهرك، وإنّ أولى الناس بالله أشدّهم تقرّباً إليه بعمله، وقد ولّيتك عمل خالد، فإيّاك وعبّيّة الجاهلية. فإنّ الله يُبغضها، ويُبغض أهلها. وإذا قدمت على جندك، فأحسن صحبتهم، وابدأهم بالخير، وعدهم إيّاه، وإذا وعظتهم فأوجز، فإنّ كثير الكلام يُنسي بعضه بعضاً. وأصلح نفسك، يصلح لك الناس، وصلِّ الصلوات لأوقاتها، بإتمام ركوعها وسجودها، والتخشّع فيها.

---

[1] الطبري - تاريخ الطبري - الأمم والملوك - المجلد الثاني - أحداث سنة (١١) - ج٢ ص٢٤٥.

[2] شوقي ضيف - العصر الإسلامي - ص١٢٤ - أحمد زكي صفوت - جمهرة خطب العرب - ج١ - ص١٨٧.

وإذا قدم عليك رسل عدوّك، فأكرمهم، وأقلل لُبْثهم، حتى يخرجوا من عسكرك، وهم جاهلون به. ولا تُريثهم فيروا خللك، ويعلموا عملك. وأنزلهم في ثروة عسكرك، وامنع مَن قِبَلك من محادثتهم، وكن أنت المتولّي لكلامهم، ولا تجعل سرّك لعلانيّتك، فيختلط أمرك. وإذا استشرتَ، فاصدق الحديث، تُصْدَق المشورة. ولا تخزن عن المشير خبرك، فتؤتى من قِبل نفسك. واسْمُر بالليل في أصحابك، تأتك الأخبار، وتنكشف عندك الأستار.

وأكثر حرسك، وبدّدهم في عسكرك. وأكثر مفاجأتهم في محارسهم بغير علم منهم بك. فمن وجدته غفل عن مَحْرَسه، فأحسن أدبه وعاقبه في غير إفراط، وعقّب بينهم بالليل، واجعل النوبة الأولى أطول من النوبة الأخيرة. فإنها أيسرهما لقربها من النهار. ولا تخف من عقوبة المستحقّ، ولا تلجنّ فيها، ولا تسرع إليها، ولا تغفل عن أهل عسكرك، فتفسده، ولا تجسس عليهم، فتفضحهم، ولا تكشف الناس عن أسرارهم، واكتفِ بعلانيتهم. ولا تجالس العبّاثين. وجالس أهل الصدق والوفاء، واصدق اللقاء، ولا تَجْبُن، فيجبن الناس. واجتنب الغُلول، فإنّه يقرّب الفقر، ويدفع النصر، وستجدون أقواماً، حبسوا أنفسهم في الصوامع، فدعهم وما حبَسوا أنفسهم له)[1].

ففي هذه الخطبة نلاحظ الخليفة يوصي قائد الجيش، بأن له أموراً، يجب العمل بها، وهي أن يكون دائم الذكر لله، كما يجب أن يكون على صلة مع القيادة العامة للجيش، التي مثلها الخليفة، وهو في المدينة، وأن يكون شديد الحرص على قواته. ومن الوصايا الواضحة في الخطبة، حسن التعامل مع رسل الأعداء، حين وفادتهم عليه، وأوصاه بالجند خيراً، وأوصاه حسن التصرف أثناء المسير، وأثناء الاستراحة، وأثناء القتال. وأوصاه بالجند عند الخدمة وخاصة الحراسة ليلاً وغير ذلك.

وقال الطبري: (عن عمر بن عبد الرحمن بن عوف، عن أبيه، أنه دخل على أبي بكر الصديق رضي الله تعالى عنه في مَرَضِه الذي تُوُفّيَ فيه، فأصابه مهتماً. فقال له عبد الرحمن: أصبحت والحمد لله بارئاً! فقال أبو بكر رضي الله عنه: أتراه؟ قال: نعم، قال: إنّي ولّيْتُ أمرَكم خيرَكم في نفسي، فكلّكم وَرِمَ أنفُه من ذلك، يريد أن يكون الأمر له دونه، ورأيتم الدنيا قد أقبلت، ولما تقبل، وهي مقبلة حتى تتخذوا ستور الحرير ونضائد الديباج، وتألُمون الاضطجاع على الصوف الأذْرِيّ، كما

[1] أحمد زكي صفوت ـ جمهرة خطب العرب ـ ج١ ـ ص١٩٧ وما بعدها.

يأ لُم أحدُكم أن ينامَ على حَسَك، وا لله لأن يقدّم أحدكم، فتُضرب عنقُه في غير حدّ خيرٌ لـه مـن أن يخوضَ في غمرة الدنيا، وأنتم أوّلُ ضالّ بالناس غداً، فتصدونهم عن الطريق يميناً وشمالاً. يا هـادي الطريق، إنّما هو الفَجْر أو البَحْر. فقلت له: خَفِّض عليك رحمك ا لله، فإن هذا يَهيضك في أمرك. إنّما النّاس في أمرك بين رجلين: إمَّا رجلٌ رأى ما رأيت، فهو معك، وإمَّا رجلٌ خالفك، فهو مُشير عليك، وصاحبُك كما تحبّ، ولا نعلمك أردتَ إلا خيراً، ولم تزل صالحاً مصْلحاً، وأنك لا تأسى على شيء من الدنيا.

قال أبو بكر رضي ا لله عنه: أجَلْ، إني لا آسى على شيء من الدنيا، إلاّ على ثلاث، فعلتُهنّ، وددت أني تركتهنّ، وثلاث، تركتهنّ، وددتُ أني فعلتهنّ، وثلاث، وددت أنّي سألتُ عنهنّ رسولَ ا لله (ص). فأمَّا الثلاث، اللاتي وددت أنّي تركتُهنّ، فودِدْت أنّي لم أكشِفْ بيتَ فاطمة عن شيء. وإن كانوا قد غلّقوه على الحرب، ووددت أني لم أكن حَرَقْتُ الفُجاءَة السُّلَميّ، وأني كنت قتلته سريحاً، أو خلّيته نجيحاً. ووددت أني يوم سقيفة بني ساعدة كنتُ قذفت الأمرَ في عنق أحد الرجلين ـ يريد عمر وأبا عبيدة ـ فكان أحدُهما، أميراً، وكنت وزيراً.

وأمّا اللاتي تركتهنّ، فوددت أني يوم أتِيتُ بالأشعثِ بن قيس أسيراً، كنت ضربت عنقه، فإنه تخيَّل إليّ: أنه لا يرى شرًّا، إلاّ أعان عليه. ووددت أني حين سيَّرتُ خالد بن الوليد إلى أهل الرّدّة، كنت أقمت بذي القَصّة، فإن ظَفِر المسلمون ظفِروا، وإن هُزموا، كنت بصدد لقاءٍ أو مددٍ. ووددت أني كنت، إذا وجَّهت خالد بن الوليد إلى الشام كنتُ وجَهت عمر بن الخطاب إلى العراق، فكنت قد بسطتُ يديّ كلتيهما في سبيل ا لله ـ ومدّ يديه ـ ووددْت أني كنتُ سألتُ رسول ا لله (ص): لمن هذا الأمر؟ فلا ينازعه أحد؟ ووددت أني كنتُ سألته: هل للأنصار في هذا الأمر نصيب؟ ووددْتُ أني كنتُ سألته عن ميراث ابنة الأخ والعَمَّة، فإنّ في نفسي منهما شيئاً)[1].
بعد ذلك دعا أبو بكر عثمان خالياً، فقال: اكتب:

(بسم ا لله الرحمن الرحيم، هذا ما عهد أبو بكر بن أبي قحافة إلى المسلمين، أما بعد، قال: ثمّ أغميَ عليه، فذهب عنه، فكتب عثمان: أمّا بعد، فإني قد استخلفتُ عليكم عمرَ بن الخطاب، ولم آلُكم خيراً منه، ثم أفاق أبو بكر، فقال: اقرأ عليّ، فقرأ عليه، فكبَّر أبو بكر، وقال: أراك خِفْتَ أن

---

[1] الطبري ـ تاريخه ـ المجلد الثاني ـ أحداث سنة (١٣ هـ) ـ ص٣٥٣.

يختلف الناس إن افتُلتتْ نفسي في غَشيتي! قال: نعـم، قـال: جـزاك الله خـيراً عـن الإسـلام وأهلـه، وأقرّها أبو بكر رضي الله عنه من هذا الموضع)[1].

في عهد الخليفة الراشدي الثاني عمر بن الخطـاب، تكـثر الخطابـة، وتعـم الجوامـع والأعيـاد، ومواسم الحج والمناسبات الأخرى كالفتوحات. وأخذ القادة العرب خلال فتوحاتهم يلقون الخطب في كل بلد، فتحوه. فكان ذلك من عوامل نموهـا وتطورهـا. وكـان مضمـون الخطابـة عنـد القـادة العرب موجهاً للمقاتلين والمجاهدين، فكان هدفها الوعظ والحض على الجهاد.

تسلم الخليفة الراشدي الثاني عمر بن الخطاب بولاية وعهد من الخليفة أبي بكـر. فكـان أول ما قاله: (إنما مثل العرب مثل جمل أنف، اتبع قائده، فلينتظر قائده، حيث يقـوده، وأمـا أنـا، فـورب الكعبة لأحملنكم على الطريق) ما ورد يعدّ خطبة سياسية، اعتمد فيها الإيجاز، حدد فيهـا أسـلوبه في الحكم داعياً فيها إلى التجديد والتغيير بعد ذلك قال:

(يا أيها الناس، إني قد وليت عليكم، ولولا رجاء أن أكون خيركم لكـم، وأقواكـم عليكـم، وأشدّكم استضلاعاً بما ينوب من مهمّ أموركم، ما تولّيت ذلـك منكـم، ولكفـى عمـر مُهِمًّـا حزنـاً انتظار موافقة الحساب، بأخذ حقوقكم، كيف آخذها؟ ووضعها، أين أضعها؟ وبالسير فيكم، كيف أسير؟ فربّي المُستعان، فإنّ عمر أصبح لا يثق بقوّة ولا حيلـة، إن لم يتداركـه الله عـزّ وجـلّ برحمتـه وعونه وتأييده)[2]. ثم خطب فقال: (يا أيها الناس، إنّي داعٍ، فأمِّنوا، اللهمّ إنّي غليـظ، فليِّـني لأهـل طاعتك بموافقة الحقّ ابتغـاء الـدار الآخـرة، وارزقـني الغلظـة والشـدّة علـى أعدائـك وأهـل الدعـارة والنفاق، من غير ظلم منّي لهم، ولا اعتداء عليهم.

اللهمّ، إنّي شحيحٌ، فسخّني في نوائب المعروف، قَصْداً من غير سَرَفٍ ولا تبذير ولا رِيـاء ولا سُمعة، واجعلني أبتغي بذلك وجهك والدار الآخـرة. اللهـمّ، ارزقـني خَفْـض الجنـاح ولـين الجـانب للمؤمنين، اللهمّ إنّي كثير الغفلة والنسيان، فألهمني ذكرك على كلّ حال وذكر الموت في كلّ حـين. اللهـمّ، إنّي ضعيف عن العمل بطاعتك، فارزقني النشاط فيها، والقـوّة عليهـا بالنيّـة الحسـنة، الـتي لا تكون إلاّبعزّتك وتوفيقك. اللهمّ، ثبّتني باليقين والبرّ والتقوى، وذكر المقام بين يديك، والحياء منك،

---

[1] الطبري ـ تاريخ الرسل والملوك ـ ص٣٥٣.

[2] أحمد زكي صفوة ـ جمهرة خطب العرب ـ ج١ ـ ص٢١٢.

وارزقني الخشوع فيما يُرضيك عنّي، والمحاسبة لنفسي، وإصلاح الساعات، والحذر من الشبهات. اللهمّ، ارزقني التفكّر والتدبّر لما يتلوه لساني من كتابك، والفهم له، والمعرفة بمعانيه، إنّك على كلّ شيء قدير)[1].

فيما ورد يمزج الدين بالسياسة. ففيها اعتراف واضح بثقل المسؤولية الملقاة على عاتقه. إلا أنه كان معتمداً على إرادة الله وعونه وتأييده. إذن اعتمد الخليفة عمر الإيجاز في أكثر خطبه مكتفياً بما يؤدي الغرض. وخطبه - كما هو ملاحظ - تستمد بعض ألفاظها من القرآن الكريم، وعنيت في الوقت نفسه بالناحية الجمالية، والعبارات الجميلة، بالإضافة إلى تنوع الأسلوب. وما ورد يوضح تهيب الخليفة من المنصب الذي آل إليه، لما له من أهمية كان يدركها. إلا أن لما ورد تكملة توضح أسلوب الخليفة في الحكم، وسياسته في الرعية، مستعيناً بالله على حمل الأمانة، يقول الطبري:

(أنّ عمر بن الخطاب لما طُعِن، قيل له: يا أميرَ المؤمنين، لو استخلفت! قال: مَنْ استخلف؟ لو كان أبو عبيدة بن الجراح حيًّا استخلفته، فإن سألني ربي قلت: سمعت نبيّك يقول: «**إنه أمين هذه الأمة**»، ولو كان سالم مولى أبي حذيفة حيًّا استخلفته، فإن سألني ربي قلت: سمعت نبيّك يقول: «**إنّ سالماً شديد الحبّ لله**». فقال له رجل: أدلّك عليه؟ عبد الله بن عمر، فقال: قاتلك الله، والله ما أردتَ الله بهذا، ويحك! كيف أستخلف رجلاً عجز عن طلاق امرأته! لا أَرَبَ لنا في أموركم. ما حمِدتُها، فأرغَب فيها لأحد من أهل بيتي، إن كان خيراً، فقد أصبنا منه، وإن كان شرّاً فشرعُنا آلَ عمر، بحسب آل عمر أن يحاسَب منهم رجل واحد، ويُسأل عن أمر أمة محمد، أما لقد جهدت نفسي، وحرمت أهلي، وإن نجوتُ كَفافا لا وزْر ولا أجر إني لسعيد.

وأنظر فإن استخلفتُ فقد استخلف مَن هو خير منّي، وإن أترك فقد ترك مَنْ هو خير مني، ولن يضيّع الله دينه. فخرجوا، ثم راحوا، فقالوا: يا أميرَ المؤمنين، لو عهدتَ عهداً! فقال: قد كنت أجمعت بعد مقالتي لكم أن أنظر، فأولّيَ رجلاً أمرَكم، هو أحراكم أن يحملكم على الحقّ - وأشار إلى عليّ - ورهِقتْني غَشية، فرأيت رجلاً، دخل الجنة، قد غرسها، فجعل يقطف كل غضّة ويانعة، فيضمّه إليه، ويصيّره تحته، فعلمتُ أن الله غالب أمره، ومتوفٍّ عمر، فما أريد أن أتحمّلها حيّاً وميتاً، عليكم هؤلاء الرّهط، الذي قال رسول الله (ص): «**إنهم من أهل الجنة**»، سعيد بن زيد بن

[1] أحمد زكي صفوة - جمهرة خطب العرب - ج١ - ص٢١٣ - ٢١٤.

عمرو بن نُفيل منهم، ولست مدخله، ولكن الستّة: عليّ وعثمان ابنا عبد مناف، وعبد الرحمن وسعد خالا رسول الله (ص)، والزُّبير بن العوّام حواريّ رسول الله (ص) وابن عمته، وطلحة الخير ابن عبيد الله، فلْيختاروا منهم رجلاً.

فإذا ولّوا والياً، فأحسِنوا مؤازرته، وأعينوه، إن ائتمن أحد منكم، فليؤدّ إليه أمانته. وخرجوا، فقال العباس لعليّ: لا تدخل معهم، قال: أكره الخلاف، قال: إذاً ترى ما تكره! فلما أصبح عمر، دعا عليًّا وعثمان وسعداً وعبد الرحمن بن عوف والزبير بن العوّام، فقال: إنّي نظرت، فوجدتكم رؤساء الناس وقادتهم، ولا يكون هذا الأمر إلاّ فيكم، وقد قبض رسول الله (ص) وهو عنكم راضٍ، إنّي لا أخاف الناس عليكم إن استقمتم، ولكنّي أخافُ عليكم اختلافَكم فيما بينكم، فيختلف الناس. فانهضوا إلى حُجْرة عائشة بإذنٍ منها، فتشاوروا، واختاروا رجلاً منكم. ثم قال: لا تدخلوا حجرة عائشة، ولكن كونوا قريباً، ووضع رأسه وقد نَزَفه الدم.

فدخلوا فتناجوا، ثم ارتفعت أصواتهم، فقال عبد الله بن عمر:سبحان الله! إنّ أمير المؤمنين لم يَمُتْ بعد، فأسمعَه، فانتبه، فقال: ألا اعرضوا عن هذا أجمعون، فإذا متُّ، فتشاوروا ثلاثة أيام، وليصلّ بالناس صهيب، ولا يأتينّ اليوم الرابع، إلاّ وعليكم أمير منكم، ويحضر عبدُ الله بن عمر مشيراً، ولا شيء له من الأمر، وطلحة شريككم في الأمر، فإن قدم في الأيام الثلاثة، فأحضروه أمركم، وإن مَضت الأيّام الثلاثة قبل قدومه، فاقضوا أمرَكم، ومَنْ لي بطلحة؟ فقال سعد بن أبي وقاص: أنا لك به، ولا يخالف إن شاء الله. فقال عمر: أرجو ألاّ يخالف، إن شاء الله، وما أظنّ أن يليَ إلاّ أحدُ هذين الرجلين: عليّ أو عثمان، فإن ولّي عثمان، فرجل فيه لين، وإن ولّي عليّ ففيه دُعابه، وأحْرِ به أن يحملهم على طريق الحقّ، وإن تولوا سعداً، فأهلها هو، وإلاّ فليستعن به الوالي، فإني لم أعزله عن خيانة ولا ضعف، ونِعْم ذو الرأي عبد الرحمن بن عوف! مسدّد رشيد، له من الله حافظ، فاسمعوا منه.

وقال لأبي طلحة الأنصاريّ: يا أبا طلحة. إنّ الله عزّ وجلّ طالما أعزّ الإسلام بكم، فاختر خمسين رجلاً من الأنصار، فاستحِثّ هؤلاء الرّهط، حتى يختاروا رجلاً منهم. وقال للمقداد بن الأسود: إذا وضعتموني في حُفْرتي، فاجمع هؤلاء الرّهط في بيت، حتى يختاروا رجلاً منهم. وقال لصُهيب: صلّ بالناس ثلاثة أيام، وأدخل عليّاً وعثمان والزبير وسعداً وعبد الرحمن بن عوف

وطلحة، إن قدم، وأحضر عبد الله بن عمر، ولا شيء له من الأمر، وقم على رؤوسهم، فإن اجتمع خمسة، ورضُوا رجلاً، وأبى واحد فاشدَخْ رأسه - أو اضرب رأسه بالسيف - وإن اتفق أربعة فرضُوا رجلاً منهم، وأبى اثنان، فاضرب رؤوسهما، فإن رضيّ ثلاثةٌ رجلاً منهم، وثلاثة رجلاً فمنهم، فحكّموا عبد الله بن عمر، فأيّ الفريقين، حكم له، فليختاروا رجلاً منهم، فإن لم يرضْوا بحكم عبد الله بن عمر، فكونوا مع الذين فيهم عبد الرحمن بن عوف، واقتلوا الباقين، إن رغبوا عمّا اجتمع عليه الناس)[1].

فقال عبد الرحمن: (إني قد نظرت وشاورت، فلا تجعلنَّ أيها الرهط على أنفسكم سبيلاً. ودعا عليًّا فقال: عليك عهد الله وميثاقه، لتعْمَلنّ بكتاب الله وسنة رسوله وسيرة الخليفتين من بعده؟ قال: أرجو أن أفعل، وأعمل بمبلغ علمي وطاقتي، ودعا عثمان، فقال له مثل ما قال لعليّ، قال: نعم، فبايعه، فقال عليّ: حبوتَه حَبْوَ دهر، ليس أوّل يوم تظاهرتم فيه علينا، فصبر جميل، والله المستعان على ما تصفون، والله ما ولّيت عثمان، إلا ليردّ الأمر إليك، والله كلّ يوم هو في شأن، فقال عبد الرحمن: يا عليّ لا تجعل على نفسك سبيلاً، فإني قد نظرت، وشاورتُ الناس، فإذا هم لا يعدلون بعثمان. فخرج عليّ، وهو يقول: سيبلغ الكتاب أجله. فقال المقداد: يا عبد الرحمن، أما والله لقد تركتَه من الذين يقضون بالحقّ وبه يعدلون. فقال: يا مقداد والله لقد اجتهدتُ للمسلمين، قال: إن كنتَ أردت بذلك الله، فأثابك الله ثواب المحسنين. فقال المقداد: ما رأيتُ مثل ما أوتي إلى أهل هذا البيت بعد نبيّهم. إني لأعجب من قريش: أنّهم تركوا رجلاً، ما أقول إنّ أحداً أعلم ولا أقضى منه بالعدل.

أما والله لو أجد عليه أعواناً! فقال عبد الرحمن: يا مقداد! اتّق الله؛ فإني خائف عليك الفتنة، فقال رجل للمقداد: رحمك الله! مَن أهل هذا البيت ومَن هذا الرجل؟ قال: أهل البيت بنو عبد المطلب، والرجل عليّ بن أبي طالب. فقال عليّ: إنّ الناس ينظرون إلى قريش، وقريش تنظر إلى بيتها فتقول: إن وُلّيَ عليكم بنو هاشم، لم تخرج منهم أبداً، وما كانت في غيرهم من قريش، تداولتموها بينكم. وقدم طلحة في اليوم الذي بويع فيه لعثمان، فقيل له: بايع عثمان، فقال: أكلّ قريش راضٍ به؟ قال: نعم، فأتى عثمانَ فقال له عثمان: أنت على رأس أمرك، إن أبىَ، رددتُها،

[1] الطبري - تاريخه - أحداث سنة (٢٣) ج٢ - ص٥٨١.

قال: أتردّها؟ قال: نعم؛ قال: أكلّ الناس بايعوك؟ قال: نعم، قال: قد رضيتُ؛ لا أغرب عمّا قد أجمعوا عليه، وبايعه)[1].

في عهد الخليفة الراشدي الثالث، مضت الخطابة في تطورها وازدهارها وازدادت تشعباً، عندما اشتعلت الثورة ضده، ففي الكوفة وقف الأشتر النخعي يؤلب الناس ضده، وفي مصر فعل مثل ذلك محمد بن أبي بكر. وتتوالى الحوادث فتودي بحياة الخليفة (عثمان) كما هو معروف.

ومن الملاحظ أن الخليفة عمر جعل بعده شورى، وضمن ستة كما ذكر، والحكم كان للخيلفة عثمان بن عفان، الذي لم يكن خطيباً إنما وصف: بأنه كان شديد الحياء. لذلك اقتصرت خطبه على المناسبات. وكان أول خطبة له بعد استلامه الحكم، يوم بويع له بالخلافة بعد الشورى قوله:

(إنكم في دار قُلْعة، وفي بقيّة أعمار، فبادروا آجالكم بخير ما تقدرون عليه، فلقد أُوتيتم، صُبِّحتم أو مُسِّيتم. ألا وإنّ الدنيا طُويت على الغرور، فلا تغرّنكم الحياة الدنيا، ولا يغرّنكم با لله الغرور. اعتبروا بمن مضى، ثم جدّوا، ولا تَغْفَلوا، فإنّه لا يُغفل عنكم. أين أبناءُ الدنيا وإخوانها، الذين آثروها وعَمروها، ومُتّعوا بها طويلاً؟ ألم تَلْفِظْهُم؟ ارموا الدنيا، حيث رمى ا لله بها، واطلبوا الآخرة، فإنّ ا لله ضرب مثلاً بالذي هو خير، فقال عزَّ وجلَّ: **﴿واضْرِب لَهُمْ مَثَلَ الحَيَاةِ الدُّنيا كَماءٍ أَنْزَلْناهُ مِنَ السَّماءِ، فَاخْتلَطَ بِهِ نَباتُ الأرْضِ فأَصْبَحَ هَشِيماً تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وكَانَ ا للهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِراً * المَالُ والبَنُونَ زِينَةُ الْحَياةِ الدُّنْيَا والْبَاقِيَاتُ الصَّالِحاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَواباً وَخَيْرٌ أَمَلاً﴾**[2]).

وقال (أمّا بعد، فإنكم لم تعدلوا في المنطق، و لم تُنصفوا في القضاء. أمّا قولكم: تخلعُ نفسك، فلا أَنْزَعُ قميصاً، قمَصَنيه ا لله - عزّ وجلّ - وأكرمني به، وخصّني به على غيري، ولكنّي أتوب، وأنزعُ، ولا أعود لشيء، عابه المسلمون، فإنّي، وا لله، الفقير إلى ا لله، الخائف منه. أمّا أن أتبرّأ من الإمارة، فإن تَصْلبوني، أحبُّ إليّ من أن أتبرأ من أمر ا لله وخلافته. وأمّا قولكم تقاتلون من دوني، فإنّي لا آمر أحداً بقتالكم، فمن قاتل دوني، فقد قاتل بغير أمري. ولعمري، لو كنت أريد قتالكم،

---

[1] الطبري - تاريخه - أحداث سنة ٢٣ - ج٢ - ص٥٨٣.

[2] سورة الكهف الآيات / ٤٥ - ٤٦.

لقد كنت كتبتُ إلى الأجناد، فقادوا الجنود، وبعثوا الرجال، أو لحقتُ ببعض أطرافي بمصر أو عراق. فالله الله في أنفسكم، فأبقُوا عليها، إن لم تُبقوا عليّ، فإنّكم مُحتلبون بهذا الأمر، إن قتلتموني دماً).

وقال: (إنّ لكلّ شيءٍ آفة، وإنّ لكلّ نعمة عاهة، في هذا الدين عيّابون طنّانون، يُظهرون لكم ما تحبّونه، ويُسرّون ما تكرهون، يقولون لكم وتقولون، طَغامٌ مثل النعام، يتبعون أوّل ناعق، أحبّ مواردهم إليهم النازحَ. لقد أقررتم لابن الخطّاب بأكثر مما نقمتم عليّ. ولكنّه وقَمَكم وقمعَكم، وزجركم زَجْر النعام المُخزِّمة. والله، إنّي لأقربُ ناصراً وأعزّ نفيراً، وأقمَن ـ إن قلتُ هَلُمّ ـ أن تُجاب دعوتي من عمر، هل تفقدون من حقوقكم شيئاً؟ فما لي لا أفعل في الحقّ ما أشاءُ؟ إذن، فَلِمَ كنت إماماً؟)[1].

وصلت الخطابة على يد الإمام علي بن أبي طالب إلى قمتها، والمطلع على نهج البلاغة يلاحظ ذلك ومن المعروف أنه كان عميق التفكير، وكانت خطبه ذات أبعاد فلسفية، من حيث المضمون والأسلوب. في الوقت نفسه، امتازت خطبه بألفاظ فلسفية اصطلاحية: كالاين والكينة، واستعمل في خطبه الطريقة العددية في شرح المسائل، وفي تقسيمات الفضائل والرذائل، واستعمل أيضاً الدقة في صفات الموصوف.

إذن فخطبه ثروة معنوية مميزة، وسامية في عالم الآداب العربية والإسلامية بشكل خاص، والإنسانية بشكل عام، وتعدّ أيضاً ثروة معنوية قائمة على المتعة الأدبية والجمال الفني. أما خطبه من حيث الأسلوب، فالإمام علي اعتمد الأسلوب القرآني، الذي يقوم على الإيجاز والتركيز، حيث يغني القليل عن الكثير. فالجمل قوية بصورها وتشبيهاتها، معتمدة حيناً على السجع، وحيناً آخر على الازدواج والموازنة ((من لان عوده كثرت أغصانه)) وقوله ((حب لغيرك ما تحب لنفسك)) وقد يرد فيها الطباق والمقابلة كقوله: ((من كرمت عليه نفسه هانت عليه شهواته))[2]، أما الألفاظ فهي ذات وقع على النفس شديدة التأثير، قوية الدلالة على المعنى المراد، تتصف بالجزالة وسهولة النطق وجمال الوقع والقدرة على الايحاء بالجو العاطفي الملائم لمضمونها.

---

[1] شوقي ضيف ـ العصر الإسلامي ـ ص١٢٦.

[2] نهج البلاغة ـ تحقيق صبحي الصالح ـ ٤٤٩ ـ ص٥٥٥.

والمطلع على خطبه يلاحظ أنها ترمي إلى النصح والتوجيه حيناً والتحريض حيناً آخر وبذلك تراه يرسم الخطوط العامة للسياسة الإدارية والأصول القضائية، علماً أن أكثر خطبه كانت في الدين. والسياسة تراه يشير فيها، وينصح، ويعظ، وينشر، ويحض، ويحرض. وخطبه مشبعة بروح التقوى والدعوى إلى مناصرة الحق على الباطل والدين على الدنيا. وخطبه أيضاً تصور إيمانه بدينه وحقه أصدق تعبير وتصوير، ظهر فيها واضح النزعة، إلى الزهد والحرص على الآخرة.

وخطبه إنما هي تعبير عن الصدق العميق، لأنها تمثل عواطفه، وما يعتصر قلبه مرارة. فمن جهة تمثل آراءه في الناس والقدر، واعتصامه بحبل ا لله، يتجلى فيها السداد في الرأي، وخيال الأديب الفذ، وحكمة القائد المجرب، ويتجلى فيها إخلاص المؤمن المجاهد المتميز بالصدق والصراحة في التفكير والتعبير.

إذن المطلع على خطب الإمام في نهج البلاغة وكتب التاريخ يلاحظ أهم الأغراض، التي اعتمدها، ومن ذلك الخطب الكثيرة، التي تتحدث عما وراء الطبيعة (الإلهيات) كتنزيه ا لله، والرسل والأنبياء، والملائكة والأخبار عما سيكون، وغير ذلك. ومن الأغراض الأخرى، التي وردت بكثرة: ما تحدث فيها عن الخلق، كخلق آدم، والأرض والسماء والجبال وغيرها من المخلوقات. كما أبرز صور العصر، كالسياسة والحرب، وتفنيد آراء الخوارج، وغير ذلك من مبادىء السياسة وأساليب الحكم. وإدارة شؤونه، والحرص على دفع الفتن، وامتاز بعضها بالنقد والتعريض والعتاب والتقريع والتذمر والشكوى والحث على القتال والجهاد المتواصل ورفض الباطل بحجج منطقية وأسلوب راقٍ.

إضافة لما ورد، قال طائفة من الخطب في الوصف، حيث تبوأ الذروة في ذلك قديماً وحديثاً صور الحياة، فأبدع، وشخص الموت، فأجزع، ورسم لمشاهد الآخرة لوحات متكاملة. كما شمل كلامه على أوصاف عجيبة لبعض المخلوقات كالنملة والجرادة، وأهمها وصف الطاووس. ومن الأغراض التي أرادها في خطبه: الحض على التعليم والإرشاد، إذن جاءت خطبه ((عميقة من غير تعقيد، بسيطة من غير اسفاف، مستوفاة من غير أطناب، يلونها ترادف الجمل، ويزينها تقابل الألفاظ، وينسقها ضرب من التقسيم المنطقي، يجعلها أنفذ في الحس وألصق بالنفس)). وقيل: ((تتسم أفكار علي غالباً بالواقعية، إذ كان يستمد عناصرها من بيئته الاجتماعية والجغرافية. فأدبه

من هذه الناحية مرآة للعصر، الذي عاش فيه. صور منه ما قد كان، أو ما هو كائن. ولقد يطيب له أحياناً أن يصور ما ينبغي أن يكون، فتغدو أفكاره عصية التحقيق))[1].

يقول عبد الرحمن عيسى: ((وفي هذا المقام، أرى من الواجب أن نقف قليلاً، عند شيخ الخطباء، وإمام البلغاء ـ بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ سيدنا علي بن أبي طالب كرم الله وجهه. فقد كان أفصح الناس وأبلغهم، وأخطب العرب على الإطلاق بعد خاتم النبيين.

إنّ أبا الحسن، فارس البلاغة بلا منازع. فلقد شق للأدب طرائق، ومهد للبلاغة سبلاً، وأتى بما يقارب المعجز من البيان، في ألفاظ فخمة، ومعان بديعة، لم يُسبق إليها، ولغة رصينة متينة، تدل على عمقٍ ودراية، وفهمٍ مكين لأسرار العربية، وإحاطة بشاردها وواردها، وقدرة فائقة على حسن استخدامها وتطويعها، في التعبير البليغ، والبيان الساحر، واللفظ الوجيز، والمعنى المبتكر البديع، مع إصابة الغرض، وبلوغ منتهى الغاية، في إبراز الفكرة، وإجلاء المعنى لدى السامع والقارئ على حد سواء.

لقد منح الله ـ عزّ وجلّ ـ هذا الرجل، قريحة عجيبة، وملكة فريدة، وذاكرة قلما تنسى، وألقت إليه اللغة بأعنتها، فجرت على لسانه سحراً حلالاً، ومدت إليه البلاغة رواقها، وانقادت إليه، كما لم تنقد لأحد قبله ـ حاشا رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ. فقد فتح بيانه الخطابي آفاق الأدب، وفك ببلاغته طلاسم اللغة، وأنشأ للأدب والخطابة، مدرسة كان الأدباء والخطباء، ولا زالوا، عالة عليها.

وخلاصة القول: إنَّ الإمام كان قوي العارضة، متوقد الذكاء والقريحة، حاضر البديهة، فطناً لبيباً، حصيفاً أريباً، سريع الجواب، سديد الخطاب، ينطق بالحكمة البالغة، ويرسل كلامه، كأنه درر وجواهر، يذهب في الحياة كالمثل السائر. ولقد كان بيان الإمام، يأسر الألباب، ويُحق الحق، ويدمغ الباطل، وينفُذُ إلى أعماق الشعور، فتهتز له النفوس طرباً، ويقع في الأفئدة موقع الماء البارد من ذي الغلة الصادي.

ولا بِدْعَ إذا قلنا: إنَّ ما أثر عن الإمام من آداب وحِكَم، ومواعظ وخطب مطولة، ورسائل

---

[1] نهج البلاغة ـ تحقيق الدكتور صبحي الصالح (المقدمة) ـ ص١٦.

ممتعة، يأتي من حيث الأهمية والأثر، في اللغة والأدب في المرتبة التالية، لكتاب الله عزّ وجلّ، وسُنّة رسول الله صلى الله عليه وسلم))[1]. وقال: (وللإمام بلاغة ومنطق، يفلق الحبة، ويحيي القلوب الميتة، ويستثير المشاعر الهامدة، ويستنهض الهمم المتخاذلة، ويرد الجائح، ويبصر الغافل.

ولا عجب في ذلك، فالإمام علي ـ كرم الله وجهه ـ كما قال ضرار الصدائي: كان والله بعيد المدى شديد القوى، يقول فصلاً، ويحكم عدلاً، يتفجر العلم من جوانبه، وتنطق الحكمة من نواحيه، يستوحش من الدنيا وزهرتها، ويستأنس بالليل وَوحشته، وكان والله غزير العبرة، طويل الفكرة، يقلب كفه، ويخاطب نفسه، يعجبه من اللباس ما قصر، ومن الطعام ما خشن، كان فينا كأحدنا، يجيبنا إذا سألناه، وينبئنا إذا ما استنبأناه، ونحن مع تقريبه إيانا، وقربه منا، لا نكاد نكلمه لهيبته، ولا نبتدئه لعظمته، يعظّم أهلَ الدِّين، ويحب المساكين، لا يطمع القوي في باطله، ولا ييأس الضعيف من عدله، وأشهد لقد رأيته في بعض مواقفه، وقد أرخى الليل سدوله، وغارت نجومه، وقد مثل في محرابه، قابضاً على لحيته، يتململ تململ السليم[2]، ويبكي بكاء الحزين، ويقول:

(يا دنيا! غُرِّي غيري، إليَّ تعرضت؟ أم إليَّ تشوَّقت؟.. هيهات هيهات، قد باينتك ثلاثاً، لا رجعة فيها، فعمرك قصير، وخطرك حقير، آهِ من قلة الزاد، وبعد السفر، ووحشة الطريق).

أما بعد، فإن الذي يستلفت النظر، ويستهوي القلب، بعد كتاب الله وسُنّة رسوله، أدب الإمام علي، ونصوصه الخطابية، ودرره البلاغية، التي هي المنهل العذب، للواردين من طلاب الأدب، وروّاد المنطق والتبيين. وهي وفيرة في مادتها، غنية في ثروتها، وكم في تاريخ النهضة الحديثة، من رجال أفذاذ، تتلمذوا على أسلوب الإمام، وتخرجوا في مدرسته البلاغية الكبرى، وساروا على سَنَن أدبه، ونهج بلاغته. فرضي الله عنه وأرضاه، والسلام عليه، يوم ولد، ويوم قتل، ويوم يبعث حياً، وصلى الله على سيد الخلق، النبيِّ الأميِّ، سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه وسلم)[3].

بعدما ورد، نتحدث عن كيفية وصوله إلى السلطة كما ورد عند الطبري شيخ المؤرخين. بعد

---

[1] عبد الرحمن عيسى ـ أدب الخطابة الدينية في الدعوة الإسلامية ـ طبع دمشق ١٩٩٤ ـ ص٤١-٤٢.

[2] السليم: اللديغ ـ كأنهم تفاءلوا له بالسلامة.

[3] عبد الرحمن عيسى ـ الخطابة الدينية ـ ص٤٣-٤٤.

مقتل الخليفة عثمان، قدم أصحاب رسول الله إلى الإمام علي، فقالوا: (إن هذا الرّجل قد قُتل، ولا بدّ للناس من إمام، ولا نجد اليومَ أحداً أحقَّ بهذا الأمر منك، لا أقدمَ سابقةً، ولا أقربَ من رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: لا تفعلوا، فإني أكون وزيراً خيرٌ من أن أكون أميراً، فقالوا: لا، والله ما نحن بفاعلين حتى نُبايعَك، قال: ففي المسجد، فإنّ بيعتي لا تكون خَفِيّاً، ولا تكون إلاّ عن رضا المسلمين. قال سالم بن أبي الجعْد: فقال عبد الله بن عباس: فلقد كرهت أن يأتيَ المسجد مخافة أن يُشْغَب عليه، وأبى هو إلا المسجد، فلمّا دخل دخل المهاجرون والأنصار، فبايعوه، ثم بايعه الناس).

وقيل قالوا له: (إنه لا يصلح الناس إلا بإمرة، وقد طال الأمر، فقال لهم: إنكم قد اختلفتم إليّ، وأتيتم، وإنّي قائلٌ لكم قولاً، إن قبِلْتمُوه قبلت أمْرَكم، وإلا فلا حاجة لي فيه. قالوا: ما قلتَ من شيء قبلناه، إن شاء الله. فجاء، فصعد المنبرَ، فاجتمع الناس إليه، فقال: إني كنت كارهاً لأمركم، فأبيتم إلاّ أن أكون عليكم، ألا وإنه ليس لي أمرٌ دونكم، إلاّ أنّ مفاتيح مالكم معي، ألا وإنه ليس لي أن آخذَ منه درهماً دونكم، رضيتم؟ قالوا: نعم، قال: اللهمّ اشهد عليهم، ثمّ بايعهم على ذلك)[1].

وأول خطبة قالها الإمام علي بعد أن بويع له بالخلافة، كانت هذه الخطبة عندما دعا فيها المسلمين للإهتداء بالقرآن والإيمان بإخلاص لله تعالى والتزام النفوس قال: بعد أن حمد الله، وأثنى عليه، (إنّ الله تعالى أنزل كتاباً هادياً، بيّن فيه الخير والشرّ، فخذوا بالخير، ودعوا الشرّ. إنّ الله حرّم حُرماً مجهولة، وفضّل حُرمة المسلم على الحُرَم كلّها، وشدّ بالإخلاص والتوحيد حقوق المسلمين. والمسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده إلاّ بالحقّ. لا يحلّ لمسلم أذى مسلم إلاّ بما يجب.

بادروا أمر العامّة، وخاصّة أحدكم الموت، فإنّ الناس أمامكم، وإنّما خلفكم الساعة، تحدو بكم، فتخفّفوا تلحقوا، فإنما ينتظر بالناس أخراهم. اتقوا الله عباده في عباده وبلاده، فإنكم مسؤولون حتى عن البقاع والبهائم، ثم أطيعوا الله، ولا تعْصُوه. وإذا رأيتم الخير، فخذوا به، وإذا رأيتم الشرّ، فدعوه، واذكروا إذ أنتم قليلٌ مُستضعفون في الأرض، تخافون أن يتخطّفكم الناس،

---

[1] الطبري - تاريخه - أحداث سنة ٣٥ - المجلد الثاني - ص٦٩٦.

فآواكم، وأيّدكم بنصره، ورزقكم من الطيبات)[1].

ومن أشهر خطبه خطبة الجهاد، التي تحدث فيها عن فضل الجهاد ودرجته السامية الرفيعة، ووجوب التحصن به، وأوضح فيها المعاناة الهائلة، التي واجهها مع أنصاره، الذين عصوه في الدفاع عن حقه في الوقت، الذي أطاع أنصار معاوية أميرهم على باطله، يقول:

(أمّا بعد، فإنّ الجهادَ بابٌ من أبواب الجنّة، فتحه الله لخاصّة أوليائه، وهو لباسُ التقوى، ودرعُ الله الحصينة، وجنّته الوثيقة، فمن تركه رغبةً عنه ألبسه الله ثوبَ الذلّ، وشملهُ البلاء، ودُيِّث بالصَّغار والقَماءَة، وضُرب على قلبه بالأسداد، وأُديل الحقُّ منه بتضييع الجهاد، وسِيمَ الخسفَ، ومُنع النُصَفَ.

ألا وإنّي قد دعوتكم إلى قتال هؤلاء القوم ليلاً ونهاراً، وسِراً وإعلاناً، وقلت لكم: أغزوهم قبل أن يَغْزوكم، فوالله ما غُزِي قومٌ قطُّ في عُقْر دارهم إلاّ ذلّوا، فتواكلتم وتخاذلتم، حتى شُنّت عليكم الغاراتُ، ومُلكت عليكم الأوطان).

وقال فيها:

(فيا عجباً عجباً، والله يُميت القلب، ويجلبُ الهمّ، من اجتماع هؤلاء القوم على باطلهم، وتفرّقكم عن حقّكم! فقبحاً لكم وتَرْحاً، حين صِرتم غرضاً يُرْمَى، يُغار عليكم، ولا تُغيرون، وتُغزون، ولا تَغزون، ويُعصى الله، وترضون!.

فإذا أمرتكم بالسير عليهم في أيّام الحرّ قلتم: هذه حمارة القَيْظ أمهلنا يُسبَّخُ عنّا الحرّ، وإذا أمرتكم بالسير إليهم في الشتاء قلتم: هذه صبّارة القُرّ، أمهلنا ينسلخ عنا البرد. كلّ هذا فِرار من الحرّ والقَرّ. فإذا كنتم من الحرّ والقَرّ تفرّون، فأنتم والله من السيف أفَر.

يا أشباه الرجال ولا رجال! حُلومَ الأطفال، وعقولَ ربّات الحِجال، لَوددتُ أنّي لم أركم، ولم أعرفكم! معرفةً - والله - جرّت نَدماً، وأعقبت سَدَماً. قاتلكم الله! لقد ملأتم قلبي قيحاً، وشحنتم صدري غيظاً، وجرّعتموني نُغَب التّهْمامِ أنفاساً، وأفسدتم عليَّ رأيي بالعصيان والخِذلان، حتى لقد قالت قريش: إنّ ابن أبي طالب رجل شجاع، ولكن لا علم له بالحرب. لله أبوهم! وهل

---

[1] ابن كثير - البداية والنهاية - ج٧ ص٢٢٦.

أحدٌ منهم أشدُّ لها مِراساً، وأقدمُ فيها مُقاماً منّي؟ لقد نهضتُ فيها، وما بلغتُ العشرين، وهآنذا قد ذرّفت على الستين! ولكن لا رأي لمن لا يُطاع)[1]!

ومن أشهر خطبه الواعظة التي يذكر فيها ابتداء خلق السماء والأرض والملائكة وخلق آدم والحج مروراً بمبعث الرسول (ص) يقول:

((الحَمْدُ للهِ الَّذي لاَ يَبْلُغُ مِدْحَتَهُ الْقَائِلُونَ، وَلاَ يُحْصِي نَعْمَاءَهُ الْعَادُّونَ. وَلاَ يُؤَدِّي حَقَّهُ الْمُجْتَهِدُونَ، الَّذِي لاَ يُدْرِكُهُ بُعْدُ الهِمَمِ. وَلاَ يَنَالُهُ غَوْصُ الْفِطَنِ. الَّذِي لَيْسَ لِصِفَتِهِ حَدٌّ مَحْدُودٌ. وَلا نَعْتٌ مَوْجُودٌ. وَلا وَقْتٌ مَعْدُودٌ. وَلاَ أَجَلٌ مَمْدُودٌ. فَطَرَ الْخَلائِقَ بِقُدْرَتِهِ، وَنَشَرَ الرِّيَاحَ بِرَحْمَتِهِ، وَوَتَّدَ بالصُّخُورِ مَيَدَانَ أَرْضِهِ.

أَوَّلُ الدِّينِ مَعْرِفَتُهُ. وَكَمَالُ مَعْرِفَتِهِ التَّصْدِيقُ بِهِ. وَكَمَالُ التَّصْدِيقِ بِهِ تَوْحِيدُهُ. وَكَمَالُ تَوْحِيدِهِ الإِخْلاصُ لَهُ. وَكَمَالُ الإِخْلاصِ لَهُ نَفْيُ الصِّفَاتِ عَنْهُ، لِشَهَادَةِ كُلِّ صِفَةٍ أَنَّها غَيْرُ الْمَوْصُوفِ، وَشَهَادَةِ كُلِّ مَوْصُوفٍ أَنَّهُ غَيْر الصِّفَةِ: فَمَنْ وَصَفَ ا لله سُبْحَانَهُ فَقَدْ قَرَنَهُ، وَمَنْ قَرَنَهُ فَقَدْ ثَنَّاهُ. وَمَنْ ثَنَّاهُ فَقَدْ جَزَّأَهُ. وَمَنْ جَزَّأَهُ فَقَدْ جَهِلَهُ، وَمَنْ جهِلَهُ فَقَدْ أَشَارَ إِلَيْهِ، وَمَنْ أَشَارَ إِلَيْهِ فَقَدْ حَدَّهُ، وَمَنْ حَدَّهُ فَقَدْ عَدَّهُ، ومن قال: فِيمَ فَقَدْ ضمنَّهُ، ومن قَالَ عَلاَمَ فَقَدْ أَخْلَى مِنهُ. كَائِنٌ لاَ عَنْ حَدَثٍ، مَوْجُودٌ لاَ عَنْ عَدَمٍ. مَعَ كُلِّ شَيْءٍ لاَ بِمُقَارَنَةٍ، وَغَيْرُ كُلِّ شَيْءٍ لاَ بِمُزَايَلَةٍ، فَاعِلٌ لا بِمَعْنَى الْحَرَكَاتِ وَالآلَةِ: بَصِيرٌ إِذْ لاَ مَنْظُورَ إِلَيْهِ مِنْ خَلْقِهِ، مُتَوَحِّدٌ إِذْ لاَ سَكَنَ يَسْتَأْنِسُ بِهِ، وَلاَ يَسْتَوْحِشُ لِفَقْدِهِ.

خلق العالم

أَنْشَأَ الْخَلْقَ إِنْشَاءً، وَابْتَدَأَهُ ابْتِدَاءً، بِلاَ رَوِيَّةٍ أَجَالَهَا، وَلاَ تَجْرِبَةٍ، اسْتَفَادَهَا، وَلاَ حَرَكَةٍ، أَحْدَثَهَا، وَلاَ هَمَامَةِ نَفْسٍ، اضْطَرَبَ فِيهَا. أَحَالَ الأَشْيَاءَ لأَوْقَاتِها، وَلأم بَيْنَ مُخْتَلِفَاتِهَا، وَغَرَّزَ غَرائِزَهَا، وَأَلْزَمَهَا أَشْبَاحَهَا، عَالِماً بِهَا قَبْلَ ابْتِدائِهَا، مُحِيطاً بِحُدُودِها وَانْتِهَائِهَا، عَارِفاً بِقَرَائِنِها وَأَحْنَائِهَا.

ثُمَّ أَنْشَأَ - سُبْحَانَهُ ـ فَتْقَ الأَجْوَاءِ، وَشَقَّ الأَرْجَاءِ، وَسَكَائِكَ الْهَوَاءِ، فَأَجْرَى فِيهَا مَاءً، مُتَلاطِماً تَيَّارُهُ، مُتَرَاكِماً زَخَّارُهُ. حَمَلَهُ عَلَى مَتْنِ الرِّيحِ الْعَاصِفَةِ. وَالزَّعْزَعِ القَاصِفَةِ، فَأَمَرَهَا بِرَدِّهِ،

[1] نهج البلاغة ـ صبحي الطيب ـ ص٩٦.

وَسَلَّطَهَا عَلَى شَدِّهِ، وَقَرَنَهَا إِلَى حَدِّهِ. الْهَوَاءُ مِنْ تَحْتِها فَتِيقٌ، وَالْمَاءُ مِنْ فَوْقِهَا دَفِيقٌ.

ثُـمَّ أَنْشَـأَ ـ سُبْحَانَهُ ـ رِيحاً، اعْتَقَـمَ مَهَبَّهَـا، وَأَدَامَ مُرَبَّهَـا، وَأَعْصَـفَ مَجْرَاهَـا، وَأَبْعَـدَ مَنْشَاهَا، فأَمَرَهَـا بِتَصْفِيـقِ المَـاء الزَّخَّـارِ، وَإِثَـارَةِ مَـوْجِ الْبِحَـارِ، فَمَخَضَتْـهُ مَخْـضَ السِّـقَاء، وَعَصَفَـتْ بـهِ عَصْفَهَـا بِالْفَضَـاء. تَـرُدُّ أَوَّلَـهُ إِلَـى آخِـرِهِ، وَسَاجِيَهُ إِلَـى مَـائِرِهِ، حَتَّـى عَـبَّ عُبَابُـهُ، وَرَمَـى بـالزَّبَدِ رُكَامُـهُ، فَرَفَعَـهُ فِي هَـوَاءٍ مُنْفَتِـقٍ، وَجَـوٍّ مُنْفَهِـقٍ، فَسَوَّى مِنْـهُ سَبْعَ سَـمواتٍ، جَعَـلَ سُفْلاَهُنَّ مَوْجاً مَكْفُوفاً، وَعُلْيَـاهُنَّ سَقْفاً مَحْفُوظاً، وَسَـمْكاً مَرْفُوعـاً، بِغَـيْرِ عَمَـدٍ يَدْعَمُهَـا، وَلا دِسَـارٍ، يَنْظِمُهَـا. ثُـمَّ زَيَّنَهَـا بزِينَـةِ الْكَوَاكِـبِ، وَضِيَـاءِ الثَّوَاقِـبِ، وَأَجْـرَى فِيهـا سِـرَاجاً مُسْتَطِيراً، وَقَمَراً مُنِـيراً: فِي فَلَـكٍ دَائِـرٍ، وَسَـقْفٍ سَـائِرٍ، وَرَقِيـمٍ مَـائِرٍ.

خلق الملائكة

ثُمَّ فَتَقَ مَا بَيْنَ السَّمواتِ الْعُلاَ، فَمَلأَهُنَّ أَطْواراً مِنْ مَلاَئِكَتِـهِ، مِنْهُـمْ سُـجُودٌ، لاَيَرْكَعُـونَ. وَرُكُوعٌ لاَ يَنْتَصِبُونَ. وَصَافُّونَ، لا يَتَزَايَلُونَ، وَمُسَـبِّحُونَ لاَ يَسْـأَمُونَ. لاَ يَغْشَـاهُمْ نَـوْمُ الْعُيُـونِ، وَلاَ سَهْوُ الْعُقُولِ. وَلاَ فَتْرَةُ الأَبْدَانِ. وَلاَ غَفْلَةُ النِّسْيَانِ. وَمِنْهُـمْ أُمَنَـاءُ عَلَـى وَحْيِـهِ، وَأَلْسِنَةٌ إِلَـى رُسُـلِهِ، وَمُخْتَلِفُونَ بِقَضَائِهِ وَأَمْرِهِ.

وَمِنْهُمُ الْحَفَظَةُ لِعِبَادِهِ. وَ السَّدَنَةُ لأَبْوَابِ جِنانِهِ. وَمِنْهُمُ الثَّابِتَةُ فِي الأَرَضِـيَ السُّـفْلَى أَقْدَامُهُـمْ، وَالْمَارِقَةُ مِنَ السَّـمَاء الْعُلْيَـا أَعْنَـاقُهُمْ، وَالخَارِجَـةُ مِـنَ الأَقْطَـارِ أَرْكَـانُهُمْ. وَالْمُنَاسِبَةُ لِقَوَائِـمِ الْعَـرْشِ أَكْتَافُهُمْ. نَاكِسَةٌ دُونَهُ أَبْصَارُهُمْ، مُتَلَفِّعُونَ تَحْتَهُ بِأَجْنِحَتِهِمْ، مَضْرُوبَةٌ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَنْ دُونَهُـمْ حُجُـبُ العِـزَّةِ، وَأَسْتَارُ الْقُـدْرَةِ. لاَ يَتَوَهَّمُـونَ رَبَّهُـمْ بـالتَّصْوِيرِ وَلاَ يُجْـرُونَ عَلَيْـهِ صِفَـاتِ الْمَصْنُوعِـينَ، وَلا يَحُدُّونَهُ بِالأَمَاكِنِ، وَلا يُشِيرُونَ إِلَيْهِ بِالنَّظَائِرِ.

صفة خلق آدم عليه السلام

ثُمَّ جَمَعَ سُـبْحَانَهُ مِـنْ حَـزْنِ الأَرْضِ وَسَـهْلِهَا، وَعَذْبِهَـا وَسَبَخِهَا، تُرْبَـةً سَنَّهَا بِالْمَـاءِ حَتَّـى خَلَصَتْ، وَلاَطَهَا بِالْبَلَّةِ حَتَّى لَزَبَتْ، فَجَبَـلَ مِنْهـا صُـورَةً ذَاتَ أَحْنَـاءٍ وَوُصُـولٍ، وَأَعْضَـاءٍ وَفُصُـولٍ: أَجْمَدَهَا حَتَّى اسْتَمْسَكَتْ، وَأَصلَدَهَا حَتَّى صَلْصَلَت لِوَقْتٍ مَعْدُودٍ، وَأَمَدٍ مَعْلُومٍ، ثُمَّ نَفَـخَ فِيهـا مِـنْ رُوحِهِ، فَمَثُلَتْ إِنْساناً ذَا أَذْهَانٍ يُجِيلُها، وَفِكَرٍ يَتَصَـرَّفُ بِهَـا، وَجَـوَارِحَ يَخْتَدِمُهَـا، وَأَدَوَاتٍ يُقَلِّبُهَـا،

وَمَعْرِفَةٍ يَفْرُقُ بِهَا بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ، وَالأَذْوَاقِ وَالْمَشَامِّ، وَالأَلْوَانِ وَالأَجْنَاسِ، مَعْجُوناً بِطِينَةِ الأَلْوَانِ الْمُخْتَلِفَةِ، وَ الأَشْبَاهِ الْمُؤْتَلِفَةِ، وَالأَضْدَادِ الْمُتَعَادِيَةِ، وَالأَخْلاطِ الْمُتَبَايِنَةِ، مِنَ الْحَرِّ وَالْبَرْدِ، وَالْبَلَّةِ وَالْجُمُودِ.

وَاسْتَأْدَى اللهُ سُبْحَانَهُ الْمَلائِكَةَ وَدِيعَتَهُ لَدَيْهِمْ، وَعَهْدَ وَصِيَّتِهِ إِلَيْهِمْ، فِي الإِذْعَانِ بِالسُّجُودِ لَهُ، وَ الْخُنُوعِ لِتَكْرِمَتِهِ، فَقَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿اسْجُدُوا لآدَمَ، فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ﴾[1] اعْتَرَتْهُ الْحَمِيَّةُ، وَغَلَبَتْ عَلَيْهِ الشِّقْوَةُ، وَتَعَزَّزَ بِخِلْقَةِ النَّارِ، وَاسْتَوْهَنَ خَلْقَ الصَّلْصَالِ، فَأَعْطَاهُ اللهُ النَّظِرَةَ اسْتِحْقَاقاً لِلسُّخْطَةِ، وَاسْتِتْمَاماً لِلْبَلِيَّةِ، وَإِنْجَازاً لِلْعِدَةِ، فَقَالَ: ﴿قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ. إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ﴾[2].

ثُمَّ أَسْكَنَ سُبْحَانَهُ آدَمَ دَاراً أَرْغَدَ فِيهَا عَيْشَهُ، وَآمَنَ فِيهَا مَحَلَّتَهُ، وَحَذَّرَهُ إِبْلِيسَ وَعَدَاوَتَهُ، فَاغْتَرَّهُ عَدُوُّهُ نَفَاسَةً عَلَيْهِ بِدَارِ الْمُقَامِ، وَمُرَافَقَةِ الأَبْرَارِ، فَبَاعَ الْيَقِينَ بِشَكِّهِ، وَالْعَزِيمَةَ بِوَهْنِهِ، وَاسْتَبْدَلَ بِالْجَذَلِ وَجَلاً، وَبِالاغْتِرَارِ نَدَماً. ثُمَّ بَسَطَ اللهُ سُبْحَانَهُ لَهُ فِي تَوْبَتِهِ، وَلَقَّاهُ كَلِمَةَ رَحْمَتِهِ، وَوَعَدَهُ الْمَرَدَّ إِلَى جَنَّتِهِ، وَأَهْبَطَهُ إِلَى دَارِ الْبَلِيَّةِ، وَتَنَاسُلِ الذُّرِّيَّةِ.

اختيار الأنبياء

وَاصْطَفَى سُبْحَانَهُ مِنْ وَلَدِهِ أَنْبِيَاءَ أَخَذَ عَلَى الْوَحْيِ مِيثَاقَهُمْ، وَعَلَى تَبْلِيغِ الرِّسَالَةِ أَمَانَتَهُمْ. لَمَّا بَدَّلَ أَكْثَرُ خَلْقِهِ عَهْدَ اللهِ إِلَيْهِمْ فَجَهِلُوا حَقَّهُ، وَاتَّخَذُوا الأَنْدَادَ مَعَهُ، وَاجْتَالَتْهُمُ الشَّيَاطِينُ عَنْ مَعْرِفَتِهِ، وَاقْتَطَعَتْهُمْ عَنْ عِبَادَتِهِ، فَبَعَثَ فِيهِمْ رُسُلَهُ، وَوَاتَرَ إِلَيْهِمْ أَنْبِيَاءَهُ، لِيَسْتَأْدُوهُمْ مِيثَاقَ فِطْرَتِهِ، وَيُذَكِّرُوهُمْ مَنْسِيَّ نِعْمَتِهِ، وَيَحْتَجُّوا عَلَيْهِمْ بِالتَّبْلِيغِ، وَيُثِيرُوا لَهُمْ دَفَائِنَ الْعُقُولِ، وَيُرُوهُمْ آيَاتِ الْمَقْدِرَةِ: مِنْ سَقْفٍ فَوْقَهُمْ مَرْفُوعٍ، وَمِهَادٍ تَحْتَهُمْ مَوْضُوعٍ، وَمَعَايِشَ تُحْيِيهِمْ، وَآجَالٍ تُفْنِيهِمْ، وَأَوْصَابٍ تُهْرِمُهُمْ، وَأَحْدَاثٍ تَتَابَعُ عَلَيْهِمْ، وَلَمْ يُخْلِ اللهُ سُبْحَانَهُ خَلْقَهُ مِنْ نَبِيٍّ مُرْسَلٍ، أَوْ كِتَابٍ مُنْزَلٍ، أَوْ حُجَّةٍ لازِمَةٍ، أَوْ مَحَجَّةٍ قَائِمَةٍ: رُسُلٌ لا تُقَصِّرُ بِهِمْ قِلَّةُ عَدَدِهِمْ. وَلا كَثْرَةُ الْمُكَذِّبِينَ لَهُمْ: مِنْ سَابِقٍ، سُمِّيَ لَهُ مَنْ بَعْدَهُ، أَوْ غَابِرٍ عَرَّفَهُ مَنْ قَبْلَهُ: عَلَى ذلِكَ نَسَلَتِ الْقُرُونُ، وَمَضَتِ الدُّهُورُ، وَسَلَفَتِ الآبَاءُ، وَخَلَفَتِ الأَبْنَاءُ.

---

[1] سورة البقرة ـ الآية / ٣٤.

[2] سورة الحجر ـ الآية / ٣٧ ـ ٣٨.

مبعث النبوة

إِلَى أَنْ بَعَثَ اللهُ سُبْحَانَهُ مُحَمَّداً رَسُولَ اللهِ، صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ لإِنْجَازِ عِدَّتِهِ، وَإِتْمَامِ نُبُوَّتِهِ، مَأْخُوذاً عَلَى النَّبِيِّينَ مِيثَاقُهُ، مَشْهُورَةً سِمَاتُهُ، كَرِيماً مِيلادُهُ. وَأَهْلُ الأَرْضِ يَوْمَئِذٍ مِلَلٌ مُتَفَرِّقَةٌ، وَأَهْوَاءٌ مُنْتَشِرَةٌ، وَطَرَائِقُ مُتَشَتِّتَةٌ، بَيْنَ مُشَبِّهٍ للهِ بِخَلْقِهِ، أَوْ مُلْحِدٍ فِي اسْمِهِ، أَوْ مُشِيرٍ إِلَى غَيْرِهِ، فَهَدَاهُمْ بِهِ مِنَ الضَّلالَةِ، وَأَنْقَذَهُمْ بِمَكَانِهِ مِنَ الْجَهَالَةِ. ثُمَّ اخْتَارَ سُبْحَانَهُ لِمُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِقَاءَهُ، وَرَضِيَ لَهُ مَا عِنْدَهُ، وَأَكْرَمَهُ عَنْ دَارِ الدُّنْيَا، وَرَغِبَ بِهِ عَنْ مَقَامِ الْبَلْوَى، فَقَبَضَهُ إِلَيْهِ كَرِيماً، صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ، وَخَلَّفَ فِيكُمْ مَا خَلَّفَتِ الأَنْبِيَاءُ فِي أُمَمِهَا، إِذْ لَمْ يَتْرُكُوهُمْ هَمَلاً، بِغَيْرِ طَرِيقٍ وَاضِحٍ، وَلاَ عَلَمٍ قَائِمٍ.

القرآن والأحكام الشرعية

كِتَابُ رَبِّكُمْ فِيكُمْ: مُبَيِّناً حَلاَلَهُ وَحَرَامَهُ، وَفَرَائِضَهُ وَفَضَائِلَهُ، وَنَاسِخَهُ وَمَنْسُوخَهُ، وَرُخَصَهُ وَعَزَائِمَهُ، وَخَاصَّهُ وَعَامَّهُ، وَعِبَرَهُ وَأَمْثَالَهُ، وَمُرْسَلَهُ وَمَحْدُودَهُ، وَمُحْكَمَهُ وَمُتَشَابِهَهُ، مُفَسِّراً مُجْمَلَهُ، وَمُبَيِّناً غَوَامِضَهُ، بَيْنَ مَأْخُوذٍ مِيثَاقُ عِلْمِهِ، وَمُوَسَّعٍ عَلَى الْعِبَادِ فِي جَهْلِهِ، وَبَيْنَ مُثْبَتٍ فِي الْكِتَابِ فَرْضُهُ، وَمَعْلُومٍ فِي السُّنَّةِ نَسْخُهُ، وَوَاجِبٍ فِي السُّنَّةِ أَخْذُهُ، وَمُرَخَّصٍ فِي الْكِتَابِ تَرْكُهُ، وَبَيْنَ وَاجِبٍ بِوَقْتِهِ، وَزَائِلٍ فِي مُسْتَقْبَلِهِ. وَمُبَايَنٌ بَيْنَ مَحَارِمِهِ، مِنْ كَبِيرٍ أَوْعَدَ عَلَيْهِ نِيرَانَهُ، أَوْ صَغِيرٍ أَرْصَدَ لَهُ غُفْرَانَهُ، وَبَيْنَ مَقْبُولٍ فِي أَدْنَاهُ، مُوَسَّعٍ فِي أَقْصَاهُ.

ومنها في ذكر الحج

وَفَرَضَ عَلَيْكُمْ حَجَّ بَيْتِهِ الْحَرَامِ، الَّذِي جَعَلَهُ قِبْلَةً لِلأَنَامِ، يَرِدُونَهُ وُرُودَ الأَنْعَامِ، وَيَأْلَهُونَ إِلَيْهِ وُلُوهَ الْحَمَامِ، وَجَعَلَهُ سُبْحَانَهُ عَلاَمَةً لِتَوَاضُعِهِمْ لِعَظَمَتِهِ، وَإِذْعَانِهِمْ لِعِزَّتِهِ، وَاخْتَارَ مِنْ خَلْقِهِ سُمَّاعاً أَجَابُوا إِلَيْهِ دَعْوَتَهُ، وَصَدَّقُوا كَلِمَتَهُ، وَوَقَفُوا مَوَاقِفَ أَنْبِيَائِهِ، وَتَشَبَّهُوا بِمَلاَئِكَتِهِ الْمُطِيفِينَ بِعَرْشِهِ. يُحْرِزُونَ الأَرْبَاحَ فِي مَتْجَرِ عِبَادَتِهِ، وَيَتَبَادَرُونَ عِنْدَهُ مَوْعِدَ مَغْفِرَتِهِ، جَعَلَهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لِلإِسْلامِ عَلَماً، وَلِلْعَائِذِينَ حَرَماً، فَرَضَ حَقَّهُ، وَأَوْجَبَ حَجَّهُ، وَكَتَبَ عَلَيْكُمْ وِفَادَتَهُ، فَقَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿وَللهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً، وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾[1].

---

[1] سورة آل عمران ـ الآية / ٩٧.

ثانياً ـ الخطابة في العصر الأموي:

بلغت الخطابة في العصر الأموي أقصى نشاط وازدهار لها. ومرد ذلك السياسة التي اتبعها الأمويون، والتي لقيت معارضة جارفة. وأهمها كان على الخلافة. من ذلك معارضة عبد الله بن الزبير وثورته وخلافته. ومن ذلك أيضاً الخوارج، وثورة الحسين، وثورة العباسين وثورة المختار، وغير ذلك الكثير. وكان لكل حزب سياسي خطباء، يصورون مذاهبهم السياسية، ويدعون لها، ويدعون بالثورة على الحزب الأموي. وكان الأمويون يردون. وكان للوفود التي استقبلها الخلفاء والقواد دور مهم في تطور الخطابة، سواء أكانت الوفود قادمة من أجل التهنئة، أم التعزية، أم النصرة. أم ما شابه ذلك، وكان الأمويون يعلمون الفتيان الناشئين الخطابة ويدربونهم عليها.

وكانت الخطابة في العصر الأموي قد اعتمدت الإقناع والتأثير في النفوس، واعتماد الشعر ومأثور الكلام، أما الأسلوب، فاستمر فطرياً، وكان الخطيب ـ عندما يخطب ـ يحرص على أن يضع في يده عصا أو قوساً أو سيفاً. وكان يعتمر العمامة، ويلبس الرداء.

إذن كانت موضوعات الخطابة متعددة. فقد استعملت في الدعاية السياسية عند الأحزاب السياسية، وفي الجدل الديني، وفي الوفادة على الخلفاء وولاتهم، وفي المناقضات، والمفاخرات، واستعملها الحكام والقادة كأداة للوعيد والتهديد. إذن ظهرت النزعة السياسية في الخطابة الأموية، وغلب عليها التحرر من الرسوم الدينية، وكثر فيها الاستشهاد بالشعر، وقل الاقتباس من القرآن الكريم والحديث، وغلا بعض الخطباء الأمويين، فترك الحمد في أول الخطبة، كما فعل زياد بن أبيه، في خطبته البتراء. وغلب على الخطب السياسية في هذا العصر ضخامة الألفاظ والعنف والمبالغة في الوعيد، والتهديد والإسراف في السب والشتم. من ذلك ما فعله معاوية بن أبي سفيان، عندما أمر بسب الإمام على المنابر في خطبة الجمعة.

وإلى جانب الخطب السياسية، كانت الخطابة الدينية، التي اعتمدتها الأحزات المعارضة للأمويين، والتي كانت تعمل بكل ما لديها، لقلب السلطة والقضاء عليها. والخطابة الدينية رغم امتيازها بالتزام الحمد في أولها، والصلاة على النبي، والاستشهاد بآيات القرآن الكريم، والاقتباس منه، والتحذير من الدنيا وغرورها، والتخويف من الآخرة. رغم ذلك، فهي في النتيجة، خطبُ

سياسية، هدفها - كما ورد - تغيير نظام الحكم بالدرجة الأولى، فأصبح المعارضون للسلطة - وخاصة الخوارج - خطباء كلهم، وكانوا يخطبون في نظرياتهم السياسية، وفي معتقداتهم الدينية، ويتنافسون فيها في كل مكان، في السلم والحرب، وفي المحافل الدينية الخاصة.

في المرحلة التي أسست فيها الدولة الأموية، كثرت الثورات والصراعات والانقسامات والفتن، وتنازعت الأهواء، وتنابزت الآراء. في هذه المرحلة، أسهم الأدب في الحياة العامة، وبشكل خاص فن النثر، لاسيما الخطابة في تصوير تلك الحياة، حتى أطلق على عصر بني أمية العصر الذهبي للخطابة، فلقد ساعدت كثرة الصراعات والحروب وغيرها على تطوير الخطابة السياسية. كما كان لانتشار الفتوحات، وكثرة الحروب فضل في تطوير الخطابة الحربية، وقرب عهد الأمويين من فجر الإسلام، ووجود بعض الصحابة في ذلك العصر أيضاً، ساعد على انتشار وازدهار الخطابة الدينية.

إذن انتشرت الخطابة بفروعها في العصر الأموي، وكثر الخطباء من مختلف الأحزاب السياسية. لذلك نذكر بعض الخطباء المشهورين في العصر الأموي. وفي ذلك توضيح لتطور الخطابة في هذا العصر. ومن خطباء العصر الأموي زياد بن أبيه، علماً أن أكثر الخلفاء الأمويين امتازوا بالخطابة.

زياد بن أبيه:

ولد زياد بن أبيه في السنة الأولى للهجرة، وقيل كانت ولادته عام فتح مكة في السنة الثامنة للهجرة، توفي سنة ٥٣هـ في عهد معاوية، تولى عدداً من المناصب. منها أعمال فارس في خلافة الإمام علي. وفي عهد معاوية تولى البصرة وأعمالها، ثم تولى الكوفة، أي أنه كان والي العراقين وأعمالهما.

وصف: بأنه كان أبرز خطباء بني أمية وأعظم خطيب سياسي في الأدب القديم ومن أشهر خطبه تلك التي عرفت: (البتراء)[1]، وسميت بذلك لأنه لم يفتتحها بالحمد لله، كما كانت العادة، وألقاها سنة (٤٥هـ)، عندما ولي البصرة.

---

[1] عمر فاروق الطباع - مواقف في الأدب الأموي - طبع بيروت ١٩٩١ - ص٢٥٤.

الخطبة البتراء:

(أمّا بعد، فإنّ الجهالة الجهلاء، والضّلالة العمياء، والغيّ الموفي بأهله على النار، وما فيه سفهاؤكم، ويشتمل عليه حلماؤكم، من الأمور العظام، ينبت فيها الصغير، ولا يتحاشى عنها الكبير، كأنّكم لم تقرؤوا كتاب الله، ولم تسمعوا ما أعدَّ الله من الثواب الكريم لأهل طاعته، والعذاب العظيم لأهل معصيته، في الزمن السّرمديّ الذي لا يزول. أتكونون كمن طرفت عينه الدّنيا، وسدَّت مسامعه الشّهوات، واختار الفانية على الباقية، ولا تذكرون أنكم أحدثتم في هذه المواخير المنصوبة، والضعيفة المسلوبة في النّهار المبصر، والعدد غير قليل؟.

ألم يكن منكم نهاة، تمنع الغواة عن دلج اللّيل وغارة النهار، قربتم القرابة، وباعدتم الدين، تعتذرون بغير العذر، وتغضُّون على المختلس، كلّ امرىء منكم يذبّ عن سفيهه، صنيع من لا يخاف عاقبة، ولا يرجو معاداً، ما أنتم بالحكماء، ولقد اتبعتم السُّفهاء، فلم يزل بكم ما ترون من قيامكم دونهم، حتّى انتهكوا حرم الإسلام، ثم أطرقوا وراءكم كنوساً في مكانس الرّيب. حرام عليّ الطّعام والشراب، حتى أسويها بالأرض هدماً وإحراقاً.

إنّي رأيت آخر هذا الأمر لا يصلح، إلا بما صلح به أوّله: لين في غير ضعف، وشدة في غير عنف. وإني أقسم بالله: لآخذن الوليّ بالمولى، والمقيم بالظاعن، والمقبل بالمدبر، والمطيع بالعاصي، والصحيح بالسَّقيم، حتى يلقى الرّجل منكم أخاه، فيقول: انج سعيد، فقد هلك سعيد! أو تستقيم قناتكم! إنَّ كذبة الأمير بلقاء مشهورة، فإذا تعلّقتم عليّ بكذبة، فقد حلّت لكم معصيتي، فإذا سمعتموها منّي فاغتمزوها فيّ، واعلموا:

أنّ عندي أمثالها. من نقب منكم عليه فأنا ضامن، لما ذهب من ماله، فإيّاي ودلج الليل، فإنّي لا أوتى بمدلج، إلا سفكت دمه،وقد أجلتكم في ذلك بمقدار ما يأتي الخبر الكوفة، ويرجع إليكم. وإيّاي ودعوى الجاهلية، فإنّي لا أجد أحداً دعا بها إلا قطعت لسانه. وقد أحدثتم أحداثاً، لم تكن، وقد أحدثنا لكل ذنب عقوبة، فمن أغرق قوماً أغرقناه، ومن أحرق قوماً أحرقناه، ومن نقب بيتاً نقبنا عن قلبه، ومن نبش قبراً دناه فيه حيّاً - فكفّوا عني أيديكم وألسنتكم، أكفف عنكم يدي ولساني - ولا تظهر من أحدكم ريبة بخلاف ما عليه عامّتكم، إلا ضربت عنقه.

وقد كانت بيني وبين أقوام إحنٌ، فجعلت ذلك دبر أذني، وتحت قدمي. فمن كان منكم محسناً فليزدد أحساناً، ومن كان منكم مسيئاً فلينزع عن إساءته - إنّي لو علمت أن أحدكم قد قتله السّلّ من بغضي، لم أكشف له قناعاً، ولم أهتك له ستراً، حتى يبدي لي صفحته، فإذا فعل ذلك لم أناظره - فاستأنفوا أموركم، وأعينوا على أنفسكم، فربَّ مبتئس بقدومنا سيسرّ، ومسرور بقدومنا سيبتئس.

أيّها النّاس! إنّا أصبحنا لكم ساسة وعنكم ذادة: نسوسكم بسلطان الله الذي أعطانا، ونذود عنكم بفيء الله الذي خوّلنا، فلنا عليكم السَّمع والطاعة في ما أحببنا، ولكم علينا العدل في ما ولّينا، فاستوجبوا عدلنا وفيئنا بمناصحتكم لنا. واعلموا أنّي مهما قصّرت عنه، فلن أقصر عن ثلاث: لست محتجباً عن طالب حاجة منكم،ولو أتاني طارقاً بليل، ولا حابساً عطاء ولا رزقاً عن إبّانه ولا مجمراً لكم بعثاً. فادعوا الله بالصلاح لأئمتكم، فإنّهم ساستكم المؤدّبون لكم، وكهفكم الذي إليه تأوون، ومتى يصلحوا تصلحوا، ولا تشربوا قلوبكم بغضهم، فيشتدَّ لذلك غيظكم ويطول له حزنكم، ولا تدركوا له حاجتكم، مع أنه لو استجيب لكم فيهم، لكان شراً، لكم أسأل الله أن يعين كلاً على كلّ. وإذا رأيتموني أنفذ فيكم الأمر فأنفذوه على إذلاله وايم الله! إنَّ لي فيكم لصرعى كثيرة. فليحذر كلّ امرىء منكم أن يكون من صرعاي!.)"[1].

تعدّ هذه الخطبة بمنزلة (دستور للسياسة التي يتبعها) زياد بن أبيه بعد توليه البصرة، توضح منهجه في العمل وطريقته في الحكم، والخطوات الكفيلة باستمرار الأمور واستقرار الأمن. إذن اعتمد في خطبته أساليب متعددة ومواقف مختلفة، من ذلك إظهاره ما يسود البصرة من الفساد، لذلك أوضح بأنه سيعالج الفساد بوضع أحكام لمواجهته، وأوضح أيضاً التزام السلطة. وفي ذلك إصلاح الأمور إضافة إلى إظهاره الشدة والحزم في التنفيذ.

يكشف زياد بن أبيه في خطبته هذه أسلوب شخصيته، الذي أنتجته الخبرة، وصقلته التجربة، وأمدها الدهاء بالحنكة، وقوله الذكاء أن يكون مرناً أحياناً، شديداً أحياناً أخرى، واعتمد في خطبته على الفكرة المجردة أكثر من الصور المعبرة، واتسمت خطبته بالعنف، والترهيب، والمبالغة في ذلك أحياناً. إلا أنه كان في بعضها يميل إلى الاعتدال واللين. إذن كان يربط التهديد والوعيد بالإصلاح،

[1] الجاحظ - البيان والتبيين - المجلد الأول - ج٢ - ص٦٢.



وفي ذلك معرفة نفسية بمجتمعه وعصره، كما اعتمد زياد في خطبته الإقناع من النحاحيتين: الدينية والعقلية. وغايته تخفيف مآربه السلطوية. ومع ذلك جاءت الخطبة جيدة فصيحة متناسقة متآلفة جزلة.

أما الأسلوب الذي اتبعه زياد بن أبيه، فهو بعيد عن الزخرفة والتنميق والتكلف والتصنع. فيه استعارات وتشابيه، وهذه الخطبة من الناحية الفنية يظهر فيها الإفصاح والإيضاح، وقوة المنطق. أما من الناحية التاريخية فهي تمثل صورة عصر بني أمية وعنوان سياستهم.

أخيراً، كان وضع الخطبة كبيراً، وأدت الغرض الذي كان يهدف إليه زياد بن أبيه. علماً أنه لم يستوح فيها الدين، كما هو واضح، إنما استوحى الظروف وملابساتها، والواقع ومشكلاته. هذا وقد استقبل أهل البصرة هذه الخطبة بتفاوت،منهم من استكان وأذعن، ومنهم من أنكر، ومنهم من أثنى، فاستقبل أراءهم ـ كل حسب مكانته ـ بالروية والأناة. ومن أهم خطب القادة الأمويين:

١ـ خطبة معاوية بالمدينة عام الجماعة:

قدم معاوية عام الجماعة (سنة ٤١هـ). فتلقاه رجال قريش، فقالوا: الحمد لله الذي أعز نصرك، وأغلى كعبك، فما رد عليهم شيئاً، حتى صعد المنبر، فحمد الله، وأثنى عليه، ثم قال:

(أما بعد، فإني والله ما وليتها بمحبة، علمتها منكم،ولا مسرة بولايتي، ولكن جالدتكم بسيفي هذا مجالدة، ولقد رضيت لكم نفسي على عمل ابن أبي قحافة، وأردتها على عمل عمر، فنفرت من ذلك نفاراً شديداً، وأردتها على سنيات عثمان، فأبت علي فسلكت بها طريقاً لي ولكم فيه منفعة: مؤاكلة حسنة، ومشاربة جميلة، فإن لم تجدوني خيركم فإني خير لكم ولاية، والله لا أحمل السيف على من لا سيف له، وإن لم يكن منكم إلا ما يستشفى به القائل بلسانه، فقد جعلت ذلك له دبر أذني، وتحت قدمي، وإن لم تجدوني أقوم بحقكم كله، فاقبلوا مني بعضه، فإن أتاكم مني خير فاقبلوه، فإن السيل إذا جاد يثري، وإذا قل أغنى، وإياكم والفتنة، فإنها تفسد المعيشة، وتكدر النعمة)[1] .

---

[1] ابن عبد ربه ـ العقد الفريد ـ ج٤ ـ ص١٧١.

٢- وصيته لابنه يزيد:

ولما حضرت معاوية الوفاة؟ ويزيد غائب، دعا معاوية مسلماً بن عقبة المري والضحاك بن قيس الفهري، فقال: أبلغا عني يزيداً وقولا له: (يا بني إني قد كفيتك الشد والترحال، ووطأت لك الأمور، وذللت لك الأعداء، وأخضعت لك رقاب العرب، وجمعت لك ما لم يجمعه أحد، فانظر أهل الحجاز، فإنهم أصلك وعترتك، فمن أتاك منهم فأكرمه، ومن قعد عنك فتعهده. وانظر أهل العراق، فإن سألوك: أن تعزل عنهم كل يوم عاملاً فافعل. فإن عزل عامل أهون عليك من سل مائة ألف سيف، ثم لا تدري علام أنت عليه منهم؟ ثم انظر أهل الشام، فاجعلهم الشعار دون الدثار، فإن رابك من عدوك ريب فارمهم بهم، فإن أظفرك الله بهم فاردد أهل الشام إلى بلادهم، ولا يقيموا في غير بلادهم، فيتأدبوا بغير أدبهم.

وإني لست أخاف عليك أن ينازعك هذا الأمر إلا أربعة نفر من قريش: الحسين بن علي، وعبد الله بن عمر، وعبد الله بن الزبير، وعبد الرحمن بن أبي بكر. فأما عبد الله بن عمر فرجل قد وقذه الورع، وإذا لم يبق أحد غيره بايعك. وأما الحسين بن علي: فإنه رجل خفيف، وأرجو أن يكفيكه الله بمن قتل أباه، وخذل أخاه، ولا أظن أهل العراق تاركيه حتى يخرجوه، فإن خرج وظفرت به، فاصفح عنه، فإن له رحماً ماسة، وحقاً عظيماً، وقرابة من محمد صلوات الله عليه وسلامه. وأما ابن أبي بكر: فإن رأى أصحابه صنعوا شيئاً صنع مثلهم، ليست له همة إلا في النساء واللهو.

وأما ابن الزبير: فإنه خب ضب، فإن ظفرت به فقطعه إرباً[1] (أو قال): (وأما الذي يجثم لك جثوم الأسد، ويراوغك مراوغة الثعلب. فإن أمكنته فرصة وثب. فذاك ابن الزبير، فإن هو وثب عليك. فظفرت به. فقطعه إرباً إرباً، واحقن دماء قومك ما استطعت)[2].

٣- خطبة عبد الملك بن مروان لما دخل الكوفة بعد قتل مصعب:

ودخل عبد الملك بن مروان الكوفة بعد قتل مصعب بن الزبير، فصعد المنبر، فحمد

---

[1] ابن عبد ربه - العقد الفريد - ج٤ - ص١٧٥.

[2] أحمد زكي صفوت - جمهرة خطب العرب - ج١ - ص١٨٧.

ا لله، وأثنى عليه، وصلى على النبي صلى ا لله عليه وسلم، ثم قال[1]: (أيها الناس إن الحرب صعبة مرة، وإن السلم أمن ومسرة، وقد زبنتنا الحرب وزبناها، فعرفناها وألفناها، فنحن بنوها، وهي أمنا.

أيها الناس فاستقيموا على سبل الهدى، ودعوا الأهواء المردية، وتجنبوا فراق جماعات المسلمين، ولا تكلفونا أعمال المهاجرين الأولين، وأنتم لا تعملون أعمالهم، ولا أظنكم تزدادون بعد الموعظة إلا شراً، ولن نزداد بعد الإعذار إليكم والحجة عليكم إلا عقوبة، فمن شاء منكم أن يعود بعد لمثلها فليعد، فإنما مثلي ومثلكم كما قال قيس بن رفاعة الأنصاري:

من يصل ناري بلا ذنب ولا ترة	يصل بنار كريم غير غدار
أن النذير لكم مني مجاهرة	كيلا ألام على نهي وإنذار
فإن عصيتم مقالي اليوم فاعترفوا	أن سوف تلقون خزيا ظاهر العار
لترجعن أحاديثا ملعنة	لهو المقيم ولهو المدلج الساري
من كان في نفسه حوجاء يطلبها	عندي فإني له رهن بإصحار
أقيم عوجته إن كان ذا عوج	كما يقوّم قدح النبعة الباري
وصاحب الوتر ليس الدهر مدركه	عندي، وإني لدراك بأوتار

ابن الزبير: كان لقيام الدولة الأموية أكبر الأثر في نشأة الأدب السياسي وانتشار اللغة وتأصلها. بعد قيامها تعددت مذاهب الشعراء والخطباء والسياسيين. وكان حزب ابن الزبير، الذي أعلن نفسه خليفة، بعد موت يزيد بن معاوية سنة ٦٤هـ، أكثر الأحزاب خطورة. فسلطة ابن الزبير امتدت لتشمل العراق والحجاز وفلسطين[2].

كان الأمويون في ذلك الوقت في حالة فوضى واضطراب، بعد وصول عبد الملك بن مروان إلى السلطة، وفراغه من المشاكل التي كانت تعترضه، وكان أهمها: قتله لعمرو بن سعيد بن العاص،

---

[1] أحمد زكي صفوت ـ جمهرة خطب العرب ـ ج١ ـ ص١٨٧.

[2] عبد الأمير عبد حسين دكسن ـ الخلافة الأموية ـ طبع بيروت ١٩٧٣ ـ ص١٩٩.

ثم خروجه إلى العراق وقتله لمصعب بن الزبير في موقعة دير الجاثليق (جمادى الأولى أو الثانية سنة ٧٢هـ/٦٩١م) أرسل الحجاج إلى الحجاز في السنة نفسها وحاصر ابن الزبير، لمدة ستة أشهر. كانت النتيجة قتل عبدالله بن الزبير في (١٧ جمادى الأولى/٧٣هـ ـ ١٨ أيلول ٦٩٢م). وبقتله توحد العالم العربي الإسلامي، وقضي على أكبر الخصومات السياسية في الدولة، وأكثرها خطراً، ويعدّ ابن الزبير أهم خطباء حزبه، يليه مصعب بن الزبير.

١ـ خطبة عبد الله بن الزبير لما بلغه قتل أخيه مصعب: لما قتل عبد الملك بن مروان مصعب بن الزبير (سنة ٧١هـ)، وانتهى خبر مقتله إلى عبد الله ابن الزبير، أضرب عن ذكره أياماً حتى تحدث به إماء مكة في الطريق. ثم صعد المنبر فجلس عليه ملياً، لا يتكلم. والكآبة على وجهه. وجبينه يرشح عرقاً. فقال رجل من قريش لرجل إلى جانبه: ماله لا يتكلم؟ أتراه يهاب المنطق؟ فوالله إنه للبيب الخطباء، قال: لعله يريد أن يذكر مقتل مصعب سيد العرب، فيشتد ذلك عليه، وغير ملوم، ثم تكلم فقال:

((الحمد لله الذي له الخلق والأمر، وملك الدنيا والآخرة، يؤتي الملك من يشاء، وينزع الملك ممن يشاء، ويعز من يشاء، ويذل من يشاء. أما بعد: فإنه لم يعز الله من كان الباطل معه، وإن كان معه الأنام طراً. ولم يذل من كان الحق معه، وإن كان مفرداً ضعيفاً، ألا وإنه قد أتانا خبر من العراق، بلد الغدر والشقاق، فساءنا، وسرنا: أتانا أن مصعباً قتل، رحمة الله عليه ومغفرته. فأما الذي أحزننا من ذلك، فإن لفراق الحميم لذعة ولوعة، يجدها حميمة عند المصيبة، ثم يرعوي من بعده والرأي والدين إلى جميل الصبر، وكريم العزاء. وأما الذي سرنا منه، فإنا قد علمنا أن قتله شهادة له، وأنه ـ عز وجل ـ جاعل لنا وله في ذلك الخيرة إن شاء الله تعالى.

أسلمه الطغام، الصم الآذان، أهل العراق، إسلام النعم المخطمة، وباعوه بأقل من الثمن الذي كانوا يأخذون منه. فإن يقتل فقد قتل أبوه وعمه وأخوه. وكانوا الخيار الصالحين. إنا والله لا نموت حتف آنافنا، ولكن قعصاً بالرماح، وموتاً تحت ظلال السيوف، وليس كما يموت بنو مروان. والله ما قتل رجل في زحف في جاهلية ولا إسلام قط، ألا وإنما الدنيا عارية. من الملك القهار الذي لا يزول سلطانه، ولا يبيد ملكه. فإن تقبل الدنيا عليّ لم آخذها أخذ الأشر البطر، وإن تدبر عني لم

أبك عليها بكاء الخرق المهين، أقول قولي هذا واستغفر الله لي ولكم) ثم نزل))[1].

طارق بن زياد:

من المعروف أن الفتوحات استمرت في الغرب في عهد الوليد بن عبد الملك، وقائده آنذاك كان موسى بن نصير، الذي كان يتبع للخليفة مباشرة، بعد أن فصل عن مصر منذ عهد معاوية. وكان موسى يلقب بأمير القيروان[2]. كان موسى بن نصير قد عمل على اختبار الأندلس بالسرايا تنفيذاً لتوجيهات الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك في رجب من سنة ٩٢هـ. فأرسل موسى بن نصير جيشاً، قوامه سبعة آلاف، أكثرهم موالي، وقيل: كلهم بقيادة طارق بن زياد، ثم نقلهم بالسفن، فنزل مقابل سبته (الجزيرة الخضراء). وهناك أحرق طارق بن زياد السفن، وقال خطبته المشهورة[3] وهي كما يلي:

١- خطبة لطارق بن زياد يحث بها جيشه على الجهاد، ويرغبهم في فتح الأندلس:

حمد الله، وأثنى عليه، ثم قال: ((أيها الناس! أين المفر؟ البحر من ورائكم والعدو أمامكم، وليس لكم والله إلا الصدق والصبر. واعلموا أنكم في هذه الجزيرة أضيع من الأيتام في مأدبة اللئام، وقد استقبلكم عدوكم بجيشه وأسلحته، وأقواته موفورة، وأنتم لا وزر لكم إلا سيوفكم، ولا أقوات إلا ما تستخلصونه من أيدي عدوكم، وإن امتدت بكم الأيام على افتقاركم، ولم تنجزوا لكم أمراً، ذهبت ريحكم وتعوضت القلوب من رعبها منكم الجرأة عليكم فادفعوا عن أنفسكم خذلان هذه العاقبة من أمركم، بمناجزة هذا الطاغية فقد ألقت به إليكم مدينته الحصينة.

وإن انتهاز الفرصة فيه لممكن، إن سمحتم لأنفسكم بالموت، وإني لم أحذركم أمراً أنا عنه بنجوة، ولا حملتكم دوني على خطة، أرخص متاع فيها النفوس، أبدأ بنفسي، واعلموا أنكم إن صبرتم على الأشق قليلاً استمتعتم بالأرفة الألذ طويلاً. فلا ترغبوا بأنفسكم عن نفسي. فما حظكم فيه بأوفر من حظي. وقد بلغكم ما أنشأت، هذه الجزيرة من الخيرات العميمة، وقد انتخبكم الوليد

---

[1] أحمد زكي صفوت - جمهرة خطب العرب - ج١ - ص١٧٥ وما بعدها.

[2] المراكشي - عبد الواحد المراكش - المعجب في تلخيص أخبار المغرب - تحقيق سعيد العريان والعربي طبع مصر ١٩٤٩ - ص٩ - الطبري - تاريخ الرسل والملوك - ج٦ - ص١٦٦.

[3] المقري - نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب - تحقيق أحمد مزيد الرفاعي - طبع مصر ١٩٢٦ - ج٢ ص١٥٠.

ابن عبد الملك أمير المؤمنين من الأبطال عربانا، ورضيكم لملوك هذه الجزيرة أصهاراً وأختانا، ثقة منه بارتياحكم للطعان وسماحكم بمجالدة الأبطال والفرسان. ليكون حظه منكم ثواب الله على إعلاء كلمته، وإظهار دينه بهذه الجزيرة، وليكون مغنمها خالصاً لكم من دونه ومن دون المؤمنين سواكم، والله تعالى ولي إنجادكم على ما يكون لكم ذكراً في الدارين.

واعلموا أني أول مجيب إلى ما دعوتكم إليه، وأني عند ملتقى الجمعين حامل بنفسي على طاغية القوم رذريق، فقاتله إن شاء الله تعالى، فاحملوا معي، فإن هلكت بعده فقد كفيتم أمره، ولم يعوزكم بطل عاقل، تسندون أموركم إليه، وإن هلكت قبل وصولي إليه فاخلفوني في عزيمتي هذه، واحملوا بأنفسكم عليه، واكتفوا الهم من فتح هذه الجزيرة بقتله))[1].

الحجاج بن يوسف:

اسمه كليب بن يوسف بن الحكم، لقبه الحجاج من بني ثقيف، ولد بالطائف سنة (٤١هـ ـ ٦٦١م) امتاز بالجرأة والفصاحة، تعاطى مهنة التعليم، كما كان أبوه يتعطاها من قبله. بعد ذلك اعتزل التعليم، وانضم إلى المروانيين ضد الزبيريين. عمل في الشرطة عند روح بن رنباع، ثم ولي أمر الجند. اشترك مع الخليفة عبد الملك بن مروان في حربه ضد مصعب، بعد ذلك ولي محاربة عبد الله ابن الزبير، وتمكن من قتله، والقضاء على الحزب الزبيري.

ولي الحجاز واليمن واليمامة لعبد الملك بن مروان. بعد ذلك ضمت له العراقان (البصرة والكوفة) سنة ٧٤هـ، وعندما اشتد أمر الخوارج، تمكن من القضاء عليهم (الأزارقة). ومن أشهر معاركه معهم، معركة دير الجماجم، التي دارت رحاها بينه وبين ابن الأشعث.ولما له من المحبة عند عبد الملك بن مروان، فقد قال عنه: (إن الحجاج جلدة ما بين عيني). ومما أوصى به ابنه الوليد قوله له: (وأما الحجاج فأنت أحوج إليه منه إليك) وكان الوليد بن عبد الملك مثل قول أبيه يقول: إن عبد الملك كان يقول: إن الحجاج جلدة ما بين عيني، إلا أنه جلدة وجهي كله[2].

له خطب كثيرة، أهمها خطبته بالكوفة. وكان هدفه منها اخضاع أهل الكوفة وأولادهم،

---

[1] المقري ـ نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب ـ ج ـ ص ـ أحمد زكي صفوت ـ جمهرة خطب العرب ـ ج٢ ـ ص٣١٤.

[2] الجاحظ ـ البيان والتبين ـ ج١ ـ ص٢٨٦.

واعتمد في خطبته الإرهاب. وهو الذي وصف أهل العراق في هذه الخطبة بقوله: أنهم أهل شقاق ونفاق ومساوىء الأخلاق، وأنهم أهل فتنة وضلال. وكل هذه الأمور تستوجب العقاب. واعتقد أنه اعتمد في وصفه لأهل العراق على الإمام علي، عندما خاطب أهل العراق بقوله: يا أهل العراق، إنما أنتم كالمرأة الحامل حملت فلما أملصت، ومات قيمها إلخ... وقال:

(يا أهل الكوفة، منيت منكم بثلاث واثنتين: صم ذوو أسماع،وبكم ذوو كلام، وعمي ذوو أبصار، ولا أحرار صدق عند اللقاء، ولا إخوان ثقة عند البلاء، تربت أيديكم، يا أشباه الإبل، غاب عنها رعاتها، كلما جمعت من جانب، تفرقت من آخر، وا لله لكأني بكم فيما إخالكم: أن لو حمس الوغى وحمي الضراب، قد انفرجتم عن أبي طالب انفراج المرأة عن قلبها. إنـي على بيّنة من ربي ومنهاج من نبيي، وإني لعلى الطريق الواضح، ألقطه لقطاً)[1].

لكن الفرق واضح، فالحجاج اعتمد الترهيب بكافة أشكاله وألوانه، وهذا معروف عنه، إنما الإمام علي في قوله الوارد الذكر، تراه وكأنه أب رؤوف عطوف، يقول، ويعمل لرد أهل العراق إلى جادة الصواب. ولم يعتمد الحجاج في خطبته الإقناع، إنما اعتمد تحقيق هدفه عن طريق الترهيب، حتى قيل في هذه الخطبة: كأنها تكاد أن تكون بمجملها مجموعة معاني الرعب، مفرغة فيصور مخضبة بالدماء، ومعبراً عنها بألفاظ وتعابير مختارة عن معاجم السفاحين ولهجاتهم[2].

خطبة الحجاج بالكوفة:

((أنا ابن جلا وطلاّع الثنايا — متى أضع العمامة تعرفوني

يا أهل الكوفة! إنّي لأرى رؤوساً قد أينعت، وحان قطافها، وإنّي لصاحبها. وكأني انظر إلى الدّماء ترقرق بين العمائم واللّحى، ثم قال:

هذا أوان الشدّ، فاشتدّي زيم — قد لفّها اللّيل بسوّاق حطم

ليس براعي إبل ولا غنم — ولا بجزّار على ظهر وضم

قد لفّها الليل بعصلبيّ — أروع خراج من الدّويّ

مهاجر ليس بأعرابيّ

[1] نهج البلاغة ـ تحقيق صبحي الطيب ـ ص١٠٠.

[2] المرجع نفسه ـ ص ١٤٢.

ثم قال:

قد شمّرت عن ساقها فشدّوا وجدّت الحرب بكم، فجدّوا
والقوس فيها وتر عردّ مثل ذراع البكر أو أشدّ
لا بدّ ممّا ليس منه بدّ

إنيّ - وا لله - يا أهل العراق! ومعدن الشقّاق والنفّاق، ومساوىء الأخلاق، ما يقعقع لي بالشنّان، ولا يغمز جانبي كتغماز التّبن، ولقد فررت عن ذكاء، وفتّشت عن تجربة. وإن أمير المؤمنين أطال - ا لله بقاءه - نشر كنانته بين يديه، فعجم عيدانها، فوجدني أمرّها عوداً، وأصلبها مكسراً، فرماكم بي، لأنكم طالما أوضعتم في الفتنة، واضطجعتم في مراقد الضّلال، وايم ا لله! لألحونّكم لحو العصا، ولأقرعنّكم قرع المروة لأحزمنّكم حزم السلمة، ولأضربنكم ضرب غرائب الإبل. فإنكم لكأهل قرية، كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغداً من كلّ مكان فكفرت بأنعم ا لله، فأذاقها ا لله لباس الجوع والخوف، بما كانوا يصنعون.

أنا الحجاج بن يوسف وا لله ما أقول إلا وفّيت، ولا أهمّ إلا أمضيت، ولا أخلق إلا فريت، فإياي وهذه الزرافات والجماعات، وقال وقيل وما تقول، وفيم أنتم وذاك؟ وا لله لتستقيمنّ على طريق الحق، أو لأعدنّ لكل رجل منكم شغلاً في جسده. وإن أمير المؤمنين أمرني بإعطائكم أعطياتكم، وأن أوجهكم لمحاربة عدوّكم مع المهلب ابن أبي صفرة، وإني أقسم با لله لا أجد رجلاً، تخلّف بعد عطائه ثلاثة أيام، إلا ضربت عنقه))[1].

ثالثاً - الخوارج:

الخوارج أحد الأحزاب المعارضة لحكم بني أمية، وكانوا قبل ذلك قد خرجوا على الإمام علي، وحاربوه. وقبل ذلك، شاركوا الذين ثاروا على عثمان بن عفان من أهل العراق، وكفروه. وسموا: الشراة، أي شراة الجنة في الآخرة، أما خصومهم فيسمونهم: المارقين أو الناصية.

---

[1] عمر فاروق الطباع - مواقف في الأدب الأموي - ص٢٧٤ - الجاحظ اللبيان والتبين - ج٢ - ص٣٠٨ - أحمد زكي صفوت - جمهرة خطب العرب - ج٢ - ص٢٨٨ وما بعدها.

في سنة ٤٢هـ بايع الخوارج المستورد بن علقمة التميمي أميراً للمؤمنين، وحشدوا أنفسهم واستعدوا للقتال في سنة ٤٣هـ، حاربهم المغيرة، وقتل أميرهم يوم المدار بين واسط والبصرة، ثم خرجوا مرة أخرى سنة ٥٨هـ في ولاية عبد الرحمن بن عثمان بن ربيعة للكوفة، فهزمهم.

أما في البصرة، فعندما ولي زياد بن أبيه البصرة سنة (٤٥هـ)، ثم أضيفت له الكوفة سنة (٥٠هـ) فقد كان شديداً على الخوارج، تسلم بعده ابنه عبيد الله بن زياد في عهده. وفي سنة (٥٨هـ) خرج الخوارج إلى الأهواز، وزعيمهم آنذاك أبو بلال مرداس بن اديه التميمي، فأرسل ابن زياد قواته لمحاربتهم، ودارت معركة في (اسل) سنة (٦٠هـ) انهزم فيها جيش ابن زياد.

في سنة (٦١هـ)، أرسل عبيد الله بن زياد جيشاً لمحاربة الخوارج، يقوده عباد بن علقمة التميمي. وبعد أن أمنهم قتلهم عن آخرهم، وهم ساجدون يصلون، ومعهم زعيمهم المذكور، بعد ذلك غادر الخوارج البصرة إلى مكة استجابة لنداء نافع بن الأزرق، الذي كان يناظر عبد الله بن الزبير.

حين محاصرة جيش يزيد بن معاوية لمكة سنة (٦٤هـ)، حارب الخوارج إلى جانب ابن الزبير. فانسحب الجيش الأموي إلى الشام. بعد ذلك حدث خلاف بين ابن الزبير والخوارج، فعاد بعضهم إلى البصرة، وبعضهم الآخر إلى اليمامة. ثم خرج نافع ابن الأزرق إلى الأهواز سنة (٦٤هـ)، واستولى عليها، واجتمع إليه رؤوساء الخوارج. منهم قطري بن الفجاءة، وعبد ربه الكبير، وغيرهم ثم حدث خلاف بينهم، وانفصل نجدت بن عامر باليمامة، وأعلن أصحابه بأنه أمير المؤمنين.

في سنة (٦٥هـ) قتل نافع بن الأزرق في معركة (دولاب) قرب الأهواز، وفي الوقت نفسه قتل قائد الجيش الأموي، فاستنجد أهل البصرة بابن الزبير، فأرسل إلى واليه بخراسان المهلب بن أبي صفرة بالتوجه إلى البصرة ومحاربة الأزارقة، فقتل قائد الأزارقة عبد الله بن الماحوز، فارتحلوا إلى الأهواز، وبايعوا الزبير بن علي ابن الماحوز.

حين تقلد مصعب بن الزبير ولاية العراقين ولى المهلب الجزيرة، وأخذ مصعب يحارب الأزارقة حتى تمكن من قتل أميرهم الزبير، فبايع الخوارج قطري بن الفجاءة، وعادوا إلى الأهواز، ومنها إلى أرض سولاق في منطقة خوزستان، فتوجه المهلب بقواته إليهم سنة (٦٨هـ)، واستمر في حربه لهم.

أما ابن الزبير فقد أحسّ بخطر الخوارج في اليمامة والبحرين، والذين يقودهم نجدة ابن عامر، فوجه ابنه حمزة الذي كان والياً على البصرة إلى قتالهم، وجرت معركة في منطقة القصيف، ربحها الخوارج سنة (٦٨هـ) بعد ذلك حدث خلاف بين الخوارج، وقتل نجدة بن عامر، وتولى قيادتهم أبو فديك. وفي سنة ٧٢هـ هزم جيش من أهل البصرة والكوفة أبا فديك، واستسلم، وانتهت ثورته بعد مقاومة، استمرت سبع سنوات.

بعد مقتل مصعب بن الزبير، انحاز معظم جيشه إلى عبد الملك بن مروان سنة (٧٢هـ) وبايع المهلب عبد الملك، ثم كلف عبد الملك المهلب بحرب الأزارقة في سنة (٧٥هـ). تولى الحجاج أمر العراقين فكلف المهلب محاربة الأزارقة، ففروا إلى بلاد فارس، واستمر القتال بينهم، حتى قضي عليهم في معركة جيرفت سنة (٧٥هـ).

في سنة (٧٦هـ) خرج صالح بن مسرح الخارجي فقتل، فبايع الخوارج أبا الصحارى شبيب ابن يزيد الشيباني، ودارت معارك كثيرة مع الأمويين، وحين وصل شبيب مع بعض أتباعه إلى الكوفة، استنجد الحجاج بالخليفة الأموي عبد الملك بن مروان، فأرسل له جيشاً من أهل الشام، يقوده سفيان بن الأبرد الكلبي، وفي سنة (٧٧هـ) حدثت معركة السبخة (موضع البصرة) وحدثت معركة أخرى هي معركة الأنبار وانسحب شبيب على أثرها، فطارده سفيان بن الأبرد، حيث قتل شبيب غرقاً سنة (٧٧هـ).

بعد ذلك دب الخلاف بين الخوارج، فخلعوا قطرياً بن الفجاءة، وتمردوا عليه، وبايعوا عبد ربه الكبير، فحاربهم المهلب، وقتل أميرهم المذكور سنة (٧٧هـ) أما قطري ومن اتبعه، فقد وجه إليه الحجاج، وهو بطبرستان جيشاً بقيادة سفيان بن الأبرد، فقاتل الخوارج، حتى قتل قطري بن الفجاءة سنة (٧٧هـ).

في هذه المرحلة بقيت الصفرية من الخوارج قوية في الموصل، وهم أتباع صالح بن مسرح، وفي عهد عمر بن عبد العزيز خرج شوذب اليشكري قائد الصفرية سنة (١٠٠هـ) واستمر أمرهم حتى عهد هشام بن عبد الملك، حيث خرج زعيمهم، واسمه البهلول بن بشر سنة (١١٩هـ)، فحاربهم خالد بن عبد الله القسري وبددهم.

بعد قتل الوليد بن يزيد سنة (١٢٦هـ)، احتشد الخوارج في العـراق بقيـادة سـعيد بـن بهـدل الشيباني. فقضى عليهم، ومات سـعيد الشيباني بالطـاعون، فخلفـه الضحـاك بـن قيـس الشـيباني، وانضم إليه الصفرية، ونازعوا الخليفة مروان بن محمد في أرمينيـه، وأذربيجـان، وفي سـنة (١٢٧هـ) انتصر الضحاك في الكوفة، ودخل واليها عبد الله بن عمر بن عبد العزيز في طاعة الضحاك، وصلـى خلفه. ثم استولى الضحاك على الكوفة والموصل، وانضم إليه سليمان بن هشام بن عبد الملك.

حارب الخليفة مروان الضحاك ومن معه من الخـوارج، فـالتقى الطرفـان في كفـر توشـا سـنة (١٢٨هـ) فقتل الضحاك، فقاد الخوارج الخيبري الشيباني، ثم قتـل الأخير فولـوا عليهـم أبـا الدلـف شيبان اليشكري فهزمهم الخليفة الأموي مروان سنة (١٢٩هـ)، وأهلكهم.

بقيت فرقة الأباضية، يقودها عبد الله بن أباض التميمي في البصرة مسالمين، حتى كانت سـنة (١٠٧هـ) فخرجوا باليمن، وفي الوقت نفسه خرج عبد الله بن يحيى الكنـدي في حضرمـوت أيـام الخليفة مروان بن محمد وكان أبو حمزة المختار بن عوف الأزدي أحد أعضاء الأباضيـة، وكـان يفـد إلى مكة حاجاً وكل سنة يثير الناس على بني أمية.

في سنة (١٢٩هـ) بايع الأباضية عبد الله بن يحيـى بالخلافـة، وأعلـن دعوتـه بحضرمـوت، ثـم توجه إلى اليمن، فازداد أتباعه، وفي موسم الحج أرسلت قوة قوامها سبعمائة رجل بقيادة أبـي حمـزة ووالي المدينة آنذاك عبد الواحد بن سليمان بن عبد الملك، فعقد مع الخوارج هدنة مدتها مدة الحج. بعد الحج أرسل والي المدينة إلى أبي حمزة جيشاً بقيادة عبد العزيز بن عبـد الله بـن عثمـان الأمـوي، قوامه ثمانية آلاف مقاتل، والتقى الطرفان في موقـع اسمـه (قديـد) فـانتصر الخـوارج سـنة (١٣٠هـ) ودخل أبو حمزة المدينة، فمكث، فيها ثلاثة أشـهر، وخطـب مـن علـى منـبر الرسـول (ص) خطبتـه المشهورة الواردة الذكر.

وفي سنة (١٣٠هـ) زحف جيش الشام، يقوده عبد الملـك بـن محمـد بـن عطيـة السـعدي إلى المدينة، وخرج الخوارج إلى وادي القرى، وجرت معركة، كانت نهايتها لصالح الأمويين، وقتـل أبـو حمزة، ثم توجه الجيش الأموي إلى حضرموت، فقتل زعيـم الأباضيـة عبـد الله بـن يحيى، وبذلـك كانت نهايتهم في العصر الأموي.

بعد هذه اللمحة التاريخية الموجزة عن تاريخ الخوارج، نعود إلى الخطابة والخطباء عند العرب حيث كان من أفضل خطبائهم كما هو معروف، أبو حمزة - والمختار - وقطري بن الفجاءة.

قطري بن الفجاءة:

قطري بن الفجاءة واسم الفجاءة جعونة بن مازن المازني التميمي، وكان أحد زعماء الخوارج، ثم خرج في عهده مصعب بن الزبير، لما ولي العراق من قبل أخيه عبد الله ابن الزبير، وكانت ولاية مصعب سنة (٦٦هـ). استمر قطري بن الفجاءة عشرين سنة يقاتل، ويسلم عليه بالخلافة[1]، وقيل: بقي ثلاث عشرة سنة يقاتل، ويسلم عليه بالخلافة، وإمارة المؤمنين، وكانت كنيته في الحرب أبا نعامة وفي السلم أبا محمد، الذي وصف بأنه كان خطيباً فارساً شاعراً.

عندما قتل الزبيريون الماحوز سنة (٦٨هـ)، انحازت الأزارقة إلى قطري بن الفجاءة، فبايعوه ثم خرج باتباعه إلى ناحية كرمان، فأقام بها حتى اجتمعت إليه جموع كثيرة، وامتد أمر الخوارج، وكلف المهلب بقتالهم من قبل الحجاج، فحاربهم في سابور. في هذا الوقت، كانت كرمان بيد الخوارج، وفارس بيد المهلب. وجرت حروب طويلة، بينه وبينهم في مدينة جيرفت: عاصمة كرمان، واستمر القتال بينهم ثمانية عشر شهراً ولم يقدر عليهم. خلال هذه المرحلة حدث خلاف بين الأزارقة، يذكره الطبري، بقوله:

((ثم إن رجلاً منهم،كان عاملاً لقطري على ناحية كرمان، خرج في سرية لهم، ويدعى المقعطر من بني ضبة، فقتل رجلاً من الخوارج قد كان ذا باس، ودخل منهم في ولاية، فقتله المقعطر، فوثبت الخوارج إلى قطري، فذكروا له ذلك، وقالوا: أمكنا من الضبي نقتله بصاحبنا، فقال لهم: ما أرى أن أفعل، رجل تأول فأخطأ، في التأويل، ما أرى أن تقتلوه، وهو من ذوي الفضل منكم، والسابقة فيكم، قالوا: بلى، قال لهم: لا، فوقع الاختلاف بينهما، فولوا عبد ربه الكبير، وخلعوا قطرياً، وبايع قطرياً منهم عصابة نحو ربعهم أو خمسهم فقاتلهم نحواً من شهر غدوة وعشية[2])).

[1] ثريا عبد الفتاح محسن - حزب الخوارج في آداب العصر الأموي - طبع بيروت ١٩٨٩ - ص١٤٩.

[2] الطبري وتاريخه - المجلد الثالث - أحداث سنة ٧٧ - ص ٦٠٢.

أبو حمزة الخارجي:

اسمه يحيى بن المختار بن عوف الأزدي، أبو حمزة لقبه، والخارجي نسبة إلى الخوارج، وقيل: أبو حمزة الشاري، والشاري نسبة إلى الشراة، عرف عنه: أنه كان نساك الأباضية، كان يرد الموسم كل عام، فيحرض الناس على خلاف مروان بن محمد، ذكره الطبري[1] في أحداث سنة (١٢٨هـ) بقوله:

(كان أول أمر أبي حمزة، وهو المختار بن عوف الأزدي السليمي من البصرة، قال موسى:كان أول أمر أبي حمزة أنه كان يوافي كل سنة مكة يدعو الناس إلى خلاف مروان بن محمد وإلى خلاف آل مروان، قال: فلم يزل يختلف في كل سنة،حتى وافى عبدالله بن يحيى في آخر سنة ثمان وعشرين ومائة فقال له: يا رجل أسمع كلاماً حسناً، وأراك تدعو إلى حق، فانطلق معي، فإني رجل مطاع في قومي، فخرج، حتى ورد حضرموت، فبايعه أبو حمزة على الخلافة، ودعا إلى خلاف مروان وآل مروان).

وفي هذه السنة وافى الموسم أبو حمزة الخارجي،من قبل عبد الله بن يحيى طالب الحق، محكّماً مظهراً للخلاف على مروان بن محمد.

لما كان تمام سنة تسع وعشرين ومائة، لم يدر الناس بعرفة إلا وقد طلعت أعلام عمائم سود حرقانية في رؤوس الرماح، وهم في سبعمائة، ففزع الناس حين رأوهم، وقالوا: مالكم، وما حالكم، فأخبروهم بخلافهم لمروان وآل مروان، والتبرؤ منه، فراسلهم عبد الواحد بن سليمان، وهو يومئذ على المدينة ومكة، فراسلهم في الهدنة، فقالوا: نحن بحجنا أضنُّ، ونحن عليه أشح، وصالحهم على أنهم جميعاً آمنون، بعضهم من بعض، حتى ينفِر الناس النّفر الأخير، وأصبحوا من الغد، فوقفوا على حِدة بعرفة، ودفع بالناس عبد الواحد بن سليمان بن عبد الملك بن مروان، فلما كانوا بمنى، ندّموا عبد الواحد، وقالوا: قد أخطأت فيهم، لو حملت الحاجَّ عليهم، ما كانوا إلا أكلة رأس، فنزل أبو حمزة بقرين الثعالب، ونزل عبد الواحد منزل السلطان، فبعث عبد الواحد إلى أبي حمزة عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي، ومحمد بن عبد الله بن عمرو بن عثمان، وعبد الرحمن بن القاسم بن

---

[1] الطبري ـ تاريخ الطبري ـ الأمم والملوك ـ المجلد الرابع ـ ص١٢٨.

محمد بن أبي بكر، وعبيد الله بن عمر بن حفص بن عاصم بن عمر بن الخطاب، وربيعة بن أبي عبد الرحمن، في رجال أمثالهم، فدخلوا على أبي حمزة وعليه إزار قطن غليظ، فتقدمهم إليه عبد الله بن الحسن ومحمد بن عبد الله فنسبهما فانتسبا له، فعبث في وجهيهما، وأظهر الكراهة لهما، ثم سأل عبد الرحمن القاسم، وعبيد الله بن عمر فانتسبا له، فهش إليهما وتبسم في وجوههما وقال: والله ما خرجنا إلا لنسير بسيرة أبويكما، فقال له عبد الله بن الحسن: والله ما جئنا لتفضل بين آبائنا، ولكن بعثنا إليك الأمير برسالة، وهذا ربيعة يخبركها، فلما ذكر ربيعةُ نقض العهد قال بلج وأبرهة، وكانا قائدين له: الساعة الساعة، فأقبل عليهم، أبو حمزة، فقال: معاذ الله أن ننقض العهد، أو نخبس، والله لا أفعل ولو قطعت رقبتي هذه، ولكن تنقضي الهدنة بيننا وبينكم، فلما أبى عليهم، خرجوا فأبلغوا عبد الواحد، فلما كان النّفر نفر عبد الواحد في النّفر الأول، وخلى مكة لأبي حمزة فدخلها بغير قتال. وقال الطبري:

إن عبد الواحد بن سليمان استعمل عبد العزيز بن عبد الله بن عمرو بن عثمان على الناس، فخرجوا فلما كان بالحرة، لقيتهم جزر منحورة، فمضوا، فلما كان بالعقيق، تعلق لواؤهم بسمرة، فانكسر الرمح فتشاءم الناس بالخروج، ثم ساروا، حتى نزلوا قديداً، فنزلوها ليلاً، وكانت قرية قديد من ناحية القصر المبني اليوم، وكانت الحياض هنالك، فنزل قوم مغترون، ليسوا بأصحاب حرب، فلم يرعهم إلا القوم، قد خرجوا عليهم من القصر.

وقد زعم بعض الناس: أن خزاعة دلت أبا حمزة على عورتهم، وأدخلوها عليهم، فقتلوهم وكانت المقتلة على قريش، وهم كانوا أكثر الناس، وبهم كانت الشوكة، وأصيب منهم عدد كثير. ثم ورد فُلاّل الناس بالمدينة، وبكى الناس قتلاهم، دخل أبو حمزة المدينة سنة ثلاثين ومائة، وخطب خطبته المشهورة، أما عبد الواحد بن سليمان بن عبد الملك فمضى إلى الشام. وقال الطبري:

إن مروان انتخب من عسكره أربعة آلاف، واستعمل عليهم ابن عطية، وأمره بالجد في السير وأعطى كل رجل منهم مائة دينار، وفرساً عربية، وبغلاً لثَقَلِه، وأمره: أن يمضي، فيقاتلهم، فإن هو ظفر مضى حتى بلغ اليمن، ويقاتل عبد الله بن يحيى ومن معه، فخرج، حتى نزل بالعلا.

وعندما لقي أبا حمزة الخارجي وابن عطية، قال أبو حمزة: لا تقاتلوهم، حتى تخبروهم، قال: فصاحوا بهم، ما تقولون في القرآن والعمل به، قال: فصاح ابن عطية: نضعه في جوف الجوالق،

قال: فما تقولون في مال اليتيم، قال: نأكل ماله، ونفجُر بأمِّه.. في أشياء بلغني أنهم سألوهم عنها، قال: فلما سمعوا كلامهم، قاتلوهم، حتى قتلوهم.

أقام ابن عطية بالمدينة، حين دخلها شهراً، ثم مضى إلى مكة، واستخلف على المدينة الوليد ابن عروة بن محمد بن عطية، ثم مضى إلى اليمن، واستخلف على مكة ابن ماعز، رجلاً من أهل الشام، ولما مضى ابن عطية بلغ عبد الله بن يحيى ـ وهو بصنعاء ـ مسيره إليه، فأقبل إليه بمن معه فالتقى هو وابن عطية، فقتل ابن عطية عبد الله بن يحيى، ومضى ابن عطية فدخل صنعاء، وبعث برأس عبد الله بن يحيى إلى مروان.

أخيراً ساعد الخوارج بشكل مباشر في نمو الخطابة وتطورها حيث كثر خطباؤهم، وزاد في عددهم عن جميع الأحزاب المعارضة، وكانوا شديدي الحماسة لعقيدتهم، ودعوا لها، وأعلنوا عنها جهراً وشهروا سيوفهم ضد خصومهم، الأمويين، وأكثر خطبهم فقدت مع الزمن، ومن أهم خطبائهم كان أبو حمزة الخارجي.

خطبة أبي حمزة الخارجي

دخل أبو حمزة الخارجي مكة ـ وهو أحد نُسَّاك الإباضيَّة وخطبائهم، واسمه يحيى بن المختار ـ فصعد مِنبرها متوكّئاً على قوسٍ له عربّية، فحمِد الله، وأثنى عليه، ثم قال[1]:

((أيُّها الناس، إنّ رسول الله (ص) كان لا يتأخّر، ولا يتقدّم إلا بإذن الله وأمره ووحْيه، أنزَلَ الله كتاباً، بيّن له فيه ما يأتي، وما يتّقي، ولم يكُ في شكٍ من دينه، ولا في شبهةٍ من أمره، ثمّ قبضه الله وقد عَلّم المسلمين معالِم دينهم، وولّى أبا بكر صَلاتَهم، فولاّه المسلمون أمرَ دنْياهم، حين ولاّه رسول الله أمرَ دينهم، فقاتَلَ أهل الرِّدّة، وعَمِل بالكتاب والسنّة، فمضَى لسبيله، رحمةُ الله عليه.

ثم وَلِيَ عمر بن الخطاب، رحمه الله،فسار بسيرة صاحبه، وعمِل بالكتاب والسنّة، وجَبى الفَيء، وفَرضَ الأعطية، وجمع النّاسَ في شهر رمضان،وجلد في الخمر ثمانين، وغَزَا العَدُوّ في بلادهم، ومضى لسبيله، رحمةُ الله عليه.

---

[1] الجاحظ ـ البيان والتبيين ـ المجلد الأول ـ ج٢ ـ ص١٢٢.

ثم وَلِيَ عثمانُ بن عفان، فسار سِتَّ سنينَ بسيرة صاحبيه، وكان دونهما، ثم سار في السِّتِّ الأواخر بما أحبَط به الأوائل، ثم مضى لسبيله.

ثم وليَ عليّ بن أبي طالب، فلم يبلُغْ من الحق قصداً، ولم يرفع له مَناراً، ثم مضى لسبيله.

ثم وليَ معاوية بن أبي سفيان لَعِينُ رسول الله وابنُ لعينه، فاتخذ عباد الله خَوَلاً، ومال الله دُوَلاً، ودينَه دَغَلاً، ثمّ مضى لسبيله، فالعنُوة، لعنه الله.

ثم وليَ يزيدُ بن معاوية: يزيدُ الخُمور، ويزيدُ القرودِ، ويزيدُ الفهود، الفاسق في بطنه، المأبونُ في فَرْجه، فعليه لعنة الله وملائكته.

ثم اقتصَّهم خليفةً خليفة، فلما انتهى إلى عمر بن عبد العزيز أعرض عنه، ولم يذكره، ثم قال: ثم وَلِيَ يزيدُ بن عبد الملك الفاسقُ في دينه، المأبونُ في فرجه، الذي لم يُؤنَس منه رُشْد، وقد قال الله تعالى في أموال اليتامى: ﴿فإنْ آنستُمْ مِنْهُمْ رُشْداً فادْفَعُوا إليْهِمْ أمْوَالَهُمْ﴾[1]، فأمْرُ أمّةِ محمدَ عليه السلام أعظم. يأكل الحرام، ويشرب الخمر، ويلبس الحُلّة، قُوِّمت بألف دينار، قد ضُرِبت فيها الأبشار، وهُتِكت فيها الأستار، وأخِذت من غير حِلّها، حَبَابةُ عن يمينه، وسَلاّمة عن يساره، تغنّيانه، حتّى إذا أخذ الشرابُ منه كلّ مأخذٍ، قَدَّ ثوبَه، ثم التفت إلى إحداهما، فقال: ألا أطير ألا أطير! نعم فِطرْ إلى لعنة الله،وحريق ناره، وأليمِ عذابه.

وأمَّا بنو أميّة ففِرقةُ الضلالةِ، بطشهم بطْشُ جَبريّة، يأخذون بالظِّنّةِ، ويقضُون بالهوى، ويقتلون على الغَضب، ويحكمون بالشّفاعة، ويأخذون الفريضة من غير موضعها، ويضعونها في غير أهْلها، وقد بيّن الله أهلَها، فجعلَهم ثمانيةَ أصناف، فقال: ﴿إنّما الصَّدَقاتُ لِلفُقَراءِ وَالمَساكِينِ وَالعامِلِينَ عَلَيْها وَالمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفي الرِّقَابِ وَالغارِمِينَ وَفي سَبِيلِ اللهِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾[2]. فأقبل صنفٌ تاسعٌ، ليس منها، فأخذها كلها. تلكم الفرقة الحاكمة بغير ما أنزل الله.

وأمّا هذه الشِّيَعُ، فشِيَعٌ، ظاهرت بكتاب الله، وأعلنوا الفِرية على الله، لم يفارقوا الناس ببصَر نافذٍ في الدين، ولا بعلمٍ نافذٍ في القرآن، ينقِمون المعصيةَ على أهلها، ويَعْمَلونَ إذا وُلّوا بها. يُصِرُّون

---

[1] سورة النساء ـ الآية / ٦.

[2] سورة التوبة ـ الآية / ٦٠.

على الفتنة، ولا يعرفون المخرج منها، جُفَاةٌ عن القرآن، أتباعُ كُهّان، يؤمّلون الدُّوَل في بعث الموتى، ويعتقدون الرَّجعة إلى الدُّنيا، قلّدوا دينّهم رجلاً، لا ينظر لهم، قاتلهم الله أنّى يُؤفَكون.

ثم أقبل على أهل الحجاز فقال:

يا أهل الحجاز، أتعيّرونني بأصحابي، وتزعمون أنّهم شباب؟! وهل كان أصحابُ رسول الله صلى الله عليه وسلم إلاّ شَباباً. أمّا والله إني لعالمٌ بتتابعكم فيما يضرُّكم في مَعادكم، ولولا اشتغالي بغيركم عنكم ما تركتُ الأخْذَ فوق أيديكم. شبابٌ والله مُكتهلون في شبابهم، غبيَّةٌ عن الشرّ أعينُهم، ثقيلةٌ عن الباطل أرجلهم، أنضاءُ عبادةٍ وأطلاحُ سَهَر، ينظر الله إليهم في جوف الليل، منحنيةٌ أصلابهم على أجزاء القرآن كلّما مر أحدُهم بآيةٍ من ذكر الجنّة، بكى شوقاً إليها، وإذا مَرّ بآية من ذكر النار، شَهِقَ شَهقة، كأنّ زفير جهنّم بين أذنيه. موصولٌ كَلاَلهم بكلالهم: كَلالُ الليل بكلال النهار. قد أكلت الأرضُ رُكَبَهم وأيدَيهم، وأنوفَهم وجباهَهم، واستغلّوا ذلك في جنْب الله، حتى إذا رأوا السهامَ، قد فُوِّقَت، والرِّماحَ، قد أشرِعَت، والسيوفَ، قد انتُضيَتْ، ورَعَدت الكتيبةُ بصواعق الموت، وبرقت، استخفُّوا بوعيد الكتيبة لوعْد الله، ومضى الشابُّ منهم قُدُماً، حتى اختلفت رِجلاهُ على عنق فرسه، وتخضَّبت بالدّماء محاسنُ وجهه، فأسرعَتْ إليه سباعُ الأرض، وانحطَت علَيه طيرُ السّماء، فكم من عين في منقارِ طائرٍ، طالما بكى صاحبُها في جوف الليل من خوف الله، وكم من كفٍّ، زالت عن مِعْصَمها، طالما اعتمد عليها صاحبُها في جوف الليل بالسُّجود لله. ثم قال: آه آه (ثلاثاً). ثم بكى، ونَزَل)[1].

تعدّ هذه الخطبة رأس خطب أبي حمزة وأشهرها وأدلها على عقيدة الخوارج بوجه عام، ومذهب الأباضية منهم بوجه خاص، والسبب الذي دعا إلى إلقاء هذه الخطبة، كما هو واضح فيها، هو الرد على الذين عابوا أتباعه لحداثة سنهم وخفة أحلامهم، أما السبب الخفي لإلقاء هذه الخطبة فهو إظهار عقيدة الخوارج الدينية والسياسية، ومن المعلوم أن حزب الخوارج كان من أشد الأحزاب معارضة لبني أمية.

من خلال الاطلاع على الخطبة نلاحظ أنها مقسمة إلى ثلاثة عناصر، الأول: يرد فيه العهدان النبوي والراشدي، وفيه الثناء والمديح على هذه المرحلة حتى خلافة عثمان الذي يهاجمه في الفترة

[1] عمر فاروق الطباع ـ مواقف في الأدب الأموي ـ ص٢٩٠ وما بعدها.

الأخيرة من حياته،و لم يكن راضياً على الإمام علي، وهاجمه أيضاً.

أما العنصر الثاني، وهو المهم والأصل فقد هاجم الأمويين ونعتهم بالفساد والضلال،حيث تعرض لهم وعدّ عيوبهم وأخطاءهم، التي عطلوا فيها حدود الدين، ومنها أخذهم الناس بالظنة والشبهة. وغير ذلك وفي النهاية استنكر مهاجمة أهل الحجاز لأتباعه سائلاً: وهل كان أصحاب النبي (ص) إلا شباباً، ثم يعود إلى ذكر أصحابه وصفاتهم فيبين أنهم مخلصون في عقيدتهم مترفعون عن صغائر الدنيا زاهدون فيها يحبون الموت، ويستعذبونه في سبيل الحق.

كان من سمات أبي حمزة في الفن الخطابي: العناية ببناء الخطابة، وحسن التمهيد للغرض الأساسي فيها والتدرج في أفكارها، واعتمد ربط المعاني بالهدف، كما اعتمد الترتيب والتنسيق، كما تجاوز الإيجاز إلى الإطناب، واعتمد الإثارة والإقناع، فأدى ذلك إلى وضوح المعاني، وتقسيمها إلى مقاطع مترابطة منسجمة، واعتمد أيضاً التشويق والاستهواء،كما اعتمد عنصر الترهيب والترغيب معاً، واعتمد الأسلوب التصويري. أخيراً إن هذه الخطبة تمثل إخلاص الخوارج لمبادئهم، واعتمادهم في معانيهم على الثقافة الدينية، ولا ننكر ما لحزب الخوارج وأرائهم من دور مساهم في نهاية الحزب الأموي.

قطري بن الفجاءة:

عندما حدث الخلاف بين الخوارج - كما ورد - أعلم المهلب الحجاج بذلك، فأمره بقتالهم، فرد عليه أن رأيه عدم قتالهم ما دام يقتل بعضهم بعضاً، بعد ذلك تقل قدراتهم القتالية فيهاجمهم واستقر الأمر على ذلك وبقي الخوارج يقتتلون شهراً، بعد ذلك خرج قطري بمن معه إلى طبرستان، فعلم به الحجاج، فوجه إليه سفيان بن الأبرد، ووجه معه جيشاً من أهل الشام، وفي أحد شعاب طبرستان التقى مع قطري، فقتل قطري، وتفرق أصحابه.

صعد قَطَري بن الفُجاءة منبر الأزارقة - وهو أحد بني مازن بن عمرو بن تميم - فحمد الله وأثنى عليه، وصلى على نبيه ثم قال[1]:

(أمّا بعدُ، فإني أحَذّركم الدُّنيا، فإنّها حُلوةٌ خَضِرة، حُفّتْ بالشّهوات، وراقت بالقليل، وتحبّبت بالعاجلة، وحُلّيت بالآمال، وتزيّنت بالغُرور، لا تدوم حَبْرتُها، ولا تُؤمَن فجْعتُها، غَرّارة

[1] الجاحظ - البيان والتبيين - المجلد الأول - ج٢ - ص١٢٦.

ضَرّارة، خوّانةٌ غدّارة، حائلة زائلة، نافدة بائدة، أكّالة غوّالة، بدّالةٌ، نقّالة، لا تعدو إذا هي تناهت إلى أمنيَّةِ أهل الرّغبة فيها، والرّضا عنها، أن تكون كما قال الله: ﴿كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّماءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيماً تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ اللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِراً﴾[1]. مع أنّ امرأً لم يكن منها في حَبْرة إلا أعقبتْه بعدهَا عَبْرة، ولم يَلقَ من سَرّائها بطناً إلا منحته من ضَرَّائها ظهراً، ولم تَطُلّه غَبْيَةُ رخاءٍ إلا هَطَلَتْ عليه مُزنة بَلاء، وحَرّى إذا أضْحت له منتصرةً أن تُمْسِيَ له خاذلة متنكّرة، وإنْ جانبٌ منها اعذَوذَب واحلَوْلَى، أمَرَّ عليه منها جانب وأوبَى، وإن آتت أمراً من غَضَارتها ورفاهَتها نِعَماً، أرهقته من نوائبها نِقَماً، ولم يُمْسِ امرؤٌ منها في جَناحِ أمنٍ إلاّ أصبح منها على قوادِمِ خَوف. غرَّارة غَرورٌ ما فيها، فانيةٌ فانٍ مَن عليها، لا خير في شيء من زادها إلا التقوى. مَن أقلَّ منها استكثر مما يؤمِنُه، ومَن استكثر منها استكثر مما يُوبقهُ، ويطيل حَزَنَه، ويُبكي عينَه. كم واثقٍ بها، قد فجعَتْه، وذي طُمَأنينةٍ إليها، قد صرعتْه، وذي اختيالٍ فيها، قد خدّعته. وكم من ذي أبّهةٍ فيها، قد صيَّرته حقيراً، وذي نخوةٍ، قد ردَّتْه ذليلاً، وكم مِن ذي تاج، قد كبَّته لليدين والفم. سلطانُها دُوَل، وعيشُها رَنَقٌ، وعذبُها أجَاجٌ، وحُلوها صَبِرٌ، وغذاؤها سِمام، وأسبابُها رِمام، وقِطافها سَلَعٌ. حيُّها بعَرَض موتٍ، وصحيحها بعَرَضِ سُقْم، ومَنيعها بعَرَضِ اهتضام، مليكها مسلوب، وعزيزُها مغلوب، وسليمها منكوب، وجامعها محروب. مع أنّ وراءَ ذلك سَكراتِ الموت، وهَولَ المُطّلَع، والوقوفَ بين يَدي الحكَمِ العَدْل، ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى﴾[2]. ألَستمْ في مساكِنِ مَن كان أطولَ منكم أعماراً، وأوضَح آثاراً، وأعَدّ عديداً، وأكثفَ جنوداً، وأعند عُنُودا: تعبَّدُوا الدُّنيا أيَّ تعبُّد، وآثروها أيَّ إيثار، وظَعَنوا عنها بالكَرْهِ والصَّغار، فهل بَلَغكم أنَّ الدنيا سمحت لهم نَفْسا بفِدْيَة، أو أغنَتْ عنهم فيما قد أهلكتهم بخَطْب، بل قد أرهَقَتْهم بالفَوادح، وضعضعتهم بالنّوائب، وعَقَرتهم بالمصائب. وقد رأيتم تنكُّرَها لمن دان لها وآثَرَها، وأخلد إليها، حين ظَعَنوا عنها لفراق الأبد إلى آخر المُسنَد. هل زوّدتْهم إلاّ الشقاء. وأحلّتْهم إلا الضَنْك، أو نوَّرَت لهم إلا الظُّلمة، أو أعقبتهم إلاّ الندامة؟! فهذه تُؤثرون، أم عليها تحرصون؟ أم إليها تطمئنون؟ يقول الله: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لا يُبْخَسُونَ، أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ إِلاَّ النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا

---

[1] سورة يونس ـ الآية / ٢٤.

[2] سورة النجم ـ الآية / ٣١.

يَعْمَلون﴾[1]. فبئست الدارُ لمن أقامَ فيها. فاعملُوا وأنتم تعلمون أنكم تاركوها لا بُدَّ، فإنما هي كما وصفها الله باللعب واللّهو، وقد قال الله: **﴿أتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ، وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ﴾**[2]. وذكر الذين قالوا مَن أشدُّ منا قوّة. ثم قال: حُمِلوا إلى قبورهم، فلا يُدعَون رُكباناً، وأنزلوا فيها، فلا يُدعَون ضيفاناً، وجُعِل لهم من الضَّريح أجنانٌ، ومن التُّراب أكفان، ومن الرُّفات جيران، فهم جيرةٌ، لا يجيبون داعياً، ولا يمنعون ضَيماً، إن أخصبوا لم يَفرحوا، وإن أقحَطوا لم يَقنَطوا، جميعٌ، وهم آحادَ، وجيرةٌ، وهم أبعاد، متناءُون، لا يُزارون،ولا يَزُورون، حلماءُ، قد ذهبت أضغانُهم، وجُهَلاء، قد ماتت أحقَادهم، لا يُخشى فَجْعُهم،ولا يُرجى دفْعهم، وكما قال جلَّ وعزَّ: **﴿فتِلْكَ مَسَاكِنُهمْ لَمْ تُسْكَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إلاّ قَلِيلاً وَكُنّا نَحْنُ الوارِثِينَ﴾**[3]. استبدَلُوا بظهر الأرض بطناً، وبالسَّعةِ ضِيقاً، وبالأهل غُربة، وبالنور ظلمة، فجاؤوها، كما فارقوها: حُفاةً عُرَاةً فُرادَى. غير أنّهم ظعنوا بأعمالهم إلى الحياة الدائمة، وإلى خلود الأبد. يقول الله: **﴿كَمَا بَدَأنا أوَّلَ خَلْقٍ نُعيدُهُ وَعْداً عَلَينا إنّا كُنّا فاعِلِينَ﴾**[4]. فاحذروا ما حَذّركم الله، وانتفِعوا بمواعظه، واعتصموا بحبله. عَصَمنا الله وإياكم بطاعته، ورزقَنا وإياكم أداء حَقّه)).

---

[1] سورة هود ـ الآية / ١٥.

[2] سورة الشعراء ـ الآية / ١٢٨.

[3] سورة القصص ـ الآية / ٥٨.

[4] سورة الأنبياء ـ الآية / ١٠٤.

الفصل الثالث

العلوم الإنسانية



الفصل الثالث

العلوم الإنسانية

كان العرب على علم ببعض العلوم، التي يحتاجون إليها من طب وفلك ورياضيات وغيرها، حيث امتازت معارف العرب في الجاهلية، بكونها اعتمدت الملاحظة والتجربة المباشرة[1]، واستخدم العرب في حساباتهم التجارية والعادية الأعداد المعبر عنها بالأحرف، فأكملوا السلم الفينيقي، وأضافوا إليه حروفهم العربية مع إعطائها قيماً عددية.

لقد سبقت بلاد الشام غيرها في مجال العلوم العقلية. كالاهتمام بالكيمياء[2]. وكان يطلق عليها اسم علم الصنعة، حيث ارتبط علم الصنعة بعالم أموي، هو خالد بن يزيد بن معاوية، حيث يذكر ابن النديم[3]: أن خالداً هذا هو أول من أدخل علم الصنعة إلى العالم الإسلامي.

أما علم الطب، فقد اشتهر فيه عدد من الأطباء زمن الدولة الأموية، حيث كان معاوية، يستعين بهم في الأمور الطبية، منهم: الحارث بن كلدة، وأبو الحكم الدمشقي، وغيرهم. فلما كان

---

[1] موريس تسربل ـ الرياضيات في الحضارة الإسلامية ـ طبع لبنان ١٩٨٨ ـ ص٤٧.

[2] كان هذا العلم علماً راقياً استعاض بن خالد بن يزيد عن الخلافة، يؤكد ذلك قول عمر بن عبد العزيز عنه ما ولدت أمية مثل خالد ابن يزيد ـ العقد الفريد ـ ج٢ ـ ص٢٣٢.

[3] ابن النديم ـ الفهرست ـ طبعة بيروت ١٩٧٥ ـ ص٤٩٧ ـ ٤٩٨.

عهد عمر بن عبد العزيز، تقدم الطب، وخاصة عندما أمر بنقل تدريس الطب من الاسكندرية إلى أنطاكية وحران. ونقل إلى هذه المراكز عبد الملك بن ابجر الكناني.

أما في مجال العلوم التاريخية[1]، فكان عالم الأخبار في الجاهلية بمنزلة المؤرخ، وأغلب الأخبار في الجاهلية كان يتعلق بأيام العرب وحروبهم، وأيام العرب هذه كانت تقع بين القبائل. لذلك كان على عالم الأخبار أن يعرف الأنساب بالقبائل، وبمفاخرها.

ومن العلوم الأخرى ذات الأثر الواضح العلوم الدينية، منها القراءات[2]، وأطلق لفظ القراء: على من كانوا يحفظون القرآن. إلا أن هذه اللفظة تطورت، وأخذت معنى أدق وأشمل،حيث شملت عدداً محدداً من الصحابة، اشتهروا بقراءاتهم، وكان لكل منهم مصحف خاص، وأخذت بلاد الشام عن أُبَيْ بن كعب، والمقداد بن الأسود، لأن الأمصار كانت قد بدأت تأخذ عن بعض هؤلاء الصحابة، ومن الذين عملوا في القراءة في الشام من الصحابة: أبو الدرداء، معاذ بن جبل، فضل بن عبيد، وائل بن الأسفع، ويعود فضل جمع القرآن إلى عهد النبي (ص)[3]. ومن التابعين، الذين أحدثوا تأثيراً في القراءة في الشام، وكانت لهم قراءات مميزة: عبد الملك بن عامر اليحصبي، مقرىء أهل الشام وقاضيها في خلافة الوليد.

ومن العلوم الأخرى: التفسير، حيث يذكر: أن عبد الملك بن مروان أمر سعيداً بن جبير الكوفي: أن يكتب له تفسير القرآن[4]، ولقد طبع التفسير[5] في الشام بميزتين: الأولى: عدم التشدد في تفسير القرآن، كما كان يتشدد أهل المدينة، والثانية: هي عدم الخوض في مسائل الكلام أو التفسير القائم على الجدل، حيث إن العمل كان لديهم أهم من الجدل.

ولم تكن السنة مرادفة للحديث، وإنما كانت أعم في مدلولها من الحديث وكتابته[6].

---

[1] يمكن العودة إلى كتب السير والمغازي وتاريخ الطبري وإلى كتاب السخاوي الإعلان بالتواريخ لمن ذم التاريخ.

[2] من أراد التوسع في معرفة القراء، يمكنه العودة إلى غاية النهاية في طبقات القراء لابن الجزري ـ طبعة مصر ١٩٣٢.

[3] تذكرة الحفاظ ج١ ـ ص٢٢.

[4] الرازي كتاب الجرح والتعديل ـ نسخة مصورة عن طبعة حيد اباد ـ ج٣ ـ قسم ٠ ـ ص٢٣٢

[5] يمكن العودة لمن أراد الاتساع في معرفة ذلك. فعليه العودة إلى كتب التفسير مثل تفسير القرطبي ـ تفسير ابن كثير ـ تفسير الطبري ـ وابن تميمة مقدمة في أصول التفسير وغير ذلك من السنن.

[6] يمكن العودة إلى مقدمة الجرح والتعديل إلى الحاكم النيسابوري (معرفة علوم الحديث) وإلى الغزالي (إحياء علوم الدين).

ثم علم الفقه: الذي يمتاز بظهور بعض المعارضة السياسية، الناتجة عن الأحكام القرآنية، والأحاديث النبوية، متمثلة بحركة أبي ذر الغفاري، وصراعه مع معاوية، ومعارضته له. حيث اتخذت هذه المعارضة طابعاً عميقاً من الاختلاف بالرأي أو السنة إلى الاختلاف على أمور الحكم، والسياسة الاقتصادية للدولة.. مما أوشك أن يحدث ثورة على معاوية بالشام. أما عمر بن عبد العزيز: فله أحكام هامة، منها: معاملة المساجين، وحال السجون، حيث أمر بتوفير العناية الكاملة بهم[1]، ومن الاجتهادات: زكاة السمك، وزكاة المعادن، ثم إسقاط الجزية عمن أسلم.

وعند الحديث عن التربية يجب علينا أن نتذكر بدء الإنسان، وكيف وصل إلى الأرض؟ هذا يذكرنا بهبوط آدم إلى الأرض بأمر الله: ﴿قُلْنا اهبِطوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ، وَلَكُمْ في الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتاعٌ إلى حينٍ﴾[2] وآدم هو خليفة الله على الأرض. وكان قبل هبوطه قد علّمه الله: ﴿وعَلَّمَ آدَمَ الأَسْماءَ كُلَّها﴾[3]. وقال تعالى: ﴿وَقُلْنا اهْبِطوا مِنْها جَميعاً فَإمّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنّي هُدىً فَمَنْ تَبِعَ هُدايَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنونَ﴾[4] فكلمة هدى لها علاقة بالتربية، كما أعتقد.

إذن آدم نبي ورسول وخليفة الله على الأرض، ما يأمر به ناتج عن أمر الله، وهذا يعني أن التربية التي تبناها منذ البداية كانت مثالية، وهي أصل التربية قديماً وحديثاً. والله ـ سبحانه وتعالى ـ كان قد حدد نوعين من التربية، الأولى: من اتبع الهدى فهم في أمان، لاخوف عليهم ولاحزن، والثانية: حددها تعالى بقوله: ﴿وَالّذينَ كَفَروا وَكَذَّبوا بِآياتِنا أولَئِكَ أَصْحابُ النّارِ هُمْ فيها خالِدونَ﴾[5].

كانت أسس التربية موجودة ـ كما أعتقد ـ منذ بداية الوجود البشري. فالهدى: أن يهتدي الإنسان إلى كل ما يفيده، ويتقنه، ويرتقي به وأول ذلك العلم. والمطلع على حياة آدم وزوجته وأولاده يدرك أن التربية كانت موجودة، سواء كانت صالحة تمثلت في حياة هابيل، الذي اتبع الهدى

---

[1] الخراج ـ ص١٠٠.

[2] سورة البقرة ـ الآية / ٣٦.

[3] سورة البقرة ـ الآية / ٣٠.

[4] سورة البقرة ـ الآية / ٣٨.

[5] سورة التغابن ـ الآية / ١٠.

أو الطالحة التي تمثلت في قابيل، الذي اتبع طريق الضلال والفساد. إلا أن صراعهما كان تربوياً تعليمياً، لمن جاء بعدهما، وخير دليل على ذلك القتل وسوء عاقبته. والذي تمثل بقتل قابيل لأخيه هابيل، ثم الدفن الذي حدث، وكيف فعل قابيل بأخيه؟ ودفنه. وكتب التاريخ تحدثنا عن ذلك. أليس ذلك تعلّماً؟ ثم الزواج الذي حدث بسببه الخلاف، أليس تربية وتعليماً؟ وغير ذلك من الأمور التي نقلتها الكتب السماوية، وروتها الأخبار، وتواترت، حتى يومنا هذا.

ثم إن الله تعالى كان يبعث الرسل بعد آدم، وغايتهم التربية والهداية، وترغيبهم بالعلم وترهيبهم. فقصة نوح أيضاً وتعاليمه إلى قومه، ومخالفتهم له، وصنعه السفينة والإبحار بها، أليس أيضاً تعليماً؟ وقصة إبراهيم الخليل والهجرة من أور الكلدانية ومقاصدها الاجتماعية والدينية إلى جنوب سورية وطلبه للسلام والأمان ونشره الدين الحنفي الإسلامي. يؤكد ذلك قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيّاً وَلَا نَصْرَانِيّاً وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفاً مُسْلِماً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾[1] وقصة موسى في زمن ساد فيه السحر،ومحاربته السحر بالعلم، وقصة عيسى وعهده، الذي سادت فيه الخرافات والأساطير في مجال العلم وخاصة الطب. واهتمامه في هذا المجال كان إحياء الميت وإبراء المريض وغير ذلك. والأنبياء الذين ذكرهم الله تعالى في كتابه العزيز، كلهم عرب، وعاشوا على الأرض العربية من البداية إلى النهاية، التي ختمت بخير الأنبياء الرسول الكريم محمد (ص).

والعالم العربي قبل الإسلام، بحدوده الحالية، كانت الأديان السماوية منتشرة في كل بقعة من بقاعه. وأكثرها انتشاراً المسيحية. ومن بينها كانت الحنيفية دين إبراهيم الخليل، وخاصة في الجزيرة العربية، ومنها الوثنية. ولكل دين تربيته الروحية الخاصة. علماً أن التربية الفكرية والاقتصادية والاجتماعية والسياسية والعسكرية كانت موجودة، وبشكل يعدّ متطوراً. ويبقى أن نتذكر قيمة الحضارة العربية في مصر أو سورية أو العراق.

فعند المصريين القدماء تطورت التربية، لأنهم أولوها اهتماماً خاصاً. فكانوا يرون في التربية والمعرفة وسيلة لبلوغ المجد. ولتأكيد ذلك، نذكر قول أحد حكمائهم، وهو يوصي ابنه: (افتح قلبك للعلم، وأحببه، كما تحب أمك، فلا يعلو على الثقافة شيء).. ويقول: (اذكر يا بني! إن أي مهنة من المهن محكومة بسواها، إلا الرجل المثقف فإنه يحكم

[1] القرآن الكريم سورة آل عمران ـ الآية /٦٧.

نفسه بنفسه) وكرهوا الجهل، كل ذلك دفعهم لإنشاء المدارس والإكثار منها، وبذلك يكون المصريون القدماء قد نفعوا غيرهم، عندما أولوا التربية عناية فائقة، حيث درسوا العلوم جميعها. كالطب والعلوم الطبيعية والفلك والرياضيات والأدب والدين والفلسفة والموسيقا وغيرها، وكانوا سادة العالم فيها. ولا ننسى دور الكلدانيين، الذين عرفوا المدارس، حيث كانت المعابد المراكز الرئيسية للنشاط الفكري، وضمت مدنهم مكتبات، شملت شرائعهم. ومن تلاهم من البابليين والآشوريين أحدثوا قوانين حكيمة عادلة. إذن كان العرب قبل الإسلام المؤسسين الأوائل لمختلف العلوم. وعلى رأسها الرياضيات والفلك والطب والكيمياء والأدب وحتى التاريخ والجغرافية.

أما بعد تكوين الدولة العربية وانتشار الإسلام، فكان هدف التربية دينياً ودنيوياً. يؤكد ذلك قوله تعالى: ﴿**وَابْتَغِ فيما آتاكَ الله الدّارَ الآخِرَةَ، وَلا تَنْسَ نَصيبَكَ مِنَ الدُّنْيا**﴾[1]، وفي الحديث الشريف: «**اعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً**» واهتم العرب منذ بداية الإسلام بتدريس العلوم الدينية، كما عنوا بدراسة اللغات والتاريخ والجغرافية والطب والرياضيات والفلك وغيرها، كما يرد، وبذلك استطاعوا إشادة حضارة راقية ومتطورة.

إذن انتشر التعليم منذ بداية الدولة العربية الإسلامية، حيث كثرت، وتنوعت أسسه. فمنذ البداية وجدت المساجد، حيث يرتبط تاريخ التربية الإسلامية ارتباطاً وثيقاً. ففيه قامت حلقات الدراسة، واستمرت. وأول مسجد، أنشىء في الإسلام كان مسجد قباء[2]. ذلك المسجد الذي كانت تعقد فيه حلقات العلم. ومن المساجد الأخرى التي كانت رائدة في هذا المجال: جامع بني أمية في دمشق، الذي بناه الوليد بن عبد الملك عام[3] ٩٦ هـ، حيث كان مركزاً من مراكز الثقافة الهامة في العالم العربي الإسلامي، ثم الجامع الذي بناه عمرو بن العاص في مصر عام ٢١هـ، والذي كان مركزاً ثقافياً وقضائياً مميزاً.

ومن أمكنة التعليم الأخرى: الكتاتيب، التي كانت موجودة قبل الإسلام، واستمرت، وكانت

---

[1] سورة القصص ـ الآية / ٧٧.

[2] عفيف بهنسي ـ الفن الإسلامي ـ ص١٣٧.

[3] المسعودي ـ مروج الذهب ـ ج٣ ـ ص١٧٦.

في ظل الإسلام على نوعين، الأول: خاص لتعليم القراءة والكتابة، والثاني: لتعليم القرآن الكريم ومبادىء الدين الإسلامي، ومن أشهر الذين عملوا في هذه الكتاتيب: الضحاك بن مزاحم ١٠٥هـ والكميت بن زيد ١٢٦هـ، وعبد الحميد الكاتب ١٣٢هـ والحجاج بن يوسف الثقفي.

وأمكنة التعليم الأخرى كانت قصور الخلفاء والأمراء، ويبدو أنها كانت مخصصة للتعليم الابتدائي، وفي مثل هذه الحالة يسمى المعلم: مؤدباً ويستمر التعليم في هذا المكان حتى عهد الصبا، ثم ينتقل إلى أمكنة أعم، وأشمل كالمساجد، يضاف إلى ما ورد إقامة حلقات تعليمية في المنازل الخاصة، وقد اتخذت هذه الخطوة منذ عهد الرسول (ص)، عندما اتخذ دار الأرقم بن أبي الأرقم مركزاً، يجتمع فيه مع أصحابه[1]، ليعلمهم مبادىء الدين الجديد كما اتخذ الرسول (ص) من داره مقراً، يلتف حوله المسلمون، ليعلمهم أحوال دينهم ودنياهم، بما فيه خيرهم. وفي العصر الأموي، ظهرت الصالات الأدبية التي لم يكن يسمح بدخولها إلا لفئة معينة من الناس، وخلال وقت محدد. فمثلاً كان معاوية بن أبي سفيان إذا قال: ذهب الليل يكون بذلك نهاية الحلقة، وكان عبد الملك بن مروان إذا ألقى المحاضرة، قام من حضره في صالته، وكانت الصالات مليئة بالأثاث الرائع والمنظم.

وفي الصالات كان الخليفة أول من يفتح النقاش، وينهيه، ولهذه الصالات تقاليد وآداب، يجب مراعاتها من الحضور، وقد سجلها، كما هو معروف كل من الصابىء في كتابه: (رسوم دار الخلافة) وكشاجم في كتابه: (أدب النديم). إذن يرتبط تاريخ الصالات بتاريخ القصور وخاصة قصور الخلفاء، ابتداءً من عهد معاوية، الذي كان يحضر مجلسه بناء على رغبته العلماء والأدباء وأصحاب السير، وكل منهم يتكلم في اختصاصه.

ولا ننسى المناظرات، التي كانت قائمة في العصر الأموي. وخاصة بين الفقهاء، فالشعبي[2] (عامر بن عبد الله بن شراحبل)، الذي توفي سنة (١٠٣هـ - ٧٢٢م) كان يناظر أصحابه في الفقه، وشملت المناظرات أيضاً مجالس الخلفاء. فمثلاً كان الزهري، الذي توفي سنة (١٢٣هـ - ٧٤١م)، وقتادة الذي توفي سنة (١١٧هـ - ٧٣١م) يناظران في مجلس سليمان بن عبد الملك[3]، فكان لمثل هذه المناظرات أثرها الواضح على الفكر في العصر الأموي، مما دفعه إلى التأمل والتفكير والبحث.

---

[1] ابن هشام - السيرة النبوية - ج١ الهامش الأول - ص٢٥٣.

[2] الذهبي - تذكرة الحفاظ - ج١ - ص٧٩.

[3] الجاحظ - البيان والتبيين ج١ ص٢٤٣.

وللمكاتب دور مهم في معاهد التعليم، ونشر العلم، والكتب كان يتعذر الاحتفاظ بها إلا على القادرين على اقتنائها. وعني الخلفاء الأمويون بالمكتبات وأنشؤوا الخزائن، التي تضم الكتب، وكانوا يزودون المساجد أيضاً بمكتبات. وأقدم الخزائن، التي عرفت، هي: خزانة الخليفة الأموي خالد بن يزيد بن معاوية، والتي بقيت محفوظة، إلى أن كان عهد الخليفة عمر بن عبد العزيز، الذي فتحها للناس للاستفادة من محتوياتها، كما عني الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك بالمكتبات، حيث عمل مكتبة، وعين لها خازناً وروي أيضاً: أن الوليد بن يزيد بن عبد الملك كان أيضاً يهتم، ويعتني بالمكتبات، حيث جمع مكتبة في قصره، كما كانت البيمارستانات مكاناً لتدريس العلوم.

أما المعلمون في بداية الدولة العربية الإسلامية، فكانوا متحررين من أية سلطة. إنما كان عملهم الغاية منه إرضاء الله وطلب الثواب، ثم بعد ذلك تدخلت الحكومات في التعليم، ونظمت للمعلمين أجوراً. ذكر الدكتور عبد الله عبد الدايم في كتابه (التربية عبر التاريخ) أن القصص كانت أول موضوع، اقترحته حكومة إسلامية، واحتضنته، وبدأت القصص بمصر منذ عام/٣٨هـ/، وكان توبة الحضرمي وأبو إسماعيل بن نعيم وأبو رجب بن عاصم من بين من عينوا قصاصاً بجامع عمرو، وكان مرتب الأخير عشرة دنانير في الشهر.

والمعلمون كانوا فئات مختلفة بعضها عن بعض، أولها معلمو الكتاتيب ومؤدبو ومعلمو المساجد، وكان منهم ذوو مواصفات مختلفة عن غيرهم، ولهم شروط، يجب توفرها فيهم، وعليهم واجبات يجب القيام بها حتى الطلبة، حين انتسابهم لمراكز التعيلم، كان يجب أن تتوفر فيهم شروط لابد منها. ولأهمية العلم نذكر قول الإمام علي كرم الله وجهه لكميل بن زياد[1] : (**يا كميل! العلم خير لك من المال، العلم يحرسك، وأنت تحرس المال، والعلم حاكم، والمال محكوم عليه، والمال تنقصه النفقة، والعلم يزكو بالإنفاق**). وقال أيضاً: (**قيمة كل امرىء علمه**) وقوله: (**كل يوم لا أزداد فيه علماً، فلا بورك في طلوع شمس ذلك اليوم**) وقال: (**وليس الخير أن يكثر مالك وولدك، ولكن الخير أن يكثر علمك**).

وقال الخليفة الراشدي أبو بكر الصديق: (لأن أعرب آية من القرآن أحب إلي من أن أحفظ آية) وقيل: (إن مداد العلماء لخير من دماء الشهداء)، وقيل: (مجلس فقه خير من عبادة ستين سنة)

---

[1] نهج البلاغة ـ تحقيق صبحي الطيب ـ ص٤٩٦.

وقال الله تعالى: ﴿إِنَّما يَخْشى الله مِنْ عِبادِهِ العُلَماءُ﴾[1] وقوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ﴾[2] وأقوال كثيرة، تحض على العلم وطلب العلم.

كما عني العرب المسلمون بطرائق التعليم، وفرقوا بين تربية الصغار وتربية الكبار، وعرف أن سن التعليم لم تكن مقيدة بعمر محدد ثابت، ولم تفرض الدولة التعليم، بل كان اختيارياً، إنما اعتبر فرضاً من الفروض الدينية، واعتبر التعليم في سن مبكرة ذا فائدة وجدوى للجسم والنفس، واستحب العرب التغرب عن الأهل والبعد عن الوطن لطلب العلم. وهناك أقوال مأثورة كثيرة وأحاديث نبوية شريفة، تؤكد هذه المقولة، منها: «**اطلب العلم من المهد إلى اللحد**».

وأدرك العرب أهمية التربية البدنية والتعليم الرياضي، قال الرسول (ص): «**علموا أولادكم الرماية والسباحة وركوب الخيل**»، ولهذا الحديث معنى كبير في التربية والتعليم، فهو بصفة الأمر للمجتمع العربي كله بشكل عام آنذاك، ومازال مدرسة في الميدان إلى الآن. ويفسر هذا الحديث: بأن يتعلم الأولاد الرماية، وهي متنوعة في ذلك الوقت، والوقت الحاضر يقصد بها: الرماية الفردية، والجماعية، من أسلحة خفيفة وثقيلة، كما أمر بتعلم السباحة للسيطرة على البحار والممرات المائية، كما أمر بتعلم ركوب الخيل ومشاكلها آنذاك، بينما تشمل إضافة لما ورد في الوقت الحاضر ركوب وسائط النقل البرية واستخدام العربات الخفيفة والمجنزرة والدبابات، وما شابهها لدرء الخطر، أياً كان، إذن الحديث له مدلول صالح للاستخدام في كل زمان ومكان.

واستخدم العرب من البدء طرقاً متعددة للعلم والتربية، منها الحفظ، ومنها التلقين، ومنها الاستماع، ومنها النشر، كما اعتمدوا طريقة التدرج في التعليم، واعتمدوا النقاش والأسئلة خلال المناظرات والمجالس الأدبية. كما عني العرب بميول الطلاب وقابلياتهم وتوجيههم نحو الدراسات حسب الظروف المتاحة آنذاك، بما يخدم ميولهم.

واهتم العرب بأمر العقوبة، فاعتمدوا الإنذار، تلاه التوبيخ، فالتشهير. وآخر عقاب عند العرب كان الضرب، إذن مزجوا في التربية ما بين الرغبة والرهبة، ورغم قباحة العقاب إلا أنه قيد،

---

[1] القرآن الكريم ـ سورة فاطر ـ الآية / ٢٨.

[2] القرآن الكريم ـ سورة الزمر ـ الآية / ٩.

ووضع له حدود، وأكد ذلك ما ورد في القرآن الكريم: ﴿وَلَكُمْ فِي القِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُوْلِي الأَلْبَابِ!﴾[1] وقال تعالى: ﴿وَالكَاظِمِينَ الغَيْظَ وَالعَافِينَ عَنِ النَّاسِ، وَاللَّهُ يُحِبُّ المُحْسِنِينَ﴾[2] إلا أن العرب نهوا عن الانتقام وحضوا على الرفق في هذا الأمر، كما اهتم العرب بالثواب مقابل العقاب، ومن أنواع الثواب التي سادت وشاعت في بداية الدولة العربية، كان المدح والتشجيع، ومنها المكافآت المالية، ومنها الجائزة، التي تكون مقابل التفوق. أما مناهج التعليم، فكانت مختلفة حسب أمكنة التعليم، فالكتاتيب غير الصالات وغيرها غير التعلم في المساجد. وهكذا، وأول مقررات المناهج التعليمية كان القرآن الكريم من القراءة إلى الحفظ إلى الإعراب والتفسير والترتيل، يضاف إلى ماورد تعلم مبادىء العلوم والآداب.

التاريخ:

استغرب عندما يذكر البعض ـ وما أكثرهم ـ أن التاريخ بدأ عند العرب بعد ظهور الإسلام. أنسي هؤلاء تاريخ أجدادنا الفراعنة سادة العالم في عصرهم؟ وما كشف عن تاريخهم؟ من رقم بلغتهم المسمارية والهيروغليفية. وإن الكثير منها كان كتابة لتاريخهم. لكن بالطريقة التي كانت سائدة عندهم. ألم يقرأ هؤلاء تاريخ السومريين ولغتهم؟ وما كشف من رقم عن تاريخهم؟ أليس ذلك بمنزلة تاريخ؟ وأيضاً الأكاديون ولغتهم والرقم المكتشفة التي تؤرخ عصرهم، والآراميون ولغتهم التي كانت لغة التجارة العالمية، والفينيقيون سادة البحار ولغتهم التي تعدّ أصل لغات العالم؟ والرقم المكتشفة لهذه الدول، وأيضاً البابليون والآشوريون والحميريون الذين كان لهم كتب، تحوي أخبارهم وأنسابهم، وغيرهم من العرب القدماء؟ أليست الرقم المكتشفة تاريخاً لهذه الدول العربية الأصل؟ أليست السريانية تطوراً عن الآرامية تلك اللغة التي أرخ فيها لمرحلة ما بعد الميلاد؟

وأنا أعتقد: أن أصول التأريخ نشأت عند العرب القدماء، كالفراعنة المصريين، وعند الفينيقيين، وعند البابليين، وغيرهم، وكانوا أسبق من غيرهم في هذا الميدان بقرون طويلة. أليس من خلال الرقم المكتشفة في إيبلا وأوغاريت وتل العمارنة وغيرها من المواقع الأخرى، تؤرخ في الوقت الحاضر لهذه الشعوب؟ إذن عملية التأريخ كما أعتقد قديمة عند العرب، وعنهم أخذ غيرهم من

---

[1] القرآن الكريم ـ سورة البقرة ـ الآية / ١٧٩.

[2] القرآن الكريم ـ سورة آل عمران ـ الآية / ١٣٤.

شعوب العالم.

من المعروف أن الإسلام دين، أهدافه الأساسية البحث في تاريخ النفس، لأن العقيدة الإسلامية، ليست محدثة، إنما هي عميقة الجذور في التاريخ. بالإضافة لذلك فهي تتضمن فكرة عامة عن مجمل العلوم، منها فكرة التأريخ ابتداءً من آدم مروراً بالأنبياء وشعوبهم إلى آخر الأنبياء وآخر الأديان.

وباعتبار أن الإسلام دين جديد، كون دولة جديدة، كان لا بد لهذه الدولة من الاهتمام بعلم التاريخ. وهذا ما حدث كما أعتقد ليس ابتداءً بالهجرة، إنما كان ابتداءً من أول مبعث الرسول (ص)، عندما بدأ نزول القرآن الكريم عليه بالتتابع، فالقرآن ـ منذ البداية ـ كان يدوّن. ولسنا بصدد المواد المستخدمة في التدوين، ثم إن السرايا والغزوات التي حدثت بعد الهجرة مباشرة أيضاً، وجد من يسجلها، ويدوّنها، ويحفظها، والكتب التي وجهها الرسول (ص) إلى ملوك العالم آنذاك سجلت، ودونت، وحفظت كمصدر تاريخي. ثم إن الرسول كان مصدراً من مصادر التاريخ. يؤكد ذلك أسئلة الصحابة له عن ماضي الشعوب، التي سبقت الإسلام، والشخصيات البارزة في تلك المرحلة وأجوبته عنها. وكل ذلك مسجل في السنة الشريفة وكتب السيّر. وتلاحقت الأحداث سريعة، والدولة تنمو في كافة المجالات وعلى رأسها الفكرية. ومن ضمنها: التاريخ حسب مقدرات الدولة الجديدة، لأن كل شيء يبدأ صغيراً، ثم ينمو، ويتطور. هكذا كانت قضية التاريخ.

وتتتابع الأحداث سريعة ففي عهد الخليفة الراشدي الأول، بدأت ـــ كما نعلم ـــ صراعات ومحاورات، كلها سياسية، وأكثرها دونت أثناء ذلك، ثم تلاحقت الأحداث، وحدثت الردة، وحدثت حروب الردة، وأحداثها كثيرة، إلا أن أكثرها دون في حينه، ومن الأحداث المساعدة أيضاً، وضع التقويم الهجري في عهد الخليفة عمر بن الخطاب، والذي أصبح ذا دور بارز وأساسي وهام في تنظيم وتدوين تاريخ الإسلام.

يضاف إلى ما ورد الصراع السياسي، ويدون مثل هذا الصراع من الوجهة التاريخية. ولا ننسى أيضاً الصراع السياسي الذي مثله معاوية بن أبي سفيان ضد الإمام علي الخليفة الشرعي للدولة، وما دون فيه من رسائل سياسية وأدب، وخاصة الشعر والخطابة، والذي ما زال قائماً إلى الآن، وكان الصراع مادة خصبة للتدوين وكتابة التاريخ. وأحداث العصر الأموي كثيرة. ومنها

عودة العصبية القبلية في هذا العصر، والثورات التي حدثت ضدهم، ابتداءً من الصراع الدائم على السلطة فيما بينهم (السفيانيون والمروانيون) وثورة ابن الزبير، وثورة الخوارج، وثورة المختار، والثورة العباسية، وغير ذلك من الأمور التي تركت وثائق، كانت مادة لتاريخ الأمويين وما قبلهم.

اعتمد التاريخ والعلوم الأخرى، في البدء الرواية الشفهية المباشرة من المصدر الأول والأساسي، حيث تم تسجيل جميع المعلومات، وتدوينها بدقة، ثم نقلها إلى الآخرين، فظهر بذلك صحف وكتب كثيرة اعتمدها رواة الأخبار. ومن الأمثلة على التدوين تدوين القرآن الكريم، وتدوين الرسائل، التي وجهها الرسول (ص) إلى الملوك والحكام خارج الجزيرة العربية وتدوين السنة الشريفة. وفي العصر الراشدي أمر الخليفة الراشدي عمر بن الخطاب بتسجيل أنساب العرب، حيث شكل لجنة ثلاثية، ضمت أبا عدي جبير بن مطعم ـ مخرمة بن نوفل ـ وعقيل بن أبي طالب. وعلى هذا الأساس وضع الديوان، وبذلك كان هذا العمل أول تدوين تاريخي مكتوب للأنساب.

في العصر الأموي خطا التاريخ خطوة أكثر تقدماً. فقد ظهر في هذا العصر المؤلفات في النسب والأخبار. ومن هؤلاء الإخباريين عبيد بن شرية الجرهمي. وقد استدعاه معاوية، ليسأله عن أخبار الأمم، حيث يذكر ابن النديم أن معاوية سأله أسئلة، تتعلق بالتاريخ، ثم أمر الكتبة أن يدونوا أقواله، وبهذا يعدّ أول تدوين للتاريخ في بلاد الشام والعالم الإسلامي، عاش هذا الإخباري إلى عهد عبد الملك بن مروان ومع ذلك يذكر عنه: أنه لم يرو إلا عن حوادث الجاهلية وأخبارها، وأهم ما كتبه (أخبار اليمن وأشعاره) وإخباري آخر هو: علاقة بن كريم، ولقد كان أيضاً عالماً بأخبار العرب، وهو من سمار يزيد بن معاوية.

أما موضع جهاد النبي وسيرته، فكان مجال تخصص للصحابة وحدهم. لأنهم هم الذين حضروا وعاشوا هذه الأحداث. فمن ذلك أن عبادة بن الصامت روى خبر بيعة العقبة الأولى والثانية، وروى عنه البلاذري معركة اليرموك، ووصفت روايته بالدقة. إلا أن الصحابة لم يرووها على أنهم مؤرخون، لكنها نتيجة إلحاح من التابعين، كانوا يقومون بذلك لمعرفة هذه الأخبار بالتفصيل. ومن هؤلاء التابعين من تخصص في الرواية كالزهري وأبي إدريس الخولاني.

وأما المشهورون بالنسب من الصحابة فكان منهم دغفل بن حنظلة، وهو الذي استقدمه

معاوية، وأمره أن يعلم ولده يزيد[1]. وكان لاستقرار السلطة في بلاد الشام والاهتمام بالأنساب والفتوحات، ما جعل الشام مكاناً مهماً في أمر العلوم التاريخية. ومن الرواة الشاميين الذين شهدوا الفتوح (فتوح اليمامة ودمشق): شرحبيل بن مرثد، ولم تكن كل الأخبار فتوحات أو غزوات، بل حصلت حوادث أخرى، منها ما رواه رجاء بن حيوة عن قصة استخلاف عمر بن عبد العزيز[2]، ومن رواة الأخبار الشاميين: عبادة بن نسي، الذي روى غزوة معاوية لعمورية[3].

لقد كان الرواة يرددون عن علماء مجهولين أو عن محدثين، ويونس بن يزيد بن عبد الرحمن ابن جبير، ثم أبو اليقظان سحيم بن حفص، الذي روى بعض الأخبار عن عمر بن عبد العزيز، والأبرش الكليمي الذي كان مصاحباً لهشام.

ومن المؤلفات الأخرى كتاب (الملوك والتيجان) لوهب بن منبه بالإضافة إلى جمع يزيد بن ربيعة بن مفرغ الحميري الشاعر سيرة مكة وأشعارها. أما في النسب فنذكر كتاب: عبد الله بن عمرو اليشكري المتوفى حوالي سنة /٨٠ هـ/، وكتاباً وضعه مجور بن غيلان الضبي البصري المتوفى حوالي سنة /٨٥ هـ/، وكتاباً ثالثاً في النسب لخراش بن إسماعيل الشيباني، عنوانه: أخبار ربيعة وأنسابها.

يضاف إلى ما ورد ما دون عن الشعراء الأمويين أمثال المحدث أبي عمر ذر بن عبد الله المرهبي الكوفي، الذي توفي أوائل القرن الثاني الهجري، والذي وضع كتاباً حول الشعراء الأمويين، كما ألف يونس بن سليمان الكاتب، الذي عاش في العصر الأموي، وأدرك العباسي (توفي سنة ١٤٨ هـ) كتاب النظم. في الوقت نفسه، انتشرت كتب المغازي أواسط العصر الأموي، ومن الذين دونوا عن العصر يزيد بن أبي حبيب، يذكر عنه: أنه ترك عدة كتب في أخبار مصر وفتوحاتها. وكتب الشعبي أيضاً (كتاب الشورى ومقتل عثمان). ما ورد يؤكد أن التدوين كان قد بدأ مع بداية الدولة العربية الإسلامية، وما عدا ذلك محض افتراء وتزوير للحقيقة.

---

[1] ابن بدران ـ تهذيب ابن عساكر ـ ج٥ ـ ص: ٢٤٢.

[2] الطبري ـ ج٥ ـ ص: ٣٠٧.

[3] البلاذري ـ فتوح البلدان ـ ص١٩٥.

إذن اعتمد التدوين التاريخي عند العرب المسلمين منذ البداية الوثائق والسجلات والكتب الأصلية والأسفار، واعتمد الدقة إضافة إلى اعتماده الرواية الشفهية، واتسم التدوين منذ بداية الإسلام، حتى نهاية الأمويين بالطابع الشخصي، كما اتسم بالعفوية والمنفعة العلمية والدينية والاجتماعية، وظهر جلياً الاهتمام بالمعارف التاريخية، وخاصة عند خلفاء بني أمية ابتداءً من عهد معاوية، والذين كان لهم أكبر الأثر في تطور المعارف التاريخية وفلسفتها.

أخيراً لا ننسى أهمية كل من عبد الله بن عباس (المتوفى سنة ٧٨ هـ) وأبان بن عثمان بن عفان، المتوفى سنة (٩٥ هـ)، وعروة بن الزبير المتوفى سنة (٩٤ هـ)، ودورهم في رواية جوانب مهمة من السيرة النبوية، والتي سميت بالمغازي يضاف إلى ما ورد نذكر: شرحبيل بن حسنة المتوفى سنة (١٢٣ هـ)، وسلمان الفارسي في السيرة والنقل عنه، وجبير بن نفير الحضرمي المتوفى سنة (٨٠ هـ)، الذي روى حوادث فتح قبرص، وعبد الرحمن بن جبير الذي روى له ابن كثير، نزول الروم قرب اليرموك وقدوم خالد إلى الشام، كما روى له ابن عساكر إرسال الجيوش من قبل الخليفة الأول أبي بكر إلى الشام، وعبد الرحمن بن غنم، الذي روى له البلاذري: حوادث فتح فلسطين، كما روى له الطبري وغيرهم الكثير، ولا داعي لذكرهم.



الفصل الرابع

العلوم الأساسية

- الطب عند العرب قبل الإسلام.
- علم الكيمياء.
- علم الفلك.



الفصل الرابع
العلوم الأساسية

الطب عند العرب قبل الإسلام:

كانت معرفة العرب قبل الإسلام بالطب محدودة. ومع ذلك، فقد مارسوه، واعتمدوا على تجارب من سبقهم. حتى أن بعضهم تمكنوا من دراسة الطب في بلاد فارس وبلاد الروم، كالحارث ابن كلده، الذي التحق بمدرسة جند نيسابور الطبية، ويذكر الباحثون في علم الطب: أن الطب عند العرب قبل الإسلام كان وقائياً أكثر منه علاجياً[1]. ولقد برع العرب في بعض فروع الطب كأمراض الأسنان والجراحة وأمراض العيون وطب التجميل، كما عرفوا الحميات، كالملاريا واليرقان وآلام الكبد والقلب والأمراض الجلدية، وعرفوا الطب البيطري وعلم الحيوان.

أما في صدر الإسلام، فالطب لم يختلف عما كان عليه قبل ذلك، لأن أطباء ما قبل الإسلام ظلوا يمارسون هذه المهنة حتى أدرك بعضهم الدولة الأموية. ومن المعروف أن الطب في صدر الإسلام غلب عليه طابع الطب النبوي، الذي اعتمد الطب الوقائي أكثر من المعالجة والدواء والوصفات، وقد ألف فيه الكثير من الكتب مثل: كتاب الطب النبوي ـ ابن قيم الجوزية، كتاب

---

[1] ابن عبد ربه ـ العقد الفريد ـ طبع بيروت ـ بدون تاريخ ـ ج٨ ـ ص١٦.

الطب النبوي ـ ابن حبيب الألبيري، كتاب الطب النبوي ـ للبغدادي، كتاب الطب النبوي ـ للذهبي، كتاب الطب النبوي المعروف بالمنهج السوي ـ للسيوطي، وغيرها من الكتب.

وفي العهد الأموي تأثر الطب العربي بالطب في دول العالم المجاور. فقد برع الطب عند الأمويين في الكشف التشخيصي، حيث الداء عن طريق النظر إلى أظافر المريض وعينيه ولسانه وبوله. ويذكر: أنه كان لمعاوية طبيبان من دمشق، هما: ابن أثال، وأبو الحكم الدمشقي، كما ذكر: أن الطبيب بدراقس كان قد أجرى عملية جراحية بارعة على وجه سكينة بنت الحسين، ثم تطور الطب فيما بعد، وخاصة بعد أن أنشأ الوليد بن عبد الملك أول بيمارستان، أو ما يسمى في الحاضر: مشفى في دمشق عام ٨٨هـ، وقسمه إلى جناحين، أحدهما للذكور، والآخر: للإناث، وزوده بما يحتاجه.

إذن منذ بداية الإسلام، كان الاهتمام بالصحة العامة للأفراد والمجتمع. فالقرآن الكريم عالج موضوعات الصحة العامة للأفراد والمجتمع، والقرآن الكريم عالج موضوعات الصحة العامة للإنسان، من ذلك النظافة والطهارة، كقوله تعالى: **﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾**[1] وقوله: **﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ، وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾**[2] وقال الرسول (ص): «**طهّروا هذه الأجساد، طهّركم الله**». وأكد على الأغذية، وحرّم الفواحش ما ظهر منها وما بطن، وغير ذلك مما يتعلق بالصحة العامة.

وحرصاً على السلامة العامة فلقد حاربت الشريعة الإسلامية العدوى ومصادرها، سواء كان ذلك من النقل المباشر[3] أو غير المباشر، كما حرم الإسلام تعاطي المحرمات، كالخمر والميسر والأنصاب والأزلام، لأنها رجس من عمل الشيطان، ولأنها تسبب أضراراً تتراكم في الأبدان والأنفس. بالمقابل حض الإسلام على أكل الطيبات، لأنها تحفظ الجسم، وتنميه، وفي الوقت نفسه أكد الإسلام على قواعد الطب الوقائي، والمقولات التالية تؤكد ذلك (درهم وقاية خير من قنطار علاج) وأكد الحديث النبوي هذه القاعدة، فالرسول (ص) قال: «**فر من المجذوم كما تفر من الأسد**». ونهى الرسول (ص) عن الشرق في السقاء والتنفس في الإناء خوفاً من العدوى.

---

[1] القرآن الكريم ـ سورة المدثر ـ الآية الرابعة.

[2] القرآن الكريم ـ سورة البقرة ـ الآية ٢٢٢.

[3] محمود دياب ـ الطب والأطباء في مختلف العهود الإسلامية ـ طبع مصر ١٩٧٠ ـ ص١٢٠.

ومن الوصايا، التي تعود على الصحة العامة قول الرسول (ص) **«ما ملأ ابن آدم وعاء شراً من بطنه بحسب ابن آدم لقيمات يقمن صلبه»**[1] وقال: **«الإدام دواء، والمعدة بيت الداء، وعوّد بدنك أكل ما أعتاد»**. وقال:**«لا تدعوا العشاء، ولو بكف من تمر إن تركه يهرم»**. أخيراً كان العلماء المسلمون ذوي خبرة وكفاءة وتقدير بالغ من الخلفاء والأمراء والناس نظراً لدورهم الهام العائد على المجتمع بالفائدة، ومن أشهر الأطباء العرب خلال هذه المرحلة:

الحارث بن كلده الثقفي بن عمرو بن علاج الثقفي: يذكر أن أصله من الطائف، سافر إلى بلاد الشام، وتعلم الطب، وتمرن هناك، وعرف الداء من الدواء، أدرك الإسلام، وعالج بعض الصحابة، عرف بطبيب العرب، وأدرك الدولة الأموية، حيث توفي سنة ١١٦هـ. وقيل: توفي في عهد معاوية، وهذا أصح كان على دراية بعلاج الجروح، وتشخيص الإصابات القاتلة، ومن أقواله: (أربعة أشياء، تهدم البدن، الغشيان على البطن، ودخول الحمام على الامتلاء، وأكل القديد، ومجامعة العجوز)، وغير ذلك. وله كتاب المحاورة في الطب بينه وبين كسرى أنوشروان، وأعتقد أن بعض الأقوال، التي ذكرها ابن أصيبعة هي لغير الحارث بن كلده، ونسب ذلك له. درس الحارث الطب في فارس (جند نيسابور)، وعمل في الطب هناك، عدّه القفطي طبيب العرب في وقته، أصله من ثقيف، أجاد في صناعة الطب (في بلاد فارس) وجمع هناك مالاً، ثم اشتاقت نفسه إلى بلاده، فرجع، ومعه جارية، سماها سمية، وهي أم زياد بن أبيه، الذي ألحقه معاوية بنسبة، كان الحارث هذا قد تعلم ضرب العود، كما يذكر في بلاد فارس.

أبو الحكم الدمشقي: كان معاوية بن أبي سفيان يعتمد عليه في تركيبات الأدوية، لأغراض قصدها منه. ويذكر: أن بعثات الحج التي كانت تقام زمن معاوية بن أبي سفيان، كانت ترافقها بعثة طبية، حيث يذكر: أن أبا الحكم الدمشقي هذا كان رافق يزيد بن معاوية في موسم الحج، ولقد أدرك عبد الملك بن مروان، حيث عالجه في مرضه، الذي مات فيه، يذكره ابن أبي أصيبعة: بأنه كان دمشقياً، يشتغل بالطب وأنواع العلاج والأدوية، عمر طويلاً، ويقال: إن عمره تجاوز المئة.

---

[1] محمد ضيف الله بطاينة ـ الحياة الاجتماعية في صدر الإسلام ـ طبع بيروت ١٩٨٨ ـ ص١٨٩.

ابن أثال[1]: يذكره ابن أبي أصيبعة بأنه: كان طبيباً متقدماً من الأطباء المميزين في دمشق، اصطفاه معاوية بن أبي سفيان لنفسه، وأحسن إليه. كان خبيراً بالأدوية المفردة والمركبة وسواها كالسموم، واستخدمه معاوية بن أبي سفيان لقتل خصومه بالسم، من ذلك ما فعله بعبد الرحمن بن خالد بن الوليد، حيث قتل، كما يروى، على يد خالد بن المهاجر، ومولى، اسمه، نافع، يذكر. أنه كان حياً عام (٤١هـ - ٦٦١م).

رفاعة التميمي[2]: مارس الطب، وعاش في عصر الرسول (ص) زار مصر وشمال أفريقية، وصف: بأنه لم يكن فائقاً في مهنته المذكورة.

الشمردل بن قباب الكعبي: من أهل نجران له علم ودراية بالطب، أدرك الإسلام، وحاور الرسول (ص) بالطب، أسلم، وحسن إسلامه.

ضماد الأزدي: هو ضماد بن ثعلبة الأسدي، طبيب مخضرم، اشتهر كمعالج نفساني للمرضى، أسلم، وحسن إسلامه، يذكره ابن سعد في الطبقات الكبرى.

النضر بن الحارث بن كلده الثقفي: طبيب كأبيه، درس الطب في جند نيسابور، أدرك الإسلام، كان يجاهر بعدوانه للرسول (ص)، ويحسده، عرف بأنه كان ابن خالة الرسول (ص)، قتل مشركاً في معركة بدر، تنقل في أماكن متعددة طلباً للعلم، واطلع على علوم الأقدمين، ذكره المسعودي في (مروج الذهب) وابن أبي أصيبعة في (عيون الأنباء)، الجاحظ في (البيان)، النويري في (نهاية الأدب) وغيرهم، وصف بأنه كان له دراية وعلم أيضاً في الغناء والموسيقى.

ابن أبي رقية التميمي: كان طبيباً في عهد الرسول (ص) مزاولاً لأعمال الطب يذكره ابن أبي أصيبعة.

أبو الفتوح المستوفي: طبيب، عاصر الخليفة الراشدي الرابع الإمام علي كرم الله وجهه، يذكره البيهقي في كتابه تاريخ حكماء الإسلام.

---

(1) محمود دياب - الطب والأطباء في مختلف العهود الإسلامية طبع مصر ١٩٧٠ - ص١٢٠.

(2) زهير حميدان - أعلام الحضارة العربية الإسلامية في العلوم السياسية والتطبيقية طبع دمشق ١٩٩٥ - المجلد الأول - ص٣٢ .

يحيى النحوي: طبيب ونحوي، يذكر أنه كان قوياً في علم النحو والمنطق والفلسفة، وفسر كتباً كثيرة في الطبيات، يعدّ من أساقفة الإسكندرية السبعة، الذين جمعوا كتب جالينوس الستة عشر، وفسروها، وروي: أن خالد بن يزيد بن معاوية كان قد أخذ عنه الطب. من آثاره كتاب الترياق لجالينوس، مقالة في النبض، وتاريخ الأطباء الأولين في العصر الإسلامي، وهو أول كتاب من نوعه في تاريخ الطب، (مفقود) وكتب غيرها، يذكره ابن أبي أصيبعة في (عيون الأنباء) ابن النديم في (الفهرست)، القفطي في (أخباء العلماء)، البغدادي وغيرهم.

عبد الملك بن أبجر الكتاني[1]: وصف بأنه كان طبيباً عالماً ماهراً، أدرك الإسلام، وأسلم على يد عمر بن عبد العزيز، عندما كان أميراً للمدينة. وقيل: عندما كان أميراً على مصر، وكان يعتمد عليه في صناعة الطب، ثم أصبح طبيبه الخاص، عندما أصبح خليفة. ذكر عنه أنه كان مدرساً بالإسكندرية. من أهم أقواله: (دع الدواء ماحتمل بذلك الداء) (المعدة حوض الجسد، والعروق تشرع فيه، فما ورد فيها بصحة، صدر بصحة وما ورد فيها بسقم، صدر بسقم).

ماسر جوية البصري: طبيب كحال، أصله فارسي، سرياني اللغة يهودي الدين، ذكره الرازي في كتابه الحاوي، يروى أنه عاصر الخليفة الأموي مروان بن الحكم، ذكر عنه، أنه تولى تفسير كناش (اهرون بن أعين القس) إلى العربية ويعدّ ماسر جويه من أوائل النقلة من السريانية إلى العربية، من آثاره: رسالة في إبدال الأدوية، كتاب في العين - كتاب في الشراب - كتاب في الغذاء — يذكره ابن أبي أصيبعة في (عيون الأنباء)، وابن جلجل في (طبقات الأطباء)، القفطي في (أخبار العلماء) وغيرهم.

أحمد بن إبراهيم: ذكر أنه كان طبيب الخليفة يزيد بن عبد الملك من آثاره: رسالة في النباتات المستعملة في الطب.

ابن جذيم[2]: من أشهر الأطباء العرب، ويضرب به المثل في الحذاقة في الطب، كان من أمهر المعالجين بالكي، فكانوا يضربون به المثل لكل طبيب، يتقن هذه الصنعة.

---

[1] محمد رحائي صفحات من تاريخ الطب - طبع مصر ١٩٨٨- ج٢ - ص٢٣ - ٦٠.

[2] مختار سالم - الطب الإسلامي بين العقيدة والإبداع - طبع بيروت ١٩٨٨ - ص٨٠.

تياذوق: يذكره ابن أبي أصيبعة: بأنه كان طبيباً فاضلاً، عاش في أول دولة بني أمية، وكان مشهوراً عندهم بالطب، صحب الحجاج بن يوسف، وخدمه بصناعة الطب، وكان يعتمد عليه ـ توفي بواسط ٩٠هـ وله كتاب الكناش الكبير.

نظم تياذوق[1]: أحد أطباء الأورام بدمشق، استطبه الحجاج بن يوسف الثقفي (٤٠-٩٥هـ) = (٦٦٠ـ ٧١٤م) وتوجد نسخة خطية لهذه القصيدة في مكتبة شيراز بإيران، ويعرف عن تياذوق: أنه كان طبيباً بارعاً كريم الخلق، حاضر البديهة، خفيف الروح. وقد نقلت عنه الوصية الآتية، وهو على فراش الموت (لا تشربن دواء، حتى تحتاج إليه، لا تأكل طعاماً وفي جوفك طعام، وإذا أكلت، فامش أربعين خطوة، وإذا امتلأت من الطعام، فنم على جنبك الأيسر، لا تأكل الفاكهة، وهي مُولّية).

وفضلاً عن قصيدة تياذوق في حفظ الصحة، وقد ترجمها[2] الشيخ الرئيس ابن سينا (٣٧٠ ـ ٤٢٨هـ) = (٩٨٠ ـ ١٠٣٧م) إلى اللغة الفارسية، فإن لتياذوق مؤلفات طبية أخرى، منها:

١ـ كناش في الطب وهو أكبر كتبه، بحث فيه أموراً طبية كثيرة.

٢ـ الفصول في الطب.

٣ـ إبدال الأدوية وكيفية دقها وإذابتها.

رفيدة الأسلمية: هي رفيدة بنت الطبيب سعد الأسلمي طبيبة، أدركت الإسلام، وورد ذكرها في كتب التاريخ كالسيرة لابن إسحاق، وعمر فروخ (تاريخ العلوم) وسامي الحمارنة (تاريخ تراث العلوم وغيرها). عندما أصيب سعد بن معاذ بسهم في غزوة الخندق، نقل إلى خيمة رفيدة بأمر من الرسول (ص)، وبذلك يكون الرسول (ص) أول من اتخذ مشفى حربياً لمعالجة جرحى ومرضى المقاتلين في الإسلام.

عائشة بنت أبي بكر الصديق: (ولدت في السنة التاسعة قبل الهجرة) وتوفيت سنة (٥٨هـ) (٦١٣ـ ٦٧٧م)، يروى: أنها مارست الطب، ويذكرها الذهبي في كتابه (تاريخ الإسلام).

---

[1] الفهرست لابن النديم ـ ص ٣٠٣ ـ اخبار الحكماء ـ ص ١٠٥ ـ سزكين ـ٣: ٢٠٧،٢٠٨.

[2] عن كتاب مختصر تاريخ الطب العربي للدكتور كمال السامرائي بغداد سنة ١٩٨٤م، الجزء الأول الصفحات ٣٠١ـ٣٠٤.

نسيبة الأنصارية: (أم عطية الأنصارية) نسيبة بنت الحارث الأنصارية، تعرف بأم عطية الأنصارية، أدركت الإسلام، وأسلمت، وحضرت سبع غزوات، كانت تعالج المرضى، وتداوى الجرحى، وتصنع الطعام للمقاتلين، ذكرها الذهبي في (تاريخ الإسلام وأعلام النبلاء، وابن عبد الله (الاستيعاب)، وابن الأثير (أسد الغابة) وغيرهم.

(١) ـ منظومة طبيَّة

منسوبة إلى الإمام علي بن أبي طالب[1] كرَّم الله وجهه. فقد قيل: إن رجلاً أعرابياً، جاء يشتكي إلى سيدنا علي من ضعف الباة، فقال له شعراً:

((يا أيُّها الرَّجلُ الَّذي فَوْقَ المَلاَ	بالعَقْلِ ثمَّ الجُودِ والإحْسَانِ
إنِّي أتيتكَ والفؤادُ مُعَذَّب	والقَلْبُ فيه حَرَائِقُ النِّيرانِ
لي زوجةُ والبَدْرُ يُشْبهُ لونَها	والقدُّ مِنْهَا مِثْل عُودِ البَانِ
فَتُحبُّني وأُحبُّها لَكِنَّني	في الفَرْشِ مَعها في أخَسِّ مَكَانِ
قَدْ يَسْتَطِيعُ إلى النُّهوضِ لَكِنَّه	رُمْحُ ثُني يَا فَارِسَ الفُرْسَانِ))

فردَّ عليه الإمامُ علي بن أبي طالب بالنظم الآتي:

((يَا سَائِلي ـ! قَدْ جِئتَني مُتَحيِّراً	تَشْكُو إليَّ نَوَائِبَ الحَدَثَانِ
في عَشْر حَالاَتٍ دَوَاكَ لأنَّه	عِلْمٌ وتجريبٌ وحُسنُ مَعَانِ
خُذْ نَارِجيلاً وزنجبيلاً وفلفلاً	وقُر نُفُلاً ويكونُ بالمِيزانِ
والدِّر صِيني والكبابَة خُخْهُما	مَع دَار فُلفلْ يَا أخا الإحْسَانِ
والقِرْفَة اللفا الَّتي لاَ مِثْلها	والمُصطكى الرُّمِي بِغَيْر تَوَانِ
دُقّ الجميعَ وَهَزَّه بِمُنخُلٍ	واخْلُطْه في عَسَل علىَ النِّيرانِ
واحْكُمْه بالتحريكِ واحْذَرْ نَارَه	تَقْوىَ فيذْهَبُ مِنْكَ بالخُسْرَانِ
وكل فيه مثقالين في وقتِ العِشَا	والصُّبح مِثْلهما بلاَ نُقْصَانِ
إنيٍّ نَصَحتُكَ والَّذي رَفَع السَّمَا	وخُذِ النصيحةَ يا أخاَ الإحْسَانِ

---

[1] عن كتاب ((فاكهة ابن السبيل)) تأليف راشد بن عمير بن ثاني بن خلف ابن هاشم. نشرُ وزارة التراث القومي والثقافة، سلطنة عُمان، الجزء الثاني، سنة ١٤٠٥ هـ = ١٩٨٤م، صفحتا ٧٩، ٨٠.

وَاحْــذَرْ لِشَـــكِّكَ فِي مَقَالَـــةِ حيــــدر فَقَوْلُــه صِـــدْقٌ وحُسْـــنُ مَعَـــانِ))

البيمارستان:

بعد الهجرة أخذ الرسول (ص) يعد العدة لمواجهة أعـداء الدين الجديـد تنفيـذاً لقولـه تعـالى: ﴿وَأَعِدّوا لَهُمْ ما اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾[1]. وبدأت الغزوات والحروب وإرسال السرايا، تـأخذ دورهـا في حماية الدعوة من جهة، وانتشارها من جهة ثانية، والحروب، مهما كان نوعها، تحتاج إلى تعبئـة، ومن ضمنها الاهتمام بجرحى الحروب ومعالجتهم والاهتمام بما يترتب عن المعركة في هذا المجال.

أدرك الرسول منذ البداية ذلك، فعندما دارت رحى غزوة الخندق (الأحزاب) السنة الخامسـة للهجرة (٦٢٧م)، كان قد أعد لها كل مسـتلزماتها. فـأمر أن تنصـب خيمـة في مسـجده الشـريف كمقر لمشفى حربي، وأمر أن تكون الطبيبة العربية رفيدة الأسـلمية الأنصاريـة رئيسـة ذلـك المشـفى الحربي. وكان ـ كما يروى ـ أول من دخل هذا المشفى بأمر الرسـول (ص) هـو: سـعد بـن معـاذ، وكان قد أصيب بسهم في أسفل كعبه، فأخذت رفيدة تقوم على معالجته ومداواته، فكـانت بذلـك أول ممرضة[2] وطبيبة للميدان الحربي في الإسلام.

وذكر أن الخليفة الراشدي عمر بن الخطاب كان أول من اهتم بالعجزة، وفرض لهم من بيـت المال، حتى ولو كانوا غير عرب، وبذلك يكون العرب المسلمون قد أوجدوا دوراً للعجـزة، والذيـن أقعدهم المرض.

كما كان الوليد بن عبد الملك قد جمع المقعدين في دور خاصة بهم. وفي الصراع الدائر الـذي كان قـد جـرى بـين ابـن الزبير والأمويين، نلاحظ أن ابن الزبير كـان قـد ضـرب بيتـاً مـن الشـعر (فسطاط) عند ناحية المسجد الحرام لمعالجة الجرحى، وخاصة عندما حاصره الحجاج.

وأول من بنى البيمارستانات (المستشفيات) في الإسلام بعد الذي سبق ـ كما هو معلوم ـ هو الخليفة الأموي الوليد بن يزيد بن عبد الملك سنة (٨٨ هـ) (٧٠٦ م)، وجعل فيه الأطبـاء، وأجـرى عليهم الأرزاق، واهتم برعاية العميـان والمجذومـين. حيـث جعـل للمجذومـين مكانـاً خاصـاً بهـم،

---

[1] سورة الأنفال ـ الآية / ٦٠.

[2] أبي جعفر محمد بن جرير الطبري تاريخ الطبري (تاريخ الأمم والملوك ـ مجلد٣ ـ ص٦٧٧).

وأمرهم بعدم الخروج[1]، وأجرى عليهم وعلى العميان الأرزاق حتى لا يسألوا الناس، وجعل لكل مقعد خادماً، ولكل ضرير قائداً.

وبذلك يكون العرب المسلمون سباقين في إقامة المستشفيات، وتعليم الطب فيها، وإدارتها، وكانت الغاية من إقامة المشافي خدمة المجتمع دون مقابل، والمحافظة على الصحة، ومداواة المرضى، وحفظ الصحة على الأصحاء واستردادها لمن سلبت منه.

علم الكيمياء:

إن بداية الكيمياء - في الحضارة العربية الإسلامية - ترجع إلى الاتصال المباشر بالحضارات، التي سبقتهم. لأن كل حضارة تنهل من سابقتها، ثم تبني لنفسها حضارة خاصة بها. حتى لقد ثبت. أن كلمة كيمياء عربية الأصل، وأن العلماء العرب هم أول من أعطى علم الصنعة اسم علم الكيمياء. ومن الذين اهتموا بعلم الكيمياء كان خالد بن يزيد بن معاوية[1] الذي عاش ما بين ١٣ ـ ٨٥هـ عندما جعل لعلم الكيمياء مكانة هامة بين العلوم الأخرى[2] التي راجت آنذاك. وبذلك يعدّ خالد ابن يزيد المؤسس الأول لعلم الكيمياء عند العرب[3] ووضع فيها الكتب، فجلب العلماء من مصر، فترجموا العلوم الكيميائية وغيرها من اللغات الأخرى إلى العربية، فكان بذلك أول من بدأ بترجمة العلوم البحتة[4] والتطبيقية من لغات مختلفة إلى العربية، واهتم خالد بالتأليف، فألف ثمانية كتب، منها: منظومة فردوس الحكمة في علم الكيمياء، وكتاب الرحمة في الكيمياء.

لقد حاول بعضهم التقليل من قدر خالد واستطاعته في هذا العلم، منهم محمد بن عمرو[*]، وكذلك ابن خلدون حيث أنكر ما نسب إلى خالد بن يزيد من هذا العلم[6]. ورغم ذلك لم يؤثر على ما قدمه في هذا المجال، لأن اسمه كثيراً ما كان مقترناً بعلم الكيمياء والطب معاً. ولأن العلمين

---

[1] ابن هشام السيرة النبوية - الجزء الثالث - ص٢٥٠.

[1] عمر فروخ - عبقرية العرب في العلم والفلسفة - طبع بيروت ١٩٨٥ - ص٩٦.

[2] علي عبد الله الرفاعي - اسهام علماء العرب والمسلمين في الكيمياء - ص٨٣.

[3] حاجي خليفة - كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون - ابن النديم الفهرست - ابن خلقان وفيات الأعيان.

[4] فاضل أحمد الطائي - أعلام العرب في الكيمياء طبع مصر ١٩٨٦ - ص١٧.

[*] العقد الفريد ج١ - ص٢٤.

[6] تاريخ ابن خلدون - ج١ - ص٩٥٢.

كانا مرتبطين معاً. ولأن الكيميائي يمثل الصيدلي بالنسبة للطبيب، حيث يحضر له بعض العقاقير، التي يحتاجها، وقد ذكر ابن خلكان[1] عن خالد، أنه كان من أعلم قريش في هذا العلم.

وله كلام في صنعة الكيمياء والطب، وقد كان بصيراً بهذين العلمين متقناً لهما. بالإضافة لخالد في بلاد الشام العالم مريانوس، وهو رومي الأصل، إلا أنه كان يعيش في بيت المقدس[2] قبل أن يقدم إلى حمص، واستقر مع خالد بن يزيد في قصر خالد. ويذكر ابن النديم[3] أيضاً: أن خالداً قد أمر بإحضار جماعة من فلاسفة اليونان من الذين كانوا في مصر، وأمرهم بنقل الكتب في الصنعة إلى العربية. حيث يذكر: أنه كان أول من نقل أو ترجم. من لغة إلى لغة، ولخالد بعض الرسائل والأشعار في الكيمياء، ومما يؤكد تقدم علم الكيمياء في بلاد الشام قول خالد: (إن شئتم أعذبت لكم ماء البحر)[4].

إذن يعدّ خالد بن يزيد أول من أسس علم الكيمياء عند العرب المسلمين، وأول من أمر، وشجع على النقل من لغة إلى أخرى، وشجع الترجمة والنقل، وحاول استخدام الكيمياء في تركيب الأدوية، من أهم آثاره: رسالة في الكيمياء (في الهند) رسالة في الصناعة الشريفة وخواصها (في رامبور) رسالة في الصنعة (في بغداد ـ طهران)، رسالة مريانوس (في اسطنبول)، رسالة (في القاهرة)، رسالة خالد بن يزيد (بغداد)، رسائل خمسة مختلفة (طهران)، قصيدة كيميائية (استنبول)، منظومة في الكيمياء (باريس)، بالإضافة إلى ديوان وقصائد، بعضها في علم الكيمياء، وكتب أخرى، ويذكره الجاحظ (الحيوان، البيان والتبين)، ابن النديم: (الفهرست)، البيروني في (الآثار الباقية)، المقريزي في (المقفى)، البلاذري في (أنساب الأشراف) ابن خلكان في (الوفيات)، ابن عبد ربه في (العقد الفريد)، الأصفهاني في (الأغاني)، ابن قتيبة في (عيون الأخبار ـ المعارف)، القفطي في (أخبار العلماء) ابن خلدون في (المقدمة)، وغيرهم الكثير.

الأزدي: تلميذ خالد بن يزيد أو صاحبه، وصل إلينا من آثاره بعض رسائل في الصنعة. ومن

---

[1] ابن خالكان ج٢ ـ ص٤.

[2] خليل داوود الزرو ـ الحياة العلمية في بلاد الشام في القرنين الأول والثاني للهجرة طبعة بيروت ١٩٧١ ـ ص١٨٠.

[3] ابن النديم ـ ص٣٣٩ ـ ٣٤٠.

[4] ابن القفطي: جمال الدين أبو الحسن علي بن القاضي ـ أخبار العلماء بأخبار الحكماء ـ طبع بيروت بدون تاريخ ـ ص١١٢ ـ١١٣.

آثاره الأخرى: كتاب الطوبا، كتاب التهيص، كتاب الحلول، كتاب التحجير، كلها موجودة في حيدر آباد ومصادر ترجمته سيزكين (تاريخ التراث العربي).

يعرف الخوارزمي الكيمياء، اسم هذه الصنعة: الكيمياء. وهو عربي، واشتقاقه من كمن يكمن إذا استتر وأخفى، ويقال: كمن الشهادة بكمينها، إذا كتمها. والمحققون لهذه الصناعة يسمونها: الحكمة، وبعضهم يسميها: الصنعة، يقول الدكتور جلال شوقي في كتابه العلوم العقلية في المنظومة العربية.

ولعلَّ صنعة الكيمياء كانت من أسبق العلوم نظماً في الحضارة العربية الإسلامية. إذن يرجع تاريخ أول نظم فيها إلى القرن الأول للهجرة. حيث نجد ديوان خالد بن يزيد في الحكمة، التي تبلغ عدَّةُ أبياته ثلاثة آلاف بيتٍ تقريباً، وقد تمَّ نظمه خلال النصف الثاني من القرن الهجري الأول. ولقد توالت بعد هذا الديوان منظومات أخرى في الكيمياء، بل وفي جميع فروع العلم والمعرفة، ونشير فيما يأتي إلى أهم من كتب نظماً في مجال الكيمياء:

لعلَّ الأمير خالد بن يزيد بن معاوية بن أبي سفيان الأموي القرشي، (المتوفى سنة ٨٥هـ ـ ٧٠٤م)، أول من أنشأ ما نعرفه اليوم (بالنظم التعليمي)، حيث سجَّل خالد بن يزيد معارفه في علم الصنعة (الكيمياء)، في قوالب شعرية. وفي هذا الصدد يقول ابن النديم في كتابه (الفهرست): (.. ويُقَال ـ وا لله أعلم ـ إنه صحّ له عمل الصناعة. وله في ذلك عدَّةُ كتب ورسائل. وله شعر في هذا المعنى، رأيتُ منه خمسمائة ورقة، ورأيت من كتبه: كتاب الحرارات، كتاب الصحيفة الكبير، كتاب الصحيفة الصغير، كتاب وصيَّته إلى ابنه في الصنعة).

فإذا كان ابن النديم قد رأى بنفسه نحو خمسمائة ورقة من شعر الأمير خالد في مجال الصنعة أو التدبير ـ وهما الاسمان اللذان كانا يُطلقان على الكيمياء في صَدْر الحضارة الإسلامية ـ فلا بد أن يكون خالد قد نظم قصائد كثيرة في هذا المجال. وقد تحقَّق لنا أن نقف على مجموعة منها مكتوبة في مخطوط مهم، محفوظ بمكتبة كويريلي، باستانبول، تحت رقم ٩٢٤ بعنوان: (ديوان الأمير خالد بن يزيد بن معاوية بن أبي سفيان في علم الحكمة). ويشتمل على ٢٩٨٨ بيتاً، منها ٨٥ بيتاً منسوبة (لابن تمام)، ولعلَّه أبو الإصبع عبد العزيز بن تمام العراقي، الذي عاش في القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي)، وهو صاحب (قصيدة الغرور النونيّة)، التي شرحها ابن إيدمر الجلدكي، في القرن

الثامن الهجري (الرابع عشر الميلادي)، بعنوان: (كشف الأسرار).

ويمكن القول: إن ديوان الأمير خالد بن يزيد يضم ٢٩٠٣ أبيات، جمعها ــ حسب ما جاء بنهاية المخطوط المشار إليه عاليه ـ محمد الميقاني بتاريخ عصر يوم الخميس المبارك رابع وعشرين شهر الحجة الحرام سنة ١٠٣٧هـ (١٦٢٧م)، وكُتب الديوان برسم الشيخ عبد المجيد الشناوي الكتبي الشافعي. وتبدأ القصيدة الأولى من الديوان بالأبيات الآتية:

يَا طَالِباً بوريطش الحكماءِ عى مَنْطِقاً حقاً بغير خَفَاءِ

هو زيبقُ الشرقِ الذي هَتَفُوا به في كُتُبِهم من جُمْلةِ الأشْيَاءِ

سَمَّوه زَهْراً في خفّي رمُوزهم والخُرْ شُقلاً أغمضَ الأسْماءِ

ودَعَوْه بابنِ النّارِ كيْما يُصْدِفُو عن صَنْعَةٍ بُخْلاً عنِ البُعَداءِ

فإذا أرَدْتَ مثالَه فاعْمد إلى جسْمِ النحَاسِ ونارِهِ الصَّفراءِ

فامْزجْهُما مَزْجَ امرئٍ ذي حكمةٍ واحْكِم مُزاوجة الهَوَا بالماءِ

واسْحَقْ مُركَّبَكَ أزْوجَتِهُ بالجدِّ من صُبْحٍ إلى الإمْسَاءِ

سَحْقاً يفتّتُهُ ويُنهكُ جسْمَهُ حتّى تَراهُ كزبدةٍ بيضاءِ

واجْمَعْهُ واتْقِنْه ودَعْهُ بصِرْفِه حتى الصَّباحِ وغطِّهِ بغطاءِ

هذا أبارُ نُحَاسِهم فافطِنْ لهُ هَذَا مُذِلٌ ذَوِي اللّحَى النُّجبَاءِ

وعن الإكسير يقول الأمير خالد بن يزيد في القصيدة الأولى من ديوانه في علم الحكمة:

«هَذَا هُوَ الإكْسيرُ فاعْرف قَدْرَهَ هَذَا حَيَاةُ جماعةِ الأحْيَاءِ

مَنْ نَالَه أُضحَى عَظيماً في الورَى وعَلا عَلى النُّظراءِ والخُلَطَاءِ

هَذَا مُزيلُ الفقْرِ عنْ أحْزانِهِ فيُرى بحُسْنِ الحَالِ كالأُمَرَاءِ

يا ربِّ عَلِّمْهُ امْرءاً مُتورِّعاً في الدِّينِ ذا كَرَمٍ وذا إعْطَاءِ

واحْرِمْهُ كُلَّ مُنَافِقٍ مُتَجَبِّرٍ يَسْطُو على الأصحابِ والقُرَنَاءِ

أو حَاسِدٍ أو ظَالِمٍ أو سَارِقٍ أو خَلَفٍ سوء مقرَّب ببلاءِ

هَذَا الذي أعْيا على أهْلِ اللّحَى وذوي المحلِّ السادةِ الكُبَرَاءِ

مَنْ نَالَه يسْمُو ويعْلُو قَدْرُهُ بينَ الأنَامِ وكان ذا إثْراءِ

هـذا الـذي أرْدَى الأنـامَ بجهلهـم　حتّـى أصَـارَهُم إلى الإكْـدَاءِ
حُـرِّجَ عَلّـى مَنَـالُ مـا قـد قُلْتـهُ　إنْ ننطـوي فيـهِ عَلـىَ الإشَـاءِ»

وينتهي الديوان بالأبيات الآتية:

«يـا أيُّهـا الطَـالِبُ للكِيمِيَّـا　لا تطلُـبِ العِلْـمَ بغَـيرْ المَيـا
مـن عَقَـدَ المَـاء الـذي حَلَّـهُ　فَـاز بمـا كـانَ لـهُ راجيـاَ
تلـكَ الـتي يَطْلُبُهـا كـلُّ مـن　كـانَ مِـنَ الأخيَـارِ والأوْليـا
يَـا حُبَّهَـا مِـنْ صنعـةٍ لم يـزلْ　يعرفُهـا الأبـرارُ والأصفيـاَ
مَـنْ فاتَـهُ المـاءُ وتدبـيرهُ　قـدْ فَاتَـهُ الـرأيُ يـا قُلَيْبِيـاَ»

وجدير بالذكر أن القصائد مرتبة في ديوان خالد بن يزيد بحسب قوافيها على حروف المعجم. هذا ويشير بروكلمان في كتابه (تاريخ الأدب العربي) إلى كتاب للأمير خالد بعنوان: (ديوان النجوم)، ويذكر أمامه مخطوط كوبريلي - رقم: ٩٢٤، ومخطوط مكتبة جار الله - رقم: ١٦٤١. كما أشار إلى وجوده في مكتبة أنستاس الكرملي، ومن الواضح أن مخطوط كوبريلي يعرض لصنعة الكيمياء.

وتتصدّرُ الديوان - في بعض النسخ الخطيَّة مقدّمةٌ نثريةٌ، تُبيّن على لسان ابن خلّكان - كيفية أخذ الأمير خالد للصنعة عن مريانوس الراهب الرومي، وتعرض هذه المقدمة للحوار الذي دار بين الأمير والراهب، وتجيء في ثنايا الحوار أسماء كثيرة من حكماء هذه الصنعة، كذا عددٌ من المواد المستعملة في الكيمياء.

ويجيء في خاتمة نسخة مكتبة كوبريلي باستانبول - رقم ٩٢٤ مايلي: وهذا مرتجز من كلام خالد:

هَـذَا بَيَـانُ الحِكْمَـةِ البَدِيـع　والمَنْطِـقِ البيِّـن والسَّـميع
فيـهِ كـلامٌ كـاللآلِي المُنْتظـم　مُبَيَّـنٌ مُفَسَّـرٌ لِمَـن عَلِـمْ
مُضَـوَّمٌ مُفَصَّـل مَوْزُونـا　يظنُّـه جَاهِلُـهُ جنونـاَ
وَهـوَ صفَـاتُ الحِكْمـة البَديعَـه　صِفَاتُهـا عـنْ جَـاهِلٍ مَنِيعَـه

وَهي لـدَى العَقلِ الصَّحيحِ السَّلِم　　مَسْطورةٌ مَشْهورَةُ المَعَالِمِ
وَهي لـدَى الفَهْمِ الصَّحيحِ بَيِّنَهْ　　مذكـورةٌ وكتْبُهـا مُدَوَّنَهْ
يَعْرِفُها مَـنْ كَـانَ نَـاجٍ قَلْبُهُ　　مِنْ غَفْلَةٍ وكَانَ يدْعُو ربَّهُ
في جُنْحِ لَيْلٍ قَائم قِيامُهُ　　وفي نَهَارٍ دايمٍ صِيامُهُ
يَسْأَلُ أن يَهْدِيه للرَّشَادِ　　مُقسِّمُ الرِّزْقِ عَلى العِبادِ
يقُولُ في لِينٍ وفي خُضُوعِ　　:يـا ربِّ جُدْ لِقلبي المجْزُوعِ
فَقد طَلَبْتُ الحِكْمةِ البَديعَةْ　　والصنْعَةَ الجليلةَ الرَّفيعةْ
رَبِّ فَهَبْهَا لِي بِمَنٍّ مِنْكَا　　فَلَسْتُ بالحَابدِ دَهْري عَنْكَا»

ويشير الكاتب إلى أن هذا الديوان قد كُتب برسم الشيخ عبد المجيد الشناوي الكتبي.

(٢) تتمة العمل بقصيدة [يا باحثاً عَنْ صَنْعَةِ البَرْبَاءِ] ومطلع هذه التتمة:

«وخّذ النّحاسَ وثلثّه من ثفله　　والثُّلثَ مِنْ مـاءٍ حَليفٍ ضياءِ»

ويلي هذه التتمة مقطعات وقصائد أخرى في صناعة الكيمياء، مرتبة قوافيها على حروف المعجم. وتوجد هذه جميعها في نسخة مخطوطة بقلم نسخ فارسي بدار الكتب المصرية بالقاهرة ـ رقم ٧٣١ طبيعيات، ضمن مجموعة من الورقة ١١ حتى الورقة ٣١، وهذه النسخة كتبت سنة ١٠٨٨هـ ـ ١٦٧٧م. والواقع أن قصيدة (يا باحثاً عن صنعة البرباء) تقع ضمن ديوان الأمير خالد ابن يزيد بن معاوية في قافية الهمزة، ومطلعها:

«يـا باحثاً عَنْ صنْعَةِ البَرْبَاءِ　　ودَقيق ما ذكَروا مِنَ الأشْياءِ
حَقِّقْ فَدَيْتُك ما أَقُول، ولا تكُنْ　　كالجَاهِلِ الجَوَّالِ في عَشْواءِ
حتى إذا ما أنْتَ قَدْ أحكمتها　　بـالمَزْجِ عنْدَ العَقْدِ في المبدأ
وجعلتها مِنْ أرْبَعٍ مَعْلُومَةٍ　　أرْضينَ مَعْ ماءٍ يَشُبُّ بِماء
ما وَزْنُها في بُدُوِّهَا متساوياً　　فـإذا جمعن فَاوْزِن بَسواءِ
وعقدتها عقداً بغير مَلاَلَةٍ　　حتّى يرى كالشَّمعَةِ الصَّفْرَاءِ
وجَعَلْتها في قَعْرِ دَنٍّ مُطْبَقٍ　　قَدْ شَدَّ أعْلاهُ بشدِّ خفَاءِ»

وآخرها:

«فتخالَـــهُ كاليَاسَـــمين بَيَاضُـــهُ بصَّـــاصُ مُنْهَدمـــاً كمِثْـــل هَبَـــاءِ
فبـــــذاك تنعقـــــدُ جميعـــــاً وبِهَـــا تمـــامُ تفكُّـــرِ وَمُنَـــاءِ»

وتقع القصيدة في ٢٩ بيتاً.

(٣) - (مقصورة في الصنعة الإلهية): من نَظْمِ خالد بن يزيد بن أبي سفيان (المتوفى سنة ٨٥هـ - ٧٠٤م)، مطلعها:

«عَلَيْكَ بِشيءٍ في السَّمَاوَاتِ سَـاكِن ويُرمَى بِـهِ الشيطانُ إنْ رَامَ أنْ يَرْقَـى
لَـهُ في الهَـوىَ أَصْـلٌ وفي الشـمسِ نسـبةٌ ومـنْ بحْـر طَرْسُـوس ومـنْ فـارس يَحيَـا
ويَوُجَـدُ في كـلِّ البِـلادِ إذا ابْتغـى وتلْقَـاهُ في جـوفِ الكُنَاسَـةِ قَـدْ يلْقَـى»

وآخرها:

«فَهَـذَا غَمَـامٌ قَـدْ رَفَعْنَـاهُ صَـاعِدًا فَلَـمْ يَبْـقَ إلاَّ مَـنْ يُزَاوِجُـهُ المَوْلَـى
تـزاوج في نِيسَـان زوجـاً موافقَـا يكـونُ بنجْـمِ الثَّـور إنْ سـلمت حبلَـى
سَـتَعْلَمُ إنْ طَـالَتْ حيـاتي بقربِكـم حيـاةً بِمَـا أعْيـت بِـهِ المِلَّـةُ الأولى»

وتوجد لها نسخة مخطوطة بمكتبة أحمد الثالث ـــ رقم: ١٦٤١، ضمن مجموعة الورقتين: ٢١٦، ٢١٧، وهي مكتوبة بقلم نسخ واضح قديم، لعله من خطوط القرن ٦هـ - ١٢م. وهي مصوَّرة بدار الكتب بالقاهرة (فهرس المخطوطات المصورة، لفؤاد السيد: ج٣، ق٤/٢٠٤ ـــ ٢٠٥)[١].

(٤) / (٨) ـ خمس قصائد: منسوبة للأمير خالد بن يزيد المتقدِّم، مخطوط بمكتبة أصغر مهدوي بطهران، إيران، رقم ٧٢٥.

---

[١] حلال شوقي ـ العلوم العقلية ـ ص٥٤١.

علم الفلك:

من المعلوم أن قسماً كبيراً من العرب قبل الإسلام سكنوا بلاداً معمورة ومدناً عظيمة مشهورة، وشيدوا القصور والحصون، وعمروا المصانع والأبنية. كما كانوا على نظام سياسي واجتماعي متين، حيث تركوا معارف علمية واسعة الانتشار في شتى المجالات. وإن بعضه الآخر سكن الصحراء، وهؤلاء انتقلت معارفهم ومنها علم الفلك عن طريق أشعارهم وعن طريق تلك الأخبار المتعلقة بالأشعار، فمثلاً قبل الإسلام استخدم العرب النسيء كطريقة لحساب السنين، والنسيء يعني: التأخير، وقيل: الزيادة، ولقد تحدث البيروني عن النسيء في موضعين من كتابه (الآثار الباقية عن القرون الخالية)، كما تحدث عن الكبس، وذكر: أن العرب استعملوا الكبس قبل الإسلام بنحو مائتي سنة، قال البيروني[1]:

(ثم أرادوا أن يحجوا في وقت، أدرك سلعهم من الأدم والجلود والثمار وغير ذلك، وأن يثبت ذلك على حالة واحدة، وفي أطيب الأزمنة وأخصبها فتعلموا الكبس من اليهود المجاورين لهم، وذلك قبل الهجرة بقريب مائتي سنة.. وكان يتولى القلامس من بني كنانة بعد ذلك أن يقوموا بعد انقضاء الحج، ويخطبوا في الموسم، وينسئوا الشهر، ويسموا التالي له باسمه، فيتفق العرب على ذلك، ويقبلون قوله، ويسمون هذا من فعلهم: النسيء، ويجدون بها الأزمنة، فيقولون: قد دارت السنون من زمان كذا إلى زمان كذا دورة، فإن ظهر لهم مع ذلك تقدم شهر عن فصله من الفصول الأربعة، لما يجتمع من كسور سنة الشمس، وبقية فصل ما بينها وبين سنة القمر، الذي ألحقوه بها، كبسوها كبساً ثانياً وكان يبين لهم ذلك: بطلوع منازل القمر وسقوطها. حتى هاجر النبي عليه الصلاة والسلام..) وفي حجة الوداع خطب الرسول (ص)، وأكد: أن الشهور قد عادت إلى مواضعها، وزال ما ورد، وحرم ذلك كله.

وعرف العرب البروج الاثني عشر،وكانوا قبل الإسلام يستعملون السنة القمرية برؤية الهلال.

وانفرد العرب في إثبات منازل القمر، وزعم البعض أن الصينيين هم السابقون في هذا المجال. هذا ويذكر في أن كل الطرق المعروفة عند الأمم لتصريف المنازل تفرعت من طريقة أقدم منها،

---

[1] أبو الريحان محمد بن أحمد البيروني ـ الآثار الباقية عن القرون الخالية ـ تصوير مكتبة عن طبعة لايزم ١٩٢٣ ـ ص٦٢.

وكانت الأقدم هي البابلية لما كان لهم من سعة المعارف في علم النجوم، وحركات الكواكب السيارة، كما استخدم العرب النوء، وقالوا: هو سقوط منزله في المغرب مع القمر، وطلوع مقابلها في المشرق من ساعتها ونسبوا إلى الأنواء عدة تأثيرات مثل: الأمطار والرياح والحر والبرد.

وقد اختلف اللغويون فيما بعد في معنى لفظ النوء. فابن سيده قال في كتابه المخصص: ناء الكوكب نوءاً ونواءً ونوءة، أول سقوط يدركه بالأفق بالغداة. قيل: انمحاق الكوكب بضوء الصبح، وقال بعضهم الآخر: نوع الطلوع الرحب لا لسقوط الساقط. وقيل: إن النوء في اللغة النهوض. وقيل: النوء السقوط والميلان. وضبط العرب مقدار السنة الشمسية برصد الأنواء، وكثرت عند العرب الأشعار والأسجاع في المنازل وأنوائها، كما عرف العرب أيضاً عدداً وافراً من الكواكب الثابتة مع مواضع مطالعها ومغاربها، وكما عرفوا الكواكب السيارة، ومنازل القمر، وانفردوا عن سائر الشعوب في استعمال تلك المنازل وأخذ أنوائها. أخيراً من المعلوم أن الميدان الأكبر لعلم الفلك هو السماء الشاسعة، بما تحويه من أجرام وظواهر كونية مختلفة. ولقد استعان العرب قبل الإسلام بالنجوم، لتساعدهم على الوصول إلى المكان المطلوب. ومن أجل ذلك، كان عليهم أن يعرفوا مواقع النجوم والكواكب، وتنقلاتها من فصل لآخر عبر أبراجها.

(وكان للعرب مع هذا معرفة بأوقات مطالع النجوم ومغاربها، وعلم بأنواء الكواكب وأمطارها على حسب ما أدركوه بفرط العناية، وطول التجربة لاحتياجهم إلى معرفة ذلك في أسباب المعيشة، لا على طريق تعلم الحقائق، ولا على سبيل التدريب في العلوم)[1]. والعرب كغيرهم مزجوا بين المعارف الفلكية الخالصة والتنجيم والخرافات، واعتقدوا أن حدوث كسوف الشمس وخسوف القمر إمارات لوقوع حادث جسيم في العالم. ومع ذلك، فقد عرفوا الكواكب الثابتة وغيرها من الكواكب السيارة[2]، وفرقوا بين النجوم الساطعة والنجوم الخفية، وعرفوا الشمس وكسوفها، وحددوا أبراجها، وعددها ١٢ برجاً، وعرفوا القمر، وحددوا منازله، وعددها ٢٨ منزلة.

قسم العرب السنة الشمسية على اثني عشر برجاً، لكل فصل من فصول السنة ثلاثة بروج،

---

[1] صاعد الأندلس - طبقات الأمم - ص٥١.

[2] عبد الأمير المؤمن - التراث الفلكي عند العرب المسلمين وأثره في علم الفلك الحديث - طبع جامعة حلب ١٩٩٢ - ص٥٩.

ولكـل فصـل سبعة أنجـم[1]، لذلـك صنـف العـرب الريـاح في ثمانية أنـواع: أربـع منهـا أصليـة، وهـي: ريـح الشـمال والجنـوب والشـرق والغـرب، وأربـع منهـا فرعيـة: وتقـع بـين الريـاح الأصليـة[2]. وهنـاك أرجـوزة في معرفـة المنـازل وحقيقتهـا في السـماء وأشـكالها وعددهـا علـى التمـام والكمـال. هـذه الأرجـوزة منسـوبة[3] إلى الإمـام علـي، كـرم الله وجهـه. وتشـتمل علـى ٤٨ بيتـاً، أولهـا:

«الشَّـــرطين فهـــو رأسُ الحَمَـــلِ   أَبَـــدا بِـــذَا في وَقْتِـــهِ المُعْتَـــدلِ
ثَـلاثُ نَجْمـاتٍ كمَـا خَـطُّ الأَلِـفِ   لكنَّـه عَـــن القَـــوام مُنْحَـــرفْ
ثُـمَّ البُطَيْـن وَهُـوَ يَبْـدُو خَـافي   ثَلاثَـــةٌ تُشْـــبهُ الأَثـــافي
أَمَّـا الثريَّـا فَهُـوَ نَجـمٌ يُعْـرَفَ   وَالنَّـاسُ في أعْدادِهَـا تَخْتِلـف
وَالدَّبَـرانُ سَـبْعَةٌ كَـالمِحْدَجِ   وَدَالُـهُ في الجـوِّ قَـدْ تُعـوج
مِـنْ جَـانِبِ الشَّـرْطين ذَاكَ الأَيْمَـن   نَجْـمٌ كبـيرٌ أَحْمَـرٌ مُضْـنِي
وَهَقْعـهُ في صُـورَةِ الجَـوْزَاءِ   فَسَـوْفَ أَذكُرُهَـا لِعَـيْنْ الرَّائـي»

وآخرها:

«وَقَـدْ بَـدَا سَـعْدُ السُّـعُودِ بَعْدَهُـم   نَجْمَـان مَـا أَحَـدٌ في القَـوَام ضدَّهُـم
مِـنْ بَعْـدِهِ يَطْلَـعَ سَـعْدُ الأَخْبِيَـه   أَرْبَعَـةٌ للنـاسَّ غَـيْرُ خَافِيـه
وَقَـدْ بَـدَا مِـنْ بَعْـدِهِ الفَرْغَـان   مربعَـان الاسـم بالعَيـان
لِكُـلِّ فَـرْعٍ مِنْهُمـا نَجْمَـان   لكنَّمـا الأَوَّلُ شَـكْلٌ ثـان
مِـنْ بَعْـدِهِ الحـوتُ يُسَـمَّى بالرَّشَـا   فَسَـمِّه مِـنْ ذا وذا بمـا تَشَـا
هَـذَا الَّـذِي قَـرَّرَهُ أَهْـلُ الرَّصَـد   ممَّـا عَدَدْنَـاه وَمِمَّـا لَـمْ يُعَـد»

أخيراً شـجع العـرب في صـدر الإسـلام العلـوم العقليـة، رغـم أن جـل اهتمـامهم كـان منصباً على السياسـة والحـرب، حيـث أثـر ذلـك علـى تقـدم هـذه العلـوم. وعندمـا قـامت الدولـة

[1] جلال شوقي ـ العلوم العقلية في المنظومة العربية ـ طبع الكويت ١٩٩٠م ـ ص٣٦٣.

[2] نفس المرجع السابق.

[3] نفس المرجع السابق.

الأموية، وانتقلت العاصمة المركزية إلى دمشق، أخذ الأمويون يهتمون بإحياء العلوم نتيجة الرفاهية والترف، وكان أشهر المشتغلين بهذه الناحية، خالد بن يزيد بن معاوية، حيث يعدّ أول من عني بإخراج كتب اليونان وترجمتها، وأول ما ترجم له كتب الطب والنجوم والكيمياء. لكن ورغم كل شيء فقد كان اهتمام الأمويين منصباً على إحياء علوم الجاهلية والأخبار والصيد والملاهي والأنساب وفنون وصنائع أخرى من هذا القبيل.



الباب الرابع

التعبئة العامة

الفصل الأول : التعبئة العسكرية.

الفصل الثاني : ممارسة التعبئة العسكرية.

الفصل الثالث: تنظيم الجيش.

الفصل الرابع: تنظيم القوات استراتيجياً وتكتيكيا.

الفصل الخامس: الوحدات الملحقة بالجيش.

الفصل السادس: الأسلحة ومعدات القتال.

الفصل السابع: الثغور.

الفصل الثامن: البحرية.



الفصل الأول

التعبئة العسكرية

- مفهوم التعبئة
- أسس التعبئة
- التعبئة والقوى المعنوية
- التعبئة العسكرية والسياسية



الفصل الأول

التعبئة العسكرية

. مفهوم التعبئة:

التعبئة مفهوم قديم وحديث، لأن السياسة والعسكرية مظهران من مظاهر حياة الشعوب، في كل الأزمان، بل هما الركنان الأساسيان في حياة كل شعب من الشعوب. وتعني التعبئة: التنظيم والتهيئة ويقال: عبَّأ الأمر يُعبئه أي هيأه، وعبَّأ المتاع: جعل بعضه على بعض، وعبَّأ الجيش: رتب عناصره في مواضعها، وهيأه للحرب.

وتحدد التعبئة مسؤولية القائد العام أمام الدولة التي يخدمها، إلا أن هذه المسؤولية تبقى ضمن حدود القوات المسلحة، ولا تتجاوز المجالات اللازمة لتحقيق مصالح السياسة. فإذا رأى القائد: أن الوسائل الموضوعة تحت تصرفه لا تؤدي الغرض لتنفيذ المهمة، التي رسمتها السياسة، كان من واجبه إعلام القيادة السياسية عن ذلك. فإن لم تأخذ تلك القيادة برأيه، فإن من واجبه إما رفض هذه القيادة أو الاستقالة، إلى أن يُسد النقص، الذي أبلغ عنه، وطالب بإكماله.

غير أنه ليس من حق القيادة السياسية عرقلة عمل القائد العسكري، وذلك بالتدخل في طريقة استخدام القوات المسلحة، لكنها تستطيع أن تقرر، في حالة تفوق العدو العسكري، التريث حتى يتم

تعديل موازين القوى والوسائط لصالحها بأحد السبل التالية:

١ ـ كسب حليف جديد.

٢ ـ نقل قوى ووسائط من منطقة عمليات إلى أخرى ذات أهمية أكبر، شريطة سد هذا النقص بتأخير العمل العسكري أو إيقافه، حتى يتم التفوق.

٣ ـ العمل على رفع القدرة الاقتصادية وتطويرها وزيادة إمكاناتها، لما لها من أثر على العمليات العسكرية وحسمها.

٤ ـ تنفيذ هدف عسكري استراتيجي محدد، فليس هدف التعبئة بشكل دائم، القضاء على القوة العسكرية المعادية، وإذا وُجد التفوق العسكري، الذي يمكّن الحكومة من تحقيق هدفها السياسي، وذلك باحتلال الأرض من أجل المساومة عليها حتى تحقق أهدافها السياسية، ولا يتم ذلك إلا عن طريق القوات المسلحة.

وإذا كانت التعبئة تعني: الإعداد المطلق، كوسيلة لخوض الصراع المسلح للوصول إلى هدف السياسة، فإن التعبئة العسكرية تعني: إعداد القوات المسلحة وحشدها واستخدامها، كوسيلة فعالة للوصول إلى هدف الحرب، عن طريق الصراع المسلح بأفضل أشكاله وصوره. والنتائج التي تتمخض عنها التعبئة، قبل الحرب وخلالها وبعدها، تؤثر في السياسة، فالنصر يزيد إمكانات السياسة، والخسارة تقلل من تلك الإمكانات.

ولقد كانت نظرية التعبئة العسكرية العربية، تعني: المعارف والقوانين، التي وضعها الرسول (ص) ومن جاء بعده عن أساليب وأشكال خوض الحرب. وكانت تعني أيضاً: الخبرة العميقة التي زرعها النبي (ص) في نفوس أتباعه، من خلال السرايا، التي كان يبثها حول المدينة المنورة. وتكشف هذه العارف والقوانين والخبرة طابع خوض المعارك والغزوات، وحالة الصراع المسلح مع أعدائه، سواء في داخل المدينة المنورة أم خارجها، وتعتبر أساساً لنشاطات القوات المسلحة، التي أكدت أن أشكال الصراع المسلح لا تنشأ، وتتطور حسب الرغبة الذاتية للقادة العسكريين، وإنما وفق الشروط الموضوعية، كظهور القادة، وظهور معارف جديدة تطورت، وظهور نوع من التعبئة للجيش، وتطور الإنتاج وربطه بالشروط الاجتماعية والسياسية.

وتعتبر التعبئة العسكرية العربية مبدعة وخلاقة، حيث إنها تخلصت من الأساليب القديمة،

وتطورت وفق أساليب جديدة، واتصفت بالحسية اللازمة التلاؤم بين الهدف والوسائط، والقدرة على ابتكار أساليب وأشكال جديدة، ثم استعمالها بشكل متقن وذكي.

وكانت واجبات التعبئة تنحصر في تحديد عدد القوات والوسائط اللازمة لخوض المعركة، بما يكفل لها النجاح، كما تحدد قوى العدو ووسائطه وقدراته القتالية، والاستناد إلى هذا التقدير الدقيق عند تحديد نقاط الضعف عند الخصم ومهاجمتها، بعد أن يحدد ترتيب قتال على مسرح العمليات، يتناسب وطبيعة الأرض والطقس والفصل، ويساعد على المناورة واستخدامها وربطها مع المفاجأة.

أما مهمة التعبئة العربية، فكانت تتمثل في وضع خطة المعركة، وذلك بتحديد ترتيب قتالي جيد، والعمل على إيجاد تنظيم للتعاون وبشكل منسق بين عناصر الترتيب، بالإضافة إلى التأمين المادي للقوات، وكل الوسائل الأخرى المرتبطة بإعداد وتعبئة القوات من أجل خوض المعارك العسكرية.

وتعتمد التعبئة العسكرية على الاستخدام الصحيح للعوامل العسكرية والسياسية والمعنوية، إذ إن إعداد القوات المسلحة إعداداً كاملاً، يتطلب الاهتمام بالعوامل الاقتصادية وإعدادها لتأمين التموين والتسليح، وحساب العوامل المعنوية، وإعداد السكان عسكرياً واقتصادياً، وشرح هدف السياسة لهم، حتى يصلوا لمرحلة، تفوق حالة العدو، ويكون بإمكانهم تحقيق هدف السياسة.

ولقد أخذت التعبئة العسكرية العربية ذلك في اعتبارها، فكانت تؤمن التوافق مع السياسة. وتعتبر الفتوحات العربية التي انتهت بالانتصار الكامل على الفرس والبيزنطيين المثل الساطع والأمثل على انسجام التعبئة العسكرية العربية مع السياسة، وهي في الوقت ذاته دليل على وجود مفاهيم وأفكار محددة عن التعبئة والإعداد للحرب بصورة، لم يكن لها صفة الشمول حتى عند الأمم المتطورة آنذاك.

ومن أبرز الدلائل على تبلور التعبئة العربية: إسهام الرسول العربي (ص) في تركيز مفاهيم التعبئة العسكرية، وخاصة ما جاء منها في القرآن الكريم. وتعتبر الأفكار والمعارف المتعلقة بحروب وغزوات الرسول (ص) أول محاولة عربية لتحقيق المتطلبات الرئيسية للتعبئة، حيث برهن فيها على ضرورة معرفة القائد لفن القتال. ويمكن القول: إن التعبئة العربية ولدت نتيجة استخلاص الخبرات

الناتجة عن ممارسة القيادة العملية للقوات المسلحة، وما رافق تلك الممارسة من تطور مستمر في الأسلحة والمعدات، بالإضافة إلى معرفة إدارة وخوض الحرب. كما كان تطور أنظمة الحكم مرتبطاً بالعوامل الاقتصادية والسياسية والعملية للبلاد. حيث لم تكن جامدة ثابتة، بل كانت في تغيّر مستمر، تبعاً لتغيّر الظروف والمرحلة.

ولدراسة التعبئة العسكرية العربية لابد لنا من معرفة حياة الرسول (ص)، الذي كانت هجرته إلى المدينة إيذاناً بولادة تعبئة عسكرية، لأن المعارف التي طرحها من خلال حياته اليومية، والتي كانت تدور حول القيمة في العلاقات الإنسانية، وطرح قضية التوحيد، كما جاء في القرآن الكريم والدعوة إلى الدين الإسلامي، بكل ما يمثله من قيم روحية وأخلاقية وإنسانية، قد منحت المجتمع العربي المنقسم والمتخلف قوة روحية ديناميكية، وأساساً فكرياً ونفسياً صلباً لولادة تعبئة جديدة، ما كان للعرب أن يتوصلوا إليها لولا بزوغ فجر الإسلام في ربوعهم.

لقد بدأ الرسول (ص) دعوته سراً، إلى أن أمره ربه: بأن يعلن الدعوة على الملأ[1] وأن يبلغ قومه، وينذرهم. وكان من الطبيعي أن تقاومه قريش، وتضطهد أصحابه، بعد أن عاب آلهتها، وسفّه مفاهيمها، وأصبح خطراً على أوضاعها الاجتماعية والاقتصادية. ولما وجد الرسول (ص) أن اضطهاد قريش بات يهدد المسلمين الأوائل، نصحهم بالهجرة إلى الحبشة، للحفاظ على النواة الإسلامية سليمة. ثم هاجر مع أصحابه إلى المدينة، بغية بناء قاعدة آمنة للتعبئة، ومكث فيها حتى ازداد عدد المسلمين، وقويت شوكتهم، واختلت موازين القوى لصالحه، عندها عاد إلى مكة فاتحاً.

وكان الرسول طوال مراحل التعبئة السرية والعلنية وفي القاعدة الآمنة معلماً (إنما بعثت معلماً)، وكان الجانب الأعظم من حياته مكرساً لهذا العمل، الذي لا يستقيم أي نشاط من نشاطات الحياة، سياسياً وعسكرياً واقتصادياً واجتماعياً وفكرياً وأخلاقياً، إلا به، أي أنه رسم لأصحابه خطة التعبئة، التي حدد فيها لكل فرد مهمته، ورباه على أدائها، كما حدد للجميع المهمة الكبرى، ورسم لهم الطريق الصحيح لتحقيقها.

وكان اختيار القادة من أهم ما أدخله النبي على تعبئة العرب من تطوير. إذ كانت قيادة القبائل العربية قبل الإسلام تُسند إلى شيوخ القبائل، الذين كانوا يجمعون في أيديهم السلطات المدنية

---

[1] ﴿فاصدع بما تومر واعرض عن المشركين﴾ سورة الحجر ـ الآية ٩٤.

والعسكرية كلها، ثم تبدل الحال بعد الإسلام، فلم تعد القيادة وقفاً على أشخاص أو محصورة بقبائل معينة. وكان الرسول (ص) أول الأمر هو القائد الأعلى، يقود قواته بنفسه أحياناً، ويؤمّر من يراه صالحاً للإمارة، إذا غاب عنها، كما فعل عندما سلم رايته[1] يوم بدر - ويوم خيبر لعلي بن أبي طالب، كذلك فعل مع أسامة بن زيد بن حارثة. بهذا صرف الرسول (ص) أصحابه عن تقدير عامل السن إلى تقدير الذكاء وحسن القيادة. وسار الخليفة أبو بكر الصديق على هدي الرسول (ص)، عندما رفض عزل أسامة عن القيادة لصغر سنه، وعندما ولّى يزيد بن أبي سفيان قيادة جيشه الموجه إلى الشام، وفي أصحابه من هو أكبر منه سناً.

كان الرسول (ص) وخلفاؤه، يعقدون اللواء للقائد، ثم يعبئون الجند حوله. وأحياناً أخرى كان الخليفة هو الذي يعين الجند، ثم يعين القائد بعد ذلك، كما فعل أبو بكر عند تقسيم الألوية وتوجيهها إلى الشام والعراق[2].

ولقد اتخذ الرسول المدينة معسكراً له بعد الهجرة، وأخذ يبعث سراياه فيما حولها وعلى الطريق التجاري المؤدي إلى مكة لتهديد تجارتها وجمع المعلومات الكافية عن تحركها. وكان يخرج أحياناً لقيادة الغزوات بنفسه، تاركاً في المدينة أحد أصحابه خليفة عليها.

أما الخليفة أبو بكر، فقد امتاز ببراعته في فن تعبئة القوات وتحريكها وجمعها واستخدامها، ولقد فوجئ عقب وفاة الرسول (ص) بارتداد بعض القبائل عن الإسلام، فقرر محاربتها والقضاء على المرتدين، قبل أن يستفحل أمرهم، واندلعت بذلك حرب الردة التي أعادت إلى المسلمين وحدتهم. وكان الخليفة أبو بكر يقيم في مركز القيادة العامة، ويوجه منها الجيوش، ويعين لكل قائد مهمته، ويأمر قادته بالتناصر والتعاون، ويحرك القوات من جهة إلى أخرى بالكتب والرسائل حسب الحاجة.

ويدخل ابن الخطاب الفاروق عمر في عداد الأفذاذ من القادة، الذين برعوا في التعبئة وإدارة الحرب، تشهد له بذلك أوامره بتأسيس البصرة والكوفة[3] في مواقع، تتحكم بطرق المواصلات الممتدة من بلاد فارس إلى الجزيرة العربية، وتأكيده على أن تتمركز فيها وفي غيرها من المدن

---

[1] اللواء - أبيض اللون وهو رمز الجيش ومركز القيادة، والراية مختلفة الألوان وتشير لفرقة في الجيش.

[2] الطبري - تاريخ الرسل والملوك - ج٣ - ص٢٤٩.

[3] عبد الرؤوف عون - الفن الحربي في صدر الإسلام - ص٢٠٨.

الاستراتيجية قوات مرابطة، ترد العدوان، إذا وقع، حيث كانت هذه القوات تتدخل بكتاب منه بين مختلف الأقاليم العربية آنذاك، وتتحرك بأوامره، وهو مقيم في المدينة.

لقد امتاز العرب أثناء فتوحاتهم الأولى بالحذر والحيطة. فكان معظمهم إذا سار إلى عدوه قسم جيشه إلى ميمنة وميسرة وقلب ومقدمة وساقة، ليكون مستعداً لرد أي هجوم أمامي أو جانبي أو خلفي، يقوم به العدو. وكانوا إذا نزلوا البلاد، أقاموا حول معسكرهم خندقاً، تصعب مهاجمته، ويجعلون منه موقعاً دفاعياً، يمنع عدوهم من مفاجأتهم.

وطبق القادة العرب في تحركاتهم الاستراتيجية مبدأ المفاجأة، التي تهتم بها الجيوش في مختلف العصور. وكانوا يقسمون قواتهم إلى فرق، عندما يكونون في منطقة بعيدة عن أرض المعركة، ويحددون لكل فرقة طريقاً، تسلكه أثناء تحركها باتجاه العدو، كما يحددون للفرق مكان التجمع وموعد القيام بالهجوم.

وتعطينا الثغور[1] التي أقامها العرب على تخوم بلادهم فكرة واضحة عما كان لهم من فنٍ في الإعداد والتعبئة. فقد كانت الثغور تقام على أبواب الطرق، لتتحكم في أماكن اقتراب العدو، ولتظل بعيدة عن البحار وقريبة من الصحراء، حيث يحسنون القتال، ومحصنة بمنعطفات الجبال أو بالخنادق أو بمواقع طبيعية أو اصطناعية.

ومن الأعمال التي تثير الانتباه عند العرب اعتمادهم على الرّصاد، حتى يعرف القائد من خلال استطلاعه، وعن طريق جواسيسه ورصاده، المعلومات اللازمة عن الأرض ونوايا العدو، ويستند إليها عند وضع الخطط، ويتخذ على أساسها القرار المناسب.

وكان من عادة القادة العرب قبل خوض المعارك تهيئة جنودهم نفسياً لها، لكنهم كانوا يكتمون عنهم سرها. وبفضل الحفاظ على السر والسعي لكشف أسرار العدو استطاع القادة العرب تحقيق المفاجأة وانتزاع النصر في عدة معارك. ومن التدابير التي طبقوها في مجال الحيطة والسرية وجمع المعلومات:

- ألا يحدث أحدهم الآخر حديثاً، قد يتسرب إلى العدو.

---

[1] الطبري ـ تاريخ الرسل والملوك ـ ج٣ ـ ص٢٤٩ وما بعدها.

ـ ألا تقتل مجموعات الاستطلاع أحداً من العدو، إلا إذا أجبرت على ذلك، لأن مهمتها جمع المعلومات عن العدو، وليس منازلته.

وكانت الصلة وثيقة بين القائد وأعوانه في تنظيم أسلوب السيطرة على القوات. كما كان الهجوم بأشكاله المختلفة هو النوع الأساسي للأعمال القتالية التي طبقها العرب في حروبهم، وكان ينفذ على شكل عدد من العمليات الهجومية ذات فاصل زمني قصير فيما بينها، وكان الهجوم ينتهي بمطاردة العدو بصورة دائمة.

ومن المصادفات التاريخية، أن خالداً بن الوليد كان من أوائل المستفيدين من دروس الفن العسكري التي قدمها الرسول (ص) في خلال ممارسة القيادة. والغريب هنا هو أن خالداً وعى تلك الدروس، وهو لا يزال مع المشركين، وتعلم من الرسول (ص) أساليب التحضير والإعداد وتعبئة القوات والقيام بالهجوم غير المباشر وضرب المؤخرات، وطبق ذلك في معركة أحد ضد المسلمين أنفسهم، عندما عمل على إعادة ترتيب قواته إبان المعركة، ثم قام بالتفاف تكتيكي، وهاجم مؤخرة جيش المسلمين، مستغلاً الخطأ الذي ارتكبته مجموعة الحماية التي وضعها الرسول (ص) لتغطية مؤخرة جيش المسلمين، وانسحاب هذه المجموعة من مواقعها قبل انتهاء المعركة.

وتابع خالد (بعد إسلامه) تطبيق الدروس التي أخذها عن الرسول. فما إن تسلم القيادة في معركة مؤتة، حتى درس الموقف بعناية، فوجد أن انسحابه من أرض المعركة هو الحل الأفضل. وفعلاً نفذ الانسحاب ليلاً، وعمل على تجميع قواته وإعادة ترتيب القتال بتبديل الميمنة مكان الميسرة والميسرة مكان الميمنة والمؤخرة مكان المقدمة والمقدمة مكان المؤخرة. ولجأ إلى خدعة تكتيكية، بأن جعل خلف القوات مجموعة من المقاتلين، ليثيروا الغبار، ويحدثوا جلبة وضجيجاً، فتم بذلك خداع العدو، ثم هاجم عدوه بطريقة غير مباشرة، وكان النصر حليفه.

ولم يكن مضمون التعبئة العسكرية العربية جامداً، بل كان مرناً وفي تغيير وتطور مستمرين، بما يتناسب مع المهام، التي حددتها سياسة الدولة العربية، وبما يتناسب مع الإمكانات المادية والمعنوية المتاحة لتحقيقها. الأمر الذي يتطابق تماماً مع مبادئ التعبئة العسكرية، التي تتطلب معرفة طبيعية للمرحلة المقبلة وظروفها العسكرية، وإعداد الرد الملائم على أي خطر، بتكوين قوة عسكرية قادرة

كماً وكيفاً على تحقيق هدفهـا، وتوفير الإمكانـات الاقتصاديـة الـتي تسـمح بمـد هـذه القـوات بمـا يساعدها على تحقيق هذا الهدف، وتحديد مدة الحرب وسعة المنطقة التي تشملها.

وكان العرب يضعون في الاعتبار عند تخطيط التعبئة: حالة البلاد الـتي يتـم فتحهـا، وإمكانيـة الاستفادة منها في إمداد القوات، بالإضافة إلى ما يمكن الحصول عليه بفضل غنائم الحرب، وما يمكن أن تقدمه اتفاقيات الصلح المحلية من أسلحة وعتاد ومؤن.

ونظراً لسعة مسارح العمليات، وضعف وسـائط الاتصـال آنـذاك، فقـد حـل العـرب مسـألة السيطرة والقيادة، بأن تقوم القيادة المركزية في المدينة المنورة بتحديد القادة والقوات الـتي يقودونهـا، ورسم مهامها وهدفها وكيفية تأمينها، تاركة للقادة الميدانيين حرية عمل واسعة، لاختيار الأسـاليب المناسبة لتنفيذ المهام، وفق ما تتطلبه الأوضاع القتالية المتبدلة. بيد أن هذا التدبير لم يكن يعني انقطاع الاتصالات بين القيادة المركزية والقادة الميدانيين، الذين كانوا على اتصال مستمر مع المدينة بواسـطة وسائط الاتصال كالرسل، والبريد والحمام وغيرها.

وكان للاستطلاع دور واضح ومهم في فن التعبئة عنـد العـرب، فكـانوا يهتمـون باسـتطلاع الأهداف العسكرية والاقتصادية والمادية، بغية تحديد القوى الـتي يحـاول العـدو اسـتخدامها لتحقيـق فكرته. ولقد ظهر هذا الدور بكل أبعاده منذ البداية، عندما كان الرسول (ص) يبث السـرايا لمعرفـة قدرات العدو حول المدينة وفي الجزيرة العربية.

وطبق العرب مبدأ حشد القوى وتجميعها على الاتجاهات الحاسمة، كما مارسوا أيضاً سـحب القوات وإعادة تجميعها، وخلق كثافات عالية على المحاور الرئيسية، واعتمدوا في بعض الحالات على تحقيق الانتصارات الجزئية المتراكمة، كانتصارات خالد الجزئية، عندما توجه إلى العـراق. واعتمـدت التعبئة الإسلامية مبدأ الحركية العالية، واعتبرتها خاصـة مـن خصـائص القـوات، واسـتخدمتها علـى نطاق واسع لتحقيق المفاجأة والحشد.

وكان مسرح الأعمال الحربية عند العرب يعني: المنطقة الأرضية أو المساحة المائية التي تحـدث فيها الأعمـال القتاليـة، وتحـدد بـأهداف الصـراع المسـلح، وإمكانيـة الوصـول إلى المنطقـة، والمـدى الأقصى لوسـائط التأمين الإداري للقوات. وكان ترتيب القتال عند العرب مجزءاً بالجبهة والعمق إلى

عدة خطوط، وكل خط إلى عدة صفوف:

- **الخط الأول**: يتكون من الخيالة الخفيفة المبعثرة المكلفة ببدء المعركة والعمل على تحطيم الترتيب القتالي للعدو وتحطيم قواه ودحر هجومه.

- **الخطان الثاني والثالث**: وفيهما القوى الرئيسية، ويتألفان من كتل الخيالة والمشاة الموزعة بشكل شطرنجي، والمقسمة إلى قلب وجناحين.

- **الخط الرابع**: هو الاحتياط العام الذي يكلف بحماية اللواء، وقواه من المفارز القوية التي تزج في المعركة في الحالات الحرجة والضرورية لسد الثغرات، أو لمطاردة العدو المنسحب.

- **الخط الأخير**: تتمركز فيه الأسر والعائلات، ومعها بعض العتاد والتموين والمواشي. وكان هذا الترتيب القتالي يؤمن الحركية والمرونة والمناورة، ويضمن تغطية الثغرات والجوانب المكشوفة والمؤخرة.

والخلاصة: إن التعبئة العسكرية العربية كانت تجسد صورة التعبئة في حقبة من حقب التاريخ، وتتناسب مع الوسائط المادية والقوى البشرية المتاحة للعرب آنذاك، كما تتناسب مع المهام التي كان على القوات العربية تنفيذها، وطبيعة مسارح العمليات، وحجم القوى المعادية (المشركين في البداية، والجيشين الفارسي والبيزنطي، فيما بعد)، وتسليح هذه القوى وتدريبها وأساليبها القتالية.

أحداث تاريخية توضح مفهوم التعبئة: يروى عن عبد الرحمن بن عوف قوله: عبأنا النبي (ص) ببدر ليلاً. وفي تاريخ الطبري استخدام متكرر لكلمة التعبئة، حيث تجاوز مئات المرات.

يقول الطبري في ذكر الخبر عن مراسلة الكوفيين الحسين بن علي بن أبي طالب بعد موت معاوية: إن الحسين بعث إليهم مسلماً بن عقيل، لينظر ما كتب به أهل الكوفة إليه، فقد كتبوا إليه أنهم قد حبسوا أنفسهم عليه، وأنهم لا يحضرون الجمعة مع الوالي، وأنهم ينتظرونه، ويدعونه للقدوم إلى الكوفة.

وفي الكوفة تحدث الناس بمقدم عقيل، فدبوا إليه، وبايعه منهم اثنا عشر ألفاً، لكن رجلاً من أنصار يزيد، بعث إليه يخبره، فكتب يزيد إلى عبيد الله بن زياد، وكان واليه على البصرة، يخبره: أنه ولاه الكوفة مع البصرة، وطلب إليه أن يقتل مسلماً بن عقيل، إن وجده.

«فأقبل عبيد ا لله في وجوه أهل البصرة، حتى قدم الكوفة متلثماً، ولا يمر على مجلس من مجالسهم، فيسلم، إلا قالوا: عليك السلام يا بن بنت رسول ا لله، وهم يظنون أنه الحسين بن علي عليه السلام ـ حتى نزل القصر، فدعا مولى له، فأعطاه ثلاثة آلاف، وقال له: اذهب، حتى تسأل عن الرجل الذي يبايع له أهل الكوفة، فأعلمه أنك رجل من أهل حمص، جئت لهذا الأمر، وهذا مال، تدفعه إليه، ليتقوّى. فلم يزل يتلطف، ويرفق به، حتى دل على شيخ من أهل الكوفة، يلي البيعة، فلقيه، فأخبره، فقال له الشيخ: لقد سرني لقاؤك إياي، وقد ساءني، فأما ما سرني من ذلك، فما هداك ا لله له، وأما ما ساءني، فإن أمرنا لم يستحكم بعد. فأدخله إليه، فأخذ منه المال، وبايعه، ورجع إلى عبيد ا لله، فأخبره. فتحول مسلم حين قدم عبيد ا لله بن زياد من الدار التي كان فيها إلى منزل هانئ بن عروة المرادي، وكتب مسلم بن عقيل إلى الحسين بن علي عليه السلام يخبره ببيعة اثني عشر ألفا من أهل الكوفة، ويأمره بالقدوم. وقال عبيد ا لله لوجوه أهل الكوفة: مالي أرى هانئ بن عروة لم يأتني، فيمن أتاني»[1].

وتطورت الأحداث، فأحضر هانئ إلى عبيد ا لله، الذي سأله عن مسلم بن عقيل، وواجهه بالرجل، الذي دفع إليه الدراهم. . فلم يجد مفراً من الاعتراف بوجود مسلم في دراه. وعلمت مذحج بخبر هانئ، فخرجوا إلى باب القصر، وأحدثوا جلبة، سمعها عبيد ا لله، فأرسل إليهم شريحاً القاضي، يخبرهم: أن صاحبهم بخير، وإنما يسائله الأمير، فصدقوا القاضي، وتفرقوا.

«فأتى مسلماً الخبر، فنادى بشعاره، فاجتمع إليه أربعة آلاف من أهل الكوفة، فقدّم مقدّمته، وعبأ ميمنته وميسرته، وسار في القلب إلى عبيد ا لله، وبعث عبيد ا لله إلى وجوه أهل الكوفة، فجمعهم عنده في القصر، فلما سار إليه مسلم، فانتهى إلى باب القصر، أشرفوا على عشائرهم، فجعلوا يكلمونهم، ويردونهم، فجعل أصحاب مسلم يتسللون، حتى أمسى في خمسمائة، فلما اختلط الظلام ذهب أولئك أيضاً. فلما رأى مسلم أنه بقي وحده يتردد في الطرق، أتى باباً، فنزل عليه، فخرجت عليه امرأة، فقال لها: اسقيني، فسقته»[2]. ثم أخبر عنه ابنها.. فسُلم لعبيد ا لله،

---

[1] الطبري ـ تاريخ الرسل والملوك ـ ج٥ ـ ص٣٢٨.

[2] المرجع نفسه ـ ج٥ ـ ص٣٥٠.

فضرب عنقه، وصلب صاحبه هانئاً بن عروة. إن تحليل هذه النصوص التاريخية يعطي تصوراً شبه شامل لممارسة التعبئة العسكرية والسياسية في تلك الحقبة من التاريخ.

ففي الحادثة فريقان، يريد كل منهما الاستيلاء على الحكم في الكوفة، وهي جزء من الكل، الذي يرغب الفريقان في السيطرة عليه. كان الفريق الأول: هو الفريق الأموي الحاكم عملياً، إلا أن وفاة معاوية، وتولي ابنه يزيد، منحا الفريق الثاني، المتمثل بآل بيت النبي (ص)، فرصة جديدة لاستعادة السلطة، التي يرون أنهم أحق بها. فكيف عبأ كل من الفريقين قواه لتحقيق غايته؟!.

لقد كانت التعبئة هنا من النوع العسكري، وشملت ترتيب الجماعة المجتمعة بصورة جيش نظم في: مقدمة وميسرة وميمنة وقلب، وفق تنظيم الجيش في تلك الأيام. لكن هذه التعبئة العسكرية سبقت بمناداة الشعار، الذي من أجله يجتمعون. وكانت تلك المناداة بمثابة التعبئة النفسية والسياسية، لأن الشعار يذكّر بالمبدأ، الذي يوحد الجماعة، ويدفعها نحو اتجاه معين.

وبعد تحقيق التعبئة بعناصرها السياسية والنفسية والعسكرية، بدأ عبيد الله الصراع، الذي انتهى بفوزه على مسلم بن عقيل. ويرجع الفضل في هذا الفوز إلى تكامل التعبئة، التي قام بها عبيد الله: لقد جاء إلى الكوفة متلثماً، ومعه وجوه أهل البصرة، فظنه الناس الحسين بن علي، وهذا تكتيك أول، ربح به الجولة الأولى، فلم يثر نفوس الناس عليه، بل اجتذبهم إلى السر الملثّم، المحاط بوجوه القوم. واستخدام الجاسوسية والمال لمعرفة نوايا خصمه ونقاط قوته ومكامن ضعفه، وبنى على تلك المعلومات خطته، فاستحضر هانئاً بن عروة، وحبسه.

ثم استخدامه القاضي ليقنع جماعة هانئ: انه لا بأس عليه، فاقتنعوا، وتفرقوا، وبقي هانىء سجيناً عنده. واستقدم وجوه أهل الكوفة، وجمعهم في القصر، فلما جاءت عشائرهم لنصرة خصمه، استخدمهم في التأثير على عشائرهم، وبقي مسلم وحيداً. وكان هذا كله تكتيكاً سياسياً ناجحاً، لأنه يعتمد على فهم طبيعة العشائر العربية، التي كانت تخضع لشيوخها وأعيانها خضوعاً، يكاد يكون مطلقاً.

وكانت المواجهة الحاسمة بين الخصمين، في إلقاء القبض على مسلم بن عقيل وصاحبه هانئ بن عروة، وهما مجردان من كل قوة، ثم قتل الاثنين لإرهاب الخصوم وردعهم عن المغامرة بالعصيان على سلطة الأمويين. إن مقتل عقيل وهانئ قد خدم الوالي الأموي بأن أرهب خصومه، ولكنه

ساعد الخصوم أيضاً على تحقيق تعبئتهم، عن طريق إثارة الحقد ضد الأمويين والدعوة إلى الثأر منهم.

ومن نصوص الطبري الجامعة بين لفظ (التعبئة) وممارستها ما ذكره في أخبار المهلب بن أبي صفرة مع الخوارج، حين قال: «فلما أصبح الناس أخرجهم المهلب على تعبئتهم وأخماسهم ومواقفهم الأزد، وتميم ميمنة الناس، وبكر بن وائل، وعبد القيس ميسرة الناس، وأهل العالية في القلب وسط الناس».

«وخرجت الخوارج، على ميمنتهم عبيدة بن هلال اليشكري، وعلى ميسرتهم الزبير بن الماحوز، وجاؤوا، وهم أحسن عدة، وأكرم خيولاً، وأكثر سلاحاً من أهل البصرة، وذلك لأنهم مخروا الأرض، وجردوها، وأكلوا ما بين كرمان إلى الأهواز، فجاؤوا عليهم مغافر، تضرب إلى صدورهم، وعليهم دروع، يسحبونها، وسوق من زرد، يشدونها بكلاليب الحديد إلى مناطقهم، فالتقى الناس، فاقتتلوا كأشد القتال، فصبر بعضهم عامة النهار.

ثم إن الخوارج شددت على الناس بأجمعها شدة منكرة، فأجفل الناس، وانصاعوا منهزمين لا تلوي أم على ولد، حتى بلغ البصرة هزيمة الناس، وخافوا السباء، وأسرع المهلب، حتى سبقهم إلى مكان يفاع في جانب عن سنن المنهزمين. ثم إنه نادى الناس: إليّ - إليّ - عباد الله! - فثاب إليه جماعة من قومه، وثابت إليه سرية عمان، فاجتمع إليه منهم نحو ثلاثة آلاف، فلما نظر إلى من قد اجتمع، رضي جماعتهم، فحمد الله، وأثنى عليه، ثم قال:

أما بعد، فإن الله ربما يكمل الجمع الكثير إلى أنفسهم، فيهزمون، وينزل النصر على الجمع اليسير، فيظهرون، ولعمري ما بكم الآن من قلة، إني لجماعتكم لراضٍ، وإنكم لأنتم أهل الصبر، وفرسان أهل المصر، وما أحب أن أحداً ممن انهزم معكم، فإنهم لو كانوا فيكم، ما زادوكم إلا خبالاً. عزمت على كل امرئٍ منكم، لما أخذ عشرة أحجار معه، ثم امشوا بنا نحو عسكرهم، فإنهم الآن آمنون، وقد خرجت خيلهم في طلب إخوانكم، فوا لله إني لأرجو ألا ترجع إليهم خيلهم، حتى تستبيحوا عسكرهم، وتقتلوا أميرهم. ففعلوا.

ثم أقبل بهم راجعاً، فلا والله، ما شعرت الخوارج إلا بالمهلب، يضاربهم بالمسلمين في جانب عسكرهم. فلم يقاتلهم إلا ساعة، حتى قتل عبيد الله بن الماحوز، وضرب الله وجوه أصحابه،

وأخذ المهلب عسكر القوم وما فيه، وقتل الأزارقة قتلاً ذريعاً، وأقبل من كان في طلب أهل البصرة منهم راجعاً، قد وضع لهم المهلب خيلاً ورجالاً في الطريق، تختطفهم، وتقتلهم، فانكفؤوا راجعين مفلولين، مقتولين محزونين، مغلوبين، فارتفعوا إلى كرمان وجانب أصفهان، وأقام المهلب بالأهواز»[1]. يقدّم الطبري في هذا النص العناصر المتكاملة للتعبئة. صحيح أنه لم يذكر لفظ التعبئة إلا مرة واحدة، ولكنه أشار إلى عناصرها التالية:

أ ـ التعبئة العسكرية بمعنى ترتيب القتال. فالمهلب أخرج الناس على تعبئتهم في: ميمنة وميسرة وقلب.. والخوارج خرجوا في ترتيب مشابه.

ب ـ عوامل التفوق العسكري، التي جعلت تعبئة الخوارج أفضل من تعبئة خصومهم وهي: ١ـ (المعرفة) فقد مخروا الأرض، وجردوها.. أي أنهم يعرفون طبيعة الميدان الذي يتحركون عليه، وطبيعة الناس الذين ناوروهم طوال النهار. ٢ ـ (الصحة) فقد أكلوا ما بين كرمان إلى الأهواز، وكان تموينهم متفوقاً. ٣ ـ (العدة) فقد جاؤوا، وهم أحسن عدة وأكرم خيولاً، وأكثر سلاحاً من أهل البصرة، عليهم مغافر، تضرب إلى صدورهم، وعليهم دروع، يسحبونها، وسوق من زرد، يشدونها بكلاليب الحديد إلى مناطقهم.

ج ـ العامل النفسي، الذي استخدمه المهلب في المرحلة الثانية من المعركة، بغية رفع معنويات رجاله وحثهم على الصبر. فلقد أكد لهم: أن في قلتهم قوة، بعد أن تخلصوا من الجبناء، وأنهم صفوة القوة وأشجع الناس، بدليل ثباتهم واستعدادهم لمتابعة القتال، رغم الهزيمة الأولى.

د ـ المفاجأة، وضرب النقطة الأضعف عند العدو، وتدمير مراكز القيادة والتخطيط، وذلك بحشد القوى ضد المعسكر الذي غاب عنه الفرسان، ولم يبق فيه سوى الأمير وأهل الرأي والمشورة.

هـ ـ الحيطة المتمثلة بتوقع عودة الفرسان، ونشر الكمائن على طريق عودتهم، بغية اعتراض سبيلهم وتشتيتهم.

ـ أسس التعبئة:

شرعية التعبئة: تبدأ فكرة القتال عند الأمم القوية، عندما تشعر بقوتها، وتحس بضعف الأمم الأخرى التي حولها. والتاريخ مليء بالشواهد على ذلك قديماً وحديثاً. وتدخل في هذا الإطار،

---

[1] الطبري ـ تاريخ الرسل والملوك ـ ج٥ ـ ص٦١٨ ـ ٦١٩.

محاولات الإمبراطوريتين القويتين: الفارسية والبيزنطية، للقضاء على الدولة العربية بعد الإسلام، ومنذ أن غدا وجود هذه الدولة خطرا على طموحاتهما التوسعية.

والحقيقة أن الإسلام لم يدع إلى حرب عدوانية، الغاية منها السلطان، وإنما أمر باللجوء إلى الحرب عند الضرورة، بغية نشر الدعوة وتبليغ الناس كلمة التوحيد، التي جاء بها الرسول (ص) قال تعالى: ﴿وَقَاتِلُوهُم حَتَّى لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلّهِ، فَإِنِ انتَهَواْ فَلاَ عُدْوَانَ إِلاَّ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾[1] وحتى في مجال نشر الدعوة، فإن الإسلام دعا إلى الحوار والإقناع، وعدم اللجوء إلى الإكراه، وهذا واضح في قوله تعالى: ﴿لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ، قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الغَيِّ﴾[2].

ضمن هذا الإطار، ومن خلال الفهم الحضاري والإنساني لنشر الدعوة وحماية الدولة، يمكن تقويم الحروب العربية في عهد الرسول (ص) والخلفاء الراشدين في عداد الحروب العادلة. وقد يكون هناك جدل حول عدالة الحروب، التي شنها الأمويون على خصومهم الداخليين، منذ وصول معاوية بن أبي سفيان إلى السلطة، وتحويل الخلافة إلى ملكية. ولكن العدالة واضحة في الحروب، التي خاضوها ضد البيزنطيين بعد أن استتب لهم الأمر في دمشق، كما أنها واضحة في حملات الفتح، التي وصلت إلى حدود الهند والصين، وشملت اسبانية وجزءاً من جنوبي فرنسة.

ويعود الجدل حول عدالة حروب الأمويين ضد القوى الداخلية، التي نافستهم على السلطة، إلى أن فكرة التحول إلى الملكية متنافية مع مبدأ الشورى، الذي أكد عليه الإسلام، ومارسه النبي والخلفاء الراشدون من بعده. كما يعود إلى أن الأمويين فرضوا أنفسهم بالقوة، سواء عند تولي معاوية، أم عند مبايعة ابنه يزيد، رغم معارضة قريش، ووجود مرشحين آخرين مثل الحسين بن علي، وابن عمر، وابن الزبير، وعبد الرحمن بن أبي بكر، وابن عباس وغيرهم. ولقد أعرب سعيد بن العاص عن عدم رضاه على مبايعة يزيد بن معاوية، بأن قال لمعاوية: «أما لقد اصطنعك أبي، ورقاك، حتى بلغت باصطناعه المدى، الذي لا يُجارى إليه، ولا يُسامى، فما شكرت بلاءه، ولا جازيته بآلائه. وقمت على هذا ـ يعني يزيد بن معاوية ـ وبايعت له، وا لله! لأنا خير منه أبا وأما

---

[1] سورة البقرة ـ الآية ١٩٣.

[2] سورة البقرة ـ الآية ٢٥٦.

ونفسا»[1].

ولقد جاءت المعارضة من التغيير، الذي تعرض له أصل الحكم المبني على أسس ديمقراطية، والانتقال من الشورى إلى الحكم الوراثي. ونجمت عن هذه المعارضة حروب أهلية في العراق والحجاز ومصر ومناطق أخرى من الدولة العربية، وراح ضحيتها مئات الألوف من القتلى، ويذكر: «أن عدد الذين قتلهم الحجاج بلغ ١٢٠ ألفاً»[2].

ومقابل هذه الحجج، التي تؤكد عدم شرعية حروب بني أمية ضد خصومهم الداخليين، فإن هناك من يرون: بأن الأمويين تمكنوا، بفضل هذه الحروب، من تثبيت دعائم الدولة العربية، التي اتسعت أرجاؤها إلى حد بعيد، وأصبحت بحاجة إلى سلطة مركزية قوية، وأنه لولا نجاحهم في التغلب على المعارضين وترسيخ أركان الدولة، لوقعت انقسامات عديدة، ونشأت دول متعددة صغيرة، تدين كل واحدة منها لأحد المطالبين بالخلافة، ممن يرون: أنهم أحق من غيرهم في رئاسة الدولة.

وإذا تجاوزنا الجدل حول عدالة أو عدم عدالة حروب الأمويين الداخلية، وسلطنا الضوء على حروبهم الخارجية العادلة، باعتبارها نوعاً من الدفاع عن العقيدة، يستخدم أسلوب ضرب مكامن الأخطار المحدقة بها، توصلنا إلى الاستنتاج: بأن تعبئتهم كانت مشروعة، ما دامت تخدم هدفاً عادلاً ومشروعاً. ولكسب الحرب العادلة، وتحقيق الحد الأقصى من التعبئة، لجأ العرب في صدر الإسلام وفي بعض مراحل الدولة الأموية إلى تبني المنطلقات التالية:

١ ـ **التقشف وعدم الانغماس في الترف والرفاهية**، اللذين يقتلان الحماسة للقتال، ويؤديان إلى الانحلال، والتمسك بالحياة الدنيا بدلا من السعي للاستشهاد والخلود في الآخرة.

٢ ـ **الاستشارة** استنادا إلى قوله تعالى: **﴿وَلَوْ كُنْتَ فَظّاً غَلِيظَ القَلْبِ، لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ، فَاعْفُ عَنْهُمْ، وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ، وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ﴾**[3]، مع التركيز على استشارة أهل العمل وأصحاب التجربة والخبرة في الحروب.

---

[1] الطبري ـ تاريخ الرسل والملوك ـ ج٥ ـ ص٣٠٥.

[2] فيليب حتى تاريخ العرب المطول ـ ج١ ـ ص٢٧٢.

[3] سورة آل عمران ـ الآية ١٥٩.

٣ ـ المكيدة، وتعني: تدبير الخطة وإقرار الرأي بعد التمحيص والتدقيق. وإعداد العدة والتصرف فيها، بعد التفكير والمشورة. والمكيدة في الحرب يجب البحث عنها شرعاً وعقلاً، فشرعيتها نابعة من قوله (ص): «الحرب خدعة»، أما عقلانيتها، فنابعة من ضرورة الظفر والنصر، مع التعرض إلى الحد الأدنى من الأخطار والمكاره، وتكون المكيدة بدس الدسائس للعدو، والتأثير على أفكار جنوده واستمالتهم، ودفعهم إلى الخروج عن طاعة قائدهم، وترغيبهم بالعفو والصفح عنهم.

أما التعبئة عند بدء القتال (نظام المعركة)، فيعني: توزيع وتناسق مختلف الأسلحة داخل وحدات الجيش كله. ولقد كانت المعركة في تلك الحقبة التاريخية تشكل الحرب كلها. وكانت تقع بعد أن تأخذ القوات المتحاربة موقعها بهدوء وعلى شكل كراديس متجاورة ومتعاقبة، وتنظم في ترتيب القتال: ميمنة، قلب، ميسرة، وقد يضاف إليها مقدمة ومؤخرة[1].

وكان القائد يستخدم في المعركة جزءاً من مجموع القوات. حيث يترك هذا الجزء في أتون القتال ساعات طويلة، ويتخلل القتال بعض الهزات الناتجة عن هجوم هذا الجزء، وعندما يفقد قدرته القتالية، يُبدّل بجزء آخر، وتستمر المعركة، حتى يحل الظلام، فتلجأ القطعات إلى الراحة، نظراً لتعذر الرؤية وخوفاً من المفاجآت، وأثناء ذلك يتم حساب القوى الباقية، التي تملك القدرة على القتال، ويدخل في هذا الحساب الأرض، التي تم كسبها أو خسارتها، كما تدخل دراسة نقاط الضعف، التي لاحظها القائد بين صفوف الأعداء، ويعقب ذلك اتخاذ قرار: إما بالبقاء لإعادة المعركة والاستمرار، أو التخلي عنها، فالمعركة بهذا المعنى صراع القوى الرئيسية. فهي ليست صراعاً جزئياً للوصول إلى هدف محدود، بل صراع كلي لتحقيق الهدف الشامل.

معطيات أساسية في الحروب العربية الإسلامية:

أولاً ـ الإعداد: قال تعالى:﴿وَأَعِدّوا لَهُمْ ما اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوّةٍ وَمِنْ رِباطِ الخَيْلِ تُرْهِبونَ بِهِ

[1] يقول ابن الأثير في ذكر الخبر عن مقتل نافع بن الأزرق «وجعل مسلم بن عيسى على ميمنته الحجاج بن باب الحميري، وعلى ميسرته حارثه بن بدر الغداني، وجعل ابن الأزرق على ميمنته عبيد بن هلال، وعلى ميسرته الزبير بن الماحوز التميمي» ابن الأثير ـ الكامل ج٤ ـ ص١٩٤.

عَدُوَّ اللهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دونِهِمْ، لا تَعْلَمونَهُمْ، اللهُ يَعْلَمُهُمْ، وما تُنفِقوا مِنْ شَيْءٍ في سَبيلِ اللهِ يُوفَّ إِلَيْكُمْ، وَأَنتُمْ لا تُظْلَمونَ﴾[1].

تتضمن هذه الآية الكريمة فرض الحرب وضرورة الإعداد لها، بأقصى جهد ممكن. والاهتمام بالجيش، سواء في زمن السلم أم في زمن الحرب، كما أنها تتضمن ذكر الأسباب، التي من أجلها فرض الإعداد، وضرورة الإنفاق في سبيل الله من الفكر والعلم والجهد والمال، مع وعد من الله بالظفر والوفاء لهم برد ما أنفقوا. والإعداد للحرب نوعان: أحدهما فكري روحي، والآخر مادي.

ويتضمن الإعداد الأول: اكتساب العلم والثقافة، ودراسة تاريخ الحروب وسير قادتها، والتشبع بالعقيدة السامية، واستمداد الشحنة النفسية القوية من الإيمان بعدالة الحرب وحتمية النصر والسعي إلى الشهادة، وتنمية الفضائل الحربية كالصبر والشجاعة وروح التعاون وطاعة القادة ومحبة رفاق السلاح. والتدرب على ضبط النفس وقهر الشهوات، الذي اعتبره الرسول (ص) الجهاد الأكبر.

أما الإعداد الثاني: فيتضمن تدريب الرجال على فنون القتال، وتقوية أجسامهم، وتعويدهم على شظف العيش، وإعداد الأسلحة ووسائل النقل وأدوات الحصار، وتكديس المؤن والذخائر ومتطلبات العلاج.

ثانياً ـ الحرب: خاض العرب في صدر الإسلام، وفي العصر الأموي، مختلف أشكال الحرب (الهجومية والدفاعية، الشاملة والمحدودة، الخارجية والأهلية.. الخ). وكان هدفهم يتراوح بين الدفاع عن العقيدة وأنصارها، والتقدم للفتح ونشر الدعوة، وإخماد القوى الداخلية المعارضة بغية الحفاظ على وحدة الدولة.

وكان من نتائج حروبهم الأولى حماية النواة الإسلامية، ونشر الإسلام في الجزيرة العربية، والقضاء على بذور الفتنة، التي أشعلها المرتدون. أما نتائج حروبهم، التي تلت ذلك، فكانت تتمثل في الفتوحات الكبيرة وتعزيز وحدة الدولة.

ومن أبرز سمات الحروب العربية تكامل الدفاع والهجوم فيها، فهي دفاع هجومي في حالة الدفاع يتخلله الدفاع في حالة الهجوم. ويرجع ذلك إلى أن أكثر حروب العرب كانت نهارية

[1] سورة الانفال ـ الآية ٦٠.

تتوقف القوات فيها ليلاً، وتركـن إلى الدفـاع، بالإضافة إلى أن التوسع النـاتج عـن الهجـوم، كـان يفرض حماية الأرض المكتسبة بالدفاع. بيد أن الطابع الهجومي كـان سـائداً، نظـراً لأنـه الوسـيلة الأفضل لتدمير قوى العـدو المعاديـة والمعنوية، واحتلال أرضه، وحرمانـه مـن مصـادر قوتـه. ولقـد اعتمد العرب في الهجوم على العوامل التالية:

١ ـ اختيار مسرح القتال، وربح الوقت في الوصول إليه.

٢ ـ تجميع القوات بسرعة في مسرح القتال.

٣ ـ المرونة والحركية وصغر الأرتال الإدارية.

٤ ـ القوى المعنوية العالية.

٥ ـ المفاجأة التكتيكية والعملياتية.

٦ ـ تحطيم معنويات العدو بمختلف الوسائل قبل المعركة وخلالها.

وكانت نتيجة الهجوم تحدد غالباً قبل البدء بـه، لأن السـمعة الطيبـة، الـتي اكتسـبها الفـاتحون العرب، ودعوتهم إلى اعتناق دين تحريري، وحسن معـاملتهم للسـكان، ورأفتهـم بالأسـرى، وعـدم لجوئهم إلى ارتكاب المجازر أو السلب (وهـي أعمـال مألوفـة في ذلـك العصـر) كـانت تفتـت إرادة القتال عند العدو، وتجعله غير متحمس لخوض الحرب. وأدى تبني العرب للاستراتيجية الهجومية (في مرحلة الفتوحات)، إلى عدة نتائج، أهمها:

١ ـ ارتفاع معنويات القوات العربية، التي كانت تنتقـل مـن نصـر إلى نصـر في عمـق منـاطق العدو.

٢ ـ ازدياد موارد الدولة العربية من الأمصار، التي تم فتحها، ومن الغنائم والأنفال.

٣ ـ تناقص موارد الأعداء من الرجال والإمدادات، بسـبب خسـارة الأرض ومواردهـا، ومـا تقدمه من محاربين.

ثالثاً ـ الخبرة: اكتسب العـرب مـن خـلال الحـروب، الـتي خاضوهـا خـبرة كبـيرة في جميـع المجالات، فكانت الحرب بالنسبة إليهم مدرسة، بنوا فيها الجيش المحارب، وتعلمـوا في أتونهـا أصـول التنظيم والتعبئة والإمداد وتأمين الاتصال، واحتكوا من خلالهـا مـع جيـوش حسـنة التسـليح، الأمـر الذي ساعدهم على تطوير أسلحتهم، وتعلّم أصول صناعة واستخدام أسلحة ومعدات قتالية أفضل

مما كان لديهم.

ولقد أدى استمرار الحروب إلى ظهور قادة، برهنوا على خبرات قيادية رفيعة، بعضها فطري، والبعض الآخر مكتسب من الخبرة القتالية الطويلة. ولقد كانت القيادة عند العرب قبل الإسلام بيد زعماء القبائل، الذين تتوافر فيهم مؤهلات قيادية خاصة مثل كبر السن، وسداد الرأي، والشجاعة، والتضحية. ثم أصبح الرسول (ص) القائد الأعلى للقوات، وكان يقود الغزوات بنفسه، أو يؤمّر عليها من يراه صالحاً للإمارة، ويسلمه الراية.

وأصبح اختيار القادة يتم استناداً إلى مقاييس محددة، بعضها مماثل لمقاييس قادة الجاهلية، كالشجاعة والخبرة الحربية والقوة والمهارة في ركوب الخيل واستخدام السلاح، وبعضها جديد، جاء مع الإسلام كالسبق في الإيمان، وثبات العقيدة، والزهد في الحياة، والسعي إلى لشهادة، وطاعة الخليفة. ثم أضاف الأمويون إلى ذلك مقياساً آخر، هو الإخلاص لبني أمية. وبسبب هذا المقياس خسرت الدولة العربية قادة عسكريين ممتازين، يمتلكون الصفات القيادية اللازمة، ولكن إخلاصهم للسلطة مشكوك فيه. ولقد كانت هذه الخسارة كبيرة إلى حد بعيد، وأدت إلى عدم استغلال الإمكانات القيادية المتاحة بشكل جيد، إلا أنها لم تمنع ظهور قادة أمويين أكفاء، استطاعوا متابعة الفتح وتحقيق المعجزات.

. التعبئة والقوى المعنوية:

الروح المعنوية: من أهم العناصر في الحرب، لأنها تطبع الحرب بطابعها. وتدخل الإرادة ضمن الروح المعنوية التي لا تخضع للقوانين النظرية، ولا تحسب بالأرقام، بل تظهر على شكل قوة دافعة، تعطي القوات المسلحة زخماً في الهجوم، وصلابة الدفاع، وقدرة على تحمل المكاره في جميع حالات القتال.

ولا تستطيع القيادة والتنظيم وتعبئة القوى المادية تحقيق النصر في أية معركة، دون توافر الروح المعنوية العالية بين المقاتلين. ولقد برهن المقاتلون العرب في صدر الإسلام عن روح معنوية عالية، وإيمان عميق بالهدف، الذي يقاتلون من أجله. وهذا ما يفسر انتصاراتهم المتتالية وسعة فتوحاتهم، على الرغم من اشتباكهم في القتال بعيداً عن قواعد انطلاقهم ومناطق إمدادهم، وفي مسارح يجهلون

طبيعتها، وضد قوى متفوقة عدة وعدداً.

وكانت القوة المعنوية عند العرب تنبع من فكرة الجهاد المقدس، والرغبة في الشهادة والحماسة النابعة من الروح الجماعية في القبيلة، التي تماثل في العصر الحاضر روح القطعة، خاصة وأن القبائل المنضوية داخل جيش واحد، كانت تقاتل غالباً، وهي مجتمعة تحت قيادة زعيم من زعمائها. بالإضافة إلى المثل الذي كان القادة (على مختلف المستويات) يعطونه لجنودهم، والقناعة المشتركة بوحدة الهدف والمصير.

إن أمثلة التاريخ العربي الدالة على دور الرغبة في الشهادة وتأثيرها على التعبئة المعنوية أكثر من أن تحصى، ففي أخبار المجاهدين الأوائل ما يعبئ النفس بالروح المعنوية.

- كأخبار أبي موسى الأشعري وتضحيته في غزوة ذات الرقاع.
- ثم أخبار أبي ذر الغفاري وإيمانه العميق بالجهاد والفداء في غزوة تبوك.
- أما خالد بن الوليد المقاتل والقائد الفذ فهو المثال في سلوكه عن الروح المعنوية، وذلك عندما عزل عن قيادة الجيش، فكانت مقالته المشهورة: إنا نقاتل كي يرضى الجهاد بنا.

التعبئة وأسس القيادة: تمثلت أسس القيادة العليا عند العرب منذ البداية في حياة الرسول (ص)، واقتفى أثره من جاء بعده من الخلفاء، وكانت أركان القيادة، كما مارسها قادة صدر الإسلام:

١ ـ استيعاب القادة العرب لاستراتيجيتهم، وثقتهم بها، وإيمانهم بالنصر، مهما طالت المعاناة.

٢ ـ قدرة القيادة على الاستمرار: وهذه مسألة على غاية من الأهمية، لأن التعبئة إذا لم تستطع تأمين عملية الاستمرار في تحقيق غايتها، فإنها تجمد، ثم تموت.

٣ ـ تبادل الثقة بين القائد ورجاله. ولقد حرص الرسول (ص) على هذا النوع من الثقة، وخاض معركة لاكتساب قلوب أتباعه في سبيل غاية مشتركة، تخدم الجميع. ورغم اهتزاز الثقة في بعض الحالات بعد وفاة الرسول (ص)، فإن خلفاءه عملوا على استعادة الثقة، وحققوا في العديد من الحالات نجاحاً ملحوظاً.

٤ ـ قدرة القيادة العليا على إيجاد الحلول للمشاكل، التي تعترضها، وذلك بالاستفادة من الإمكانات العقلية والجسمية للأفراد كافة، ووضع كل امرئ في المكان المناسب، وتعميم مبدأ الشورى وتطبيقه عملياً.

٥ ـ أما في مجال القيادة العسكرية فلقد كان القادة العرب يوجهون همهم الأول للقضاء على قوة العدو العسكرية، وذلك بهجمة سريعة، تعتمد على المفاجأة في أكثر الأحيان، مع الاستفادة من معرفة المنطقة، واختيار الموقع الملائم للجيش، وتحديد الخطة (توزيع القوات ومهامها)، ومباغتة العدو قبل استعداده، والاعتماد على القوة المعنوية، والعناية بالاستطلاع.

٦ ـ قوة الإرادة، وامتلاك خبرة حربية واسعة. أي معرفة الهدف، والمهارة في اختيار الوسيلة المناسبة لتحقيقه، والعزم على متابعة الهدف مع الثبات في وجه المصاعب.

٧ ـ التفاؤل والثقة بالنصر. والقدرة على نقل هاتين الحالتين النفسيتين إلى المقاتلين كما حدث في معركة اليرموك والقادسية.

٨ ـ القدرة على إحكام السيطرة على القوات في مختلف المواقف كما فعل طارق بن زياد عند فتح اسبانية..

٩ ـ المهارة في اختيار المساعدين الأكفاء المؤهلين لتنفيذ الأوامر والتعليمات في حال وصولها إليهم، وأخذ المبادرات المتناسبة مع المواقف، عند انقطاع الاتصال مع القيادة كما فعل خالد بن الوليد في معركة مؤته.

١٠ ـ الاعتماد على المركزية في التخطيط العام للحرب، واللامركزية في الحملات والمعارك. وإذا كانت المركزية قد سمحت للقيادات العربية العليا بوضع الخطة الإجمالية لقيادة العمليات، وتنسيق العمليات في كل منطقة، وإبقاء القيادة موحدة لجميع القوات المسلحة، فإن اللامركزية منحت القادة الميدانيين منذ بدء الفتوحات، حرية عمل واسعة، ومرونة كبيرة، مما ساعد على مواجهة المواقف المتبدلة أو غير المتوقعة. وكان للقائد عند العرب حقوق، تفرضها طبيعة عمله وحجم المسؤوليات الملقاة على عاتقه. وهي:

ـ حق الطاعة المطلقة، إلا فيما يتعارض مع الشريعة.

ـ حق العودة إليه في كل أمر وقبول حكمه.

ـ ألا يعمل أو يُقضى أمر، يتعلق بالمصلحة العامة قبل إذنه ورأيه، ولا يُكتم عنه أمر، ولا يحفظ دونه سر.

ـ ألا يخاطب كما تخاطب العامة من غير مبالاة، ولا ينادى له من بعد تأدباً. وبالمقابل، فقد كان على القائد العربي أن يتمتع بالسمات التالية، حتى يتمكن من أداء واجبه:

ـ أن يكون عالماً عارفاً بالحروب ومعداتها. داهية في أساليب القتال.

ـ أن يكون قوي البدن، حائزاً على ثقة واحترام رجاله، هادئ الأعصاب سريع الحركة.

ـ أن يكون عادلاً، يحكم سلطان العقل في كل أمر، صبوراً عند المحن، ولا يتردد، إن عزم.

ـ ألا يكون مستبداً برأيه، وأن يكون رحيماً بجنده، عطوفاً عليهم، مستعداً لتفهم قضاياهم وحل معضلاتهم.

ـ أن تكون غايته الأولى تحقيق السلام وحقن الدماء في حدود المصلحة المشتركة.

ـ أن يمتلك القدرة على التركيز واتخاذ القرار الصحيح والسليم.

ـ أن يكون المثل لرجاله في القول والعمل، وقدوة، يحتذون بها في السلم والحرب.

القيادة والقرار: القدرة على اتخاذ القرار ضرورة لكل قائد. والقرار صفة من صفات القيادة. ولا يفسر القرار بمسبباته فحسب، بل بنتائجه أيضاً. والقرار الذي تمليه الأسباب، هو القرار القسري، أما الذي توحي به النهايات، فهو القرار العفوي. والمهم في القرار، هو التوصل إليه بعد تأمل المعطيات بموضوعية، واستشارة المساعدين، والاعتماد في النهاية على الإلهام (الذي يشكل سر العبقرية القيادية) عند الاختيار بين عدة قرارات ممكنة.

ولقد كان القادة العرب يعرفون: أن هناك حدوداً لحريتهم في اتخاذ القرار، ويشعرون بأنهم مسؤولون ضمن هذه الحدود عن اختياراتهم، التي قد تكون في بعض الظروف مفجعة. وكانوا يعتمدون عند اتخاذ القرار على عاملين هما: المعلومات، والزمن. وكانت المعلومات المستقاة بمختلف الوسائل تساعدهم في فهم مكنونات المواقف، وإزالة العناصر المبهمة فيها، في حين كان استخدامهم للزمن متناسباً مع طبيعة الموقف، فهم يطيلون الدراسة قبل القرار، عندما يتاح لهم ذلك، ويفكرون بسرعة، عندما يتطلب الوضع اتخاذ قرارات سريعة. ويقدم التاريخ العربي أمثلة كثيرة عن قادة، امتازوا

بالعديد من الصفات القيادية، ومن بينها المهارة في اتخاذ القرار العقلاني المناسب، في ظروف القتال المعقدة. ونذكر على سبيل المثال:

ـ **خالداً بن الوليد**: الذي قال عنه النبي (ص): «كنت أرى لك عقلاً، رجوت ألا يسلمك إلا إلى الخير»[1] ولقد ظهرت عبقرية خالد في اتخاذ القرارات خلال معركة أحد (عندما كان يقاتل ضد المسلمين)، وفي معركة مؤتة، التي استلم القيادة فيها إبان القتال، وفي حروب الردة وفتح الشام والعراق. إلا أن أهم قراراته وأكثرها دلالة على عبقريته كقائد ميداني وكمفكر استراتيجي: القرار باجتياز الصحراء بين العراق والشام، للالتحاق بالجيش العربي، الذي كان يحتشد لملاقات الروم في معركة اليرموك الفاصلة.

ـ **أبا عبيدة بن الجراح**: القائد المكيث[2]، الذي لم يكن يبحث عن النصر السهل، بل عن النصر المضمون. ولقد كانت قراراته دائماً مبنية على الدراسة المتعمقة للموقف، ومعالجة عوامل الوضع بهدوء. ويمكن اعتبار قراراته في حصار حمص وفتحها نموذجاً للعمل القيادي الناجح (الاستطلاع، الحصار، عزل المنطقة، الضغط الاقتصادي والعسكري على المحاصرين، المناورة الخداعية، الهجوم الحاسم).

ـ **سعد بن أبي وقاص**: الذي كان لقراراته السليمة دور فعال في انتصار القادسية الحاسم. فلقد كان اختيار موقع القادسية في حد ذاته قراراً يتسم بالحكمة، نظراً لعزلته عن أهل البلاد، الذين لم يكن سعد على ثقة بهم، ووقوع القادسية بين حاجزين جغرافيين (الخندق والعتيق)، يمكن الاستناد إليهما، وقرب الموقع من مصادر المياه والمؤن، وحصر الفرس بحاجز طبيعي. ثم توالت القرارات الصحيحة إبان المعركة: توجيه المقدمة قبل كتلة القوات الرئيسية بغية الحصول على فترة كافية لفتح القوات، دفع القوات لحماية النقاط الضعيفة، تحديد بدء المعركة ظهراً حتى لا تكون الشمس في وجه المقاتلين، المعركة الليلية (ليلة الهرير)، قرار المطاردة.

ـ **قتيبة بن مسلم الباهلي**: الذي ظهرت مهارته في اتخاذ القرارات، من خلال توجهه إلى سمرقند بعد فتح خوارزم، وتنظيم قواته على شكل مجموعتين متعاقبتين، بغية تجنب المفاجأة والحفاظ

---

[1] ابن سعد ـ الطبقات الكبرى ج٤ ص٢٥٢.

[2] المكيث: الرزين المتأني.

على حرية المناورة.

- **عقبة بن نافع**: الذي اتخذ قراراً ببناء القيروان، لتكون قاعدة للعمليات في شمالي أفريقية، ترابط فيها الجيوش للغزو والحرب، وتقيم فيها أثناء السلم.

- **عمرو بن العاص**: الذي عُرف عنه قراره الحكيم، عندما آثر فتح القدس عن طريق الصلح، بدلاً من فتحها بالقوة، نظراً لضخامة القوات المدافعة عنها، واستعدادها للمقاومة، وقراره بالتوجه إلى مصر لفتحها، وإقناعه الخليفة عمر بن الخطاب بالقرارين وقرار رفع المصاحف في صفين، عندما بدأ ميزان القوى يميل لصالح علي، وما أدى إليه هذا القرار من انشقاق في جيش علي.

- **معاوية بن أبي سفيان**: الذي كانت قراراته مبنية على عاملين: الحنكة السياسية والسرية المطلقة. وتظهر حنكة معاوية من وصفه لنفسه: «لا أضع سيفي، حيث يكفيني سوطي، ولا أضع سوطي، حيث يكفيني لساني، ولو أن بيني وبين الناس شعرة، ما انقطعت، إذا مدوها خليتها وإذا خلوها، مددتها»[1].

أما كتمان معاوية، فقد ذكره ابن الأثير، عندما تحدث عن اجتماع الحكمين (عمرو بن العاص وأبي موسى الأشعري) في صفين بقوله: «كان عمرو إذا أتاه كتاب من معاوية، لا يُدري بما جاء فيه، ولا يسأله أهل الشام عن شيء، وكان أهل العراق يسألون ابن عباس عن كتاب، يصله من علي، فإن كتمهم ظنوا به الظنون، وقالوا: أتراه كتب: بكذا وكذا؟ فقال لهم ابن عباس: أما تعقلون؟ أما ترون رسول معاوية يجيء، ولا يعلم أحد، بما جاء به، ولا يسمع لهم صياح، وأنتم عندي كل يوم، تظنون فيّ الظنون»[2]. كما أن معاوية نفسه أكد ذلك بقوله: «أعنت على علي بثلاثة: كان رجلاً ربكاً أظهر سره، وكنت كتوماً لسري... »[3].

- **الحجاج بن يوسف الثقفي**: الذي كان لقراراته الحازمة دور هام في انتزاع الحجاز من يد عبد الله بن الزبير، وإخماد الفتن في العراق، وإعادة الوحدة السياسية إلى الدولة الأموية.

---

(1) فيليب حتي - تاريخ العرب - ص٢٦٠.

(2) ابن الأثير - الكامل في التاريخ - ج٣ - ص٣٣٠.

(3) محمود سبت خطاب - قادة فتح الشام ومصر - طبع بيروت (دار الفكر) - ص١٨٩.

إعداد السكان: يعتبر إعداد السكان وتعبئة طاقاتهم للحرب عملاً أساسياً لتحقيق النصر، ولقد عمل العرب على تطويره ودفعه إلى الأمام، وذلك عن طريق الدعوة إلى الإسلام، وبث روح التضحية وبذل كل الطاقات وتحمل المشاق في الحرب للوصول إلى النصر.

وكان الإيمان عاملاً مهماً ومقنعاً لكل عربي، ومحرضاً على الجهاد من أجل وصول هذه العقيدة إلى غايتها وتحقيق هدفها. لذا كان الهدف الأول من إعداد السكان عند العرب: تبيان أعداء هذه العقيدة، وخطرهم على وجودها، وإقناع الشعب بعدالة الأهداف، التي ترمي إليها الفتوحات، ورفع مستوى ثقة الشعب بقوة قواته المسلحة وحبه لها، وبث روح الأخوة بين أفراد الشعب، وإثارة كراهيتهم للخصم لدرجة، تخلق عند المقاتل الرغبة في تدمير القوات المسلحة المعادية.

وكان إعداد السكان يتضمن أيضاً: تأهيلهم للقيام بالمهام اللازمة لتحقيق هدف السياسة. وتنظيمهم من أجل إمداد المسارح بالقوات المسلحة خلال الحرب، ورفع مستوى جاهزيتهم القتالية عن طريق تدريبهم على استخدام الأسلحة والمعدات القتالية المتوافرة.

ولقد وعى العرب مدى تأثير الحالة المعنوية والنظام السياسي والاجتماعي على التعبئة العسكرية، وكان النظام الاجتماعي والسياسي، الذي تبنّوه أهم مصدر للروح المعنوية العالية، التي سادت في صفوف الشعب والجيش، وزادت قدرة الشعب على العطاء، وقدرة القوات المسلحة على خوض الحرب والانتصار.

- التعبئة العسكرية والسياسية:

الحرب والسياسة: «الحرب استمرار للسياسة بوسائل أخرى». إن الحروب العربية لم تشذ عن هذه القاعدة، فلقد كانت ذات طابع سياسي، وكان غرضها النهائي خدمة السياسة العربية العليا. ولم تكن التعبئة سوى وسيلة لمواصلة الحرب، والوصول إلى هدف السياسة عن طريق الحرب.

والحقيقة أن التعبئة التي طبقها العرب، كانت على علاقة وثيقة بإعداد الشعب لخوض الصراع المسلح، والوصول إلى الوحدة بين الجيش والشعب، لكي يتم التوصل إلى التفوق. وكان الوصول إلى الوحدة المذكورة يعتمد أساساً على وحدة العقيدة، التي جمعت العرب، ورصت صفوفهم،

وحولتهم من قبائل متناحرة إلى أمة متلاحمة.

ولم تكن السياسة والدبلوماسية بعيدة عن التعبئة عند العرب. وإذا كانت التعبئة في الأساس أداة لخدمة السياسة، فإن السياسة لعبت دورها لتعزيز التعبئة. ونذكر على سبيل المثال ما فعله معاوية بن أبي سفيان قبل موقعة صفين. عندما علم بأن قيصر الروم قد قرر الزحف بخيله ورجاله إلى الشام، وبعث إليه الرسل والهدايا، وطلب منه الموادعة والمسالمة. وما أن وافق ملك الروم على ذلك، حتى تخلص معاوية من أعباء الضغوط الإضافية ومتطلبات القتال على جبهتين، مما سمح له بحشد قواته في صفين.

والحرب والسياسة، توأمان، لا يمكن الفصل بينهما، فكلاهما متمم للآخر. غير أن الحرب لا تماثل السياسة بصورة عامة. مع أنها استمرار لها. . فعندما تبلغ السياسة مرحلة معينة من التطور، لا يمكن تجاوزها بالوسائل العادية، تنشب الحرب لدفع العقبات القائمة. وطالما لم تتحطم العقبات تماماً، يبقى من الضروري مواصلة الحرب لإيصالها إلى نهايتها. وجماهير السكان الواسعة لا تقبل بإيقاف الحرب، حتى تنجز هدفها السياسي التام، الذي يتعذر تحقيقه في أغلب الأحيان، دون إراقة الدماء.

ومن الضروري أن تعرض أهداف السياسة على الجيش والشعب، بحيث تصل هذه الأهداف إلى كل مواطن وجندي، وتحدد له واجباته ومهامه، لأن شرح الأهداف بهذه الصورة، يولد الحماسة لتأدية الواجب بأمانة. بيد أن عرض أهداف الحرب وشرحها على الجيش والشعب لا يكفيان، ولابد بالإضافة إلى ذلك من عرض التدابير السياسية المعدة لبلوغ هذه الأهداف بوضوح. ويتم الوصول إلى ذلك ببرنامج سياسي متكامل، يحدد الهدف، ويربطه بكل فرد من أفراد الجيش والشعب، ويجعله واضحاً ومفهوماً، يقبله الجميع، وينفعلون به.

ويتضمن البرنامج السياسي: التدابير الموصلة إلى هدف الحرب، بما في ذلك إعداد الشعب والجيش لترجمة تلك التدابير إلى واقع ملموس، وإعداد البلاد (اقتصادياً) لتحمل أعباء الحرب وتزويد جبهات القتال بحاجاتها من المؤن والمعدات والأسلحة، وربط هذا الإعداد بالحرب وبحياة المقاتلين والناس العاديين.

ولقد طبق العرب كل ذلك عملياً. فقبل القيام بأي حرب، كان قائدها أو الموجه لها، يجمع أهل الرأي، ويشاورهم في الأمر، ويتفق معهم على الأغراض والوسائل، ثم يعلن الخطوط العريضة للحرب في المسجد أمام الناس، ويشرح أهدافها ومبرراتها. رابطاً بين الحرب والفتح ونشر العقيدة (الحرب الهجومية)، أو بين الحرب وحماية البلاد والعباد (الحرب الدفاعية). ثم تلي ذلك حملة توعية واسعة، تشمل قطاعات الشعب كافة، عن طريق الرسائل، والخطب في المساجد، والأسواق الأدبية، وغيرها من وسائل الإعلام والتعبئة السياسية ـ النفسية المتاحة آنذاك.

لقد كان العرب يدركون: أن المهمة الأولى التي تواجههم، ابتداء من عصر الرسول (ص)، هي إعداد كافة القوى البشرية والاقتصادية. لذلك كانوا متحدين، ويحاربون أعداءهم حتى النهاية. وكانوا يعملون بكل ما يملكون من قوى للرد على أية مقاومة، والقيام بالفتح والدعوة. والمطلع على التاريخ العربي منذ البداية، يلاحظ معارضتهم دائماً للدفاع، وتبنّيهم أسلوب العمليات الهجومية، وحرصهم على تحقيق الألفة والمحبة والوحدة بين القوى المحاربة، رغم انتمائها إلى مناطق واسعة، تشملها الدولة العربية الإسلامية كلها، وإظهار حماسة الجيش ونشاطه، وتأكيد الوحدة والتلاحم بين الجيش والشعب، وتقديم المعونة والتموين إلى القوات المسلحة بطرق مناسبة، وتطبيق مبدأ المساواة، وإقامة الثغور وتحصينها، وكان عملهم هذا يعني إعداد الأمة كلها للمساهمة في الحرب.

ويمكن القول: إن أهداف السياسة العربية كانت تتمثل في سحق المقاومة الداخلية والخارجية أينما وجدت، وتجريدها من السلاح والعقيدة، وإعداد كامل القوى البشرية، ونهج سياسة عسكرية ـ اقتصادية ـ اجتماعية، غايتها تحسين معيشة الشعب، وتحقيق وحدة الدولة.

التعبئة والحرب: الحرب عمل عنيف، يحصل بين خصمين، يهدف كل منهما إلى إكراه الآخر على التخلي عن سياسته، ونزع سلاحه، وإجباره على تنفيذ هدف المنتصر وإرادته. والحرب بهذا المعنى لا تختلف عن المبارزة بين خصمين. ففي المبارزة يحاول كل من الخصمين، بواسطة قوته العضلية وقدرته العقلية وحركته ومرونته، إخضاع الآخر لإرادته. وتكون الغلبة في الحرب إلى جانب من يملك القوة (المادية والمعنوية)، ويحسن تعبئتها واستخدامها لقهر إرادة الخصم وإخضاعه.

ويضع كل واحد من الخصمين المتحاربين لنفسه قانوناً، يعمل بموجبه ضد الطرف الآخر. وهذا القانون يصعد الأمور بين الخصمين إلى حالة الحرب. والخصم الذي يستطيع أن يملي قانونه وإرادته على الآخر، هو الذي ينتصر. ويتم ذلك بعملية تقدير نوايا الخصم، ووضعه، وحالته، وإمكاناته، وتفاعله مع هذه الإمكانات ودرجة إتقانه لاستخدامها، ومعنوياته، وقوة إرادته. والقيام بعد ذلك بتكثيف الجهد، حتى يتم التفوق، الذي يضمن النصر.

والوقت في هذا المجال من الأمور المهمة لفرض الإرادة. فإذا كانت عملية الإعداد والتعبئة قد وصلت إلى مرحلة، تسمح بفرض الإرادة، يصبح من الضروري اختيار الوقت الملائم لبدء العمل، وتحديد مسرح العمليات، وتجميع القوى المناسبة، وتعيين قيادة عسكرية قادرة على تحقيق النصر، ومتابعة العمل على رفع المعنويات وتأمين إمداد الجند بكل مستلزمات الحرب. بعد تحقيق ذلك، يحدث الصدام. وتكون الغاية منه تجريد الخصم من السلاح وتدمير اقتصاده، بحيث يغدو عاجزاً عن المجابهة. ولا تنفجر الحرب بصورة مفاجئة، ولا بد لها من مسببات. ويتطلب قرار الحرب وقتاً، تجمع خلاله المعلومات، وبوجود هذا الوقت، يستطيع كلا الخصمين أن يكوّن عن خصمه رأياً، يساعده على مواجهته.

والتعبئة لا تنتهي في مرحلة واحدة، وضمن فترة زمنية قصيرة. فهي عمل مستمر ومتصاعد، وإذا استخدم أحد الطرفين المتصارعين الوسائط المتوافرة لديه كلها دفعة واحدة، لصالح نتيجة حاسمة واحدة، تعذر عليه التذكير في عمل حاسم مرة ثانية. والحقيقة أن طبيعة القوات، وإعدادها، واستخدامها، تجعل من غير الممكن استخدامها دفعة واحدة، ويدخل في تحديد هذه الإمكانية عدة عوامل: كوضع القوات نفسها، والأرض، وتجمع السكان أو انتشارهم وحالة الإعداد للحرب. يضاف إلى ذلك حالة الدول المجاورة لكلا الخصمين، ومدى تأثيرها السلبي أو الإيجابي على الطرفين.

ولا يمكن تعبئة البلد بكامله دفعة واحدة، إلا إذا كان صغيراً وصغيراً جداً، كما أن بعض وسائط الصراع لا يمكن استخدامها فوراً. واعتماد طول الأمد قد يكون ضرورياً. صحيح أن لجمع القوات في وقت واحد أثراً سلبياً في بعض الحالات، ولكنه يسمح بتحقيق عمل حاسم، يكون له تأثير قوي على مجرى الحرب، ومن هنا تأتي أهمية إيجاد الصيغة المناسبة لكل وضع من الأوضاع،

والاختيار بين التعبئة السريعة اللازمة لتحقيق الحسم المباشر، والتعبئة المتصاعدة المستمرة طويلة الأمد، التي تضمن الحسم على المدى البعيد.

التعبئة والسياسة: يتحقق الهدف الرئيسي للحرب بنزع سلاح الخصم وفرض الإرادة عليه، وذلك عن طريق تدمير قواه العسكرية، واحتلال أرضه، وقتل إرادة الصراع في شعبه. وهذا يعني أن تحقيق هذه السياسة، يتطلب تدمير القوات العسكرية المعادية، ووضعها في ظروف، تجعلها عاجزة عن متابعة القتال، والعمل على احتلال الأرض، بحيث يمكن استخدامها والاستفادة منها في تشكيل قوى عسكرية جديدة، أو لكي تكون مسارح العمليات فوقها. وعلى الرغم من أهمية احتلال الأرض، فإنه لا يؤدي بالضرورة إلى إيقاف الحرب، ولكنه يساعد على إنهاك قوى الخصم، وإضعاف اقتصاده، وقتل إرادته، وإجباره على توقيع السلام حسب الشروط، التي يمليها عليه الخصم، ولا تخدم إلا أهداف المنتصر.

والحقيقة أن السعي إلى تدمير قوى الخصم المادية أو احتلال أراضيه، ليس سوى وسيلة لقهر إرادته أو استنزافها، كمدخل إلى تحقيق الهدف السياسي، الذي يشكل هدف الحرب وسبب اندلاعها. ولضمان تحقيق هذا الهدف، لابد من الحصول قبل الحرب على مجموعة معلومات، تتعلق بالعدو (أرضه، قواته، شعبه، اقتصاده، أوضاعه السياسية والاجتماعية)، والعمل على تأكيد هذه المعلومات وتدقيقها خلال وقت كاف. ومن الضروري التركيز بشكل خاص على التركيبين الاجتماعي ـ السياسي للشعب المعادي، ومعرفة مدى تلاحمه مع قياداته، ومدى تفاعله مع أهداف الحرب، كما تطرحها هذه القيادات، بغية تحديد قدرته على الصمود وبذل التضحيات، تحت لواء قياداته، ومن أجل الأهداف التي يتم الصراع لتحقيقها.

والحقيقة أنه كلما كان الهدف السياسي عاملاً مسيطراً، كلما كان حاسماً. ومن الواجب أن يكون الهدف الحربي لخدمة الهدف السياسي، وليس بديلاً عنه، حتى لا يتضاءل بصورة عامة ويفقد محتواه. فإذا تسلح خصمان من أجل القتال، فمعنى ذلك أن عداءً عنيفاً قد دفعهما إلى هذا التسليح لتحقيق أهدافهما، وجعل كلا منهما يعمل على تحقيق هدفه عن طريق العمل العسكري. وقد يكون في مصلحة أحدهما الإقدام وبسرعة على العمل العسكري، بينما يكون التريث والانتظار في مصلحة الآخر. وكل واحد منهما يخضع لأسباب وظروف، تفرض عليه القيام، بما يقوم به.

من هذا نلاحظ: أن التوازن التام بين الخصمين، قد لا يكون سبباً في إيقاف العمل العسكري، والوصول إلى الهدف السياسي. والطرف المهاجم في الحرب هو المستفيد، فهو الذي يجعل عمله العسكري إيجابياً، ويفرضه. ويستفيد في هذه الحالة من انتظار خصمه وتريثه، ويحصل على المبادأة. والحرب أداة السياسة، وهي بالفعل استمرار للعلاقات السياسية، وكلما كانت دوافع التعبئة للحرب كبيرة وقوية، كلما كان أثرها على وجود الدولة أكبر.

وكلما ازداد عنف الحرب والتوتر، الذي يسبقها كلما زاد البحث عن وسائل الصراع القادرة على تدمير العدو وقلت المظاهر السياسية للحرب، وعلى العكس من ذلك كانت دوافع التعبئة للحرب ضعيفة وكان التوتر الذي يسبقها محدوداً، بدت الحرب أقرب إلى السياسة، وعلى الرغم من تباين الحالتين، فإن من المتعذر اعتبار الحرب كعمل سياسي وسياسي فقط، أي أنه لا يمكن أن تنشب حرب لأجل الحرب والدمار فقط.

مما ورد يتضح تعلق التعبئة العسكرية (الحربية) بالسياسة والهدف السياسي. وتؤثر طبيعة الحرب وشرعيتها تأثيراً كبيراً على التعبئة الحربية، فإذا كانت طبيعة الحرب عادلة، كان بالإمكان الاعتماد على تعبئة الشعب بأكمله، والحصول على تعاطفه مع أهداف الحرب، أما إذا كانت الحرب غير عادلة، فإن الشعب لا يتحمس لها، وتنخفض نسبة اشتراكه فيها إلى حد بعيد.

وتتبع التعبئة في حالة السلم للسياسة مباشرة، أما في حالة الحرب، فإن مركز الثقل في الصراع ينتقل من أشكاله غير القتالية إلى القتالية، ويأخذ السيف مكان القلم، وتغدو التعبئة في خدمة الحرب. وفي هذه الحالة يكون من واجب السياسة عدم مخالفة قوانين التعبئة العسكرية، لأن عرقلة التعبئة أو عدم التجاوب معها قد يؤدي إلى هزيمة الجيش، وبالتالي إلى خسارة الهدف السياسي.

وفي خلال الحرب، تكون السياسة مجبرة أحياناً على تعديل بعض أعمالها، بما يتناسب مع النتائج المحققة على مسارح القتال، وهكذا تتوقف أشكال الصراع السياسي على مجريات الصراع المسلح. ومن المؤكد أن الصراع السياسي والاقتصادي لا يتوقفان زمن الحرب. ومن واجب السياسة ـ نتيجة تقديرها للموقف العسكري المتشكل ـ اختيار أنسب الأوقات لبدء الحرب، مع الأخذ في الاعتبار وجهة نظر القادة العسكريين.

إن من المتعذر فصل الحرب ـ وبالتالي التعبئة ــ عن السياسة. وكلما كانت السياسة قوية وعظيمة كانت التعبئة العسكرية كذلك. والسياسة عمل فكري، والحرب أداتها، وليس العكس. ويمكن إلحاق وجهة النظر العسكرية بالسياسة، وما إدارة الحرب سوى سياسة تستخدم المدفع بدلاً عن الكلمة. لكن كون الحرب وسيلة من وسائل السياسة لا يمنعها من تطبيق قوانينها الخاصة، التي لا تتطابق بالضرورة مع قوانين السياسة.



الفصل الثاني

ممارسة التعبئة

- ممارسة التعبئة في عهد الرسول (ص).
- ممارسة التعبئة في فتح الشام.
- ممارسة التعبئة في فتح العراق.



الفصل الثاني

ممارسة التعبئة

• ممارسة التعبئة العسكرية في عهد الرسول ﷺ:

١ ـ ملامح التعبئة العسكرية في غزوات الرسول (ص): لقد تقدمت التعبئة في زمن النبي (ص) استناداً إلى أسس، وضعها بنفسه، وهي:

١ ـ إقامة مجتمع إسلامي موحد.

٢ ـ إشراك أكبر جزء من العرب المسلمين في المعارك ضد العدو، وتنظيم التعاون بينها بشكل كامل ومنسق.

٣ ـ حشد القوات في المكان الحاسم والوقت والمناسب.

٤ ـ استخدام المناورة بأشكالها المختلفة.

ولقد أثبتت ممارسة التعبئة من قبل الرسول (ص): أنه كان أعظم المصلحين العسكريين صلابة في التفكير، ومتابعة للبرنامج، الذي يرسمه لعمله، وإصرارا على متابعة العمل، مهما كانت العقبات، التي يصادفها. وكان يحرص على إيجاد توازن بين الإنتاج الاقتصادي والقوة العسكرية، بغية تحقيق عملية الاستمرار للوصول إلى هدف التعبئة، ويعمل على تشجيع عملية الإعداد العسكري وتنظيمه، ويشجع الابتكار والمبادأة، ويحارب كمدافع، عندما يكون أقل قوة من عدوه، أو عندما يقدم له

الوقت نفعاً وفائدة، ثم يبادر إلى الهجوم عند تبدل موازين القوى، ويعتني بأحوال المقاتلين وإعدادهم وتقديم ما يحتاجونه في السلم والحرب.

ولقد اتخذ الرسول (ص) المدينة معسكراً له بعد الهجرة، ومنها أخذ يبث سراياه فيما حولها وعلى الطرق التجارية المؤدية إلى مكة، لتهديد تجارة قريش وجمع المعارف الكافية عن تحركها، كما أنه كان يخرج أحياناً لقيادة الغزوات بنفسه تاركاً في المدينة أحد أصحابه خليفة عليها[1]. وأول السرايا، التي بثها الرسول (ص) حول المدينة سرية حمزة بن عبد المطلب[2] في ثلاثين فارساً، ثم سرية عبيد بن الحارث[3]، وكانت في ستين أو ثمانين، وفيها رمى سعد بن أبي وقاص أول سهم في الإسلام، ثم غزوة بواط[4]، وكان عليها رسول الله (ص) ثم غزوة العشيرة[5]، ثم غزوة سفوان[6]، وهي غزوة بدر الأولى. وفي كل ما مر لم يحدث قتال، حتى كانت سرية عبد الله بن جحش[7] في ثمانية من المسلمين، وكانت مهمتها الاستطلاع، وفيها كتب إليه رسول الله (ص) كتاباً، يأمر ألا ينظر فيه حتى مسير يومين، فلما كان ما أمر به، فتح الكتاب فإذا فيه:

«إذا نظرت في كتابي هذا، فامض، حتى تنزل نخلة بين مكة والطائف، فترصد بها قريش، وتعلم لنا من أخبارهم»[8].

فمضى عبد الله، حتى نزل النخلة، فمرت بعير، تحمل تجارة قريش، وعليها عمر بن الخضرمي وكان بينهما قتال خلافاً لما أراده رسول الله (ص)، حيث رمى واقد بن عبد الله التميمي عمر بن الحضرمي بسهم، فقتله. وأسر المسلمون عثمان بن عبد الله والحكم بن كيسان، وأقبل عبد الله بن جحش وأصحابه بالبعير، وما عليها من تجارة، وبالأسيرين،

---

[1] ابن الأثير ـ الكامل في التاريخ ـ ج٢ ـ ص١١٣ ـ ابن هشام السيرة ـ ج٢ ـ ص٥٩١ ـ الطبري ـ تاريخ الرسل والملوك ـ ج٢ ـ ص٤٠٧.

[2] المرجع نفسه ـ ج٢ ـ ص١١١ ـ ابن هشام السيرة ـ ج٢ ـ ص٥٩٥ ـ الطبري ـ تاريخ الرسل والملوك ـ ج٢ ـ ص٤٠٢.

[3] المرجع نفسه ـ ج٢ ـ ص١١١ ـ ابن هشام السيرة ـ ج٢ ـ ص٥٩١ ـ الطبري ـ تاريخ الرسل والملوك ـ ج٢ ـ ص٤٠٤.

[4] المرجع نفسه ـ ج٢ ـ ص١١٢ ـ ابن هشام السيرة ـ ج٢ ـ ص٥٩٧ ـ الطبري ـ تاريخ الرسل والملوك ـ ج٢ ـ ص٤٠٥.

[5] المرجع نفسه ـ ج٢ ـ ص١١٢ ـ ابن هشام السيرة ـ ج١ ـ ص٥٩٨ ـ الطبري ـ تاريخ الرسل والملوك ـ ج٢ ـ ص٤٠٨.

[6] المرجع نفسه ـ ج٢ ـ ص١١٢ ـ ابن هشام السيرة ـ ج١ ـ ص٦٠٠ ـ الطبري ـ تاريخ الرسل والملوك ـ ج٢ ـ ص٤٠٦.

[7] المرجع نفسه ـ ج٢ ـ ص١١٣ ـ ابن هشام السيرة ـ ج١ ـ ص٦٠١ ـ الطبري ـ تاريخ الرسل والملوك ـ ج٢ ـ ص٤١٠.

[8] ابن هشام ـ السيرة النبوية ص ٢٣٩.

حتى قدموا على رسول الله(ص). وكانت السرايا تستهدف تعميق الفكرة، وتثبيت العقيدة، وتدريب العرب المسلمين على ظروف قاسية، واختبارهم، وتعليمهم الصبر والمقاومة، واكتساب المعارف حول طبيعة القتال وفنه وأصوله.

ولقد كانت هذه السرايا والغزوات (التي لم يحدث بها قتال) امتحاناً واضحاً وقاسياً، اجتازوه بنجاح، مما ساعدهم على الانتصار بعد ذلك في معركة بدر.

٢ ـ غزوة بدر (٢ هـ ، ٦٢٤ م):

أراد الرسول القضاء على الإمكانات الاقتصادية لقريش، كوسيلة من وسائل إضعاف قدرتها العسكرية. ولقد وجد الفرصة مناسبة، عندما علم بالقافلة، التي يقودها أبو سفيان، حيث كان يقدر ما تحويه بخمسين ألف دينار من البضائع، يحملها ألف بعير. وكان ضرب هذه القافلة، ومعها قائد قريش وزعيمها أبو سفيان، وما يقدر بستة وثلاثين رجلاً من أشراف قريش، لا يشكل ضربة لاقتصاد قريش فحسب، بل يؤدي أيضاً إلى إضعاف مركزها العسكري، وزيادة القدرة الاقتصادية للمسلمين، ورفع روحهم المعنوية.

وما إن علم قائد القافلة أن النبي خارج لقتاله، حتى أخبر قريشاً، فهبت لقتال المسلمين بألف رجل، من بينهم ١٠٠ فارس و ٧٠٠ بعير، وكان مقاتلو المسلمين ٣٠٠ (٣٣) من المهاجرين، و٦١ من الأوس، و٢٠٦ من الخزرج)، إلا أن القافلة مرت، دون أن يعترضها الرسول (ص).

وعبأ النبي أصحابه، وسار بهم، حتى أصبح قريباً من الصفراء، وهناك أرسل بسبساً بن عمرو، وعدي بن أبي الزغباء يستطلعان له الأخبار عن أبي سفيان، كما أرسل علياً والزبير يلتمسان له خبر عير قريش، فأسرا رجلين، وعادا بهما إلى المدينة للتحقيق معهما. ولقد تبين من التحقيق: أنهما من سقاة قريش، فسألهما الرسول (ص): أين قريش؟

قالا: هي وراء الكثيب. قال الرسول (ص): كم هم؟

قالا: كثيراً، قال: ما عدتهم؟ قالا: لا ندري! قال: كم ينحرون؟ قالا: يوماً

تسعة إبل ويوماً عشرة، قال صلى الله عليه وسلم: هم بين تسعمائة وألف، ثم استشار أصحابه، فقال بعض الأنصار: «يا رسول الله! إنا لا نقول، كما قالت بنو إسرائيل لموسى: ﴿فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلاَ، إِنَّا هَهُنَا قَاعِدُونَ﴾[1]. ولكن والذي بعثك بالحق، لو ضربت أكبادها. إلى برك العماد ـ يعني مدينة الحبشة ـ لاتبعناك»[2].

ثم قال رسول الله (ص): أشيروا علينا، وهو يريد الأنصار، فقال له سعد بن معاذ: «لكأنك تريدنا، يا رسول الله! قال: أجل، قال: قد آمنا بك، وصدقناك، وشهدنا: أن ما جئت به هو الحق، وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة. فامض، يا رسول الله! لما أردت، فنحن معك، فو الذي بعثك بالحق، لو استعرضت بنا هذا البحر، لخضناه معك، وما تخلف منا رجل واحد، وما نكره أن تلقى بنا عدونا غداً، إنا لصبر في الحرب، صدق في اللقاء، ولعل الله يريك منا ما تقرّ به عيناك فسر بنا على بركة الله»[3].

وسار الرسول (ص) حتى نزل قريباً من بدر، أما أبو سفيان، فقد ترك بدراً يساراً، وسار نحو الساحل مناوراً بذلك، لكي ينجو بمن معه، وأرسل إلى قريش يخبرهم: أن قافلتهم قد نجت، وأن بإمكانهم العودة. فقال أبو جهل: لن نرجع، حتى نرد بدراً، حيث كانت موسما من مواسم العرب، تجتمع فيها. ونزلت قريش بالعدوة القصوى من الوادي، ونزل المطر بشدة وقوة، فلم يمنع الرسول (ص) وصحبه من المسير، أما قريش، فلم يقدروا أن يرحلوا، فخرج رسول الله(ص) يبادرهم إلى الماء، حتى نزل لأدنى ماء ببدر.

فسأله الحباب بن منذر: يا رسولَ الله(ص) أما في الحكمة أن نتقدم أو نتأخر، أم أن اختيار هذا المكان هو الرأي والحرب والمكيدة، قال النبي: (ص) هذا الرأي والحرب والمكيدة. فرد الحباب ابن المنذر: بأن ذلك المكان غير مناسب، وأشار على النبي أن يغير مكانه بقوله: «يا رسول الله! فإن هذا ليس بمنزل، فانهض بالناس، حتى تأتي أدنى ماء من القوم، فننزله، ثم نعور ما وراءه من القُلُب[4] (ماء من القوم)، فننزله، ونبني عليه حوضاً، فنملؤه ماء، ثم نقاتل القوم، فنشرب،

---

[1] سورة المائدة ـ الآية / ٢٣.

[2] ابن كثير ـ الحافظ بن كثير ـ البداية والنهاية ـ طبع بيروت ـ مكتبة المعارف ـ ١٩٧٧ ج٣ ـ ص٢٦٣.

[3] من أيام العرب في الإسلام ـ طبع بيروت ـ دار إحياء الكتب العربية ـ ص١٣.

[4] المقصود به البئر.

ولا يشربون»[1].

بعد ذلك نهض الرسول (ص) بمن معه، ونزل أدنى ماء من قريش، وطلب إلى من معه أن يبنوا حوضاً، يحمونه، ويحولون الماء إليه، لكي يستغلوه وحدهم دون قريش، كما أمرهم بردم ماء بدر، ومكان يجمع مياه بئره سابقاً. ثم إن الرسول حدد مكان قيادته، فبنى له أصحابه خيمة كمقر قيادة، وترك حوله عدداً من المسلمين بقيادة سعد بن معاذ، يحمونه.

ونزلت قريش بدراً، وصممت، ألا ترجع. وبدأت الحرب بمبارزة بين الطرفين. وكان رسول الله(ص) قد أمر أصحابه: ألا يحملوا، حتى يأمرهم. وقال لهم يحرضهم، حتى تزداد قدرتهم وإيمانهم بالجهاد في سبيل الله ونصرة دينه محدداً لهم طريقة القتال. . (إن اكتنفكم القوم فانضحوهم عنكم بالنبل)[2] أي إن أحاط بكم أعداؤكم، فدافعوا عن أنفسكم، وادفعوهم بما تملكون من سهام بالرمي عليهم.

ثم أمرهم رسول الله (ص) بالهجوم، وأخذ يحرضهم ويقول: «**والذي نفس محمد بيده، لا يقاتلهم اليوم رجل، فيقتل صابراً محتسباً مقبلاً غير مدبر، إلا أدخله الله الجنة**»[3] وشد عليهم المسلمون شدة رجل مقبلين غير مدبرين، حتى كانت هزيمة قريش وقُتل، وأسر عدد منهم، فكان هذا الانتصار بداية الانتصارات وفتح الجزيرة، واستوصى النبي (ص) بالأسرى خيراً، حتى كان فداؤهم.

لقد كان من نتائج بدر المباشرة، ازدياد ثقة أصحاب النبي (ص) بأنفسهم، وتدهور معنويات قريش، وانضمام العديد من القرشيين إلى صفوف الإسلام. وفيها تقررت كيفية توزيع الغنائم بعد النصر، وأسلوب معاملة الأسرى. وظهرت عبقرية الرسول الحربية في بدر، كما ظهرت أساليبه العملية في التعبئة وهي:

- الاستطلاع الجيد قبل القتال، وجمع المعلومات بمختلف الوسائل، وتحليلها بصورة دقيقة.
- استشارة أهل الرأي والخبرة.

---

[1] أيام العرب في الإسلام - ص١٧ - الطبري - تاريخ الرسل والملوك - ج٢ - ص٤٤٠.

[2] أيام العرب في الإسلام - ص٢٠ - اكتنفكم القوم - أحاطوا بكم - انضحوهم - ادفعوهم.

[3] ابن الأثير - الكامل في التاريخ ج٢ - ص١٢٦.

ـ رفع معنويات المقاتلين وتشجيعهم على القتال لتحقيق النصر أو بلوغ الشهادة.

ـ تأمين المتطلبات الإدارية للقوات (في هذه الحالة تأمين المياه) قبل القتال وخلاله، ومنع العدو من الحصول على حاجاته من الماء.

ـ متابعة تفتيت العدو معنوياً، وذلك بإظهار أخلاقيات المسلمين في القتال (دفن قتلى العدو ومنع التمثيل بهم، معاملة الأسرى برأفة).

٣ ـ غزوة أحد (٣هـ): تابع الرسول (ص) فرض الحصار الاقتصادي على قريش، وذلك بقطع طريق تجارتها مع بلاد الشام، ولجأت قريش إلى تبديل طريق القوافل وإتباع طريق العراق، إلا أن ذلك لم يمنع المسلمين من التعرض للقوافل على الطريق الجديدة (سرية زيد بن حارثة) مما دفع قريشاً إلى الإعداد لمعركة جديدة، تستهدف استعادة زمام المبادرة بعد هزيمة بدر، وضرب القوة الإسلامية، التي تهدد قوافل مكة التجارية.

وبينما كان المشركون يستعدون للجولة القادمة، قام الرسول (ص) بعدة غزوات تكتيكية (غزوة بني قينقاع، غزوة الكدر..) الغرض منها ترسيخ السيطرة على المناطق المجاورة للمدينة المنورة، والاستمرار في تعبئة القوات وتطوير جاهزيتها القتالية. وقامت قريش بعد بدر بالتعبئة المادية والمعنوية ضد الرسول (ص)، وتمكنت من جمع ثلاثة آلاف مقاتل (منهم ٧٠٠ دارع و٢٠٠ فارس). واتجهت هذه القوة نحو المدينة بقيادة أبي سفيان، وكانت ميمنتها بقيادة خالد بن الوليد وميسرتها بقيادة عكرمة بن أبي جهل، واللواء مع طلحة بن أبي طلحة.

ولما علم الرسول (ص) بذلك خرج لملاقاة الخصم في ألف رجل، بعد أن ندب الناس لقتال قريش، واستخلف على المدينة[1] عبد الله بن أبي بن سلول الأنصاري. ولما وصل النبي (ص) بين المدينة وأحد، عاد عبد الله بن أبي بثلث، فبقي الرسول (ص) في سبعمائة، فسار، حتى نزل بعدوة الوادي، وجعل ظهره وعسكره إلى أحد، ثم حدد لهم تعليمات قتال، بألا يقاتلوا حتى تأتيهم أوامره، ثم حدد للرماة مكاناً، ووضع عليهم عبد الله بن جبير، وقال له: «انضح الخيل عنا بالنبل، لا يأتون من خلفنا. وإن كانت لنا أو علينا، فاثبت مكانك، لا نؤتين من قبلك»[2] وكانت

---

[1] ابن هشام ـ السيرة النبوية ـ المجلد الثاني ـ ص٢٠٩.

[2] أيام العرب في الإسلام ـ ص٣٤.

تعبئة جيش المسلمين، كما يلي:

الرسول (ص) في قيادة القلب، والزبير بن العوام على الميمنة، والمقداد بن الأسود على الميسرة، وعبد الله بن الجبير على الرماة لحماية المؤخرة.

وبدأت المعركة بمبارزة بين طلحة وعلي، أسفرت عن مقتل طلحة، بعد ذلك احتدم القتال، وتمكن عبد حبشي من قتل حمزة عم الرسول (ص)، ودارت المعركة في البداية على أبي سفيان وأصحابه، وهربت النساء إلى جبل قريب، ودخل المسلمون معسكر عدوهم. في هذه اللحظة الحرجة من المعركة، فارق بعض رماة المسلمين مكانهم. وكان رسول الله (ص) قد قال لهم: «لا تبرحوا أماكنكم، إن رأيتم: أننا قد هزمناهم، فإننا لا نزال غالبين ما ثبتم مكانكم»[1].

ورأى خالد بن الوليد تفرق المسلمين، وخاصة الرماة، فحمل على المسلمين من الخلف. وكر المشركون على القوة الإسلامية. التي فاجأتها هجمة خالد بن الوليد المباغتة، وأربكتها. وجرح الرسول إبان المعركة، وانتهى القتال بانتصار جيش قريش، ورجع أبو سفيان منصوراً، وهو يقول للمسلمين: إن موعدكم العام المقبل. فبعث الرسول (ص) علياً بن أبي طالب في إثرهم وقال له: «إن ركبوا الخيل، وساقوا الإبل، فإنهم يريدون المدينة، والذي نفسي بيده، لئن أرادوها، لأسيرن إليهم فيها، ثم لأناجزنهم»[2] قال علي: «فخرجت في أثرهم، فامتطوا الإبل، وتجنبوا الخيل، يريدون مكة. ثم دفن المسلمون شهداءهم، وعادوا إلى المدينة. ويمكن أن نستخلص من هذه المعركة الدروس التالية:

* أهمية حشد القوى المادية والمعنوية، وضرورة تنفيذ الحشد السريع في المكان المناسب.
* دور المواقع، وأهمية التمسك بها، وتأثير ذلك على سير القتال.
* فاعلية الحركة المباغتة، وتسديد الضربة في النقاط غير المتوقعة (حركة خالد بن الوليد).

٤ ـ غزوة الخندق (٥ هـ): وسبب غزوة الخندق أن مجموعة من اليهود، حزبوا الأحزاب ضد الرسول (ص) فجاؤوا مكة، ودعوا قريشاً إلى حربه، فأجابوهم إلى طلبهم، وقدموا

---

[1] الطبري ـ تاريخ الرسل والملوك ـ ج٢ ـ ص٥٠٩.

[2] ابن هشام ـ السيرة النبوية ـ ج٣ ـ ص٤٥-٤٦.

على غطفان، فأنجدوهم، فأصبح الرسول (ص) أمام جبهتين: جبهة قريش الخارجية، ويقودها: أبو سفيان، وجبهة داخلية، تمثلت بيهود بني النضير، منهم عبد الله بن سلام وحي بن أخطب، وكنانة ابن الربيع، وغطفان وبني فزارة وبني مرة ومسعد بن زحيلة الأشجعي في الأشجع. فلما سمع بهم الرسول (ص)، استشار أصحابه، فأشار عليه سلمان الفارسي: بحفر الخندق لخوض معركة دفاعية. فأمر بحفره، بعد أن قسمه على المسلمين، حيث جعل لكل عشرة منهم أربعين ذراعاً. فكان سلمان، ومعه تسعة، يحفرون، حيث كسر معولهم على صخرة، ظهرت لهم، فأخبروا الرسول (ص) فهبط إلى الصخرة، ومعه سلمان الفارسي، وضرب الصخرة بمعول، فصدعها، وأضاءت ما بين لابتي المدينة، ثم ضربها ضربة ثانية ثم ثالثة. فسأله سلمان عما رأى من البرق، فقال الرسول (ص): في الضربة الأولى: أضاءت الحيرة وقصور كسرى، وفي الضربة الثانية: أضاءت القصور الحمر في أرض الشام والروم، وفي الضربة الثالثة أضاءت قصور صنعاء. وإن الأمة الإسلامية ظاهرة على ما ذكر. وفي ذلك توضيح لاستراتيجية الرسول (ص) العسكرية ومداها.

وأقبلت قريش في عشرة آلاف، وتوزعوا حول المدينة، إلى ثلاث مجموعات: واحدة: بقيادة ابن الأعور السلمي، والثانية، بقيادة عتيبة بن حصين، والثالثة: بقيادة أبي سفيان. وبدأ حصار المدينة من جميع الجهات. وكان لهم داخل المدينة حلفاء أقوياء، هم يهود بني قريظة، الذين كانوا على حلف مع المسلمين، ثم نقضوا ذلك الحلف بعد تحزب الأحزاب، وقرروا الانضمام إلى معسكر العدو.

وكان المسلمون المدافعون عن المدينة في ثلاثة آلاف، فجعلوا ظهورهم إلى سلع، ثم وضع المؤخرة، وفيها النساء في حصن هناك. وخلال ذلك بعث رسول الله (ص) إلى قائدي غطفان[1] عيينة بن حصن - والحارث بن عوف، فأعطاهما ثلث ثمار المدينة، إن رجعا بمن معهما، فأجابا إلى ذلك، وفي هذا انتصار تكتيكي أولي. وبعد هذا أقبل فوارس من قريش، منهم عمرو بن ود، واقتحموا مكاناً ضيقاً من الخندق، وطلب عمرو المبارزة، فبرز إليه علي بن أبي طالب، وقتله[2].

ثم جرت فرقة في قريش نتيجة إسلام نعيم بن مسعود الأشجعي، الذي قال له رسول الله

---

(1) ابن كثير - البداية والنهاية - ج٤ - ص١٠٤.

(2) ابن هشام - السيرة النبوية - المجلد الثاني - ص٢٢٥.

(ص)، بعد أن اشتد حصار قريش للمسلمين، واشتد خوفهم منها، وأذاها لهم: إنما أنت رجل واحد، فتخذل عنا ما استطعت، فإن الحرب خدعة[1]. فخرج نعيم حتى أتى بني قريظة، وكان لهم صديقاً في الجاهلية فقال لهم: «قد ظاهرتم قريشاً وغطفان على حرب محمد، وليسوا مثلكم، البلد بلدكم، به أموالكم وأبناؤكم ونساؤكم، لا تقدرون على أن تتحولوا منه، إن قريشاً وغطفان إن رأوا نزهة وغنيمة أصابوها، وإن كان غير ذلك لحقوا ببلادهم، وخلوا بينكم وبين محمد، ولا طاقة لكم به، فلا تقاتلوا، حتى تأخذوا منهم رهناً من أشرافهم ثقة لكم، حتى تناجزوا محمداً (ص). قالوا: أشرت بالنصح»[2].

ثم خرج، حتى أتى قريشاً، فقال لهم: «قد بلغني أن قريظة ندموا، وقد أرسلوا إلى محمد (ص): هل يرضيك عنا أن نأخذ من قريش وغطفان رجالاً من أشرافهم، فنعطيكم إياهم، فنضرب أعناقهم، ثم نكون معكم على من بقي منهم؟ فأجابهم: أن نعم. فإن طلبت قريظة منكم رهناً من رجالكم، فلا تدفعوا إليهم رجلاً واحداً»[3]. وقال لغطفان، وهم أهله وعشيرته، مثلما قال لقريش، وأوقع بينهما بتلك المكيدة.

وأرسل أبو سفيان إلى قريظة عكرمة بن أبي جهل، ومعه نفر من قريش وغطفان، يطلب إليهم، أن يغدوا للقتال، وكان ذلك اليوم يوم سبت، فكان حجة لهم، حيث قالوا: «إنا لا نعمل في السبت ولا نقاتل، حتى نأخذ رهناً منكم ثقة». فلما علمت قريش وغطفان، تأكدتا من صدق نعيم، ورفضتا تقديم الرهائن. واختل بذلك تحالف العدوين الخارجي والداخلي. وأصبحت مهمة الدفاع عن المدينة المنورة أكثر سهولة.

وبينما هم كذلك، هبت رياح عاصفة شديدة البرودة، فكانت تطفئ نار المشركين، وتقلب قدورهم، وترمي بيوتهم، التي أقاموها حول الخندق، وكان الرسول (ص) أثناء ذلك قد بعث حذيفة بن اليمان، يستطلع له الخبر عن أعدائه، فدخل فيهم، بعد أن قررت قريش العودة إلى مكة، وفعلت مثل فعل قريش، فرجع، وأخبر الرسول (ص) بذلك.

---

[1] ابن الأثير - الكامل في التاريخ - ج٢ - ص١٨٢.

[2] المرجع نفسه - ج٢ - ص١٨٣.

[3] المرجع نفسه - ج٢ - ص١٨٣.

ومما لا شك فيه: أن عدم اختيار الطقس المناسب للعمليات الهجومية، كان من أسباب اندحار المشركين في معركة الخندق. وساعد المسلمين الذين تبنوا خطة دفاعية، تتضمن تحصين المدينة، والانتظار داخلها، مع الاحتفاظ بكل مستلزمات المقاتلين من تسليح وتموين طيلة فترة الحصار. وبالإضافة إلى ذلك فقد فاجأ المسلمون عدوهم باستخدام وسائل دفاعية، لم يعهدها، فضعفت هزيمته القتالية. وطبق الرسول (ص) مبدأ: (الحرب خدعة)، بما فعله نعيم بن مسعود مع بني قريظة وغطفان، وتمكن بذلك من زرع التفرقة بين قادة الأحزاب وتحييد الخصوم الداخليين، ومنعهم من التعاون مع الخصوم الخارجيين، (سواء عن طريق الاشتراك معهم في القتال ضد المسلمين، أو عن طريق التأثير على إمداد القوات الإسلامية المدافعة).

وبفضل تضافر هذه التدابير، وارتفاع الروح القتالية لدى المسلمين، وتماسكهم التام خلال الحصار، وتنفيذهم الدقيق لتعليمات القيادة المركزية وأوامرها، انتهت معركة الخندق باندحار المشركين، رغم تفوقهم العددي الأولي بنسبة تزيد على ٣ إلى واحد.

٥ ـ غزوة مؤتة (٨ هـ): وقعت قبل فتح مكة مجموعة من الغزوات، أهمها غزوة مؤتة. وسببها: أن الرسول (ص) كان قد أرسل رسولاً إلى أمير بصرى، وبعث معه كتاباً. فلما وصل الرسول إلى مؤتة، لقيه شرحبيل بن عمرو الغساني، وعندما علم منه أنه رسول محمد إلى الشام، أوقفه ثم ضرب عنقه. ولما وصل الخبر إلى محمد (ص)، بعث إلى مؤتة قوة، قوامها ثلاثة آلاف مقاتل[1] وكان يقودها زيد بن حارثة، وأوصى من بعده لجعفر بن أبي طالب، ثم لعبد الله بن رواحة، وخرجوا، حتى نزلوا معان من أرض الشام، فبلغهم: أن أعداءهم الروم في مائة ألف رجل[2] ثم مائة ألف من قبائل لخم وجزام وبهراء. فقال عبد الله بن رواحة عند ذلك: «يا قوم! والله إن الذين تكرهون للذي خرجتم تطلبون الشهادة، وما نقاتل الناس بعدد ولا قوة ولا كثرة، ما نقاتلهم إلا بهذا الدين، الذي أكرمنا الله به، فانطلقوا، فإنما هي إحدى الحسنيين، إما ظهور وإما شهادة»[3].

---

[1] الحلبي ـ علي بن برهان الدين الحلبي ـ السيرة الحلبية ـ ج٣ ـ ص٦٦.

[2] المرجع نفسه ـ ج٣ ـ ص٦٦.

[3] الطبري ـ تاريخ الرسل والملوك ـ ج٣ ـ ص٣٧-٣٨.

وتحرك المسلمون إلى تخوم البلقاء، ثم إلى مشارف، وانحاز المسلمون إلى مؤتة، وتعبأ المسلمون، فكان على الميمنة قطبة بن قتادة، وعلى الميسرة عبابة بن مالك، وفي القلب زيد بن حارثة، ومعه الراية. وبدأ القتال بين الطرفين. فقاتل زيد، حتى قتل، ثم استلم الراية جعفر فقاتل، حتى قتل، فاستلمها عبد الله بن رواحة، فقاتل، حتى قتل، ثم أخذ الراية ثابت بن أقرم وقال: «يا معشر المسلمين! اصطلحوا على رجل منكم. فقالوا: أنت، قال: ما أنا بفاعل. فاصطلح الناس على خالد بن الوليد»[1].

وعندما تسلم خالد بن الوليد القيادة، درس الموقف، فوجد أن الانسحاب في الليل هو أفضل السبل، فغير ترتيب القتال، حيث وضع الميمنة مكان الميسرة، والمقدمة مكان المؤخرة، والمؤخرة مكان المقدمة[2]، كما وضع خلف الجيش مجموعة من الجند، تذر الغبار كخدعة تكتيكية، كي تحمي انسحاب المسلمين، وتحدث جلبة عند طلوع الصباح، حتى يحقق الانسحاب غايته، ويعتقد الخصم بأن قوة كبيرة جاءت لدعم المسلمين. وتم الانسحاب بنجاح، وكان نجاحه في ظل ميزان القوى القائم إنجازاً هاماً، أمن الحفاظ على القوى، في ظروف غير مواتية.

٦ ـ فتح مكة (٨هـ ـ ٦٣٠م): كان بين بني بكر وخزاعة في الجاهلية صراع قبلي قديم، منذ أن قتلت خزاعة مالك بن عبادة من أشراف بني بكر، ورد بنو بكر على ذلك بقتل عدد من رجال خزاعة. فلما جاء الإسلام، أوقف ذلك، وحجز بينهم هذه المآسي، حتى كان صلح الحديبية بين الرسول (ص) وقريش وكان من بنود هذا الصلح: «من أحب أن يدخل في عهدة رسول الله (ص) وعقده، دخل فيه، ومن أحب أن يدخل في عهدة قريش وعهدهم، دخل فيهم. فدخلت بنو بكر في عقد قريش، ودخلت خزاعة في عقد رسول الله (ص)»[3].

واغتنم بنو فدك من بني بكر الهدنة، فخرج أحدهم إلى خزاعة، وأصاب منهم رجلاً، فتقاتلا. ورفدت قريش بني بكر بالسلاح، وقاتل معهم مجموعة من قريش مختفين ليلاً، وانحازت خزاعة إلى الحرم. وكان تصرف قريش ومساعدتها: من دخل عقدها ضد من دخل في عقد محمد (ص)

---

[1] الطبري ـ تاريخ الرسل والملوك ـ ج٣ ـ ص٤٣.

[2] الحلبي ـ السيرة الحلبية ـ ج٣ ـ ص٦٧.

[3] ابن الأثير ـ الكامل في التاريخ ـ ج٢ ـ ص٢٣٩.

وعهده عبارة عن نقض لصلح الحديبية. فخرج عمر بن سالم الخزاعي أحد بني خزاعة إلى الرسول (ص) وقال له: قاتلونا، وقد أسلمنا. فقال له الرسول (ص): نصرت، وا لله. وخرج بديل بن ورقاء في نفر من خزاعة إلى الرسول (ص) فأخبروه بما حدث من مساعدة قريش لبني بكر عليهم ونقضهم العهد، ثم عادوا إلى مكة.

وخرج أبو سفيان زعيم قريش، حتى قدم المدينة، فدخل على ابنته زوج الرسول (ص)، فلم تستقبله، ثم خرج، حتى أتى الرسول (ص) فلم يكلمه، فذهب إلى أبي بكر، فطلب إليه أن يكلم له الرسول (ص) فقال: ما أنا بفاعل، ثم أتى عمر بن الخطاب، فقال: أنا لا أشفع لكم عند الرسول (ص)، فدخل على علي بن أبي طالب، وعنده فاطمة، فقال له علي بن أبي طالب: «ويحك! يا أبا سفيان! وا لله، لقد عزم رسول ا لله (ص) على أمر، ما نستطيع أن نكلمه فيه، فالتفت إلى فاطمة، فقال: أيا ابنة محمد (ص)، هل لك أن تأمري ابنك هذا، فيجير بين الناس، فيكون سيد العرب إلى آخر الدهر؟ قال: وا لله! ما بلغ ابني ذلك، أن يجير بين الناس. وما يجير على رسول ا لله (ص) أحد قال: يا أبا الحسن! إني أرى الأمر، قد اشتد عليّ، فانصحني، فقال له: «يا أبا سفيان! أنت سيد بني كنانة، فقم، واجر، وارجع إلى أرضك»[1] فركب أبو سفيان بعيره، وعاد إلى قريش.

وأمر الرسول (ص) الناس بالاستعداد للمسير، وأخبرهم: أنه يريد مكة، ثم دعا ا لله أن يطمس الأخبار عن قريش، وكان حاطب بن أبي بلتعة أحد المسلمين، قد كتب كتاباً إلى قريش يعلمهم بما عزم عليه الرسول، وأعطاه إلى امرأة فجعلته في رأسها، وخرجت إلى قريش، فخبر بها رسول ا لله (ص)، فبعث علياً بن أبي طالب والزبير بن العوام في طلبها، فأدركاها، وأخذا الكتاب، وعادا إلى الرسول (ص)، فدعا حاطباً، وقال له: ما الذي دفعك لفعل هذا؟ فقال: وا لله إني لمسلم، ما غيرت، ولا بدلت، ولكنه ليس لي، في المدينة قوم، ولا أهل ولا عشيرة، وإنما هم في قريش.

ورغم أهمية مكة كمركز تجاري كبير، ورغم كونها قاعدة أساسية للمشركين، فإن الرسول (ص) لم يكن يفكر بفتحها، حتى لا ينقض عهداً، قطعه على نفسه في صلح الحديبية، وحتى لا تفقد اتفاقاته مصداقيتها بين العرب. ولكن قيام قريش بنقض العهد، جعله في حل من الصلح، ومنحه مبرراً قانونياً وأخلاقياً لبدء القتال.

---

[1] ابن خلدون ـ تاريخ ابن خلدون ـ طبع بيروت ١٩٧١ ـ ج٢ـ ص٤٢.

وحشد الرسول (ص) قواته في المدينة، ثم سار لمقاتلة قريش، بعد أن استخلف على المدينة أبا رهم مكتوم بن حصين بن خلف الغفاري. فنزل على الظهران، وهو في عشرة آلاف من المسلمين. وكان أبو سفيان بن الحارث وعبد الله بن أبي أمية بن المغيرة قد حاولا الدخول إلى محمد (ص) فلم يقبل، إلا أن أبا سفيان بن الحارث، ومعه أحد أبنائه قال: «والله ليأذنن لي، أو لآخذن بيد بني هذا، ثم لنذهبن في الأرض، حتى نموت عطشاً وجوعاً»[1] فأذن له، وأسلم. وخرج الرسول (ص) إلى مكة، وهناك اتخذ ترتيب القتال التالي:

* القائد العام للجيش: محمد بن عبد الله (ص).
* الميمنة: يقودها خالد بن الوليد.
* الميسرة: يقودها الزبير بن العوام.
* الأنصار: يقودهم سعد بن عبادة.
* المهاجرون: يقودهم أبو عبيدة بن الجراح.

وكان أبو سفيان بن حرب وحكيم بن حزام وبديل بن ورقاء قد خرجوا، يتجسسون الخبر عن الرسول (ص)، فالتقوا بالعباس عم الرسول (ص)، فطلب الأمان لأبي سفيان سيد وقائد قريش، فقال له الرسول (ص): «اذهب فقد أمناك، حتى تفدوا به علي بالغد». فلما كان الغد، أتاه أبو سفيان، وأسلم. فقال العباس للرسول (ص): إن أبا سفيان رجل، يحب الفخر فاجعل شيئاً، يستمر معه في قومه، فقال الرسول (ص): «**من دخل دار أبي سفيان، فهو آمن، ومن دخل المسجد، فهو آمن، ومن أغلق عليه بابه، فهو آمن**»[2].

ثم إن الرسول (ص) بعث الزبير بن العوام، وأعطاه رايته، وأمره أن يغرزها بأعلى مكة، وقال له: لا تبرح مكانك، حتى آتيك، ثم أمر خالد بن الوليد أن يدخل مكة من أسفلها، في حين يدخلها المهاجرون من أعلاها، والأنصار من جانبها الغربي.

وقال الرسول لقائدي الميمنة والميسرة: لا تقاتلا، إلا من قاتلكما. فلما دخل خالد من أسفلها، قاتل بني بكر، ودخل مكة. ولم يكن قتال غير ذلك. ودخل الرسول (ص) مكة، ووقف

---

[1] الطبري - تاريخ الرسل والملوك - ج٣ - ص٥٠.

[2] ابن الأثير - الكامل في التاريخ - ج٢ - ص٢٤٥.

على باب الكعبة، وقال: «يا معشر قريش! ما ترون أني فاعل بكم؟ قالوا: خيراً، أخ كريم وابن أخ كريم. قال: اذهبوا، فأنتم الطلقاء»[1].

وتم فتح مكة. وتتابعت الوفود على الرسول القائد، تعرض عليه إسلامها، فدخلت الجزيرة العربية كلها تحت ظل الإسلام في حياة النبي (ص). وجهز الرسول (ص) الجيوش، لكي يوجهها لاستمرار الفتوحات ونشر العقيدة.

كان التصميم على تحقيق الهدف العسكري، وهو دخول مكة، واضحاً بالنسبة إلى المسلمين. ولقد ظهر ذلك بجلاء، عندما أراد أبو سفيان طلب تمديد مدة الصلح. وظهرت حنكة الرسول (ص) السياسية، عندما قرر دخول مكة دون قتال، حتى لا يثير القتال والخراب داخل مكة المشاعر في أرجاء الجزيرة العربية. كما ظهرت هذه الحنكة، والقدرة على تنسيق العمل السياسي مع العمل العسكري، والمهارة في استخدام أساليب الحرب النفسية، عندما أعلن الرسول (ص) أن من دخل دار أبي سفيان، فهو آمن. ومن دخل المسجد فهو آمن، الأمر، الذي كان له وقع نفسي كبير على قريش.

. ممارسة التعبئة في فتح الشام:

١ ـ التعبئة حتى معركة اليرموك: إثر حروب الردة، وبعد أن استقر الوضع السياسي والاقتصادي في الجزيرة العربية، تطلع القادة العرب نحو تحقيق أهداف الاستراتيجية العربية آنذاك، فدعا الخليفة إلى عقد مجلس حربي[2] لمناقشة ذلك، فكان القرار: فتح جبهات قتالية ضد أقوى قوتين عالميتين في تلك المرحلة: جبهة ضد الإمبراطورية الفارسية، وأخرى ضد الإمبراطورية البيزنطية.

وبعد اتخاذ القرار، بدأ الخليفة أبو بكر (رضي) الدعوة إلى التعبئة واستنفار القوى. فقام في الناس، يحثهم على ذلك قائلاً: «إن الله قد أنعم عليكم بالإسلام، وأعزكم بالجهاد، وفضلكم بهذا الدين على كل دين، فتجهزوا عباد الله إلى غزو الروم بالشام، فإني مؤمر عليكم أمراء، وعاقد لهم

---

[1] المسعودي ـ مروج الذهب ـ ج٣ ـ ص٣٠.

[2] ضم هذا المجلس العديد من قادة الحرب منهم ـ عمر بن الخطاب ـ عثمان بن عفان ـ علي بن أبي طالب ـ طلحة بن عبيد الله ـ الزبير بن العوام ـ عبد الرحمن بن عوف ـ سعد بن أبي وقاص ـ أبو عبيدة بن الجراح.

عليكم، فأطيعوا ربكم، ولا تخالفوا أمراءكم، ولتحسن نيتكم وسيرتكم وطعمتكم، فإن الله مع الذين اتقوا، والذين هم محسنون»[1].

وصمت الحاضرون، حتى قام خالد بن سعيد بن العاص، وتوجه إلى الخليفة، وقال: «نحن غير مخالفين لك، ولا متخلفين عنك، وأنت الوالي الناصح الشفيق، ننفر إذا استنفرتنا، ونطيعك إذا أمرتنا، ونجيبك إذا دعوتنا»[2].

ثم خرج خالد بن سعيد، ومعه إخوته وغلمانه، فكانوا أول من عسكر. وأصدر الخليفة أمره إلى بلال: بأن ينفر الناس إلى جهاد الروم في بلاد الشام، ثم دعا يزيد بن أبي سفيان وأبا عبيدة بن الجراح ومعاذ بن جبل وشرحبيل بن حسنة، وأبلغهم أنهم أمراء على الجند، وأن عليهم التوجه نحو بلاد الشام، وأن أبا عبيدة أميرهم، إذا التقوا، وإلا فيزيد بن أبي سفيان. ثم طلب منهم البدء بالاستعداد لتنفيذ المهام.

ومنذ ذلك الحين، بدأ الناس يزحفون باتجاه المعسكر، الذي أقيم خارج المدينة، إلى أن قدم عليهم أبو بكر القائد العام للجيوش العربية، ومعه بعض مساعديه لتفقد حالتهم وإمكاناتهم، وبعد تقديره ومن معه لحالة قواته العسكرية ومقارنتها مع قوة العدو، كان الرأي دعوة أهل اليمن واستنفارهم لذلك. فبعث الخليفة إلى أهل اليمن كتاباً، يحضهم فيه على الحرب في سبيل الله، ويدعوهم لنصرة دينه[3]. فلما وصل الكتاب، وتُلي عليهم، كان من أوائل من استجابوا لذلك: ذو الكلاع الحميري، حيث اجتمع إليه عدد ضخم من أهل اليمن، وسار بهم إلى المدينة، وانضموا إلى معسكر المسلمين. ثم جاء بعده قيس بن هبيرة بن مكشوح المرادي بمن معه. وقرر الخليفة: أن يوجه الجيوش الواحد تلو الآخر. ثم حدد ليزيد مقدمة ومحور حركة (طريق وادي القرى ـ تبوك ـ الجابية ـ دمشق)، وكانت القيادة ليزيد بن أبي سفيان.

وقبل أن يغادر يزيد المعسكر، أعطاه الخليفة أبو بكر آخر التعليمات والتوجيهات: «إذا سرت، فلا تضيق على نفسك، ولا على أصحابك في مسيرك، ولا تغضب على قومك، ولا على

---

[1] الأزدي ـ تاريخ فتوح الشام ـ ص٥.

[2] المرجع نفسه ـ ص٦.

[3] المرجع نفسه ـ ص٨.

أصحابك، وشاورهم في الأمر، واستعمل العدل، وباعد عنك الظلم والجور، فإنه لا أفلح قوم ظلموا، ولا نُصروا على عدوهم. وإذا لقيتم القوم، فلا تولوهم الأدبار، ومن تولهم يومئذ دبره، إلا متحرفاً لقتال، أو متحيزاً إلى فئة، فقد باء بغضب من الله، ومأواه جهنم، وبئس المصير. وإذا نصرتم على عدوكم، فلا تقتلوا ولداًولا شيخاًولا امرأة ولا طفلاً، ولا تعقروا بهيمة، إلا بهيمة المأكول، ولا تغدروا، إذا عاهدتم، ولا تنقضوا، إذا صالحتم. وستمرون على قوم في الصوامع رهباناً، يزعمون، أنهم ترهبوا في الله، فدعوهم، ولا تهدموا صوامعهم. وستجدون قوماً آخرين من حزب الشيطان وعبدة الصلبان، قد حلقوا أوساط رؤوسهم، حتى كأنها مناحيض العظام، فاعلوهم بسيوفكم، حتى يرجعوا إلى الإسلام أو يعطوا الجزية عن يد، وهم صاغرين، وقد استودعتكم الله»[1].

وفي هذه التوجيهات مخطط واضح للتعبئة، يتضمن:

١ ـ الإبقاء على القدرة القتالية، وذلك بتأمين التوقفات والراحة.

٢ ـ الحفاظ على الروح المعنوية، بالعدل والتعاطف.

٣ ـ المبادرة وإعادة تجميع القوات.

٤ ـ التزام الخط الهجومي وعدم تنفيذ الانسحاب إلا لأغراض عسكرية.

٥ ـ حسن التعامل مع سكان المناطق، التي يتم فتحها، واكتساب ثقتهم وعدم الإساءة إليهم أو تدمير ممتلكاتهم، مع تنظيم أسلوب الإفادة من هذه المناطق.

وتحرك يزيد بن أبي سفيان، حتى وصل إلى تبوك[2]، في الوقت الذي علم فيه هرقل ملك الروم بمسير العرب المسلمين لفتح الشام[3]. وجمع هرقل بطارقته في مجلس حربي، واستشارهم، فيما هم فاعلون، وكان القرار حشد القوة اللازمة والتوجه للقاء الجيش العربي في خلال مسيره. وهكذا ثم جمع ثمانية آلاف من أشجع المقاتلين بقيادة خمسة بطارقة[4]. وسار جيش الروم، يدله على عورة

---

[1] الواقدي ـ فتوح الشام ـ ج١ ـ ص٤.

[2] تبوك: موضع بين وادي القرى والشام ـ ياقوت الحموي ـ معجم البلدان ـ ج٢ ـ ص١٤.

[3] الأزدي ـ الفتوح ـ ص٢٧.

[4] خمسة أمراءهم ـ البطاليق ـ واخية جرجيس ـ صاحب شرطة هرقل ـ لوقا بن سمعان ـ صليب بن حنا صاحب غزة ـ (الواقدي ـ فتوح الشام ج٢ ص٤).

الأرض ذوو الخبرة من العرب. إلا أن يزيد وصل إلى تبوك قبل وصول أعدائه بثلاثة أيام، وفيما هو عازم على الرحيل إلى الجابية، ظهرت طلائع الروم، فكمن ربيعة بن عامر للعدو، بينما أخذ يزيد يحرض جنده، ويعرض عليهم هدفه وغايته، مؤكداً لهم:

* إن الله وعدهم بالنصر والظفر على أعدائهم، وسينصر الله من ينصره.
* إن الجنة تحت ظلال السيوف، والطريق إليها:هو الشهادة.
* إنهم أول جند للمسلمين، يدخلون الشام، وفي ذلك سبق ومجد.

فكان ذلك سبباً في رفع معنوياتهم، واندفاعهم إلى القتال طلباً للنصر أو الشهادة. و لم توهن قلة العرب المسلمين من عزيمتهم، وبالمقابل فقد ساعده كثرة الروم على اندفاعهم دون اتخاذ قرار صحيح وسليم، ودون استطلاع دقيق للأرض. وبعد أن اتخذ الجيشان ترتيب القتال، بدأت المعركة. وحاول الروم تطويق المسلمين، عند ذلك خرج ربيعة بن عامر من الكمين، وحمل على الروم بعنف. وأدت المفاجأة إلى انسحاب الروم دون تنظيم ومقتل قائدهم البطليق. وقام قائدهم الجديد جرجيس بإعادة تجميعهم، وقرر العودة للقتال.

واحتشد الجيشان من جديد، وحدثت مبارزة، تمكن فيها ربيعة بن عامر من قتل جرجيس، ثم اشتبك الطرفان. وفي هذه المرحلة من القتال وصل شرحبيل بن حسنة إلى تبوك، فعبأ جنده، وزجهم كقوة جديدة في المعركة، مما أدى إلى اندحار الروم. وبعد أن علم الخليفة بهذا النصر، كتب كتاباً إلى أهل مكة والطائف وهوازن وبني كلاب وسائر المؤمنين يحدد لهم فيه:

* أنه قد أعلن الاستنفار العام[1]، ونادى إلى الجهاد في سبيل الله لفتح بلاد الشام والعراق.
* ضرورة السرعة في الحشد والإعداد.

ثم دعا عمرو بن العاص، وسلمه الراية، وولاه ما اجتمع إليه من المقاتلين، وصاحب رايته سعيد بن خالد، ثم حدد له هدفه فلسطين، وزوده بالتعليمات التالية:

١ ـ لا تسلك الطريق، الذي سار عليه يزيد وشرحبيل بن حسنة، بل طريق إيلياء[2]، حتى تصل فلسطين.

---

[1] الواقدي ـ فتوح الشام ج١ ـ ص٦.

[2] إيلياء: اسم بيت المقدس ـ معجم البلدان ـ لياقوت الحموي ـ ج١ ـ ص٢٩٣.

٢ ـ ابعث العيون، ليأتوك بالأخبار عن أبي عبيدة لمساعدته، إذا كان يريد ذلك، وإلا فتابع القتال في فلسطين.

٣ ـ قدم الفرسان لأبي عبيدة، والجيش إثر الجيش، إذا طلب منك ذلك.

٤ ـ أكرم من معك، ولا تتعال عليهم، وانصحهم، وعاملهم بالحسنى.

٥ ـ شاور أولي الأمر والمشورة.

٦ ـ اعمل على حراسة القوات وحمايتها.

وسار عمرو بن العاص بجيش، قوامه تسعة آلاف رجل[١]. وبعد انطلاقه بيوم واحد، عقد الخليفة الرايات لأبي عبيدة بن الجراح، وأمره بالتوجه نحو الجابية[٢] شمالي نهر اليرموك، وحدد له محور الحركة[٣]. وادي القرى[٤] ـ الحجر[٥] ـ ذات المنار[٦] ـ زيزا[٧] ـ مآب[٨] ـ الجابية، وأكد له: أنه سيمده بما هو بحاجة إليه من قوات «فإنه ليس يأتيهم مدد، إلا أمددناك بمثلهم أو ضعفهم»[٩]. ثم دعا الخليفة خالد بن الوليد[١٠]، وعقد له راية، وأمره على من اجتمع إليه، وضم له جيش الزحف، وحدد له مهمة التوجه إلى العراق وبلاد فارس.

وبقي الخليفة بعد تحرك القوات على صلة مستمرة بها. حتى يعرف أوضاعها، ويحدد حاجاتها. ولقد أخبره أبو عامر الدوسي عن أبي عبيدة بن الجراح: «أنه قد أشرف على أوائل الشام، ولم يجسر على الدخول إليها»[١١]. فلما أيقن الخليفة أن أبا عبيدة لا يصلح لقتال الروم، كتب

---

[١] الواقدي ـ فتوح الشام ـ ج١ ـ ص٨.

[٢] الجابية: قرية من أعمال دمشق من ناحية الجولان ـ ياقوت الحموي ـ المعجم ـ ج٢ ـ ص٣١.

[٣] الأزدي ـ فتوح الشام ـ ص٢٩.

[٤] موقع بمحافظة حمص في سورية يطلق عليها القريتين.

[٥] الحجر: بين المدينة والشام ـ ياقوت ـ المعجم ـ ج٢ ـ ص٣٢١.

[٦] موقع في أول الشام من جهة الحجاز.

[٧] مكان مرتفع في أرض البلقاء في الأردن.

[٨] مآب: مدينة في طرف الشام من نواحي البلقاء ـ ياقوت ـ المعجم ـ ج٥ ـ ص٣١.

[٩] الأزدي ـ فتوح الشام ـ ص٥٠.

[١٠] يذكر الأزدي (فتوح الشام ص٥٤) أن الخليفة أبا بكر كتب إلى خالد بن الوليد وهو باليمامة يوجهه إلى العراق.

[١١] الواقدي ـ فتوح الشام ـ ج١ ـ ص١٣.

إلى خالد بن الوليد يوليه على جيوش المسلمين وقتال الروم «وإني قد وليتك على جيوش المسلمين، وأمرتك بقتال الروم، وأن تسارع إلى مرضاة الله عز وجل وقتال أعداء الله، «وقد جعلتك الأمير على أبي عبيدة، ومن معه»[1]. وهكذا حدد الخليفة لخالد بن الوليد: الهدف، والإمكانات اللازمة لتحقيقه، وضرورة التحرك السريع لتنفيذ المهام. إلا أنه ترك لقائده حرية اختيار الطريق الذي سيسلكه، وأسلوب قتال عدوه.

عندما قرأ خالد بن الوليد كتاب الخليفة، لم يكن يعرف مكان توضع القوات العربية الإسلامية التي سيقودها في بلاد الشام بشكل دقيق ومفصل، إلا أنه كان يعلم: أنها موجودة في منطقة بصرى الشام (الجابية). كما أنه علم من الكتاب مهمته، وهي: تقسيم الجيش إلى نصفين[2]، والمسير بسرعة لنجدة الجيش العامل في بلاد الشام، وكان أمامه للوصول إلى الشام طريقان: الأول يمر عبر دومة الجندل[3] وتستخدمه القوافل المتجهة للتجارة في بلاد الشام، ويمتاز بالسهولة، وتوافر المياه على جوانبه، وتأمين حيطة مجانبات القوات المتحركة عليه، إلا أنه طويل، يستغرق قطعه زمناً كبيراً، الأمر الذي يتعارض مع تعليمات الخليفة الخاصة بالسرعة. أما الطريق الثاني، فيمتد على طول نهر الفرات، ومنه إلى شمال شرق بلاد الشام. وهو يضمن تحركاً سهلاً، إلا أنه طويل وبعيد عن الجيوش العربية الإسلامية، كما أن وجود حامية رومانية عليه، يجعلها قادرة على صده وتخفيف سرعة مسير القوات.

لذلك كان على خالد أن يختار طريقاً آخر، فدعا بعض أمراء جنده لهذا الأمر، وسألهم عن طريق غير ما ذكر، فقيل له: «لا نعرف إلا طريقاً، لا يحمل الجيوش، يأخذه الفذ ـ الراكب، فإياك أن تغرر بالمسلمين»[4] وكان هذا الطريق غير مناسب أيضاً بسبب وعورته وضيقه وطوله. وطرح رافع بن عميرة فكرة سلوك طريق آخر عبر أرض سماوة[5]،

---

[1] الواقدي ـ فتوح الشام ـ ج١ ـ ص١٧.

[2] نصفه مع المثنى، والنصف الثاني مع خالد.

[3] دومة الجندل: حصن وقرى بين الشام والمدينة ـ ياقوت الحموي ـ المعجم ـ ج٢ ـ ص٤٨٧.

[4] الطبري ـ تاريخ الرسل والملوك ـ ج٣ ـ ص٤٠٩.

[5] السماوة ـ ماء بالبادية: وبادية السماوة هي التي بين الكوفة والشام ـ ياقوت الحموي ـ المعجم ـ ج٣ ـ ص٢٤٥.

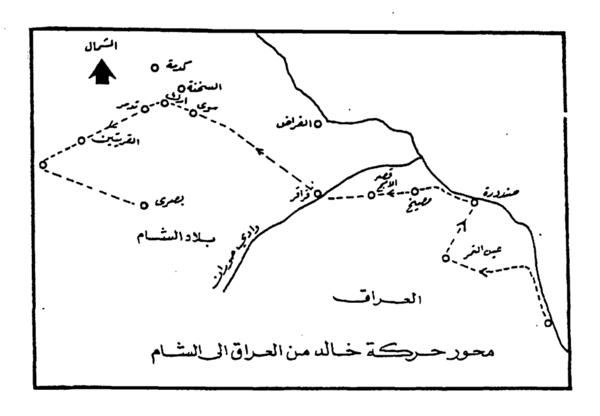
من الحيرة إلى قراقر[1] إلى سوى[2] عبر عين التمر[3] والمصيخ[4]، لكنه حذر خالداً بن الوليد من مغبة سلوك هذا الطريق للعوامل التالية:

١ - إنه طريق ضيق، لا يتسع لجيش المسلمين، وما يضمه من عتاد وتموين.

٢ - إن هذا الطريق غير سالك، إلا لراكب واحد وبصعوبة.

٣- لا تتوافر حوله المياه لمسافة، تقدر بخمسة أيام.

٤ - وجود حامية رومانية على أطرافه.



محور حركة خالد من العراق الى الشام

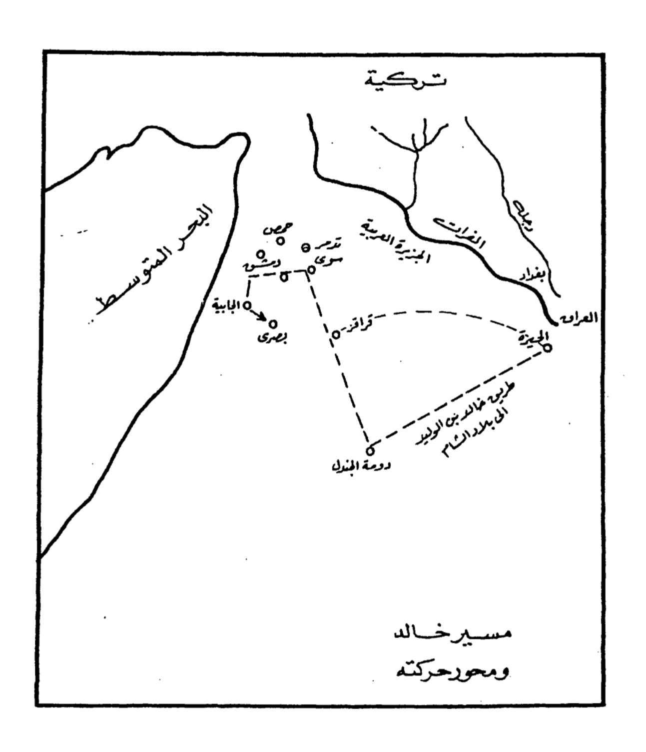
---

[1] قراقر: اسم واد أصله من الدهناء. وقيل هو ماء القلب - ياقوت الحموي - المعجم - ج٤ - ص٣١٧.

[2] سوى: اسم ماء لبهراء من ناحية السماوة - ياقوت الحموي - المعجم - ج٣ - ص٣٧١.

[3] عين التمر: بلدة قريبة من الانباء غربي الكوفة - المعجم - لياقوت الحموي - ج٤ - ص١٧٦.

[4] المصيخ: ماء آخر الشام قرب حوران - ياقوت الحموي - المعجم - ج٥ - ص١٤٤.



مسير خالد
ومحور حركته

وقال رافع بن عميرة محذراً: «إنك لا تطيق ذلك بالخيل والأثقال. وا لله إن الراكب المفرد ليخافها على نفسه، وما يسلكها إلا مغرراً، إنها لخمس ليال جياد، لا يصاب فيها ماء»[1]. ورغم وعورة هذا الطريق وصعوبته، فقد قرر خالد عبوره، وسار الجيش على هذا الطريق (انظر الخريطة) ابتداء من الحيرة، وكان قوامه تسعة آلاف رجل، وعبر عين التمر ـ صندودة[2] المصيخ إلى قراقر، حيث حمل الجيش ما هو بحاجة إليه، وبخاصة الماء، لأن المنطقة التي سيجتازها في المرحلة القادمة قليلة الماء.

وبسبب نقص وسائل نقل المياه، قال رافع بن عميرة: «نأخذ ثلاثين إبلاً، ونعطشها، ثم نوردها الماء، وتحزم أفواهها، فتكون بطونها أشبه بخزانات ماء»، كما اقترح رافع حمل أكبر عدد ممكن من وسائل نقل المياه، وعمل خالد برأيه، فكانوا، كلما نزلوا مكاناً للراحلة في تلك الصحراء المقفرة، أخذوا عشرة إبل، يشقون بطونها، فيأكلون لحومها، ويأخذون ما يجدون من الماء في جوفها، ثم يتابعون مسيرهم، حتى وصلوا إلى نوى[3]، وفيها قضى خالد على جميع المقاومات، وانتقل منها إلى أرك[4]، ثم أخضع السخنة[5] وكدمة وتدمر، وتابع السير إلى القريتين[6] فحوارين[7] فالقطيفة[8] ـ عدرة[9]، وعبر ممراً، سُمي: ثنية العقاب[10] (نسبة لراية خالد)، ثم تحول إلى مرج راهط[11]، ومنها إلى بصرى[12] متجنباً دمشق.

---

(1) الطبري ـ تاريخ الرسل والملوك ـ ج٣ ـ ص٤١٥.

(2) صندوداء: سميت باسم امرأة مر بها خالد بن الوليد عند توجه إلى الشام من العراق ـ معجم البلدان ـ لياقوت ـ ج٣ ـ ص٤٢٥.

(3) نوى: بلدة من أعمال حوران ـ بينها وبين دمشق منزلان ـ معجم البلدان ـ لياقوت الحموي ـ ج٥ ـ ص٣٠٦.

(4) اراك: وادي الأراك قرب مكة ـ معجم البلدان ـ لياقوت ـ ج١ ـ ص١٣٥.

(5) السخنة: بلدة في برية الشام بين تدمر ـ معجم البلدان ـ لياقوت ـ ج٣ ـ ص١٩٦.

(6) القريتين: قرية كبيرة من أعمال حمص في طريق البريد بينها وبين السخنة واراك ـ معجم البلدان ـ لياقوت ـ ج٤ ـ ص٣٣٦.

(7) حوارين: حصن من ناحية حمص ـ معجم البلدان ـ لياقوت ـ ج٢ ـ ص٣١٥.

(8) القطيفة: قرية دون ثنية العقاب باتجاه دمشق في طريق البرية من ناحية حمص ـ معجم البلدان ـ لياقوت ـ ج٤ ـ ص٣٧٨.

(9) عدرة: بغوطة دمشق.

(10) ثنية العقاب: ثنية مشرفة على غوطة دمشق ـ بين دمشق وحمص ـ معجم البلدان ـ لياقوت ـ ج٢ ـ ص٨٥.

(11) مراج راهط: بنواحي دمشق ـ معجم البلدان ـ لياقوت ـ ج٥ ـ ص١٠٠.

(12) بصرى: من أعمال دمشق بالشام وفيه حوران ـ معجم البلدان ـ لياقوت ـ ج٢ ـ ص٤٤١.

وكانت القوات العربية الإسلامية الأخرى آنذاك تسير على محاور متباينة، وكل منها تشكل هدفاً منفرداً، ومع هذا فقد كان بوسع كل قوة خوض المعركة بوسائطها الخاصة، نظراً لما تمتلكه من قوى ووسائط وإمدادات، كما كان بوسعها التجمع لخوض معركة مشتركة. وبالإضافة إلى ذلك، آخذاً في الاعتبار:

* إجراء حسابات تتعلق بالمسافة والسرعة والزمن.
* عدم تجاوز قدرة الرجال والرواحل على الحركة. حتى لا يتعرض الجيش للإنهاك قبل دخول المعركة.
* اختيار الطرق والمسالك.
* تأمين حيطة المسير.
* تأمين الإمداد بالمؤن والمياه.

وتوجه عمرو بن العاص بجيشه إلى فلسطين، وقبل أن يصلها أقبل عليه عدي بن عامر[1] يخبره خبر الروم وجنودهم. فعقد عمرو بن العاص رايته، وأعطاها لعبد الله بن عمر بن الخطاب، وضم له ألف فارس، وأمره بالسير كمقدمة للجيش، وأن يجد المسير في طلب الروم. وتقابلت هذه الطليعة مع طليعة الروم، فقال عبد الله بن عمر لأصحابه: «لا تمهلوهم، لأنهم لابد لهم منكم، والله ينصركم عليهم، واعلموا: أن الجنة تحت ظلال السيوف»[2] وأسفر الصدام عن انتصار الطليعة العربية، التي جمعت الغنائم، وعادت مع الأسرى، إلى عمرو بن العاص.

وبعد استجواب الأسرى، عرف عمرو بن العاص حجم قوات الروم ونواياها وأهدافها، فأمر المسلمين بالاستعداد. وفي صباح اليوم التالي ظهر جيش الروم، يقوده روبيس، وهو موزع إلى عشرة أجزاء. فرتب عمرو بن العاص أصحابه، فجعل في الميمنة الضحاك، وفي الميسرة سعيداً ابن خالد، وعلى المؤخرة أبا الدرداء. وبقي عمرو في القلب، وأمر القراء بقراءة القرآن، وجعل يصف الجنود، ويعبئهم تعبئة القتال، حتى غدوا، وكأنهم بنيان مرصوص، يشد بعضه بعضاً.

---

[1] هو من أخيار المسلمين وكان كثيراً ما يتوجه إلى بلاد الشام.

[2] الواقدي ـ فتوح الشام ـ ج١ ـ ص١٠.

وبدأت المعركة، حيث برز سعيد بن خالد، فقاتل، حتى قتل. ورغم ثبات الروم وتفوقهم العددي والتسليحي، فقد قرر عمرو بن العاص متابعة الصراع، وإجراء تعبئة جديدة، تسمح بزج الوسائل كلها في القتال. ولم تدم المعركة طويلاً، حتى انهزم جيش الروم، وبدأ عمرو المطاردة، فكانت خيل فرسانه أسبق من خيل العدو، وحققت المطاردة غايتها.

وكتب عمرو بن العاص إلى أبي عبيدة، يعلمه بما وقع. ويذكر له أسماء الشهداء، وعلى رأسهم سعيد بن خالد، وكان أبوه مع أبي عبيدة، وسمع بمقتل ابنه، فأخذ موافقة أبي عبيدة بالذهاب إلى فلسطين لزيارة قبر ابنه، فسمح أبو عبيدة له، وزوده بكتاب إلى عمرو بن العاص، يقول له فيه: «فإن كان أبو بكر أمرك، أن تكون معنا، فسر إلينا، وإن كان أمرك بالثبات في موضعك، فاثبت»[1].

وعندما وصل خالد بن سعيد إلى عمرو بن العاص، اصطحب ثلاثمائة فارس للقيام بمهمة استطلاعية. واصطدم خلال مهمته بقوة، قوامها ستمائة مقاتل، وخاض معها معركة صغيرة، وانتصر عليها. وعلم من الأسرى: أن جيش الروم الرئيسي محشتد في أجنادين[2] استعداداً لخوض معركة رئيسية، فقفل عائداً إلى عمرو بن العاص. وبعث عمرو إلى الخليفة كتاباً يعلمه بفتح فلسطين.

لقد كان العمل، الذي قام به عمرو بن العاص، بعد مسيره باتجاه هدفه، سبقاً في تطبيق مبادىء التعبئة، إذ إنه عمل بكل ما يملك لتعبئة قواته عدداً وعدة، بغية الانقضاض بها على المناطق الحاسمة في مسرح الحرب، متفادياً تعريض جيشه للخطر بواسطة المقدمة، التي أرسلها، وعلى رأسها عبد الله بن عمر بن الخطاب، وقوامها ألف مقاتل، وهي قادرة على خوض معركة مستقلة، كما حدث.

وشكلت المعركة، التي خاضها عمرو بن العاص الجزء الأكبر من الحرب في فلسطين. وكان ترتيب جيشه في تلك المعركة يمكنه من الاشتباك بكل قواته، ويسمح له بالمناورة ضد قوات العدو، كبيرة كانت أم صغيرة، الأمر الذي ساعده على تحقيق نصر حاسم وسريع.

---

(1) الواقدي ـ فتوح الشام ـ ج١ ـ ص١٢.

(2) أجنادين: موضع معروف بالشام من نواحي فلسطين ـ ياقوت الحموي ـ المعجم ـ ج١ ـ ص١٠٣.

٢ ـ **معركة اليرموك:** بعد مسير الجيوش العربية الإسلامية باتجاه بلاد الشام والعراق وفارس، وعى هرقل ملك الروم خطورة الموقف، فكتب إلى حكام أقاليم الامبراطورية، يدعوهم إلى تعبئة عسكرية شاملة، بغية إعادة سيطرتهم على ما فتحه العرب المسلمون. ثم وجه جيشاً إلى قيسارية، ليدافع عن عكا وطبرية براً وبحراً، مع إعداد وتحضير أهلها للذود عنها، كما وجه جيشاً آخر إلى بيت المقدس للدفاع عنها وتعبئة سكانها. ودعا هرقل قادته العسكريين لمجلس حرب، وأخذ يحذرهم، ويوجههم، بعد أن أعطاهم صورة دقيقة عن الموقف، وأكد لهم:

١ ـ أن العرب راغبون في السيطرة على بلاد الروم وإسقاط العرش البيزنطي.

٢ ـ أنه قد جمع من الجند، ما تعجز عنه أي قوة في العالم، وأنهم أكثر عدداًوعدة ومدداً وقوة من العرب.

٣ ـ ضرورة العدل بين الجنود والرأفة بهم، لأن ذلك يضمن ارتفاع روحهم المعنوية.

٤ ـ ضرورة اجتماع الكلمة وتوحيدها تجاه الخطر، الذي يحدق بهم.

ثم تطرق هرقل إلى الناحية المعنوية، مؤكداً لقواده حتمية انتصارهم على القوات العربية، وهم الذين انتصروا من قبل على الأتراك والفرس والجرامقة[1]، ومبيناًلهم في الوقت ذاته منابع القوة في الجيش العربي الإسلامي:

١ ـ وجود عقيدة روحية وسياسية جامعة.

٢ ـ الطاعة للقادة وذوي الفضل.

٣ ـ ملازمة القادة للجند في كل الأحوال، والإشراف على ما يحتاجونه في مختلف المجالات.

٤ ـ تطبيق مبدأ المساواة والعدل.

٥ ـ الإقدام في القتال حتى النصر أو الشهادة.

٦ ـ وحدة الأصل واللغة والتاريخ المشترك.

ونجم عن اجتماع مجلس الحرب قراراً بالمواجهة. وأمر هرقل قواته بالتحرك لملاقاة العرب المسلمين وسحقهم، أينما وجدوا. وكان توزيع جيوش الروم كما يلي:

---

[1] الواقدي ـ فتوح الشام ج١ ص٩٦.

١ ـ جيش: بقيادة أخيه تذارق، وقوامه تسعون ألفاً، ومهمته التوجه نحو جلق بأعلى فلسطين، ومحور حركته: اللاذقية ـجبلة ـ طرطوس ـ حمص.

٢ ـ جيش: بقيادة جرجة بن تودر ملك عمورية، ومهمته التوجه لقتال يزيد بن أبي سفيان، ومحور حركته: طريق الجادة العظمى (العراق).

٣ ـ جيش: بقيادة الدراقوص:ومهمته: التوجه لقتال شرحبيل بن حسنة، ومحور حركته: أرض العواصم.

٤ ـ جيش: بقيادة الفيقار بن نسطوس، ومهمته: التوجه لقتال أبي عبيدة بن الجراح[1]، ومحور حركته:حلب ـ حماة ـ حمص.

٥ ـ مقدمة: على رأسها جبلة بن الأيهم الغسائي، ومحور حركتها: حلب ـ حماة ـحمص.

وقبل أن يتحرك هؤلاء القادة، حدد هرقل لهم بأن ماهان هو قائد هذه الجيوش، إذا اجتمعت، وأمرهم بطاعته وتنفيذ أوامره واستشارته في كل أمر، كما عبأ نفوسهم حقداً وكراهية للعرب. ثم حدد لكل منهم طريقاً، يسلكه، ومكان اجتماعهم اليرموك في نهاية المطاف.

لقد كان تعداد الجيش، الذي وجهه هرقل إلى المسلمين ٢٤٠ ألفاً[2]، بينما كان عدد المسلمين ٤٦ ألفاً[3]. وهاب المسلمون تعداد جيش الروم، فكتبوا إلى الخليفة، يستطلعون رأيه، فكان رأيه الاجتماع في اليرموك، تمهيداًلخوض معركة حاسمة.

وبعث هرقل إلى قائد جنده رسالة، يحدد فيها ضرورة الحشد والتعبئة، وشروط المكان، الذي سيتم فيه الحشد، وترتيب القتال، الذي يضمن القيادة والمناورة، وتسلسل إرسال الإمدادات بصورة

---

[1] يذكر الواقدي أسماء القادة الذين وجههم هرقل كما يلي: قناطير ملك الروسية، جرجير ملك عمورية، قورين، الديرجان صاحب القسطنطينية، ماهان ملك الأرمن، جبلة بن الأيهم.

[2] يقول الطبري أن عدد جيش الروم كان ٢٤٠ ألفاً، من بينهم ٨٠ ألف فارس، في حين يذكر الواقدي أن عدد جيش الروم كان ٦٠٠-٧٠٠ ألف مقاتل.

[3] توافى إليها مع الأمراء والجنود الأربعة سبعة وعشرون ألفاً، وثلاثة آلاف من خلال خالد بن سعيد، أمر عليهم أبو بكر معاوية شرحبيل، وعشرة آلاف من امداد أهل العراق مع خالد بن الوليد، سوى ستة آلاف ثبتوا مع عكرمة ردءاًبعد خالد بن سعيد (تابع الطبري، ج٣، ص٣٩٤-٣٩٥).

مستمرة. واستناداً إلى أوامر هرقل، نزل الروم الواقوصة[1] على ضفة وادي اليرموك، فصار الوادي، وكأنه خندق لهم، ونزل المسلمون بعد ذلك على طريقهم وبالقرب منه، وليس للروم إلا هذا الطريق.

وكانت الجيوش العربية الإسلامية قبل وصول خالد بن الوليد من العراق تتصرف باستقلالية تامة، على الرغم من وصية الخليفة لقادة الجيوش بطاعة أبي عبيدة والانضواء تحت لوائه، حتى أن عمرو بن العاص ويزيد بن أبي سفيان كانا لا يصليان مع أبي عبيدة وشرحبيل ابن حسنة. وما أن جاء خالد ورأى ما هم عليه من الفرقة والاختلاف، حتى طالبهم بالتعاضد والتماسك في مواجهة عدو منظم جيد التعبئة، ودعاهم إلى نبذ التناحر تنفيذاً لأوامر الخليفة، وحتى لا تنعكس خلافاتهم على جيوش المسلمين، وتلحق بها الضرر. واستلم خالد القيادة بحزم، وبدل مواقع الجيوش العربية، حتى غدت مقابل جيش الروم، وأذرعات خلفها. وكان اختيار المكان الجديد للانتشار يضمن عدة إيجابيات، أهمها:

١ ـ إمكانية إقامة حراسة على الطرقات، وفي مناطق مهمة، حتى لا تتعرض القوات للمفاجأة.

٢ ـ إمكانية وصول المساعدة القادمة من عند الخليفة.

٣ ـ صلاحية الأرض للمناورة واستخدام الفرسان.

وعبأ خالد أصحابه، ووضعهم بترتيب قتال، بعد أن قسمهم إلى ٣٦ـ٤٠ كردوساً، فكان ترتيب جيشه، كما[2] يلي:

* خالداً بن الوليد، القائد العام لجيوش المسلمين.
* القلب، وعليه أبو عبيدة، وكله كراديس.
* الميمنة، وعليها عمرو بن العاص ومعه شرحبيل بن حسنة، وكلها كراديس.
* الميسرة، وعليها يزيد بن أبي سفيان، وكلها كراديس.
* الطلائع، وعليها قباث بن أشم.

---

[1] الواقوصة: واد بالشام في أرض حوران ـ ياقوت الحموي ـ المعجم ـ ج٥ ـ ص٣٥٤.

[2] الطبري ـ تاريخ الرسل والملوك ـ ج٣ ـ ص٣٩٦-٣٩٧.

* المؤخرة، وعليها عبد الله بن مسعود.

ويوضح الرسم التالي ترتيب القتال:

مفارز حيطة أمامية

طليعة — عليها قباث بن أشيم

- خالد بن الوليد القائد العام
- القاضي أبو الدرداء
- القاضي أبو سفيان

الميمنة كراديس	على ميمنة القلب	القلب كراديس	على ميسرة القلب	الميسرة كراديس
عمرر بن العاص مع شرحبيل بن حسنة	عكرمة	أبو عبيدة بن الجراح	القعقاع ابن عمرو	عليها يزيد بن أبي سفيان

- القارىء: المقداد بن الأسود الكندي.

المؤخرة وفيها الجمال مع المؤن والعتاد — وعليها عبد الله بن مسعود

ومعدات الحصار + عناصر الإسعاف

حرس مؤخرة

اليوم الأول: بعد أن اتخذ الطرفان ترتيب القتال، أمر خالد بن الوليد القلب بجناحيه أن ينشب القتال، وبدأت معركة اليرموك. وفي اليوم الأول للقتال، ورد بريد المدينة بموت أبي بكر، واستلام الخليفة عمر بن الخطاب الخلافة، وتأمير أبي عبيدة الجراح على جيوش المسلمين مكان خالد بن الوليد[1]. ولكن خالداً لم يعلن نبأ العزل، خوفاً من التأثير على معنويات الجند إبان المعركة.

وخرج أحد القادة الروم، واسمه جرجة، وطلب مبارزة خالد بن الوليد، فقابله خالد، وكانت بينهما محاورة كلامية انتهت بإسلام جرجة[2]. ثم استمرت المباريات بين الطرفين، وبدأ الروم القتال الجماعي بعد دعم قواتهم ببطء، مستفيدين من كثرة عددهم، وعندما أصبحوا على مدى رمي سهام القوات العربية، انصبت عليهم السهام من كل مكان. واستمر الروم بالتقدم إلى أن وقع الالتحام بالرماح والسيوف، واستمر القتال إلى نهاية اليوم.

ويؤخذ على هجوم الروم في ذلك اليوم: أنه كان بطيئاً. ولم يتسم بالاندفاع والحسمية، ولم تطبق فيه المناورة بالقوات رغم إمكانية ذلك. كما يؤخذ عليه: عدم استغلال التفوق العددي لتعزيز القوات الأمامية المشتبكة في القتال، وإغراق الجيش العربي الإسلامي بموجات بشرية متلاحقة.

وأظهر الجيش العربي الإسلامي على العكس اندفاعاً قوياً، أدى إلى تعديل ميزان القوى العددي. وكان للنساء دور فعال في استنهاض الهمم، ورفع القوى المعنوية، وتضميد الجرحى، وإعداد الطعام، ورد المتراجعين بأعمدة الخيام. ولم تكن خسائر الجانبين كبيرة في هذا اليوم. ولكن نتيجة القتال كانت لصالح الجيش العربي الإسلامي، الذي ارتفعت معنوياته، وازدادت ثقته بنفسه، بعد أن لمس عملياً عطالة الجيش الضخم، الذي يواجهه.

اليوم الثاني: قرر قائد جيش الروم القيام بهجوم مفاجئ على العرب المسلمين، قبل أن يكونوا مستعدين لذلك، ووضع قواته بترتيب قتالي، يؤمن له ذلك. وكانت خطته تتلخص: في قيام

---

[1] تباينت الآراء حول الأسباب التي دفعت الخليفة عمر بن الخطاب إلى عزل خالد بن الوليد، فمن المؤرخين من أعاد العزل إلى خلافات قديمة بين الرجلين، ومنهم من اعتبره تصرفاً قام به الخليفة تكريماً لأبي عبيدة أو خوفاً من افتتان الجيش بخالد لما له من سمعة بين جنوده، ومنهم من أعاده إلى عدم موافقة الخليفة الجديد على تصرفات خالد الشخصية (راجع الكامل في التاريخ لابن الأثير، الجزء الثاني).

[2] الطبري ـ تاريخ الأمم والملوك ـ مجلد ٢ ـ ص١٣٥.

القلب بتثبيت ما يقابله، بينما تقوم الميمنة والميسرة بالضربة الرئيسية. وبدأ تنفيذ الخطة في صباح اليوم الثاني للمعركة. وبوغت العرب المسلمون بذلك. إلا أن نقاط القتال الأمامية استطاعت امتصاص الضربة وتأخير الروم، مما ساعد خالداً على إعادة ترتيب قواته بسرعة، وفوت على الروم فرصة استثمار المفاجأة بشكل كامل.

واصطدم الجيشان، وثبت القلب تجاه هذا الهجوم، وتحملت المجنبتان قوة الصدمة. إلا أن الروم كانوا يكررون الهجوم بقطعات جديدة. وأدى الضغط المتتابع على الميمنة (عمرو بن العاص) إلى تراجعها بشكل غير منظم، وانضم قسم منها إلى القلب. ودفع خالد قوة من الخيالة، تضم ألفي خيال للقيام بهجوم معاكس، لكن هذه القوة فشلت في صد الهجوم، وانسحبت إلى معسكر المسلمين. فخرجت النساء من المعسكر، وردت الفرسان إلى خطوط القتال بالأعمدة والحجارة. ونجح عمرو بن العاص في تجميع قوة الخيالة، وقام بهجوم معاكس ثان. أما ميسرة العرب المسلمين (يزيد بن أبي سفيان) فقد تعرضت له الميمنة، واستمر الحال كذلك إلى منتصف النهار.

وعندما رأى خالد بن الوليد تطور المعركة، زج احتياطه من الفرسان لمساعدة الميمنة والميسرة، والضغط على الروم وإعادة الوضع إلى ما كان عليه في بداية اليوم. وأدى زج الاحتياط إلى استعادة المبادرة، ونجح الجيش العربي الإسلامي في صد هجوم الروم والانتقال بعد ذلك إلى الرد. ومع انتهاء اليوم الثاني تعدل الموقف، وعاد الوضع إلى ما كان عليه قبل بدء هجوم الروم.

وعلى الرغم من الساعات الصعبة التي واجهها العرب المسلمون في ذلك اليوم، فإن روحهم المعنوية حافظت على قوتها، في حين بدأت معنويات الروم بالتأثر، بسبب ازدياد عدد الخسائر، والاضطرار إلى تبديل بعض القيادات[1].

اليوم الثالث: كرر الروم خطتهم في اليوم الثالث، وشنوا هجمات متعاقبة، وبخاصة على ميمنة جيش خالد وميسرته، وحققوا عدداً من النجاحات المحدودة في بعض المواضع، ولكنهم لم يحققوا ضربة حاسمة تكفي لقلب توازن التشكيل القتالي. وأمكن الرد على الهجمات بهجمات معاكسة. وكان القتال في هذا اليوم أشد من القتال في اليومين السابقين، وكان للنساء فيه دور مماثل لدورهن في اليوم السابق.

---

[1] قتل ضرار الدير جان، وعين قورين مكانه، وانتقلت القيادة إلى قناطير.

اليوم الرابع: اعتبر الطرفان هذا اليوم حاسماً، وقررا بذل الجهود القصوى لإنهاء القتال. وقدر الروم أن عليهم المبادرة بضرب المجنبتين بعنف، يفوق عنف الضربات السابقة، واتخاذ التدابير الكفيلة بصد الهجمات المعاكسة، وعندما بدأ القتال، هاجم الروم ميمنة خالد وميسرته، وركزوا الضغط على نقاط الفصل. وتراجعت الميمنة في البداية، إلا أن عمرو بن العاص تمكن من شن هجوم معاكس، أعاد الروم إلى مواقع انطلاقهم. وكانت الضربة أشد قوة على الميسرة، حيث حدث تراجع منذ بداية الاشتباك. واستخدام الروم النبالة بشكل كثيف، مما أدى إلى خروج عدد من المسلمين من المعركة، واستثمر الروم تراجع الميسرة، التي يقودها أبو عبيدة ويزيد بن أبي سفيان، إلا أن عكرمة لم يتخل عن موقعه. وشاركت النساء في القتال ومساعدة الجرحى وحمل الماء. وتمكنت الميسرة في النهاية من استعادة المبادرة، وانتهت المعركة في هذا اليوم عند المساء، وعاد كل جيش إلى مواقعه الأصلية.

ولقد اتسم القتال في اليوم الرابع بالعنف وكثرة الخسائر، وفقد الروم العديد من جنودهم المقيدين بالسلاسل. وكان النصر قريباً منهم، إلا أنهم لم يستثمروا النجاحات المحلية بشكل جيد، الأمر الذي سمح لجيش العرب المسلمين بتنظيم صفوفه والعودة إلى الهجوم.

اليوم الخامس: أخذ القتال في هذا اليوم شكل المناوشة. وبعث قائد الروم إلى خالد رسولاً ليفاوضه على عقد هدنة. ولكن خالداً رفض ذلك، وقضى اليوم في إعادة تنظيم قواته، وإعداد الكتائب، تمهيداً لقتال اليوم التالي.

اليوم السادس: بدأ القتال في ذلك اليوم بالمبارزات التقليدية، ثم حمل الجيش العربي الإسلامي على الروم، وركز خالد ضرباته على الخيالة لفصلها عن المشاة. وقام بمناورة، ساعدته على ضرب خيالة الروم من الأمام والخلف وتشتيتها. وتقهقرت المشاة تحت ضغط كتائب القلب، وانسحبت نحو وادي الرقاد. فطاردها الجيش العربي الإسلامي، وحاصرها، وأجبرها على الاستسلام، بعد أن ألحق بها خسائر كبيرة.

وبانتهاء اليوم السادس انتهت المعركة الرئيسية بانتصار خالد، الذي تابع في اليوم التالي مطاردة فلول الروم بجزء من خيالته، وتمكن من اللحاق بالمنسحبين وقتل قائدهم قبل وصولهم إلى دمشق، ثم عاد إلى اليرموك، حيث كان كبد جيشه مشغولاً بإعادة التنظيم. وبفضل هذا النصر الحاسم، اختل ميزان القوى في بلاد الشام لصالح العرب المسلمين، وغدت أبواب هذه البلاد مفتوحة

أمامهم. والحقيقة أن حركة خالد بن الوليد من العراق إلى الشام، للمشاركة في معركة اليرموك، تدخل في إطار الحركات الاستراتيجية الهامة في التاريخ العسكري العالمي. وفي الوقت ذاته، فإن أمر الخليفة بتنفيذ هذه الحركة يمثل أرقى درجات الفكر الاستراتيجي، وهي مناورة على درجة عالية من البراعة، لأنها استهدفت نقل القوات من جبهة القتال مع الروم، الذين احتشدوا بقوة كبيرة في بلاد الشام، وغدوا يشكلون الخطر الأساسي على استراتيجية الفتح. وهي من هذا المنظور مناورة بالقوات من جبهة، غدت ثانوية إلى جبهة رئيسية، يتطلب الانتصار فيها حشداً كاملاً للجهد.

أما في مجال التعبئة الميدانية، فقد أظهر خالد قبل معركة اليرموك وخلالها، قدرة كبيرة على اتخاذ القرارات الصائبة، والحفاظ على زمام المبادرة، ومتابعة تسديد الضربات بشكل متتابع، والمناورة بالقوات قبل المعركة وخلالها، والإفادة من الأرض إلى الحد الأقصى.

٣ ـ فتح دمشق: أعد هرقل لمعركة اليرموك جيشاً، أوله في أنطاكية، وآخره في رومية الكبرى. وكان قد بعث جيشاً إلى قيسارية (ساحل الشام) وجيشاً آخر إلى بيت المقدس، وجمع قادته لتحليل انتصار العرب المسلمين، وقال لهم: «إنكم اليوم أكثر عدداً وأعز مدداً من العرب وأكثر خياماً وأعظم قوة، فمن أين لكم هذا الخذلان؟ وكانت الفرس والترك والجرامقة تهاب سطوتكم، وتفزع من حربكم وشدتكم، وقد قصدوا إليكم مراراً، ورجعوا منكسرين، والآن قد علا عليكم العرب، وهم أضعف الخلق، عراة الأجساد، جياع الأكباد، ولا عدد ولا سلاح»[1].

ولقد فات هرقل عند تحليل دروس المعارك السابقة، وتقويم موازين القوى، تحديد العوامل التي قلبت الموازين العملية على الأرض لصالح العرب المسلمين، رغم تفوق الروم المادي والبشري عليهم. وفي مقدمة تلك العوامل: أنهم كانوا أطوع جند، يجاهدون عن قناعة، ويقاتلون في سبيل الله، ويتعاطفون، ويتعاضدون، شعارهم الصدق والعدل والأمانة والوفاء، وغايتهم الكبرى هي النصر أو الشهادة. أي أنه أسقط من الحساب القوى المعنوية الدافعة التي تصبح الجيوش بدونها أدوات ميتة عاجزة عن المعركة.

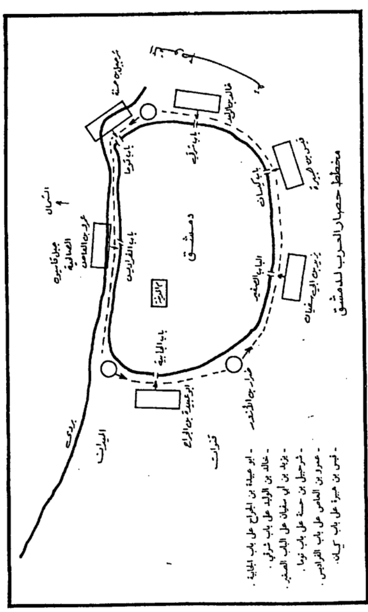
تحت تأثير الدفع المعنوي الكبير، ورغبة في حسم الصراع مع الروم، تقدم الجيش العربي الإسلامي بعد اليرموك باتجاه دمشق، يقوده أبو عبيدة بن الجراح، الذي سلمه خالد بن الوليد القيادة

---

[1] الواقدي ـ فتوح الشام ـ ج١ ـ ص٩٦.

تنفيذاً لأوامر الخليفة، وتحول من قائد عام للجيش إلى قائد لمقدمة هذا الجيش. وكانت حامية دمشق بقيادة عزازير. وعندما علم هرقل بحركة أبي عبيدة نحو المدينة، عزز حاميتهـا بخمسـة آلاف فـارس، دفعهم من أنطاكية إلى دمشق بقيادة كلوسي.

واختلف القائدان الروميان على طريقة إدارة معركة الدفـاع عـن دمشـق، ثـم اتفقـا علـى أن يخرج كل يوم واحد منهما لقتال العرب المسلمين، الذين وصلـت مقدمتهـم (خـالد بـن الوليـد) إلى أسوار دمشق، وحاصرتها.



وقام الروم بعدة طلعات لمناوشة المحاصرين، وكانوا لا يخرجون إلا من باب الجابية. وعندما وصل أبو عبيدة إلى دمشق مع كبد الجيش، التحم الطرفان في معركة، أسفرت عن اندحار الروم وانسحابهم إلى دمشق وتحصنهم فيها، في حين وزع أبو عبيدة جيشه على أبواب المدينة، فكان هو على باب الجابية، وعمرو بن العاص على باب توما، وشرحبيل بن حسنة على باب الفراديس، ويزيد بن أبي سفيان على الباب الصغير، وخالد بن الوليد على الباب الشرقي.

ولمنع وصول الإمدادات من الخارج، وضع أبو عبيدة فرقة ذي الكلاع الحميري على طريق حمص - دمشق، وقطع طريق فلسطين، دمشق بفرقة أخرى، يقودها علقمة بن حكيم. وبدأ الحصار في محرم سنة ١٤ هـ، وكان حول المدينة سور عظيم، يحيط به خندق، يملأ بالماء في حالة الحصار. ودام الحصار سبعين ليلة (وقيل: ستة أشهر، وقيل: حولاً كاملاً). وتخللته الزحوف والتراشق بالمجانيق. وعندما جاءت النجدات، التي بعثها هرقل، قاتلتها قوة ذي الكلاع الحميري، ومنعتها من الوصول إلى دمشق. عندها أيقنت الحامية أنها لن تحصل على أي مدد، فوهنت مقاومتها، وفقدت الأمل بفك الحصار، وبدأت تفكر في الصلح.

وكان خالد الذي يحاصر دمشق من ناحية الشرق حذراً ويقظاً، «لا ينام ولا ينيم» (كما قال عنه ابن الأثير). وكان له جواسيس وعيون يطوفون المدينة، ويراقبون أحوال الروم فيها، ويفيدونه عن تحركاتهم، ولقد علم أنه ولد لبطريق المدينة ولد، وفي مثل هذه المناسبات تحتفل المدينة بأسرها، ويشرب أهلها الخمور، ويرقصون، ويلهون، فقرر الإفادة من هذه المناسبة لاقتحام المدينة. وعندما ابتدأت الاحتفالات، وانخرط معظم الجنود والضباط فيها، ضعفت تدابير الحيطة على الأسوار. وما أن جن الليل، حتى جمع خالد بعضاً من أعوانه وجنده، ومنهم القعقاع بن عمرو ومذعور بن عدي وسواهما، فأتى بالسلالم والأوهاق (الوهق حبل ذو انشوطة) ثم أسر لمن بقي من قادته من الجند أن «إذا سمعتم تكبيراً على السور، فارقوا إلينا، واقصدوا الباب».

وكان خالد طوال مدة الحصار قد درس حالة السور والخندق المائي المحيط به، فراقب مواطن الضعف فيهما، وإمكان اجتياز الخندق وتسلق السور، فانطلق بمن معه، واجتازوا الخندق، ورموا الحبال على السور، فعلق منها حبلان، تسلقهما القعقاع ومذعور، فأثبتا بقية السلالم والحبال، وتسلق الباقون السور، ومنهم خالد، فقتلوا من خلفه من الجند، وتوجه خالد إلى الباب، فداهم

حراسه، وقتلتهم، ثم فتحه، ونادى المنادي من على السور: «الله أكبر»، وسمع من بقي خارج السور من القادة والجند النداء (كلمة السر)، فانطلقوا إليه، يتسلق بعضهم ويندفع بعضهم الآخر نحو الباب، وأفاقت المدينة السكرى مذعورة على جند المسلمين، يلجونها، ويمعنون في جندها تقتيلاً، فهرع أهلها إلى (أبي عبيدة) على باب الجابية، يعرضون عليه الصلح، فقبل أبو عبيدة عرضهم، ودخل كل قائد من قادة الجيش الإسلامي من الباب الذي هو عليه صلحاً، إلا خالداً فقد دخل دمشق عنوة، واجتمعت الفرق الخمس في وسط المدينة، وأجرى أبو عبيدة مع أهل المدينة صلحاً عاماً.

واندفع الجيش العربي الإسلامي بعد فتح دمشق نحو الشمال، وهزم جيش الروم في معركة «مرج الروم» (سهل البقاع)، وفتح بعلبك وحمص وحماة وقنسرين وأنطاكية واللاذقية، وتابع مطاردة فلول الروم في شمال سورية، في حين كانت قوات عمرو بن العاص تفتح مدن فلسطين واحدة تلو الأخرى، حتى جاء دخول القدس سلماً، بوجود الخليفة عمر بن الخطاب في سنة ١٧هـ.

ولقد حاول الروم في هذا العام القيام بهجوم عام لاستعادة بلاد الشام، بمساعدة أهل الجزيرة، فتقدم الخليفة عمر بن الخطاب باتجاه حمص لدعم أبي عبيدة، وكان أبو عبيدة قد أمر خالداً بترك قنسرين[1] والالتحاق بحمص، ثم قابل الخليفة في الجابية. واتفقا على تطهير الجزيرة نهائياً من القوى المتعاونة مع الروم. فاندفعت القوات لتحقيق ذلك، وشارك أهل الكوفة في عملية التطهير، التي انتهت بالسيطرة على الجزيرة نهائياً.

وبدأت بعد ذلك الغزوات وراء الدروب داخل أراضي الروم، انطلاقاً من مواقع حدودية قوية، وكانت هذه الغزوات البدايات لتنظيم الثغور، والقيام بغزوات دورية، حملت اسم: الصوائف والشواتي. وباستقرار الأمور في بلاد الشام. بدأ أبو عبيدة تنظيم المناطق المفتوحة، والقضاء على الظواهر السلبية، التي رافقت الغزوات، وجاءت من احتكاك العرب المسلمين بالروم، وإقامتهم في بلاد واسعة غنية حديثة العهد بالإسلام. ويمكن أن نستخلص من فتح دمشق، وما تلاها من معارك وفتوحات، الحقائق التالية في مجال التعبئة:

---

[1] قنسرين: مدينة بينها وبين حلب مرحلة من جهة حمص بقرب العواصم - وبعضهم بدخل قنسرين في العواصم - ياقوت الحموي - المعجم - ج٤ - ص٤٠٣ وما بعدها.

١ ـ بقاء القيادة السياسية ـ الاستراتيجية مركزية بيد الخليفة (عمر بن الخطاب)، رغم تمتع القائد الميداني (أبي عبيدة بن الجراح) بحرية اتخاذ القرارات المتعلقة بقيادة العمليات.

٢ ـ التنسيق بين العملين: السياسي والعسكري في التعامل مع العدو، أي الصدام المسلح معه عندما يكون ذلك محتوماً، والعمل على تفتيت إرادته القتالية، عن طريق قبول الفتح صلحاً (دمشق، القدس.. إلخ)، والتعامل مع سكان البلدان المفتوحة بأسلوب إنساني، لم يكن مألوفاً في ذلك العصر.

٣ ـ توزيع الأرتال عند التحرك لمشاغلة العدو على جبهة عريضة، وحشد القوى في المواقع الحاسمة.

٤ ـ الانطلاق من قاعدة أمينة بعد تأمين سلامة المؤخرات وحماية خطوط المواصلات. وهناك أمثلة عديدة مثل التقدم إلى الشمال إثر فتح دمشق إلآ بعد تطهير فحل، والتأكيد من أن قوات عمر ابن العاص قادرة على التعامل مع الروم في فلسطين، وعدم الاندفاع باتجاه شمالي سورية قبل فتح حمص وبعلبك وتصفية المقاومات فيهما.

٥ ـ المطاردة الحثيثة للعدو بعد كل معركة حاسمة. والحفاظ على الروح المعنوية وزمام المبادرة.

٦ ـ التشبث في البلاد المفتوحة وحمايتها بالثغور، وعدم الاكتفاء بعد ذلك بالدفاع الثابت، والاستعاضة عنه بالدفاع التعرضي، الذي تتخلله عمليات هجومية داخل مناطق العدو (الصوائف والشواتي).

• ممارسة التعبئة في فتح العراق:

١ ـ الفتح في عهد أبي بكر الصديق: في السنة ١٢هـ، وبعد تصفية المتمردين في الجزيرة العربية، وجه الخليفة أبو بكر خالد بن الوليد باتجاه العراق[1]، وأمره أن يدخل البلاد من أسفلها، وكتب إلى عياض بن غنم: أن يتوجه إلى العراق، ويبدأ

[1] يقال كان باليمامة عندما أرسل له يخبره بمسيرة إلى العراق، ويقال قدم المدينة ومن المدينة سيره إلى العراق. الكامل، ج٢، ص٣٨٤.

بـالمصيخ، ويدخـل العـراق مـن أعـلاه، حتـى يلقـى خـالد في الحيرة، حيـث تكـون القيـادة لمـن يبلـغ الحـيرة قبـل الآخـر، وكتـب الخليفـة إلى المثنـى وحرملـة ومعـذور وسـلمى: أن يلحقـوا بخـالد بالأبلـة[1]. فلمـا تكـامل جنـد خـالد، زحـف باتجـاه العـراق، ومعـه ثمانيـة عشـر ألـف مقـاتل[2]، مقسـمين إلى ثـلاث فـرق، حتـى لا يجمعهـم علـى طريـق واحـد. فجعـل علـى المقـدمـة المثنـى، وبعـده عدي بن حـاتم، وجـاء خـالد بعدهـما محدداً الحفير[3]، مكانـاً للصـدام مـع العـدو.

فلمـا سمـع صـاحب تلـك المنطقـة، واسمـه هرمـز، بقـدوم الجيـش العربـي الإسـلامي، كتـب إلى ملكه أردشـير بـن شـيرى، يخبره بذلـك، وسمـع مـن جواسيسـه أيضـاً: بـأن المسـلمين تواعـدوا الحفـير، فسبقهـم إليهـا. واقـترن بعـض جنـد الفـرس بالسلاسـل تعبـيراً عـن التصميـم علـى القتـال حتـى النهايـة. ونـزل خـالد علـى غـير مـاء، حيـث كـان المـاء في أيـدي أصحـاب هرمـز، فسـأل الجند خالداً عن المـاء فقـال: لعمـري! ليصـيرنّ المـاء لأصـبر الفريقـين»[4].

وخـرج هرمـز، وعلـى مقدمتـه قبـاذ وانوشـجان، ودعـا خـالداً للمبـارزة، وفي نفسـه ونفـس أصحابـه الغـدر بخـالد، وبـرز خـالد لـه راجـلاً وهرمـز أيضـاً، فتضاربـا، فاحتضنـه خـالد، فحمـل أصحـاب هرمـز، يريـدون خـالد، إلا أن ذلـك لم يشـغله عـن قتلـه، واندفـع القعقـاع بـن عمـرو باتجـاه الحاميـة المرافقـة لهرمـز، وأبادهـا، وحمـل الجيـش العربـي الإسـلامي علـى الفـرس، والتحم الطرفان، وانهـزم أهـل فـارس بعـد مقتـل هرمـز.

وسـار خـالد بعـد معركـة «ذات السلاسـل» حتـى نـزل البصـرة. وأرسـل المثنـى بـن حارثـة لمطـاردة الفـرس، فحـاصر حصـن المـرأة ففتحـه. و لم يتعـرض خـالد للفلاحـين تنفيـذاً لوصيـة الخليفـة. وأرسـل معقـلاً بـن مقـرن المزني إلى الابلـه، فدخلهـا. وكـان أردشـير قـد أمـد هرمـز بقـوة تحـت إمـرة قـارن بـن قريـانس. والتقـى قـارن في طريقـه بـالمنهزمين عنـد منطقـة

---

[1] مدينة جنوبي البصرة. والابلة: بلد على شاطىء دجلة البصرة العظمى في زاوية الخليج الذي يدخل إلى مدينة البصرة وهـي أقدم مـن البصرة - ياقوت الحموي - المعجم - ج١ - ص٧٧.

[2] عشرة من خالد، وثمانية من المثنى، ج٢، ص٣٨٥.

[3] ماء الباهلة، بينه وبين البصرة أربعة أميال، معجم البلدان، المجلد١، ص٢٧٧.

[4] ابن الأثير - الكامل في التاريخ - ج٢ - ص٣٨٥.

المذار[1]، فجمعهم، ومعهم قباذ وانوشجان، ونزلوا الثني[2]، فلقيهم خالد هناك.

واقتتل الجيشان قتالاً، بدأ بمبارزة، قتل فيها من الفرس (قارن قريانس وأنوشجان وقباذ)، وحمل العرب المسلمون على الفرس، وشتتوا قواتهم. وانسحبت فلول الجيش الفارسي عبر نهر دجلة بالزوارق، ومنع ماء النهر عملية المطاردة، ولولا ذلك لأبيدت القوة الفارسية كلها.

وكانت خسائر الفرس في هذه المعركة ٣٠ ألفاً، عدا من غرقوا عند عبور النهر. فلما سمع أردشير بذلك، بعث لمواجهة العرب المسلمين قوتين قتاليتين، الأولى: بقيادة الاندرزغر، والثانية: في أثرها بقيادة بهمن جاذويه. وعبر الفرس نهر الفرات، وعسكروا بالولجة[3]، بعد أن حشدوا كل مقاتل بين الحيرة وكسكر. وبلغ خالد نبأ نزول الفرس في الولجة، وهو في المذار، فسار إليهم على تعبئة، وأمر جنوده بالحذر، وترك الغفلة والاعتزاز، ونصب للروم كميناً، في ناحيتين، بقيادة بسر بن أبي رهم وسعيد بن مرة العجلي، ثم هاجمهم بالجزء الأكبر من قواته، وظهرت قوات الكمين في اللحظة الحاسمة، واختل الترتيب القتالي للفرس تحت تأثير المفاجأة، وأسفرت معركة الولجة عن انتصار العرب المسلمين على الفرس وحلفائهم.

وكان مع الفرس في معركة الولجة مقاتلون عرب من بكر بن وائل. فثارت حمية الجاهلية في عشيرتهم، واجتمع مقاتلوهم في أليس[4] وعليهم عبد الأسود العجلي. وكتب أردشير إلى بهمن جاذويه: أن يسير من بقسيانا إلى أليس، ويواجه جيش العرب المسلمين بقواته وقوات العرب المساندة للفرس. ونفذ بهمن أمر أردشير، ودفع قواته نحو أليس تحت قيادة جابان، وطلب منه الإسراع بالسير، ثم عاد أردشير، ليستشيره.

ووصل جابان إلى أليس، فنزل فيها، وانضمت إليه بعض القبائل العربية من بني عجيل وتيم اللات وضبيعة وبني بكر وقوات المسالح (المخافر الحدودية) المنتشرة في تلك المنطقة. وما إن وصل

---

[1] المذار : مكان مرتفع يقع بين واسط والبصرة، معجم البلدان ـ ج٢ ـ ص٣٨٥.

[2] كان العرب آنذاك يطلقون اسم «الثني» على كل نهر. وبما أن المذار تقع على نهر دجلة، فقد أطلق على المعركة اسم (معركة المذار) أو (معركة الثني) أو (معركة النهر). والثني من الدروب ـ تقع شرقي الرصافة موضع بالجزيرة ـ ياقوت الحموي ـ المعجم ـ ج٢ ـ ص٨٦.

[3] الولجة مكان يقع بأرض كسكر ـ معجم البلدان ـ المجلد ٥ ـ ص٣٨٣.

[4] قرية من قرى الأنبار تبعد عشرة أميال عن الولجة.

خالد إلى أليس، حتى أمن حماية المؤخرة، ونادى قادة العرب من حلفاء الفرس (أبجر، وعبد الأسود، ومالك بن قيس) إلى المبارزة، فلم يخرج إليه سوى مالك بن قيس، فبارزه خالد، وقتله. وبدأت المعركة بعد ذلك بهجوم العرب المسلمين، وصمد الفرس آملين وصول بهمن جاذويه مع جيش كبير. ولما طال بهم الانتظار، وزاد عناؤهم، لاذوا بالفرار، وطاردتهم قوات العرب المسلمين، وألحقت بهم خسائر كبيرة.

وسار خالد بعد ذلك إلى امغيشيا[1]، ففتحها، ونال فيها غنائم كثيرة، وتابع إلى الحيرة على ظهر السفن لتطوير قواته الحركية، ولكن حاكم الحيرة (الأزاذبة) أقام معسكره خارجاً، وأمر ابنه بسد الفرات وتحويل مياهه إلى مجار جانبيه، فانخفضت مياه النهر، وجنحت سفن العرب المسلمين، بعد أن لامست الأرض. وقال الملاحون لخالد: «إن أهل فارس فجروا الأنهار، وعملوا على تحويلها، فلا يأتينا الماء إلا بسد الأنهار»، عندها ترك خالد الرتل على رأس قوة من الفرسان، وتابع التقدم باتجاه الحيرة، حتى اصطدم بقوات ابن الأزاذبة عند فم فرات بادقلي، وتمكن من الانتصار عليها وتشتيتها، وأعاد المياه إلى مجرى الفرات، فعامت السفن من جديد، وتابعت صعود النهر، والتقى خالد بجيشه عند الخورنق. ولما علم الأزاذبة بمقتل ابنه وموت الملك أردشير، ترك جيشه، وعبر النهر هارباً إلى المدائن، تاركاً أهل الحيرة متحصنين في أربعة قصور. ولما بلغ خالد الحيرة، أعاد جمع قواته، وقسمها إلى أربع مجموعات:

* الأولى: بقيادة ضرار بن الأزور لمحاصرة القصر الأبيض[2].
* الثانية: بقيادة ضرار بن الخطاب لمحاصرة قصر العدسيين[3].
* الثالثة: بقيادة ضرار بن مقرن المزني لمحاصرة قصر بني مازن.
* الرابعة: بقيادة المثنى بن حارثة الشيباني لمحاصرة ابن بقلية.

---

[1] كانت مصر كالحيرة وكانت أليس من مسالحها (ياقوت ـ معجم البلدان ج٢ ص٢٥٤).

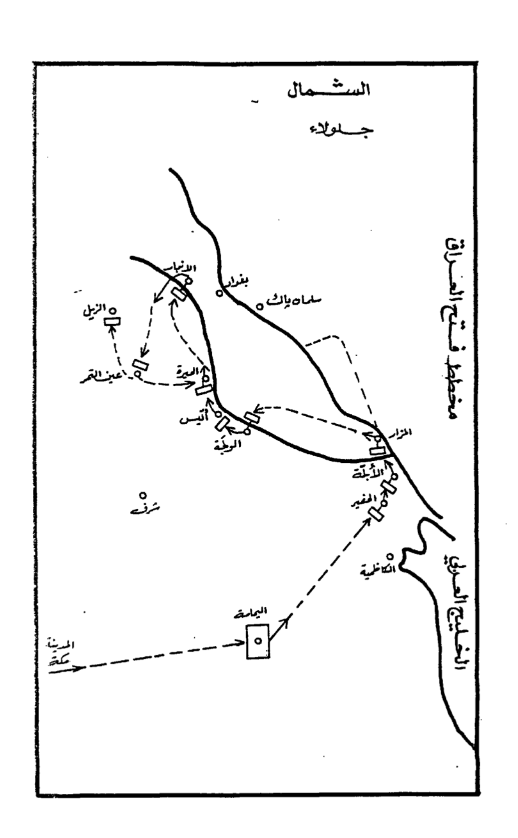
[2] القصر الأبيض: من قصور الحيرة وذكر أنه بالرقة ـ ياقوت الحموي ـ المعجم ـ ج٤ ـ ص٣٥٥.

[3] قصر العدسيين: قصر بالكوفة أيضاً ـ ياقوت الحموي ـ المعجم ـ ج٤ ـ ص٣٦٠.

وأمر قادة المجموعات بإنذار العدو بضرورة الاستسلام، وإعطائه مهلة يوم واحد، وحذرهم من غدره. وتم فتح الحيرة سلماً في شهر ربيع الأول سنة ١٢ هـ، بعد مناوشات بسيطة، ووقع خالد بن الوليد مع أهل الحيرة معاهدة صلح. وكان لهذه المعاهدة، ولالتزام العرب المسلمين بها، وقع نفسي قوي على المناطق المجاورة، فتقاطر زعماؤها إلى الحيرة لعقد معاهدات مشابهة. ومكث خالد في الحيرة، وأقام حول منطقة الثغور والمخافر، وعين لقيادتها أفضل قادته، وأمرهم «بالغارة والإلحاح»، فانتشرت قواتهم في سواد العراق، حتى بلغت نهر دجلة. وطال مكوث خالد في الحيرة، ينتظر وصول عياض بن غنم (حسب أوامر الخليفة) ومضى عليه ما يقارب السنة، حتى ضاق الجند بهذه العطالة، وألحوا على متابعة الأعمال القتالية.

وكانت الأنبار هدفاً قريباً، فسار إليها خالد، بعد أن دفع أمامه مقدمة بقيادة الأقرع بن حابس التميمي. ولما وصل إليها جيش العرب المسلمين، وجد أهلها، قد تمركزوا في حصن، يحيط به خندق مملوء بالماء. وبدأ التراشق بالنبال، ثم أمر خالد بنحر الإبل الضعيفة ورميها في أضيق مكان من الخندق، فتشكل بذلك ممر، عبره العرب المسلمون نحو الحصن، الذي طلب أهله الصلح، فصالحهم خالد. ثم سار إلى عين التمر، حيث تجمعت قبائل من العرب (النمر وتغلب وإياد ومن ناصرهم)، وكلهم بقيادة عقة بن عقة، وكان إلى جوارهم قوة من الفرس بقيادة مهران بن بهرام. وتمكن الجيش العربي الإسلامي من الانتصار على الخصمين معاً، واستولى على حصونهما.

وكان عياض بن غنم في تلك الفترة يواجه موقفاً صعباً قرب دومة الجندل، بعد أن تكاثرت عليه قوات الفرس وقبائل العرب الموالية لها. فأرسل إلى خالد يطلب النجدة. ووصل الرسول بعد الانتصار في عين تمر، فسار خالد إلى دومة الجندل، فجعلها بين جيشه وجيش عياض.


الشمال
جلولاء
مخطط فتح العراق
الأنبار
بغداد
سلماه باك
الزيل
عين التمر
الحيرة
أليس
الوجة
المزار
الأبلة
الحفير
شرف
الكاظمية
الخليج العربي
اليمامة
المدينة
مكة

واضطرت القبائل العربية المحتشدة في الدومة إلى القتال على جبهتين. فاندفع قسم منها بقيادة: الجودي بن ربيعة ووديعة الكلبي لمجابهة خالد، بينما اندفع القسم الآخر بقيادة: ابن الدحرجان وابن الأيهم لمجابهة عياض. وانتهت المعركة بانتصار العرب المسلمين.

وعاد خالد إلى قاعدة عملياته في الحيرة. وأرسل القعقاع إلى حصيد وأبا ليلى إلى الخنافس. وأغار القعقاع على جنود العجم، وأجبرهم على الانسحاب إلى الخنافس. وعندما وصل أبو ليلى إلى الخنافس انهزم أهلها إلى المصيخ، وبها الهزيل بن عمران. فبلغ خالد بن الوليد خبر هروب العجم إلى المصيخ، فكتب إلى القعقاع وأبي ليلى الفدكي يحدد لهما ليلة وساعة، يجتمعات فيها إلى المصيخ. فلما كانت الساعة التي حددها خالد، شن خالد وأبو ليلى والقعقاع الهجوم على العدو من ثلاثة أطراف وألحقوا به خسائر كبيرة، وأفلت الهزيل مع عدد قليل من رجاله.

وأمر خالد قائديه القعقاع وأبا ليلى بالمسير إلى المنطقة الواقعة شرقي الرصافة، ثم سار على رأس قوة للقائهما. ولما اجتمع الجيش من جديد هاجم الثني من ثلاثة وجوه، وفتحها، ثم فتح الزميل بالطريقة ذاتها، ودخل الرضاب بعد انسحاب الأعداء منها.

سار خالد بعد ذلك إلى الفرائض في أعالي العراق، على الحدود المشتركة للفرس والروم، اجتمعت عليه قبائل تغلب وإياد والنمر، إضافة إلى الروم ومن استعانوا بهم من مسالح الفرس. وأقام خالد معسكره على الفرات، في حين كان أعداؤه على الضفة الأخرى من النهر. وأرسل قادة العدو إلى خالد: «إما أن تعبروا إلينا أو نعبر إليكم». ولم يشأ خالد التخلي عن الموقع، الذي اختاره للمعركة، ورغب في حصر العدو بينه وبين النهر، ورد على الدعوة بقوله: «بل اعبروا إلينا».

وعبر الروم وحلفاؤهم النهر، ودارت بين الطرفين معركة عنيفة، وحصر خالد أعداءه، وظهرهم إلى النهر، ثم اتبع خطة، تستهدف تفتيت جموع العدو إلى مجموعات معزولة وتدميرها تباعاً. وانتهت المعركة بانتصار حاسم للعرب المسلمين.

وكلف خالد أحد قواده (عاصم بن عمر) بقيادة الجيش إلى الحيرة، وغادر فراض سراً إلى مكة، حيث أدى فريضة الحج، ثم عاد إلى الحيرة دون أن يدري رجال جيشه بذلك، وهناك جاءه أمر الخليفة أبي بكر بالتحرك إلى بلاد الشام مع نصف الجيش. فاصطحب تسعة آلاف رجل، تاركاً

مثلها تحت قيادة المثنى بن حارثة الشيباني. وبذلك انتهت مرحلة، دامت زهاء سنة، تمكن خالد بن الوليد خلالها من فتح معظم أجزاء العراق، وإلحاق الهزيمة بقوات فارسية متفوقة، تدعمها بعض القبائل العربية المتحالفة معها، وتحصل على الإمداد والنجدات من قواعد قريبة من مسرح العمليات، بينما كان الجيش العربي الإسلامي يقاتل بعيداً عن قواعده والمقر العام لقيادته. وتبرز في هذه الفترة من فتح العراق النقاط الهامة التالية:

١ ـ اهتمام الخليفة بتطويق مسرح العمليات بجيشين، يدخل أحدهما (خالد) العراق من جهة الجنوب متجهاً نحو الشمال، في حين يدخل الثاني (عياض) العراق من الشمال متجهاً نحو الجنوب. على أن يلتقي فكا الكماشة عند الحيرة. ورغم أن فكرة الخليفة لم تتحقق، بسبب تأثر عياض ووقوفه عن دومة الجندل، فإن الفكرة في حد ذاتها تشكل إبداعاً على المستوى الاستراتيجي.

٢ ـ الحركة العالية التي امتاز بها جيش خالد، سواء عند التقدم حتى الحيرة وما بعدها، أم عند التوجه إلى دومة الجندل لتخفيف العبء عن جيش عياض.

٣ ـ إتباع أسلوب الأرتال المتباعدة إبان الحركة. والالتقاء في موقع المعركة، ومهاجمة ـ الخصم من جهات ثلاث (معارك: الثني والزميل والمصيخ.. إلخ).

٤ ـ الاختيار الجيد لموقع المعركة. معركة الفراض مثلاً.

٥ ـ إجبار العدو على القتال على جبهتين (دومة الجندل).

٦ ـ الالتزام ببنود معاهدة الصلح المعقود مع أهل الحيرة، مما جعل حاميات كثيرة، تسعى إلى المصالحة وتجنب القتال.

٧ ـ متابعة العمليات الهجومية والضغط على قوى العدو لاستنزافها.

٢ ـ الفتح في عهد الفاروق عمر: مكث المثنى بعد رحيل خالد في الحيرة، وأذكى العيون[1] لكي يستطلعوا له، ويعلموه أخبار العدو، فعلم: أن جيشاً، يضم عشرة آلاف، وجهه كسرى إليه، يقوده هرمز جاذويه. فعبأ المثنى أصحابه في مجنبتين، عليهما أخواه، وأقام ببابل[2]،

---

[1] أذكى العيون ـ أرسل عليه الجواسيس.

[2] بابل: اسم ناحية منها الكوفة أول من سكنها نوح نزلها الكلدانيون ـ ياقوت الحموي ـ المعجم ـ ج٢ ـ ص٣٠٩.

وهناك التقى الطرفان، واقتتلا، فانهزم الفرس، وتبعهم المسلمون إلى المدائن[1]، حتى أصبح ما وراء دجلة بيد العرب المسلمين.

واستخلف المثنى على قواته بشيراً بن الخصاصية، وسار إلى المدينة، يخبر الخليفة خبر عدوه في العراق، ويطلب منه المدد والعون، بعد أن لمس إصرار الفرس على إرسال المزيد من القوات لاستعادة العراق، ولما وصل المدينة، دخل على أبي بكر، فطلب الخليفة عمر، وقال له: «فإذا مت، فلا تمسين، حتى تندب الناس مع المثنى»[2].

ولما تولى عمر الخلافة، كان من أول الأعمال التي قام بها، أن ندب الناس مع المثنى بن حارثة الشيباني ثلاث مرات، ولا أحد يجيب، لما كان للفرس من هيبة في نفوس العرب. فلما كانت المرة الرابعة، كان أول منتدب أبو عبيد بن مسعود الثقفي. ثم تتابع الناس، وتحدث فيهم المثنى بن الحارثة، يهون عليهم أمر الفرس، ويؤكد ضعف قدرات العدو القتالية، ويبعث في نفوسهم القوة والعزيمة، لكي ينضموا إلى الجيش، الذي سيوجه إلى العراق.

وأمر الخليفة المثنى بالتقدم إلى الحيرة، فسار إليها، ومكث، ينتظر قدوم النجدات، ثم بعث الخليفة أبا عبيد الثقفي، وأمره على جيش العراق، لأنه كان أول المستجيبين وأسبق المتطوعين، وسيّره، فوصل العراق بعد شهر من وصول المثنى، وكتب ملك الفرس الجديد رستم إلى الدهاقين أن يثوروا ضد المسلمين، وبعث في كل منطقة رجلاً، يثور بأهلها، وبعث جنداً لمصادمة المثنى بقيادة جابان ونرسي، فنزل جابان النمارق[3]، وعسكر نرسي في كسكر[4]. أما المثنى، فخرج من الحيرة، فنزل خفان[5]، حتى لا يؤتى من خلفه، وأقام هناك، حتى قدم عليه أبو عبيد، وأراد من ذلك تأمين السرية وعدم التغرير بجنوده.

---

(1) ياقوت الحموي ـ معجم البلدان ـ ج٥ ـ ص٧٤.

(2) ابن الأثير ـ الكامل في التاريخ ج٢ ـ ص٤١٦.

(3) النمارق: موضع قرب الكوفة من أرض العراق ـ ياقوت ـ المعجم ـ ج٥ ـ ص٣٠٤.

(4) كسكر: قضيتها اليوم واسط القضبة التي بين الكوفة والبصرة وكانت قصيتها قبل أن يمصر الحجاج واسطاً خسرو سابور ـ ياقوت ـ المعجم ـ ج٤ ـ ص٤٦١.

(5) خفان: موضع قرب الكوفة يسلكه الحاج أحياناً ـ ياقوت ـ المعجم ـ ج٢ ـ ص٣٧٩.

وسار أبو عبيد بالجيش إلى النمارق، وجعل المثنى على قيادة الفرسان. وحقق أبو عبيد النصر في النمارق، وأسر جابان. ثم انتصر في السقاطية[1] (أسفل كسكر). وعلم رستم بهزيمة جيشيه، فأرسل قوة بقيادة الجالينوس لدعم نرسي في كسكر. ولكن أبا عبيد سبق الجالينوس إلى كسكر، وهزم نرسي، ثم قاتل الجالينوس في باقسيات، وانتصر عليه، وأجبره على الفرار. وعاد بعد ذلك إلى الحيرة.

ورجع الجالينوس إلى رستم، الذي وجهه بهمن جاذويه، المعروف بذي الحاجب، ورد معه الجالينوس، وأعطاه راية كسرى، فنزل بهمن بقس الناطف، أما أبو عبيد، فنزل بالمروحة. وبعث بهمن إلى أبي عبيدة: إما أن تعبروا إلينا، وإما تدعونا نعبر إليكم، فعبر أبو عبيدة إليهم على جسر، أقامه ابن صلوبا.

واحتدم القتال بين الطرفين، وكان الفرس يقاتلون، ومعهم الفيلة، يحملون على المسلمين، فيفرقون خيلهم وكراديسهم. ووثب أبو عبيد الثقفي على الفيل، الذي في المقدمة، فوقع تحت أرجله شهيداً. وأخذ لواء العرب المسلمين القائد، الذي أوصى أبو عبيد الثقفي به، فقتله الفيل أيضاً، إلى أن قتل سبعة أمراء، كان أبو عبيد أوصى بهم من بعده، فاستلم اللواء المثنى بن حارثة الشيباني.

في هذه اللحظة الحرجة من المعركة، وتحت تأثير الشجاعة القريبة من التهور، بادر عبد الله بن مرثد الثقفي إلى الجسر، فقطعه، وقال: «يا أيها الناس! موتوا! على ما مات عليه أمراؤكم، أو تظفروا»[2]. ولم تكن ظروف ميزان القوى تسمح بتنفيذ هجوم معاكس ناجح، لذا تابع الفرس الضغط على العرب المسلمين، ودفعوهم باتجاه الجسر، فكان الجنود ينسحبون بدون انتظام، ويلقون بأنفسهم في نهر الفرات. إلا أن المثنى صمد أمام الفرس مع كوكبة من الفرسان، وشكل قوة لحماية المنسحبين، وطلب من الجيش، أن يعبر الجسر على مهل تحت تغطية هذه القوة. وتم العبور بالفعل، بعد أن خسر العرب المسلمون في هذه المعركة (معركة الجسر) ٤٠٠٠ رجل بين قتيل وغريق، ولم يبق مع المثنى سوى ٣٠٠٠ رجل.

---

[1] السقاطية: ناحية بكسكر من أرض واسط ـ ياقوت الحموي ـ المعجم ـ ج ـ ص٢٢٦.

[2] ابن الأثير ـ الكامل في التاريخ ـ ج٢ ـ ص٤٣٩.

ووصل الخبر إلى الخليفة، فأرسل إلى المثنى مدداً من الرجال والمعدات، وتوجهت الإمدادات نحو البويب[1]، والمثنى بها، وقائد الجيش الفارسي مهران وراء الفرات، فقال مهران: إما تعبروا أو نعبر، فقال المثنى: اعبروا. فعبروا إلى الشاطىء الثاني، وعبأ المثنى أصحابه، وكانت الوقعة في رمضان، فأمرهم أن يفطروا، ووضع على مجنبتيه بشيراً بن الخصاصية وبسرا بن أبي رهم، وعلى مجردته المعنى أخاه، وعلى الرجّل مسعوداً أخاه، وصف الفرس جيشهم في ثلاثة صفوف، ومع كل صف فيل، فقال المثنى للمسلمين: «إن الذي تسمعوا فشل فالتزموا الصمت»[2]. وقال لهم أيضاً: إني مكبر ثلاثاً، فخلالها تتهيؤون، وعندما تكون الرابعة احملوا.

فلما كبّر تهيئوا، حتى كانت الرابعة، وهجم العرب المسلمون على هذه التعبئة والتحشد وبوقت واحد، وكأنهم قوة واحدة، لا تفرقهم جموع عدوهم، متسلحين بالصبر والإيمان والعزيمة، فكانت الغلبة والانتصار لهم، وخسر الفرس عدداً كبيراً من القتلى، من بينهم مهران، ودفع المثنى فرسانه لمطاردة فلول العدو، ثم خلف بشيراً بن الخصاصية بالحيرة، وسار نحو السواد، فأخضع ما بين دجلة والفرات، ثم عاد إلى الأنبار.

وهنا أحس أهل فارس بحجم الخطر، الذي يتهددهم، فاجتمعوا على أحد أبناء كسرى، ويدعى: يزدجرد، وعينوه ملكاًعليهم، وأخذوا يستعدون للمعركة الحاسمة. وحشد يزدجرد قوة كبيرة، وأرسل من يثير السكان على العرب المسلمين. ولما علم المثنى بذلك، كتب إلى الخليفة عمر ابن الخطاب يعلمه، ويستمده، ويسأله المشورة.

الطريق إلى معركة القادسية:

ما إن وصل كتاب المثنى إلى الخليفة، حتى أخذ يندب المسلمين لحرب العراق، وأعلن التعبئة العامة، ووجه إلى المثنى رداً، يتضمن ثلاث نقاط أساسية:

١ ـ الوعد بإرسال النجدات إلى العراق.

٢ ـ طبيعة المواضع الجديدة لانتشار القوات في العراق: «فاخرجوا من بين ظهري الأعاجم، وتفرقوا في المياه، التي تلي الأعاجم على حدود أرضكم وأرضهم».

---

[1] البويب: نهر كان بالعراق موضع الكوفة فمه عند دار الرزق بأخذ من الفرات ـ ياقوت ـ المعجم ـ ج١ ـ ص٥١٢.

[2] ابن الأثير ـ الكامل في التاريخ ـ ج٢ ـ ص٤٤٢.

٣ ـ حشـد القـوات العربيـة «ولا تدعـوا في ربيعـة ولا مضـر ولا حلفـائهم أحـداً مـن أهـل النجدات، ولا فارساً إلا جلبتموه، فإن جاء طائعاً، وإلا حشرتموه».

وكانت معركة اليرموك قد انتهت، فكتب الخليفة إلى أبي عبيـدة بـن الجـراح: أن يعيـد جنـد العراق إلى العراق بقيادة هاشم بن عتبة والقعقاع بن عمر التميمي. وفي الأول من محرم سـنة ١٤هـ خرج عمر بن الخطاب إلى صرار[١]، بعد أن استخلف علياً بن أبي طالب على المدينـة. وكـان ينـوي الذهاب إلى العراق لقيادة الجيش وقتال الفرس بنفسه. ولكن كبار الصحابة ثنوه عـن عزمـه، ووقـع الخيار على سعد بن أبي وقاص (سعد بن مالك) لقيادة جيش العراق.

ومضى سعد إلى زرود[٢]، وجعل منها منطقة لحشد قواته، وكان معه أربعة آلاف مقاتل، ثـم تتابع وصول الإمدادات. وأرسل سعد قوة، تضم ٥٠٠ فـارس للعمـل كقـوة متقدمـة تؤمـن حيطـة القوات، ثم انتقل إلى شراف[٣]، حيث تلقى رسالة من الخليفة، تقول: «إذا جاءك كتابي هذا، فعشّر الناس، وعرّف عليهم، وأمر على أجنادهم، وعبئهم. ومر رؤساء المسـلمين، فليشـهدوا، وقدرهـم، وهم شهود، ثم وجههم إلى أصحابهم، وواعدهم القادسية، واضمم عليك المغيرة بن شعبة في خيله، واكتب إليّ بالذي يستقر عليه أمرهم»[٤]. وفي شراف تكامل الحشد حتى بلـغ ثلاثـين ألفـاً، فعبـأهم سعد، ونظمهم استناداً إلى تعليمات الخليفة، وأمرَّ الأمراء، ووضع على كـل عشـرة عريفـاً، وجعـل على الرايات رجلاً من ذوي الخبرة والشجاعة، ونظم قواته، ووزعها إلى:

* مقدمة، وعليها زهرة بن عبد الله بن قتادة بن الحوية التميمي.
* ميمنة، وعليها عبد الله بن المعتم العبسي.

---

[١] صرار: الأماكن المرتفعة ـ وقيل صرار اسم جبل وهو موضع على ثلاثة أميال من المدينة على طريق العـراق. وقيـل مـاء قـرب المدينـة على سمت العراق ـ ياقوت الحموي ـ المعجم ـ ج٣ ـ ص٣٩٨.

[٢] زرود: رمال بين السهلية والخزيمية بطريق الحاج من الكوفة ـ ياقوت الحموي ـ المعجم ـ ج٣ ـ ص١٣٩.

[٣] انضم إلى سعد في شراف المعنى مع من بقي من جيش المثنى. (وكان المثنى قد توفي متأثراً بجراحه في معركة الجسر). وسلم المعنى إلى سعد الرسالة التي كتبها المثنى قبل وفاته، وأوصى فيهـا القـائد الجديـد ألا يقـاتل الفرس في عقر دارهـم، وأن يقـاتلهم علـى حـدود أرضهم، على أدنى حجر من ارض العرب وأدنى مدرة من أرض العجم، فإن يظهر الله المسلمين عليهم. فلهم ما وراءهم وأن تكـن الأخرى فاءوا إلى فئة، ثم يكونوا علم بسبيلهم، واجرأ على أرضهم، إلى أن يرد الله الكرة عليهم (الطبري ٣/٤٩٠).

[٤] الطبري، ج٣ ـ ص٤٨٨ ـ وابن الأثير، ج٢ ـ ص٣١١.

* ميسرة، وعليها شرحبيل بن السمط بن شرحبيل الكندي.

* مؤخرة، وعليها عاصم بن عمرو التميمي.

* طلائع، وعليها سواد بن مالك التميمي.

* الفرسان (خيالة)، وعليهم سلمان بن ربيعة الباهلي.

* الركبان (هجانة). وعليهم عبد الله بن ذي السهمين الخثعمي.

*المشاة، وعليهم حمال بن مالك الأسدي.

وعين سعد خليفته خالداً بن عرفطة، ومكث ينتظر أمر الحركة من الخليفة، وجاءه الأمر بالسير من شراف نحو فارس، وحذره الخليفة من مكر الفرس وخداعهم، وحدد له ضرورة الوصول إلى القادسية (باب فارس في الجاهلية)، وأمره بالوقوف على الحدود بين الصحراء والأرض التي يسيطر عليها الفرس، (فتكون مسالحك على أنقابها. ويكون الناس بين الحجر والمدر، على حافات الحجر وحافات المدر، والجراع بينهما، ثم الزم مكانك، فلا تبرحه) كما أمره الخليفة بانتظار قدوم الفرس، فإن تم له النصر تقدم، وإن نجح الفرس في صده تراجع إلى الصحراء، «وإن تكن الأخرى، كان الحجر في أدباركم، فانصرفتم من أدنى مدرة من أرضهم إلى أدنى حجر من أرضكم، ثم كنتم عليها أجرأ، وبها أعلم، وكانوا عنها أجبن، وبها أجهل، حتى يأتي الله بالفتح عليهم، ويرد لكم الكرة»[1].

وتحرك سعد على تعبئة إلى مكان: بين عذيب[2] الهجانات وعذيب القوادس، ووزع عناصر الاستطلاع حوله. ثم تابع التقدم نحو القادسية (بين نهر العتيق وخندق سابور)[3] فلما بلغها وضع زهرة بن الحوية على قنطرة نهر العتيق لحراستها وسدها، وأقام في حصن قديس على حائط خندق سابور، وكانت ميمنة جيشه محمية بمستنقع، وظهره إلى الصحراء.

---

[1] الطبري - تاريخ الرسل والملوك ج٣ - ص٤٩١.

[2] العذيب: ماء بين القادسية والمغيثة، بينه وبين القادسية أربعة أميال وهو من منازل حاج الكوفة وقيل هو حد السواد. وهناك عذيبين عذيب الهجانات، وعذيب القوادس - ياقوت الحموي - المعجم - ج٤ - ص٩٢.

[3] خندق كان سابور قد حفره بين الصحراء وسواد العراق، أوله هيت وآخره كاظمة بعد البصرة، ونشر عليه المخافر (المسالح) ليكون مانعاً بين أهل البادية والسواد.

وأقام سعد في القادسية شهراً، ثم كتب إلى أمير المؤمنين: «لم يوجه القوم إلينا أحداً، ولم يسندوا حرباً إلى أحد، علمناه، ومتى ما يبلغنا ذلك، نكتب به». وجاءه رد أمير المؤمنين، وفيه: «... اكتب إليّ أين بلغك جمعهم؟ ومن رأسهم الذي يلي مصادمتك؟ فإنه قد منعني من بعض ما أردت الكتاب به: قلة علمي بما هجمتم عليه، والذي استقر عليه أمر عدوكم، فصف لنا منازل المسلمين، والبلد الذي بينكم وبين المدائن صفة، كأني أنظر إليها، واجعلني من أمركم على الجلية»[1].

ورد سعد على كتاب الخليفة برسالة، وصف فيها الموقع، وشرح له الموقف، مبيناً: أن سكان السواد الذين صالحوا العرب المسلمين من قبل، قد عادوا إلى التعاون مع الفرس، وأنهم يقومون بعمليات إزعاج لجيشه، وأن جيشه يشن عليهم أيضاً عمليات إزعاج. وكتب الخليفة إلى سعد: «فأقم بمكانك، حتى ينغض الله لك عدوك، واعلم: أن لها ما بعدها، فإن منحك الله أدبارهم فلا تنزع عنهم، حتى تقتحم عليهم المدائن، فإنه خرابها، إن شاء الله»[2]. ثم كتب إليه ثانية، يحذره من الغدر، ويوصيه بالوفاء. كما طلب إليه الاتصال بالفرس ودعوتهم إلى الإسلام قبل الحرب. وفي تلك الفترة كان رستم قد قاد جيوش الفرس (١٢٠ ألف رجل)، وعسكر بمنطقة ساباط المجاورة للقادسية.

وشكل سعد وفداً لمفاوضة رستم، وعرض على الفرس واحدة من ثلاث: الإسلام أو دفع الجزية أو الحرب. وكانت المفاوضات طويلة، أظهر العرب المسلمون فيها عناداً كبيراً وتصميماً رائعاً، ورفضوا الخضوع للحرب النفسية التي حاول الفرس إرهابهم بها. ولكن المفاوضات لم تؤد إلى نتيجة إيجابية، نظراً لعناد رستم وغروره، وأمله بأن يضجر العرب المسلمون، ويعودوا إلى بلادهم دون حرب.

ولم يكن أمام سعد سوى الانتظار، حتى يبادر الفرس إلى التقدم وراء نهر العتيق. وكان يؤمن تموين جيشه بالغذاء من الموارد المحلية. فيرسل الإغارات إلى المناطق الزراعية، فتجمع له ما يحتاجه الجيش من مواد غذائية. وكان يرسل العيون لجمع المعلومات واستطلاع مواقع العدو وتحديد نواياه.

---

[1] الطبري - تاريخ الرسل والملوك، ج٣ - ص٤٩١.

[2] المرجع نفسه، ج٣ - ص٤٩٢.

وأزعجت الإغارات أهل السواد، فطالبوا ملك الفرس بالإسراع في محاربة العرب المسلمين، الذين غدوا قادرين على الوصول إلى كل مكان، ومصادرة ما يحتاجون إليه من أرزاق ومواش. ولم يعد أمامهم سوى اجتياح السواد والسيطرة عليه بشكل كامل. وكان إلحاح السكان عاملاً ضاغطاً، جعل يزدجرد يضغط على رستم لبدء القتال، ورستم يتباطأ محاولاً تأجيل المعركة، التي لم يكن راغباً في خوضها أو واثقاً من النصر فيها. من تحليل مجريات الأحداث، منذ تولي عمر بن الخطاب شؤون الخلافة، وتعيين سعد بن أبي وقاص قائداً على القوات العاملة على جبهة الفرس، يمكن ملاحظة عناصر التعبئة التالية:

١ ـ تخلي الخليفة عن فكرة دخول العراق من الشمال والجنوب، والاكتفاء بالحشد على اتجاه واحد. مع الإعداد لمعركة حاسمة يمكن الانطلاق بعدها إلى المدائن.

٢ ـ الاتصال الدائم بين القيادة السياسية ـ العسكرية العليا في المدينة المنورة، والقيادة الميدانية، بغية حصول القيادة العليا على المعلومات، التي تسمح لها باتخاذ قرارات استراتيجية، ونقل القرارات إلى القيادة الميدانية على شكل أوامر وتعليمات.

٣ ـ اهتمام الخليفة عمر بالأمن الاستراتيجي (البقاء على حدود الصحراء وعدم الاندفاع في العمق قبل المعركة الحاسمة)، واهتمام سعد بالأمنين: العملياتي والتكتيكي (الرصاد والعيون والمقدمات. . إلخ).

٤ ـ الحفاظ على خط الانسحاب نحو الصحراء مفتوحاً.

٥ ـ الإغارات المستمرة على السواد، بغية استفزاز الخصم المتمرس في مواقع داخلية، ودفعه إلى التقدم نحو أرض المعركة، التي اختارها الخليفة بعناية.

٦ ـ التأمين الإداري للقوات من الموارد المحلية، حتى تتمتع هذه القوات بقدرات حركية عالية، ولا تكون مضطرة لانتظار وصول المؤن من قواعد إدارية بعيدة جداً.

معركة القادسية: تحرك رستم من مناطق الحشد نحو القادسية للقاء العرب المسلمين، وكان معه ١٢٠ ألف مقاتل، وكانوا بأتباعهم أكثر من مائتي ألف بالإضافة إلى ثلاثة وثلاثين فيلاً، تحمل على ظهورها صناديق، يحتمل بها النبالة، ودفع على مقدمته الجالينوس في أربعين ألفاً، وعلى ميمنته الهرمزان، وعلى ميسرته مهران بن بهرام الرازي، وعلى ساقته البيرزان في ٢٠ ألفاً، وبقي رستم مع

القلب، وقوته ستون ألف مقاتل.

ووصل رستم وجيشه إلى نهر العتيق، وجرت مفاوضات طويلة، حاول كل طرف فيها الوصول إلى أهدافه سلماً، وعندما فشلت المفاوضات، وأصبح الصدام المسلح حتمياً، قرر الفرس العبور إلى القادسية وخوض المعركة الحاسمة. ولكن زهرة بن الحوية التميمي منعهم من استخدام قنطرة نهر العتيق، فقاموا خلال الليل بردم النهر بالرمال والقصب، وأعدوا عليه ممراً، عبروه في الصباح إلى ميدان القادسية. واتخذ الفرس مواقعهم في مجابهة قوات المسلمين، وجلس رستم على سريره، وحشد في القلب ثمانية عشر فيلاً، عليها الصناديق والرجال، وفي المجنبتين ثمانية وسبعة وأقام الجالينوس بين رستم وميمنته، كما أقام البيرزان بينه وبين ميسرته.

واصطف العرب المسلمون مقابل الفرس، وبقي سعد في قصر قديس بسبب مرضه. وقرر الإشراف على المعركة من مكانه، واستخلف على الجيش خالد بن عرفطة، على أن يتلقى خالد منه الأوامر برقاع، تلقى إليه من القصر، فيعمل على تنفيذها، وتقرر بدء الهجوم بإشارة من سعد بعد صلاة الظهر، وقرئت سورة الجهاد في كل كتيبة، فارتفعت المعنويات إلى الأوج.

وبدأت المعركة بالفعل بعد الصلاة، وحمل أصحاب الفيلة على العرب المسلمين، ففرقوا الكتائب، وأصيبت الخيول بالذعر، فكادت بجيلة أن تهلك، وصمد المشاة أمام الهجوم، فأرسل سعد إلى بني أسعد يطالبهم بالدفاع عن بجيلة، فخرج طيلحة بن خويلد وحمال بن مالك وغالب بن عبد الله والربيل بن عمرو في كتائبهم، فباشروا الفيلة، حتى عدلها ركبانها، وكان على كل فيل عشرون رجلاً. وانطلقت قبيلة أسد لدعم قبيلة بجيلة، وجابه الفرس مقاومة قوية. وقاد الأشعث بن قيس مقاتلي قبيلة «كندة» فأبلوا بلاءً حسناً.

وكان سعد يراقب المعركة من مكانه المرتفع. ولما رأى ما تفعله الفيلة بجيشه، أرسل إلى عاصم بن عمر التميمي يطالبه بزج بني تميم في مواجهة الفيلة، فقام النبالة برشق الفيلة، وما تحمله من رجال بالسهام، واندفع فرسان بني تميم إلى الفيلة، فقطعوا أحزمتها، وقلبوا الصناديق المحمولة على ظهورها، وخف الضغط عن بني أسد، وتعدل الموقف بعد أن فقد الفرس القدرة على استخدام قواتهم الضاربة (الفيلة)، واستمر القتال حتى بداية الليل، ورجع الطرفان إلى مواقعهما.

كان اليوم الأول من المعركة (ويعرف باسم: أرماث) شديداً على جيش سعد، وكانت خسائره فيها كثيرة، وخاصة في صفوف بني أسد. وقضى العرب المسلمون ليلتهم في دفن الشهداء ومعالجة الجرحى. ولما أشرق فجر اليوم الثاني (يوم أغواث)، ظهرت طلائع النجدة القادمة من الشام بقيادة هاشم بن عتبة بن أبي وقاص، وكان على مقدمة هذه النجدة القعقاع بن عمرو التميمي، ومعه ألف فارس، جعلهم القعقاع عشرات، ودفعهم تباعاً إلى ميدان القتال، ليوهم الأعداء بأن المدد كبير ومتتابع.

وبارز القعقاع بهمن جاذويه (الملقب: بذي الحاجب)، فقتله، وبدأت المعركة في النصف الأول من هذا اليوم بين الفرسان. واستخدم العرب المسلمون في هذا اليوم إبلاً، جللوها ببراقع، بدلت هيئتها، فنفرت منها خيل الفرس، مما ساعد فرسان العرب المسلمين على مقاتلتهم والتغلب عليهم، ولقي جيش فارس من الإبل يوم أغواث أعظم مما لقي جيش سعد من الفيلة يوم أرماث[1].

ولما اعتدل النهار، تحولت المعركة إلى قتال بين كتائب المشاة، وتراجع مشاة الفرس عن مواقعهم، وكاد رستم أن يقع في الأسر، لولا اندفاع خيالة الفرس بهجوم معاكس، أدى إلى تعديل الموقف. وتوقف القتال قرابة منتصف الليل. وسار القعقاع وأصحابه إلى المكان، الذي قسمهم فيه بالأمس، وقال لهم: إذا طلعت عليكم الشمس، فأقبلوا مائة مائة كلما توارى عنكم مائة، فليتبعها مائة، فإن جاء هاشم بن عتبة فذاك، وإلا جددتم للناس رجاءً واحداً.

وأصبح اليوم الثالث للمعركة (وهو يوم عُماس) ونظم المسلمون والفرس صفوفهم، وكان الفرس قد خسروا في اليومين السابقين عشرة آلاف قتيل مقابل ٢٥٠٠ شهيد، خسرهم جيش سعد. وأخذ القعقاع في النظر إلى الأفق مع بزوغ الشمس، فرأى كتائب المسلمين، وهم يتقدمون مائة بعد مائة، وكبّرالناس، وقالوا: (جاء المدد)، واستمر تدفق قوات الدعم، فلما جاء آخر أصحاب القعقاع، كان هاشم بن عتبة قد وصل بقواته، وقد طلع بسبعمائة، فأخبروه برأي القعقاع، وما صنع في يوميه، فعبأ أصحابه سبعين سبعين، واستمرت القوات في رفد المعركة، ومقابل ذلك، كان يزدجرد يبعث أهل النجدات، ممن بقي عنده، على شكل إمداد مستمر.

---

[1] لم يستخدم الفرس الفيلة في القتال في يوم أغواث ـ لأن صناديقها تكسرت في اليوم السابق، ولم يتم اصلاحها إلا في اليوم الثالث للقتال.

وفي هذا اليوم عاد الفرس إلى استخدام الفيلة، بعد أن أصلحوا صناديقها. وكان في مقدمة الفيلة فيلان، أحدهما أبيض، والآخر أجرب، وكانت الفيلة تقلدهما، وتتبعهما، وكان كل فيل من فيلة الفرس محاطاً بالمشاة لحمايته، والمشاة محاطة بالفرسان. وكانوا إذا أرادوا كتيبة، دلفوا بها بفيل وأتباعه، لينفروا خيل الكتيبة، ويفتتوا صفوفها. ولما رأى سعد الفيلة، تفرّق بين الكتائب، وأرسل إلى بني أسد وبني تميم بتركيز الجهود على الفيلين: الأبيض والأجرب، والتخلص منهما بطعن عينيهما وقطع مشفريهما. وشكلت لهذه الغاية مجموعتان من المشاة والفرسان، وكان مع إحداهما القعقاع وأخوه عاصم، ومع الثانية حمّال والربيل. واكتنفت المجموعتان الفيلين، وشاغلت المشاة والخيالة المرافقة لهما، ونجح القعقاع وأخوه في فقء عيني الفيل الأبيض وقطع مشفره، وفعل حمال والربيل مثل ذلك بالفيل الأجرب. ووقع أحد الفيلين على جنبه، واندفع الآخر باتجاه العتيق، فتبعته الفيلة الأخرى خارقة صفوف الفرس.

ولما خرجت الفيلة من المعركة، استعاد القتال طابعه المألوف، واشتركت فيه المشاة والخيالة، واستمر القتال خلال الليل، وكان ثقيلاً على الجيشين، وسميت تلك الليلة «ليلة الهرير». وطلع صباح ١٦ شعبان سنة ١٥هـ، والقتال على أشده، وبدا واضحاً أن المعركة غدت على وشك الانتهاء، وأن النصر سيكون من نصيب الطرف الأكثر صبراً. وانهزمت ميمنة الفرس عند الظهيرة، وتلتها ميسرتهم، وبدأ قلبهم بالارتداد باتجاه نهر العتيق، وحاول رستم الانسحاب عبر النهر، فقتله هلال بن علّفه. وتابع جيش سعد الضغط على الفرس، فسقط منهم عدد كبير من القتلى، وغرق عدد آخر في النهر.

وأمر سعد زهرة بن الحوية بمطاردة المنسحبين، كما أمر شرحبيل بالتوجه جنوباً، والقعقاع بالتوجه شمالاً. واستمرت المطاردة وراء نهر الفرات، وقتل خلالها الجالينوس، وفرت فلول الفرس نحو المدائن. ونظم سعد المطاردة من جديد بعد الوصول إلى ديرقُرّة[1]، فجعل خالداً بن عرفطة قائداً على قوة المطاردة، وكان هاشم بن عتبة بن أبي وقاص على مقدمة القوة، وجرير بن عبد الله البجلي على ميمنتها، وزهرة بن الحوية على ميسرتها. وتخلف سعد عن المطاردة بسبب مرضه. وتابع التقدم وراء المطاردين ببقية جيشه.

---

[1] ديرقُرّة: قرب دير الجماجم ودير الجماجم مما يلي الكوفة - ياقوت الحموي - المعجم - ج٢ - ص٥٢٦.

وكان الهدف التالي أمام سعد: الوصول إلى المدائن. وهو هدف كان الخليفة أبو بكر، قد حدده من قبل لخالد بن الوليد وعياض بن غنم (قبل خلافة عمر وقبل ولاية سعد) عندما أمرهما بالمسير إلى العراق[1].

وتقدم سعد بجيشه لتحقيق هذا الغرض، ولم يكن تقدمه دون قتال، فلقد اصطدم بالفرس في برس[2] وبابل، واشتبك معهم في قتال عنيف عند بلدة بهرسير[3]، التي حصنها الفرس بشدة، وطهر المقاومات ما بين دجلة والفرات، ثم عبر دجلة بالقوة، ودخل المدائن بعد أن انسحبت قوات الفرس منها، وهزم جيش الفرس (بقيادة مهران) في معركة جلولاء، التي لم تكن أقل هولاً من معركة القادسية. ثم دفع سعد الجيوش، ففتحت تكريت[4] وماسبذان[*] وقرقيسياء[6] وسوق الأهواز[7] وحلوان[8] ومناذر[9] وتستر[10] ورامهرمز[11] والسوس[12] وجنديسابور[13] وغيرها وفي سنة ١٨ هـ توقفت حروب الفتح مؤقتاً، وبدأ العمل على بناء المجتمع الجديد في المناطق المفتوحة. وعندما تكاملت عملية البناء، وأصبح للعرب المسلمين في العراق قاعدة قوية، استؤنف الفتح في سنة ٢١ هـ بمعركة فتح الفتوح (معركة نهاوند) وزاد التوغل في عمق بلاد فارس.

---

[1] جاء في أمر أمير المؤمنين لخالد وعياض: «إذا اجتمعتما بالحيرة وقد فضضتما مسالح فارس، وامنتما أن يؤتى المسلمون من خلفكم فليكن أحدكم ردء للمسلمين ولصاحبه بالحيرة، وليقتحم الآخر على عدو الله وعدوكم من أهل دارهم ومستقر عزهم ـ المدائن».

[2] برس: موضع بأرض بابل به آثار بخت نصر ـ ياقوت ـ المعجم ـ ج١ ـ ص٣٨٤.

[3] بهرسير: من نواحي سواد بغداد قرب المدائن ـ ياقوت ـ المعجم ـ ج١ ـ ص٥١٥.

[4] تكريت: بلدة بين الموصل وبغداد وهي أقرب إلى بغداد ـ ياقوت ـ المعجم ـ ج٢ ـ ص٣٨.

[*] ماسبذان: أصله ماه سبذان ـ ياقوت ـ المعجم ـ ج٥ ـ ص٤١.

[6] قرقيسياء: بلدة على نهر الخابور قرب رحبة مالك بن طوق ـ ياقوت ـ المعجم ـ ج٤ ـ ص٣٢٨.

[7] سوق الأهواز: اسم مدينة تابعة للأهواز ـ ياقوت ـ المعجم ـ ج٣ ـ ص٢٨٣.

[8] حلوان: حلوان العراق، وهي في آخر حدود السواد مما يلي الجبال من بغداد ـ ياقوت ـ المعجم ـ ج٢ ـ ص٢٩٠.

[9] مناذر: كورة من كور الأهواز ـ ياقوت ـ المعجم ـ ج٥ ـ ص١٩٩.

[10] تستر: أعظم مدينة بخوزستان اليوم ـ ياقوت ـ المعجم ـ ج٢ ـ ص٢٩.

[11] رامهرمز: مدينة مشهورة بنواحي خوزستان ـ ياقوت ـ المعجم ـ ج٣ ـ ص١٧.

[12] السوس: بلدة بخوزستان فيها قبر النبي دانيال عليه السلام ـ ياقوت ـ المعجم ـ ج٣ ـ ص٢٨٠.

[13] جنديسابور: مدينة بخوزستان بناها سابور بن اردشير ـ ياقوت ـ المعجم ـ ج٢ ـ ص١٧٠.

وعلى الرغم من عنف المعارك، التي خاضها سعد، وهو في طريقه إلى المدائن فجلولاء، واستمرار القتال من أجل تطهير المقاومات، وتعاقب المعارك إبان فتح بلاد فارس، فقد كان واضحاً أن معركة القادسية كانت بداية النهاية بالنسبة إلى العجم، وأن ما جرى بعدها من قتال، امتد عدة سنوات، كان عمليات تصفية لامبراطورية واسعة الأركان، ولكنها مهزوزة من الداخل، ومؤهلة للانهيار، بعد أن فقدت معنوياتها وثقتها بالقدرة على إيقاف الفتح العربي الإسلامي العارم.

ففي معركة القادسية الحاسمة، بدأ الشرخ المعنوي في بلاد فارس يتسع، وفي هذه المعركة تبلورت لدى جيش العرب المسلمين تعبئة، تعتمد على تقسيم القوات إلى كراديس، في كل كردوس ألف رجل، وتقسيم الكراديس إلى مئات، والمئات إلى أنصاف المئات، وأنصاف المئات إلى عشرات. كما تبلورت في تلك المعركة وما بعدها تدابير الأمن والحيطة، وأساليب تنظيم الأرتال.

وكان تمفصل القوات، الذي تبناه سعد، ومن جاء بعده الرد العملي على أسلوب الفرس في القتال بكتلة واحدة، تمتلك قدرة صدمة عالية، ولكنها تفتقد المرونة والحركية. ولقد ساعد هذا التمفصل على النجاح في القادسية، كما ساهم في إنجاح المطاردات الحثيثة، التي تلتها.

ولكن المطاردة لم تتم بتهور، بل كان تطهير المناطق يسبق الانتقال إلى مناطق أخرى. وإذا كان الخليفة قد أمر سعداً: بأن ينتظر الفرس في القادسية، وظهره إلى الصحراء، حتى يضمن خط الانسحاب عند الضرورة، فإنه أمره بالوقوف بعد فتح المدائن «أن قف مكانك، ولا تتبعهم»، حتى يطمئن إلى أن السواد غدا مطهراً تماماً، وأن الاندفاع نحو الشرق لن يعرض مؤخرات سعد للخطر. وعندما أرسل أمير المؤمنين عتبة بن غزوان إلى البصرة، وأوصاه «انطلق أنت، ومن معك، حتى إذا كنتم في أقصى أرض العرب وأدنى أرض العجم، فأقيموا»[1] وعندما تجمع الفرس في جلولاء (عام ١٦هـ) كتب

[1] الطبري ـ تاريخ الرسل والملوك ـ ج٣ ـ ص٥٩١.

أمير المؤمنين إلى سعد: «أن هزم الله الجندين ـ جند مهران وجند الأنطاف ـ فقدم القعقاع، حتى يكون بين السواد والجبل، على حد سوادكم»[1].

ولقد أوقف الخليفة حملات الفتح في سنة ١٨ هـ، لأنها كانت سنة قحط، واستمر التوقف بعد ذلك بسبب تزايد النشاط على جبهة الروم، و لم يسمح عمر بن الخطاب بمتابعة الفتح، إلا أن سنة ٢١هـ، بعد أن تأسست القاعدة الآمنة في العراق، وتضاءل النشاط الحربي على جبهة الروم. و لم تمض سنوات ثلاث، حتى وصل العرب المسلمون إلى حدود الهند والسند شرقاً وأرمينية وأذربيجان شمالاً، وفتحوا باب الأبواب[2]، وامتدوا في الجنوب على شواطئ المحيط الهندي.

---

[1] الطبري ـ تاريخ الرسل والملوك ـ ج٤ ـ ص٢٤.

[2] باب الأبواب: مدينة تقع على بحر طبرستان ـ ياقوت ـ المعجم ـ ج١ ـ ص٣٠٣.

الفصل الثالث

تنظيم الجيش



الفصل الثالث

الجيش

• تنظيم الجيش:

من المعلوم أن أول دولة نظمت الجيش كانت الدولة الفرعونية ثم اقتبس البابليون والفرس هذا النظام وعدلوا به حسب مقتضيات الحاجة، أما عند العرب المسلمين فقد بدأ التنظيم العسكري، منذ عهد الرسول (ص) في ليلة العقبة الثانية، عندما اجتمع واختار منهم اثني عشر نقيباً وقيل في معركة بدر[1] كونها كانت أول مواجهة عسكرية له ضد أعدائه فكان قوام جيشه (٣١٣) مقاتلاً منهم سبعون بعيراً وفارساً فقط، ثم تطور إلى جيش مكون من (٣٠) ألف جندي في معركة مؤته؛ ثم أخذ يزداد قوة ومنعة في عهد الخلفاء الراشدين، وشكلوا الأجناد وكل جند ينقسم حسب القبائل والبطون، فمثلاً كانت البصرة خمسة أقسام (تسمى الأخماس)[2] يقيم في كل خمس قبيلة من قبائل العرب هم (الأزد ـ تميم ـ بكر ـ عبد قيس ـ أهل العالية) وعلى كل خمس أمير من أمراء تلك القبائل، ثم باشر العرب تنظيماتهم العسكرية بعد توسع فتوحاتهم فمثلاً سمي الخليفة الراشدي الأول

---

[1] إحسان هندي ـ الحياة العسكرية عند العرب ـ طبع دمشق ١٩٦٤ ـ ص١٣.

[2] جرجي زيدان ـ تاريخ التمدن الإسلامي ـ تقديم حسين مؤنس ـ طبع بيروت ـ ج١ ـ ص١٢٢.

عندما قرر تحرير بلاد الشام من الرومان كورة واتخذ في كل مصر مــن الأمصــار على قــدره خيــولاً فكان بالكوفة من ذلك أربعة آلاف فارس.

استمر العمل بذلك التنظيم حتى عهد الخليفة عمــر بــن الخطــاب، الــذي قــرر إحــداث نظــام جديد للجيش، عندما أرسل كتاباً إلى سعد بن أبي وقاص[1] قبل القادسية حدد له فيه تنظيم القــوات وتوزيعها، وحدد له أن يوزع الناس إلى عشرات، يضع على كل عشرة عريفاً، ثم يجمع مجموعة من العرفاء ويضع عليهم أميراً، ثم يضم مجموعة من الأمراء تحت إمرة رؤساء القوم ويضــع الرايــات مــع قوات المجنبتين، ويحدد للقائد موقعه في الوسط من قلب قواته. ويجب أن لا ننسى ما فعلــه خــالد بــن الوليد في معركة اليرموك، عندما عمل على توحيد القيادة، وتقسيم الجيش إلى كراديس[2] وعلى كل كردوس أمير.

وعرف العرب منذ الجاهلية نظام تعبئة القادة. فمثلاً كانوا يولون على القبيلة أميراً كان ينوب عنه المنكب. وتحت أمرة المنكب كان العريف، والمنكب يشرف على خمسة عرفــاء. وعندمــا قــامت الدولة العربية الإسلامية بقوا على ما كانوا عليه في الجاهليــة. إذاً اتخــذ العــرب الرتــب العســكرية في الجيش على الشكل التالي: **أولاً: الأمراء**: يقود كل منهم عشرة آلاف فما فــوق، ومهمتهــم إعــداد الحملات العسكرية وقيادتها، يساعدهم في عملهم عدد من المساعدين اختــاروهم ممــن تتوفــر فيهــم المواصفات المطلوبة، ومنهم أمير التعبئة ويقود خمسة آلاف حتــى عشــرة آلاف. ثــم أمــير الكــردوس يقود ألف جندي. يليه القائد الذي يقود (١٠٠) جندي، يليه الخليفة ويقــود (٥٠) جنديــاً، النقيــب وقد اختلف في مركزه[3] فبعضهم رآه فوق العريف وبعضهم الآخر رآه أقل من العريف.

ثانياً: العريف: يقود (١٠) جنود، ومهمتهم الإشراف على الجند عند النفــير[4]. ومــن مهمتــه الإشراف على الأمن والنظام. **المنكب**: يذكر أن هذه الوظيفة كانت قــد أنشــئت في عهــد زيــاد بــن

---

[1] الطبري - تاريخ الرسل والملوك - ج٢- ص٢٠٠.

[2] ابن الاثير - الكامل في التاريخ - ج٢ - ص٢٠٠.

[3] الطبري - التفسير ج٦ - ص٨٥.

[4] الطبري - تاريخ الرسل والملوك - ج٢ - ص٨٦٦.

أبيه[١] وقد اختلف في هذه الوظيفة أيضاً، فبعضهم يرى أن المنكب هـو رئيس العرفـاء، بينمـا يـرى بعضهم الآخر أن المنكـب أقـل مـن العريـف وتـابع لـه[٢]. وكـان يرافـق الجيـش في مهامـه صـاحب الأقباض، ومهمته حفظ الغنائم وقسمة الفيء، وجمـع الراغبين في الجندية، والفـرض لهـم في ديـوان العطاء، والعارض مهمته عرض الجند للكشف عن لياقتهم والتفتيش عن أسـلحتهم[٣] ويرافـق الجيـش القاضي والترجمان والكاتب. وها هو ابن خلدون يذكر تنظيم القوات العربية الإسلامية على الشكل التالي:

العريف على عشرة/ **الخليفة** على خمسين/ **القائد** على مائة/ **أمير الكردوس** على ألف. أمراء التعبئة (ميمنة، ميسرة، قلب، مقدمة، مؤخرة) أمراء الجيش. **وأخيراً:** قـائد الجيـش (القـائد الأعلـى للقوات). بذلك تصبح الوحدات كتل صغيرة متراصة تسمى كردوساً.

وبدلاً من تقسيم الجيش إلى فرق، تنسـب كـل منهـا إلى قبيلـة، فقـد رأى الأمويـون تشـكيل جيش نظامي مهمته خدمة الدولة والقيام على حمايتها وتزويده بالسـلاح والعتاد المناسـب بالإضافـة إلى إيـجاد قادة محترفين ذوي خبرة وقدرة قتالية عالية.

كان الجيش العربي الإسلامي يتألف مـن الجنـود المرتزقـة[٤]. وكـان لهـم مرتبـات مـن الدولـة يضاف لهم المتطوعة. وهؤلاء لم يكن لهم سوى الأرزاق، كما ضم الجيش المشاة (الرجالـة) والخيالـة (الفرسان)، وكانت الخيالة تشكل القوة الرئيسة للجيش، حتى أن الرسول (ص) ـ منذ البداية ـ كان قد جعل للفارس سهمين عند توزيع الغنائم، بينما أعطى الراجل سهماً واحداً وكـان يسـند للخيالـة مهمة الاستطلاع والإغارة.

ثم توسع تنظيم الجيش العربي الإسلامي، فأصبح يضـم فـرق الرجالـة (المشـاة) وهـم الصـف الرئيسي في الجيش وسلاحهم الرماح والسيوف والحراب والقسي والسهام والدروع والخـوذ المغـافر وحقائب النبل وما شابه ذلك.

---

[١] عارف عبد الغني ـ نظم الاستخبارات عند العرب والمسلمين ـ ١٩٩١ـ ص٢٣٣.

[٢] الذهبي ـ طبقات الجاحظ ـ تحقيق عبد الرحمن العلمي ـ بيروت ١٩٨٧ ـ ص ٧٤٠ الطبري التفسير ـ ج٦ ـ ص٨٦.

[٣] فيليب حتي ـ تاريخ العرب ج٢ ـ ص٤٠٩.

[٤] ابن القراء ـ أبي بعلي بن الحسين القرا الحتيلي ـ الأحكام السلطانية ـ تحقيق محمد الفقي ـ طبع بيروت ١٩٨٣ ـ ص٣٨.

فرق الخيالة: عرف عن العرب في جاهليتهم بأنهم من أمهر الفرسان، وعندما جاء الإسلام شجع على الاعتماد على الخيول والتدريب عليها، وشجع الرسول (ص) على ركوب الخيل بقوله «**علموا أولادكم السباحة والرماية وركوب الخيل**»، وعنى بذلك التدريب على السباحة وركوب الخيل، وكان يدرك أهمية البحر واستخدامه في الحروب، وأمر بالتدريب على الرماية بمختلف ألوانها وتطويرها. إذن اعتنى العرب بالفروسية، ففرسانهم كانوا مسلحين بالسيوف والحراب والرماح الطويلة، والعرب هم أول من اخترع الركاب في سرج الخيل، ونظراً لأهمية الخيالة، فقد كانوا يكلفون بمهام جسيمة مثل الاستطلاع. والإغارة، وأخيراً استثمار الظفر.

فرق النشابين: وهم رماة السهام، وكان يوكل إليهم مهمات تعبوية مثل الدفاع عن الممرات الإجبارية والأماكن الاستراتيجية من الناحية التعبوية، كما كانت تسند إليهم مهام الحماية والتمهيد واستثمار الانتصار وغير ذلك من المهام، أي أن مهامهم، تقاس بمهام المدفعية في الوقت الحاضر.

فرق الدبابات: كان الجند يدخلون ضمن الدبابة ويزحفون باتجاه الأسوار. يرافق الدبابة بعض الجنود الرجالة والفيلة هدفهم فتح ثغرة ضمن السور ليسهل اقتحامه.

المنجنيقيون: رماة المنجنيق.

العيارون: رماة الحجارة أو قطع الحديد من المقاليع والمخال وغيرها.

النفاطون (الزراقون): وهم الذين يرمون النفط، وأحياناً كانوا يرمون النار اليونانية.

وفرق الخدمة والنقابين: (كإدارة المهندسين في الجيوش المعاصرة والخازن (كإدارة المهمات). والصراف كإدارة المالية والمترجم كالإدارة السياسية، وصاحب الخبر كالمخابرات العسكرية، والقاضي كإدارة القضاء. واعتمد العرب عملية الكر والفر، فكانوا يظهرون فجأة في البلاد، فينزلون الرعب بالأهالي، ويشتبكون مع طلائع العدو ومقدمته، ثم ينسحبون بعد أن يوقعوا بأعدائهم خسائر فادحة كونهم كانوا يحققون المفاجأة والمباغتة. كما كان معاوية يفعل بأطراف العراق[1] بعد معركة صفين.

---

[1] الطبري - تاريخ الرسل والملوك - أحداث سنة ٣٩هـ - ج٥ - ص٦٣٣ وما بعدها.

وعن تنظيم الجيش يقول الهرثمي: (ليوضع أهل التجارب والبأس والنجدة والقوة الظاهرة في القلب أمام الصفوف، وأهل التجارب وأصحاب الرمي والطراد والمشاولة والمبارزة وطلاب الكر في الميمنة أمام الصفوف، وأهل التجارب والحيل والمصابرة بحيث يحتاج إلى الكثرة من ردء القلب، وأهل التجارب والمعرفة بموضع المعركة والكمين والظفر والهزيمة، وتشجيع أصحابهم مع سرعة الإصابة لهم في ردء القلب وكل رجل ضعيف وحاسر من الجند خلف أثقال مما يلي ردء الأثقال)[1].

كانت قوة الجيش الأموي تقوم على فرسان الخيالة الثقيلة، حيث كانوا يلبسون مغافر من الفولاذ ودروعاً من الزرد مع علامات فولاذية للضباط وصف الضباط، وكان سلاحهم السيف والخنجر والقوس والرمح، كما كان المشاة في معظم الأمر النابلة الخفيفة، إلا أن بعض الولايات كانت تقدم بدلاً من ذلك رجالاً من حملة الحراب، كما كان هناك فرق من المشاة الثقيلة يقفون على الممرات الجبلية، يلبسون الدروع ويحملون البلط والرماح والسيوف والتروس.

أما سلاح الإمداد والتموين، فكان يتولاه غير المحاربين، حيث كان لهم هيئة من المهندسين غير المحاربين كانت موجودة دائماً لإقامة المعسكرات والجسور وتحسين الطرق وغيرها، كما كان لهم هيئة طبية عالية الكفاءة. تحمل معها خدمة من الإسعاف.

إن الحياة الأموية حياة حربية وسياسية أكثر منها اقتصادية، فالنظام السياسي شبه إمبراطوري على رأسه الخليفة الملك. من هذا نستدل على منشأ السلطة وطبقتها العسكرية، كما أن هناك طبقة من الأشراف يستشيرهم الملك في أكثر الأحيان تسمى بمجلس الدولة، ومن ناحية أخرى كان الملك يهب الأشراف إقطاعات واسعة، وهم بدورهم يمدون الملك بالرجال والعتاد إذا نفر إلى الحرب لأنهم كانوا يحتفظون بقوات مسلحة جاهزة للقتال في مقاطعاتهم. مما ورد نلاحظ أن الجيش هو عماد الدولة، انطلاقاً من مبدأ أن استمرارها يتعلق بوجوده الذي يحافظ على وجودها، لذلك كان يفرض على كل رجل تتوفر فيه الشروط التالية الانضمام إلى القوات المسلحة كلما دقت ساعة الحرب. وكان يرافق مسير الجيش إلى القتال موسيقى حربية، يرافقها هتاف الجماهير. أما عن تنظيم القوات، فقد كانت القوات الحربية تتألف من فرق تجند من جميع الشعوب التي سيطر عليها

---

[1] الهرثمي ـ مختصر سياسة الحروب ـ تحقيق عبد الرؤوف عوف ـ محمد مصطفى زيادة ـ طبع مصر ـ ص٣٦ ـ ٣٧.

الأمويون، ولهذه الفرق ميزات أهمها: أن تتكلم لغة شعبها. تقاتل بأسلحتها وبأساليبها وأعتدتها الخاصة.

وأما الجيش العامل، فكان قوامه من العرب، ومنه كانت تؤخذ حاميات تقيم في نقاط استراتيجية هامة من الإمبراطورية العربية. كما أن حامية هذه النقاط تكون تحت إمرة قادة شديدي الإخلاص للبلاط، وهي في الوقت نفسه أداة ترهيب بيد السلطة ضد من تسول له نفسه الغدر بالدولة وقائدها. يضاف إلى ما ورد فرقة الحرس الملكي[1]. وظيفتهم حماية الملك، وتعدّ هذه الفرقة أهم فرق الجيش قاطبة، دون استثناء.

وكان القادة العرب المسلمون في هذه المرحلة يقومون بنظام تعبئة[2] إذ يرتبون قواتهم على الشكل التالي: ١- القلب وفيه القائد. ٢- المقدمة. ٣- الميمنة. ٤- الميسرة. ٥- الساقة (المؤخرة). وأحياناً تكون الخيالة والرجالة منفصلين كل منهما عن الآخر.

يقول ابن خلدون في مقدمته حول ذلك. (فإذا تم لهم الترتيب المحكم، إما في مدى واحد للبصر أو على مسافة بعيدة، أكثرها اليوم أو اليومان بين كل عسكريين منها، أو كيفما أعطاه حال العساكر في القلة والكثرة، فحينئذ يكون الزحف من بعد هذه التعبئة). وجعل الهرثمي أصل التعبئة (القلب - الميمنة - الميسرة)، أما المقدمة والمؤخرة، فقد جعلها من الأصناف الثانوية. وكان للعرب تعبئة في المسير وفي المبيت وحتى في الصلاة، وأهمها في القتال. كما اعتمد العرب منذ البداية نظام القتال بالصفوف، واستمر هذا القتال حتى نهاية الدولة الأموية.

فخالد بن الوليد يوم اليرموك كان قد قسم جيشه إلى كراديس[3]، وعمل بهذا النظام خالد بن سعيد في فتح الشام، وعمل به أيضاً سعد بن أبي وقاص في معركة القادسية[4]. والحقيقة التاريخية أن نظام الصف والكردوس كانا مستعملين في حروب العرب المسلمين، واستمرا حتى كان عهد مروان ابن محمد آخر الخلفاء الأمويين، فأبطل نظام الصف واعتمد نظام الكراديس[5].

---

[1] الطبري - تاريخ الرسل والملوك أحداث سنة ٤٠ هـ - ج٥ - ص١٤٩.

[2] محمود أحمد محمد - سليمان عواد - الجيش والقتال في صدر الإسلام - طبع الأردن ١٩٨٧ - ص٢١٥ وما بعدها.

[3] الطبري - تاريخ الرسل والملوك - ج٣ - ص٤٨٨.

[4] ابن خلدون - تاريخه - ج٢ - ص٣١٥.

[5] المرجع نفسه - ج١ - ص٤٨٤.

إذن اعتمد القادة الأمويون الصف. فمثلاً جعل عتاب بن ورقاء جيشه صفوفاً في حرب شبيب الخارجي، فأصحاب السيوف في صف، وأصحاب الرماح في صف، والرماة في صف، وأهم الصفوف التي استخدمها العرب هو الصف المستوي، والصف الهلالي، والصف المعقوف. أما ترتيب القتال فيوضحه الطبري بقوله: (إن سعد بن أبي وقاص دعا إلى اجتماع حرب، ووزع القادة والجند بعد أن عبأهم بقادة أكفاء. وقدر قوتهم على الشكل التالي:

آمر أمراء الأجناد وعرّف العرفاء، فعرف على كل عشرة رجلاً وآمر على الرايات رجالاً من أهل السابقة. وعشر الناس، وأمر على الأعشار رجالاً من الناس لهم معرفة وطرق في القتال. وأمر على الأعشار رجالاً قادة لهم سابقة في فن القتال وأصوله. ويذكر الخبر (الطبري) موضحاً ذلك بقوله: وولى الحروب رجالاً، فولى على مقدّماتها ومجنباتها وساقتها ومجرداتها وطلائعها ورجلها وركبانها، فلم يفصل إلا على تعبئة.

أما أمراء التعبئة الذين شكلوا ترتيب القتال[1] فهم كما يلي: - **مقدمة**: عليها زهرة بن عبدالله ابن قتادة. - **الميمنة**: عليها عبد الله بن المعتم. - **الميسرة**: عليها شرحبيل بن السمط الكندي. - **الساقة**: عليها عاصم بن عمرو التميمي - وجعل خليفته خالد بن عرفطه. - **الطلائع**: عليها سواد بن مالك التميمي - وسلمان بن ربيعه الباهلي على المجردة. - **على الرّجل**: حمَّال بن مالك الأسدي. - **على الركبان**: عبد الله بن ذي السهمين. فكان أمراء التعبئة يلون الأمير، والذين يلون أمراء الأعشار أصحاب الرايات، والذين يلون أصحاب الرايات والقواد رؤساء القبائل.

من هذا نلاحظ تسلسل وتنظيم القيادة والقوات وترتيبها عند العرب المسلمين على النحو التالي: - القائد العام لجيوش المسلمين في المدينة مقر القيادة المركزية. - قائد الجبهة الشرقية: سعد بن أبي وقاص. - نائبه: خالد بن عرفطة. - أمراء التعبئة: (زهرة بن عبد الله، عبد الله بن المعتم، شرحبيل السمط، سلمان بن ربيعة، سواد بن مالك، حمال بن مالك، عبد الله بن ذي السهمين). - رؤساء القوم زعماء قبائلها تحت أمرتهم أمراء يقود الواحد منهم مجموعة عرفاء. - العرفاء، كل منهم يقود عشرة من الجند.

[1] الطبري - تاريخ الرسل والملوك - أحداث سنة ١٤ هـ - ج٣ - ص٤٨٨.

إذن كـان جيش العـرب المسـلمين علـى قلـة عـدده إذا مـا قيـس بعـدد جيـش العـدو والـذي لا تقـدر نسبته إلا بربعـه، ووجـود الجيـش العربـي المسـلم فـوق أرض يسـيطر عليهـا الفـرس أي أنـه مهـاجم وبشـكل مباشـر مـع حداثـة عهـده، وخبرتـه وضعـف إمكانياتـه الاقتصاديـة والمادية، ورغـم كـل ذلـك استطاع أن يحقـق انتصـارات سـاحقة ومتلاحقـة.

وأخيراً لقد تمتع الجيش بمميزات أهمها:

١ـ إن الجيش العربي الإسلامي بتعبئته الحسنة، كان يقاتل بعقيـدة راسـخة مؤمنـاً بهـا فكـراً ومبدأً، رفعت من معنويات المقاتل المسلم.

٢ـ وإن العدل والمساواة في صفوف الجيش وملازمتها لكـل مسـلم زمـن السـلم، يـؤدي إلى استمرارها زمن الحرب.

٣ـ الوحدة والألفة في صفوف الجيش، كانت على عكس ما يوجد لدى العدو، فيقلل ذلـك من تعبئته، ويزيد من أهميتها عند العرب.

٤ـ التبدل المتجدد في التعبئة الإسلامية بما يتطلب والحاجة في مختلف الجبهات، زاد أيضاً من أهمية التعبئة العربية وتفوقها على التعبئة الفارسية.

٥ـ إن قوام الجيش المسلم العربي كان من عنصر واحد هو العربي، صاحب عقيدة تجعل هذه الميزة منه مقاتلاً أفضل من الجيش الذي ينتمي إليه أقوام وأجناس شتى فيضعف ذلك من تعبئته.

٦ـ قدرة التعبئة العربية الإسلامية في تحريك القوات والمنـاورة تفـوق قـدرة الجيـش الفارسـي المعادي. **ملاحظة:** كان الجيش في العهد الأموي والعباسي إسـلامياً؟ وإن كـان الأمويـون يعتمـدون على العنصر العربي في الجيش.

إن التعبئة العسكرية الإسلامية استولت على بلاد فارس وحررت العرب من بيزنطـة. ممـا ورد نجد أن الانتصارات التي حققها الجيش العربي الإسلامي على كـل الجبهـات، تؤكـد حسـن تنظيمـه وترتيبه وقدرة قيادته الحكيمة على خوض الأعمال القتالية.

لعل خير مثال على تعبئة الجيش، هو ما حدث عند موقعة صفين[1] بين جيش علي بن أبي طالب كرم الله وجهه، وجيش معاوية في مطلع تأسيس الدولة الأموية.. حيث تشكل الجيش من كتائب تشكلت وحداتها من أفراد الجيش مجهزين بأسلحة القصد منها مهاجمة الخصم وذلك بزحزحة الصفوف والتأثير على معنوياتها وإضعافها. أما معاوية فقد كون جيشاً من جنود احترفوا الحرب واتخذوها مهنة، ومسلكاً لهم، حيث خضعوا لتدريب عسكري، كما كان يدفع لهم مرتباتهم مقابل الولاء والطاعة. وكانت اليمانية تشكل القسم الأكبر، منه حيث شكلت عنصر القوة الأساسي، وكان من الطبيعي أن تكلف تعبئة الجيوش نفقات باهظة لم يكن يتحملها لو لم يكن باستطاعته أن يتصرف بموارد المقاطعات الواسعة الغنية التابعة له.

والحرب قد تمتد طويلاً والجيش الذي يخوض هذه الحرب لا بد وأن تجرى تعبئته، حيث يقسم إلى كتائب[2] في ساحة الحرب حسب نوع أسلحتها، لتحتل مواقعها في الميمنة أو الميسرة أو القلب، أو المؤخرة أو الطليعة، وكان لا بد أيضاً من التوقف بعيداً، حيث يمكن تعبئة الجيش وتعيين مواقع الكراديس قبل الشروع بالتقدم إلى الأمام، والتحرك يكون ببطء واحتراز، محافظة على النظام من جهة، وتحسباً لكل طارئ مفاجئ من جهة أخرى. وكان من استراتيجية الأمويين في فتوحاتهم الاستيلاء على المدن الكبرى، كما لاحظنا في فتح الأندلس في الجبهة الغربية في فتوحات قتيبة في الشرق.

هذا بالإضافة إلى الاستيلاء على أرض العدو، وعلى تموينه واستباحة الريف وغزو وسلب القرى والمزارع لإرغام العدو على إلقاء سلاحه. ولتحقيق ذلك اعتمد الأمويون فرق الخيالة (الفرسان)، حيث هي التي تقرر المصير، وذلك من خلال الهجوم المفاجئ الحاسم والجانبي.

والحرب الأموية ليست كلها اقتتالاً. وإنما كانت في بعض الأحيان حرب اقتصاد. فبعد أن توفرت للدولة واردات طائلة من جباية الرسوم والضرائب المفروضة، عمدت الدولة إلى تكوين جيوش جرارة، لذلك كان الأمويون يحاولون ضرب اقتصاد العدو حينما يجابهونه لتضييق الخناق عليه، والحروب لم تكن على جبهة واحدة. أي لم تكن محصورة بمنطقة واحدة، وإنما على العكس

---

(1) البلاذري - أنساب الأشراف - تحقيق محمود فردوس العظم - الجزء الثاني - طبع دمشق ١٩٩٦ - ص١١ وما بعدها.

(2) الطبري - تاريخ الرسل والملوك - أحداص نة ٣٧ هـ - ج٥ - ص١٠ وما بعدها.

كانت كثيرة، وغايتها كانت تغطية الحدود من أطرافها. وكانت الحملات العسكرية حاسمة ولكن ليس القصد منها إبادة الجيش المعادي.

فقد كانت المسافات والمساحات الشاسعة وصعوبة تموين الجيش من عوامل الانكفاء أو التوقف. لذلك كنا نرى دائماً قادة هذه الجيوش يخططون لهجوم صاعق، يبلغ معه الجيش (الأموي) قلب البلاد والمراكز الحساسة، وغاية ذلك إنهاك المراكز الدفاعية ومستودعات التموين ومخازن المياه واحتلال الحصون. وكانت غاية الجيش احتلال الثغور والحصون المعادية، حيث تعدّ أبواباً ونوافذَ تؤدي إلى قلب البلاد المعادية ومسالك طبيعية تؤدي إليها.

ومن المهام الرئيسة للجيش، قطع طرق المواصلات المعادية وقطع موارد التموين والتسليح وغير ذلك من الوسائل، وذلك كخطة حربية تكون نتيجتها الوصول إلى الصلح، وكان لأعمال الفروسية أهمية بارزة، وكثيراً ما كان دورها بارزاً ومهماً. فكثيراً ما نرى في الحروب الأموية زعماء لهم شهرتهم الواسعة يتبارزون علانية على مرأى الجيوش قبل بدء الحرب وأيام السلم. والمعركة وظروفها ومكانها تحدد تعبئة القوات وترتيب قتالها وبذلك تتجلى بوضوح وحدة الجيش. وتموينه، وترتيبه وكيفية قتاله، ففي البداية كان القتال عند العرب المسلمين على شكل صفوف متوازية، وذلك بتقديم الرجالة وفي أيديهم الرماح.

في البداية كان التموين يقع على عاتق الصحابة[1]، وأصحاب الامكانيات والقدرات الاقتصادية الزائدة حيث يقدمون مساعدات لشراء الخيل والجمال للمحاربين، ويعملون على إمدادهم بالسلاح والطعام واللباس، ويكفي أن نذكر منهم (طلحة الخير وأبا بكر وعثمان وعمر بن الخطاب وعبد الرحمن بن عوف)[2] وكان الجندي يمون نفسه في بعض الحالات من أسلاب عدوه. ثم جمعت الضرائب لهذا الغرض عيناً. (كالحبوب والزيتون والعسل وغيرها)، بعد ذلك حول جمع الضرائب المدفوعة إلى نقد، وأسست إدارة لتموين الجيش عرفت باسم الإهراء، وكان عمر ابن عتبة أول موظف يرأس هذه الإدارة[3]، ثم وضع الديوان ورتب العطاء. أما المتطوعة فكانوا يجهزون

---

[1] الحلبي - علي بن برهان الدين الحلبي - السيرة الحلبية - ج١ - ص٢٥١.

[2] ابن خلدون - تاريخه - ج٢ - ص٤٤٤.

[3] الحسيني - الإدارة العربية - ص١٢٢.

أنفسهم بمستلزمات القتال، واتبع هذا النظام في العصر الأموي. أما نفقات الجيش النظامي وتموينه فكان يقع على عاتق الدولة. فقد ذكر أن الحجاج كان قد جهز جيشاً إلى سجستان فبلغت نفقاته مليوني درهم عدا رواتب الجند[1].

كان الخليفة عمر بن الخطاب أول من جعل الجند فئة مخصوصة، وأنشأ ديواناً للإشراف، وذلك بتسجيل أسمائهم وأوصافهم ومقدار أرزاقهم وإحصاء أعمالهم، علماً أن القتال في عهده كان يقوم على العاطفة الدينية، والرغبة في نشر الدين، وإليه يرجع الفضل في إقامة الحصون والمعسكرات الدائمة في مواقع استراتيجية لراحة الجنود أثناء تحركاتهم.

يؤكد ذلك أوامره ببناء مدينة البصرة والكوفة على الجبهة الشرقية كمعسكرات دائمة للجند، لأن عمر بن الخطاب كان قد وضع مبادئ لجنده، منها ألا يقيموا داخل المدن التي يفتحونها وأن يظلوا في ضواحيها، واستمرار بناء الحصون والمعسكرات. مما ورد يتضح لنا وجود مراكز استراتيجية تحتوي على الجند. وبشكل دائم تزجهم عند الحاجة، أما جند الشام، فتشكل من أهل الشام ومن العرب الذين استقروا بربوعه، ثم أضيف إليهم من اعتنق الإسلام من جميع الشعوب، علماً أن اليمانيين في بلاد الشام كانوا أكثرية الجيش الأموي.

أكمل الأمويون ما بدأه الخليفة عمر في نظام الجندية الإجبارية، عندما تقاعس المسلمون عن الحرب، وانصرفوا عن القتال، وكان الجيش في العهد الأموي يتكون من الفرسان والرجالة. وكان الفرسان يلبسون الدروع والخوذ المصنوعة من الصلب والمحلاة بريش النسور، ويرتدي الرجالة أقبية قصيرة متدلية إلى ما تحت الركبة وسراويل ونعالاً تشبه النعال التي يلبسها أهل بلاد الأفغان اليوم. وكانت النساء يصحبن الجيش[2] لإثارة الحماسة في نفوس الجند. وطاعة الجند كانت واجبة لقائدهم لأنه نائب الخليفة في مكان وجوده يقود القوات.

أما بعد الحرب فتصبح مهمته مقصورة على النظر في تدريب الجند، وتحسين مقدرتهم وأسلحتهم. ويعود الفضل في تنظيم القتال إلى بعض القواد العرب أمثال: عمر بن الخطاب، خالد ابن الوليد، سعد بن أبي وقاص. وفي عصر الأمويين اختلط العرب بغيرهم وأخذوا نظام التعبئة

---

[1] ابن الأثير - الكامل في التاريخ - ج٤ - ص٣٦٥.

[2] الطبري - تاريخ الرسل والملوك أحداث سنة ١٤ هـ - ج٣ - ص٥٥٠.

المتعارف عليه عالمياً آنذاك، وهو تقسيم الجيش إلى خمسة أقسام، علماً أن كل قسم من الميمنة والميسرة والقلب، كان يقسم إلى ثلاثة أقسام: مجنبتين وقلب لسهولة القيادة والمرونة في الحركة.

لقد اكتسب الفن العسكري في العصر الأموي، ميزات جديدة مع تعاظم القوات الأموية في مختلف الأقاليم. والميل إلى تحقيق التعاون بين هذه القوات المختلفة، وتنسيق حركات المقاتلين إبان الأعمال القتالية. وتجلى ذلك نتيجة لحذاقة القادة الأمويين ومهارتهم في استخدام مثل هذه القوات. وكانت السلطة تضطر لإرسال الجندي الشامي إلى خارج بلاد الشام، كما رأينا عند حصار مكة الأول، وفي الحصار الثاني، ثم في طلب الحجاج لجند بلاد الشام من عبد الملك بن مروان للقضاء على الخوارج، وغير ذلك مما يؤكد الميزات الممتازة للفن العسكري لمثل هذا الجند وتطوره. وحرص الأمويون على جند بلاد الشام وعلى الأخص اليمانية حيث أصبح المقاتل منهم رجل حرب كامل الصفات.

إن امتداد رقعة الدولة الأموية، وتباين أقوامها وامتداد أطرافها وقيام شعوب وقبائل مزعجة بجوارها. كل ذلك أدى إلى تشكيل الجيش. وقيام الجيش يترتب عليه مشكلات اقتصادية وسياسية واجتماعية. بالإضافة إلى تكتيب الفيالق وتعبئتها ومكان ترابطها وتواجدها. لهذه الأسباب مجتمعة، كان لا بد من جيش محترف تضرس جنده ركوب الخطر والتدريب، وجيش من هذا النوع لا يمكن أن يكون إلا من متطوعين قبلوا الجندية اختياراً يتدربون على فنون الحرب والجهاد يومياً بتمارين رياضية وعسكرية مستمرة.

ولوجود مثل هذا الجيش كان لا بد للدولة من نفقات ومصاريف ترزح تحت كاهلها بالإضافة إلى الأعباء والمسؤوليات المترتبة عليها لتأمين العيش لأفراد الجند ومدهم بما يلزم من عدة الحرب والسلاح. غير أن مشوقات التطوع، كالمرتبات والمكافآت العينية أو النقدية والحصول على الأرض التي يصار إلى توزيعها. ثم التعويضات التي تعطى لهم حين التسريح من الجيش، والترقية إلى مرتبة احتماعية أو قضائية أعلى عن طريق الجيش، هي الدافع لرغبة المواطنين بالانتساب للجيش. لهذه الأسباب المذكورة راحت الدولة تدعو للخدمة في جيشها. فبقاء الخليفة واستمراره في الحكم، كان يرتبط أحياناً ببقاء الجيش والعكس صحيح.

امتاز الجيش الأموي بنظامه وطاعته لقادته، بالإضافة لمهارة القادة وحنكتهم، حيث عرف

جند الشام بطاعة السلطان. والطاعة أولى ميزات الجندي. وعندما كان الجيش الأموي يصل لمرحلة تضعف فيه مقدراته وحسن استخدامه، كان الأمويون يرمونه برجل قوي الشكيمة، يكبح جماح أفراده، ويجمع قلوبهم على الطاعة، كما حدث للحجاج وزياد بالعراق.

كانت القيادة المركزية في الجيش مرتبطة برأس السلطة، حيث كان الخليفة يقود الجيوش، وهو بمركزه يعين ويوجه ويولي كما يشاء. كما أدخل الأمويون على الجيش عناصر غريبة، وإن اعتنقت الإسلام عملياً. كذلك استخدموا الخدم بكثرة. إذن تعد الدولة الأموية من أقوى دول العالم آنذاك، والفن الحربي يمثل فيها أعلى مرحلة في التطور.

أما تسليح الجيش، فكان الدبابة، المنجنيق، رأسها الكبش، وسلم الحصار الخنادق، بالإضافة إلى السيف والرمح والترس والخوذة والأسلحة الصغيرة الأخرى، وكان يترتب على الجيش إضافة لحماية الدولة ذات الحدود الواسعة. والدفاع عنها ضد كل خطر خارجي - أعباء المراقبة ـ مراقبة الشؤون الإدارية.

ورغم كل ذلك، ونتيجة تعداد السكان والمساحة الواسعة، فإن الجيش كان بحاجة إلى كل فرد من أفراده، حيث كان يتكون من وحدات وفرق. إلا أن عدداً من الفرق والوحدات التي كانت تشبه إلى حد بعيد، فرق الجيوش الحديثة، قد تضاعفت، وكانت موزعة على مختلف المناطق والولايات وفقاً لمتطلبات الحاجة العسكرية، وضرورات الدفاع والمحافظة على الأرض. فكانت في معظمها جيوش تغطية وتوسع واحتلال وفق ما تمليه عليها الظروف.

ولو عدنا إلى الجيش الأموي والقادة فيه، لرأينا له ميزة، هي أن أفراده متساوون في الحقوق والواجبات، وبإمكان أي مقاتل مسلم أن يتسلم القيادة، كما رأينا عندما سلم موسى بن نصير قيادة الجيش لفتح الأندلس إلى رجل كان على مقدمات جيشه وهو طارق بن زياد دون العودة إلى معرفة طبقة طارق، ولا من أين انتماؤه سوى أنه مقاتل بعقيدة، شجاع، يجاهد في سبيل الله.

أما عن تشكيل الجيش الأموي، فكان يتشكل عند المسير من مقدمة، والقوة

الرئيسة موزعة والمؤخرة. أما عند القتال، فكان ميمنة وميسرة وقلباً وكل منها موزعة إلى صفوف متساوية متراصة. وأما في الولايات التابعة للدولة الأموية، فكانت تقيم فيها ثغوراً وحامية للدفاع عنها عند الحاجة.

وعن الجندي الأموي، فهو اختصاصي، احترف مهنة الحرب بكفاءة ومقدرة، حسن العدة، والعتاد تؤمنها له الدولة، إضافة للتسهيلات والمنافع التي تؤمنها له مصالح الجيش الفنية والهندسية. نتيجة ذلك، يكلف بحراسة القلاع والحصون ويقوم بأعمال الدوريات بين مخفر وآخر، وفي أوقات الفراغ كان الجند يشغلون وقتهم بإصلاح مناطق الحدود وتهيئتها وشق الطرق وتعبيدها، وبناء الجسور والعبارات، وتشييد الأسوار حول مواقع الدفاع وتحصينها، وبناء المساكن والمعابد، والحمامات، وإيصال المياه للمعسكرات.

بدأ معاوية ـ بعد أن استتب الأمر له ـ يعمل على تصفية الموقف المعلق بين دولته والإمبراطورية البيزنطية الذي بدأ منذ فتح قيسارية[1] من قبله سنة (١٩هـ) في عهد الخليفة الثاني عمر بن الخطاب ومروراً بموقعة ذات الصواري[2] سنة (٣١هـ) التي خسرتها بيزنطة مضطرة لتعديل مشاريعها التوسعية، والعدول عنها في مصر والشام حيث أدرك معاوية أن القسطنطينية هي العصب الحساس بالنسبة للساحل الشرقي للبحر المتوسط وجزره. كما كانت تعد القلب النابض للعالم الغربي ومفتاح[3] سيادته وزعامته.

لذلك رأى أن من واجبه ضرب هذا القلب إذا أتيحت له الظروف، وجعل دمشق تحتل هذه المكانة المرموقة في العالم. استهل معاوية جهاده ضد القسطنطينية بحملات متكررة، مؤكداً بذلك أنها ليست بعيدة المنال عن القوات العربية. ورداً على هذه الحملات وجه الإمبراطور قسطنطين عناية خاصة لتقوية وسائل الدفاع عنها وعن

---

[1] الطبري ـ تاريخ الرسل والملوك ـ ج٢ ـ ص١٠٢.

[2] المرجع نفسه ـ ج٤ ـ ص٢٨٨.

[3] إبراهيم أحمد العدوي ـ الأمويون والبيزنطيون البحر المتوسط بحيره إسلامية ـ طبع مصر ـ ص١٦٢.

الطرق الرئيسية المؤدية إليها حيث كان كأبيه هرقل شديد الكراهية للمسلمين[1].

أخذ البيزنطيون بعد أن فقدوا الوطن العربي (بلاد الشام ومصر) الذي كان أهم مورد تستمد منه الإمبراطورية الجند القادرين على القتال والأموال اللازمة للنهوض بالبلاد والدفاع عنها، أخذوا ينفذون سياسة جديدة في إقليم آسيا الصغرى، فوضعوا للدفاع نظاماً حربياً[2] بدأ الاهتمام به في عهد هرقل، حيث كان النظام الإداري الجديد ثورة على الأوضاع الإدارية القديمة التي تفصل بين السلطتين الحربية والمدنية.

وهذا النظام هو توزيع فيالق من الجيش على مناطق تعسكر فيها بصفة دائمة، حيث منح الإمبراطور الجند المقيمين هنالك قطعاً من الأرض يستغلونها ويتمتعون بخيراتها، لترفيههم في الاستقرار وتشجيعهم على الاستماتة في الدفاع عنها، إلى جانب ذلك منح الأباطرة قائد كل فيلق سلطات مدنية وعسكرية واسعة، وأصبحت آسيا الصغرى مقسمة إلى أقاليم حربية يقيم بكل منها فيلق. حيث عرف هذا التقسيم الإداري الجديد باسم نظام الأجناد أو البنود، فنشأت في آسيا الصغرى في القرن السابع[3] أقسام عسكرية حملت فيما بعد اسم (بند) من أجل سد الطريق أمام أي خطر يأتي من الخارج. وهذه الأقسام الحربية هي: بند أرمينية[4] - بند الأناضول[5] بند الابسيكون. البند البحري[6] وظهر ذلك في مطلع القرن الثامن بعد آخر حملة أموية كبرى على العاصمة البيزنطية.

كان العرب أسبق من هرقل في اتخاذ الأجناد وعسكرهم، ووضع الثغور على الحدود العربية، حيث استمرت في العصر الأموي بشكل أقوى وأفضل، وإليك لمحة تاريخية مختصرة عنها عند الأمويين للمقارنة بينهم وبين نظام الأجناد عند بيزنطة. لم يقتصر بنو أمية عندما نقلوا مركز الدولة من العراق إلى الشام على تغيير العاصمة، بل شمل هذا التغيير اتجاه الدولة كله.

---

(1) إبراهيم أحمد العدوي - الأمويون والبيزنطيون - ص١٦٢.

(2) المرجع نفسه - ص١٦٦.

(3) فتحي عثمان - الحدود الإسلامية البيزنطية بين الاحتكاك الحربي والاتصال الحضاري - طبعة مصر ١٩٦٩- ج٣ - ص٩٦.

(4) المرجع نفسه - ص٩٧.

(5) المرجع نفسه - ص٩٦.

(6) المرجع نفسه - ص٩٧.

فلما استقر الأمر لمعاوية في الشام حرص على أن يسيطر على الشواطئ الشرقية والجنوبية والغربية للمتوسط، وعلى جانب كبير من جزره. وفكر في تحويل هذا البحر من بحيرة داخلية في نطاق العالم اللاتيني، وجعله بحيرة عربية خالصة، حيث واصلوا هجومهم من بعد انتصاراتهم في موقعة ذات الصواري، واستعادوا قبرص، وبسطوا نفوذهم على البحر المتوسط بنجاح، واحتلوا رودس، أنزل معاوية في رودس جنداً من العرب سنة (٥٣هـ)، وتعد رودس من أخصب الجزر.

يقول الطبري في أحداث سنة ٩٣ هـ ((وفيها فتحت رودُس، جزيرة في البحر، ففتحها جُنادة ابن أبي أميّة الأزْديّ، فنزلها المسلمون وزرَعوا واتّخذوا بها أموالاً ومواشيَ يَرْعونَها حولَها، فإذا أمسَوْا أدخلوها الحصن، ولهم ناطورٌ يحذّرهم ما في البحر ممن يريدهم بكَيْد، فكانوا على حَذرٍ منهم، وكانوا أشدّ شيء على الرّوم، فيعترضونهم في البحر فيقطعون سفنَهم، وكان معاوية يُدرّ لهم الأرزاق والعطاء، وكان العدوّ قد خافهم، فلما مات معاوية أقفلهم يزيدُ بن معاوية))[1].

كما فتح جنادة بن أبي أمية الأزدي جزيرة أرواد سنة (٥٤)[2]، وأسكنها معاوية العرب، ثم ألح الأمويون على غزو القسطنطينية ثلاث مرات، ووصلوا إلى جدرانها، الأولى سنة (٤٩هـ)[3] بقيادة يزيد، والثانية في حرب السنوات السبع سنة (٥٤هـ)، والأخيرة بقيادة مسلمة في خلافة سليمان سنة (٩٨هـ)[4].

ثم اتبعت الدولة الأموية سياسة احتلاب جماعات شديدي البأس والسطوة، ووضعتهم في المواقع الاستراتيجية عند السواحل والحدود، حيث كان من نتائج اهتمام الأمويين بمحاربة الدولة البيزنطية براً وبحراً، أن اتجهوا إلى جعل قنسرين جنداً مستقلاً منفصلاً عن جند حمص.

---

(1) الطبري ـ تاريخ الرسل والملوك ـ أحداث سنة ٥٣ هـ ـ ج٥ ـ ص٢٨٨.

(2) المرجع نفسه ـ ص٢٩٣.

(3) المرجع نفسه ـ ص٢٣٢.

(4) المرجع نفسه ـ ج٦ ـ ص٥٣٠.

الفصل الرابع

تنظيم القوات استراتيجياً وتكتيكياً

- نظام التجنيد.
- التدريب العسكري.
- توجيه القوات وتحريكها.
- القيادة العسكرية.
- مبادىء التكتيك.
- مهام القوات المسلحة.
- المرتبات.
- اللباس.
- الرايات والالوية والشعارات.



الفصل الرابع

تنظيم القوات استراتيجياً وتكتيكياً

- نظام التجنيد:

كان اختيار الجند يتم وفق شروط معينة، منها اللياقة البدنية[1] ومنها السن والقدرة على القتال. والتجنيد في عهد الرسول لم يقم على قواعد إلزامية، إنما اتخذ شكل الجهاد الطوعي[2]، حيث غدا كل مسلم قادر على القتال متطوعاً للجهاد. وعندما نزلت الآية الكريمة ﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلاَ نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾[3]. حددت بداية تكوين الجيش شبه النظامي، حيث حددت طائفة غايتها الاستنفار لكل حرب وتأدية واجب القتال، والمتطوعة منذ البداية كان كل منهم يعد نفسه وعتاده للجهاد حسب مقدرته من سلاح أو جمل أو عتاد ـ حصان ـ زاد). وكانت القاعدة أن يساعد الغني الفقير، والأكثر ثراء كانوا ينفقون على الحملات[4].

---

[1] إبراهيم أحمد العدوي ـ النظم الإسلامية ـ ص٣١١.

[2] طبقات ابن سعد ـ ج٢ ـ ص٢٧ـ تاريخ الرسل الطبري ج٣ ـ ص١٠٧.

[3] سورة التوبة ـ الآية /١٢٢.

[4] الطبري ـ تاريخ الرسل والملوك ـ ج٣ـ ص١٠١ـ١٠٢.

لكن هذا النظام أخذ يتطور. ففي عهد الخليفة الراشدي عمر بن الخطاب (ر. ض)، أنشئت المعسكرات في الأمصار، وأوجد ديوان الجند الذي كان يصنف الجند الذين بلغوا سن الخدمة في قوائم على أساس القبيلة والعشيرة، وطبق نسبياً، نظام التجنيد الإلزامي، والشدة في تنفيذه سواء عن طريق الرسائل إلى القادة أو عن طريق الأوامر الصارمة الواجب تنفيذها.

وبعد الحرب الأهلية أواخر العصر الراشدي وبداية العصر الأموي، استغل معاوية بسياسته فكرة حب المال في النفوس، وأخذ يبذله في كل اتجاه يخدم مصالحه، وشجع العصبية القبلية، وزرع العداوة في البلاد بين عرب الشام وعرب العراق، وبذلك فقد التجنيد عنصر الإلزام وصار المال أداة للتجنيد في الدولة، وبهذا كان عدد الجند يرتبط بكمية الأموال المتوفرة في بيت المال، فاختل بذلك نظام التجنيد، وأصبح يندمج في القتال من يرجو كسر الخراج، ومن يرجو السلب من اللصوص، وأصبح الخلفاء يسترضون الجند بدفع الأموال لهم مقدماً، حتى وصلوا لمرحلة تمكنوا بها من عزل بعض الولاة للإبقاء على مودتهم[1]. كما فعل عبد الله بن الزبير، عندما عزل أخاه عن البصرة[2]. وبذلك أخذ التهرب من الجندية يأخذ أبعاده، و لم يقف عند حد، وساعد على ذلك كثرة الأحزاب السياسية والثراء والدعة. وعندما ولي الحجاج الكوفة ألزم الناس الخروج لحرب الأزارقة واستعمل الشدة في تنفيذ ذلك. علماً أن إلزامية التجنيد كانت قد بدأت في عهد الخليفة الراشدي الثاني عمر.

والمعلوم أيضاً أن الجيوش العربية الإسلامية كانت مرتبة حسب العشائر، والعشائر كانت عدة قبائل، فالقبيلة كانت أصغر وحدة عسكرية. واستمر هذا النظام حتى أواخر الدولة الأموية إلى عهد مروان بن محمد، حيث غير هذا النظام وحل محل القبائل التي كانت تؤلف فرق الجيش فرق نظامية بالمعنى الحقيقي، وحل القواد المحترفون محل رؤساء القبائل وكانت الفرق أحياناً تحمل اسم قائدها كالوضاحية والزكوانية.

في صدر الإسلام كان كل مسلم بالغ جندياً. لكن مع الزمن تطور هذا العدد، ففي عهد الرسول (ص) وفي معركة بدر كان عدد الجند أكثر من (٣٠٠) مقاتل بقليل، وفي غزوة أحد كان قد بلغ (١٥٠٠) مقاتل، وفي معركة الخندق كان بحدود (٣٠٠٠) مقاتل، أما في معركة تبوك فكان

---

[1] ابن الأثير ـ الكامل في التاريخ ج٥ ـ ص٤٩ ـ ج٤ ـ ص٤٨.

[2] الطبري ـ تاريخ الرسل والملوك ـ أحداث سنة ٦٧ هـ ـ ج٦ ـ ص١١٧.

بحدود (٣٠) ألف مقاتل. وتطور الجيش في عهد الخلفاء الراشدين. فكان قوام جند العرب عند فتحهم حصن بابليون يتراوح ما بين (١٢ و ١٦) ألف مقاتل. وفي بداية حكم معاوية بلغ جيش العرب في موقعة صفين بحدود (١٧٥٠٠) ألف، وكان بالكوفة[١] بحدود (٦٠) ألف مقاتل وفي البصرة (٨٠) ألف مقاتل، ولكل مصر من الأمصار أربعة آلاف مقاتل. وغزا يزيد بن المهلب جرجان وطبرستان بجيش قوامه (١٠٠) ألف مقاتل[٢]، وأقصى عدد وصله الجيش العربي كان في عهد آخر الخلفاء الأمويين مروان بن محمد في معركة الزاب، حيث بلغ (١٢٠) ألف مقاتل.

كان لا بد للقيادة العربية بعد الفتوحات الواسعة من وضع حدود للتجنيد وتكوين جيش نظامي. مثلاً الخليفة عمر بن الخطاب بقي ثلاثة أيام[٣] يندب الناس مع المثنى للخروج إلى العراق، فلم يجبه أحد، فكان لا بد من إيجاد طريقة يتمكن فيها من ترغيب الناس بالجهاد والقتال، وكان ذلك عن طريق الإغراء عندما قال (إن الحجاز ليست لكم بدار إلا على النجعة ولا يقوى عليه أهله إلا بذلك)[٤] واتبع أيضاً المثنى بن حارثة طريق الترغيب، عندما تبين له الخوف من قوة الفرس، حيث أخذ يهون عليهم الأمر ويحرك فيهم الرغبة في المال والحياة الأفضل بقوله: (أيها الناس. لا يعظمن عليكم هذا الوجه، فإنا قد تبجحنا ريف فارس وغلبناهم على خير شقي السوادي وشاطرناهم ونلنا منهم، واجترأ من قبلنا عليهم، ولها إن شاء الله ما بعدها)[٥]. كان ما ورد يفرض على القيادة المركزية الوصول إلى نتيجة أن التجنيد يحتاج إلى شيء من الحزم[٦] والتنظيم، ثم أصبح التجنيد على صيغة أوامر الولاة. كل ما ورد كان من دوافع وضع الديوان بعد أن كثرت الأموال وأصبحت تأتي بيت المال تباعاً من أخماس الغنائم ومن الجزية والخراج.

واعتمد التجنيد على الشباب نتيجة قدرتهم وصبرهم على قساوة الحياة وأحوالها، و لم يحدثنا المؤرخون عن سن محددة للتجنيد، إلا أن سن البلوغ في الجزيرة العربية كان

---

(١) إحسان هندي ـ الحياة العسكرية عند العرب ـ ص١٦.

(٢) المسعودي ـ مروج الذهب ـ ج٤ ـ ص٢٤٤.

(٣) الطبري ـ تاريخ الرسل والملوك أحداث سنة ١٣ هـ ـ ج٣ ـ ص٤٤٤.

(٤) المرجع نفسه ـ ج٣ ـ ص٤٤٥.

(٥) المرجع نفسه ـ ج٣ـ ص٤٥٥.

(٦) المرجع نفسه ـ ج٣ـ ص٤٧٨.

يـأتي مبكـراً لارتفـاع درجـة الحـرارة، والحـرارة تنشـط الغـدد، بالإضافـة للهـواء والغـذاء، وكـان ذلـك مـن عوامـل تحديـد سـن الخامسـة عشـرة[1] واتخاذهـا سـن البلـوغ وسـن التجنيـد. أمـا في بـلاد الشـام، فقـد زاد الأمويـون في سـن الخامسـة عشـرة، كـون هـذه البـلاد تتمتـع بمنـاخ مختلـف، ويمكـن أن نقـدر بـأن سـن التجنيـد عنـد العـرب في بـلاد الشـام كـان محصـوراً مـن سـن السادسـة عشـرة إلى الثامنـة عشـرة. ومـن شـروط التجنيـد الأخـرى، الحريـة، الإسـلام، السـلامة مـن الأمـراض المعيقـة والمانعـة مـن تأديـة الخدمـة في الجيـش، كـأن يكـون مثـلاً (أعمـى أو أخـرس أو أصـم ..) أي أنـه إذ كـان فارسـاً أثبـت. وإن كـان راجـلاً لم يثبـت، ومـن الشـروط الأخـرى الشـجاعة والإقـدام والمعرفـة بالقتـال وفنونـه.

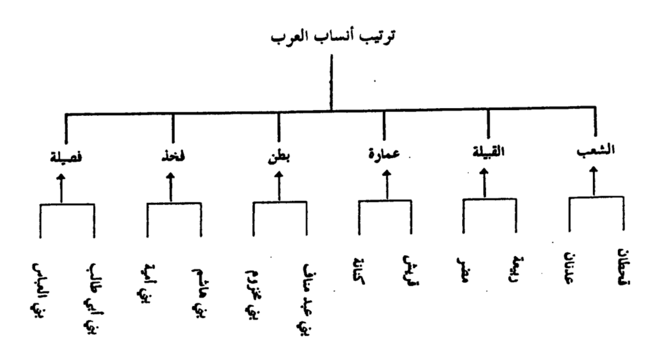
ومـن تتوفـر فيـه هـذه الشـروط، وأراد الانخـراط في الجنديـة كـان يقـدم طلـب انتسـاب إلى صـاحب ديـوان الجنـد، وعندمـا يقبـل طلبـه، كـان يـدون اسمـه في دفـاتر الجيـش، مـع اسمـه وطولـه ولونـه وملامحـه وسـائر مـا يمتـاز بـه عـن غـيره. علمـاً أن المتطوعـين للجهـاد ليـس لهـم شـروط معينـة ودافعهـم الرغبـة في الثـواب.

أمـا ترتيبهـم في الديـوان. فهـو عـام ويقصـد بـه ترتيـب القبـائل والأجنـاس، حتـى تمتـاز كـل منهـا عـن غيرهـا. وقـد ترتبـت أنسـاب العـرب سـت مراتـب[1] هـي: **الشـعب** وهـو النسـب الأبعـد، ومنـه تتشـعب القبـائل كقحطـان وعدنـان، **القبيلـة**: وهـي مـا انقسـمت فيهـا أنسـاب الشعب مثـل ربيعـة ومضـر، **العمـارة**: وهـي أيضـاً مـا انقسـمت فيـه أنسـاب القبـائل مثـل قريـش وكنانـة. **البطـن**: وهـي مـا انقسـمت فيـه أنسـاب العمـارة مثـل بـني عبـد منـاف وبـني مخـزوم. **الفخـذ**: وهـو مـا انقسـمت فيـه أنسـاب البطـن مثـل بـني هاشـم وبـني أميـة. **الفصيلـة**: وهـي مـا انقسـمت فيه أنسـاب الفخـذ مثـل: بـني أبـي طـالب وبـني العبـاس.

---

[1] محمد ضاهر وتر ـ فن الحرب الإسلامي في عهد الرسول ـ طبع سورية ١٩٨٥ ـ ص٢٧٨.

[1] الماوردي الأحكام السلطانية ـ ص٢٣٢.



أما الترتيب الخاص، فهو ترتيب الواحد بعد الواحد، ويرتب بالسابقة في الإسلام، أما العطاء فيقدر بالكفاية، وللكفاية ثلاثة وجوه ترتبط بعدد من يعوله، والمكان الذي يوجد فيه، والغلاء والرخص.. ويكون وقت العطاء معلوماً يتوقعه الجيش عند الاستحقاق، وهذا مرتبط بدوره بالوقت الذي تستوفى فيه حقوق بيت المال فإن كانت تستوفى في وقت واحد من السنة، جعل العطاء في رأس كل سنة، وإن كانت تستوفى في وقتين جعل العطاء في كل سنة مرتين، وإذا كانت تستوفى في كل شهر جعل العطاء في رأس كل شهر. ويعني استيفاء الحقوق ممن وجب عليه من العاملين، واستيفاءها من القابضين لها من العمال. وهو رفوع مساحة وعمل أو رفوع قبض واستيفاء، ورفوع خرج ونفقة.

وإذا تأخر العطاء عن موعد استحقاقه، وكان متوفراً في بيت المال، كان من حقهم المطالبة به كالديون المستحقة[1]. علماً أنه إذا أراد صاحب السلطة إسقاط بعض الجيش لعذر أو لضرورة فيحق له، ولا يحق له ذلك من دون سبب. وإذا أراد بعض أفراد الجيش تسريح أنفسهم من الديوان في حالة الاستغناء عنهم، فيمكن، وعكس ذلك لا يجوز. وإذا فقد أحدهم بعض سلاحه أو عتاده،

[1] الماوردي الأحكام السلطانية ـ ص٢٣٣.

فيعوض عنه، كما كان يعطى نفقات السفر إذا كلف بذلك، وكما أخذ بعين الاعتبار الذين يموتون، حيث كانوا يحولون من عطائه لورثته إذ يعد ديناً على بيت المال.

. التدريب العسكري:

حث العرب المسلمون منذ البداية على أساليب التدريب، فأمروا بتعلم السباحة، وركوب الخيل والرمي والجري، والسباق ومارسوا الصيد والقنص، يقول ابن طباطبا: إن القنص والصيد يشتملان على فوائد كثيرة جليلة النفع، منها وهو الغرض الأشرف منه، تمرين العساكر على الركض والكر والعطف، وتعويدهم الفروسية وإدمانهم للرمي بالنشاب والضرب بالسيف والدبوس، واعتبار القتل والسفك، وتقليل المبالاة بإراقة الدماء وغضب النفوس، ومنها اختيار الخيول، ومعرفة سبقها وصبرها على دوام الركض[1] وحث العرب المسلمون على التدريب على الرماية بالقوس والسهام، والطعن بالرمح والحربة، والضرب بالسيف. ولتأكيد ذلك نرى أن الرسول (ص)، كان قد أرسل اثنين من الجند هما عروة بن مسعود وغيلان بن مسلمة إلى جرش ليتعلما صنعة العرادات والمنجنيق والدبابات[2].

وحث العرب المسلمون على التدريب على ركوب الخيل، حيث أمر الرسول (ص) بمتابعة الخيل إلى تأديبها وترويضها للحرب والركوب. ولأجل ذلك وجدت ساحات التدريب خارج المدينة منذ صدر الإسلام. فمثلاً كان الخليفة عمر بن الخطاب يتفقد هذه الساحات وبصحبته طبيب بيطري اسمه سلمان بن ربيعة[3]، وكان لهشام بن عبد الملك بن مروان إسطبلان مخصصان للتدريب على ركوب الخيل، وكان أول من أقام حلبات السباق لتحسين نتاج الخيل، والشعر العربي مليء بوصف سباق الخيل، كما اشتمل النثر أيضاً على أخبار ذلك، وكان سباق الخيل عند الأمويين أهم تسليه للشعب على اختلاف طبقاته، حتى الأميرات في ذلك العهد كن يتدربن على ركوب الخيل ويشتركن في السباق.

---

[1] ابن طباطبا ـ تاريخ الدولة الإسلامية ـ ص٥٤.

[2] وفيق الدقدوقي ـ الجندية في عهد الدولة الأموية ـ طبع لبنان ١٩٨٥ ـ ص١٤٩.

[3] الطبري ـ تاريخ الرسل والملوك ـ ج٣ ـ ص٥٢٦.

والرمي: هو تدريب الجندي (الرامي) على طرق الرماية بالسهام، وأركان الرمي أربعة[1]: (السرعة ـ وشدة الرمي ـ والإصابة ـ والاهتزاز)، ويحتاج الرامي إلى أربعة (القوس ـ الوتر ـ السهم ـ والجعبة)، وأصول الرمي خمسة: ١ـ القبض على القوس. ٢ـ العقد. ٣ـ المد. ٤ـ النظر. ٥ـ الإطلاق. كما مارس العرب المسلمون التدريب على المصارعة والسباحة والطعن بالرمح والجري، والمسابقة على الإبل، ولا ننسى التدريب على الأسلحة الأخرى مثل المنجنيق والدبابة ورأس الكبش والسلالم والسيوف وعلى عبور الخنادق واقتحام الحصون، كما تدربوا على أعمال الاستطلاع بكافة أنواعها.

نظراً لكثرة الأخطاء والذنوب التي كان الجندي يرتكبها في حالتي السلم والحرب، والتي يذكرها الهرثمي[2]، فقد أوجدت العقوبات، كانت العقوبات تختلف حسب الخطأ، والأخطاء كثيرة منها: بدء القتال بغير إذن، التقاعس عن الخروج إلى الحرب، التارك لموضعه في الصف أو لحرسه، مواري الأسير الهارب من الزحف، الناقم على رئيسه، المفسد للناس، الشخص الذي يثير الشحناء والبغضاء، المشجع للعدو على أصحابه، الدال للعدو على عورة أصحابه.

ومن العقوبات التي استخدمها القادة العرب الإنذار، فمثلاً كان الحجاج بن يوسف الثقفي قد أنذر الجند عندما أراد إعادة النظام بين جند الكوفة والبصرة، وكان هؤلاء الجند قد رأوا أن موت بشر بن مروان أمير الكوفة بمنزلة إشارة لترك معسكر المهلب في رامهرمز دون إذن لهم بذلك، وكانوا قد سئموا البقاء في القتال بعيداً عن ديارهم[3] وكان لهذا الإنذار أهمية في إعادة حشد القوات ومتابعة القتال. كما مارس القادة العرب عقوبات كثيرة مثل الجلد والتشويه والحبس والتجريد وحتى السلخ والقتل. وغير ذلك من أنواع العقوبات. ولنا من تاريخ الحجاج الدليل على ذلك.

---

(١) محمد كامل علوي ـ الرياضة البدنية عند العرب ـ طبع مصر ـ بدون تاريخ ـ ص١٠٨.

(٢) الهرثمي ـ مختصر سياسة الحروب ـ ص٥٦.

(٣) الطبري ـ تاريخ الرسل والملوك ـ ج٣ ـ ص٨٦٥.

. توجيه القوات وتحريكها:

كان القادة العرب المسلمون يقومون باستعراض الجند قبل المسير ويتفقدون الخيل والسلاح والتموين، فمثلاً عندما أرسل يزيد بن معاوية الجيوش بقيادة مسلم بن عقبة إلى المدينة، عرض الأجناد فلم يخرج معه أصغر من عشرين ولا أكبر من خمسين، وأخذ معه عشرة آلاف بعير تحمل الزاد[1] وأثناء تحرك القوات، عرف القادة الحذر والحيطة، ففي المسير كان الجيش يقسم إلى ميمنة وميسرة وقلب ومقدمة ومؤخرة مستعدين لرد أي هجوم كان ومن أي اتجاه. وكانت الطليعة تسير بعيداً عن مقدمة الجيش تتحسس الطريق أمامها وتفحصه، ثم يتبعها الجيش تاركاً وراءه مسافة كبيرة في ترتيب قتالي.

إذاً المقدمة في الأمام، وأمام المقدمة أيضاً الطليعة، وفيها قوة من الفرسان الخفيفة، ثم يتبع المقدمة القلب والجناحان، تحمي الجناحين فرقة خفيفة للهجوم المباغت، وفي الوسط يسير المشاة بالدروع والسيوف والمزاريق وبصحبتهم آلاف الإبل تحمل المؤن والخيام والعتاد، ثم تسير الساقة بالمتاع وآلات الحصار وأدوات الإسعاف، ويسير مع الساقة قائد في قوة يسمى الحاشر، مهمته حشر الجند وعدم السماح لأحد منهم التخلف. وبعد مسيرة كل يوم كان الجيش يقيم في مكان تتوفر فيه شروط الاقامة بعد أن ينصب معسكراً بكل مقوماته. ويرافق الجيش في سيره بعض الطوائف الملحقة بالجيش، كطائفة القصاص والقراء، وطائفة العمال والفعلة، وطائفة الأطباء والممرضات وغيرها كما سنرى.

بعد أن استقر الرسول (ص) في المدينة، اتخذ منها معسكراً، وأخذ ينفر سراياه فيما حولها لتهديد عدوه، وجمع المعلومات الكافية عن تحركاته، أما الخليفة أبو بكر، فقد وصف بأنه كان بارعاً في فن تحريك القوات وحسن جمعها واستخدامها، وقد أثبتت حروب الردة ذلك ومن خلال تحرير بلاد الشام، نلاحظ أن الخليفة كان قد جعل المدينة المنورة مركزاً لقيادته منها يوجه الجيوش، ومنها يصدر تعليماته وتوجيهاته ويحركها من جهة إلى أخرى بالكتب والرسائل عن طريق البريد. أما الخليفة عمر بن الخطاب فوصف بأنه كان بطلاً من أبطال الفن الاستراتيجي، يؤكد ذلك أوامره بتأسيس الكوفة والبصرة في مواقع استراتيجية، وحشدها بالقوات، أيضاً اتخذ المدينة مركزاً لقيادته

---

[1] ابن قتيبة : الإمامة والسياسة ـ ص١٩٥.

يوجه ويحرك القوات ويراقب تنفيذ أوامره عن طريق الرسل والكتب"[1].

وخلال المسير كان العرب يقسمون الجيش إلى جناحين وقلب ومقدمة ومؤخرة، كما عملوا بمبدأ تحقيق السلامة للقوات، فكانوا يقيمون حول معسكرهم أثناء الاستراحات الطويلة بعض التحصينات، وينظمون حراسة دائمة، ويزرعون عناصر استطلاع حول المعسكر، وعندما تطول الإقامة كانوا يقيمون خنادق حول المعسكر. كما طبق العرب المسلمون مبدأ المفاجأة خلال تحركاتهم الاستراتيجية، مما يؤكد اعتمادهم فناً حربياً متقدماً، كما امتازوا بالانتقال من مكان إلى آخر مع اختيار الطرق المناسبة وبالسرعة المناسبة حسبما يتطلبه الموقف، وعمل القادة قبل خوض الحرب على تهيئة المقاتلين للحرب، مع إخفاء أمرها، بالمقابل كانوا يسعون بكل طاقتهم لمعرفة العدو وأسراره ومحاولة منعه من الحصول على أي معلومات عن قواتهم.

والجاسوسية ضرورة حتمية لكل جيش قبل الحرب وبعدها، أي في كل الحالات سلماً كانت أم حرباً. والعرب المسلمون عرفوا الجاسوسية كغيرها[2] وعنوا بالأمن أشد عناية ووضعوا لها المبادئ والأصول والأساليب، فعمل الرسول (ص) بمبدأ بث العيون للاستطلاع في العام الثاني للهجرة، ففي غزوة بدر[3] بعث الرسول (ص) اثنين من الصحابة للحصول على معلومات عن قافلة قريش، كما كان قد أرسل علياً والزبير وسعداً فأصابوا (غلامين فحملوهما إلى الرسول (ص) فسألهما كما يروي ابن هشام[4] بقوله لهما: كم ينحرون كل يوم، قالا يوماً تسعة ويوماً عشرة، فعرف الرسول (ص) أن قوام جيش قريش بين (٩٠٠ و ١٠٠٠ مقاتل). كما أرسل الرسول (ص) عبد بن الأسلمي إلى هوازن، وأمره أن يكون عيناً عليهم، فنفذ المهمة بكل صدق وأمانة وعاد.

ونهج الخلفاء الراشدون نهج الرسول (ص)، فاهتموا بأمر الجاسوسية. وعمل الأمويون بمبدأ التجسس، واهتموا بالجواسيس، واشترطوا فيهم الأمانة والسر، فمثلاً صالح الأمويون الجراجمة على أن يكونوا عوناً للمسلمين وعيوناً لهم في جبل اللكام. وبذلك أصبح للعرب في العصر الأموي نظام

---

[1] الطبري - تاريخ الرسل والملوك - ج٤ - ص٨٧ - ٨٨.

[2] عبد الله علي السلامة المحمد الناصرة - الاستخبارات العسكرية في الإسلام - ص٤٤.

[3] حسين عبد الحميد - الحياة العسكرية لقائد البشرية (ص) - طبع بيروت ١٩٦١ - ص٣٩.

[4] ابن هشام السيرة - ص٦٥.

جديد للجاسوسية، ففي عهد معاوية كان الجواسيس يقدرون المعلومات عن قوة العدو ونقاط ضعفه وتخطيط حصونه، وتشدد عمر بن عبد العزيز في تنفيذ الرقابة على الأجانب، وكان هشام بن عبد الملك يعتمد الجواسيس والمكائد لقمع المؤامرات. يؤكد ذلك ابن قتيبة الدينوري بقوله: (وقد وسع العباد أمنه وأشعرهم عدله، وصارت البلاد المتنائية الشاسعة كوادر واحدة، ترجع إلى حاكم يرقبه الناس في المواضع النائية عنه، كما يرقبه من معه، وقد وضع العيون والجواسيس من خيار الناس وفضلاء العباد في سائر الأمصار والبلدان يحصون أقوال الولاة والعمال، ويحفظون أعمال الأخيار والأشرار، وقد صار هؤلاء أعقاباً يتعاقبون، ينهض قوم بأخبار العصر الذي كانوا فيه، ويقبل الآخرون ويدخلون مسترقين ويخرجون متفرقين، لا يعلم منهم واحد، ولا يرى لهم عابر)[1].

وعن معاملة الجواسيس، فقد كان المهلب يقتل الجواسيس من الخوارج[2] إلا أن ذلك لم يكن قاعدة عامة، حيث كان العرب يعاملون الجواسيس ويستميلونهم بلطف إليهم ليحصلوا منهم على المعلومات التي يطلبونها. وعن مقاومة الجاسوسية فقد كان القادة يهيئون الأذهان إليها وكتم سرها عن الناس ونبه القادة أيضاً إلى اليقظة والحذر، وأكد الله تعالى على الحذر بقوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ﴾[3].

ومن ألزم أمور الجيش سواء في مسيره أو عند نزوله بأرض العدو، أن يرسل طليعته أمامه تختبر أرض العدو، فتعرف مواقع قوته وضعفه، وتجمع المعلومات المفيدة، وتضمن سلامة وأمن تحرك القوات، ووصفت الطلائع بأنها كانت تقوم بعملها حاملة سلاحاً خفيفاً وأفرادها عادة من المعروفين بالثبات والذكاء وسرعة الحركة والشجاعة والنجدة وخيولهم سوابق، جيدة الحوافر، يحمل أفرادها كل منهم قوسه وحقيبته بها عشر نشابات أو عشرون. ومن واجباتهم ألا يباشروا القتال إلا عند الضرورة، ولا يكونوا أقل من ثلاثة، أحدهم يأتي بالخبر، والآخران يتقدمان إلى العدو، وكان يوجد بين الطليعة وقائد الجيش علامات[4]، يسهل من خلالها التعارف.

---

[1] ابن قتيبة ـ الإمامة والسياسة ـ ص٣٢١.

[2] الكامل المبرد في الأدب ـ تحقيق محمد الدالي ـ طبع بيروت ١٩٩٣ ـ ج٢ ـ ص٢٤٤.

[3] القرآن الكريم ـ سورة النساء آية /٧١.

[4] الهرثمي ـ مختصر سياسة الحروب ـ ص٤٨ وما بعدها.

ومـن أفضـل الوصايا حـول ذلـك مـا قالــه الإمــام علــي (ر.ض): (وَاعْلَمُــوا أَنَّ مُقَدَّمَــةَ القَـومِ عُيُونُهُـم، وَعُيُـونَ المُقَدَّمَـةِ طَلاَئِعهُـم، وَإِيَّـاكُم وَالتَفَـرُّقَ، فَـإِذَا نَزَلتُـم فَـانزِلُوا جَمِيعـاً، وَإِذَا ارتَحلتُـم فَـارْتَحِلُوا جَمِيعـاً، وَإِذاَ غَشِـيَكُمُ الليـلُ فَـاجعَلوُا الرِّمَــاحَ كِفَّــةً وَلاَ تَذُوقُـوا النَّـومَ إِلاَّ غِـرَاراً أَو مَضمَضَــةً)[1] .

. القيادة العسكرية:

منذ بداية الإسلام، كان الرسول (ص) والخلفاء الراشدون من بعده، يتولون القيادة العسكرية العليا، حيث تخرج من مدرستهم قادة التحرير العربي العظام. وكان الرسول (ص) يقود بعض الحملات بنفسه. وإذا لم يتولَ قيادتها، عهد بها إلى قادة توفرت فيهم مؤهلات القيادة، كما قرر وجود قائد للجماعة مهما كان قوامها. وأكد ذلك بقوله: «**إذا خرج ثلاثة في سفر فليؤمروا أحدهم**»[2] وفي البداية أيضاً وتحت إشراف القائد العام، تولى شيوخ القبائل قيادة رجالهم في المعارك، وفي الحملات الخارجية، وخاصة مع الروم.

كان الخلفاء والأمراء هم الذين يقودون الحملات، فمثلاً غزا معاوية مضيق القسطنطينية[3] . سنة ٣٢ هـ (٦٥٣م) كما غزا يزيد بن معاوية بلاد الروم سنة (٤٥ هـ ـ ٦٦٥م) حتى بلغ القسطنطينية وكان سليمان بن هشام قد قضى كل شبابه في حرب الروم، وأيضاً مسلمة بن عبد الملك. لكن عندما اتسعت رقعة الدولة الأموية تعذر على الخلفاء الأمويين قيادة القوات، فعهدوا بدورهم إلى قادة خبيرين بتولي القيادة. وكان الخليفة يعقد للقائد اللواء إذا كان داخل العاصمة، أو يرسله بالبريد إليه مع أمر توليه القيادة العامة.

لم يكن اختيار القادة اعتباطياً، وإنما خضع لميادين هامة كان من الواجب اتباعها[4] ، من أهمها الموالاة للدولة، والتحلي بصفات القيادة والشجاعة، ورقة الشمائل والمهارة في ركوب الخيل، والقدرة على استعمال الأسلحة، ومن المواصفات الأخرى الخبرة بمكائد الحروب، فالحرب خدعة،

---

[1] نهج البلاغة ـ تحقيق صبحي الصالح ـ ص٣٧١.

[2] الطبري ـ تاريخ الرسل والملوك ـ ج٣ـ ص١١٢.

[3] المسعودي ـ مروج الذهب ـ ج٢ـ ص٧٢.

[4] حضارة العرب ـ غوستاف لوبون ـ ص٢٩٧.

ووصف الهرثمي صفات القائد بقوله: (قالوا أفضل الرؤوساء في الحرب أيمنهم نقيباً، وأكملهم عقلاً، وأطولهم تجربة، وأبعدهم صوتاً، وأبصرهم بتدعيم الحرب ومواضعها ومواضع الفرص والحيل والمكائد، وأحسنهم تعبئة لأصحابه في أحوال التعبئة وتسييرهم أوان المسير وإنزالهم أوان النزول، وإدخال الأمن عليهم والخوف على عدوهم، مع طلب السلامة لنفسه وأصحابه من العدو، وأن يكون حسن السيرة، عفيفاً صارماً حذراً متيقظاً سخياً)[1] يضاف لما ورد تقوى الله كونها عماد الشجاعة والجرأة، يؤكد ذلك الهرثمي بقوله: (فينبغي لصاحب الحرب أن يجعل رأس سلاحه في حربه تقوى الله وحده، وكثرة ذكره، والاستعانة به، والتوكل عليه، والفزع إليه ومسألة التأييد والنصر والسلامة والظفر)[2].

ومن مهمات القادة القدرة على إعداد الجند من حيث العتاد والسلاح والقدرة على إعداد الحملات، ومن واجباتهم الحزم وتأمين الجيش واختيار ساحة القتال، والمحافظة على خطوط التموين، والعمل على رفع الروح المعنوية، والمحافظة على حسن سلوك الجند، وحثهم على العمل، وترتيب الجيش ترتيباً يتفق مع الخطط الحربية واستطلاع خطوط العدو وتقدير مواقعه في كافة الحالات. والقادة عند العرب لم يكن تعيينهم وقفاً على طبقة ولا على شخص ولا على مجتمع دون غيره، إنما وضع لذلك حدود وشروط لمراعاتها، وأهم هذه الشروط[3]: الإيمان بالعقيدة مبدأً وفكراً والحرية والتقوى والشجاعة، والقوة والفصاحة، والقدرة على استعمال الأسلحة. ورقة الشمائل، والمهارة في ركوب الخيل، والتجربة والخبرة.

أما شروط الإمارة في تقليدها فيوردها الماوردي، وهي مقصورة على سياسة الجيش وتدبير الحروب. فعند تسيير الجيوش، يجب على القائد الرفق بالجند المقاتلين أثناء المسير حتى يقدر عليه أضعفهم، ويحفظ لهم قدرتهم القتالية، كما ويجب على القائد أن لا يجد في المسير لمراعاة المقاتلين ونوعيتهم متطوعين أو إجباريين، أغنياء أو فقراء، رجالة أو فرساناً ذوي عيال أو بدونهم. ومن واجبه أيضاً أن يتفقد الجيش ومن فيه ليقف على أحوالهم وأوضاعهم في مختلف الاتجاهات

---

[1] الهرثمي ـ مختصر سياسة الحروب ـ ص١٧.

[2] المرجع نفسه ـ ص١٧.

[3] جواد كاظم ـ القيادة الإسلامية ـ طبع بيروت ١٤٠١ هـ ـ ص٤٢.

والحالات. كذلك لا بد من الصدق في المعاملة، حيث لا يقدم أحد على الآخر إلا بمقدار قدرته وقوته ومعرفته بالحرب وسياستها.

أما في مجال تدبير الحروب، فيجب على القائد شرح أهداف الحرب بإظهار تلك الأهداف في الحق والحجة على ذلك، وأن لا يجعل حربه ضد العاجزين عن القتال. ومن واجبه أيضاً كقائد، حراسة قواته من غرة يظفر بها العدو، واختيار مكان نزولهم للاستراحة، واختيار مسرح القتال ضمن ميزاته المعروفة. أي أن يتوفر فيه رعي وماء، وحماية بتضاريس طبيعية قدر الإمكان، حيث لا يؤتى إلا من جهة واحدة، وإذا لم يتوفر له ذلك عليه حماية قواته بعوائق اصطناعية.

وعلى القائد أن يعد للجيش كل ما يحتاجه من زاد ومؤونة. وأن يعرف أخبار عدوه بدقة ليتخذ قراره صحيحاً وسليماً في ترتيب الجيش في مسرح الحرب، ثم تفقد ترتيب القتال، وزرع الثقة بالنصر في نفوس المقاتلين، ويطلب منهم الصبر في الحرب والجدية فيه. وعند اتخاذه أي قرار عليه مشاورة أصحاب الرأي والتزام مبدأ المساواة بين المقاتلين في توزيع الأرزاق وغيرها.. وأن لا يمكن المقاتلين من اتخاذ أي عمل آخر غير القتال والعمل على الوصول إلى النصر. وأن يؤدي الأمانة فيما حازه من الغنائم، حيث لا يغفل عن سلوك أحد المقاتلين، وأن لا يجامل أحداً من أعدائه حتى لو كان بينهم علاقة مهما كان نوعها.. أما حق القائد على مرؤوسيه، فهو الالتزام بطاعته[1] وأن يفوضوا الأمر إلى رأيه وتدبيره، فيتحد قرارهم وتقوى كلمتهم. ويسارعون إلى امتثال الأمر والوقوف عند نهيه وزجره، وأخيراً ألا ينازعوه في الغنائم إذا قسمها، وأن يرضوا بتصرفه حيال ذلك.

ومن واجبات الأمير الصبر على قتال العدو مهما طال الزمن، وزرع ذلك في نفوس المقاتلين انطلاقاً من أمور أهمها: الصبر على الجهاد في سبيل الدين والعقيدة. والصبر في الجهاد يجب أن تكون نتائجه إما إسلام الخصم أو حربه، والانتصار عليه مع بقاء الخصم على عقيدته، عند ذلك يسبى وتغنم أمواله، ويقتل من لم يقع في الأسر منهم. وواجبات القائد عند مقابلة العدو استخدام كل الأسلحة التي تمكنه من الوصول إلى هدفه السياسي وكل الطرق مشروعة لذلك.

---

[1] جواد كاظم ـ القيادة الإسلامية ـ طبع بيروت ١٤٠١ هـ ـ ص٣٣.

• مبادئ التكتيك:

إنَّ تجزئة الجيش العربي الإسلامي إلى وحدات تكتيكية. أعطت هذا الجيش مزايا حسنة، وأهمها: قدرته على القتال والمناورة في مختلف الأراضي. فقد كان العرب المسلمون يناورون بالقوات والرمايات عبر الفرج الحاصلة بين الصفوف، بالإضافة إلى احتواء الجيش على عنصر الاحتياط نتيجة توضّعه على شكل صفوف، تعتبر الصفوف الأخيرة منها احتياطاً، يُزج في اللحظة المناسبة.

وعند الهجوم، كان الصف الأول في ترتيب القتال المؤلف من ميمنة وميسرة وقلب، يسعى إلى اختراق صفوف العدو، في حين كانت الصفوف التي تليه، وعلى رأسها الصف الثاني، تقوم بتدمير العدو في الخرق، الذي أحدثه الصف الأول. مؤمنة مؤخرة الصف الأول ومقدمة له الدعم. وكان هذا التكتيك يتطلب من الجندي كفاءة في القتال ضمن الصف وفي القتال المنفرد. فبالإضافة إلى التدريب النظامي بالسلاح، كان يُلجأ إلى التدريب على رياضة الركض والوثب والقفز بالعصا وتسلق الصخور والمصارعة والسباحة والمسير الجماعي الطويل واستخدام أدوات الحفر من أجل إقامة المعسكرات وتحصينها.

كانت القوات العربية الإسلامية تنتظم للمعركة في ترتيب قتال على شكل صفوف مرتبة خلف بعضها، مكونة أرتالاً. وكأساس لترتيب القتال هذا، وُضعت المبادئ التكتيكية التي سيأتي ذكرها، فيما بعد. إلا أنَّ هذا التكتيك تطور في نهاية العصر الأموي، وأصبحت الوحدات حجر الأساس في ترتيب القتال. ولقد اعتمد التكتيك العربي الإسلامي على المبادئ التالية:

أولاً ـ الجاهزية القتالية للقوات: تأمين الجاهزية الاستراتيجية يعني: إعداد القوات المسلحة لتأمين الأمن للبلاد في وقت السلم، وتحقيق الأهداف المحدودة إبان الحرب. أما من الناحية التكتيكية، فالجاهزية هي: قدرة القوات على دخول المعركة بما تملكه من وسائط، وبشكل منظم في وقت قصير، وتنفيذ المهمة القتالية بنجاح في مختلف شروط الموقف. أو هي: قدرة القوات على البدء بالأعمال القتالية خلال الوقت المحدد، وتنفيذ مختلف المهام القتالية المكلفة بها عند إعلان الحرب. وكان تأمين الجاهزية القتالية للقوات العربية الإسلامية يتم استناداً إلى العناصر التالية:

١ـ استكمال السلاح والعتاد القتالي، بالإضافة إلى توافر الاحتياطات المطلوبة من الوسائط

المادية، كما سنرى، عندما طلب طارق بن زياد من موسى بن نصير استكمال بعض ما ينقصه، وخاصة من العناصر، فوافاه موسى بما طلبه، ثم تقدمه بعد تأمين الجاهزية القتالية لقتال عدوه ملك الأندلس.

٢- الروح المعنوية العالية والانضباط الحازم بين الأفراد. فالروح المعنوية العالية يؤكد وجودها في الجيش العربي الإسلامي قتاله في الأندلس، حيث كان تعداده اثني عشر ألفاً، بينما كان جيش الأندلس يبلغ مئة ألف. وقتاله على حدود الصين والهند، وعلى مسافة آلاف الأميال عن قاعدة انطلاقه ومقر قيادته السياسية العليا.

٣- إمكانات القادة، وتولي قيادة القوات والسيطرة عليها بحزم ومرونة ومبادهة.

٤- وضع القوات في حالة جاهزية قتالية كاملة، مخطط لها في مختلف شروط الموقف.

٥- مقدرة القوات على العمل في الموقف المعقد عند قيام العدو بهجوم مفاجئ.

ثانياً - حشد القوى على الاتجاهات الحساسة: يرتبط التكتيك ارتباطاً وثيقاً بالأقسام الأساسية الأخرى للفن الحربي. وهو يأتي قبل فن العمليات، وعن طريقها يرتبط بالاستراتيجية. فالحرب صدام بين قوى متنازعة، إلا أنَّ استخدام كل القوات المحتشدة في آن واحد بهدف القيام بصدام واحد يعتبر، وكأنه على العكس. واستخدام قوات كبيرة قد يصبح سيئة من السيئات. يقول ابن الأثير في ذكر الخبر عن فتح الأندلس:

((ولما بلغ لذريق غزو طارق بلاده، عظم ذلك عليه. وكان غائباً في غزواته، فرجع منها وطارق قد دخل بلاده، فجمع له جمعاً، يقال: بلغ مائة ألف... ثم انهزم أهل الأندلس، ولم يلق المسلمون بعدها حرباً مثلها))[1]. فمهما كانت المزايا التي ينتجها التفوق في المرحلة الأولى من الاشتباك. فإن اللحظة التي تليها قد تكون سبباً في تكبيدها خسائر كبرى. وخاصة إذا كان العدو يملك قطعات طازجة تدخل القتال، مضافاً إليها حالة الضعف والتفكك التي تعانيها. مما ينبغي أن تكون كل القوات جاهزة ومعدة لتحقيق هدف استراتيجي، وينبغي كذلك: ألا ينفصل جزء من هذه القوات عن الجسم الرئيسي للجيش، إلا إذا كان هناك دافع، يجبر على ذلك، كأن يملك القائد

---

[1] ابن الأثير - الكامل في التاريخ - ج٤ - ص٥٦٢.

قوات متفوقة على العدو كماً وكيفاً. في هذه الحالة تُجزأ القوات، ويبقى جزء خارج المعركة، يـزج به عند الحاجة، أو عندما يفرض الموقف اشتباكات جزئية.

ثالثاً ـ المفاجأة: المفاجأة وسيلة لاكتساب التفـوق، وبدونهـا لا يمكـن فهـم التفـوق في نقطـة حاسمة. فالمفاجأة تعني: مباغتة العدو بالتدابـير العامـة، وخاصـة الطريقـة الـتي يتـم بواسـطتها توزيـع القوات. وليست المفاجأة هنا الإغارة، التي تعني جزءاً من الهجوم.

وتشكل المفاجأة جزءاً من ميـدان التكتيـك. وعندمـا تنجـح، فإنهـا تنشـر الارتبـاك، وتحطـم شجاعة الخصم. وفكرة المفاجأة مغرية ومبهرة، والتفتيش عنها أمر ضروري، ولها رد فعل معـين، إلا أنَّ نجاحها نجاحاً كاملاً يحتاج إلى نشاط كبير وقرارات سريعة ومسيرات طويلة، كي تخلـق غايتهـا. كما أن هذه العوامل لا تعطي النتيجة المطلوبة منها دوماً، وأثر المفاجأة لا ينجـح، إلا مـن تصرفـات من يستطيع فرض قانونه على خصمه، ويفرض هذا القانون من يعمل بطريقة جيدة. والمفاجأة عمـل من أعمال المهاجم، بلا شك، لكنها عمل لا يخص المهاجم وحده، ومـن الممكـن أن نـرى ضربـات مفاجئة متبادلة، كما فعل زياد بن أبيه، عندما جاء الكوفة متلثماً، وبها مسلم بن عقيل يعبئ النـاس، ويحضرهم لقدوم الحسين، حيث جمع أشراف أهل الكوفة والقاضي عنده[1].

رابعاً ـ المناورة: تنبع المناورة بالقوات من توافر وسـائط التأثير القويـة، وزيادة حركية القوات في ميدان المعركة. ويدخل في أساس أعمال المناورة:

آ ـ المناورة بالقوى والوسائط، وتتمثل في النقل المنظم للقوات، بهدف تشكيل التجمع اللازم والتوضع بشكل أفضل، من أجل إنـزال الضربـة الرئيسـية بـالعدو. وقـد تكـون مـن أجـل معاكسـة ضربته. وقد تكون من أجل تنفيذ الالتفاف. ونعني هنا: مناورة خالد بن الوليد بالقوات مـن العـراق إلى الشام بأمر الخليفة، القائد العام للقوات.

ويعتبر الالتفاف المناورة الأكثر عمقاً. وينفذ بالتعاون التكتيكي مع القوات العاملة من الجبهة. ومن أجل تنفيذ الالتفاف تشكل تجمعات من القوات أكثر قوة. والإحاطة: تعني المنـاورة الـتي تنفـذ بالتعاون الناري مع القوات العاملة من الجبهة، كما فعل الحجاج، عندما كلفه عبد الملك بن مـروان

---

[1] الطبري ـ تاريخ الرسل والملوك أحداث سنة ٦٠هـ ـ ج٥ ـ ص٣٥٨.

بالقضاء على عبد الله بن الزبير، فلقد فاجأه من جهة العراق، ونصب المنجنيق على جبل أبي قبيس[1]، ورمى الكعبة.

ب ـ المناورة بالرمايات: وتتمثل بنقل رمايات السهام والمجانيق من هدف إلى آخر. من أجل التأثير عليها بالتسلسل أو في آن واحد، وتتمثل أيضاً في التركيز على الأغراض الأكثر أهمية. ولتنفيذ ذلك كان العرب المسلمون قادرين على تنفيذ المناورة، بفضل ما يملكون من أسلحة قوية وحركية عالية ومرونة، مع تنفيذ استطلاع فعال ومستمر من أجل تحقيق أغراض المناورة وهي:

- تهديد مواصلات العدو ومؤخرته.
- مهاجمة قوى خاصة بقوى متقدمة.
- كسب أرض لأغراض أخرى.
- الاتصال مع مفارز أخرى.

خامساً ـ الانسحاب: قد تؤدي خسارة معركة من المعارك إلى تحطيم معنويات الجيش، أكثر مما تحطم قواه المادية. وللمعنويات أثر كبير في تحركات الجيوش وعلى قتالهم. فإذا لم تتبدل الظروف تبدلاً ملائماً. فمعركة ثانية، تنتهي بهزيمة كاملة، قد تصل إلى الإبادة، كما حصل للمختار عندما قتله مصعب بن الزبير[2].

لذلك يجب أن يتم الانسحاب ببطء كبير، مع مجابهة جميع محاولات المطاردين للحصول على مكاسب من تفوقهم. وذلك باستغلال نقاط الضعف عند الخصم وأخطائه والمحافظة على القيم المعنوية في أعلى مستوى، تسمح به الظروف، حتى لا تزداد الخسارة أكثر مما هي عليه. وكان انسحاب العرب المسلمين يتم لمسافات قصيرة، وإلى أماكن، تسمح لهم بالسيطرة قدر الإمكان.. مع توافر الاشتباكات الدامية مع العدو المطارد بكل تضحية وفداء.

سادساً ـ التعاون: تَحسَّن موضوع التعاون بين القوات العربية الإسلامية، حيث كان ينظم على الأرض بعد القيام باستطلاع شخصي. ثم يحدد اتجاه الهجوم نتيجة معرفة الأرض، إلا أنَّ هذا التعاون لم يكن متقناً. حيث لم ينفذ إلا لعمق بسيط مع الجوار، ثم أخذ بالتطور، وخاصة في معرفة

---

[1] الطبري ـ تاريخ الرسل والملوك أحداث سنة ٧٢هـ ـ ج٦ ـ ص١٧٤.

[2] المرجع نفسه ـ أحداث سنة ٦٧ هـ ص٩٣ وما بعدها.

الوحدات للعمق التكتيكي، الذي يجب أن تنفذه القوات عن طريق التعبئة الصحيحة. وكان عمق المهام، التي توضع للقوات أثناء الليل أقل بكثير من عمق المهام نهاراً، ويرجع ذلك إلى عوامل مختلفة، على رأسها: القدرة على الرؤية بشكل حسن، وإخلاد القوات إلى الراحة، حتى تستفيد من نشاطها وقدرتها على متابعة القتال.

سابعاً ـ الاستطلاع: يتوقف النجاح في العمليات على الخطة، التي يضعها القائد. وتخضع الخطة لعوامل هامة، يعتبر الاستطلاع واحداً منها، أو بالأحرى أهمها وأخطرها. ويقصد بالاستطلاع: الحصول على المعلومات التي تفيد القائد عن العدو قبل العمليات وأثناءها. وتتضمن هذه المعلومات:

١ـ معلومات عن الأرض أي مسرح العمليات، الذي تدور عليه المعركة.

٢ـ معلومات عن العدو (قواته، أسلحته، نواياه، روحه المعنوية، أساليبه القتالية).

٣ـ معلومات عن الجو (الطقس ـ الفصل).

٤ـ معلومات عن رديف القوات المسلحة المشتركة في المعركة.

لقد كان الاستطلاع من أهم النواحي، التي عني بها الرسول، فكان يبعث العيون للاستطلاع، ويختار لهذه المهمة ذوي القوة والبأس والعقيدة، كما فعل في غزوة بدر[1]، حيث أرسل بسبس بن عمرو الجهني وعدي بن أبي الزغباء يستطلعان له خبر قريش وتجارتها، وكما أرسل علياً بن أبي طالب والزبير بن العوام إلى بدر يلتمسان له خبر قريش[2]. واستمر الاستطلاع في تطور مستمر، فيما بعد، وظهرت أهميته في المعلومات، التي قدمها جهاز الاستطلاع لخالد بن الوليد قبل معركة اليرموك، فساعدته على اتخاذ قرار صحيح وسليم. وكان العرب المسلمون ينفذون مهام الاستطلاع، متوخين ما يلي:

١ـ أن يكون الاستطلاع موجّهاً.

٢ـ أن يكون مستمراً ليلاً ونهاراً وفي مختلف الظروف على أية أرض.

٣ـ أن يكون فعالاً. أي أنهم كانوا يبذلون الجهد الأقصى للحصول على المعلومات

---

[1] الطبري ـ تاريخ الرسل والملوك أحداث السنة الثانية للهجرة ـ ج٢ ـ ص٤٣٣.

[2] ابن هشام ـ السيرة النبوية ـ ج١ ـ ص٦١٦.

الضرورية.

٤ـ أن يكون سرياً بغية تأمين نجاحه وعمقه أيضاً.

٥ـ أن تكون المعلومات متطابقة مع الحقيقة والواقع.

ثامناً ـ ترتيب القوات: كان ترتيب القتال للقوات العربية الإسلامية يتألف: من مقدمات وقوات رئيسية ومؤخرة. من خيالة خفيفة، تدفع إلى الأمام، وترسل منها مفارز استطلاع لدراسة الأرض ومراقبة العدو. وتتحرك الخيالة على مقدمة القوة الرئيسة، مغطية نفسها بمفارز النبّالة. وتتحرك المشاة (القوة الرئيسية) خلف الخيالة، ثم تأتي محملة بالمؤن والذخائر والخيم وأدوات الحصار والاقتحام والإسعاف الميداني. وفي الخلف يسير حرس المؤخرة لحماية مؤخرة الرتل. وعند الاستراحات، كانت هذه القوات تتجمع بشكل معسكر محمي من أطرافه بالحواجز والخنادق.

• مهام القوات المسلحة:

من المهام الأساسية كان اختيار ميدان المعركة، حيث يسمح بتنظيم المعركة بما يخدم القوات، ومعرفة ميدان الحرب وأرض العدو ضرورة كان لابد منها، ومنذ البداية اعتاد العرب في معاركهم ألا يبادروا الهجوم إلا بأمر[1]، وكان القادة يعاقبون المتسرعين في الحرب، كما كانوا يحرمون المتسرعين من القيادة، واعتمدوا انتهاز الفرص لا التواني والغفلة. وبالتريث والحذر يتم ذلك. أما إذا اضطر القائد لبدء القتال، فعليه تنظيم قواته مستفيداً من الأرض والجو. فمن ناحية الجو فعليه أن لا يجعل الشمس في عيون مقاتليه[2]، وأن يحاول جاهداً أن يكون الريح في ظهورهم، على هذا كان عليهم اختيار ميدان المعركة، على أن تتوفر فيه كل مستلزمات المعركة إذا أمكن.

وقبل كل معركة كان القائد ينظمها، بأن يجمع القادة في مقر قيادته،ويصدر لهم تعليماته. بعد ذلك يعود كل منهم إلى مقر عمله. وبعد بدء المعركة كان القائد يلقي الأوامر ويراقب سير المعركة.وبعد أن تطورت الجيوش اتخذ معاوية بن أبي سفيان السرير ليجلس عليه،وكان يصف حول سريره حراساً معممين ومقرنين بالسلاسل لحراسته، وكانت إشارة بدء الهجوم منذ البداية على

(١) الواقدي ـ كتاب المغازي ـ ج١ ـ ص٢٢٠.

(٢) المرجع نفسه ـ ج١ ـ ص٢٢٠ وما بعدها.

صورة تكبيرات ثلاث[1] على فترات متقطعة، يتم خلالها الاستعداد بالرجال والسلاح والعتاد، وفي الرابعة كان الهجوم يبدأ.

وعندما زاد عدد القوات وكثرت الفتوحات، اصطلح على أن يهز القائد العام اللواء ثلاث مرات، في الأولى يتجهز الجند ويقضون حوائجهم، وفي الثانية كان الجندي يعد سلاحه وعتاده، وفي الثالثة يبدأ الهجوم نحو العدو. وخلال المعركة، كانت الأوامر تصل إلى القادة إما مباشرة وإما عن طريق إرسال الرسل برسائل تحمل تعليمات من الواجب تنفيذها، وقد يكون الرسل يحملون رسائل شفهية[2] من الواجب السرعة في نقلها لأهميتها، والسرعة في تنفيذ ما جاء بها.

تبدأ المعركة كما هو معلوم بنظام معين أي قلب وجناحين (ميمنة وميسرة) ومؤخرة، ولكل جناح قائد، والقائد العام في القلب، وقد يكون للقلب قائد أيضاً، وفي هذه الحالة يكون القائد العام في المكان الذي يراه مناسباً، وفي حالات أخرى يكون القائد العام مع حرسه الخاص خلف القلب، أو يختار مكاناً، يشرف منه على قواته، ويسمح له بإصدار تعليماته إلى قواده. وعندما تبدأ المعركة ويظهر العدو، كان القائد يأمر المكبرين بالتكبير، ويأمر أيضاً الضرب على الطبول، في هذا الوقت يأخذ كل مقاتل مكانه ويتأهب للمعركة، ثم بعد ذلك تزحف الجيوش نحو بعضها بعضاً، وعندما يصل العدو إلى مدى رمي السهام أمطروه بوابل من السهام[3].

وعندما يقترب العدو أكثر يشرع أصحاب الرماح سلاحهم في صدر عدوهم، ثم تشتبك الرماح، بعدها يتم الهجوم بين الطرفين، ويصبح السيف هو السلاح الأخير الذي يحدد نهاية المعركة، وفي هذه الحالة تشترك الأسلحة الخفيفة الأخرى كالدبوس والبلطة والخنجر، وفي حالة الالتحام المباشر يكون دور الخيالة حماية جوانب الجيش وتهديد جوانب العدو، لأن دورها في هذه الحالة يكون ضعيفاً ولا محل لها، والخيالة قد تقوم بحركة التفاف حول العدو أو الرد على حركة التفاف قد يقوم بها العدو.

---

[1] الطبري - تاريخ الرسل والملوك - ج٤ - ص٧٤ - ١١٦ - ٢٣٢ - ابن الأثير - الكامل في التاريخ - ج٢ - ص١٨٥ - ١٨٦.

[2] المرجع نفسه - ج٤ - ص١١٣ - ابن الأثير - الكامل في التاريخ - ج٥ - ص١٨٩.

[3] الدينوري - عيون الأخبار - ج١ - ص١٠٧.

ومـن مهامهـا أيضـاً التقـاط الفـارين وتتبـع المهزومـين في نهايـــة المعركـــة. وإذا حـــدث وتم الانسحاب، فيجب أن يكون بانتظام، ثم يحشدون من جديد ويعـاودون الحـرب، وفي حالـة انهـزام العدو، يسرع الفرسان بتتبع الفارين وإذا ما حدث أن رجحت كفة العدو، فكان العـرب المسـلمون يقدمون فرقة الفدائيين الانتحاريين، فيعملون على تغطية الانسحاب. وبعـد المعركـة كـانوا يعملـون على جمع الجرحى والقتلى وإحصاء المفقودين.

اعتمد العرب في حروبهم بعض الحيل لكسب المعركة. من ذلك ما فعله خـالد بـن الوليـد في معركة مؤته[1]، حيث يشهد له ذلك بالبراعة الحربية والفن التكتيكـي النـاجح، ومـن جملـة مـا فعلـه تغييره مواقع القوات. فالميمنة جعلها ميسرة وقدم الساق إلى القلب والعكس، حيث يظهر من ذلـك مدد وقوات جديدة قد أضيفت إلى الجيش، كما وضع قوات خلف الجيش يجرون بخيلهـم فيكـثرون الجلبة وينثرون الغبار. كل ذلك لكي يوهموا العدو بأن المدد قادم للنجدة.

واعتمد العرب الكمائن وأجادوا فن استخدامها. ومن أهم القادة العـرب الذيـن أجـادوا فـن استخدام الكمين كان خالد بن الوليد في حروبه بالعراق، وعمـرو بـن العـاص في حروبـه في مصـر، ومروان بن محمد، وعمل القادة العرب على إيهام العدو بالمدد، فيخـترعون الحيـل مـن أجـل ذلـك، وممن عرف بهذا الفن في العصر الأموي المهلب بن أبي صفرة، كما عملوا على تضليل العدو، حيث كانوا يحشدون قواتهم في جهة من الجهات حتى يوهموا العدو أن الهجوم سيتم من هـذه الجهـة، في الوقت نفسه يكونون قد حشدوا قوة أخرى من مكان آخر فيه يبدأ الهجوم فتحدث المفاجأة.

واعتمد العرب في حروبهم فن الاستطراد، أي إظهار الهزيمة أمام العدو، وخاصة عند محـاصرة الحصون، وبعد أن تبتعد قوات العدو يكر عليهم وتتـم المصادمـة بقواتهـم. وأحيانـاً أخـرى يكـون القائد قد نصب كميناً على طريق انسحابه، فيتم الانقضاض على العدو واستئصاله. إذن كان العرب مميزين في فن التكتيك.

استخدم العرب منذ البداية في النقـل الخيـل والجمـل والحمـير. فـالجمل أفضـل حيـوان أهلـي يستخدم في النقل. فمثلاً يذكر أن الجمـل يستطيع أن يجوب الباديـة بـين البصـرة وحلـب حـاملاً

---

[1] الواقدي - كتاب المغازي - ج٢ - ص٧٦٤.

(٥٠٠) رطل مع علف قليل، وهو قادر أن يأكل ما لا يقدر عليه حيوان آخر من الطعام حيث يستطيع أن يأكل أوراق الصبار المليئة بأشواك شبيهة بالمسلات[1].

إذن تمكن العرب من نقل جندهم ونسائهم ومتاعهم وآلات الحرب على ظهور الإبل، كما حملت الإبل الإسعافات والهوادج للمرضى والجرحى. فبينما استخدم البيزنطيون الخيول والبغال والحمير أو عربات تجرها الثيران. نقل العرب الرجال والعتاد في سرعة أعظم وأكثر، وفي سلامة، بواسطة الإبل، وكذلك كانت الإبل تعد ميزة لا يمكن المغالاة في قيمتها، وإني لا أغالي إذا قلت إن العرب نالوا معظم انتصاراتهم بفضل إبلهم[2]. ففتحت لهم تلك الإبل الصبورة الشام ومصر، ويبدو أن الجمل لم يستخدم في آسيا الصغرى قبل الفتح العربي الإسلامي.

والخيل العربية ذات شهرة، وقد ذكر ابن عبد ربه ذلك بقوله (إن الخيول العربية هي قوية، عصبية، رشيقة، مفتخرة لصنفها، مختالة في مراتعها، مثال الأناقة في شكلها، والكمال في صفائها[3]) وكان الرسول (ص) يستحب من الخيل الأشقر، قال (ص): «**لو جمعت خيل العرب في صعيد واحد ما سبقها إلا الأشقر**»[4]. والخيول في عهد الرسول (ص) كانت قليلة جداً. ففي معركة بدر لم يكن مع العرب المسلمين من الخيل سوى ثلاثة (مع المقداد واحد، ومع الزبير بن العوام واحد، ومع مرشد بن أبي مرشد الغنوي واحد).. علماً أنه كان مع المشركين مائة فرس[5]. ثم زيد في عدد الخيل مع الزمن، حتى أصبح عددها في معركة تبوك عشرة آلاف فارس. أما في العصر الأموي فقد تزايد، ففي عهد هشام بن عبد الملك، كان هنالك أربعة آلاف جواد في اسطبلاته وإسطبلات غيره. واستخدم العرب وسائل نقل أخرى منها البغال والحمير كما استخدموا وسائل النقل البحري.

---

[1] غوستاف لوبون ـ حضارة العرب ـ ص٤٤.

[2] فوت بريمر ـ الشرق في عهد الخلفاء ـ ص٣٣٢.

[3] ابن عبد ربه ـ العقد الفريد ـ ج١ ـ ص١٥٢.

[4] ابن قتيبة ـ عيون الأخبار ـ كتاب الحرب ـ باب الخيل ـ ص١٥٣.

[5] ابن هشام السيرة ـ ص٦٦٦.

نتائج الحرب:

الأسرى: أحد نتائج الحرب، كان الأسرى في صدر الإسلام، يخضعون لعوامل منها **أولاً:** إما أن يقتلوا، وقتل الأسرى في بداية الإسلام كان لمن اشتد عداؤه للدين، وقائده العظيم النبي محمد (ص). أما الأمويون فقد أسرفوا في قتل الأسرى وخاصة على يد الحجاج. وعرف عن الخليفة الأموي الأخير أنه كان يقتل أسراه جميعاً إلا العبيد[1]. **ثانياً:** إما أن يسترقوا وتجري عليهم أحكام الرق من بيع أو عتق. والاسترقاق كان للمقاتلين الأعداء الذين كان لهم قدرة على المقاومة[2]. **ثالثاً:** إما أن يفادى بهم على مال أو أسرى. **رابعاً:** منهم من كان يمنّ عليهم ويعفى عنهم.

أما عن معاملة الأسرى، فلقد عاملهم العرب المسلمون معاملة اللطف والعدالة، كما حرصوا على تحرير الأرقاء وفك الرقاب. وجعل الإسلام العبد كالحر في المعاملات الاجتماعية والشهادة وغيرها. إلا أن بعض الأمويين، كانت تلعب بهم الأهواء السياسية والنزعات النفسية، حيث كانوا ينكلون بالأسرى ويخلفون بالعهد والأمان اللذين أوجب الإسلام احترامهما.

الهدنة: عقد أمان بين الدول أو الجماعات أو ما شابهها، بالامتناع عن القتال لمدة معلومة تذكرها الهدنة، والغاية من الهدنة الدعة والسكون طوال الفترة المنصوص عليها. والهدنة قد تجدد في نهاية المدة لوقت، إما نفسه، وإما أكثر منه أو أصغر. ومن جهة ثانية قد تنقض الهدنة من أحد الطرفين لسبب أو لآخر، فمثلاً لقد هادن الرسول (ص) قريشاً عام الحديبية عشر سنين، إلا أن قريشاً نقضت الهدنة، فتوجه الرسول لحربهم وتم له فتح مكة[3].

الغنيمة: الغنيمة إحدى نتائج الحرب، والغنيمة توزع من قائد الأمة ورسولها (ص)، يضعها حيثما شاء بأمر الله لأنه يوحى له ويجب الأخذ بما شاء وأراد، لأن الله تعالى أمر بذلك **﴿وَمَا أَتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ﴾**[4]، ثم أمر الله تعالى رسوله أن يخمس الغنائم بقوله تعالى: **﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ**

---

[1] ابن الأثير ـ الكامل ـ ج٥ ـ ص١٤٥-١٤٩.

[2] فتوح البلدان ـ البلاذري ـ ص٣٣٣.

[3] الواقدي ـ كتاب المغازي ـ ج٢ ـ ص٦١٠ وما بعدها.

[4] سورة الحشر ـ الآية / ٧.

مِن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ، وَلِلرَّسُولِ، وَلِذِي القُرْبَى وَاليَتَامَى وَ المَساكِينِ وَابنِ السَّبِيلِ﴾[1]. ففي هذه الآية يذكر الله تعالى خمسة توزع عليهم الغنائم، فأولاً لله الخمس، وبقي أربعة أخماس شملت الرسول وذي القربى، واليتامى والمساكين، وابن السبيل، وأنا اعتقد أن لكل فئة من هذه الفئات كان خمس، إلا أن ذلك لم يرد في المصادر.

والغنائم كانت تقسم بعد الحرب وليس في وقت الحرب، وإنما بعد العودة إلى دار السلم. والمقاتل كان يغنم سلب القتيل[2]، والغنيمة لمن شهد الوقعة، وفضل بين من شهد الحرب. فالفارس له سهمان والراجل سهم واحد، علماً أنه اختلف بين الفقهاء حول ذلك، فأبو حنيفة أعطى الفارس سهمين والراجل سهما واحداً، بينما أعطى الشافعي ثلاثة أسهم للفارس وسهماً واحداً للراجل. إذن كانت الغنائم ابتداء من عهد الرسول (ص) تشكل الدخل الرئيسي للمقاتلة، ثم أضيفت لها الجزية، واعتمد مبدأ التسوية بين الناس عند توزيع العطاء[3]، واستمرت التسوية حتى ظهر الديوان، حيث وضعت أسس جديدة للعطاء.

- المرتبات:

ذكرنا تعصب بني أمية للعرب، وسوء معاملتهم لغير العرب، حيث عدّوا أهل البلاد التي فتحوها وما يملكون رزقاً حلالاً لهم[4]. فكان ذلك ذريعة لهم للاستيلاء على ما شاؤوا من أموال الناس، وقد ساعدهم على ذلك ما فعله معاوية عندما جعل بعض الأعمال طعمة لبعض عماله، بينما ضمن بعضهم الآخر ببعض المال ترغيباً لهم في تصرفه. وكانت الحروب الحسم في الاستكثار من الأموال. وطريق جمعها كان الخراج والجزية، فاستخدموا لذلك العمال الذين يثقون بهم وبمقدرتهم على جمع المال وأشدهم الحجاج بن يوسف[5] عامل عبد الملك على العراق والمشرق، حيث استخدم مثل هؤلاء العمال العنف في تحصيل الأموال وكل الطرق مشروعة عندهم.

---

(1) سورة الأنفال - الآية / ٤١.

(2) الطبري - تاريخ الرسل والملوك - أحداث سنة ١٤ - ج٣ - ص٥٦٧.

(3) محمود أحمد عواد - الجيش والقتال في صدر الإسلام - ص٤٨٠.

(4) الأصفهاني - الأغاني - ج١١ - ص٣٠ - المقريزي - الخطط - ج١ - ص٧٧.

(5) ابن الأثير - الكامل في التاريخ - ج٥ - ص١٠ - أبو يوسف - كتاب الخراج - ص٥٨.

إذن كان عمال بني أمية يجورون على أصحاب الأرض في الحصول على المال، علماً أن الخراج كان على المساحة، حيث يؤخذ على الأرض مال سواء استخدمت أم لم تستخدم. كما كانت الضرائب على العرب المسلمين أنفسهم، ولم تكن قاصرة على أهل الذمة والموالي. أكد ذلك ما فعله محمد بن يوسف عندما تولى اليمن[1]. ومن أساليب بني أمية في جمع المال والاستكثار منه، فرض الضرائب على الأرض الخراب. كما كانوا يفرضون على الأهالي هدية في بعض أعيادهم[2] بلغت في عهد معاوية عشرة ملايين درهم[3]، كما فرضوا مالاً على من يتزوج وعلى من يكتب عرضاً[4].

إن تطبيق القواعد الأساسية التي قام عليها الإسلام، اختلف باختلاف السلطة في العهد الأموي. فالخلفاء ازدادوا انغماساً في الترف، حيث أصبحت السلطة الجديدة لا تنظر إلى ما يؤيد سلطانها، كما عملوا فيما بعد في انتقاء عمالهم. تأكيداً على ذلك، كان بعضهم يولي بعضهم عملاً بإشارة من جارية أو مقابل هدية[5]، فأصبح العمال في هذه الحالة لا هم لهم سوى حشد الأموال والاستكثار من الموالي والصنائع. فكثرت أموالهم واتسعت ثروتهم[6].

وكان جل اعتماد معاوية بن أبي سفيان على اليمانية كما ذكرنا، ونظراً لدورهم البارز في نصر الأمويين، فقد استغلوا حاجة السلطة إليهم، فاشترطوا عليها شروطاً قاسية ففرض لهم عطاءً مضاعفاً. وكان رجال السلطة الأموية يعملون على إشباع نهمهم المالي بالمنح والعطايا. حيث يذكر المسعودي[7] أن معاوية جعلهم حكومة داخل حكومة، حيث كان لا يقطع أمراً من الأمور إلا بمشورتهم، وفرضوا عليه تلبية رغباتهم وشروطهم.

---

(1) أبو يوسف ـ الخراج ـ ص٢٤.

(2) كعيد النيروز.

(3) اليعقوبي ـ تاريخه ـ ج٢ ـ ص٢٥٩.

(4) جرجي زيدان ـ تاريخ التمدن الإسلامي ـ ج٢ ـ ص٣٧.

(5) ابن الاثير ـ الكامل في التاريخ ـ ج٥ ـ ص٧٢ ـ أعلام الناس ـ ص٣٥.

(6) ابن خلدون ـ ج٣ ـ ص٩٦ ـ اليعقوبي ـ ج٢ ـ ص٣١٨ ـ ابن الأثير ـ الكامل في التاريخ ـ ج٥ ـ ص٩٥.

(7) المسعودي ـ مروج الذهب ـ ج٣ ـ ص٩٥ ـ جرجي زيدان ـ تاريخ التمدن الإسلامي ـ ج١ ـ ص١٤٤ ـ ٢٥.

وكان ما ورد من اليمانية مفروضاً على معاوية نظراً لتعدد الأحزاب والمطالبين بالخلافة بالإضافة لأخطار بيزنطة. أي أن الأخطار الخارجية والداخلية كانت تفرض على الخلفاء الأمويين ابتداء من معاوية، الحاجة الملحة إلى تكوين جيش قوي ليقوم بهذه الأعباء.. فاضطر إلى رفع مرتبات الجند إلى ألف درهم في العام، حيث بلغ تعداد الجيش في عهده ستين ألفاً. واستمر الخلفاء الأمويون على خط معاوية في الاعتماد على اليمانية. وهذا واضح في اعتماد المروانيين أثناء انتقال السلطة إليهم في مرج راهط على اليمانية وسحق القيسية.

إن اعتماد السلطة الأموية عليهم، جعلهم ينتهزون أي فرصة للمطالبة بزيادة أجورهم، وإذا رفض أحدهم كانوا يهددونه بالتخلي[1] عنه، حتى أصبح عطاؤهم ورواتبهم يأتي في المرتبة الثانية بعد أفراد السلطة الحاكمة. ويأتي دور اليمانية واضحاً في أيام عبد الملك بن مروان أيضاً، نظراً لوجود منافس له في الخلافة هو عبد الله بن الزبير واستمرار الخوارج في الصراع ضد الأمويين، بالإضافة لوجود بيزنطة واستغلالها لمثل هذا الواقع. مما اضطر عبد الملك لقبول المصالحة على جزية يدفعها لهم على أسابيع، ولضخامة الجزية التي كان يدفعها وقعت خلخلة مالية في الدولة، مما اضطره إلى تأجيل مرتبات الجند مراراً عن أوقاتها[2]. ولإصلاح ذلك وضع أساساً النقد وطوره، وأعاد عمال الزراعة إلى زراعتهم، والتجار إلى تجارتهم، والصناع إلى صناعتهم.

إلا أن هذه المحاولات باءت بالفشل، وزادت من تذمر الناس، وبخاصة أخذ الجزية ممن أسلم ومعاملته معاملة غير المسلم.. وتجدد تأخير المرتبات في عهد الوليد بن عبد الملك، حتى أن جند الشام كانوا يثيرون الشغب حتى فرضوا على الوليد بن عبد الملك أن يعمل على جعل نسائه ينفضن الطيب من شعورهن، فيباع لدفع ثمنه أعطياتهم[3]. وأما عمر بن عبد العزيز فعمل على إصلاح الحالة الاقتصادية للدولة وخاصة المالية، فعمل على ضم أطراف الجيوش المتناثرة، وضغط النفقات، وعدل عن استمرار الفتوحات، فأمر بفك الحصار عن القسطنطينية، وأمر بإخلاء بعض الثغور المتطرفة

---

(1) المسعودي - مروج الذهب - ج٣ - ص٩٥.

(2) فون كريمر - الحضارة الإسلامية - ترجمة مصطفى طه بدر - طبع دار الفكر العربي ١٩٤٧ - ص٣١٩.

(3) ابن قتيبة - عيون الأخبار - ج١ - ص١٧٠.

وإعادة الجنود منها. وأقبل على محاسبة الولاة والقادة على إسرافهم، كما فعل مع يزيد بن المهلب[1]. إلا أن جهده لم يؤد إلى معالجة الاقتصاد بشكل أساسي وما فعله هشام بن عبد الملك لم يعالج الفساد بسبب الإقبال على جمع المال بشتى الوسائل.

أمام ذلك الفساد كان لا بد للخلفاء الأمويين من الاستجابة لرغبة الجند، ومطامعهم المالية، كما فعل الوليد بن يزيد عندما ولي الخلافة، حيث أراد إشباع نهم الجند ليحصل على طاعتهم ويأمن من شغبهم، فزادهم في العطاء عشرة دراهم، وخص أهل الشام بعشرة فوق زيادة العشرة تلك[2]، فكان ما وصلت إليه الإدارة من التفسخ والفساد من أهم عوامل ضعفها ونهايتها.

أما من ناحية الإقطاعات، فلقد سار الأمويون على سياسة منحها للمحاربين، حيث أقطع الوليد جند انطاكية أرض سلوقية. كما كان لمسلمة بن عبد الملك أرض بغراس[3] في هذه المرحلة. مرحلة انتقال الإمبراطورية البيزنطية من عهد العظمة والتوسيع إلى عهد الانكماش والانطواء، بدأت حرب السنوات السبع بحملة وجهها معاوية سنة [٦٧٣ م (٥٤-٦٠) هـ] بقيادة عبد الرحمن بن خالد، إلا أن معاوية دخل في مفاوضات مع الدولة البيزنطية نظراً لدنو أجله وحنكته ومعرفته بأن الخلافة والمحافظة عليها في آل بيته، تحتم عليه وضع القوات تحت تصرف ابنه يزيد لمواجهة المصاعب، علماً أن ابنه يزيد شارك في الحملات على القسطنطينية وحصارها ونجح معاوية بمفاوضاته مع مندوب بيزنطة يوحنا[4] في عقد صلح بينهما مدته ثلاثون سنة.

يعد هذا النظام، نظام الإقطاع الحربي المشار إليه سابقاً، هو الأساس الذي أقيم عليه جيش وطني قوي. وهو الذي حرر الدولة من الجند المأجورين، حيث كان جيش بيزنطة مؤلفاً من فرق عسكرية مستمدة من جميع أنحاء الدولة، أضيف إليهم عدد كبير من الفلاحين الذين أحرزوا من الإقطاعات مقابل الالتزام بالخدمة العسكرية. كما نقلت الحكومة الأموية عدداً كبيراً من المقاتلين إلى أطراف الدولة، لأن واردات الجند بالوسائل الاقتصادية التي تكفل لهم سبل العيش

[1] ابن الأثير - الكامل في التاريخ - ج٥ - ص١٤ - ٢٠.

[2] المرجع نفسه - ج٥ - ص١٤-٢٠.

[3] المرجع نفسه - ص١٧٤.

[4] المرجع نفسه - ص١٧٥.

كانت مؤمنة من الإقطاعات الأرضية الموزعة على الجند. إضافة للرواتب التي يتقاضونها بانتظام وعند دعوتهم للقتال يخرج كل منهم بسلاحه عندما تستدعي حاجة الحكومة للدفاع عن أراضيها.

وأفضل النتائج التي ترتبت على هذا النظام، أن أصبح من اليسير تجنيد جيش من داخل الدولة بأقصر وقت، وما تنفقه الحكومة على الجيش والدفاع عن الدولة من أموال، قد انخفض بسبب توزيع الأرض على الجند، وهذا دفع المجند إلى الحرص الشديد للدفاع عن أملاكه التي يعتمد عليها في معيشته.

وعن العطاء والأرزاق للمقاتلين فلا بد لنا من الحديث عن الأنفال والغنائم والفيء فالأنفال كلمة عربية عرفت قبل الإسلام وطبقت[1] واستمرت بعد الإسلام إلا أن معناها اتسع وتطبيقها أيضاً جرى بشكل أفضل وخاصة بعد أن أشار القرآن الكريم إلى الأنفال وكيفية توزيعها بقوله تعالى: **﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَنْفَالِ قُلِ الأَنْفالُ لِلَّهِ وَ الرَّسُولَ فَاتَّقُوا اللهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾**[2] وكان الرسول صلى الله عليه وسلم يجعل على النفل أحد القادة كما فعل في غزوة بدر يقول ابن هشام ((احتمل رسول الله صلى الله عليه وسلم معه النفل الذي أصيب من المشركين وجعل على النفل عبد الله بن كعب بن عمرو بن عوف))[3].

أما الغنائم فأيضاً كانت موجودة عند العرب قبل الإسلام[4] واستمرت بعد الإسلام وتعني ما كان يحصل عليه المحارب المنتصر من خصمه عنوة ذكرها الله تعالى في كتابه العزيز بقوله: **﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَ الْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ﴾**[5] في هذه الآية توضيح جلي لتوزيع الغنائم ووضع الرسول (ص) قاعدة عدم استئثار أحد بشيء من الغنيمة قبل أن تقسم وتشدد في تطبيق هذه القاعدة وخاصة بعد

---

[1] ديوان عنترة بن شداد ـ ص١٩٣.

[2] القرآن الكريم ـ سورة الأنفال ـ الآية الأولى.

[3] ابن هشام ـ السيرة ـ المجلد الأول ـ ج٢ ـ ص٦٤٣.

[4] ديوان عنترة بن شداد ـ ص٢٥.

[5] سورة الأنفال ـ الآية / ٤١.

أن أكدها الله تعالى بقوله: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ وَمَنْ يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾[1] واستمر تطبيق ذلك في العهد الراشدي مع بعض التفاوت.

أما الفيء فاستخدمه العرب قبل الإسلام وكان يعني ما يسترجعه القوم من مال كان عدوهم قد غلبهم عليه وذكر الفيء امرؤ القيس[2] وطرفة بن العبد[3] واستمر العرب في استخدام الفيء بعد الإسلام ووردت هذه الكلمة في القرآن الكريم بقوله تعالى: ﴿مَا أَفَاءَ اللهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لاَ يَكُونَ دُوْلَةً بَيْنَ الأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ﴾[4] والمطلع على التفاسير يلاحظ أن الآراء مختلفة حول كلمة فيء، وقيل الفيء هو ما صولح عليه بلا ايجاف خيل ولا ركاب أي بدون قتال، وفي عهد الخليفة عمر بن الخطاب نظمت الضرائب في السواد وقسمت الأراضي وأحصي الناس فأصبحت كلمة فيء في هذه المرحلة تطلق على واردات الدولة من البلاد المفتوحة باسم الخراج[5] والجزية وضرائب التجارة.

وعند قسمة الغنيمة كان المقاتلون العرب يستفيدون منها وكان يبدأ بالأسلاب فتعطى تطبيقاً لقول الرسول صلى الله عليه وسلم من قتل قتيلاً فله سلبه[6] وحتى كان موضوع الأسلاب كان مجال جدل وخاصة إذا اشترك في القتيل أكثر من واحد كما كان يخرج من الغنيمة سهم يدعى الصفي قبل الخمس كما حدث عند قسمة غنائم بدر حين اصطفى الرسول صلى الله عليه وسلم سيفه المسمى ذو الفقار[7] بعد ما ورد كان يخرج الخمس من الغنائم[8].

أما الأسرى من الرجال والنساء والذراري فالأسلاب من النساء كان يطلق عليهم اسم السباء وهو شائع عند العرب قبل الإسلام واستمر بعد الإسلام، فالرسول صلى الله عليه وسلم يعتق منه ويهب منه ويخدم من أرادوا واستمر الحال في معاملة النساء وانتشر الفداء، أما الأسرى من الرجال

---

[1] سورة آل عمران ـ الآية / ١٦١.

[2] ديوان امرئ القيس ـ ص٢١١.

[3] ديوان طرفة بن العبد ـ بيروت ـ ص٦٩.

[4] سورة الحشر ـ الآية / ٧.

[5] أبو يوسف ـ كتاب الخراج ـ ص٢٥.

[6] الواقدي ـ محمد بن عمر ـ مغازي الرسول (ص) ج٣ ـ ص٩٩.

[7] ابن سعد الطبقات ـ ج٢ ـ ص١١ ـ الطبري أحداث موقعة بدر.

[8] ابن قيم الجوزية ـ زاد المعاد في هدى خير العباد ـ طبع مصر ١٩٣٨ ـ ج٢ ـ ص٦٥.

فكانوا يفرقونهم كبقية الغنائم فيصبحون إما أرقاء أو أن يباعوا والبعض منهم كانت تجز ناصيته والبعض منهم يتم فداؤه كما حدث في السنة الثانية للهجرة وتحديداً سرية عبد ا لله بن جحش حيث أسر عثمان بن عبد ا لله والحكم بن كيسان حيث تم لهما الفداء وكان مقداره أربعين أوقية فضة لكل منهما[1] وفي بعض الحالات كان الأسير يتبع من أسره كما كان من عادة العرب المن على الأسرى إذا اقتضت مصلحتهم ذلك أو أن تضرب أعناقهم[2] أما من حيث المعاملة فقد عامل العرب الأسرى معاملة حسنة.

وعن الأرض فلقد تم تقسيمها في بداية الإسلام ثم أصبحت في عهد الخليفة عمر بن الخطاب فيئاً للمسلمين[3] وكان الجند يستفيدون كل منهم على قدر حاله فالرجال لكل منهم سهم أي كلهم سواء أما الفرسان فكان لكل منهم سهمان[4] وقد اختلف حول ذلك حتى ذكر أن قيمة السهم للفارس وصلت إلى ٦٠٠٠ دينار وللرامي ٢٠٠٠ دينار[5]، وبعد إحداث الديوان اختلف توزيع العطاء فالمقريزي[6] مثلاً يذكر أن العطاء كان يوزع بواسطة العرفاء (معركة القادسية) وكان يساعد العرفاء في التوزيع النقيب والأمين.

والعطاء كما ذكرنا كان يوزع في كل سنة مع بداية شهر محرم[7]، إلا أن ذلك لم يكن ثابتاً فأحياناً كان العطاء يوزع أكثر من مرة في السنة الواحدة، وفي عهد الخليفة عمر بن الخطاب وضع أساساً لتحديد مقدار العطاء للجند على الشكل التالي: ـ أهل بدر لكل منهم (٥٠٠٠) درهم سنوياً[8] ـ من جاء بعد بدر إلى الحديبية (٤٠٠٠) درهم سنوياً[9] ـ لمن بعدها إلى أن أقلع الخليفة أبو

---

[1] الواقدي ـ ج١ ـ ص١٧ ـ الطبري أحداث السنة الثانية للهجرة ـ سرية عبد ا لله بن جحش ـ الواقدي ـ ج١ ـ ص٩٨.

[2] ابن قتيبة ـ المعارف ـ ص٦٩.

[3] الطبري ـ تاريخه ـ ج٤ ـ ص١٤٥ وما بعدها.

[4] أبو يوسف ـ الخراج ـ ص١٩.

[5] الطبري ـ تاريخه ـ ج٤ ـ ص٧ ـ انظر معارك اليرموك ونهاوند.

[6] المقريزي ـ الخطط ـ ج ـ ص٩٣.

[7] أبو يوسف الخراج ـ ص٤٧ ـ تاريخ الخلفاء للسيوطي ـ ص٦.

[8] عبد الرؤوف عون ـ الفن الحربي ـ ص٢٨١.

[9] أبو يوسف الخراج ـ ص٤٨.

بكر عن أهل الردة (٣٠٠٠) درهم سنوياً[1] ـ أهل الشام وأهل القادسية (٢٠٠٠) درهم سنوياً ـ بعد القادسية واليرموك (١٠٠٠) درهم سنوياً[2] ـ الروادف من (٥٠٠ ـ ٢٠٠) درهم سنوياً[3].

كان العرب المسلمون كما ذكرنا حتى عهد الخليفة عمر بن الخطاب[4] يقاتلون بدون عطاء أو رزق ثابت، وكانوا حتى ذلك الوقت يأخذون نصيبهم من الغنائم التي يحصلون عليها. ومن المعروف أن الحروب تتطلب تكاليف باهظة، وبذلك كانت عبئاً ثقيلاً على بيت مال المسلمين. ومن البداية كما ذكر كان للفارس ضعف ما للراجل. وكان أحد الأخماس يوضع على بيت المال لإعداد الحملات في حال الضرورة. وعندما توسعت الدولة فيما بعد، لم تعد الغنائم وما يقدم للجند من مساعدات فردية تكفي لإعداد جيش. فدون الديوان حيث تناول كل جندي راتباً مقداره (٢٠٠) درهم في السنة، ثم زاد إلى (٣٠٠) درهم. وكان المقاتل يأخذ نافلة الحرب[5] وجراية عينية من الطعام والملابس دون مقابل، زد إلى ذلك حظه من الغنيمة.

كما فرض الخليفة عمر لنساء المقاتلين وأبنائهم، وفرض الأرزاق للمقاتلين سنة (١٦ هـ) عند زيارته للجابية، حيث فرض للمقاتل ولكل فرد من أفراد أسرته رزقاً شهرياً. فمثلاً في الشام[6] كانت مدين من القمح، وقسطي زيت، وقسطي خل. أما في العراق، فكان كمثيله في الشام[7]. وفي مصر كان نصيب الفرد من الرزق يتألف من أردب من القمح[8]، وقسطين من الزيت، وقسطين من الخل، وقسطين من العسل[9].

---

(١) اليعقوبي ـ تاريخه ـ ج٢ ـ ص١٥٣ ـ المقريزي ـ الخطط ـ ج١ ـ ص١٧١.

(٢) الطبري ـ تاريخه ـ ج٤ ـ ص١٦٣ ـ الماوردي ـ الأحكام السلطانية ـ ص٢٠١.

(٣) عبد الرؤوف عون ـ الفن الحربي ـ ص٢٨٢.

(٤) خالد جاسم الجنابي ـ تنظيمات الجيش العربي الإسلامي في العصر الأموي ـ ص٧٩.

(٥) فون كريمر ـ ص٣١٧ ـ جرجي زيدان ـ التمدن الإسلامي ـ ج١ ـ ص١١٤.

(٦) أبو عبيد ـ كتاب الأموال ـ ص٣٥٢.

(٧) أبو يوسف الخراج ـ ص٥١ ـ المقريزي ـ الخطط ـ ج١ ـ ص١٧١.

(٨) ابن عبد الحكم ـ أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله ـ فتوح مصر وأخبارها ـ طبع ليدن ١٩٢٠ ـ ص١٥٢.

(٩) البلاذري ـ الفتوح ـ ص٢١٦.

وكان المقاتلون يأخذون زيادة عن العطاء والرزق، أموالاً إضافية تسمى المعاون، وكانت تصرف لهم في كل سنة مرة في فصل الربيع[1]، والغاية من المعونة والعطاء كان ترميم الأسلحة وإصلاح العتاد، وفي حالة كثرة الأموال كانت المعونة توزع في أوقات مختلفة[2]، كشهر رمضان وعيدي الفطر والأضحى. وكان للمقاتلين حق آخر هو حق المرتبع[3]، وهو حق المقاتلين في الخروج إلى تربع دوابهم وخاصة في شهر آذار.

في عهد الخليفة عثمان أمر بزيادة الرواتب مئة درهم على العطاء، وفي عهده أيضاً أخذ هذا النظام يتدهور نظراً للسياسة التي اتبعها، حينما احتكر أقاربه العطاء.

وفي عهده زاد غنى الجند لامتداد رقعة الدولة وكدست الأموال واتخذ لها خزائن في بيت المال وجعل عليها حراساً فزادت أرزاق الجند (١٠٠) درهم عما كانوا عليه، وعن الغنى الفردي لبعض القادة يذكر البخاري[4] أن الزبير بن العوام كان له ألف مملوك يؤدون إليه الخراج، هذا عدا ما كان من الأرض كالتي كانت في المدينة وبها أحد عشر بيتاً وقد بيعت بعد موته (١ر٦٠٠ر٠٠٠) درهم وكان له دور في كل من البصرة والكوفة ومصر.

أما ابن سعد فيقول[5]: ((قتل الزبير و لم يدع ديناراً ولا درهماً إلا أرضين فيها الغابة وإحدى عشرة داراً بالمدينة، ودارين بالبصرة وداراً بالكوفة وداراً بمصر...)) وباع عبد الله ابن الزبير بعد موت أبيه الغابة (١ر٦٠٠ر٠٠٠) درهم.

أما ما يذكره ابن سعد في طبقاته[6] عن الخليفة عثمان فقال: كان لعثمان بن عفان عند خازنة يوم قتل ثلاثون ألف ألف درهم وخمسمائة ألف درهم، وخمسون ألف دينار، وترك ألف بعير بالربذة وترك صدقات كل تصدق بها ببراديس وخيبر ووادي القرى قيمة مائتي ألف دينار.

---

[1] ابن الجوزي - صفة الصفوة - طبع بيروت ١٩٧٩ - ج١ - ص٣٦١.

[2] المقريزي - الخطط - ج١ - ص٩٣ وما بعدها.

[3] ابن عبد الحكم - فتوح مصر - ص١٤٠ - السيوطي - حسن المحاضرة - ج٦ - ص٦٧.

[4] البخاري - ارشاد الساري - ج٥ - ص٢٠٨.

[5] ابن سعد الطبقات الكبرى - ج٣ - ص١٠٨ وما بعدها.

[6] المرجع نفسه - ج٣ - ص٧٦ وما بعدها.

أما عبد الرحمن بن عوف فترك ((ألف بعير، وثلاثة آلاف شاة بالبقيع ومائة فرس ترعى بالبقيع، وكان يزرع بالجرف على عشرين ناضحاً... وقيل: ((ترك ذهبا قطّعَ بالفؤوس وقيل ترك أربع نسوة فأخرجت امرأة من ثمنها ثمانين ألفا))[1].

وعن طلحة قال ابن سعد[2]: ترك ألفي ألف درهم، ومائتي ألف درهم ومائتي ألف دينار... وكان يغل كل سنة من العراق مائة ألف سوى غلاته من السراة وغيرها. وهو أول من زرع القمح بقناة، وكان يلبس الثياب الممشقة وهي محرمة ويضع في يده خاتماً من ذهب فيه ياقوتة حمراء، ومن هذا ندرك الغنى في عهد الخليفة عثمان.

أما الرواتب في عهد الخليفة الراشدي الرابع علي بن أبي طالب فكانت غير ذات مقياس نتيجة لانتشار الحروب، فيعتقد أن الرواتب في عهده خضعت للعوامل الاقتصادية المتردية آنذاك ومع ذلك فقد ساوى بين الجند في العطاء. يقول الطبري: ((ونظر في بيت المال فإذا فيه ستمائة ألف وزيادة فقسمها على من شهد معه الوقعة فأصاب كل رجل منهم خمسمائة خمسمائة))[3].

أما المرتبات في العصر الأموي ابتداءً من معاوية الذي كان جلّ اعتماده على عرب الشام وبخاصة القبائل اليمنية، حيث فرض لهم عطاءً مضاعفاً، وعمل على إحياء رغباتهم في جمع المال، حيث كان لهم دور فعال في أمور الدولة[4]. علماً أن الأحزاب المعارضة للدولة الأموية وجدت مع وجود الدولة الأموية، إذا لم نقل قبلها. بالإضافة إلى الاضطرابات الداخلية. كل ذلك جعله يهادن عدوه الأساسي بيزنطة.

هذه العوامل فرضت على معاوية منذ البداية الحاجة الماسة إلى تكوين جيش قومي، ولتحقيق ذلك اضطر كما ذكرنا إلى رفع مرتبات الجند إلى (١٠٠٠) درهم في العام، ووصل إلى (٢٠٠٠) درهم سنوياً، وكانت تكاليف جيشه تقدر بـ (٦٠) مليون درهم[5]. واستمر وضع الرواتب على ما

(١) ابن سعد الطبقات الكبرى - ج٣ - ص١٣٦.
(٢) المرجع نفسه - ج٣ - ص٢٢٠ وما بعدها.
(٣) الطبري - تاريخ الرسل والملوك - ج٤ - ص٥٤١.
(٤) المسعودي - مروج الذهب - ج٣ - ص٩٥ - جرجي زيدان - تاريخ التمدن الإسلامي - ج١ - ص١٤٤ وما بعدها.
(٥) فون كريمر - ص٣١٧ - جرجي زيدان تاريخ التمدن الإسلامي - ج١ - ص١٤٤.

هو عليه إلى عهد عبد الملك بن مروان، الذي أحدقت به الأخطار من جهة بيزنطة ومن جهة عبد الله بن الزبير، فاضطر لمصالحة الروم وأقبل على جمع الجند، فأدى ذلك إلى ضعف ميزانية الدولة، مما جعله يؤجل مرتبات الجند مراراً عن أوقاتها.

ورغم محاولته إصلاح الاقتصاد وضرب النقود في دمشق، ومحاولات العمال إصلاح الاقتصاد. فقد فشلت كل هذه المحاولات، واستمرت هذه الحالة في عهد الوليد بن عبد الملك، حتى يذكر أن الجند أحدثوا اضطراباً من أجل دفع مرتباتهم، مما اضطر الوليد إلى أن يفرض على نسائه أن ينفضن الطيب من شعورهن، وبيعه في السوق لدفع مرتبات الجند. يذكر الحادثة ابن قتيبة، يقول نقلاً عن لسان أم البنين بنت عمر بن عبد العزيز بن مروان:

(أما والله لولا أن الله علم أنك شر خلقه ما ابتلاك برمي الكعبة الحرام، ولا بقتل ابن ذات النّطاقين أول مولود ولد في الإسلام، وأما نهيُك أمير المؤمنين عن مفاكهة النساء وبلوغ لذّته وأوطاره، فإنَّ كنَّ ينفرجْنَ عن مثله فغير قابل لقولك، أما والله لقد نفض نساء أمير المؤمنين الطِّيبَ من غدائرهن فبِعنَه في أعطية أهل الشام حين كنت في أضيق من القرن قد أظلتك رماحهم وأثخنك كفاحهم، وحين كان أمير المؤمنين أحب إليهم من آبائهم وأبنائهم فأنجاك الله من عدوي أمير المؤمنين بحبهم إياه، قاتل الله القائل حين نظر إليك وسنان غَزَالة بين كتفيك)[1].

أما في عهد عمر بن عبد العزيز، فقد حاول تحسين الوضع المالي للدولة، بأن جعل المسلم - عربياً كان أو غير عربي - لا يدفع الجزية، فأدى ذلك إلى دخول الإسلام عدد كبير من الفرس والبربر وصاروا عرباً بالولاء. والغاية من تصرفهم كان الحصول على الأعطيات. نتيجة ذلك قل دخل الدولة ونقصت ميزانيتها، لكن ذلك أدى لاضطراب في دفع مرتبات الجند، فأجرى بعض الاصلاحات لدعم الميزانية، من ذلك عمل على ضم الجيوش المتناثرة، وعمل على ضبط النفقات، وأمر بتوقف الفتوحات وأمر بفك الحصار عن القسطنطينية، وأمر بإخلاء بعض الثغور وإعادة الجنود منها، وأقبل على محاسبة الولاة[2].

---

[1] ابن قتيبة عيون الأخبار - ح١ - ص١٧٠.

[2] ابن الأثير - الكامل في التاريخ ر - ج٥ - ص ١٤، وما بعدها. فيليب حتي - ص٢٥٤.

ولم يعمد الخلفاء قبل هشام بن عبد الملك على ضبط الميزانية وتطورها، بل على العكس كان يزيد الثاني، قد خصص رواتب لثلاثة آلاف رجل في عمان، ليكونوا عوناً له، وعلى استعداد لتنفيذ أوامره عندالطلب. وعندما تسلم هشام بن عبد الملك السلطة، رأى أن من واجبه القيام بإصلاحات اقتصادية. فعمل على جمع المال والبناء، واصطناع الرجال وتقوية الثغور وغير ذلك من أعمال خدمية، إلا أن محاولته هذه لم تقض على الفساد تماماً، وفي عهد آخر خلفاء بني أمية نشطت الدعوة العباسية، فأدى ذلك إلى خلل في الميزانية أكثر مما سبق وقلت الرواتب، واستمر الوضع في تدهور حتى كانت نهاية الدولة.

أما عن مصادر العطاء، فكان لابد في البداية من إيجاد مورد ثابت لتأمين العطاء، لذلك تقرر في عهد الخليفة عمر بن الخطاب أن تكون موارد الأرض[1] هي المورد الأساسي لعطاء الجند، وتقرر في اجتماع عقده الخليفة نفسه (قد رأيت أن أحبس الأرضين بعلوجها وأضع عليهم فيها الخراج، وفي رقابهم الجزية يؤدونها فتكون فيئاً للمسلمين)[2]، وقسم أموال الفيء، كما كان متبعاً في عهد الرسول (ص)، ونهج الأمويون القواعد التي وضعت في العصر الراشدي، وما زاد من الخراج والجزية كان يوضع في بيت مال المسلمين لإنفاقه عند الحاجة.

ومنذ البداية وضعت أسس ثابتة لتوزيع العطاء،حيث صنف إلى درجات ابتداءً بالقرابة من الرسول (ص)، ثم القدم في الإسلام والخدمة ثم الحاجة. فمثلاً تراوحت أعطيات الجند في عهد الخليفة عمر بن الخطاب ما بين خمسة آلاف إلى ثلاثة آلاف درهم سنوياً، عدا زوجات الرسول (ص)، والعباس عم النبي حيث تراوحت لكل منهم ما بين (١٢ـ١٠) ألف درهم سنوياً[3]. كما خص المقاتلة الأوائل بالأفضلية في العطاء، ففرض لأهل بدر خمسة آلاف درهم سنوياً، ولمن أسلم بعد بدر وشهد أحد ولمهاجرة الحبشة

---

[1] ابن سلام ـ الأموال ـ ص١٨٧ وما بعدها.

[2] ابن يوسف ـ الخراج ـ ص١٢٤ ـ الماوردي الأحكام ـ ص١٢٦ ـ ابن سلام الأموال ـ ص٦٨٨.

[3] الطبري ـ تاريخ الرسل والملوك ـ ج٣ ـ ص٦١٤ ـ أبو يوسف الخراج ـ ص٤٤ ـ البلاذري ـ الفتوح ـ ص٤٣٥.

أربعة آلاف درهم، ولمن هاجر قبل فتح مكة ولأهل الأيام قبل القادسية ثلاثة آلاف درهم ولمسلمي الفتح وأهل القادسية واليرموك ألفي درهم، وفرض لأهل الشجاعة والبلاء في الحرب في القادسية واليرموك ألفين وخمسمائة درهم، وفرض لباقي المقاتلة لكل منهم من ألفين إلى ألف إلى تسعمائة إلى خمسمائة إلى ثلاثمائة[1]، وفرض لنساء المقاتلين وأبنائهم، ففرض للنساء ما بين ستمائة إلى مائتي درهم، ولأبناء المقاتلين مائة درهم لكل واحد منهم[2]، وقد ذكر غوستاف لوبون[3] العطاء وحدده ما بين (١٠٠٠-٣٠٠٠) درهم.

وفي بداية العصر الأموي، استمر العمل، ولكن مع توسع الدولة اختلف الأمر، فأصبح العطاء يعطى إلى أولئك الذين والوا الدولة، وعملوا في خدمتها، فكان الحد الأدنى لعطاء الجند في العصر الأموي يتراوح ما بين مائتين وثلاثمائة درهم سنوياً[4]، واستمر هذا العطاء كحد أدنى إلى نهاية الدولة الأموية. أما وقت العطاء فكان منذ عهد الخليفة عمر ابن الخطاب في شهر محرم[5] في بداية كل سنة هجرية، واستمر بهذا العمل حتى نهاية الدولة الأموية.

وكان عدم دفع العطاء في وقته من أهم المشاكل التي واجهت الخلفاء والولاة الأمويين، حيث كان يؤدي إلى تذمر الناس وقد سبب الثورات والفتنة[6]. وقد جرت عادة الزيادة في العطاء في العصر الأموي كما ورد، وكان الخليفة عثمان بن عفان هو أول من زاد الناس في أعطياتهم مائة درهم[7]، والزيادة في العطاء لم تكن ثابتة أو دائمة إنما كانت تتبدل مع تولي الخلفاء، أو عند قيام الحملات وغير ذلك، وإن الكثير من الزيادة أو العطاء كان مؤقتاً غرضه سياسي. وكان يدفع للمقاتلة في بعض المناسبات مبالغ تسمى المعونة، فمثلاً في عهد الخليفة عمر بن الخطاب خصص لمن

---

(١) البلاذري ـ فتوح البلدان ـ ص٤٣٨.

(٢) أبو يوسف الخراج ـ ص٤٤-٤٦ ـ البلاذري الفتوح ـ ص٤٣٨ ـ ٤٤٥.

(٣) غوستاف لوبون ـ حضارة الغرب ـ ص١٦٩.

(٤) البلاذري ـ أنساب الأشراف ص ٢٧٣ ـ الطبري ـ تاريخه ـ ج٣ ـ ص٦١٤ ـ ج١ ـ ص٢٢٢ ـ ج٧ ـ ص٦١.

(٥) الطبري ـ تاريخ الرسل والملوك ـ ج٤ ـ ص٤٢-٤٣.

(٦) المرجع نفسه ـ ج٧ ـ ص٢٨٥.

(٧) المرجع نفسه ـ ج٤ ـ ص٢٤٥.

ولد حديثاً من أبناء المقاتلة درهم واحد في كل يوم من أيام رمضان[1]، وكانت المعونة في عهد ولاية زياد بن أبيه على العراق خمسين درهماً معونة لعيد الفطر وخمسين لعيد الأضحى، وأعطى لمن انتدب لمقاتلة عبد الله بن الزبير سنة (٦٣هـ) (٦٨٢م) مائة درهم معونة[2].

وشرف العطاء ينسب إلى الخليفة عمر بن الخطاب، فهو الذي فضل في العطاء[3]. وشرف العطاء لم يكن محدداً قبل هشام بن عبد الملك[4]. حيث حدده ما بين (١٧٠-٢٠٠ دينار)، على أن العطاء قبل ذلك كان أكبر بكثير. وإلى الخليفة عمر بن الخطاب أيضاً ينسب قانون وراثة العطاء، وهو فرض لعيال المقاتلة وذريتهم. واستمر هذا الفرض إلى العصر الأموي، فإذا مات أحدهم (المقاتلة) أو قتل كان ما يستحقه من عطاء موروثاً عنه، وهو دين لورثته في بيت المال[5]. وإلى الخليفة نفسه نسب فرض الأرزاق للمقاتلة وعيالهم، وتم ذلك أثناء زيارته للجابية[6]. وهو الذي قرر بتخصيص جريبين كل شهر ليكون رزق كل فرد في الشهر[7] وغالباً ما يكون شهر رمضان. واهتم الأمويون بتنظيم الأرزاق، فتم إنشاء دار للرزق في الأمصار تخزن فيها الحبوب، ليتم توزيعها على الناس، وكانت الحنطة هي المادة الرئيسية لحياة الناس لذلك كانت الأرزاق توزع من الحنطة.

- اللباس:

في بداية الدولة العربية اتخذ للجند لباس خاص، يميزهم عن بقية أفراد الشعب، إلا أنه لم يكن موحداً. لكن توحيد لباس الجند تقدم بخطى سريعة منذ بداية العصر الأموي. وطبيعة هذا اللباس كان عبارة عن عمامة، وسروال يرتدى فوقه قباء طويل يتدلى إلى ما تحت الركبتين مع حذاء. ومن المعلوم أن القادة كانوا يرتدون أزياء تميزهم عن أفراد الجند، حيث يغلب على الظن أن أقبيتهم

---

[1] الطبري - تاريخ الرسل والملوك - ج٤ - ص٢٤٥.

[2] المرجع نفسه - ج٥ - ص٣٧٥.

[3] ابن عبد الحكم - فتوح مصر - ص١٩٨ - ابن سلام - الأموال - ص٣٢٣.

[4] ابن قتيبة - الإمامة والسياسة - ج٢ - ص٩٠ - ٩١.

[5] الماوردي - الأحكام - ص٢٠٦ - ابن سعد - الطبقات ج٥ - ص٣٤٦.

[6] البلاذري - الفتوح ص٤٤٥ - ٤٤٧ - ابن سلام الأموال - ص٣٧٠ - الأزدي - ص٢٥٧.

[7] ابن سلام - الأموال - ص٣٥١.

كانت أطول من أقبية بقية الجند، وتزدان بصف من الأزرار المتقاربة، وفي حالات معينة كانوا يشدون أوساطهم بحزام. كما لبسوا جلد النمور[1].

- **الرايات والألوية:**

أما الراية فهي شعار للجيش، في سلمها وحربها منذ البداية، والألوية كانت متعددة الأشكال قبل الإسلام، شملت من الألوان الأحمر والأسود والأصفر والأبيض، فمنذ البداية اتخذ الرسول[2] (ص) اللواء بلون أبيض. وقيل إن راية الرسول (ص) كانت صفراء، مكتوب عليها عبارة (لا إله إلا ا لله محمد رسول ا لله)، وقيل: إن راياته كانت سوداء وألويته بيضاء. وأول لواء عقده كان أبيض سلمه لعمه حمزة، وأول راية كانت في غزوة حنين، ثم صار يرمز إلى القائد العام للجيش ولمركز القيادة أيضاً. وكان الرسول (ص) يعقد لأمير الجيش لواءً في رمحه، فمثلاً عقد لعمرو بن العاص لواءً في غزوة السلاسل، وجعل الخليفة الراشدي أبو بكر لخالد بن الوليد لواءً في رمحه[3].

ثم تعددت الرايات، حيث حملت كل قبيلة راية عليها شارتها وهي ذات لون يدل عليها، يؤكد ذلك محمد بن الحسن بقوله: (وينبغي أن يتخذ كل قوم شعاراً إذا خرجوا في مغازيهم حتى إن ضل رجل عن أصحابه نادى بشعارهم، وكذلك ينبغي أن يكون لأهل كل راية شعار معروف، حتى إذا ضل رجل عن أهل رايته نادى بشعاره، فيتمكن من الرجوع إليهم، وليس ذلك بواجب في الدين، ولكنه أفضل وأقوى على الحرب)[4].

ثم إن كل أمير كان يستخدم الراية وسيلة لإصدار الأوامر، فمثلاً في موقعة نهاوند أعطى النعمان بن مقرن شارة الهجوم بتحريك اللواء بقوله: (إني هاز لوائي ثلاث هزات: فأما أول هزة فليتوضأ الرجل بعدها وليقضي حاجته، وأما الهزة الثانية فلينظر الرجل بعدها إلى سيفه، أو ليتهيأ أو ليصلح من شأنه، وأما الثالثة فإذا كانت إن شاء ا لله

---

[1] الواقدي - كتاب المغازي - ج٢ - ص٥٨٠.

[2] ابن يوسف الخراج - ص١٩٣.

[3] ياسين سويد - الفن العسكري الإسلامي أصوله ومصادره - طبع بيروت ١٩٨٨ - ص٧٦.

[4] البخاري - ج٤ - باب فضل الجهاد.

فاحملوا، ولا يلوين أحد على أحد"[1] فهز لواءه، ففعلوا ما أمرهم.

إذن الرايات كانت رموزاً قبلية أو حربية أو جنسية ترمز إلى شعار خاص، أو إلى أحوال خاصة بأصحابها، أو إلى أمجاد، أو خرافات قديمة، أو تحرر أو أمجاد أقوام يلتفون حول راية واحدة يتخذونها شعاراً لقوتهم. أما الألوية، فكانت تتلون بألوان خاصة، أحياناً تحمل رسوماً أو كتابات ذات إشارات ومعان تتفق وما يرمز إليه أصحابها، والراية واللواء كلمتان مترادفتان[2] وقيل اللواء غير الراية، فاللواء يعقد لأمير الجيش، بينما تعقد الراية لأمراء القبائل، أو الكراديس. ولا تخرج الراية إلا في حالة الحرب. وأخذوا يكتبون بالحبر الأسود على الرايات والألوية البيضاء كلمة الشهادتين، وعند توجيه الجيوش في العصر الراشدي كان يعقد لكل أمير لواء قبيلته، ويزود بتعليمات خاصة. أما في العهد الأموي، فقد اتخذوا البياض شعاراً لهم، لذلك كانت رايتهم بيضاء، واتخذت شكلاً مستطيلاً، يطرز عليها اسم الخليفة من جهة، والشهادة من الجهة الأخرى.

أما الألوية، فقد كثرت وتعددت أشكالها وألوانها، وأهمها اللون الأحمر الذي اتخذته القيسية شعاراً لها، والأبيض الذي اتخذته اليمانية شعاراً لها. ومن المعروف أن العرب اتخذوا الشعارات منذ عصر الرسول (ص)، والأدلة على ذلك كثيرة. فمثلاً كان شعار الأحزاب في غزوة أحد ((يا للعزى ياهبل))[3]، وشعار المسلمين في غزوتي بدر وأحد ((يا نصر الله اقترب))[4]، وقيل كان شعار رسول الله (ص) يوم أحد ((أمت أمت))[5]، وقيل كان شعار المسلمين يوم بدر ((أحد أحد))[6]، وفي غزوة بني المصطلق ((يا منصور ــ أمت أمت))[7]، وفي غزوة الخندق ((حم ــ لا

---

(1) البلاذري ـ فتوح البلدان ـ ص٣٣.

(2) ابن الأثير ـ الكامل في التاريخ ـ ج٢ ـ ص٤٨ ـ ج٥ ـ ص١٤٤ ـ جرجي زيدان ـ تاريخ التمدن الإسلامي ـ ج١ ـ ص١٥١.

(3) إحسان الهندي ـ الحياة العسكرية عند العرب ـ ص٥٩.

(4) المرجع نفسه ـ ص٦٠.

(5) ابن عبد ربه ـ الدرر في اختصار المغازي والسير ـ ص١٦٠ ـ ابن هشام ـ مجلد ثالث ـ ص٦٨.

(6) محمد ضاهر وتر ـ فن الحرب الإسلامي في عهد الرسول (ص) ـ ص١٧٢ ـ ابن هشام ـ السيرة ـ المجلد الأول ـ ص٦٣٤.

(7) ياسين سويد ـ الفن العسكري الإسلامي ـ أصوله ومصادره ـ ص٧٧.

ينصرون))[1] وشعار المهاجرين ((يا خيل الله))، وقيل ((يابني عبد الرحمن))[2]، وشعار الخزرج ((يابني عبد الله))[3]. وشعار الأوس ((يا بني عبيد الله))[4]، وفي فتح مكة ((يا بني عبد الرحمن))[5]، ويوم الطائف ((يا رضوان))[6]، ويوم تبوك ((يا أحد يا صمد))[7]، وكان شعار أبي عبيدة يوم اليرموك (أمت أمت)[8].

وفي موقعة صفين كان شعار أهل العراق ((يا الله يا أحد يا صمد يارب محمد يا رحمن يا رحيم))[9]، وكان شعار أهل الشام في الموقعة نفسها ((يا لثارات عثمان))[10]. وقال الواقدي: كان شعار المهاجرين يوم بدر ((يا بني عبد الرحمن))، وشعار خزرج ((يا بني عبد الله))، وشعار الأوس ((يا بني عبيد الله))[11]. وقال ((كان شعار رسول الله (ص) يوم بدر: يا منصور أمت))[12]، وقال: كان شعار المسلمين يوم أحد ((أمت أمت))[13]، وقال: كان شعار المهاجرين ((يا خيل الله))[14]، وقال: وكان شعار المسلمين يوم الخندق ((حم لا ينصرون))[15] وغير ذلك من الشعارات في أمكنة أخرى، ولكن بعد تطور الفن الحربي عند العرب بدؤوا باستخدام هذه الشعارات بمنزلة كلمة السر والتعارف، وخاصة في حالات القتال.

---

[1] ابن هشام ـ السيرة ـ المجلد الثاني ـ ص٢٢٦ ـ محمد ضاهر وتر ـ فن الحرب الإسلامي ـ ص١٧٢.

[2] إحسان الهندي ـ ص٥٩ ـ ياسين سويد ـ ص٧٨.

[3] ابن عبد ربه ـ ص٢٥٩ ـ ابن هشام ـ السيرة ـ المجلد الثاني ـ ٤٠٩.

[4] المرجع نفسه ـ ص٤٠٩.

[5] المرجع نفسه ـ ص٤٠٩.

[6] إحسان الهندي ـ ص٦٠.

[7] المرجع نفسه ـ ص٦٠.

[8] المرجع نفسه ـ ص٦٠.

[9] المرجع نفسه ـ ص٦٠.

[10] المرجع نفسه ـ ص٦٠.

[11] الواقدي ـ محمد بن عمر الواقدي ـ ج١ ـ ص٧١.

[12] المرجع نفسه ـ ج١ ـ ص٧٢.

[13] المرجع نفسه ـ ج١ ـ ص٢٣٤.

[14] المرجع نفسه ـ ج٢ ـ ص٤٦٦.

[15] المرجع نفسه ـ ج٢ ـ ص٤٧٤.

الفصل الخامس

الوحدات الملحقة بالجيش

- القراء والقصاص
- العمال والفعلة
- الأطباء والممرضات
- البريد
- النساء
- الموالي
- الحرس
- الشرطة



الفصل الخامس

الوحدات الملحقة بالجيش

كان يرافق الجيوش العربية الإسلامية في حروب الفتح بعض المصالح[1] المدنية المعاونة، وظهر من جراء ذلك في القوات البرية عدة وظائف منها: ١ ـ القراء والقصاص. ٢ ـ طائفة العمال والفعلة. ٣ ـ طائفة الأطباء والممرضات. ٤ ـ البريد. ٥ ـ الديوان. ٦ ـ النساء. ٧ ـ الموالي. ٨ ـ الحرس. ٩ ـ الشرطة.

أولاً: القراء والقصاص: لكل حرب دعايتها، والحرب مكيدة وخدعة، كما أنها دفاع عن عقيدة، يعتمد على روح معنوية عالية، لذلك كان يرافق الجيش العربي الإسلامي في فتوحاته قراء يتلون القرآن[2] بين صفوف الجند، ويذكرون المقاتلين بفضل المجاهدين ومكانة الشهداء وعظمة الفتح. ثم أضافوا إلى القراء طائفة من القصاص، الذين كانوا ينتشرون بين الجند، فيقصون عليهم أمجاد أسلافهم. وكان العرب المسلمون قد أبطلوا الكثير من عادات الجاهلية، ومن بينها استخدام الشعر الحماسي في القتال. إلا أن الأمويين عادوا إلى فكرة إلقاء الشعر الحماسي في أوقات سمرهم،

---

[1] عبد الرؤوف عون ـ الفن الحربي ـ ص١١٧.

[2] محمود أحمد محمد سليمان عواد ـ الجيش والقتال في صدر الإسلام ـ ص١٣٣.

موقعاً على نغمات الآلات الموسيقية، مما يثير في الجند العزيمة والحماسة. واستخدموا بالإضافة إلى ذلك الخطباء والوعاظ، لينشروا في الجند روح الفداء، وليرفعوا من معنوياتهم ويزهدوهم في الدنيا بانتظار نعيم الآخرة.

ثانياً: العمال والفعلة: كان العرب المسلمون في أول أمرهم يقومون بواجب الجهاد، إضافة إلى الأعمال الأخر[1]، كحفر الخنادق وإقامة التحصينات والزراعة ورعي الماشية، وغير ذلك. إلا أنه عندما توسعت الفتوحات في عهد الدولة الأموية، وكثر في أيديهم الأرقاء، استكثروا منهم في الخدمة للاستعانة بهم في القتال والأعمال الأخرى، كتعهد الجمال والخيل، وحزم الأمتعة وحراستها في الحل والترحال، وتمهيد الطرق وحفر الخنادق وردمها، وسد الطرق الجبلية أثناء العمليات القتالية، وإقامة القناطر والجسور على الأنهر، وغير ذلك من الأعمال التي يقوم بها المهندسون اليوم. كما أكثر الأمويون من الأتباع، فكان منهم أصحاب الفؤوس، ومنهم من يزيلون الثلوج في الطرقات الجبلية، أي ما يسمى اليوم بأعمال هندسة الميدان.

أخيراً، كانت هذه الطائفة تقوم بأعمال هندسية، فمنهم من كان يقوم بإصلاح الطرق وقطع الأشجار، وإقامة الجسور والمعابر، وحفر الآبار، ومنهم من كان يقوم بإزالة الثلوج عن الطرق، وبعضهم الآخر كان يقوم بحفر الخنادق وإزالة الأتربة، إذن هذه الطائفة كانت تنتشر بين الجند يقصون عليهم أمجاد أسلافهم ويلقون عليهم الشعر الحماسي في أوقات سمرهم موقعاً على نغمات الناي كما كانوا[2] يغنون أمام الصفوف بالشعر المطرب فتجيش همم الأبطال، ويتسارعون للقتال.

ثالثاً: الأطباء والممرضات: كان الطب في البداية ضعيفاً لدى العرب المسلمين، وما للمجروح في القتال من يقوم بعلاج جراحه[3] إلا من يلوذ به من أهله، ثم انتقلت هذه المهمة لتصبح من خصائص بعض النساء المتطوعات (بالإضافة إلى اشتراكهن بالقتال). يقول جرجي زيدان:

---

[1] خالد جاسم الجنابي ـ تنظيم الجيش العربي الإسلامي في العصر الأموي ـ طبع العراق ـ ١٩٨٦ ـ ص١٢٧.

[2] ابن خلدون ـ مقدمة ـ ص٢١٦.

[3] محمود أحمد سليمان عواد ـ الجيش والقتال في صدر الإسلام ـ ص١٤١.

(اشتهر في أيام بني أمية بالشام امرأة اسمها زينب طبيبة بني أوده، كانت عالمة بالأعمال الطبية ومداواة العين بالجراحة). وباتساع الفتوحات، صار يقوم بهذه المهمة أطباء وممرضون مختصون، بعد أن أخذوا الطب عن الفرس والروم، وصار الجريح يحمل على ترس طويل. فيوضع في مكان العلاج، كما أصبح الأطباء يرافقون الجيش عند خروجه، وتخصص لهم الخيام في المعسكرات إضافة إلى الصيادلة لتركيب الأدوية وإعدادها. إلا أن ذلك لم يلغ دور النساء اللواتي كن يشاركن في الحرب، ويقمن بسقاية المحاربين وحمل الماء لهم، والعناية بالجرحى ونقلهم إلى مكان أمين، وإعداد الطعام للمحاربين وتحريضهم على القتال، كما كنّ يشتركن في حفر القبور مع بعض العمال والأطفال لدفن الشهداء.

رابعاً: البريد: قدر العلماء والفقهاء وعلماء المسالك والممالك البريد بأنه أربعة فراسخ[1]. والبريد يطلق على الرسول الذي يتردد بين اثنين أو أكثر. والبريد أصله فارسي جاء من كلمة (بريده ـ دم)، وتعني مقصوص الذنب. ثم إن عبد الملك بن مروان أحكمه وعممه، وكان صاحب البريد يدخل عليه ساعة يقدم الليل أو نهاراً فلا حجابة عليه، كما انتفع فيه الوليد فيما يتصل بمنشآته العمرانية[2]. وبنى عمر بن عبد العزيز الخانات للبريد على طريق خراسان[3]. والبريد في العهد الأموي كان نظاماً رسمياً حكومياً، استخدمه الخلفاء أول الأمر لنقل الأخبار بسرعة من مقر خلافتهم إلى الولايات المختلفة. وبالإضافة لذلك كان باستطاعة أي فرد أن يرسل إلى الخليفة ما يريده عن طريق البريد[4]، وكان يستخدم أيضاً في نقل القوات العسكرية على وجه السرعة، والذي يقوم عليه ويتولى أمره اسمه صاحب البريد.

يحاول البعض[5] أن يصور صاحب البريد بجاسوس خاص بالخليفة أو عينه وأذنه، كان الخلفاء لا يولون البريد ثقتهم إلا لمن هو من أهل التعقل والدراية، لأنه على نتائج أعمالهم كانت تتوقف

---

[1] الفرسخ ثلاثة أميال ـ والميل ثلاثة آلاف ذراع بالهاشمي والذراع أربعة وعشرون أصبعاً وكل أصبع ست شعيرات معترضات ظهر إحداها لبطن الأخرى والشعيرة سبع شعرات معترضات من ذنب بغل أو برزون ـ القلقشندي ـ صبح الأعشى ـ ج٤ ـ ص٣٦٦.

[2] هارتمان ـ دائرة المعارف الإسلامية ـ طبعة مصر ١٩٣٣ ـج٣ ـ ص٣٠٩.

[3] المرجع نفسه ـ طبعة مصر ١٩٣٣ ـ تصوير ـ ص٦١٠.

[4] الطبري ـ تاريخ الرسل والملوك ـ ج٥ ـ ص٣٣٥ ـ ابن عبد الحكم ـ سيرة عمر بن عبد العزيز ـ ص٥٦.

[5] موريس ديمومبين ـ النظم الإسلامية ـ ترجمة صالح الشماع ـ فيصل السامرائي ـ طبع بغداد ١٩٥٢ ـ ص١٥٦.

العلاقات بين الخلفاء وعمالهم، ثم أصبح بتطوره عيناً للخليفة على سائر رجال دولته. فأصحاب البريد إذن هم رقباء أو مفتشون من قبل الدولة يرفعون التقارير عن أحوال الجند أو المال أو غير ذلك من أمور الدولة. حتى وصل البريد لدور مهم، حيث إذا وصلت الخلافات بين السلطة في دمشق وغيرها، كان الخصم يقطعه عن الخليفة، كما فعل عبد الله بن الزبير في الحجاز، والمختار في العراق، عندما قطعوا البريد عن دمشق وغير ذلك. ولزيادة الثقة بين الخليفة، وبين صاحب البريد في سبيل الحصول على أوثق المعلومات، كان الخلفاء يضعون بينهم وبين صاحب البريد علامة يتفقون عليها سراً، حيث إذا فقدت هذه العلامة تفقد قيمة البريد.

ومصلحة البريد مصلحة مهمة وخطيرة، يحتاج صاحبها إلى عدة عمال وإلى نفقات واسعة. علماً أن واجبات صاحب البريد بالإضافة لما ورد، حفظ الطرق وصيانتها. فكان للبريد طرق تتشعب من مركز الخلافة في بلاد الشام إلى أطراف الدولة في كافة الاتجاهات، وتنقسم كل طريق إلى محطات بريدية يستبدل فيها عمال البريد وسائط نقلهم التماساً للسرعة، وسرعة البريد تختلف باختلاف الطرق ونوع وسائط النقل، علماً أن البريد يمكن أن يرسل على السفن في البحار والجو عن طريق الحمام الزاجل.

ولو تطلعنا في تاريخ استخدام العرب المسلمين للبريد، لوجدنا استخدامه منذ بداية الإسلام، حيث يعد الرسول صانع البريد ابتداءً من إرساله الرسل إلى ملوك العالم، حيث يطلب إليهم إظهار موقفهم من الإسلام. فبعضهم كان ينكر، وبعضهم الآخر كان يرسل مع البريد هدايا كما فعل مقوقس مصر، وكيف أرسل للقائد العربي الرسول (ص) هدايا. ألا يعد بريداً تلك الكتب الموجهة مباشرة من القائد إلى القوات، كتلك التي أرسلها أبو بكر الصديق إلى خالد بن الوليد، عندما أمر بنقل قواته إلى الشام، وكيفية قيادته للقوات.

وكذلك عمر بن الخطاب، ألم تكن أيضاً قيادته من مركز القيادة في المدينة لقواته في بلاد الشام والعراق عن طريق البريد وبالتالي مخاطبة القادة له فيما يتعلق بهم من أزمات، كتلك التي حدثت بين خالد بن الوليد، وأبي عبيدة في دمشق حول دخولها صلحاً أم بالسيف؟ وقرار التحكيم إلى عمر بن الخطاب وإرسال البريد بذلك الشأن. ونسأل: أليست الكتب التي وصلت إلى خالد بن الوليد بعزله، وإلى سعد بن أبي وقاص بتوجيهات وإرشادات وتعبئة وتنظيم.. أليس كل ذلك بريداً؟

ثم ألا تعد رسالة الإمام علي بن أبي طالب إلى أتباعه عندما أمرهم بجمع المقاتلين وتوجيههم له بالسرعة القصوى، بريداً امتاز بالسرعة في الذهاب والإياب دليل الاهتمام بذلك.

والبريد يعني في اللغة مسافة معلومة مقدرة باثني عشر ميلاً[1]، وفي الاصطلاح يعني جعل خيل ضامرات في عدة أماكن لتبديلها إذا تعبت، والكلمة مختلف على أصلها، فبعضهم يقول إنها عربية، بينما يقول بعضهم الآخر إنها فارسية. والأرجح أنها مأخوذة عن الفرس، لأن مصلحة البريد قديمة عرفت عند الفرس والروم، قبل أن تعرف عند العرب، لأن أول من استخدم البريد من العرب المسلمين معاوية بن أبي سفيان. وهو أول من رتبه وأوجد له طرقاً ومناهج ورتب له الخيل والمحطات، ثم أدخلت على البريد تحسينات في عهد عبد الملك بن مروان نظراً لأهميته في تأمين المواصلات والأخبار بين الخليفة والولايات.

والبريد واسطة بين الخليفة والوالي والعكس، ينقل أوامر الخلفاء إلى الولايات وأخبارهم إليه. و لم يقتصر عمل صاحب البريد على ذلك فحسب، بل كان يتعداه إلى موافاة الخليفة بكافة الأخبار والحوادث، أي أنه كان رقيباً ومفتشاً وعيناً للخليفة، يرفع إليه التقارير عن أحوال الجند في مختلف حالات القتال، وفي كل الظروف والأوقات، ويخبره عن أعمال الإمداد بالمال، وأحكام القضاء وأسعار الحاجيات وغيرها. حتى أن بعض الخلفاء الأمويين كان يشرف بنفسه على البريد للإطلاع عليه، ومنهم معاوية وعبد الملك بن مروان.

وكانت وسائل نقل البريد آنذاك: ١ ـ نقل بري على الخيل أو على دابة أو أكثر أو بواسطة السعاة. ٢ ـ نقل جوي كان يعتمد على الحمام الزاجل، حيث كانت الرسالة تستر تحت جناح الطائر أو في ذيله، وكان يكتب صورتان عن الرسالة ترسلان في أوقات مختلفة ضماناً لوصول إحداها. ٣ ـ نقل مائي على السفن، وكان قليل الاستخدام إلا في حالة عدم استخدام الطرق البرية أو غيرها من الطرق الواردة الأخرى. ومن الوسائل التي استخدمت في تأمين الاتصالات: ١ ـ كتابة ورقة معلقة بقصبة وغرسها في حزمة من الأعشاب، ووضعها في الماء، فتطفو حزمة الأعشاب وتسير مع الماء حتى يراها المرسل إليهم. ٢ ـ المخابرات بالنار والدخان. وذلك بصنع أبراج عالية بين

---

[1] أنور الرفاعي ـ الإسلام في حضارته ونظمه الإدارية والسياسية والأدبية والعلمية والاجتماعية والاقتصادية والفنية ـ طبعة دمشق ١٩٧٣ ـ ص١٤١ ـ ١٤٧.

بعض البلدان، حيث ينشر منها الدخان نهاراً وتوقد فيها النار ليلاً، فيراها رصاد البرج الآخر، ويفهمون معناها وفق اصطلاحات بينهم. وكان للبريد محطات فيها كل ما يحتاجه موظفوه، وتستطيع وسائل النقل البريدية المتوافرة آنذاك أن تصل إليها بسهولة.

خامساً: ديوان الجند والعطاء: بعد الحديث عن الجيش لابد من إلقاء نظرة سريعة على تكوين الديوان وتطوره. ولابد من التذكر أن عمر بن الخطاب هو في رأي المؤرخين أول من وضع[1] الديوان واختلف في سبب[2] وضعه له، وقرر عمر بن الخطاب وضع الديوان[3] بعد أن عقد اجتماعاً لرجال دولته حينما قال: (اكتبوا الناس على قدر منازلهم، أبدؤوا بقرابة رسول الله الأقرب فالأقرب)[4]. وهو أول من وضع بيت مال للمسلمين[5].

وعندما استقر ترتيب الناس في الدواوين، على قدر النسب المتصل بالرسول (ص) فضل بينهم في العطاء، على قدر السابقة في الإسلام والقربى من رسول الله (ص).. ففرض لكل من شهد بدراً من الأنصار أربعة آلاف درهم، كما فرض لكل من هاجر قبل الفتح ثلاثة آلاف درهم، ولمن أسلم بعد الفتح ألف درهم. ثم فرض للناس على منازلهم وقراءتهم للقرآن وجهادهم، وفرض للواحد من أهل اليمن[6] وقيس بالشام والعراق من ألفين إلى ألف إلى خمسمائة إلى ثلاثمائة. روعي في التفضيل عند انقراض أهل السوابق التقدم في الشجاعة والبلاء في القتال.

اختلف المؤرخون في سنة إنشاء الديوان. فبعضهم ذكر أنه كان سنة (١٥هـ) وآخرون يذكرون: أنه سنة (٢٠هـ)[7] والرأي الثاني أقرب إلى الصدق لأن هذا التاريخ بعد تحرير الشام

---

[1] الماوردي - الأحكام السلطانية - ص٢٢٦.

[2] يذكر أن أبا هريرة، كان على البحرين، فقدم على عمر بن الخطاب بخمسمائة ألف درهم، فقصد المنبر ثم قال: قد جاءنا مال كثير، فإن شئتم كلنا لكم كيلاً، وإن شئتم عددنا لكم عداً، فقال له رجل: لقد رأيت الأعاجم يدونون فدون لنا ديواناً، وذكر غير ذلك في سبب وضعه، أن الهرمزان هو الذي فسر معنى الديوان لعمر بن الخطاب.

[3] المقريزي - الخطط ج٢ - ص١٦٤.

[4] الماوردي - الأحكام السلطانية - ص٢٢٧.

[5] جلال الدين السيوطي - تاريخ الخلفاء - ص١٦٥.

[6] الماوردي - الأحكام السلطانية والولايات الدينية - ص٢٢٩.

[7] المرجع نفسه - ص٢٢٧.

والعراق تقريباً، وكان التسجيل في الديوان على النسب، وعناصر الديوان ملزمون بالإقامة في البلد الذي يوجد به الديوان. ومنذ البداية سجل الناس حسب قبائلهم. وكان الترتيب في السجل حسب درجة القرابة من الرسول (ص) ثم الأقرب فالأقرب. فإذا استووا في القرابة، قدم أهل السابقة ثم الأمصار، وكان يسجل في الديوان المقاتلين وأسرهم.

ويذكر أن أول من وضع الديوان هم الفرس في عهد ملكهم (كيهراسف)، علماً أن الفرس كانوا قبل ذلك في عهد (كبقاد) قد حصلوا على العشر من الغلات لصرفه على الجند. ولديوان الجند فروع[1] منها ما كان للمراسلة، ومنها ما كان للعطاء، ومنها ما كان للنفقات. واستمر الديوان في عصر الدولة الأموية مع بعض التعديلات حسب ما يطرأ على أصحاب العطاء من تبديل أو تعديل، سواء بالزيادة أو النقصان.

يذكر ابن عبد الحكم[2] أن ديوان مصر مر بأربعة مراحل. **الأولى:** في عهد عمرو بن العاص، وهو أول من دون الديوان في مصر. **الثانية:** في عهد عبد العزيز بن مروان والي مصر، في عهد أخيه عبد الملك بن مروان. **الثالثة:** في عهد قره بن شريك والي مصر، في عهد الوليد بن عبد الملك. **والرابعة:** في عهد بشر بن صفوان والي مصر، في عهد يزيد بن عبد الملك.

وعطاء الجند كان له وقت معين، سواء أكان على رأس كل سنة أو على رأس كل شهر، والعطاء كان يزيد وينقص حسب الأحداث السياسية التي تمر بها الدولة. ومن المعلوم أن العطاء ظل يعتمد النسب السابقة حتى انقراض أهل السوابق، وأصبح الجند من عامة المسلمين، عند ذلك رتب الجند حسب الشجاعة والبلاء في الحروب، ومن المعلوم أيضاً أن اختيار الجند كان حسب شروط ورد ذكرها، فمن استوفى هذه الشروط كان يسجل بالديوان بعد أن يقدم طلباً ويقبل طلبه. أخيراً أصبح لكل مصر من الأمصار ديوان للجند.

أما كاتب الديوان، فيجب أن يتوفر في ولايته شرطان هما[3]: **١ ـ العدالة:** وهو شرط يجب توفره في كاتب الديوان، لأنه مؤتمن على حق بيت المال والرعية. **٢ ـ الكفاءة:** وشروط توفرها في

---

[1] جرجي زيدان ـ تاريخ التمدن الإسلامي ـ ج١ ـ ص١٤٣.

[2] ابن عبد الحكم ـ فتوح مصر ـ ص١٠٢.

[3] الماوردي ـ الأحكام السلطانية ـ ص٢٤٤.

كاتب الديوان واجبة، وأهمها حفظ القوانين[1]، واستيفاء الحقوق[2]، وإثبات الرفوع[3]، محاسبات العمال، وإخراج الأموال[4]، تصفح الظلامات.

وفي خلافة عبد الملك بن مروان، شهدت حركة تنظيم وتبويب الدواوين إلى العربية، كما شهدت خلافة هشام بن عبد الملك دقة في تنظيم الدواوين، حيث يؤكد الطبري ذلك على لسان عبد الله بن علي حيث قال: (جمعت دواوين بني مروان فلم أر ديواناً أصح ولا أصلح للعامة والسلطان من ديوان هشام)[5].

سادساً: النساء: عملت النساء[6] ضمن جيش العرب المسلمين منذ البداية في تأمين المقاتلين بالماء والطعام والذخيرة، وبالخدمات الطبية كالإسعاف والتمريض وإخلاء الجرحى والشهداء ،كما كن يضربن الدفوف ويقرعن الطبول لإثارة الحماسة في نفوس المقاتلين. ففي غزوة بدر حملت السيدة عائشة الماء لتسقي المحاربين، وعملت أيضاً زوجة أبي طلحة وأم أنس بن مالك مثل ذلك، وعملت النساء على تشجيع المقاتلين وهم خلف الصفوف يشجعنهم بالأغاني والأهازيج، وشاركت نسوة الأنصار بمثل ذلك. وفي معركة اليرموك حاربت النساء[7] ووقفن إلى جانب الرجال. من ذلك كما يذكر محمد كرد علي هند بنت عتبة، وأم حكم بنت الحارث بن هشام[8]. وعمل الأمويون على اصطحاب النساء إلى أرض المعركة. لإثارة الجند، وحددوا لهن مكاناً للإقامة به لتمريض الجرحى والعناية بهم. وعندما غزا مسلمة بن عبد الملك عمورية، حمل معه بعض النساء في عقبة بغراس، وسميت تلك العقبة عقبة النساء[9].

---

[1] الماوردي - الأحكام السلطانية - ص٢٠٢.

[2] ويعني استيفاء الحقوق ممن وجب عليهم من العاملين - واستيفاؤها من القابضين لها من العمال.

[3] وهو رفوع مساحة وعمل أو رفوع قبض واستيفاء، ورفوع خرج ونفقة.

[4] ويعني استشهاد صاحب الديوان على ما ثبت فيه من قوانين وحقوق حيث أصبح كالشهادة.

[5] الطبري - تاريخ الرسل والملوك -ج٧ - ص٢٠٣.

[6] وفيق الدقدوقي - الجندية في عهد الدولة الأموية - طبع بيروت ١٩٨٥ - ص١٤٤.

[7] الطبري - تاريخ الرسل والملوك أحداث سنة ١٣ هـ - ج٣ - ص٤٨.

[8] محمد كرد علي - خطط الشام - طبع دمشق ١٩٦٩ - ج١ - ص١٢٦.

[9] البلاذري - فتوح البلدان - ص١٧٤.

سابعاً: الموالي: كلمة الموالي أطلقت على من دخل الإسلام من غير العرب، يحاربون في صفوف العرب المسلمين بعد أن تأصل الإسلام في قلوبهم. وكان الموالي يتقاضون رزقاً، ويأخذون نصيباً من الغنيمة لأنه لم يكن لهم أعطيات ثابتة ولم يكونوا مقيدين بالديوان، واستمروا على ما ورد حتى كان عهد عمر بن عبد العزيز، حيث أدخل من الموالي عشرين ألفاً في الديوان أسندت لهم أعمال حربية. بذلك كان الموالي يزيدون في قوة الجيش العددية والقتالية[1]. ووصف الموالي بأنهم كانوا جنوداً مدربين على القتال. وتأكيداً لأهمية الموالي فإن الطبري[2] يذكر معركة الجماجم زمن الحجاج بن يوسف بأن معسكر العرب المسلمين ضم (١٠٠) ألف من المقاتلين العرب المسلمين من أصحاب الأعطيات، وكان معهم مثلهم من مواليهم كمرافقين للسادة العرب.

ثامناً: الحرس: في عهد معاوية ابتدع نظام الحراسة وهو الذي أوجده، والحرس كان من عرب مختارين من رجال القبائل العربية الإسلامية الموثوق بهم. يؤكد ذلك معركة صفين وهجوم مالك بن الأشتر على مقر قيادة معاوية[3] ومبادرة الحرس الخاص بدفع الهجوم وإنقاذ معاوية. أي أن مهمة الحرس كانت تقتصر على حراسة الخليفة أو الأمراء فقط. وقال ابن خلدون[4]: (إن والي البصرة زياد بن أبيه، كان أول من سير بين يديه الحرس بالحراب والعمد، واتخذ الحرس). وقال السيوطي[5]: (إن الخليفة عمر بن عبد العزيز كان له (٣٠٠) من الحرس و(٣٠٠) من الشرطة). وكان الخليفة المذكور قد قال لهم: (إن لي عنكم بالقدر حاجزاً، وبالأجل حارساً من أقام منكم فله عشرة دنانير، ومن شاء فليلحق بأهله).

---

(١) فلهازون - تاريخ الدولة العربية - ص٤٧١ - المحبر - ص٣٦٢.

(٢) الطبري - تاريخ الرسل والملوك - ج٢ - ص .

(٣) الخضري - ج٢ - ص١٤٠.

(٤) ابن خلدون - تاريخه - ج٣ - ت١ - ص١٨.

(٥) السيوطي - تاريخ الخلفاء - ص٢٣٧.

ومهما اختلف المؤرخون حول الحرس ومن أمر بوضعه، فإن معاوية بن أبي سفيان هو أول من وضع الحرس[1]. علماً أن معاوية نفسه كان القائد العام لكافة وحدات الجيش بعد أن أصبح رأس السلطة المطلقة في الدولة العربية الإسلامية. فالحرس وضعه معاوية بعد أن تعرض لمحاولة اغتيال. وقلده فيما بعد من ولاته زياد، حيث كان أول من أنشأ لنفسه من الولاة حرساً خاصاً قدر عدد أفراده بخمسمائة رجل. ويذكر أن زياد بن أبيه كان قد جعل عددهم أربعة آلاف فارس وعليهم عبد الله بن حصن[2]. وقيل أسند قيادتهم كما يذكر البلاذري إلى شيبان بن عبد الله[3].

ومهمة الحرس حماية الأمير بشكل خاص، كما كانوا يتولون دعوة أي شخص أو إحضاره أمام الأمير أو الوالي[4]. ويصف ابن قتيبة[5] في كتابه عيون الأخبار الصفات المطلوبة في صاحب الشرطة وأهمها: أن يكون شديد الصولة، قليل الغفلة، دائم العبوس، طويل الجلوس، سمين الأمانة، أعجف الخيانة[6]. ويساعد صاحب الشرطة في أداء عمله، شرطة وحراس وعسس وأعوان للشرطة. إذن الشرطة هي الجند الذي كان الخليفة أو الوالي يعتمد عليهم في استتباب الأمن وحفظ النظام والقبض على الجناة والمعتدين.

وكثيراً ما يعلق على عملية تفضيل بعض القوات عن غيرها، كما كان عند الأمويين وغيرهم. فمثلاً تفضيل الأمويين لجند بلاد الشام كان ضرورة حتمية لهم. فهم يحملون عقيدة الأمويين السياسية التي رسخوها بواسطتهم ووصلوا عن طريقها إلى السلطة حتى أصبحت هذه العقيدة توجه إرادتهم كيفما أرادت السلطة الأموية. كما نلاحظ في الوقت الحاضر الحاجة لوجود وحدات عقائدية مهمتها قمع الفتن ومظاهرها.

تاسعاً: الشرطة: تاريخ الشرطة عند العرب المسلمين يبدأ من صدر الإسلام. ففي عهد الخليفة الراشدي عمر بن الخطاب وبعد إنشاء الدواوين، وبيت المال، وبعد أن ازداد الخراج،

---

[1] اليعقوبي - تاريخه ج٢ - ص٢٢١.

[2] الطبري - تاريخ الرسل والملوك - ج٥ - ص٢٥٢.

[3] البلاذري - أنساب الأشراف - ج٤ قسم ص١٦٢ - الطبري - ج٥ - ص٢٢٤.

[4] خليفة بن خياط - ج٢ - ص٥٣٥.

[5] ابن قتيبة - عيون الأخبار -ج١ ص١٦ - ابن عبد ربه - العقد الفريد - ج٥ - ص٢٢٤.

[6] نجدة الخماش - الإدارة في العصر الأموي - طبع بيروت ١٩٨٠ - ص٣١٦.

وامتدت أطراف الدولة العربية، عند ذلك خصص الخليفة المذكور حراساً يتبادلون الحراسة،وخاصة لبيت المال، ومنذ ذلك الوقت عرفت أهم وظائف الشرطة، أي توفير الأمن[1] وحراسة مؤسسات الدولة الهامة، إلا أن هؤلاء الحراس عرفوا في البداية باسم العسس. وأول من أطلق اسم الشرطة كان الإمام علي بن أبي طالب، وأطلق في عهده اسم رؤوساء الشرطة وأصحاب الشرطة. يقول ابن خلدون[2]: (إن الشرطة وظيفة دينية ومن الوظائف الشرعية).

ثم أخذ نظام الشرطة في تطور مع اتساع رقعة الدولة، ومع أعباء الخلفاء. ففي عصر الدولة الأموية عرفت الشرطة[3] ولأول مرة نظام المراقبة ونظام البطاقة الشخصية. لكن كثرت الأحداث في العصر الأموي وغلب على جهاز الشرطة الطابع العسكري لحماية السلطة، والقدرة على القمع وإخماد الفتن[4] ومطاردة الثائرين، حيث أطلق على صاحب الشرطة في عهدهم اسم صاحب الأحداث. إذ يذكر أنه كان في مدينة الكوفة وحدها أربعون ألف رجل من رجال الشرطة. أي أن هذا النظام كان أقرب إلى نظام الأمن المركزي. أخيراً كان صاحب الشرطة تابعاً للأمير وكان لكل مدينة شرطتها.

---

[1] منير العجلوني ـ عبقرية الإسلام في أصول الحكم ـ ص٢٨٥ وما بعدها.

[2] مقدمة ابن خلدون ـ طبع دار الشعب ـ ص١٩٨.

[3] عارف عبد الغني ـ نظم الاستخبارات عند العرب والمسلمين ـ ص٢٣٢.

[4] فاروق عبد السلام ـ الشرطة ومهامها في الدولة الإسلامية ـ طبع مصر ١٩٨٧ ـ ص١٧.



الفصل السادس

الأسلحة ومعدات القتال

- الأسلحة الخفيفة
- الأسلحة الثقيلة
- الأسلحة الدفاعية



الفصل السادس

الأسلحة ومعدات القتال

السلاح أداة تستخدم في المعركة للقتال، والأسلحة إما أن تكون خفيفة يستخدمها جندي واحد، أو ثقيلة يشترك في استخدامها أكثر من جندي. وقد استخدم العرب المسلمون في فتوحاتهم مجموع الأسلحة الواردة فيما يلي:

. الأسلحة الخفيفة:

السيف[1]: هو أشهر الأسلحة عند العرب وأعظمها ذكراً ووصفاً لما له من أهمية، فقد أطلقوا عليه أسماء متعددة بلغت المئة. ومن أهم السيوف العربية ذو الفقار سيف الإمام علي، وسيف الصمصامة لعمرو بن معدي كرب، وسيف الدلول لعبد الرحمن بن عتاب بن رشيد وغيرها. كالبتار والقلعي وذو الخرطوم وذو النون. بلغ ثمنه عندهم ألف درهم. والسيف يعدّ آخر الأسلحة استعمالاً في المعركة بعد القوس والرمح. إذن فالسيف هو الذي يحدد نهاية المعركة.

أما أجزاء السيف[2] **فهي:** ١ ـ قائم السيف. ٢ ـ النصل (جسم السيف). ٣ ـ السيلان أصل

---

[1] ابن سيده ـ المخصص ـ المجلد الثاني ـ الشعر السادس ـ كتاب السلاح ـ ص١٦ وما بعدها.

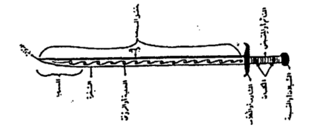
[2] ابن سيده ـ ج٢ ـ ص٢٦-٢٧ ـ نهاية الأرب النويري ـ ج٦ ـ ص٢٠٢ وما بعدها ـ ابن خلدون ـ ج٣ ـ ص٢٧٥.

المقبض. ٤ ـ الكلاب: جزء مستعرض في نهاية القائم. ٥ ـ الشفرة (حد السيف). ٦ ـ المتن. ٧ ـ المضرب. ٨ ـ الذؤابة: طرفه المدبب من الأعلى والسيوف بعضها طويل وبعضها قصير.

أما أنواع السيوف[1] **فهي:** ١ ـ السيف اليماني: نسبة إلى اليمن. ٢ـ السيف الهندي وهو المصنوع بالهند. ٣ ـ السيف المشرفي المنسوب إلى مشارف الشام. ٤ ـ السيف البصروي المنسوب إلى بصرى الشام. ٥ ـ السيف القلعي، اختلف في نسبه، فبعضهم نسبه إلى القلعة (حصن بالبادية)، وبعضهم الآخر نسبه إلى بلد من الهند. ٦ ـ السيف السليماني: ويبدو أنه كان يسقى بالسم السليماني ليزيد من صلابته. ٧ ـ السيوف السريجية: نسبة إلى حداد اسمه (سريج).

ومن المعلوم أن العرب كانوا يفضلون السيوف المرهفة الخفاف على الغلاظ، والسيوف العربية مشهورة بأنها كانت أكثر قطعاً في اللين، وبعض السيوف العربية كانت صلبة وقاطعة، حتى وصفت بأنها كانت تقطع الأذرع والسيقان وتفلق الهام، وروي أنها كانت تقطع الحديد حديد الدروع، وبعضها كان يقطع مغاليق الحصون الحديدية وغيرها.

وكان العرب قبل الإسلام يحلّون سيوفهم برسم الصور كالحيات والأسماك وغيرها، وترسم بالنحاس أو الفضة أو الذهب وغيرها من المعادن الثمينة. وعندما جاء الإسلام نهى الرسول (ص) عن التصوير والتمثيل. فلما اتسعت الفتوحات صار العرب المسلمون يحملون سيوفهم وأغمادها وحمائلها، ثم أخذوا يحلون السيوف بالكتابة عليها ورسم الصور والتماثيل، وخاصة السيوف اليمانية، وقد كتب على بعضها عبارات مثل لا إله إلا الله. لا سيف إلا ذو الفقار ولا فتى إلا علي. ومن المعلوم أن طريقة حمل السيوف كانت بتعليقها على الأكتاف اليمنى على أن تترك متدلية على الجانب الأيسر، وقد يحدث أن يتقلد الفارس سيفين. ففي هذه الحالة كان يتقلد أحدهما كما ورد ويضع الثاني في وسطه.

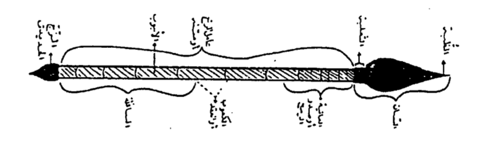


---

[1] مؤلف مجهول ـ خزانة السلاح ـ طبع مصر ١٩٧٨ ـ ص١٩ وما بعدها.

الرمح[1]: من أقدم أنواع الأسلحة، استعمله المصريون القدماء[2]، واستعمله العرب قبل الإسلام. فالرمح عماد العربي في صحرائه الواسعة، ينشر عليه ثوبه ويستظل به، وبه يصيد إذا جاع، ويهش به أوراق الشجر على غنمه، ويدفع به عن نفسه العداوات. والرمح يصنع من نادر الخشب كالأبنوس[3]. ونسبت الرماح إلى صناعها كالرديني نسبة إلى امرأة اسمها ردينة، والسمهرية نسبة إلى سمهر، واليزنية نسبة إلى ذي يزن، والزاغبية نسبة إلى زاغب.

يقسم الرمح إلى الأجزاء التالية[4]: ١ ـ المتن (العامل): يساوي جسم الرمح. ٢ ـ الكعوب: هو العقد التي تكون في الفرع، وتسوى حتى تصبح ملساء. ٣ ـ الزج: حديده تركب في أسفله مدببة الطرف. ٤ ـ العالية: يساوي الجزء العلوي. ٥ ـ السنان. ٦ ـ الثعلبة: الجزء الأسفل من السنان. ٧ ـ الظبة: هي نهاية السنان المدبب في أعلاه. وهناك رماح صغيرة كانت تستخدم عند مطاردة الهاربين، ويرمى به عن بعد ولا يطعن بالرمح. والرماح أنواع[*] متعددة منها: ١ ـ السمهرية: وتعرف بأنها صلبة وتنسب إلى رجل معروف اسمه سمهر. ٢ ـ الزاغبية: تنسب إلى زاغب. ٣ ـ اليزنية: نسبة إلى ذي يزن. ٤ ـ الرديني: منسوب إلى امرأة اسمها ردينة.



---

[1] ابن سيده ـ المخصص ـ المجلد الثاني ـ الشعر السادس ـ كتاب السلاح ـ ص٢٨ وما بعدها.

[2] دائرة المعارف ـ ج١٦ ـ ص٦٩٦ ـ الجاحظ: البيان والتبين ـ ج٣ ـ ص٦٤.

[3] الجاحظ: البيان والتبين ـ ج٣ ـ ص٦٤ ـ النويري ـ نهاية الأدب ـ ج٦ ـ ص٢٠١ ـ المخصص ـ ابن سيده ـ ص٢٩ ـ التمدن الإسلامي ـ زيدان ـ ص١٩٥.

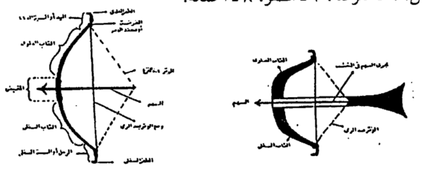
[4] ابن سيده ـ المخصص ـ ص٢٩ وما بعدها.

[*] مؤلف مجهول ـ خزانة السلاح ـ ص٣٣.

القوس[1]: من أسلحة الهجوم، استخدمه العرب لصيد الغزلان، وللعــرب قـدرة فائقـة علـى استخدامه. يذكر ابن سيده أن العرب تنسب صناعة القوس إلى ناسخة (رجل من الأزد)، الذي يعدّ أول من عمل القوس من العرب. وفي عصر الدولة الأموية تعددت أنواع القسي، حيـث يذكـر ابـن قيم الجوزية أن القوس كانت نوعان (قوس يـد، قـوس رجـل)، وذكـر أن قـوس اليـد كـانت ثلاثـة أصناف، **الأولى**: قوس عربية، وهي نوعـان (حجازيـة + واسـطية)، **والثاني**: قـوس فارسـية، كـثر استخدامها في الشام. **والثالث**: القوس التركية. أما قوس الرجل، فهي نوعان أيضـاً: **الأولى** تركيـة، **والثانية**: قوس الجرخ التي شاع استعمالها عند أهل المغرب العربي.

أما أصول الرمي، فقد ذكرها ابن قيم الجوزية وقال: هي خمسـة (المقبـض ـ العقـد ـ المـد ـ الإطلاق ـ النظر)، وقال بعضهم إن أصول الرمي أربعة هي: (العقد ـ القبض ـ الإطـلاق ـ النظـر)، وقيل: إن أصول الرمي أربعة وفروعه تسعة، وله خصلتان. فأصول الرمي أربعة وردت. وأما فروعـه فهي: ١ ـ المد على استهواء وترفق. ٢ ـ معرفة الرامي قدر قوسه ليكون على بصيرة من الرمي. ٣ ـ معرفة الرامي مقدار سبته. ٤ ـ معرفة الرامي مقدار فوق السهم وهو الغرض الـذي يجعـل في الوتـر. ٥ـ معرفة الرامي قوته في نفسه. ٦ ـ الرامي إما جلوساً وإما وقوفاً. ٧ ـ قصد الإصابة لا البعد. ٨ ـ التكابة. والخصلتان هما: ١ ـ الرصير. ٢ ـ التقى.

وأجزاء القوس[2] **كما هي واضحة بالشكل**: ١ ـ البدن: يطلق على الناحيـة العليـا اسـم يـد القوس قابان والسفلى رجل القوس. ٢ ـ المقبض. ٣ ـ السية ولكل قوس سيتان. ٤ ـ القـاب: لكـل قوس قابان. ٥ ـ الوتر: كان يؤخذ من خيوط مفتولة أو من شراك الجلد، ثم صار يؤخذ من عصـب عنق البعير المسن. ٦ ـ الفرضة. ٧ ـ الظفر. ٨ ـ الحمالة.



---

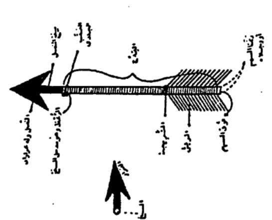
[1] ابن سيده ـ المخصص ـ المجلد الثاني ـ الشعر السادس ـ كتاب السلاح ـ ص٣٧ وما بعدها.

[2] ابن سيده ـ المخصص ـ ص٤٢.

السهم[1]: (النبل ـ النشاب): عبارة عن عود يصنع من شجر صلب، والسهم هو القذيفة التي يتم رميها. ومن مستلزمات السهام (الكنانة ـ الجعبة ـ الجفير). والسهام تستعمل للرمي في ميدان مكشوف أو من وراء أسوار الحصون. وبالإضافة لاستخدام السهام في الحروب. كان دورها فتاكاً وخاصة عندما يضاف السم إلى النصل. وكانت السهام تستخدم كأداة للتخاطب، وعلى الأخص في حصار الحصون. ومن المعلوم أن النبالة (النشابة)، كانوا فرقاً عضوية في تنظيم الجيوش العربية الإسلامية.

ويقسم السهم إلى أجزاء هي[2]: ١ ـ القدح أو جسم السهم. ٢ ـ النصل هو حديدة يطرقها الحداد حتى تصير زرقاء ثم تبرد بالمبرد ويجعل لها شوكات جانبية تجعل نزعه صعباً إذا ثبت. ٣ ـ سنخ النصل. ٤ ـ الرعظ وهو مدخل السنخ. ٥ ـ العقب. ٦ ـ الفوق. ٧ ـ رغتا الفوق. ٨ ـ الشريجة. ٩ ـ الريش ـ وأجوده ريش النسر، ثم ريش العقاب.

والرسم التالي يوضح الأجزاء:



ومن الأسلحة الخفيفة الأخرى التي استخدمها العرب غير ما ورد:

١ ـ الحربة[3]: استخدم العرب قبل الإسلام الحربة (أصغر من الرمح) في حروبهم، واستمروا في استعمالها في صدر الإسلام والأموي.

---

(1) محمود شيت خطاب ـ العسكرية العربية الإسلامية ـ طبع بيروت ١٩٨٣ ـ ص١١٢.

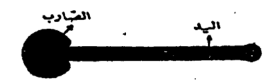
(2) ابن سيده ـ المخصص ـ الشعر السادس ـ كتاب الحرب ـ ص٥٣ وما بعدها.

(3) إحسان الهندي ـ الجيش العربي في عصر الفتوحات ـ طبع دمشق ١٩٧٣ ـ ص٧٩.

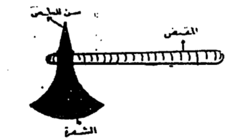
٢ ـ **المحذق**[١]: عبارة عن عصا طويلة في طرفها مسمار محدد. كان سلاح الفتية في بداية تدريبهم.

٣ ـ **الخنجر**[٢]: سلاح شاع استعماله يحمله المقاتل في وسطه أو تحت ثيابه، ويستعمل الخنجر في حالة القتال القريب. وأكثر استعماله في حالة الدفاع عن النفس.

٣ ـ **الدبوس**[٣]: عبارة عن عصا قصيرة من الحديد لها رأس حديدية (مربع أو مستدير)، والدبوس من سلاح الفرسان يحملونها في سروجهم كما هو موضح في الرسم.



الفأس (البلطة)[٤]: بالأصل سلاح فارسي له نصل من الحديد مركب في قائم من الخشب، كما هو موضح في الرسم.



ـ الأسلحة الثقيلة:

المنجنيق: يستخدم في الهجوم وفي حالة الحصار وفي حالة الدفاع. فهو آلة قاذفة استخدمه الفينيقيون قديماً. وعنهم أخذه اليونان، ثم انتقل إلى الفرس ومنهم إلى العرب. والمنجنيق كان قد مر

---

[١] ابن سيده ـ المخصص ـ ص٣٥.

[٢] سيرة ابن هشام ـ ج٤ ـ ص٨٨.

[٣] البستاني ـ دائرة المعارف ـ ج١٦ ـ ص٦٩٦.

[٤] عبد الرؤوف عون ـ الفن الحربي في صدر الإسلام ـ ص١٥٥.

بتطورات. ففي البداية كان الحجر يرمى باليد، ثم اتخذ المقلاع ثم المنجنيق، وكان في بدايته على شكل الشادوف (الذي يسقي به الفلاحون أراضيهم) والمنجنيقات أصناف منها الكبير والصغير، وكانت تستخدم لرمي الحجارة أو قدور النفط أو العقارب. وبعضها الآخر كان يستخدم لرمي السهام وبعضها كان يستخدم لرمي السوائل كالنفط وغيره.

استخدم العرب المنجنيق في عهد الرسول (ص)، حيث يذكر الطبري[1] أن الرسول (ص) كان أول من استخدمه في الإسلام، وأدخلوا عليه بعض التعديلات، وكثر استعمال المنجنيقات حتى وصل عددها في بعض المعارك إلى أكثر من ثمانين منجنيقاً[2]. وعن طرق العمل بالمنجنيق يقول عبد الرؤوف عون[3]: (ولقد حاول صاحب (آثار الأول) أن يعطي القارىء فكرة واضحة عن هذا السلاح. ولكنه لم يوفق تماماً، لإجمال عباراته واختصارها.

ويقول بعد أن بين أنه أنكى الأسلحة وأشدها فتكاً بالعدو: منه ما هو بلوالب، ومنه ما هو بدائرة وفيه تقالات من الرصاص، إذا دار فيها الرجال رفعت السهم. فإذا تركت رمت فلا تحتاج إلى رجال كثيرة. وقد يتخذ بقسي كبار موتوره، وتجعل قبضاتها إلى الأرض مشدودة في قواعد المنجنيق، وفي أوتارها حبال مشدودة إلى حلقة المنجنيق وتحرك بازدياد قائم حتى تفتح أوتارها، ويحرك الحجر بالكفة، ثم يرمى فيخرج أشد ما يكون. وإذا أراد الرمي بقدور النفط أو العقارب أو ماشاء فعل، فإن كان ضعيفاً ثقله بالرصاص والأحجار، وإن كان يرمى بالنفط والنار اتخذ له كفة من الزرد وحبل بسلاسل).

وقد حاول أيضاً الأستاذ (جرجي زيدان) وصف المنجنيق، فما جاء بأكثر مما جاء به (الحسن ابن عبد الله) ويبدو أنه نقل عنه، وإن لم يشر إلى مصدره فإن نص عباراته في هذا المعنى منها الكبير والصغير، ومنها ما يشد بلوالب أقواس، ومنها ما يدار شبه المقلاع وهي تستخدم لرمي السهام أو الحجارة أو قدور النفط أو العقارب أو نحوها من آلات الأذى. فإن كانت المقذوفات خفيفة ثقلوها بالرصاص، وإن كانت من السوائل كالنفط وغيره اتخذوا لها كفة كالكأس وعلقوها بسلاسل. ومن

---

[1] الطبري - تاريخ الرسل والملوك - ج٣ - ص١٣٣ - سيرة ابن هشام - ج٤ - ص١٢٦.

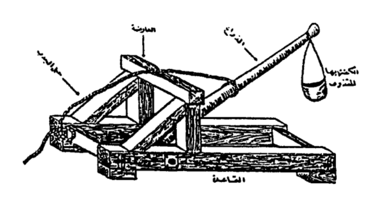
[2] ابن الأثير - ص٢٦٦ الامامة والسياسة - ص٢١٤ - المسعودي - مروج الذهب - ج٣ - ص٢١٨ - البلاذري - ص٤٣٧.

[3] عبد الرؤوف عون - الفن الحربي في صدر الإسلام - طبع مصر ١٩٦١ - ص١٥٧.

وسائل الوقاية من المنجنيق أنه يكسى الجزء العلوي من السور بالخشب الصلب.

وعن المنجنيق يقول عبد الرؤوف عون (فجعل أول أمره على شكل قاعدة من الخشب السميك مربعة أو مستطيلة، يرتفع في وسطها عمود خشبي قوي، ثم يركب في أعلاه ذراع المنجنيق قابلاً للحركة كذراع (الشادوف)، حيث يكون ربعه تقريباً ناحية الأسفل، يتدلى منه صندوق خشبي مملوء بالرصاص والحجارة والحديد أو نحوها. ويختلف حجمه باختلاف المنجنيق، وتكون ثلاثة أرباع الذراع من ناحية الأعلى، تتدلى من نهايتها شبكة مصنوعة من حبال قوية يوضع فيها الحجر المراد قذفه. وعند القذف به، يجذب أعلى الذراع إلى الأرض بقوة الرجال فيرتفع الثقل المقابل من الحجارة والرصاص والحديد الموجود في الصندوق، ثم تترك الذراع فجأة فيهوي الثقل ويرتفع أعلى الذراع بالشبكة قاذفاً ما فيها من الحجارة إلى الهدف المعين)[1].

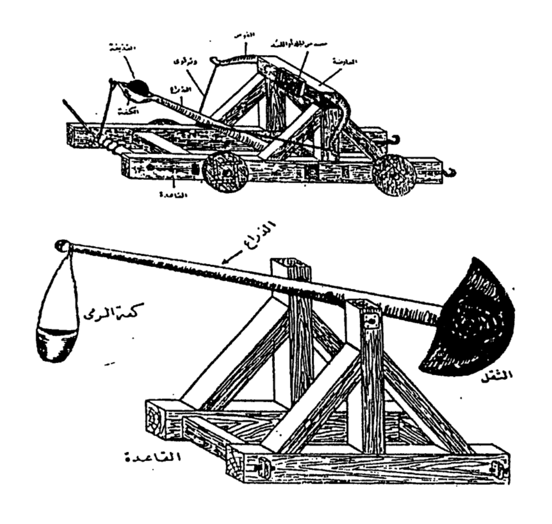
وقال: (وبمرور الأيام شمل التحسين هذا السلاح، فصار يصنع من القاعدة المتقدمة نفسها وفوقها قاعدة أخرى على شكل مربع ناقص ضلع من أسفل أو أعلى شكل حرف A، ثم تركب ذراع المنجنيق في وسط السطح العلوي لهذه القاعدة، حيث تكون قابلة للحركة، ويكون ثقل الرصاص في الناحية القصيرة السفلى ثم يجذب الذراع كما سبق، وتترك فجأة فيهوي الثقل بشدة وتصدم الذراع العارضة السفلى في المربع، فتقذف الشبكة ما فيها بشدة، لاصطدام الذراع بالحائط الخشبي). أما العرادة: فهي آلة صغيرة أصغر من المنجنيق[2]، كانت تستخدم لرمي الحجارة والسهام الكبار دفعة واحدة ولمسافات بعيدة نسبياً.



---

[1] عبد الرؤوف عون ـ الفن الحربي في صدر الإسلام ـ ص .

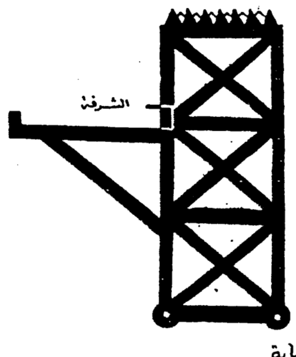
[2] جرجي زيدان ـ التمدن الإسلامي ـ ج٤ ـ ص١٥٦.



الدبابة: أقدم من المنجنيق. استخدمها العرب في عهد الرسول[1] (ص)، وأدخلوا عليها كثيراً من التحسينات. ففي البداية كانت الدبابة مصنوعة من الجلد والخشب، ثم زيد في حجم الدبابة لتجر على ست عجلات أو ثماني عجلات. وتتسع الواحدة منها لعشرة رجال من المقاتلين. كانت للدبابة أول الأمر عبارة عن هودج، مصنوع من كتل خشبية صلبة على هيئة برج مربع له سقف من الخشب ولا أرض له، وبين كتل البرج مسافات قليلة يعمل من خلالها الرجال، وثبت الهودج على قاعدة خشبية لها عجلات أربع أو أكثر، تساعد على دفعها، متخذين منها درعاً يقيهم سهام الأعداء. وقد يستمر دفعها أكثر حتى يتم إلصاقها بالسور. عند ذلك يعمل الرجال بداخلها

[1] عبد الرؤوف عوف ـ الفن الحربي في صدر الإسلام ـ ص١٦٨ وما بعدها. ابن هشام ـ السيرة النبوية ـ المجلد الثاني ـ ص٤٧٨.

بمساعدة آلات الحفر المتوفرة لديهم على نقض حجارة السور، كلما نقضوا جزءاً منها علقوه بدعائم خشبية حتى لاينهار عليهم، وعندما يفرغون من عمل فجوة في السور، كانوا يدهنون الخشب بالنفط ويشعلون فيها النار، ثم ينسحبون، فإذا احترقت الأخشاب أنهار السور، وبذلك يتم فتح ثغرة فيه تكون صالحة للاقتحام. ولمقاومة الدبابة، كان يرمى عليها النار من فوق الأسوار، أو يصب فوقها الحديد المصهور المذاب، فيحترق خشبها ومن بداخلها. ومن الأسلحة المضادة للدبابة الخنادق. كما كانت الدبابة ترمى بالمنجنيقات. ولوقاية الدبابة من حجارة المنجنيق، كان الرجال الموجودون بداخلها، يعلقون على الدبابة ستائر من البسط الغليظ البعيد نسبياً عن الخشب.



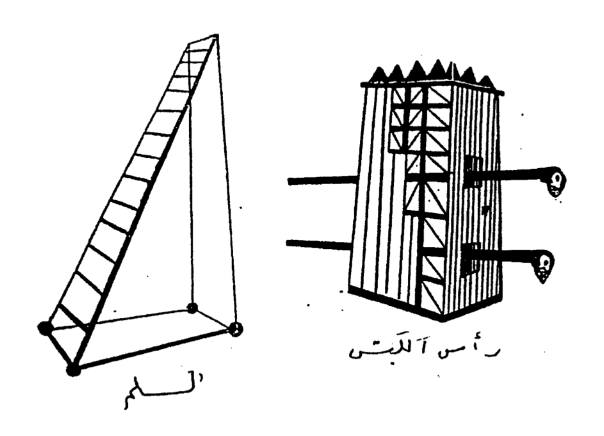
الدبابة

رأس الكبش[1]: ظهر الكبش عند العرب المسلمين في القرن الثاني الهجري. وكانت مهمته العمل مع الدبابة على هدم الأسوار، ويحمل رأس الكبش داخل برج خشبي أو داخل دبابة في الجزء السفلي منها. والكبش عبارة عن عمود من خشب في رأسه صورة رأس كبش تدك به الأسوار في الحروب. يذكر أنه نوع من أنواع الدبابات. ورأس الكبش عبارة عن كتلة خشبية مستديرة، يبلغ طولها حوالي عشرة أمتار أو أكثر، ركب في نهايتها رأس من الحديد يشبه رأس الكبش. كما يركب

[1] جرجي زيدان ـ تاريخ التمدن الإسلامي ـ ج١ ـ ص١٦٠ ـ تاريخ الجندية ـ ص١٩٤.

السنان الحديدي على الرمح الخشبي، حيث تتـدلى هـذه الكتلـة مـن سـطح البرج والدبابـة بواسـطة سلاسـل، وعنـد الاقتراب من السـور، كـانوا يصـدمون برأس الكبـش السـور عدة مرات فيتصدع وينهدم.

الحبل والسلم[1]: من آلات الحصار، وهما يساعدان علـى اعتـلاء الأسـوار وفتـح الحصـون. وقيل: إن أول من استخدم الحبال على شكل سلالم، كان خالد بن الوليد، عندما فتح دمشق. كمـا استخدم الزبير بن العوام الحبال بالطريقة نفسها عند فتح حصن بابليون في مصر، ثم تطورت الحبـال بعد ذلك إلى سلالم تصنع من الخشب والحديد[2] مرتفعة بارتفاع السور.



---

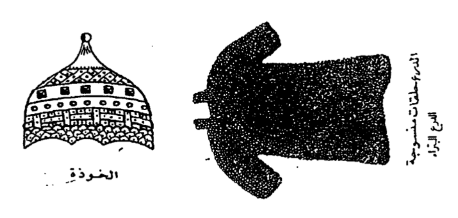
[1] الواقدي ـ فتوح الشام ـ ج١ ـ ص٢٧٠.

[2] السيوطي ـ حسن المحاضرة ـ ج١ ـ ص٦٥.

ـ الأسلحة الدفاعية:

الدرع[1]: سلاح وقائي يستخدم لحماية الجند من ضربات السيوف ووخزات الرماح. والدروع عند العرب مختلفة الأنواع وكثيرة. كانت تصنع من الحديد والفولاذ والكتان. ففي معركة أحد، كان النبي (ص) يلبس درعاً[2]. ولبس الأمويون دروعاً طويلة تغطي جميع الجسم، وأخرى صغيرة مستديرة لها عقدة في الوسط، كما لبس الفرسان دروعاً صغيرة للحماية.

والدروع نوعان، **الأولى**: عرفت باسم السابقة، وهي الفضفاضة تغطي البدن حتى منتصف الساق ولها أكمام طويلة الأنامل، ومعها المغفر الذي يغطي الوجه، والبيضة التي تغطي الرأس، وأطلق العرب المسلمون على الكتيبة المغطاة بالحديد (كتيبة خضراء). وذكر الطبري، أن الرسول (ص) كان قد دخل مكة في كتيبة خضراء[3]. **الثانية**: البتراء، وهي دروع قصيرة بلا أكمام تصل إلى أسفل الركبة. والدرع مؤلف من الجوشن الذي يقي الصدر، ومن ملحقاته: البيضة (الخوذة) لحماية الرأس، وأقمصة من الزرد أو قمصان مصنوعة من الجلد. والمغفر: هو الزرد على قدر الرأس، عبارة عن نسيج من الحديد يلبس تحت البيضة على الرأس. **أما أجزاء الدروع**[4] **فهي**: ١ ــ الزرد: وهو حلقة الدرع. ٢ ـ ربع الدرع مفتول كمّاه على أطراف الأنامل. ٣ ــ مسامير الدرع. ٤ ــ جيبها (بطائن الدرع) مطاوي الدرع.



---

(1) ابن سيده ـ المخصص ـ الشعر السادس ـ كتاب الحرب ـ ص٦٩ وما بعدها.

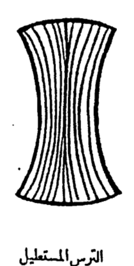
(2) ابن قتيبة ـ عيون الأخبار ـ ج١ ـ ص١٢٨ ـ الطبري ـ ج٣ ـ ص١٨٥.

(3) الطبري ـ تاريخ الرسل والملوك ـ ج٣ ـ ص١١٣.

(4) ابن سيده ـ المخصص ـ ص٧٤.

الترس[1]: عرف العرب أول أمرهم الدرق والحجف، وهي من جلد الإبل أو البقر فيها خشب ولاسيور من الجلد أو العصب، وعندما انتشر العرب وتطور اقتصادهم، استعملوا الترس من الحديد والفولاذ. والترس أو المجن آلة وقائية، تقي المقاتل من رميات الأعداء وضرباتهم. وللترس أسماء متعددة منها[2] (الحجفة ـ قرض ـ نقع ـ قزع). والترس سلاح قديم شاع استعماله عند قدماء المصريين واليونان والرومان والفرس. كان الترس يصنع من الخشب، ثم يلصق عليه جلدة مساوية له، ثم أصبح يصنع من الحديد والفولاذ كما ذكرنا، وتفنن العرب المسلمون في صناعته ونقشوا عليه الآيات والحكم والأشعار.

والترس كان على أنواع: ١ ـ الترس المسطح: الذي يتقى به الرمح، ومنه المستطيل المخصر الوسط وبه يتقى النشاب لأن رأسه يستر رأس الفارس وطوله يقيه أي أنه كان يستر جسم حامله كله، وقد استعمله القدماء المصريون. ٢ ـ **الترس المستدير**: وهو أهم هذه الأنواع وأكثرها شيوعاً، وهو منحني الأطراف جهة حامله، وله قمة بارزة إلى الخارج تسهل انزلاق الرمح عنه إذا أصابه. ٣ـ **الترس المحدب (المقبب)**: يكون بروزه جهة حامله، ويستخدم لرد السيف والنشاب.



الترس المستطيل



الترس المقبب

---

[1] ابن سيده ـ المخصص ـ ص٧٤.

[2] النويري شهاب الدين أحمد ـ نهاية الأرب ـ ج٦ ـ ص٢٣٩ ـ ٢٤٠.

الخنادق: الخندق وسيلة من وسائل الدفاع القديمة الثابتة. وأول من استعمله من العرب هو الرسول (ص) في غزوة الخندق[1]، حيث أشار عليه سلمان الفارسي بحفر خندق، والحادثة معروفة حيث تم حفر الخندق، وأول من استخدم الخنادق في عهد الخليفة أبي بكر الصديق، كان العلاء بن الحضرمي أثناء قتاله المرتدين بالبحرين[2]. وبعد أن اتسعت الفتوحات وكثرت الجيوش، كان لابد من العناية بالتحصينات. ومن القواد العرب الميدانيين الذين اهتموا بالخنادق، كان المهلب بن أبي صفرة خلال حروبه ضد الخوارج. وبمرور الزمن أصبح العرب يحفرون الخنادق حول المعسكرات الدائمة وحول المدن والثغور.

ورغم أهمية الخنادق كوسيلة دفاعية ثابتة، فقد وجد لها نقاط ضعف كالاقتحام مثلاً عندما تم حفر الخندق بأمر من الرسول (ص) جرت محاولات لاقتحامه، وتم لبعض الفرسان ذلك. كعمرو ابن ود العامري. وكان عبور الخندق يتم عند أضعف نقطة فيه. ولم يفكر المشركون بردم الخندق أو بأي طريقة يتم اجتيازه، لكن بعد توسع الفتوحات العربية الإسلامية، فتحت أمام القادة سبل الحيل في التغلب على اجتياز الخنادق، وعرفوا طرق عبورها. فمثلاً عرف خالد بن الوليد عملية ردم الخنادق بالإبل المسنة في أضعف نقاطه وعبروها من فوقها كجسر، ثم تطوروا فكانوا يأخذون الجلود ويملؤونها بالرمال أو ما شابه ذلك ويردمون الخنادق. وعندما كان العرب المسلمون يصادفون خنادق مملوءة بالمياه، كانوا يعبرونها سباحة إذا وجدوا لذلك سبيلاً. وأحياناً أخرى كانوا يعبرونها على القرب المملوءة بالهواء، وكانوا يردمون الخنادق بالأشجار والأحجار والترب. وإذا كانت الخنادق قليلة العرض، كانوا يطرحون فوقها الأبواب والألواح الخشبية كجسور ثم يعبرونها[3].

الحسك الشائك: كان الرسول (ص) أول من استخدم الحسك الشائك في الإسلام، حيث روي عنه عندما حاصر الطائف لمدة ثمانية عشر يوماً، نصب عليه المنجنيق ونثر الحسك حول الحصن

[1] ابن الأثير - الكامل في التاريخ - ج٢ - ص١٧٨.

[2] المرجع نفسه - ج٢ - ص١٥٥ - الطبري - ج٣ - ص٢٥٨.

[3] الحسن بن عبد الملك بن محمد - آثار الأول في تدبير الدول مطبوع على هامش تاريخ الخلفاء للسيوطي - ص٢١٤.

وحول عسكره[1] ولقد أجاد العرب صناعة هذا النوع من وسـائل الدفـاع، وكـانوا يستخدمونه في الحالات التالية: **أولاً**: عندما كانوا ينزلون في أرض العدو ببعض المواقع. **ثانياً**: كانوا يزرعونه خارج خندق الأعداء المحصورين، ثم يناوشهم المسلمون ويفرون أمامهم كخدعة ليخرجوا من حصونهـم، فإذا خرجوا كر العرب المسلمون عليهم فيردونهم من الطريق المزروع بالحسك. وبذلك يقعون فيـه. **ثالثاً**: كان القادة العرب في المعارك يزرعون الحسك الشائك خلفهم لكي لا يفكـروا في الانسـحاب أو الهرب. وأصل الحسك نبات له ورق كورق الرّجلة، وضرب بشوكه المثل في الصلابة. لـه شـوك صلب ذو ثلاث شعب، ويعمل على مثال شوكه أداة للحرب من حديد.

---

[1] ابن سعد ـ الطبقات ـ ج٢ ـ ف١ ـ ص١١٤ ـ ابن الأثير ـ الكامل في التاريخ ـ ج٢ ـ ص٢٦٦.



الفصل السابع

الثغور

- الثغور الشامية
- الثغور الجزرية
- الثغور البحرية
- الصوائف والشواتي



الفصل السابع

الثغور

الثغر كما يذكر ياقوت الحموي[1] هو كل موقع قريب من أرض العدو والذي نخاف منه هجوم العدو.قبل الإسلام كانت الحصون قليلة، والمعرفة بها شبه معدومة، لكن بعد الإسلام وبعد أن توسع العرب في فتوحاتهم، وأسسوا المدن والمعسكرات والثغور المتاخمة للحدود، عملوا حين ذلك على تحصينها. فأصبح للمدن أسوار عريضة وعالية، وأبراج لحراسة الجند بداخلها، وحصنوها بالخنادق.

ومن المعروف أن تقسيم الجيوش النظامية إلى أجناد تضم كل منها عدة قبائل، يعود إلى عهد الخليفة عمر بن الخطاب، وهو الذي خصص كل جند منها بمعسكر دائم، وقد اشتهر منها في تلك المرحلة خمسة بالشام هي: ١ ـ جند دمشق ـ ٢ ـ جند حمص ـ ٣ ـ جند طبرية ـ ٤ ـ جند اللد ـ ٥ ـ جند الرملة، وسمي اثنان في العراق هما: ١ ـ الكوفة ـ ٢ ـ البصرة، وواحد في مصر هو الفسطاط. وواحد في المغرب العربي هو القيروان.وأقيمت هذه المعسكرات وفق نظام دقيق تصلح لإقامة الجند.

[1] ياقوت الحموي ـ معجم البلدان ـ المجلد الثاني ـ ص .

وإضافة إلى هذه المعسكرات الدائمة الكبرى، وجدت ثكنات عسكرية أصغر من الأولى في المدن الكبرى وعلى الحدود والمدن الساحلية، إلا أن نظام المعسكرات يعود إلى فترة مبكرة في تاريخ الدولة العربية، حيث كانت هذه المعسكرات تضم قوات نظامية مستقرة تتبع للقيادة العامة في العاصمة المركزية. أي كانت هذه المعسكرات تحوي كل ما تحتاجه من الخيالة والخيول، فكان في كل منها أربعة آلاف فارس، لكل منها قائد، وتطورت المعسكرات في العصر الأموي كماً وكيفاً، حيث بلغت حامية البصرة في عهد سليمان بن عبد الملك (٤٠) ألف جندي وحامية الكوفة سبعة آلاف جندي، ثم إن هشام بن عبد الملك دعم هذين المعسكرين بقوة قوامها (١٠) آلاف جندي[١].

علماً أن معسكر دابق شمال سورية كان أيام الأمويين قاعدة عسكرية لتدبير أمور الحرب ضد الدولة البيزنطية، واهتم الأمويون بثكنات الجند، فأكثروا من بناء الإهراءات لخزن الطعام والأرزاق والعلف، ويتم فيها بناء الإسطبلات وغيرها مما ساعد على تأمين كافة احتياجاتها[٢]. وإلى جانب المعسكرات الدائمة، وجدت معسكرات مؤقتة تحوي قوات تقف على أهبة الاستعداد لردع أي عدوان كان[٣]، ولزيادة منعة وحصانة المعسكرات، كانت تقام الخنادق، وكل معسكر كان له بابان أو أكثر وشوارع حتى أصبح شبه مدينة صغيرة[٤].

إذن المعسكرات عبارة عن مكان معد لدفع الحملات والهجمات المعادية، وأسباب الحصانة تكون إما طبيعية كالجبال والأنهار وما شابهها، وإما اصطناعية كالأسوار والمتاريس. والحصون تكون ثابتة إذا كانت معدة للإقامة الدائمة، وقد تكون مؤقتة إذا كان إعدادها قد تم لمدة قصيرة. وبالإضافة للمعسكرات أقام العرب في المدن الاستراتيجية جنداً مرابطاً، وخصص له عطاءاً، كما وضع معاوية للمدن الساحلية نظاماً عرف بالرباط، كما اشتهر العرب بحرب الثغور (حرب الحدود) وكانت الربط في الجهة الشمالية من بلاد الشام والعراق. وهو ما عرف باسم الثغور. والثغور كانت على أنواع منها ثغور شامية وجزرية وبحرية وبكرية.

---

[١] الحسيني - الادارة العربية - ص٢٥٤ - ٢٥٥ - فتوح البلدان - ص١٣٢ - التاريخ السياسي - عبد المنعم - ص٢٣٢ - معجم البلدن - ج٣ - ص١٦ - تاريخ الدولة العربية - فلهادزن - ص٢٥٥.

[٢] فتحي عثمان - الحدود الإسلامية البيزنطية - ج٢ - ص٢٩.

[٣] الطبري - تاريخ الرسل والملوك - ج٣ - ص٣٥٥.

[٤] فون كريمر - الحضارة الإسلامية ص٦١ - حسيني (الإدارة العامة) - ص٢٦٣.

كـان الأمويـون قـد شـجعوا للنزوح إلى الثغـور البحريـة، وأعطـوا كـل راغـب بالإقامـة فيها أقطاعـاً مـن الأرض، حتـى أن معاويـة كـان قـد أمـر بـإعداد جيـش قـوي في المدن السـاحلية للدفاع عنهـا[1] وكـان القـادة الأمويـون يرتبـون غـزوات دائمـة علـى الحـدود وأكثرهـا يتـم صيفـاً وتسـمى الصوائـف. إلا أن بعضهـا كـان يتـم شـتاءً وتسـمى الشـواتي. واسـتمر العمـل في نظـام الثغـور، حتـى كـان عهـد الخليفـة عمـر بـن عبـد العزيـز فأبطلهـا، والغايـة إصـلاح الاقتصـاد مـن جهـة وعـدم إراقـة الدمـاء مـن جهـة أخـرى. ولتـأكيد ذلـك فقـد أمـر قـائده مسـلمة بـن عبـد الملـك بـالعودة مـن بـلاد الـروم[2] وأمـر أيضـاً المرابطـين في حصـن طـيرندة[3] بـالرجوع عنهـا إلى ملطيـة، إلا أن الخلفـاء بعـد عمـر بـن عبـد العزيـز اسـتأنفوا العمـل في الثغـور، واسـتمر حتـى نهاية العصـر الأمـوي.

الثغور الشامية: ذكـر أن هرقـل ـ عنـد انتقالـه مـن انطاكيـة ـ كـان قـد أدخـل معـه أهـل هـذه الثغـور، فكـان المسـلمون إذا غـزوا لم يجـدوا فيهـا أحـداً، وكـان ولاة الصوائـف والشـواتي إذا دخلـوا بـلاد الـروم خلفـوا فيهـا جنـداً، واختلـف في أول مـن قطـع الـدرب[4] (درب بغـراس). فقـال بعضهـم: قطعـه ميسـرة بـن مسـروف العبسـي، وقـال بعضهـم: أول مـن قطـع الـدرب هـو عمـير بـن سـعد الأنصـاري، وقيـل: إن أبـا عبيـدة غـزا صائفـة فمـر بالمصيصـة وطرطـوس وبلـغ في غزوتـه (زرنـدة).

وغزا معاوية عمورية[*] سنة (٢٥هـ)، فوجد الحصون بين أنطاكية وطوروس خالية، فترك فيها جماعة من أهل الشام والجزيرة وقنسرين حتى عاد من غزوته، ثم إن معاوية غزا سنة (٣١هـ) مـن ناحيـة المصيصة فبلغ (درولية)، حيث أمر أثناء ذلك بهدم الحصون. وفي سنة (٨٤هـ) غزا الصائفة عبد الله بن عبد الملك بن مروان، فدخـل مـن درب انطاكيـة وأتـى المصيصـة، فأعـاد بنـاء حصنهـا القديـم وسلحها بالجند (٣٠٠) رجـل، انتخبهـم مـن ذوي الشـجاعة المعروفـين، وبنـى مسـجداً فـوق تـل

---

(1) البلاذري ـ فتوح البلدان ـ ص١٣٥.

(2) ابن الأثير ـ الكامل في التاريخ ـ ج٢ ـ ص١٨.

(3) طيرندة ـ بلدة كبيرة من أعمال انطاكية.

(4) البلاذري ـ فتوح البلدان ـ ص٢٢٤.

(*) عليه عبد السميع الجنزوري ـ الثغور البرية الإسلامية على حدود الدولة، البيرزنطية طبع مصر ١٩٧٩ ـ ص٢٣.

الحصن، ثم سار بجيشه حتى غزا حصن (سنان) ففتحه، وقيل كان بالحصن كنيسة جعلت (هرياً) بيتاً كبيراً يجمع فيه القمح وغيره من مواد التموين[1].

وعندما شخص عمر بن عبد العزيز إلى المصيصة أمر بهدم الحصون هناك، فقيل له كما يذكر البلاذري (إنما عمرت ليدفع من بها من الروم عن انطاكية، وإن أخربها لم يكن للعدو ناهية دون انطاكية، فأمسك وبنى لأهلها مسجداً جامعاً من ناحية كفربيا واتخذ فيه صهريجاً)[2]. وبنى هشام ابن عبد الملك (الربض)، ثم بنى مروان بن محمد (الخصوص) في شرقي جيحان، وبنى عليه حائطاً وأقام عليه باباً خشبياً وحفر خندقاً.

وقيل: إن مسلمة بن عبد الملك، عندما غزا عمورية كان قد حمل معه نساءه، وكان من عادة الأمويين فعل ذلك، فلما وصل إلى عقبة بغراس سقط محمل فيه امرأة، فأمر مسلمة أن تمشي سائر النساء، فسميت تلك العقبة عقبة النساء. وقال الطبري في أحداث سنة (٣١هـ) (فمن ذلك غزوة معاوية بن أبي سفيان المضيق. مضيق القسطنطينية، ومعه زوجته عاتكة (أو قيل فاختة) ابنة قرط بن عبد عمرو بن نوفل بن عبد مناف)[3].

وأهم الثغور الشامية:

المصيصة: من الثغور الشامية، يذكرها ابن العديم[4] بأنها تشتمل على مدينتين بينهما نهر جيحان، الأولى: مدينة المصيصة من الجانب الغربي من النهر، والثانية: مدينة كفربيا[5] من الجانب الشرقي. وقد اختلف في معرفة أول من بناها، فقيل المصيصة مسماة فيما زعم أصحاب السير باسم الذي عمرها، وهو المصيصة بن الروم بن اليقن بن سام بن نوح. وقيل: بناها عبد الله بن عبد الملك

---

[1] البلاذري - فتوح البلدان - ص٢٢٦.

[2] المرجع نفسه - ص٢٢٦.

[3] الطبري - تاريخ الأمم والملوك - طبع بيروت ١٩٩٥ - مجلد ثاني - ص١٢٧.

[4] ابن العديم (الصاحب كمال الدين عمر بن أحمد بن أبي جرادة) بغية الطلب في تاريخ حلب - طبع دمشق ١٩٨٨ - ج١ - ص١٥٣.

[5] كفربيا: مدينة بإزاء المصيصة على شاطىء جيحان - ياقوت الحموي - المعجم - ج٤ - ص٤٦٨.

ابن مروان سنة (٨٤هـ) على أساسها القديم[١]، وكان قد دخلها من درب انطاكية. ووضع لها قوة من الجند تقدر بثلاث مائةرجل من ذوي البأس والقوة، وقيل: إن الذي بنى مدينة المصيصة أبو جعفر المنصور[٢] علي بن جبرائيل بن يحيى الخراساني.

أذنة[٣]: أحد الثغور الشامية، قرب المصيصة سميت باسم أذنة بنت باران يافث بن نوح، ولها ثمانية أبواب وسور وخندق خربت وجلا أكثر أهلها في صدر الإسلام خربها المسلمون بعد احتلالها ـ جدد بناءها الوليد بن يزيد[٤] سنة ١٢٦هـ، جددت عمارتها في العصر العباسي سنة ١٤١هـ.

عين زربة[٥]: من الثغور الشامية، بينها وبين المصيصة ثمانية عشر فرسخاً، اختلف فيمن بناها، وقيل بناها الرشيد (١٨٠هـ) وأمر بتحصينها، وقيل بناها المهدي بن المنصور.

طرسوس: أحد الثغور الشامية يذكر ياقوت الحموي[٦] بأنها سميت باسم (طرسوس بن الروم ابن اليغز بن سام بن نوح عليه السلام ولها أسماء عديدة منها طرسوس، وارسوس[٧] وتارسم[٨] وقال ابن شداد[٩] إنّ بها عشرة قبور من الأنبياء، وصفها ابن العديم[١٠] بأنها كانت محاطة بسورين وخندق في كل سور خمسة أبواب، وأكد ذلك ياقوت الحموي في معجم البلدان بقوله: ((وعلى طرسوس سوران وخندق واسع ولها ستة أبواب))[١١]. فتح العرب طرسوس في عهد معاوية سنة (٥٣) هـ على يد جنادة بن أبي أمية الأزدي كما ذكر اليعقوبي[١٢]، أعاد الأمويون تحصينها[١٣].

---

[١] البلاذري ـ فتوح البلدان ـ ص٢٢٥.

[٢] الطبري ـ تاريخ الأمم والملوك ـ المجلد الرابع أحداث سنة ١٤١ هـ ـ ص٣٩٧.

[٣] البلاذري ـ فتوح البلدان ـ ص٢٣٠ ـ ياقوت الحموي ـ معجم البلدان المجلد الأول ـ ص١٣٢.

[٤] عليه عبد السميع الجنزوري ـ الثغور ـ ص٥٤ ـ ٥٥.

[٥] البلاذري ـ فتوح البلدان ـ ص٢٢٥.

[٦] ياقوت الحموي ـ معجم البلدان ـ المجلد ٣ ـ ص .

[٧] ابن العديم ـ بغية الطب في تاريخ حلب ـ ج١ ـ ص .

[٨] ابن خرداذبه أبو القاسم عبيد الله بن عبد الله ـ المسالك والممالك ـ شرح وطبع جوجيه ـ تصوير بغداد ـ بدون تاريخ ـ ص٩٩.

[٩] ابن شداد ـ عز الدين أبي عبد الله محمد بن علي بن إبراهيم بن شداد ـ الاعلاق الخطيرة ـ طبع دمشق ١٩٥٣ ـ ج١ ـ ق١ ـ ص٥٨.

[١٠] ابن العديم ـ بغية الطب في تاريخ حلب ـ ج ـ ص .

[١١] ياقوت الحموي ـ معجم البلدان ـ ج٤ ـ ص٢٨.

[١٢] اليعقوبي ـ تاريخه ـ ج٢ ـ ص٢١٤.

[١٣] عليه عبد السميع الجنزوري ـ الثغور البرية الإسلامية ـ ص٣١.

أهم الأحداث التي تشير إلى طرسوس ومشاركتها بالأحداث هو خروج حملة مسلمة بن عبد الملك في خلافة سليمان بن عبد الملك سنة (٩٧ - ٩٩ هـ) حيث وجه مسلمة بن عبد الملك إلى حصار القسطنطينية وكان قوام جيشه كما يذكر (١٢٠٠٠٠)[١] وكان مسلمة قد أمر كل فارس أن يحمل معه مدين من طعام وقال لأصحابه ((لا تأكلوا منه شيئاً واعبروا في أرضهم وازرعوا))[٢] فضايق الروم وقل عندهم الطعام وحاولوا الصلح إلا أنهم فشلوا فلجؤوا إلى الحيلة وأرسلوا (ليون) إلى مسلمة بن عبد الملك بعد أن منوه بأن يملكوه عليهم إذا تمكن من خديعة مسلمة وفعلاً تم له ذلك واقتنع مسلمة بإحراق تموينه وقيل إن الروم في هذا الوقت كانوا قد نقلوا تموينا أفرجوا به عن أنفسهم وانخدع مسلمة وقل تموينه وفي النهاية أمره عمر بن عبد العزيز بالعودة كما هو معلوم[٣] وفي هذه الحملة كان لطرسوس دور مهم في إمداد هذه الحملة.

الكنيسة[٤]: أحد الثغور الشامية وهي مدينة قديمة أعيد بناؤها في بداية العصر العباسي. وبنى هشام بن عبد الملك حصن المثقب على يد سرحان الأنطاكي[٥]، وحصن قطرغاش على يد عبد العزيز بن حيان الأنطاكي[٦]، وحصن مورة[٧] على يد رجل من أنطاكية، كما بنى حصن بوقا[٨]، وأقام به مسلحة قوامها خمسون رجلاً.

الثغور الجزرية: فيفصلها عن الثغور الشامية جبل اللكام[٩]، وسمي من ملطية إلى مرعش ثغور الجزيرة، لأن أهل الجزيرة مرابطون فيها وبها يعرفون. بعد أن استخلف عثمان بن عفان جمع لمعاوية الشام والجزيرة وثغورها، وأمره أن يغزو شمشاط[١٠]، فوجه إليها حبيب بن مسلمة الفهري،

---

[١] المطهر بن طاهر المقدسي - المنسوب تأليفه لأبي زيد أحمد بن سهل البلخي - طبع سنة ١٩٠٣ - ج٦ - ص٤٣ وما بعدها.

[٢] ابن الأثير - الكامل في التاريخ - ج٥ - ص٢٧.

[٣] المرجع نفسه ج٥ - ص٤٣.

[٤] البلاذري - الفتوح - ص٢٣٤ - الكنيسة - بلد بثغر المصيصة (الكنيسة السوداء) ياقوت - المعجم - ج٤ - ص٤٨٥.

[٥] المرجع نفسه - الفتوح - ص٢٢٨ - والمثقب - حصن على ساحل البحر قرب المصيصة - ياقوت - المعجم - ج٥ - ص٥٤.

[٦] المرجع نفسه - والصفحة نفسها - وقطرغاش - حصن من أعمال الثغور قرب المصيصة - ياقوت - المعجم - ج٤ - ص٣٧٣.

[٧] المرجع نفسه - والصفحة نفسها.

[٨] البلاذري - الفتوح - ص٢٢٨ - اللكام - جبل اللكام - جبل مشرف على أنطاكية والمصيصة وطرسوس - ياقوت - المعجم - ج٥ - ص٢٢.

[٩] الاصطخري - المسالك والممالك - ص٤٣.

[١٠] البلاذري - فتوح البلدان - ص٢٥٩ وشمشاط - مدينة على شاطئ الفرات - ياقوت - المعجم - ج٣ - ص٣٦٢.

وصفوان بن معطل السلمي، ففتحاها بعد أيام من نزولهما عليهما، وأقام صفوان بها إلى أن توفي في آخر خلافة معاوية. كما غزا حبيب بن مسلمة حصن (كمخ)[1] بعد فتح شمشاط، إلا انه لم يتمكن من فتحه، فغزاه صفوان وكرر غزوه سنة (٥٩هـ) ومعه عمير بن الحباب، حيث توفي صفوان وتمكن عمير من فتحه[2].

توجه عياض بن غنم وحبيب بن مسلمة الفهري من شمشاط[3] إلى ملطية ففتحاها ثم أغلقت، ولما تولى معاوية أمور الشام والجزيرة وجه إليها حبيب بن مسلمة ففتحها عنوة ورتب فيها جماعة من المسلمين، فكانت طريقاً للصوائف، ثم قدمها معاوية وشحنها بالرجال، ثم انتقل عنها أهلها في عهد عبد الله بن الزبير، وعندما ولي عمر بن عبد العزيز أمر بإخراب طرندة[4]، وولى على ملطية جعونة بن الحارث. وفي سنة (١٢٣هـ) هاجمها الروم، فأغلقت أبوابها واستعدت للحصار. وعندما علم هشام بن عبد الملك بذلك، بعث المقاتلين إليها. أثناء ذلك رحل الروم عنها، ثم غزا هشام فنزل ملطية وعسكر عليها وأمر بإعادة بنائها.

ووجه أبو عبيدة بن الجراح ــ وهو بمنبج[5] ــ خالد بن الوليد إلى ناحية مرعش[6]، ففتح حصنها، عندما غزا الروم سنة (٣٠هـ). كما أن معاوية كان قد أعاد بناء مرعش وأسكنها جنداً. وهو الذي أعاد بناءها[7] وقيل وفي عهد عبد الملك بن مروان، صالح الروم على خراج كان يؤديه إليهم، وكان صلحه للروم يخدم مصلحته. فلما كانت سنة (٧٤هـ) غزا محمد بن مروان الروم وانتقض الصلح، وفي سنة (٧٥هـ) غزا الصائفة محمد بن مروان، فخرجت الروم من جهة مرعش وقابلهم المسلمون، وعليهم أبان خالد بن الوليد ومعه دينار بن دينار مولى عبد الملك بن مروان.

---

(1) ياقوت الحموي ـ معجم البلدان ـ ج٤ ـ ص٤٧٩.

(2) المرجع نفسه ـ ص٢٦٠.

(3) عليه عبد السميع الجنزوري ـ الثغور ـ ص١٣٣.

(4) طرندة: قرب ملطية على بعد ثلاث فراسخ ـ ياقوت الحموي ـ المعجم ـ ج٤ ـ ص٣٢.

(5) منبج: بينها وبين الفرات ثلاث فراسخ وبينها وبين حلب عشرة فراسخ ـ ياقوت الحموي ـ المعجم ـ ج٥ ـ ص٢٠٦.

(6) البلاذري ـ الفتوح ـ ص٢٦٥.

(7) القرماني ـ أبو العباس أحمد بن يوسف الدمشقي ـ أخبار الدول وآثار الأول ـ طبع بيروت ـ عالم الكتب ـ بدون تاريخ ـ ص٤٨٨.

فالتقوا بعنق مرعش، فهزمت الروم، ثم إن العباس بن الوليد بن عبد الملك توجه إلى مرعش، فعمرها وحصنها ونقل الناس إليها وبنى مسجداً فيها.

وفي عهد مروان بن محمد آخر الخلفاء الأمويين، حاصر الروم مرعش وصالحهم أهلها على الجلاء عنها وأخربت مرعش. ولما فرغ مروان بن محمد من فتنة أهل حمص، بعث جيشاً إلى مرعش. بعد ذلك خربها الروم. ثم أعاد مروان بن محمد بناءها سنة ـ ١٣ هـ وإليه ينسب حصن المرواني[١] أخيراً مرعش إحدى الثغور الجزرية، لها حصن منيع بينها وبين الحدث ثمانية فراسخ. فأما حصن الحدث[٢] ، ففتحه حبيب بن مسلمة من قبل عياض بن غنم[٣]، وفي فترة فتنة مروان بن محمد، خرجت الروم، فهدمت مدينة الحدث، وكانت تسمى المهدية أو المحمدية. أعيد بناؤها في عهد المهدي في العصر العباسي.

أما زبطرة فتبعد[٤] عن الحدث ثمانية عشر فرسخاً، وهي أقرب الثغور إلى أرض الروم. وعندما انسحب الروم من سورية خربوها، فعمرها المسلمون. حيث قيل إن حبيب بن مسلمة هو الذي فتحها، عندما فتح حصن الحدث، ثم خربه الروم في عهد الوليد بن يزيد، وأعيد بناؤه، وقد هدمه الروم في فتنة مروان، وأعيد بناؤه في العصر العباسي. أما حصن ملطية، فيقال إن الإسكندر هو الذي بناه، وملطية مدينة كبيرة من أكبر الثغور، فتحها حبيب بن مسلمة الفهري كما ذكرنا. ومن الحصون الجزرية كيسوم وشمشاط.

الثغور البكرية، فسأكتفي بعدّها وهي (سميساط[٥] ـ حاني[٦] ـ كاليفلا ـ ملتان).

الثغور البحرية، وهي على أربعة أقسام: **الأولى** ثغور سواحل حمص وهي (طرطوس ـ بانياس ـ اللاذقية ـ جبلة)، **الثانية**: سواحل دمشق وهي (عرقة[٧] ـ طرابلس ـ جبيل ـ بيروت ـ صيدا

---

[١] ابن العديم ـ بغية الطلب ـ ج١ ـ ص٢٣٩.

[٢] الحدث: قلعة حصينة بين ملطية وسميساط ـ ياقوت ـ المعجم ـ ج٢ ـ ص٢٢٧.

[٣] البلاذري ـ الفتوح ـ ص٢٢٥.

[٤] عليه عبد الفتاح الجنزوري ـ الثغور ـ ص٩٢.

[٥] سميساط: مدينة على شاطىء الفرات لها قلعة ـ ياقوت ـ المعجم ـ ج٣ ـ ص٢٥٨.

[٦] حاني: مدينة بديار بكر ـ ياقوت ـ المعجم ـ ج٢ ـ ص٢٠٨.

[٧] عرقة: من الثغور في نواحي الروم ـ ياقوت ـ المعجم ـ ج٤ ـ ص١١٠.

ـ الصرفند[1] ـ عدلون)، **الثالثة:** ثغور سواحل جند الأردن (صور وعكا)، **الرابعة:** سواحل جند فلسطين (قيسارية ـ ارسوف[2] ـ يافا ـ عسقلان ـ غزة).

كان لمعاوية اهتمامات عسكرية بالإضافة لنشاطه البحري، كتحصينه المدن الساحلية، ووجه اهتمامه لحماية أطراف دولته من هجمات أعدائه، وعلى الأخص شمال بلاد الشام. ومنذ أن دخلت المنطقة الشمالية لبلاد الشام في حظيرة العرب، وضع لها نظام حربي يتفق مع موقعها على الحدود مع بيزنطة، حيث وقف كلا الخصمين حيال هذه المنطقة، دون أن يعملا على إصلاحها، حيث بقيت في البداية خراباً موحشاً.

لكن اهتمام العرب بمعرفة أحوال أعدائهم، وتلافي خطرهم، دعاهم إلى القيام بإجراءات منها ترك حامية في الممرات الإجبارية التي يتقدمون منها لمهاجمة بيزنطة. وازداد الاهتمام أيضاً بالمدن التي تتحكم بهذه الممرات، علماً أنه كان يوجد سلسلة من الحصون التي دمرها البيزنطيون أثناء تقهقرهم، حيث امتدت من طرطوس إلى سميساط على نهر الفرات. وقرر معاوية العناية بهذه المعاقل بعد السيطرة عليها. فاهتم أولاً بأنطاكية[3]، فنقل إليها جماعة من أهل بعلبك وحمص لعمرانها، وأخذ أيضاً يقحم الجند في هذه الثغور لتأمين قواته وبلاده من مفاجأة العدو ويهتم بعمرانها.

الصوائف والشواتي:

من المعروف أن أسلوب العمل بالصوائف والشواتي، كان قد بدأ في عهد عمر بن الخطاب[4] وأمير الشام أبو عبيدة بن الجراح، وكانت تعني إرسال قوات عسكرية قوامها ما بين ألف وخمسمائة إلى ألفي رجل[5] وعندما تولى معاوية بن أبي سفيان تنظيم الصوائف والشواتي بعد ولاية الشام. وبعد أن استتب الأمر له، تصاعد إرسال الحملات في عهده، وكان يقاتل الروم كل سنة مرتين،

---

[1] الصرفند: قرية من قرى صور من سواحل بحر الشام ـ ياقوت ـ المعجم ـ ج٣ ـ ص٤٠٢.

[2] ارسوف: مدينة على ساحل بحر الشام بين قيسارية ويافا ـ ياقوت الحموي ـ المعجم ـ ج١ ـ ص١٥١.

[3] البلاذري ـ فتوح البلدان ـ ص١٦١.

[4] خالد حاسم الجنابي ـ تنظيمات الجيش العربي الإسلامي في العصر الأموي طبع الرعاق ١٩٨٦ ـ ص١٩٤.

[5] البلاذري ـ الفتوح ـ ص١٦٥.

الأولى صيفاً، والثانية شتاءً. وبعد معاوية توقفت الصوائف والشواتي بسبب حدوث الفتن، حيث استؤنفت في عهد عبد الملك بن مروان. وكان من أبرز زعمائها بشر بن أبي ارطأة، كما شارك رجال من الأسرة الأموية في الصوائف والشواتي.

والصوائف والشواتي كانت أحد الأساليب التعبوية الهجومية التي استخدمها العرب ضد أعدائهم الروم. ومن أشهر القادة الأمويين الذين شاركوا في الصوائف والشواتي يزيد بن معاوية، حيث أرسله أبوه فبلغ القسطنطينية، ومنهم محمد بن مروان بن الحكم والوليد بن عبد الملك وعبد الله بن عبد الملك، وأبرزهم مسلمة بن عبد الملك الذي تولى قيادة هذه الحملات منذ (٨٦-٩٩هـ) (٧٠٥-٧١٧م). لكن منذ عهد عمر بن عبد العزيز، لم يعد للصوائف والشواتي تلك الأهمية، وإنما أصبحت مجرد أداة تعبوية هدفها حماية الحدود، واستمرت على ذلك حتى نهاية العصر الأموي.

إذن عمل العرب بنظام الصوائف والشواتي، وكان هذا النظام متبادلاً بين الروم والعرب، مما جعل الحدود في حالة مد وجزر. وقد وصف قدامة بن جعفر شيئاً عن حملات الصوائف والشواتي فقال: (إن أجهدها مما يعرفه أهل الخبرة من الثغرين: أن تقع الغزاة التي تسمى الربيعية لعشرة أيام تخلو من أيار، بعد أن يكون الناس قد أربعوا دوابهم وحسنت أحوال خيولهم، فيقيمون ثلاثين يوماً، وهي بقية أيار وعشرة من حزيران، فإنهم يجدون الكلأ في بلاد الروم ممكناً، وكأن دوابهم ترتبع ربيعاً ثانياً، ثم يقفلون فيقيمون خمسة وعشرين يوماً، وهي بقية حزيران وخمسة من تموز، حتى يقوى ويسمن الظهر، ويجتمع الناس لغزو الصائفة، ثم يغزون لعشرة تخلو من تموز، فيقيمون إلى وقت قفولهم ستين يوماً. فأما الشواتي فإني رأيتهم جميعاً يقولون:

((إن كان لابد منها فليكن مما لا يبعد فيه ولا يوغل وليكن مسيرة عشرين ليلة بمقدار ما يحمل الرجل لفرسه ما يكفيه على ظهره، وأن يكون في ذلك آخر شباط، فيقيم الغزاة إلى أيام تمضي من آذار، فإنهم يجدون العدو في ذلك الوقت أضعف ما يكون نفساً ودواباً، ويجدون مواشيهم كثيرة، ثم يرجعون ويربعون دوابهم)[1].

---

[1] قدامة - نبذة من كتاب الخراج - ملحق بالمسالك - الممالك ابن خروازيه - ص٢٥٩.

وأخيراً نذكر بعض الصوائف والشواتي، كما وردت عند الطبري حسب السنة التي جرت بها، وهي مرتبة حسب السنين كما يلي: غزا معاوية الصائفة سنة (٢٣هـ)[1] حتى بلغ عمورية ومعه من الصحابة عبادة بن الصامت وأبو أيوب خالد بن يزيد، وأبو ذر، وشداد بن أوس. وفيها فتح معاوية عسقلان على صلح. وفي سنة (٢٨هـ)[2] فتح معاوية قبرص وصالح أهلها في عهد عثمان، يقول الطبري: إن معاوية هو أول من غزا الروم ـ وفي سنة ٣٢ هـ كانت غزوة معاوية المضيق ـ مضيق القسطنطينية ـ ومعه زوجته ابنة قرط بن عبد عمرو بن نوفل بن عبد عبد مناف. وفي سنة (٣٣هـ)[3]: غزا معاوية حصن المرأة في أرض الروم من ناحية ملطية حسب قول الواقدي، وفي سنة (٤٣هـ)[4] كانت غزوة بشر بن أبي أرطأة ومشتاه بأرضهم حتى بلغ القسطنطينية (حسب رأي الواقدي). في سنة (٤٤هـ)[5] كان دخول المسلمين مع عبد الرحمن بن خالد بن الوليد بلاد الروم ومشتاهم بها وغزوة بشر بن أبي أرطأة البحر.

في سنة (٤٦هـ)[6] كان مشتى مالك بن عبد الله بأرض الروم وقيل بل كان عبد الرحمن بن خالد بن الوليد، وقيل بل كان مالك بن هبيرة السكوني. وفي سنة (٤٧هـ)[7] كان مشتى مالك بن هبيرة بأرض الروم ومشتى أبي عبد الرحمن القيسي بانطاكية، وفي سنة (٤٨هـ)[8] كان مشتى أبي عبد الرحمن القيسي أنطاكية، وفيها كانت صائفة عبد الله بن قيس الفزاري. وغزوة مالك بن هبيرة السكوني البحر. وفي سنة (٤٩هـ)[9] كان مشتى مالك بن هبيرة السكوني أرض الروم وفيها كانت غزوة فضالة بن عبيد جربه وشتا (بحرية) وفتحت على يديه وفيها كانت صائفة عبد الله بن كرز

---

[1] الطبري ـ تاريخ الأمم والملوك ـ ج٢ ـ ص٥٨٨.
[2] المرجع نفسه ـ ج٢ ـ ص٦٠٠.
[3] المرجع نفسه ـ ج٢ ـ ص٦٣٤.
[4] المرجع نفسه ـ ج٣ ـ ص١٧٨.
[5] المرجع نفسه ـ ج٣ ـ ص١٩٤.
[6] المرجع نفسه ـ ج٣ ـ ص٢٠٢.
[7] المرجع نفسه ـ ج٣ ـ ص٢٠٤.
[8] المرجع نفسه ـ ج٣ ـ ص٢٠٥.
[9] المرجع نفسه ـ ج٣ ـ ص٢٠٦.

البجلي. وفيها كانت غزوة يزيد الرهاوي في البحر. فشتى بأهل الشام وفيها أيضاً غزا الروم معاوية ومعه بعض الصحابة كابن عباس وابن عمر وابن الزبير وأبو أيوب الأنصاري.

في سنة (٥٠هـ)[1]، كانت غزوة بشر بن أبي أرطأة وسفيان بن عوف الأزدي أرض الروم، وقيل كانت فيها غزوة فضالة بن عبيد الأنصاري البحر. وفي سنة (٥١هـ)[2] كان مشتى فضالة بن عبيد بأرض الروم وغزوة بشر بن أبي أرطأة الصائفة. وفي سنة (٥٢هـ)[3] كانت غزوة سفيان بن عوف الأزدي ومشتاه بأرض الروم وتوفي فيها، واستخلف عوضه عبد الله بن مسعدة الفزاري. وقيل الذي شتى بأرض الروم في هذه السنة بالناس بشر بن أبي أرطأة، ومعه سفيان بن عوف الأزدي، وغزا الصائفة في هذه السنة محمد بن عبد الله الثقفي. وفي سنة (٥٣هـ)[4] كان مشتى عبد الرحمن بن أم الحكم الثقفي بأرض الروم، وفيها فتحت جزيرة رودس، فتحها جنادة بن أمية الأزدي، ونزلها المسلمون وتوزعوا فيها واتخذوا بها أموالاً ومواشي. وعندما توفي معاوية تولى يزيد السلطة وأمر بأن يقفلوا منها عائدين.

في سنة (٥٤هـ)[5]، كان مشتى محمد بن مالك أرض الروم، وصائفة معن بن يزيد السلمي. وفيها فتح جنادة بن أبي أمية جزيرة أرواد. وفي سنة (٥٥هـ)[6] كان مشتى سفيان بن عوف الأزدي بأرض الروم، وقيل بل الذي شتى بأرض الروم في هذه السنة عمرو بن محرز. وقيل الذي شتى بها عبد الله بن قيس الفزاري وقيل الذي شتى مالك بن عبد الله. وفي سنة (٥٦هـ)[7] كان مشتى جنادة بن أبي أمية بأرض الروم، وقيل الذي شتى عبد الرحمن بن مسعود. وفي سنة (٥٧هـ)[8] كان مشتى عبد الله بن قيس بأرض

---

[1] الطبري - تاريخ الأمم والملوك - ج٣ - ص٢٠٧.

[2] المرجع نفسه - ج٣ - ص٢١٨.

[3] المرجع نفسه - ج٣ - ص٢٣٧

[4] المرجع نفسه - ج٣ - ص٢٣٨

[5] المرجع نفسه - ج٣ - ص٢٤١.

[6] المرجع نفسه - ج٣ - ص٢٤٥.

[7] المرجع نفسه - ج٣ - ص٢٤٧.

[8] المرجع نفسه - ج٣ - ص٢٥١.

الروم. وفي سنة (٥٩هـ)[1] كان مشتى عمرو بن مرة الجهني أرض الروم في البر وغزا في البحر جنادة بن أمية.

في سنة (٧٠هـ)[2]، صالح عبد الملك بن مروان الروم على أن يؤدي لهم في كل جمعة ألف دينار. وفي سنة (٧٥هـ)[3] كانت غزوة محمد بن مروان الصائفة، حين خرجت الروم من قبل مرعش. وفي سنة (٧٨هـ)[4] غزا فيها يحيى بن الحكم من قبل عبد الملك بن مروان. وفي سنة (٧٩هـ)[5] غزا فيها عبيد الله بن أبي بكرة. وفي سنة (٨١هـ)[6] غزا ابن عبد الملك بن عبيد الله بن عبد الملك ففتح قاليقلا[7]. وفي سنة ٨٨ هـ غزا مسلمة الروم ففتح على يديه ثلاثة حصون حصن قسطنطينية ـ وغزالة ـ وحصن الأقرم ـ وفي سنة (٨٩هـ)[8] غزا الصائفة العباس بن الوليد.

وفي سنة (٩١هـ)[9]، غزا الصائفة عبد العزيز بن الوليد، وكان على الجيش مسلمة بن عبد الملك، وفي سنة (٩٧هـ)[10] جهز سليمان بن عبد الملك الجيوش إلى القسطنطينية. واستعمل ابنه داوود بن سليمان على الصائفة، فافتتح حصن المرأة. وفيها غزا عمر بن هبيرة الفزاري في البحر أرض الروم فشتى بها. وفي سنة (١٠٦هـ)[11]، غزا سعيد بن عبد الملك الصائفة. وفي سنة (١٠٧هـ)[12]، غزا الصائفة معاوية ابن هشام، وكان على جيش الشام ميمون بن مهران. وفي سنة (١١٠هـ)[13]، غزا الصائفة عبد الله بن عقبة الفهري.

---

[1] الطبري ـ تاريخ الأمم والملوك ـ ج٣ ـ ص٢٥٦.

[2] المرجع نفسه ـ ج٣ ـ ص٥١٦.

[3] المرجع نفسه ـ ج٣ ـ ص٥٤٧

[4] المرجع نفسه ـ ج٣ ـ ص٦١٣.

[5] المرجع نفسه ـ ج٣ ـ ص٦١٤.

[6] المرجع نفسه ـ ج٣ ـ ص٦٢٠.

[7] قاليقلا: من نواحي خلاط ثم من نواحي مناذكرو من نواحي أرمينية ـ ياقوت الحموي ـ المعجم ـ ج٤ ـ ص٢٩٩.

[8] الطبري ـ تاريخ الأمم والملوك ـ ج٣ ـ ص٦٧٩.

[9] المرجع نفسه ـ ج٤ ـ ص٣.

[10] المرجع نفسه ـ ج٤ ـ ص٤٤.

[11] المرجع نفسه ـ ج٤ ـ ص١١٤.

[12] المرجع نفسه ـ ج٤ ـ ص١٤٠.

[13] المرجع نفسه ـ ج٤ ـ ص١٢٩.

وفي سنة (١١١هـ)[1] ، كانت غزوة معاوية بن هشـام الصائفـة اليسـرى، وغـزوة سـعيد بـن هشام الصائفة اليمنى، حتى أتى قيسـارية. وفي سـنة (١١٦هـ)[2] كـانت غـزوة معاويـة بـن هشـام الصائفة لأرض الروم. وفي سنة (١١٧هـ)[3]، كانت غزوة معاوية بن هشام الصائفة اليسرى. وفيهـا كانت غزوة سليمان بن هشام بن عبد الملك الصائفة اليمنى، من نحو الجزيرة وفرق سـراياه في أرض الروم. وفي سنة (١٢٠هـ)[4]، كانت غزوة سـليمان بـن هشـام بـن عبـد الملـك الصائفـة، وافتتاحـه (سندره)، وفي سنة (١٢٤هـ)[5]، غزا سليمان بن هشام الصائفة فلقي من الروم فسلم وغنم.

---

[1] المرجع نفسه ـ أحداث سنة ١١١ هـ ـ ج٤ ـ ص١٣٧.
[2] المرجع نفسه ـ أحداث سنة ١١٦هـ ـ ج٤ ـ ص١٥٣.
[3] المرجع نفسه ـ أحداث سنة ١١٧ هـ ـ ج٤ ـ ص١٥٧.
[4] المرجع نفسه ـ أحداث سنة ١٢٠ هـ ـ ج٤ ـ ص١٨١.
[5] المرجع نفسه ـ أحداث سنة ١٢٤ هـ ـ ج٤ ـ ص٢١٥.

الفصل الثامن

البحرية

- تكون البحرية.
- فتح قبرص.
- معركة ذات الصواري.
- حصار القسطنطينية.



الفصل الثامن

البحرية

ـ تكون البحرية:

يعدّ معاوية أول من رسم سياسة العرب المسلمين إزاء البحر المتوسط، وعمل على حل المشكلة البحرية التي اعترضتهم منذ فتوحاتهم الأولى في الحوض الشرقي من ذلك البحر. أمام ذلك أدرك معاوية الضرورة اللازمة لبقاء المسلمين في هذا البحر، لأنه المنطقة التي دارت عليها أحداث النزاع بين قوى العالم الكبرى من أجل السيطرة، ولأن المسيطر على هذا البحر ومركزه الاستراتيجي كان هو الرابح والمسيطر، لذلك تطلع معاوية إلى الاستيلاء على الجزر القريبة من الشواطئ الإقليمية. والتي كانت قواعد معادية.

وضع معاوية خطة سليمة لتحقيق أهدافه البحرية، وتعد فترة ولايته على الشام نقطة البداية في بناء البحرية العربية الإسلامية، ولقد عانى معاوية في بداية ذلك، عندما طلب من عمر بن الخطاب مستأذناً إياه بغزو جزيرة قبرص. لكن الخليفة رفض طلب معاوية، إلا أنه أطلق يده بإصلاح مدن الساحل بما يضمن سلامتها، وذلك بترميم حصونها[1] ووضع المقاتلين فيها. وعلى ذلك أخذ معاوية

[1] البلاذري ـ فتوح البلدان ـ ص١٣٤.

يحصن مدن الساحل، ويزودها بالقوات المحاربة لتصبح قواعد تنقل منها الجنود بحراً إلى أي مكان آخر تفرض وجودها فيه. واعتنى معاوية بهذا النظام نظام القواعد، واكتفى بسياسة تقوية السواحل، حتى ولي الخلافة عثمان بن عفان، حيث خطا معاوية الخطوة الثانية في متابعة سياسته البحرية، بالإضافة إلى تشجيع الناس على النزوح إلى المناطق الساحلية. والذي ساعد معاوية على تحقيق خطته قرار الخليفة بمنح كل راغب في الإقامة بالمدن الساحلية إقطاعات من الأرض يستغلها ويتمتع بخيراتها.

وقد ترتب على ذلك حضارة عمرانية ناشئة على السواحل الشامية، حافظ على تطورها مافعله بإعداده جيوشاً دائمة في المدن الساحلية للدفاع عنها. وتعد سياسة منح الإقطاعات في السواحل الخطوة الأخيرة في سلم السياسة البحرية الدفاعية.

وبعد ذلك تأتي المرحلة العملية، بعد أن سمح الخليفة عثمان بن عفان بغزو البحر، شريطة ألا يكره أحد على ركوب البحر. و لم يلق معاوية صعوبة في اجتذاب الجند، لأن المدن الساحلية كانت عامرة بالمغامرين الذين تطلعوا إلى خوض الميدان البحري. في هذا المجال لابد لنا من أن نذكر مدى الارتباط والتعاون بين الشام ومصر في ميدان العمليات البحرية، علماً أن مصر كانت ولاية تحت إمرة عبد الله بن أبي سرح، حيث اشترك هذا الأخير مع معاوية في الإغارات البحرية على جزر بيزنطة في المتوسط. وكان في مصر آنذاك دور لصناعة السفن، تخرج منها الأساطيل الحربية إلى قواعد الشام البحرية، أي أن السفن تتجمع بموانئ الشام للهجوم على خصومهم.

شجع معاوية تحقيق تعاون بحري بين مصر والشام ووصلتا إلى مرحلة لا يمكن لأي منهما الاستغناء عن الآخر، لأن مصر تفتقر لأخشاب بلاد الشام التي تصلح لبناء السفن، بالإضافة لمحافظة معاوية ـ حين تسلمه السلطة ـ على استمرار التعاون بين بلاد الشام ومصر، ومحاولته ـ بعد التحكيم ـ السيطرة على مصر لتحقيق استمرار هذا التعاون.

. فتح قبرص:

كانت محاولة معاوية الاستيلاء على جزيرة قبرص، أول أعماله البحرية، وكانت استعداداته البحرية لغزو هذه الجزيرة تتناسب مع الحملة وأهميتها وضخامة أهدافها. حيث كانت قبرص حجر الزاوية في قوة الدولة التي تحاول أن تصل إلى مركز الزعامة في بلاد الشرق الأدنى، لأن أهمية هذه

الجزيرة من أهمية موقعها الجغرافي.. حينذاك أدرك معاوية أهمية هذه الجزيرة، وكيف اتخذ منها البيزنطيون محطة تموين وملجأ، يعتصمون به حين تدفعهم الأحداث للانسحاب والتراجع.

جمع معاوية قواته البحرية في ميناء عكا، حيث كانت السفن كلها من مصر، واشترك في هذه الحملة كبار القادة من رجالات بلاد الشام، كعبادة بن الصامت. واشتركت في هذه الحملة البحرية النساء أيضاً[1]. تحرك معاوية من ميناء عكا على رأس أسطوله في ربيع سنة (٢٨ هـ) (٦٤٩م)، ونزل في الساحل القبرصي.. فكان ذلك العبور أول عبور لمياه البحر المتوسط من قبل قوات عربية إسلامية صرفة. أنزل العرب عدتهم وعتادهم، وأرسلوا إلى أهالي قبرص، يعلمونهم أن قدوم العرب إلى هذه الجزيرة من أجل المفاوضات. رفض أهل قبرص ذلك، ولهذا السبب لم يكن أمام العرب إلا مهاجمة عاصمتهم واحتلالها، فاضطر أهل قبرص لعقد صلح[2] مع المسلمين على النحو الآتي:

مادة ١ـ أن يدفع أهالي قبرص للعرب المسلمين جزية سنوية مقدارها (٧٢٠٠) دينار، كالذي كانوا يدفعونه كل عام للدولة البيزنطية.

مادة ٢ـ أعطى أهل قبرص وعداً بألا يساعدوا البيزنطيين في هجماتهم على أرض بلاد الشام، وأن يحافظوا على أسرارهم.

مادة ٣ـ فرض الصلح على أهل قبرص، أن يزودوا العرب المسلمين بأنباء أية حملة يتوقع أن يقوم بها البيزنطيون ضدهم.

مادة ٤ـ على أهالي قبرص التزام الحياد التام في النزاع الدائر بين العرب المسلمين من جهة، وخصومهم البيزنطيين من جهة ثانية.

عاد معاوية إلى دمشق بعد هذه المعاهدة مظفراً، إلا أنه لم يكن مطمئناً لهذا الصلح مع أهالي قبرص، فراح يرقب تحركاتهم؛ وحدث ما توقعه من أهالي قبرص. حيث أخل أهل قبرص بالصلح سنة (٣٢هـ)، وذلك بإمدادهم البيزنطيين ببعض السفن في إغارتهم على العرب المسلمين، لذلك صمم معاوية على احتلال هذه الجزيرة.

---

[1] البلاذري ـ فتوح البلدان ـ ص١٥٩.

[2] المرجع نفسه ـ ص١٦٠.

أخذ معاوية يعد العدة لاحتلالها، فجهز حملة بحرية في سنة (٣٢هـ) (٦٥٤م). وكانت هذه الحملة مكونة من خمسمائة سفينة وعدد كبير من الجند. توجه نحو قبرص، فدخلها بعد صراع عنيف، واستولى[1] عليها، وألزم أهلها بأداء المطالب المالية. بعد ذلك.. أخذ معاوية يدعم نفوذ العرب المسلمين فيها، وذلك بإرساله اثني عشر ألفاً من رجال الجند النظاميين، ليكونوا فيها جيشاً ثابتاً يصد عنها أي عدوان مهما كان.. ولتثبيت ذلك شيد معاوية لهذه القوات مدينة جديدة في الجزيرة[2] ومسجداً.. وبهذا الإجراء أضحى إقليم بلاد الشام الذي يقوده معاوية بن أبي سفيان في مأمن من الأخطار البيزنطية.

. معركة ذات الصواري[3] :

كانت المعركة التي انتهت بفتح قبرص بداية نشاط بحري على الجزر في الساحل الشرقي للمتوسط، وباستمرار.. صيفاً وشتاءً. وأدركوا ضرورة الاستيلاء عليها، لما تتمتع به من أهمية استراتيجية، ومن هذه الجزر جزيرة (أرواد) التي كانت تتمتع بشهرة عالية في تنمية مواردهم الاقتصادية عن طريق القرصنة التي أسبغت عليهم صفة الغدر وأبعدت عنهم صفة الثقة بهم.

قرر معاوية الاستيلاء على هذه الجزيرة، فأعد حملة لمهاجمتها سنة (٢٧هـ) ونفذ ذلك وتوجه نحوها وتمكن أن ينزلها. غير أن سكانها اعتصموا بقلعة الجزيرة. ولكن الحملة اضطرت إلى التراجع أمام مقاومة أهالي هذه الجزيرة.

غير أن معاوية وقواته البحرية أعادت الحملة بعدة واستعداد أفضل، فدخل المدينة وأحرق القلعة وطرد منها سكانها.. و لم يكتف معاوية بذلك، بل وجه حملة لجزيرة (صقلية) التي أصبحت قاعدة للقوات البيزنطية، تهدد الشواطئ المصرية نظراً لموقعها، ولذلك اتحدت بحرية مصر مع بحرية الشام على تهديد هذه القاعدة البحرية، عندما توجهت حملة مشتركة فنزلت بالشاطئ ومعها المجانيق.. فاشتبكت مع القوات البيزنطية، ثم عادت البحرية العربية الإسلامية إلى قواعدها.

---

[1] البلاذري ـ فتوح البلدان ـ ص١٦٠.

[2] المرجع نفسه ـ ص١٦٠.

[3] عبد الرحمن بن عبد الله بن صفوان ـ تاريخ أبي زرعة الدمشقي ـ طبع دمشق ـ ص١٨٧، يذكر أن هذه المعركة وقعت سنة ٣٤ هـ.

بعد ذلك بعث معاوية حملة بحرية لفتح (رودس) سنة (٣٣هـ)، وكان قائد هذه الحملة جنادة بن أمية الأزدي، فاستولى على هذه الجزيرة، ثم أمر معاوية ببناء حصن فيها، وأرسل إليها بعض المقاتلين يتولون الدفاع عنها، وكان ـ من حرصه عليها ـ يعمد إلى تبديل القوات من حين إلى آخر. وتطبيقاً لاستراتيجية معاوية في السيطرة على البحر المتوسط ومنافذه، وجه حملة لاحتلال (كريت) بقيادة جنادة بن أمية، غير أن هذا القائد لم يستطع الاستيلاء عليها، بل اكتفى بهجمات تكتيكية، ألحق أفدح الخسائر بالقوات البيزنطية فيها.

أمام هذا تشجع معاوية على توسيع خططه البحرية. فكانت خطته الجديدة هي محاولة الاستيلاء على (القسطنطينية)، عاصمة بيزنطة. لأن القسطنطينية هي الرأس المدبر للبحرية البيزنطية، علماً أن هذه البحرية كانت مقسمة إلى قسمين.. لكل منهما اختصاصه: ١ ـ القسم الأول: تابع للأقاليم والمقاطعات، وكانت موزعة حيث ـ تقاوم قدر طاقتها ـ الهجمات الجديدة. ٢ ـ القسم الثاني: خاص بالعاصمة القسطنطينية نفسها، علماً أن التعاون كان بين الأسطوليين أو القوتين ـ غير وثيق. ويعود ذلك لفساد الإدارة في الدولة البيزنطية.

عندما استلم السلطة في بيزنطة قنستانز الثاني، عمد إلى مقاومة نشاط معاوية البحري، فأخذ يبث النشاط والحركة في أسطول العاصمة لشد أزر أساطيل الولايات. وشجعه على ذلك الأنباء الواردة عن استعدادات بحرية هائلة يقوم بها معاوية، لكي يضرب القسطنطينية الضربة الأخيرة. قرر إمبراطور بيزنطة قنستانز الخروج للشواطئ الشامية لتدمير أسطولها في قواعدها. وأثناء ذلك، نشطت الجاسوسية البيزنطية لعرقلة استعدادات معاوية الذي أعد أسطولاً بمعداته الحربية في مدينة طرابلس كحملة بحرية، وفي الوقت نفسه عبأ القوات البرية في دمشق ليوجهها بمسير عبر آسية الصغرى.

أثناء ذلك عمل بعض الجواسيس البيزنطيين في طرابلس إلى إخراج الأسرى البيزنطيين من سجن المدينة، وتوجه هؤلاء الأسرى إلى دار الحاكم في المدينة فقتلوه وأتباعه، وأحرقوا العدة والعتاد، وهربوا إلى القسطنطينية.

حينذاك أدرك معاوية أن من واجبه أن يعد من آلات الحرب ما فاق العتاد الذي دمره عملاء بيزنطة، وأتم استعداداته بسرعة، ثم توجه على رأس قواته البرية سنة (٦٥٥م) إلى مدينة قيصرية..

وفي الوقت نفسه اتحد الأسطول المصري[1] مع الشامي، وتوجها من سواحل بلاد الشام حتى وصلا إلى الغرب من ساحل كيليكية. وهنالك بلغهم نبأ اقتراب الأسطول البيزنطي، وعلى رأسه الإمبراطور نفسه، وكان يتألف من خمسمائة سفينة مزودة بآلات الحرب.

التقى الطرفان في معركة بحرية حاسمة، وانقضى اليوم الأول من القتال، واشتبك الطرفان في اليوم الثاني بمختلف الأسلحة المستخدمة، وكانت الخطة أن ربطوا سفنهم بعضها ببعض[2] وأصبحت بذلك مسرحاً حربياً وميداناً للقتال يساعدهم على المناورة واستخدام الأسلحة بشكل أفضل.. هذا يعني أن قتالهم هذا حول المعركة البحرية إلى معركة برية. والتحم الطرفان بأسلحة قتال خفيفة كالسيوف والخناجر، وللعرب المسلمين شهرة بمثل هذه الأسلحة. وانتهت المعركة بانتصار العرب المسلمين في معركة ذات الصواري، بعد أن جهد كل من المتحاربين في أسر قائد حملة خصمه. لكن قائد الحملة البيزنطية الإمبراطور البيزنطي كان قد هرب من الحرب، وسجل العرب أروع الانتصارات البحرية في تاريخهم من ذلك الوقت. وبانتصار العرب المسلمين في هذه المعركة أصبحوا سادة المتوسط، وأبعدوا عن أنفسهم خطر البحرية البيزنطية.

أما الجيش الذي قاده معاوية نحو آسية الصغرى، فلم تقدم لنا الوثائق التاريخية عن فعاليته وعن دوره في القتال.. ما يجب ذكره. بعد هذه المعركة اتجه معاوية إلى حدود الشام الشمالية، وعمد إلى تحصينها ضد أخطار بيزنطة، وذلك بإقامة حصون وثغور لصد هجمات العدو.

- حصار القسطنطينية:

حصار القسطنطينية الأول:

عندما آلت السلطة إلى الأمويين، ابتدأت بمعاوية.. وأضحت دمشق حاضرة الدولة العربية الإسلامية.. وأصبحت مسألة السيادة على البحر الأبيض المتوسط مسألة ملحة بعد معركة ذات الصواري.. وعلى هذا الأساس نلاحظ ما يلي:

---

[1] كان يقوده والي مصر نفسه عبد الله بن أبي سرج.

[2] أنور الرفاعي - تاريخ العرب والإسلام منذ العصور القديمة حتى العهد العثماني طبعة دمشق ١٩٧١ - ص٢١١.

ـ صار همّ السلطة الأموية الجديدة التوجه ضد سياسة بيزنطة وقوتها، لأنها كانت في رأي السلطة العربية الإسلامية الجديدة عصب جزر البحر المتوسط الشرقي حتى تضرب القوات البيزنطية وتضع حداً لها.

ـ بعد اطمئنان معاوية لقواته وحسن تدريبها، بعد معركة ذات الصواري قام بإرسال حملة استطلاعية سنة (٤٩هـ) بقيادة فضالة بن عبيد الأنصاري، إلى ضواحي القسطنطينية[1] فوصلها في فصل الشتاء. وأخذ ينظم قواته ويعدها ويدربها انتظاراً للإمداد الذي كان يعده معاوية في دمشق. وجعل معاوية على رأس الحملة ابنه وولي عهده لأسباب[2]. ومن اهتمام معاوية بهذه الحملة، أنه أكسبها طابع الجهاد المقدس، وذلك عندما ضم إلى ابنه يزيد أحد أصحاب الرسول (ص) أبا أيوب الأنصاري لكي يرفع من الروح المعنوية للمقاتلين العرب المسلمين وبث الثقة فيهم بالنصر.

وبعد أن جمع سائر الإمدادات والعتاد للحملة، توجهت بقيادة يزيد إلى مدينة خلقدونية، ذلك المقر الحربي الذي اتخذه فضالة كما ذكرنا مركزاً لإدارة دفة الهجوم على القسطنطينية. وعندما اجتمع يزيد بفضالة، عبر الجميع مياه مضيق البوسفور، إلى الشاطئ الأوروبي أمام أسوار القسطنطينية وبدأ حصار العرب للقسطنطينية بصبر المسلمين وجلدهم. وراحوا يضيقون الخناق على سكان العاصمة فاستشهد أبو أيوب على أبواب المدينة. ثم عادت الحملة في صيف سنة ٤٩هـ ـ ٦٦٩م، ورفع العرب المسلمون الحصار عن القسطنطينية وعادت إلى دمشق استعداداً لحصار آخر.

حرب السنوات السبع:

جهدت الإمبراطورية البيزنطية على إعادة تنظيمها، وتدعيم نظام البنود[3] أو الأقاليم البحرية.. ولذلك صمم معاوية على إعداد حملة ثانية تستهدف الاستيلاء على عاصمة البيزنطيين مستغلاً حالة

---

[1] الطبري ـ تاريخ الرسل والملوك ـ ج٦ ـ ص١٣٠.

[2] ليرد على الذين أبدوا امتعاضهم من يزيد، وذلك بحبه للمجون والخلاعة ثم الرد على الذين أبدوا امتعاضهم أيضاً من يزيد كمحاولة لأخذ البيعة له بالخلافة من بعده، ثم أعطاه يزيد فرصة يرفع فيها مركزه واسمه في الجهاد ضد البيزنطيين.

[3] كان هناك ثلاثة بنود كبرى لعبت دوراً هاماً في سير الحملات الحربية، فسمي البند الأول منها البند الأناتولي وتمركز فيما بعد في شمال جبال طوروس، أما البند الثاني فأخذ اسمه من الفرق التي كونت الحرس الامبراطوري لهرقل، حيث عرفت باسم بند الابسكيون أي إقليم فرق الحرس الأمبراطوري، أما البند الثالث فهو بند أرمينية في آسية الصغرى.

الفوضى والقلق التي تمر بها هذه العاصمة. ولتحقيق ذلك وجه معاوية حملة سنة ٥٣هـ ـ ٦٧٣م بقيادة عبد الرحمن بن خالد يؤازرها أسطول بحري. وعندما حل فصل الشتاء، ألقت هذه الحملة مراسيها على شاطئ قيليقية حتى يتحسن الجو لمتابعة تنفيذ مهمتها.

وفي الربيع عززت قوات البحرية، بأسطول آخر وتابعت الزحف نحو القسطنطينية مخترقين مضيق الدردنيل دون مقاومة، أما القوات البرية فكانت قد اجتازت آسيا الصغرى. واستولى العرب المسلمون على جزيرة أرواد في مياه القسطنطينية، واتخذوها مقراً لإدارة حملتهم على العاصمة، حيث كان دور الأسطول البحري نقل القوات من هذه الجزيرة إلى البر لمحاصرة هذه العاصمة، بينما يقوم الأسطول بمحاصرتها من جهة البحر.

بدأ الحصار البري والبحري للقسطنطينية من شهر نيسان إلى شهر أيلول، تخلل هذه الفترة مناوشات بين الطرفين. واستطاعت هذه المدينة الصمود أمام الحصار، لأنها كانت قد أعدت نفسها لمثل هذا الحصار، ثم عادت القوات العربية الإسلامية إلى قاعدتها جزيرة أرواد الوارد ذكرها آنفاً.

عاودت الحصار مرة أخرى في مطلع الربيع، حيث تكرر ذلك طيلة سبع السنوات تلك. وصمدت هذه المدينة بمقاومتها العنيفة واستخدامها سلاحاً جديداً هو النار اليونانية[1] ضد البحرية في دفاعها ضد الهجمات المتكررة والمحاصرة العنيفة من القوات العربية الإسلامية. وفي تلك الأثناء أحس معاوية بدنو أجله، وأن المصلحة العامة تتطلب سحب القوات الإسلامية المرابطة أمام أسوار أنطاكية، وأدرك أيضاً أن مبايعة ابنه يزيد ستلقى مقاومة فعالة عندما سيستلم السلطة. ولتحقيق ذلك أراد معاوية أن يضع أكبر قدر ممكن من القوات تحت تصرفه لمواجهة ما قد ينشأ من مخاطر.. ولتحقيق ذلك دخل معاوية مع الدولة البيزنطية في مفاوضات تمهيداً لسحب قواته وإعادتها إلى قواعدها في الشام. كانت الدولة البيزنطية في حال لا تحسد عليه نتيجة هذا الحصار، وما آلت إليه هذه الدولة.. ولتحقيق السلام أرسلت إلى دمشق سفيراً سياسياً يدعى يوحنا.. فعقد جلسات متعددة مع السلطة الحاكمة في دمشق، فنجحت المفاوضات في عقد صلح بين الطرفين لمدة ثلاثين سنة، وأخذت القوات العربية الإسلامية بعد ذلك بتجميع نفسها وإعداد العدة للعودة إلى الشام.

---

[1] إبراهيم أحمد العدوي ـ الأمويون والبيزنطيون ـ البحر المتوسط بحيرة إسلامية طبعة مصر ١٩٦٣ ـ ص١٧٥.

الحصار الثالث للقسطنطينية:

ورغم انتقال السلطة إلى المروانيين، لم تتغير السياسة الحربية تجاه القسطنطينية، فقد تابع الوليد بن عبد الملك الفتوحات، وجعل هدفه السيطرة على الطريق الذي يصل بالقسطنطينية مع المعاقل التي تكمن على هذا الطريق. استهل تنفيذ خطته بحصار مدينة طوانة[1]، حيث استمر هذا الحصار عامين متتاليين لشدة تحصينها وشدة الدفاع عنها. لكن القوات العربية الإسلامية، قضت على تحصينات هذه المدينة وعلى مقاومة حاميتها رغم الإمدادات المتتالية، وتمكن العرب المسلمون من دخولها سنة (٧٠٧م).

لم يتوقف العرب المسلمون عن استمرار الهجمات على مدن آسية، حتى وصلت هذه القوات إلى البوسفور.. علماً أن هذه الحملات كانت استطلاعية، وتمهيداً للقيام بالهجوم المباشر على العاصمة البيزنطية. لكن القوات البيزنطية تمكنت من أسر أمير البحر العربي خالد بن كيسان، حيث أعاده الإمبراطور البيزنطي إلى الخليفة الوليد رغبة منه في استئناف العلاقات الودية مع العرب[2] المسلمين. إلا أن الخليفة بدأ يعد العدة بإعداد حملة لمهاجمة القسطنطينية.. وفي ذلك الوقت أوكل الإمبراطور البيزنطي قيادة قواته إلى أحد قواده الذي لعب دوراً في مسير هذه الحملة واسم هذا القائد ليو.

وفي الوقت نفسه عهد الوليد إلى أخيه مسلمة بن عبد الملك بقيادة حملته، وأخذت الاستعدادات في إعداد هذه الحملة، حتى وصلت أخبارها إلى الإمبراطور البيزنطي، الذي أرسل سفارة إلى دمشق غايتها عقد هدنة بين الدولتين، علماً أنه كان لهذه السفارة السياسية مهمة سرية هي التجسس على مدى استعداد المسلمين للقيام بهذه الحملة ضدهم. عادت السفارة البيزنطية مؤكدة تنفيذ مهمتها السرية، وذلك عندما تأكد لها عزيمة العرب المسلمين على تنفيذ هذه الحملة.. اتخذت السلطة البيزنطية إجراءات وتدابير واحتياطات للدفاع عن العاصمة. وأهم هذه التدابير كان إعلان أخبار الحملة العربية الإسلامية ضد القسطنطينية، وإصدار تعليمات تقضي لكل فرد أن

---

[1] طوامة: بلد بثغور المصيصة ـ ياقوت الحموي ـ معجم البلدان ـ ج٤ ـ ص٤٥.

[2] الطبري ـ تاريخ الرسل والملوك ـ ص٦٨.

يجمع مؤونة تكفيه لثلاث سنوات وأمر أيضاً بإخراج العاجزين عن القتال.

بالإضافة إلى ذلك، كان هنالك تخزين كميات هائلة من التموين في خزائن الدولة، وأمر بتجديد أسوار المدينة وتحصينها بالآلات الحربية، لتتمكن من الدفاع بسهولة ويسر. وأثناء تلك الاستعدادات لهذه الحملة توفي الخليفة الأموي الوليد. إلا أن ذلك لم يمنع من تنفيذها.

تولى السلطة الأموية سليمان بن عبد الملك بحماسة قوية لتنفيذ إرسال الحملة ومهاجمة القسطنطينية، حيث تكونت هذه الحملة من مصر وبلاد الشام، وعمل على جمع الأخشاب من بلاد الشام وتزويد دور صناعة السفن في مصر بتلك الأخشاب. وضع سليمان بن عبد الملك مقر قيادته في دابق شمال حلب، وذلك لإدارة العمليات الحربية. وفي سنة (٩٨هـ) (٧١٧م)، تحركت الجيوش العربية الإسلامية نحو القسطنطينية تحت قيادة مسلمة بن عبد الملك، وأمر سليمان بن عبد الملك أخاه مسلمة الإقامة في العاصمة البيزنطية حتى يفتحها أو يأتيه أمره.

أرسل مسلمة مقدمة على رأس قواته يقودها أحد قواده، واسمه سليمان. تقدم هذا القائد أمام القوات حتى بلغ عمورية، فحاصرها، حيث علم بعد ذلك أن صاحبها ليو يناهض الإمبراطور البيزنطي. ففكر سليمان قائد هذه القوات في وضع خطة تهدف لزرع الفرقة بين صاحب عمورية والإمبراطور. تنفيذاً لذلك، كتب إلى صاحب عمورية خطاباً يذكر فيه أن مستقبل بيزنطة مرتبط به، ونحن هنا نريد الاتفاق معك على شروط الصلح. في الوقت نفسه، كان قد أمر قواته المتواجدة خارج سور المدينة أن تهتف بحياة الإمبراطور (ليو). دخل (ليو) في مفاوضات مع العرب المسلمين وهو يضمر في نفسه الغدر، وطلب منهم رفع الحصار عن عمورية، ثم توجه مع الجيوش العربية الإسلامية نحو القسطنطينية.

وكان أول كسب له هو ولاء عمورية له، لأنه جنبهم ويلات الحصار، فنادوا به إمبراطوراً على الدولة البيزنطية. وفي الطريق التي سلكها (ليو) مع القوات العربية الإسلامية، جعلهم يثقون به، لذلك سمحوا له أن يسبقهم إلى القسطنطينية، ليمهد لهم سبل الاستيلاء عليها.. وتمكن (ليو) من الانتصار على قوات الإمبراطور التي يقودها ابنه، وتمكن من عبور البوسفور إلى القسطنطينية، حيث تمكن منها ونصب إمبراطوراً تحت اسم (ليو الثالث)، فعمل على تحصين العاصمة وتقويتها لمواجهة الحصار القادم.

وكان الجيش الإسلامي الذي يقوده مسلمة بن عبد الملك، وقوامه ثمانون ألف جندي، وقيل (١٢٠) ألف مقاتل[1] يتابع زحفه، حتى عسكر أمام أسوار القسطنطينية في (١٥ آب ٧١٧م)، ثم دخل الأسطول البحري مياه البوسفور أول أيلول، ويحتوي هذا الأسطول على ألف وثمانمائة سفينة، وهناك أمام أسوار المدينة المحاصرة، أخذ مسلمة ينظم التعاون بين القوات البرية، والبحرية، وتمكن الأسطول من احتلال مدخل البوسفور الجنوبي والشمالي لقطع الإمدادات عن عدوه.

أرسل (ليو) سفنه إلى الأسطول العربي الإسلامي، عندما رأى أن الأحوال الجوية محملة بالنار اليونانية، حيث استخدمتها ضد السفن العربية الإسلامية ومنعتها من إكمال حلقة الحصار البحري للقسطنطينية. استمر الحصار خلال فصول السنة كلها، حيث وصلت إلى مسلمة نجدات برية وبحرية.. كانت أسطولاً من مصر، وأسطولاً من شمال أفريقية، أما القوات البرية فتوجهت نحو مسلمة منطوية تحت قيادته.

استخدم العرب المسلمون النفط، واستخدموا كذلك أسلحة هجومية... واشتد الحصار على القسطنطينية، حيث توفي سليمان بن عبد الملك، وتولى السلطة من بعده عمر بن عبد العزيز. لقد اتجهت أنظار الخليفة إلى سحب القوات الإسلامية المحاصرة للقسطنطينية، حيث أرسل في (١٥ آب سنة ٧١٨م) ـ أي الحصار دام سنة كاملة ـ يطلب من قائد الحملة مسلمة العودة بجيوشه وأساطيله إلى الشام.

ويذكر الطبري محاصرة مسلمة بن عبد الملك للقسطنطينية على النحو التالي يقول: ((وجه سليمان بن عبد الملك أخاه مسلمة بن عبد الملك إلى القسطنطينية، وأمره أن يقيم عليها حتى يفتحها أو يأتيه، فشتا بها وصاف. لما دنا مسلمة من قسطنطينية أمر كل فارس أن يحمل على عجز فرسه مدّين من طعام حتى يأتي به القسطنطينية، فأمر بالطعام فألقي في ناحية مثل الجبال، ثم قال للمسلمين: لا تأكلوا منه شيئاً، أغيروا في أرضهم، وازرعوا. وعمل بيوتاً من خشب، فشتا فيها، وزرع الناس، ومكث ذلك الطعام في الصحراء لا يكنه شيء، والناس يأكلون مما أصابوا من الغارات، ثم أكلوا من الزرع، فأقام مسلمة بالقسطنطينية قاهراً لأهلها، معه وجه أهل الشام.

[1] المطهر بن طاهر المقدسي ـ المنسوب في تأليفه لأبي زيد أحمد بن سهل البلخي ـ ج٦ ـ ص٤٣ وما بعدها.

ولما ولي سليمان غزا الروم فنزل دابق، وقدم مسلمة فهابه الروم، فشخص إليون من أرمينيه، فقال لمسلمة: ابعث إلي رجلاً يكلمني، فبعث ابن هبيرة، فقال له ابن هبيرة: ما تعدون الأحمق فيكم؟ قال: الذي يملأ بطنه من كل شيء يجده، فقال له ابن هبيرة: إنّا أصحاب دين، ومن ديننا طاعة أمرائنا، قال: صدقت، كنا وأنتم نقاتل على الدين ونغضب له، فأما اليوم فإنا نقاتل على الغلبة والملك، نعطيك عن كل رأس ديناراً. فرجع ابن هبيرة إلى الروم من غده، وقال: أبى أن يرضى، أتيته وقد تغدى وملأ بطنه ونام، فانتبه، فلم يَدْرِ ما قلت. وقال البطارقة لإليون: إن صرفت عنا مسلمة ملكناك. فوثقوا له، فأتى مسلمة فقال: قد علم القوم أنك لا تصدقهم القتال، وأنك تطاولهم ما دام الطعام عندك، ولو أحرقت الطعام أعطوا بأيديهم، فأحرقوه، فقوى العدو، وضاق المسلمون حتى كادوا يهلكون، فكانوا على ذلك حتى مات سليمان. وكان سليمان بن عبد الملك لما نزل دابق[1] أعطى الله عهداً ألا ينصرف حتى يدخل الجيش الذي وجهه إلى الروم القسطنطينية.

وهلك ملك الروم، فأتاه إليون فأخبره، وضمن له أن يدفع إليه أرض الروم، فوجه معه مسلمة حتى نزل بها، وجمع كل طعام حولها وحصر أهلها، وأتاهم إليون فملكوه، فكتب إلى مسلمة يخبره بالذي كان، ويسأله أن يدخل من الطعام ما يعيش به القوم، ويصدقونه بأن أمره وأمر مسلمة واحد، وأنهم في أمان من السباء والخروج من بلادهم، وأن يأذن لهم ليلةً في حمل الطعام، وقد هيأ إليون السفن والرجال، فأذن له، فما بقى في تلك الحظائر إلا ما لا يذكر؛ حمل في ليلة، وأصبح إليون محارباً، وقد خدعه خديعة لو كان امرأةً لعيب بها، فلقى الجند ما لم يلق جيش حتى إن كان الرجل ليخاف أن يخرج من العسكر وحده، وأكلوا الدواب والجلود وأصول الشجر والورق، وكل شيء غير التراب، وسليمان مقيمٌ بدابق، ونزل الشتاء فلم يقدر يمدهم حتى هلك سليمان))[2].

---

[1] دابق: قرية قرب حلب من أعمال اعزاز بينها وبين حلب أربعة فراسخ - ياقوت الحموي - المعجم - ج - ص٤١٦.

[2] الطبري - تاريخ الرسل والملوك - ج٦ - أحداث سنة ٩٨ هـ - ص٥٣٠ - ٥٣١.

وفي هذه السنة سنة ٩٩ هـ وجه عمر بن عبد العزيز إلى مسلمة وهو بأرض الروم وأمره بالقفول منها بمن معه من المسلمين، ووجه إليه خيلاً عتاقاً وطعاماً كثيراً، وحث الناس على معونتهم، وكان الذي وجه إليه الخيل العتاق - فيما قيل - خمسمائة فرس[1].

تعد هذه الحملة نهاية الحملات الأساسية الموجهة نحو القسطنطينية وغيرها من الهجمات، رغم أن البحرية الأموية بقيت صاحبة الدور القائد والمسيطرة على الشواطئ الشرقية للمتوسط.

---

[1] الطبري - تاريخ الرسل والملوك - ج٦ - أحداث سنة ٩٩ هـ - ص٥٥٣.



فهرس المصادر والمراجع

١ - ابراهيم أحمد عدوي: الأمويين والبيزنطيين - البحر المتوسط بحيرة إسلامية - طبع مصر ١٩٦٣.

٢ - ابراهيم الحاوي: رثاء النفس - طبع بيروت - مؤسسة الرسان ١٩٨٨.

٣ - ابن الأثير: عز الدين أبي الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني - الكامل في التاريخ - طبع بيروت - دار صادر ١٩٦٥.

٤ - ابن الجوزي: أبي الفرج ابن الجوزي:
آ - أحكام النساء - عقائد - عبادات - معاملات - آداب - سيرة - طبع بيروت ١٩٨٥.
ب - صفوة الصفوة - طبع بيروت ١٩٧٩.
ج - زاد المعاد في هدى خير العباد - طبع مصر ١٩٣٨.

٥ - ابن الطقطقي: محمد بن علي بن طباطبا المعروف بابن الطقطقي - الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية - طبع بيروت - دار صادر ١٩٦٦.

٦ - ابن العديم: كمال الدين أبي القاسم عمر بن أحمد هبة الله بن العديم - بغية الطلب في تاريخ حلب طبع دمشق ١٩٨٨.

٧ - ابن الغراء: أبي بعلي بن الحسن الغراء الحنبلي - الأحكام السلطانية - تحقيق محمد حامد الفقي طبع بيروت ١٩٨٣.

٨ - ابن القفطي: جمال الدين أبي الحسن علي بن القاضي - أخبار العلماء بأخبار الحكماء - طبع بيروت بدون تاريخ.

٩ - ابن القيسراني: السماع - تحقيق أبو الفاء المراغي.

١٠ - ابن النديم: محمد بن إسحاق - الفهرست - طبع بيروت - دار المعرفة - بدون تاريخ.

١١ - ابن حبيب: المحبر - تحقيق ايلزة شتيتر - طبع بيروت - المكتب التجاري - نسخة مصورة عن الطبعة المصرية.

١٢ - ابن حوقل: أبو القاسم حوقل النصيبي - كتاب صورة الأرض - طبع بيروت - دار مكتبة الحياة - بدون تاريخ.

١٣ - ابن خردازبة: أبو القاسم عبيد الله بن عبد الله - المسالك والممالك - شرح وطبع جوجيه - تصوير بغداد - بدون تاريخ.

١٤ - ابن خلدون: عبد الرحمن بن محمد بن خلدون الحضرمي المغربي:

آ - المقدمة - طبع بيروت - بدون تاريخ.

ب - تاريخ ابن خلدون - كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر - طبع بيروت ١٩٧١.

١٥ - ابن خلكان: أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر بن خلكان - وفيات الأعيان وأنباء الزمان - تحقيق إحسان عباس - طبع بيروت - دار صادر ١٩٧٨.

١٦ - ابن رشيق: أبو علي الحسن بن علي بن رشيق القيرواني - العمدة في صناعة الشعر ونقده - تحقيق محمد يحيى الدين عبد الحميد - طبع القاهرة ١٩٣٤.

١٧ - ابن سيدة: أبي الحسن علي بن اسماعيل النحوي الأندلسي - المخصص - تحقيق لجنة إحياء التراث العربي - طبع بيروت - دار إحياء التراث.

١٨ - ابن سعد: محمد بن سعد - الطبقات الكبرى - طبع بيروت - دار صادر - بدون تاريخ.

١٩ - ابن شاكر الكتبي: فوات الوفيات - تحقيق إحسان عباس - طبع بيروت - دار صادر ١٩٧٣.

٢٠ - ابن شداد: عز الدين أبي عبد الله محمد بن علي بن ابراهيم بن شداد - الاعلاق الخطيرة في ذكر ملوك الشام والجزيرة - طبع دمشق ١٩٥٣.

٢١ - ابن قتيبة: أبي محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري.
أ - عيون الأخبار - نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب - بدون تاريخ.
ب - المعارف - تحقيق ثروت عكاشة - طبع مصر ١٩٩٢.
ج - الأخبار الطوال - تحقيق محمد طه الزين - طبعة بيروت - بدون تاريخ.
د - الامامة والسياسة - تحقيق محمد طه الزين - طبعة بيروت - بدون تاريخ.
هـ - أدب الكاتب - طبع بيروت ١٩٨٨.
و - الشعر والشعراء - تحقيق أحمد محمد شاكر - طبع بيروت ١٩٨٦.
ز - كتاب المعاني الكبير - طبع حيدر إياد الهند.

٢٢ - ابن كثير: الحافظ بن كثير عماد الدين اسماعيل بن عمر - البداية والنهاية - طبع بيروت - مكتبة المعارف ١٩٧٧.

٢٣ - ابن عبد ربه: أحمد بن محمد بن عبد ربه الأندلسي - العقد الفريد - تحقيق مفيد محمد قميحة طبع بيروت - دار الكتب العلمية - بدون تاريخ.

٢٤ - ابن عساكر: أبي القاسم علي بن الحسن بن هبة الله بن عبد الله الشافعي - طبع بيروت - دار الفكر ١٩٩٦.

٢٥ - ابن عبد البر: أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد عبد البر النمري.
أ - الدرر في اختصار المغازي والسير - تحقيق مصطفى ديب البغا - طبع دمشق ١٩٨٤.
ب - الاستيعاب في معرفة الأصحاب - تحقيق علي محمد معوض - عادل أحمد عبد الموجود طبع بيروت ١٩٩٥.

٢٦ - ابن عبد الحكم: أبي القاسم عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الحكم - فتوح مصر وأخبارها - يطلب من مكتبة المنتي بغداد - طبع مدينة ليدن ١٩٤٠.

٢٧ - ابن ماجه: محمد بن يزيد القتريني - سنن ابن ماجه - تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي - طبع دار إحياء التراث العربي (بيروت) ١٩٧٥.

٢٨ - ابن مسكوب: تجارب الأمم - تحقيق مجموعة - طبع مجمع اللغة العربية بدمشق.

٢٩ - ابن منظور: محمد بن مكرم بن علي بن أحمد ابن أبي القاسم - لسان العرب - طبع بيروت - دار لسان العرب.

٣٠ - ابن هشام: ابن محمد عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميرى - السيرة النبوية - طبع دار ابن كثير بيروت - بدون تاريخ.

٣١ - أبو صالح الألفي:
أ - الفن الإسلامي طبع دار المعارف عام ١٩٨٤,
ب - الموجز في تاريخ الفن العام - طبع القاهرة ١٩٧٧.

٣٢ - أبو عبيد القاسم ابن سلام: كتاب الأموال - طبع القاهرة - ١٣٥٣.

٣٣ - أبو يوسف يعقوب بن ابراهيم: كتاب الخراج - طبع بيروت ١٩٧٩.

٣٤ - أبي بكر محمد بن الحسن بن دريد الأسدي: كتاب الملاحن - تحقيق عبد الإله نبهان - طبع دمشق ١٩٩٢.

٣٥ - أبي زرعة الدمشقي: عبد الرحمن بن عمرو بن عبد الله بن صفوان الهندي - تاريخ أبي زرعة الدمشقي طبع بيروت.

٣٦ - أبي زكريا: يحيى بن علي التيريزي - شرح ديوان الحماسة - طبع عالم الكتب - بيروت - بدون تاريخ.

٣٧ - أبي طالب المقضى بن سلمه: كتاب الملاهي - تحقيق غطاس عبد الملك خشبة - طبع مصر ١٩٨٧.

٣٨ - أبي هلال العسكري: الأوائل - تحقيق محمد المصري - وليد قصاب - طبع دمشق ١٩٧٥.

٣٩ - إحسان هنيدي: الحياة العسكرية عند العرب - طبع دمشق ١٩٦٤.

٤٠ - أحمد الشايب: تاريخ الشعر السياسي - طبع مصر ١٩٨٣.

٤١ - أحمد بن اسماعيل: الوسم في الوشم - طبع مصر ١٣٢٣.

٤٢ ـ أحمد بن زيني دحلان ـ الفتوحات الاسلامية ـ طبع دمشق دار البشائر ١٩٩٧.

٤٣ ـ أحمد بن يحيى بن زيد الشيباني: (ثعلب) شرح ديوان زهير بن أبي سلمى ـ طبع مصر ١٩٦٤.

٤٤ ـ أحمد تيمور باشا: الموسيقا والغناء عند العرب ـ لجنة نشر المؤلفات التيمورية ـ طبع ١٩٦٣.

٤٥ ـ أحمد زكي صفوت:

أ ـ جمهرة خطب العرب ـ طبع بيروت (المكتبة العلمية).

ب ـ جمهرة رسائل العرب ـ طبع بيروت (المكتبة العلمية).

٤٦ ـ أحمد محمد الحوفي:

أ ـ المرأة في الشعر الجاهلي ـ طبع مصر.

ب ـ الغزل في العصر الجاهلي ـ طبع بيروت ١٩٦٠.

٤٧ ـ أحمد مطلوب: معجم الملابس في لسان العرب ـ طبع لبنان ١٩٩٥.

٤٨ ـ ادمر متنر: الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري ـ ترجمة أبو ريدة ـ طبع القاهرة ١٩٤٠.

٤٩ ـ ارشيبالد لويس: القوى البحرية والتجارية في حوض المتوسط ـ طبع القاهرة ١٩٥٠.

٥٠ ـ ارنست كوتل: الفن الاسلامي ـ ترجمة أحمد موسى ـ طبع دار صادر بيروت ١٩٦٦.

٥١ ـ الأخطل: (شاعر) غياث بن غوث بن طارقة بن عمرو بن سيحان ـ من بني تغلب بن وائل ـ ديوان الأخطل ـ ترجمه وقدم له مهدي بن ناصر الدين ـ طبع بيروت ١٩٨٦.

٥٢ ـ الأزدي: محمد بن عبد الله الازدي ـ فتوح الشام ـ تحقيق عبد المنعم عبد الله عامر ـ طبع بيروت مؤسسة سجل العرب.

٥٣ ـ الأزرقي: أبو الوليد عمر بن عبد الله بن أحمد ـ أخبار مكة ـ تحقيق رشدي ملحس ـ طبع بيروت ١٩٨٣.

٥٤ ـ الأصفهاني: أبي الفرج الأصفهاني ـ الأغاني ـ تحقيق عبد علي مهنا ـ سمير جابر وغيرهم ـ طبع بيروت ١٩٩٢.

٥٥ ـ الأعشى: (شاعر) أعشى بني قيس بن ثعلبة ـ صناجة العرب ـ ديوان الأعشى ـ شرح عمر فاروق الطباع طبع بيروت ـ دار القلم ـ بدون تاريخ.

٥٦ ـ الأعلم الشنتمري:
أ ـ أشعار الشعراء الستة الجاهليين ـ طبع بيروت ١٩٧٩.
ب ـ شرح حماسة أبي تمام ـ تحقيق علي حمودان ـ طبع دمشق ١٩٩٢.

٥٧ ـ البخاري: أبي عبد الله محمد بن اسماعيل البخاري.
أ ـ صحيح البخاري ـ تحقيق مصطفى ديب البغا ـ طبع دمشق ١٩٩٣.
ب ـ صحيح البخاري ـ طبع مصر ١٩٩٠.

٥٨ ـ البستاني: دائرة المعارف الاسلامية.

٥٩ ـ البلاذري: أبي العباس أحمد بن يحيى بن جابر.
أ ـ فتوح البلدان ـ تحقيق عبد الله أنيس الطباع ـ عمر أنيس الطباع ـ طبع بيروت ١٩٨٧.
ب ـ كتاب جمل من انساب الاشراف ـ تحقيق سهيل زكار ـ رياض دركزلي ـ طبع بيروت ١٩٩٦.

٦٠ ـ البغدادي: كتاب الأدوار في الموسيقا ـ طبع مصر ١٩٦٠.

٦١ ـ البغدادي: خزانة الأدب ـ تحقيق عبد السلام هارون ـ طبع القاهرة ١٩٦٧.

٦٢ ـ البيروني: أبو الريحان محمد بن أحمد ـ الآثار الباقية عن القرون الخالية.

٦٣ ـ التبريزي: شرح ديوان الحماسة ـ تحقيق محمد محي الدين ـ طبع دار السعادة ١٣٣١.

٦٤ ـ التوحيدي: أبو حيان علي بن محمد بن علي بن العباس الصوفي ـ الامتناع والمواسنة ـ طبع القاهرة ١٩٣٩.

٦٥ ـ الثعالبي: أبو منصور الثعالبي.
أ ـ فقه اللغة ـ طبع القاهرة ١٣١٨هـ .
ب ـ كتاب من غاب عنه المطرب ـ طبع دمشق ١٩٧٧.

٦٦ ـ الجاحظ: أبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ.
أ ـ البيان والتبيين ـ تحقيق عبد السلام هارون ـ طبع القاهرة ١٩٨٥.
ب ـ المحاسن والأضداد ـ تقديم محمد بدير ـ طبع بيروت ١٩٩١.

٦٧ ـ الجهشباري: محمد بن عبدوس ـ كتاب الوزراء والكتاب ـ تحقيق مصطفى السقا ـ ابراهيم الايباري عبد الحفيظ الشلبب ـ طبع القاهرة ١٩٣٨.

٦٨ ـ الجوالبقي: أبو منصور موهوب بن الخضر الجوالبقي ـ المعرب من الكلام الاعجمي على حروف المعجم ـ تحقيق أحمد محمد شاكر ـ طبع مصر ـ دار الكتب المصرية ١٩٦٩.

٦٩ ـ الحادرة: (شاعر) قطبة بن أوس بن محض من بني ثعلبة ـ ديوان شعر الحادرة ـ إملاء عبد الله محمد بن العباس اليزيدي عن الاصمعي ـ تحقيق ناصر الدين الأسدي ـ طبع بيروت ١٩٩١.

٧٠ ـ الحسن بن أحمد بن علي الكاتب: كمال أدب الغناء ـ تحقيق غطاس عبد الملك خشبه ـ طبع بيروت ١٩٧٥.

٧١ ـ الحسن بن عبد الملك: أثار الأول في تدبير الدول ـ مطبوع على هامش تاريخ الخلفاء للسيوطي.

٧٢ ـ الحصني: محمد أديب بن تقي الدين الحصني ـ منتخبات التاريخ لدمشق ـ طبع بيروت ١٩٧٩.

٧٣ ـ الحطيئة: (شاعر) جرول بن أوس من بني غطفان ـ ديوان الحطيئة ـ رواية ابن حبيب عن ابن الأعرابي وأبي عمرو الشيباني ـ شرح أبي سعيد السكري ـ طبع بيروت ـ دار صادر ـ بدون تاريخ.

٧٤ - الحلبي: علي بن برهان الدين الحلبي - السيرة الحلبية.

٧٥ - الحنبلي: أبو الفرج عبد الرحمن بن رجب - الاستخراج لاحكام الخراج - طبع بيروت ١٩٧٩.

٧٦ - الخضري: محمد الخضري - محاضرات تاريخ الأمم الاسلامية - الدول الأموية - طبع مصر ١٩٦٩.

٧٧ - الخنساء: (شاعرة) تماضر بنت عمرو بن الحرث بن الشريد.

٧٨ - ديوان الخنساء - تحقيق كرم البستاني - طبع بيروت - دار صادر - بدون تاريخ.

٧٩ - ديوان الخنساء - شرح تعلب - تحقيق أنور سويلم - طبع الأردن ١٩٨٨ز

٨٠ - الخوارزمي: أبو الريحان بن أحمد البيروني الخوارزمي - مفتاح العلوم - طبع بغداد.

٨١ - الذهبي: أبو عبد الله شمس الدين الذهبي.

٨٢ - تذكرة الحفاظ - تحقيق عبد الرحمن المعلمي - نسخة مصورة - بيروت ١٩٨٧.

٨٣ - الرازي: كتاب الجرح والتعديل - نسخة مصورة عن طبعة حيداباد (بيروت دار الأرقم — بدون تاريخ).

٨٤ - الزبير بن بكار: الأخبار الموفقيات - تحقيق سامي فكي العاني - طبع بغداد ١٩٧٢.

٨٥ - الزركلي: الاعلام - طبع بيروت - دار العلم للملايين ١٩٧٩.

٨٦ - الزمخشري: أساس البلاغة - تحقيق عبد الرحيم محمود - طبع دار المعرفة - بيروت ١٩٧٩.

٨٧ - السندي: شرح سنن ابن ماجه - طبع بيروت - بدون تاريخ.

٨٨ - السيوطي: الحافظ جلال الدين السيوطي - جامع الحديث.

٨٩ - الطبري: أبي جعفر محمد بن جرير الطبري.
أ - تاريخ الرسل والملوك - تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم - طبع دار المعارف بمصر ١٩٦٨.

ب ـ تاريخ الأمم والملوك ـ طبع بيروت ـ دار الكتب العلمية ـ بدون تاريخ.

٩٠ ـ العسقلاني: الإصابة في تمييز الصحابة ـ طبع بيروت ١٣٢٨.

٩١ ـ الفرزدق: (شاعر) همام بن غالب بن صعصعة من تميم ـ ديوان الفرزدق ـ شرح مجيد طراد ـ طبع بيروت ١٩٩٤.

٩٢ ـ القالي: أبي علي اسماعيل بن القاسم القالي البغدادي ـ الامالي ـ طبع بيروت ١٩٩٦.

٩٣ ـ القرطبي: محمد بن أحمد الانصاري القرطبي ـ تفسير القرطبي ـ طبع القاهرة ١٩٦٧.

٩٤ ـ القرماني: أبو العباس أحمد بن يوسف الدمشقي ـ أخبار الدول وآثار الأول في التاريخ ـ طبع بيروت عالم الكتب ـ بدون تاريخ.

٩٥ ـ القلقشندي: أبو العباس أحمد بن علي القلقشندي ـ بلوغ الأدب.

٩٦ ـ الكتاني: التراتيب الادارية ـ نظام الحكومة النبوية ـ طبع بيروت ـ بدون تاريخ.

٩٧ ـ الماوردي: علي بن محمد بن حبيب البصرى الماوردي ـ الأحكام السلطانية والولايات الدينية مراجعة محمد فهمي السرجاني ـ طبع مصر ـ المكتبة التوفيقية ـ بدون تاريخ.

٩٨ ـ المبرد: أبي العباس محمد بن يزيد المبرد.
أ ـ التعازي والمراثي ـ تحقيق محمد الديباجي ـ طبع بيروت ١٩٩٢.
ب ـ الكامل في اللغة ـ تحقيق محمد الدالي ـ طبع بيروت ١٩٩٣.

٩٩ ـ المثقب العبدي: (شاعر) عائذ بن محصن العبدي.
أ ـ شرح ديوان المثقب العبدي ـ تحقيق حسن حمد ـ طبع بيروت ـ دار صادر ١٩٩٦.
ب ـ ديوان المثقب ـ تحقيق حسن كامل الصيرفي ـ طبع سوريا ١٩٧١.

١٠٠ ـ المراكشي: عبد الواحد المراكشي ـ تلخيص أخبار المغرب ـ طبع مصر ١٩٤٩.

١٠١ ـ المسعودي: أبي الحسن علي الحسن بن علي المسعودي ـ مروج الذهب ـ تحقيق عبد الأمير مهنا طبع بيروت ١٩٩١.

١٠٢ ـ المطهر بن طاهر المقدسي: البدء والتاريخ ـ المنسوب تأليفه لأبي زيد أحمد بن سهل البلخي ـ طبع بيروت ـ دار صادر ـ بدون تاريخ.

١٠٣ ـ المقري: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب ـ طبع مصر ١٩٢٦.

١٠٤ ـ المقريزي: تقي الدين أحمد علي المقريزي ـ الخطط والآثار ـ طبع بالاوفست بيروت ـ بدون تاريخ.

١٠٥ ـ المتلمس: (شاعر) جرير بن عبد العزى ـ ديوان المتلمس ـ تحقيق حسن كامل الصيرفي ـ طبع القاهرة ١٩٧٠.

١٠٦ ـ النابغة الذبياني: (شاعر) زياد بن معاوية بن ضباب بن جابر بن يربوع من بني ذبيان ـ ديوان النابغة ـ تحقيق عمر فاروق الطباع ـ طبع بيروت ١٩٩٤.

١٠٧ ـ الندوة العلمية الثالثة لتاريخ العلوم عند العرب ـ اسهامات العرب في علم المياه والري ـ طبع الكويت ١٩٨٨.

١٠٨ ـ الواقدي: أبو عبد الله محمد بن عمر الواقدي ـ كتاب المغازي ـ تحقيق مارسدن جونس ـ طبع بيروت (مؤسسة الاعلمي) ـ بدون تاريخ.

١٠٩ ـ اليعقوبي: أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر بن وهب بن واضح الكاتب العباسي ـ تاريخ اليعقوبي طبع بيروت ١٩٦٠.

١١٠ ـ النويري: شهاب الدين أحمد ـ الارب في فنون الأدب ـ نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب.

١١١ ـ الهرثمي: مختصر سياسة الحروب ـ تحقيق عبد الرؤوف عون ـ محمد مصطفى زيادة ـ طبع مصر.

١١٢ ـ امرؤ القيس: (شاعر) امرؤ القيس بن حجر بن الحارث بن عمرو بن حجر آكل المرار ـ ديوان امرؤ القيس ـ تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم ـ دار المعارف بمصر ١٩٩٠.

١١٣ ـ اميل ناصيف: أروع ما قيل في الرثاء ـ طبع بيروت ـ دار الجيل ـ بدون تاريخ.

١١٤ ـ اندريه واطسون: الابداع الزراعي في بدايات العالم الاسلامي ـ ترجمة أحمد الأشقر ـ طبع جامعة حلب ـ معهد التراث العلمي العربي ١٩٨٥.

١١٥ ـ انستاس متري الكرملي: النقود العربية ـ علم النميات ـ بيروت ١٩٣٩.

١١٦ ـ أنور الرفاعي:

أ ـ النظم الاجتماعية ـ طبع دمشق ١٩٧٣.

ب ـ تاريخ العرب والاسلام من العصور القديمة حتى العهد العثماني ـ طبع دمشق ١٩٧١.

١١٧ ـ أوس بن حجر: (شاعر) ديوان أوس بن حجر ـ تحقيق محمد يوسف نجم ـ طبع بيروت ـ دار صادر ١٩٧٩.

١١٨ ـ آية الله مرتضى المطهري: نظام حقوق المرأة ـ طبع طهران ١٩٩٥.

١١٩ ـ بروكلمان: تاريخ الشعوب العربية ـ ترجمة نبيه أمين فارس ـ طبع بيروت ١٩٤٩.

١٢٠ ـ بشر بن أبي حازم الأسدي: ديوان بشر ـ شرح مجيد طراد ـ طبع بيروت ١٩٩٤.

١٢١ ـ ثروت عكاشة: الفن المصري ـ طبع دار المعارف بمصر ١٩٧٢.

١٢٢ ـ ثريا عبد الفتاح ملحس: حزب الخوارج في أدب العصر الأموي ـ طبع دمشق ١٩٨٩.

١٢٣ ـ جرجي زيدان:

أ ـ تاريخ اداب اللغة العربية ـ تعليق شوقي ضيف ـ طبع بيروت ـ دار الهلال.

ب ـ تاريخ التمدن الاسلامي ـ تقديم حسن مؤنس ـ مجهول الطباعة والتاريخ.

١٢٤ ـ جرير: (شاعر) جرير بن عطية الخطفي ـ ديوان جرير ـ طبع بيروت ـ دار صادر ـ بدون تاريخ.

١٢٥ ـ جلال الدين السيوطي: تاريخ الخلفاء ـ تحقيق ابراهيم صالح ـ طبع دمشق ١٩٩٧.

١٢٦ ـ جلال شوقي : العلوم العقلية في المنظومة العربية ـ طبع الكويت ١٩٩٠.

١٢٧ ـ جلال صادق العظم: الحب العذري.

١٢٨ ـ جمال جودة: الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية للموالي في صدر الإسلام ـ طبع عمان الأردن ١٩٨٩.

١٢٩ ـ جميل بثينة: (شاعر) جميل بن عبد الله بن معمر بن الحارث بن ظبيان ـ ديوان جميل بثينة طبع دار القلم ـ بدون تاريخ.

١٣٠ ـ جواد كاظم: القيادة الاسلامية ـ طبع بيروت ١٤٠١.

١٣١ ـ جورج لوخران: تاريخ التجارة ـ ترجمة هاشم الحسيني ـ طبع بيروت ـ دار مكتبة الحياة ـ بدون تاريخ.

١٣٢ ـ حاجي خليفة: مصطفى بن عبد الله ـ كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون ـ استنبول ١٩٤١.

١٣٣ ـ حسان بن ثابت: (شاعر) ديوان حسان بن ثابت الانصاري ـ طبع بيروت ـ دار صادر ـ بدون تاريخ.

١٣٤ ـ حسان علي الحلاق: تطور النقود في العصر الأموي ـ طبع بيروت ١٩٧٨.

١٣٥ ـ حسن ابراهيم حسن ـ تاريخ الاسلام السياسي والثقافي والاجتماعي ـ طبع مصر ١٩٧٢.

١٣٦ ـ حسن حمامي: الأزياء الشعبية وتقاليدها في سوريا ـ طبع دمشق ١٩٧١.

١٣٧ ـ حسن محمود الشافعي: العملة وتاريخها ـ طبع مصر ١٩٨٠.

١٣٨ ـ حسين جمعة: الرثاء في الجاهلية والاسلام ـ طبع دمشق.

١٣٩ ـ حسين عبد الحميد: الحياة العسكرية لقائد البشرية ـ طبع بيروت ١٩٦١.

١٤٠ ـ حميد بن ثور الهلالي (شاعر) ديوان حميد بن ثور الهلالي ـ حققه عبد العزيز الميمني ـ طبع ١٩٦٥.

١٤١ - خالد جاسم الجنابي: *تنظيم الجيش العربي الاسلامي في العصر الأموي* ـ طبع العراق ١٩٨٦.

١٤٢ - خليل داوود الزرو: الحياة العلمية في بلاد الشام في القرنين الأول والثاني بيروت ١٩٧١.

١٤٣ - خليفة بن خياط: (أبو عمر الملقب شباب) كتاب التاريخ ـ تحقيق أكرم ضياء العمري ـ طبع بغداد ١٩٦٧.

١٤٤ - دائرة المعارف الاسلامية ـ ترجمة محمد الفندي وغيره.

١٤٥ - دريد بن الصمة: (شاعر) ديوان دريد بن الصمة ـ تحقيق محمد خير البقاعي ـ طبع دمشق ١٩٨٠.

١٤٦ - دول بورت: بلاد ما بين النهرين ـ حضارة بابل واشور ـ ترجمة مارون خوري.

١٤٧ - ذي الرمة: (شاعر) غيلان بن عقبة العدوي ـ شرح ديوان ذي الرمة ـ تقديم سيف الدين الكاتب ـ أحمد عصام الكاتب ـ طبع بيروت ـ دار مكتبة الحياة ـ بدون تاريخ.

١٤٨ - زهير بن أبي سلمى: (شاعر) زهير بن أبي سلمى ـ ربيعة بن رباح المزني ـ ديوان زهير بن أبي سلمى ـ طبع دار صادر ـ بيروت ـ بدون تاريخ.

١٤٩ - زهير حميدان: أعلام الحضارة العربية الإسلامية في العلوم الأساسية والتطبيقية ـ طبع دمشق ١٩٩٥.

١٥٠ - سحيم: (شاعر) عبد بني الحماس ـ ديوان سحيم ـ تحقيق عبد العزيز الميمني ـ الدار القومية للطباعة طبع القاهرة ١٩٦٥.

١٥١ - سعاد ماهر:

أ ـ الفنون الإسلامية.

ب ـ البحرية في مصر الإسلامية ـ طبع مصر ١٩٦٧.

١٥٢ - سعيد عبد الحميد مرسي: الفرد والمجتمع في الإسلام ـ طبع مصر ١٩٨٩.

١٥٣ - سمير شما: النقود الإسلامية التي ضربت بفلسطين - مطبعة الجمهورية ١٩٨٠.

١٥٤ - سمير شيخاني: أشهر المغنيين عند العرب ونوادرهم - طبع بيروت ١٩٩٢.

١٥٥ - سيد أمير علي: مختصر تاريخ العرب - ترجمة رياض رأفت - طبع القاهرة ١٩٣٨.

١٥٦ - شوقي ضيف:

أ - العصر الجاهلي - طبع دار المعارف بمصر ١٩٧٦.

ب - العصر الإسلامي - طبع دار المعارف بمصر ١٩٧٦.

ج - التطور والتجديد في العصر الأموي - طبع دار المعارف بمصر ١٩٧٧.

١٥٧ - شاكر مصطفى:

أ - المدن في الإسلام حتى العصر المملوكي - طبع دمشق ١٩٧٧.

ب - التاريخ العربي والمؤرخون - دراسة في تطور علم التاريخ ومعرفة رجال في الإسلام - طبع بيروت ١٩٨٣.

١٥٨ - شكري فيصل:

أ - المجتمعات الإسلامية في القرن الأول - نشأتها مقوماتها تطورها اللغوي والأدبي - طبع بيروت ١٩٨١.

ب - تطور الغزل بين الجاهلية والإسلام - طبع جامعة دمشق ١٩٨٩.

١٥٩ - صاعد الأندلس: طبقات الأمم.

١٦٠ - صفاء حافظ عبد الفتاح: ضياع بني أمية - طبع القاهرة ١٩٩١.

١٦١ - صلاح الدين الصفدي - رسالة في عالم الموسيقى - تحقيق عبد المجيد دبان - غطاس عبد الملك خشبة - طبع مصر ١٩٩١.

١٦٢ - صلاح الدين الهادي: الأديب في عصر النبة والرشدي - طبع القاهرة ١٩٨٧.

١٦٣ - طرفة بن العبد: (شاعر) ديوان طرفة بن العبد - طبع بيروت - دار صادر - بدون تاريخ.

١٦٤ - ظافر القاسمي: الحياة الاجتماعية عند العرب - طبع بيروت ١٩٨٨.

١٦٥ ـ عارف عبد الغني: نظم الاستخبارات عند العرب المسلمين ـ طبع بيروت ١٩٩١.

١٦٦ ـ عامر بن الطفيل: (شاعر) ديوان عامر بن الطفيل ـ رواية أبي بكر محمد بن القاسم الأنباري عن العباس أحمد بن يحيى (ثعلب) ـ طبع بيروت ـ دار صادر ١٩٧٩.

١٦٧ ـ عبد الأمير المؤمن: التراث الفلكي عند العرب المسلمين وأثره في علم الفلك الحديث ـ طبع حلب ١٩٩٢.

١٦٨ ـ عبد الأمير عبد حسين دكن: الخلافة الأموية ـ طبع بيروت ١٩٧٣.

١٦٩ ـ عبد الأمير المهنا:

أ ـ معجم النساء الشاعرات في الجاهلية والإسلام ـ طبع بيروت ١٩٩٠.

ب ـ أخبار النساء في كتاب الأغاني ـ طبع بيروت ١٩٩٣.

١٧٠ ـ عبد الحسيب طه حميدة: أدب الشيعة إلى نهاية القرن الثاني الهجري ـ طبع مصر ١٩٦٨.

١٧١ ـ عبد الرحمن صابوني: نظام الأسرة وحل مشكلاتها في ضوء الإسلام ـ طبع دمشق.

١٧٢ ـ عبد الرحمن عيسى: الخطابة الدينية في الدعوة الإسلامية ـ طبع دمشق ١٩٩٥.

١٧٣ ـ عبد الرحمن فهمي: صنع السكة في فجر الإسلام ـ طبع مصر ١٩٧٩.

١٧٤ ـ عبد الرحيم ابراهيم أحمد ـ العمارة وزخارفها ـ طبع مصر ١٩٨٩.

١٧٥ ـ عبد الرؤوف عون: الفن الحربي في صدر الإسلام ـ طبع مصر ١٩٦١.

١٧٦ ـ عبد السميع المصري: التجارة في الإسلام ـ طبع مصر ١٩٨٦.

١٧٧ ـ عبد القادر بدران: تهذيب تاريخ مدينة دمشق ـ طبع بيروت ١٩٧٩.

١٧٨ ـ عبد القادر فياض حرفوش: فصيحات العرب وبليغاتهم في الجاهلية ـ طبع دمشق ١٩٩٤.

١٧٩ - عبد الله بن الأبرص: (شاعر) ديوان عبد الله بن الأبرص - شرح عمر فاروق الطباع - طبع دار القلم بيروت - بدون تاريخ.

١٨٠ - عبد الله بن قيس الرقيات: (شاعر) ديوان عبد الله بن قيس الرقيات - تحقيق محمد يوسف نجم - طبع بيروت - بدون تاريخ.

١٨١ - عبد الله عبد الرزاق مسعود السعيد: المستشفيات الإسلامية من العصر النبوي إلى العصر العثماني - طبع الأردن ١٩٨٧.

١٨٢ - عبد الله علي السلامة المحمد الناصرة: الاستخبارات العسكرية في الإسلام - طبع بيروت ١٩٩١.

١٨٣ - عبد المجيد أبو تراب: أسرار المهن تاريخاً "وحاضراً" - طبع دمشق ١٩٨٧.

١٨٤ - عبد المعين الملوحي: مراثي الاباء والأمهات للبنين والبنات من الجاهلية إلى آخر القرن الثامن - طبع بيروت - ١٩٩٦.

١٨٥ - عبد المنعم ماجد: التاريخ السياسي للدولة العربية. عصر الخلفاء الأمويين - طبع مصر ١٩٨٢.

١٨٦ - عبد الهادي عباس: المراة والأسرة في حضارة الشعوب - طبع دمشق ١٩٨٧.

١٨٧ - عروة بن الورد والسموأل: ديوان عروة بن الورد - طبع بيروت (دار صادر) - بدون تاريخ.

١٨٨ - عز الدين اسماعيل - الفن والانسان - طبع مصر (دار غربب) ١٩٧٤.

١٨٩ - عزيز الشوان - الموسيقى تعبير نعمي - رومنطقي - طبع مصر ١٩٨٦.

١٩٠ - عفيف بهنسي: الفن الاسلامي - طبع دمشق ١٩٦٨.

١٩١ - علاء الدين علي المتقي بن حسام الدين الهندي البرهان نوري: سنن كنز العمال - في سنن الأقوال والأفعال - طبع بيروت ١٩٧٩.

١٩٢ ـ علقمة: (شاعر) علقمة بن عبدة بن النعمان ـ ديوان علقمة ـ شرح سعيد شبيب مكـارم ـ طبع بيروت دار صادر ١٩٩٦.

١٩٣ ـ علي بن أبي طالب: نهج البلاغة ـ تحقيق صبحي الصالح ـ طبع إيران ١٤١٢.

١٩٤ ـ علي أبو عساف: الممالك القديمة في سورية ـ طبع دمشق ١٩٨٨.

١٩٥ ـ علي العسيلي العاملي: الغناء في الإسلام ـ طبع بيروت ١٩٨٤.

١٩٦ ـ علي عبد الله: إسهام علماء العرب المسلمين في الكيمياء.

١٩٧ ـ علية عبد السميع الجنزوري: الثغور البرية الإسلامية على حدود الدولة البيزنطية ـ طبع مصر ١٩٧٩.

١٩٨ ـ عمر بن أبي ربيعة: (شاعر) ديوان عمر بن أبي ربيعة ـ تقديم أكرم أحمد الطباع ـ طبع بيروت ـ دار القلم ـ بدون تاريخ.

١٩٩ ـ عمر فاروق الطباع: مواقف في الأدب الأموي ـ طبع بيروت ١٩٩١.

٢٠٠ ـ عمر فروخ: عبقرية العرب في العلم والفلسفة ـ طبع بيروت ـ ١٩٨٥.

٢٠١ ـ عمرو بن قميئة: (شاعر) عمرو بن قميئة بن ذريح ـ بني بكر في وائل ـ ديوان عمرو بن قميئة ـ شرح خليل ابراهيم العطية ـ طبع بيروت ـ دار صادر ١٩٩٤.

٢٠٢ ـ عنترة بن شداد: (شاعر) بن قراد العبسي ـ ديوان عنترة بن شداد ـ طبع بيروت ـ دار صادر ـ بدون تاريخ.

٢٠٣ ـ عواد مجير الاعظمي: الزراعة والاصلاح الزراعي ـ طبع بغداد ١٩٧٨.

٢٠٤ ـ عالم المعرفة: (تراث الاسلام) الكويت.

٢٠٥ ـ غازي طليمات: عرفان الأشقر ـ الأدب الجاهلي ـ طبع سورية ١٩٩٢.

٢٠٦ ـ غوستان لويون: حضارة العرب ترجمة ـ طبع القاهرة ١٩٦٩.

٢٠٧ ـ فاروق عبد السلام: الشرطة ومهامها في الدولة الإسلامية ـ طبع مصر ١٩٨٧.

٢٠٨ ـ فاضل أحمد الطائي: أعلام العرب في الكيمياء ـ طبع مصر ١٩٦٨.

٢٠٩ ـ فتحي عثمان: الحدود الاسلامية البيزنطية بين الاحتكاك الحربي والاتصال الحضاري ـ طبع القاهرة ١٩٦٩.

٢١٠ ـ فلهاوزن: الدول العربية وسقوطها ـ ترجمة عبد الهادي غانم ـ طبع مصر ١٩٥٨.

٢١١ ـ فون كريم: الحضارة الاسلامية ـ ترجمة مصطفى طه بدر ـ طبع دار الفكر العربي ١٩٤٧.

٢١٢ ـ فيليب حتى: ادوار جرجي + جبرائيل جبور
أ ـ تاريخ العرب (مطول) طبع بيروت ١٩٦٥.

٢١٣ ـ فيليب حتى:
أ ـ تاريخ لبنان منذ أقدم العصور التاريخية إلى عصرنا الحاضر ـ طبع بيروت ١٩٧٦.
ب ـ تاريخ سورية لبنان وفلسطين ـ طبع بيروت.

٢١٤ ـ قدامة بن جعفر: نبذة من كتاب الخراج ملحق بالمسالك لابن خردازية.

٢١٥ ـ قيس بن الخطيم: (شاعر) أبو زيد قيس بن الخطيم (ثابت) بن عدي بن مالك بن حارثة ـ ديوان قيس بن الخطيم ـ تحقيق ناصر الدين الأسدي ـ طبع بيروت ـ دار صادر ـ بدون تاريخ.

٢١٦ ـ كامل حسين الغزي: نهر الذهب في تاريخ حلب ـ طبع حلب ١٩٢٥.

٢١٧ ـ كعب بن زهير: (شاعر) ابن أبي سلمى.
أ ـ ديوان كعب بن زهير ـ تحقيق محمد يوسف نجم ـ طبع بيروت ـ دار صادر ١٩٩٥.
ب ـ ديوان كعب بن زهير ـ صنعه أبي سعيد الحسن بن الحسين السكري ـ قدمه حنا نصر الحتي ـ طبع بيروت ١٩٩٤.

٢١٨ ـ كمال السامرائي: مختصر تاريخ الطب ـ طبع بغداد ١٩٨٤.

٢١٩ ـ كمال النجمي: يوميات المغنين والجواري ـ طبع بيروت ١٩٧٧.

٢٢٠ ـ لبيد بن ربيعة العاري: (شاعر) ديوان لبيد ـ طبع بيروت ـ دار صادر ـ بدون تاريخ.

٢٢١ ـ لويس شيخو:

أ ـ شعراء النصرانية قبل الإسلام ـ طبع بيروت ١٩٩١.

ب ـ شعراء النصرانية بعد الإسلام ـ طبع بيروت ١٩٩١.

٢٢٢ ـ ليلى صباغ: المراة في التاريخ العربي ـ طبع دمشق ١٩٧٥.

٢٢٣ ـ مجلة التراث العراقية.

٢٢٤ ـ مجلة الدراسات التاريخية ـ جامعة دمشق.

٢٢٥ ـ مجنون ليلى: (شاعر) قيس بن الملوح العاوي ـ ديوان مجنون بني عامر ـ تحقيق عبد الستار أحمد فراج ـ طبع مصر ـ بدون تاريخ.

٢٢٦ ـ محمد أبو زهرة:

أ ـ العلاقات الدولية في الإسلام ـ طبع مصر ١٩٦٤.

ب ـ تنظيم الإسلام للمجتمع ـ طبع مصر ١٩٦٥.

٢٢٧ ـ محمد باقر الحسين: تطور النقود العربية.

٢٢٨ ـ محمد بن أحمد بن اياس: بدائع الزهور في وقائع الدهور ـ طبع سورية ـ المطبعة اليوسفية بحلب ـ بدون تاريخ.

٢٢٩ ـ محمد بن العباس اليزيدي: المراثي ـ تحقيق محمد نبيل طريفي ـ طبع دمشق ١٩٩١.

٢٣٠ ـ محمد حمامي: فن نقش الحناء عند العرب ـ طبع بيروت ـ بدون تاريخ.

٢٣١ ـ محمد رجائي: صفحات من تاريخ الطب ـ طبع مصر ١٩٨٨.

٢٣٢ ـ محمد ضاهر وتر: فن الحرب الإسلامي في عهد الرسول ـ طبع دمشق ـ بدون تاريخ.

٢٣٣ ـ محمد ضيف الله بطانيه: الحياة الاجتماعية في صدر الاسلام ـ طبع السعودية ١٩٨٨.

٢٣٤ ـ محمد عبد العزيز مرزوق: قصة الفن الإسلامي ـ طبع مصر ١٩٨٠.

٢٣٥ ـ محمد عبد المنعم خفاجة: صلاح الدين محمد عبد التواب ـ الحياة الأدبية في عصر الجاهلية والإسلام طبع مصر ـ بدون تاريخ.

٢٣٦ ـ محمد عبد المنعم خفاجه:

أ ـ الحياة الأدبية بعد ظهور الإسلام.

ب ـ الأدب العربي وتاريخه في العصر الأموي والعباسي ـ طبع بيروت ١٩٩٠.

٢٣٧ ـ محمد كامل عليوي: الرياضة البدنية عند العرب ـ طبع مصر ـ بدون تاريخ.

٢٣٨ ـ محمد كردعلي: خطط الشام ـ طبع دمشق ١٩٦٩.

٢٣٩ ـ محمد كشاش: الرجز في العصر الأموي ـ طبع بيروت ١٩٩٥.

٢٤٠ ـ محمد محمد حسين:

أ ـ الهجاء والهجاؤون في الجاهلية ـ طبع بيروت ١٩٧٠.

ب ـ الهجاء والهجاؤون في الإسلام ـ طبع بيروت ١٩٦٩.

٢٤١ ـ محمد محمود الاستنبولي: تحفة العروس.

٢٤٢ ـ محمد محي الدين عبد الحميد: الأحوال الشخصية في الشريعة الاسلامية.

٢٤٣ ـ محمد مرتضى الزبيدي: تاج العروس ـ طبع بيروت ـ دار صادر ـ نسخة مصورة ١٠٣٦هـ.

٢٤٤ ـ محمد مصطفى هوارة: الشعر العربي في القرن الأول الهجري ـ طبع بيروت ١٩٨٨.

٢٤٥ ـ محمد فؤاد عبد الباقي: المعجم المفهرس لالفاظ القرآن الكريم ـ طبع القاهرة ـ ١٩٨٦.

٢٤٦ ـ محمود أحمد سليمان عواد: الجيش والقتال في صدر الإسلام ـ الأردن ١٩٨٧.

٢٤٧ ـ محمود أحمد الحفني ـ علم الآلات الموسيقية ـ طبع الهيئة المصرية عام ١٩٨٧.

٢٤٨ ـ محمود دياب: الطب والأطباء في مختلف العهود الإسلامية ـ طبع مصر ١٩٧٠.

٢٤٩ ـ محمود شيت خطاب:

أ ـ قادة فتح الشام ومصر ـ طبع بيروت ـ دار الفكر.

ب ـ العسكرية العربية الإسلامية ـ طبع بيروت ١٩٨٣.

٢٥٠ ـ محمود فردوس العظم: ابراهيم سيف الدين التركماني ـ الشهد المذاب فيما لذ وطاب ـ طبع دمشق بدون تاريخ.

٢٥١ ـ محمود وصفي محمد: دراسات في الفنون والعمارة العربية الإسلامية ـ طبع القاهرة ١٩٨٠.

٢٥٢ ـ مختار سالم: الطب الاسلامي بين العقيدة والإبداع ـ طبع بيروت ١٩٨٨.

٢٥٣ ـ مسلم: مختصر صحيح مسلم ـ تحقيق البغا ـ طبع دمشق ١٤٧٦.

٢٥٤ ـ منير العجلاني: عبقرية الإسلام أصول الحكم ـ طبع دمشق ـ بدون تاريخ.

٢٥٥ ـ موريس شريك: الرياضيات في الحضارة الإسلامية ـ طبع لبنان ١٩٨٨.

٢٥٦ ـ موريس غ ـ ديموبين: النظم الإسلامية ـ ترجمة صالح الشماع ـ فيصل السامر ـ طبع بغداد ١٩٥٢.

٢٥٧ ـ مولف مجهول : كتاب الشجرة ذات الأكمام الحادبة لأصول الأنغام ـ تحقيق غطاس عبد الملك خشبة ـ ايزييس فتح الله ـ طبع مصر ١٩٨٣.

٢٥٨ ـ مولف مجهول: خزانة السلاح ـ طبع مصر ١٩٧٨.

٢٥٩ ـ نايف معروف: الأدب الإسلامي في عصر النبوة وخلافة الراشدين ـ طبع بيروت ١٩٩٠.

٢٦٠ ـ نجدة خماش: الإدارة في العصر الأموي ـ طبع بيروت ١٩٨.

٢٦١ ـ نصر الدين فارس: الوصف عند امرؤ القيس ـ طبع سورية ١٩٨٨.

٢٦٢ - نعيم زكي فهمي: طرق التجارة الدولية ومحطاتها بين الشرق والغرب آواخر العصور الوسطى طبع مصر ١٩٧٣.

٢٦٣ - هارتمان: دائرة المعارف الإسلامية - مصر ١٩٣٣.

٢٦٤ - هشام قبلان: آداب الزواج في الإسلام - طبع بيروت ١٩٨٣.

٢٦٥ - هنري جورج فارمر: تاريخ الموسيقى العربية ترجمة جرجيس فتح الله - طبع بيروت - دار حكمة الحياة.

٢٦٦ - وديع بشور: سورية وقصة الحضارة - طبع لبنان ١٩٨٩.

٢٦٧ - ويل ديورانت: قصة الحضارة - ترجمة زكي نجيب - محمود غبرة - طبع القاهرة ١٩٧٣.

٢٦٨ - وفيق الدقدوقي: الجندية في عهد الدولة الأموية - طبع لبنان ١٩٨٥.

٢٦٩ - ياقوت الحموي: شهاب الدين أبي عبيد الله ياقوت بن عبد الله الحموي الرومي البغدادي - معجم البلدان - طبع بيروت (دار صادر).

٢٧٠ - يحيى بن آدم القرشي: كتاب الخراج - تحقيق أحمد محمد شاكر - طبع القاهرة - مكتبة دار التراث بدون تاريخ.

٢٧١ - يحيى الشامي:
أ - أروع ما قيل في المدح - طبع بيروت ١٩٩٢.
ب - أروع ما قيل في الرثاء - طبع بيروع ١٩٩٢.

٢٧٢ - ياسين سويد: الفن العسكري الإسلامي أصوله ومصادره - طبع بيروت ١٩٨٨.

٢٧٣ - يزيد بن مفرغ الحميري: (شاعر) ديوان يزيد بن مفرغ الحميري - طبع بيروت ١٩٧٥.

فهرس المحتويات

الباب الأول
الحياة الاجتماعية

الفصل الأول
الزواج

الفصل الثاني
الطعام

الفصل الثالث

الغناء

الفصل الرابع

اللباس

الفصل الخامس

الفن الإسلامي

الباب الثاني
الحياة الاقتصادية

الفصل الأول

حالة بلاد الشام الاقتصادية

الفصل الثاني

الزراعة

الفصل الثالث

التجارة

الفصل الرابع

الصناعة

الباب الثالث
الحياة الأدبية والعلمية
الفصل الأول
الشعر

الفصل الثاني
النثر

الفصل الثالث
العلوم الإنسانية

الفصل الرابع
العلوم الأساسية

الباب الرابع
التعبئة العامة

الفصل الأول

التعبئة العسكرية

الفصل الثاني

ممارسة التعبئة

الفصل الثالث

الجيش

الفصل الرابع
تنظيم القوات استراتيجياً وتكتيكياً

الفصل الخامس

الوحدات الملحقة بالجيش

الفصل السادس

الأسلحة ومعدات القتال

الفصل السابع

الثغور

الفصل الثامن

البحرية

رقم التداول /٤٢٦٤٥/

١٩٩٨/٩/٩





كان مبعث الرسول الكريم (ص) إنقاذاً للعرب والعروبة لغة وأمة، فكان أول ما دعا إليه هو الوحدة، وحدة الجماعة، والألفة بينها، إلى وحدة العقيدة التي أرساها وبلـّغها بإتقان، وأكملها كما جاء من رب العالمين، ولتأكيد هذه الوحدة، دعا الرسول (ص) كونه قائد هذه الأمة ــ إلى الإخاء والمحبة، ونبذ الكراهية والحقد والضغائن ففي الإخاء صفاء للنفس، وفي الإخاء التعاون بما يخدم الجميع، وفي الإخاء نبذ الفرقة والتباغض، وفي الإخاء بناء مجتمع يقوم على المثل العليا، وفي الإخاء رفعة المجتمع وسموه نحو المجد في العلاقات الإنسانية.

كان للإخاء الذي اوجده الرسول (ص) ـ من الناحية الاجتماعية ــ أكبر الأثر في تطور المجتمع العربي. فعمل هذا المفهوم على الوحدة والألفة الاجتماعية. عمل على إهدار النظم الاجتماعية الفاسدة التي كانت سائدة قبل ذلك. وفي خطبة الوداع ما يؤكد ذلك، حيث صفت القلوب واطمأنت. في هذا المفهوم وجدت المساواة والتآلف والتقوى ووحدة الكلمة وفي هذا المفهوم، نبذ للتشتت والتفرق. نبذ للعنصرية والتعصب، وأصبح الإخاء في العقيدة أولاً وفي الدم ثانياً. وقد تجلى ذلك من خلال الغزوات والوقائع التي خاضها العرب في عهد الرسول (ص).

تجلى الإخاء في المساواة بين العرب والمسلمين، الذين اعتنقوا الدين بعقدية راسخة ثابتة متقيدين بتعاليم الرسول (ص)، وما أوحي إليه من ربه، حيث أصبح الأفراد متساوين في الحقوق والواجبات لا فرق بينهم إلا بالتقوى. وقد تجلى هذا الإخاء في نبذ العصبية بكل ابعادها القديمة، وحولها إلى إيمان بالمجتمع الجديد القائم على العدالة الاجتماعية. ذلك المجتمع الذي يحظى كل فرد فيه بكامل حقوقه.

إذن تكوّن المجتمع العربي الإسلامي على أسس جديدة، قوامها الفرد. فالفرد في هذا المجتمع ولد حراً، له كافة الحقوق وعليه الواجبات، الحقوق والواجبات التي تعود عليه كفرد، وعلى المجتمع، بالخير والبناء والتطور، وكيف لا يكون الفرد في خدمة المجتمع الذي هو أحد أبنائه، وقد أصبح له عقيدة سياسة، تسمو به وبالمجتمع إلى الأفضل. فهذه العقيدة حررته من كل سلبيات الماضي، حررته من الخوف ومن الجهل. وهما آفتان اجتماعيتان، يجب على أي مجتمع ان يتخلص منهما. وهذا ما حدث للمجتمع الإسلامي.

دمشق ١٩٩٨